أوموت أوزكيريملي

نظريات القومية

مقدمة نقدية

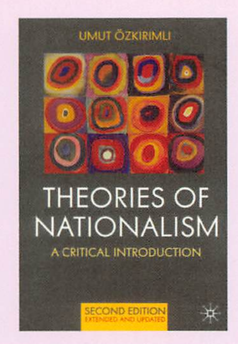


ترجمة

معين الإمام



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES



من المؤكد أن التطورات البارزة التي اجتاحت العالم مؤخرًا ـ بدءًا بالحروب والتطهير العرقي في البلقان والمذابح الجماعية في وسط أفريقيا، مرورًا بالنزاعات الأهلية في جنوب ووسط آسيا، وبتعاظم الخوف الرهابي من الأجانب في أوروبا، وانتهاءً بالتطورات الأخيرة في العالم العربي ـ أدت كلها إلى تحليل وإعادة تحليل النظرية القومية وتطبيقاتها في سبيل غايات جديدة.

يعرض هذا الكتاب دليلًا مرشدًا ومؤثرًا ومثيرًا لأهم المناقشات والمجادلات المعاصرة عن الأمّة والقومية. ويؤكد أن ما يُحدّد الحركات والأيديولوجيات والسياسات المختلفة هو أنها تستخدم كلها الإطار المرجعي نفسه. ويقترح الكتاب أيضًا أن أفضل طريقة لفهم القومية هي المقاربة «البنائية الاجتماعية»، بوصفها، في آن معًا، ظاهرة سياسية وثقافية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالحياة اليومية المعيشة، وتتصل اتصالًا راسخًا ومستمرًا ومباشرًا بواقع العالم المعاصر.

بهذا المعنى، يُحلل المؤلف المذاهب والمقاربات التي طرحها أبرز المنظرين القوميين منذ القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن الحادي والعشرين. ويخلص إلى أن السمة المشتركة للقومية تتمثل في أسلوب خطابها ومحتواه اللذين يروجان فكرة الأولوية المطلقة لمصالح الأمة، بوصفها المصدر الوحيد للشرعية، والمحدد الأوحد للهوية والولاء والمسؤولية والمعايير؛ أما فاعلية الخطاب القومي فتعتمد على استعماله الاجتماعي اليومي.

يمثل كتاب **نظريات القومية** إضافة ثمينة ومهمة إلى المكتبة العربية، ومرجعًا ثريًا وضروريًا وقيمًا للقرّاء والباحثين وصنّاع القرار والمهتمين بالشأن العام، وللدارسين في ميدان الدراسات الفكرية والتاريخية والسياسية.

المؤلف:

أوموت أوزكيريملي: أكاديمي ومدير الدراسات التركية ـ اليونانية في جامعة بيلغي في إسطنبول، وكبير الزملاء الزائرين في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية. من مؤلفاته الأخرى كتاب: *Contemporary Debates on Nationalism: A Critical Engagement* (**مناظرات جدالية معاصرة عن القومية: مشاركة نقدية**).

المترجم:

معين الإمام: كاتب ومؤلف. من أعماله **لجم العوام: توظيف المعرفي في تكريس أيديولوجيا الاستبداد**. ومن ترجماته: Ernest Gellner, *Postmodernism, Reason and Religion* (**إرنست غيلنر، ما بعد الحداثة والعقل والدين**)، و Eric Hobsbawm, *Interesting Times: A Twentieth-Century Life* (**إريك هوبزباوم، عصر مثير: رحلة عمر في القرن العشرين**).



- فلسفة وفكر
- اقتصاد وتنمية
- لسانيات
- آداب وفنون
- تاريخ
- علم اجتماع وانثروبولوجيا
- أديان ودراسات إسلامية
- علوم سياسية وعلاقات دولية



ISBN 978-9953-0-2705-0
9 789953 027050

السعر: ١٦ دولارًا

نظريات القومية

مقدمة نقدية

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «وحدة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية بالإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، عن طريق الترجمة الأمينة والموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية بعامة، وفي العلوم الاقتصادية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

تستأنس «وحدة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب على السواء، من الافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، إلى شيوع بعض الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

تسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

نظريات القومية

مقدمة نقدية

أوموت أوزكيريملي

ترجمة

معين الإمام

مراجعة

فايز الصيّاغ



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
أوزكيريملي، أوموت
نظريات القومية: مقدمة نقدية / أوموت أوزكيريملي؛ ترجمة معين الإمام؛ مراجعة فايز الصيّاغ.
٤٤٧ ص. ؛ ٢٤ سم. ـ (سلسلة ترجمان)
يشتمل على ببليوغرافية (ص. ٤٠٣-٤٢٥) وفهرس عام.
ISBN 978-9953-0-2705-0
١. القومية ـ نظريات. أ. الإمام، معين. ب. الصيّاغ، فايز. ج. العنوان. د. السلسلة.
320.54

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب
Theories of Nationalism: A Critical Introduction
by Umut Ozkirimli
عن دار النشر
Palgrave Macmillan, 2nd ed., 2010
ISBN 978-0-230-57733-6

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر



شارع رقم: ٨٢٦ ـ منطقة ٦٦
المنطقة الدبلوماسية ـ الدفنة، ص. ب: ١٠٢٧٧ ـ الدوحة ـ قطر
هاتف: ٤٤١٩٩٧٧٧ ـ ٠٠٩٧٤ فاكس: ٤٤٨٣١٦٥١ - ٠٠٩٧٤
جادة الجنرال فؤاد شهاب ـ شارع سليم تقلا ـ بناية الصيفي ١٧٤
ص. ب: ٤٩٦٥ ـ ١١ ـ رياض الصلح ـ بيروت ٢١٨٠ ١١٠٧ ـ لبنان
هاتف: ٨ ـ ٩٩١٨٣٧ ١ - ٠٠٩٦١ فاكس: ٩٩١٨٣٩ ١ - ٠٠٩٦١
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، أيار/ مايو ٢٠١٣

المحتويات

أُطر المنظّرين

هانز كوهن (H. Kohn)؛ إيلي كدوري (E. Kedourie)؛ إدوارد شيلز (E. Shils)؛ بيير فاندنبيرغ (P. Van den Berghe)؛ كليفورد غيرتز (C. Geertz)؛ أدريان هاستينغز (A. Hastings)؛ تـوم نيرن (T. Nairn)؛ مايـكل هيكتر (M. Hechter)؛ جون بروييللي (J. Breuilly)؛ بول ر. براس (P. R. Brass)؛ إريك ج. هوبزباوم (E. J. Hobsbawm)؛ إرنسـت غيلنـر (E. Gellner)؛ بينيديكـت أندرسـون (B. Anderson)؛ ميروسـلاف هـروش (M. Hroch)؛ جون أ. أرمسـترونغ (J. A. Armstrong)؛ أنتوني د. سـميث (A. D. Smith)؛ مايـكل بيليـغ (M.l Billig)؛ نيرا يوفال ـ ديفيـز (N. Yuval-Davis)؛ بارثـا تشـاترجي (P. Chatterjee)؛ كريـغ كالهـون (C. Calhoun)؛ روجـرز بروبيكر (R.s Brubaker).

مقدّمة الطبعة الثانية

مرَّ عقد من الأعوام تقريبًا منذ نُشـر هذا الكتاب أول مرة. كان من السـهل جدًا ملء القسـم المتعلق بالكتب المتنافسـة في «اسـتمارة شـهرة المؤلف» التي أصدرتها دار بالغريف مكميلان للنشر (Palgrave Macmillan) آنذاك، نظرًا إلى ندرة الدراسـات النظريـة العامـة عن مبحـث القومية، وذلك على الرغـم من الاهتمام المتزايد بهذا الميدان. تغيّرت الحال الآن؛ فقد ثبت أن القومية، بوصفها موضوعًا للاستقصاء الأكاديمـي، وليسـت بالتأكيـد هوسًـا لحظيًا عابـرًا هيّجتـه التغيّرات البنيويـة العميقة التي حدثت قرب نهاية «القرن العشـرين الوجيز»[1]، أكثر مرونة ممّا كان متوقعًا. ونتيجة لذلك، ازدادت الكتابات وتنامت الأدبيات التي تناولت القومية بسرعة كبيرة؛ فبينما أفرز البحث الأساسي (بالكلمة ـ المفتاح) في موقع مكتبـة أمازون الشـهير (Amazon) على الشـبكة الإلكترونيـة ٣٠٨٣ عنوانًا متعلقًا بكلمـة «قوميـة» عام ١٩٩٩[2]، يغلّ بحث مشـابه اليـوم ٨٦,٣٦٠ عنوانًا[3]. من الواضح أن في مقدورنا تفسـير جزء من هذه الزيادة بتغيّر اسـتراتيجيات التسويق وتحسّـن القدرات التقانية لشـركات الإنترنت، لكن يؤكد هذه النتيجة المكتشـفة بحـث (بالكلمـة ـ المفتـاح أيضًـا) فـي دليـل مكتبـة الكونغـرس علـى الشـبكة الإلكترونيـة، الذي يضم أكثر من ١٠,٠٠٠ عنـوان متعلّق بالقومية[4]، في مقابل

(١) Eric J. Hobsbawm, *Age of Extremes: The Short Twentieth Century, 1914-1991* (London: Michael Joseph; New York: Viking Penguin, 1994).

(٢) Amazon, on the Web: <http://www.amazon.com> (accessed 4 October 1999).

(٣) Amazon, on the Web: <http://wvvw.amazon.com> (accessed 11 September 2008).

(٤) Library of Congress, on the Web: <http://catalog.loc.gove> (accessed 11 September 2008).

عدد لم يزد على ٩٣٢ عنوانًا قبل ثمانية أعوام[٥]. ربما لا يمثّل ذلك كلّه أفضل طريقة «علمية» لقياس الاهتمام المتزايد بالقومية، لكن النزعة موجودة وسائدة وواضحة لا لبس فيها.

كان من الضروري أن يأخذ كتاب نظريات القومية هذه الزيادة المشهودة بالاعتبار، وذلك لثلاثة أسباب على أقل تقدير. أولًا، هنالك الآن عدد من النصوص التمهيدية، والكتيبات الإرشادية، والكتب التعليمية، وحتى الموسوعات المنخرطة في جوانب مختلفة ومتنوعة من النظريات التي يتناولها هذا الكتاب. ثانيًا، لم يتوقف المنظّرون عن الحركة، بل استمروا في تعديل نظرياتهم / مقارباتهم وتنقيحها وتحسينها، وذلك في مواجهة الانتقادات الموجَّهة على مرّ الأعوام إلى الصيغ الأوّلية التي توصّلوا إليها. ثالثًا، تغيّر الثقل / الموقع النسبي لبعض النظريات المعيّنة ضمن نطاق الجدل الدائر. ولذلك، فإن من الأصعب القول إن الحداثة، أي الرأي القائل إن الأمّة والقومية مفهومان جديدان تاريخيًا وسوسيولوجيًا، ما زالت «العقيدة المتزمتة المهيمنة» في الميدان اليوم، وذلك مع ظهور مزيد من النظريات التي تؤكد فكرة أن الأمم ليست جديدة، بل هنالك في الحقيقة أمم ظهرت في القرون الوسطى أو العصور القديمة. كان من الضروري تحديث هذا الكتاب جوهريًا وتنقيحه ليتمكن من التعبير عن الحالة الراهنة في الميدان، ومخاطبة جمهور القرن الحادي والعشرين.

لكن زيادة الكتابات وتوسّع الدراسات التي تناولت القومية لم يمثّلا السبب الوحيد الذي استدعى المراجعة والتنقيح؛ حيث استمد كتاب نظريات القومية فصوله وأفكاره وإلهامه من أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه تقدمتُ بها في عام ١٩٩٩، وبذلك جسّد العيوب والمثالب والقيود والحدود المرتبطة بهذا النوع من الكتابة. وأدركت بعضًا من هذه القيود المكبِّلة والحدود المعيقة مع ارتقاء عملي على القومية على مرّ الأعوام، والمناقشات النظرية التي خضتها، والأهم عبر دراسة الحالات التاريخية الواقعية. بينما جذب انتباهي إلى قيود أخرى زملاء استعملوا الكتاب مادةً تدريسية، أو أشاروا إليها في مراجعات الطبعة الأولى. وقد يكون من المفيد الإشارة بإيجاز إلى هذه القيود والحدود قبل تلخيص الجوانب والملامح الجديدة في هذه الطبعة.

---

(٥) Library of Congress, on the Web: <http://catalog.loc.gove> (accessed 18 August 2000).

ربما تعلّقت التّهمة الأكثر شيوعًا التي وجِّهت إلى الطبعة الأولى بالغياب الواضح لصوت المؤلف[٦]. وكان الغياب متعمَّدًا جزئيًا نظرًا إلى أنني لم أرغب في ترك ما أفضّله من نظريات يتدخّل في معالجتي للنظريات الأخرى - جسّدت التّهمة في الحقيقة الانتقاد المركزي الموجَّه إلى المنافس الرئيس لكتاب **نظريات القومية** آنذاك، ألا وهو كتاب أنتوني د. سميث **القومية والحداثة**[٧] (*Nationalism and Modernism*). لكنني بالغت إلى حد الشطط. وأدرك الآن أن محاولة تكثيف آرائي عن الجدل، وضغط اقتراحاتي المتصلة بإطار نظري بديل ضمن فصل واحد في سبيل النزاهة المزعومة أو «الموضوعية» المضلِّلة، ليست فكرة جيدة. ولا ريب في أن جعل صوتي «مسموعًا» في النص كان سيزيد قدرتي على تكريس مزيد من المساحة للإطار النظري الذي اقترحته، حيث بقي في حالة من عدم التطور في الطبعة الأولى، وهي نقطة أثارها عدد من المراجعين للكتاب[٨].

اتصلت الانتقادات الشائعة الأخرى بالمعالجة المقيّدة على ما يبدو لـ«المقاربات الحديثة» للقومية[٩]. ومع أن ذلك لم ينعكس قط على معالجتي للنظريات والمقاربات الأخرى، مثلما ألمحت آنفًا، أصاب النقاد بالتأكيد حين أشاروا إلى غياب قسم «نقد المقاربات الحديثة» عن الكتاب. مرة أخرى أشير

---

(٦) David B. MacDonald, «Book Review: Umut Ozkirimli, *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*,» *Millennium: Journal of International Studies*, vol. 30, no. 3 (December 2001), and Y. Peled, «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 25, no. 2 (2002).

(٧) A. W. Marx, «Book Review: *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism*,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 23, no. 1 (January 2000), and J. Frusetta, «Book Review: *Nationalism and Modernism*,» *Nationalism and Ethnic Politics*, vol. 6, no. 4 (2000).

(٨) M. Hawkins, «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*,» *Journal of Southern Europe and the Balkans*, vol. 3, no. 2 (2001); C. Mason, «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*,» *Nations and Nationalism*, vol. 7, no. 4 (October 2001), and M. K. Flynn, «Nationalism: Theory and its Discontents,» *Global Review of Ethnopolitics*, vol. 1, no. 3 (March 2002).

(٩) L. M. Pozo, «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*,» *Capital and Class*, no. 76 (2002); Peled, «Book Review: *Theories of Nationalism*,» and Mason, «Book Review: *Theories of Nationalism*».

إلى حتمية ذلك الخيار، نظرًا إلى قلّة عدد الكتاب الذين تبنّوا هذه المقاربات آنـذاك، ففضّلـت تركيز بـؤرة الاهتمام علـى النظريات الكلاسـيكية بدلًا منها. ولحسن الحظ، تغيّرت هذه الحالة أيضًا.

انتُقـدت الطبعـة الأولـى أيضًـا بسـبب غلوّها فـي الاعتماد علـى مصادر ثانوية، ولا سـيما عند تناول المجادلات والمناظرات التاريخية بشـأن القومية، وبسـبب التبنّـي الأعمى لتعريـف أنتوني سـميث لمختلف المقاربـات النظرية للقوميـة[١٠]. وإنـي أقبـل جزئيًـا الانتقـاد الأول وأرفـض الثانـي. لـم يكن في المستطاع (ولا يزال من المتعذّر) الإسهاب في تناول كتابات مفكرين ساهموا فـي فهمنـا للقومية على مدى قرنين من الزمـان ضمن الإطار المحدود لفصل واحـد. وعلـى أي حـال، فإن بـؤرة اهتمـام الكتـاب مركّزة علـى المجادلات والمناقشـات النظريـة المعاصرة حـول القومية؛ أما المسـاهمات الأقدم عهدًا، فقد جرت مناقشتها لإظهار أهمية المجادلات والمناظرات الراهنة ورؤيتها من منظورها (التاريخي) الصحيح، لتذكير القارئ بأنها لم تنشـأ من فراغ. وفي ما يتعلق بالانتقاد الثاني، أكرر مرة أخرى أنه لم يكن في المستطاع (ولا يزال من المتعذّر) تقديم لمحة شاملة للجدل النظري من دون السير على خطى أنتوني سميث. بل إن سميث هو الذي منح التقسيم الثلاثي الذي نستخدمه اليوم في تصنيف نظريات القومية ما يتمتع به من شـعبية وشـهرة، إن لم يكن قد ابتكره أصلًا. أواجه ـ شـخصيًا ـ مشـكلات كثيرة في هذا التصنيف، مثلما سـيتضح لاحقًا، لكنه أصبح أكثر التصنيفات قبولًا في الميدان، ولا جدوى من بناء نص تمهيدي حول الجدل النظري المتعلق بالقومية بطريقة مختلفة.

ثمة انتقاد أخير وثانوي نسبيًا نحتاج إلى ذكره في هذا السياق، وهو يتعلّق بمـا أغفلـه الكتاب وأهملـه. وليس من المفاجـئ أن لكل مراجـع وناقد لائحة أولويـات خاصـة به؛ إذ يريد بعضهـم أن يرى مزيدًا من المناقشـة لعمل أدريان هاستينغز (Adrian Hastings) ولياه غرينفيلد[١١] (L. Greenfeld)؛ ويهتم غيرهم بجاك

---

(١٠) MacDonald, «Book Review: Umut Ozkirimli, *Theories of Nationalism*».

(١١) M. Mirza, «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*,» *Studies in Ethnicity and Nationalism*, vol. 2, no. 1 (2002).

سنايدر[١٢] (J. Snyder) أو بنظريات الخيار العقلاني[١٣] والنظريات غير الغربية[١٤]. ومن الواضح أن من المستحيل إرضاء الجميع في هذا السياق. وعلى أي حال، لا بد أن يغفل نص كهذا بعض الأسماء والآراء ووجهات النظر، بسبب القيود التي يفرضها الوقت والمساحة، وأي قرار كهذا سيعبّر في التحليل النهائي عن أولويات الكاتب الشخصية. ومع ذلك، كان في المستطاع عمل المزيد. والآن حان الوقت للتطرّق إلى التغييرات التي أُدخلت على الطبعة الجديدة.

يُعَدّ الكتاب الحالي نسخة منقّحة وموسّعة إلى حد بعيد من الطبعة الأولى. وفي هذا السياق:

ـ خضعت مناقشة مختلف النظريات وأقسام «المراجع الإضافية» لعملية تحديث، مع إضافة المنشورات والمطبوعات التي صدرت في العقد الماضي ـ وأحيانًا المصادر الأقدم عهدًا التي لم تكن متوافرة لديّ في عام ١٩٩٩ ـ ومنها تلك التي كتبها المنظّرون أنفسهم.

ـ أضيف قسم جديد إلى نهاية كل فصل يتصدى للمقاربات النظرية الرئيسة، كي يشمل عمل المنظرين الذين قدّموا إعادة صوغ أصيلة لهذه المواقف في الأعوام الأخيرة.

ـ أضيف عدد من المنظّرين الجدد والمقاربات الجديدة إلى ما هو موجود أصلًا، وذلك لمسايرة النزعات التي ظهرت حديثًا في الميدان. وفي هذا الإطار، قدّمت مراجعة نقدية أيضًا لـ«المقاربات الحديثة».

ـ خضع الفصل المتعلّق بالمجادلات والمناظرات التاريخية لعملية تنقيح معمّقة (وموسّعة) على أساس المصادر الأولية، من أجل التعبير بصورة أفضل عن مساهمات مختلف المفكرين وعلماء الاجتماع في ارتقاء فكرة القومية وتطورها.

(١٢) MacDonald, «Book Review: Umut Ozkirimli, *Theories of Nationalism*».

(١٣) Hawkins, «Book Review: *Theories of Nationalism*».

(١٤) D. Anand, «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*, *Imagining Nations, Nationalisms Old and New*,» *Nationalism and Ethnic Politics*, vol. 7, no. 3 (2001).

ـ أعـدتُ كتابـة المقدمـة والفصل المتضمـن آرائي عن الجـدل النظري، فضـلًا عـن اقتراحاتـي المتعلقـة بإطار نظـري بديل بصـورة كاملـة. ولـم يكن الهـدف مقتصـرًا على جعل صوتي مسـموعًا أكثر (فهـذا لا ينحصر في فصل واحد على أي حال)، بل لتزويد القارئ بمؤشر على كيفية ارتقاء آرائي المتعلّقة بموضوع القومية.

ـ أخيرًا، أضيفت إلى النص سلسلة من أُطر «المنظّرين الأساسيين» لتقديم صـورة أشـمل وأكمـل للمسـارات الشـخصية لبعـض المنظريـن المحدديـن، والشروط والظروف التي قادتهم إلى دراسة القومية.

خضعـت بنية الكتـاب الهيكلية للتنقيـح والتعديل أيضًا، لاسـتيعاب هذه التغيّـرات وتقديم معالجـة أكثر توازنًا لبعـض النظريات والمقاربـات المعيّنة. فالفصل المتعلّق بالنظرية البدائية مثلًا، الذي تبيّن لأحد المراجعين أنه «أقصر وأكثر اختزالًا من ذلك المتصل بالحداثة»[١٥]، جرى توسيعه وجعله أكثر اتساقًا مـع بقية الفصول النظرية. وهذا ما حدث أيضًا للفصل الذي تناول المقاربات الحديثـة بحيـث يشـمل الآن قسـمًا مكرسًـا للانتقـادات الموجهـة إلـى هـذه المقاربات.

ومثلما تكشف السطور السابقة، ما كنت لأستطيع إعداد طبعة جديدة من هذا الكتاب لولا مدخلات الزملاء من مختلف البلدان، الذين بلغ بهم اللطف والكرم حد الإشارة إلى العيوب والنواقص والقيود المحددة لـ نظريات القومية بوصفـه كتابًا تدريسيًا، اعتمادًا على ملاحظاتهم فـي قاعات التدريس على مرّ الأعـوام. أديـن بالفضـل للمراجعات النقدية للنسـخة الأولى التي نُشـرت في مختلف المجلات العلمية والفكرية، ولتعليقات وملاحظات المراجِع المجهول الاسم في دار بالغريف مكميلان لمسودّة الطبعة الأولى هذه.

أديـن بشـكر خـاص لكلٍّ مـن مايـكل بيليغ، وجـون برويللـي، وروجرز بروبيكر، وكريغ كالهون، وبارثا تشاترجي، ومايكل هيكتر، وجون هتشينسون، وسينيسا مالسيفيتش، ورونالد غريغور سوني، وبيير فاندنبيرغ، وأندرياس فيمر، ونيـرا يوفال ـ ديفيز، الذين وفّروا لي معلومات عن سـيرهم المهنية وأبحاثهم

---

(١٥) Flynn, «Nationalism: Theory and its Discontents».

غير المنشورة/ أو القادمة؛ الشكر كل الشكر أيضًا لسبيروس أ. سوفوس الذي سمح لي باستخدام معلومات ومواد من كتابنا المشترك *Tormented by History: Nationalism in Greece and Turkey* **(تبريح التاريخ: القومية في اليونان وتركيا)** (٢٠٠٨) في الفصل الأخير، حيث قدّمت مخططًا موجزًا لإطار نظري لدراسة القومية، وأشكره أيضًا على تعليقاته وملاحظاته على المسوّدة المبكرة من هذا الفصل. أدين بالفضل أيضًا لِـ«المرصد الهيليني» (The Hellinic Observatory) و«المعهد الأوروبي» (The European Institution) في كلية لندن للاقتصاد، على المنحة المقدَّمة، ولزميلي في قسم العلاقات الدولية في جامعة بيلغي في اسطنبول على تحمّل بعض من مسؤولياتي في أثناء المراحل الأخيرة من الكتابة. أود التعبير مجددًا عن شكري لفريد هاليداي على كونه مصدرًا مستمرًا للإلهام على مر الأعوام، وللناشر ستيفن كينيدي على دعمه ومؤازرته وإيمانه الراسخ بأهمية عملي. أخيرًا، أود أن أشكر يافوز تويلوغلو، فلولا مساعدته المتعددة الجوانب والوجوه ما تمكّنت من كتابة سطر واحد طوال العامين الماضيين.

على الصعيد الشخصي، أودّ أن أشكر والدتي وأصدقائي الذين تحمّلوا صابرين إجهاد تأليف كتاب آخر وعناءه من دون تذمّر أو شكوى ـ ولا سيما كان (Can)، الذي وفّر لي ملاذًا في كامدن تاون، كلما اشتدت الحاجة إليه، وإيراي (Eray)، الذي رافقني طوال هذه الرحلة التي كانت متعبة وصعبة في بعض الأحيان.

أوموت أوزكيريملي

لندن ـ إسطنبول

مقدمة

أولًا: لماذا القومية؟

تبدأ أغلبية النصوص الحديثة عن القومية بالإشـارة إلى «إعادة اكتشـاف» القوميـة بوصفها موضوعًا للاسـتقصاء الأكاديمي، مع انتشـار النزاعات الإثنية والقومية في معظم أرجاء العالم في أعقاب تفكك الاتحاد السـوفياتي وانتهاء الحرب الباردة. على سـبيل المثال، يلاحظ ديلانتي (Delanty) وكومار (Kumar) أن «القوميـة عـادت [إلى الواجهة] على ما يبدو بنشـاط وحيوية متجدّدين في العقـود الأخيـرة»، لتجتذب انتباهًا متناميًا من الباحثيـن والعلماء المتخصصين بمختلف الفروع العلمية[1]. أمّا سبنسر (Spencer) وولمان (Wollman)، فيجعلان المسـألة شـخصية حيـن يلاحظـان أنهما بـدءا «التفكيـر بالقومية جديًـا.. عند مواجهـة التبعـات الكارثية لمـا بدا أنه انفجـار مفاجئ للقومية في يوغسـلافيا السـابقة في أوائل تسـعينيات القرن العشـرين»[2]، بينما كان سميث قبل بضعة أعوام يلاحظ أن «الأعوام العشـرة الأخيرة شـهدت نموًا مشـهودًا في ممارسة القومية ودراستها»، وأن القومية الإثنية «ازدهرت بصورة أكثر اتساعًا وأشد قوة مقارنة بأي حقبة سابقة منذ الحرب العالمية الثانية»[3].

---

(١) Gerard Delanty and Krishan Kumar, «Introduction,» in: Gerard Delanty and Krishan Kumar, eds., *The SAGE Handbook of Nations and Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2006), p. 1; Graham Day and Andrew Thompson, *Theorizing Nationalism*, Consultant Editor Jo Campling (Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2004); Daniele Conversi, ed., *Ethnonationalism in the Contemporary World: Walker Connor and the Study of Nationalism* (London; New York: Routledge, 2002), and Athena S. Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, Consultant Advisor Anthony D. Smith (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001).

(٢) Philip Spencer and Howard Wollman, *Nationalism: A Critical Introduction* (London; Thousand Oaks, Calif.: Sage, 2002), p. 1.

(٣) Anthony D. Smith, *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998), p. xi.

لكـن هذه الصورة لانتشـار النزاعـات الإثنية والقومية في شـتّى أرجاء العالـم بحاجـة إلى تحديد جدّي؛ فكثير من الإحصائيات الموثّقة تشـير إلى تقلّـص مسـتدام فـي العـدد الإجمالـي للنزاعات المسـلحة المتعلقـة بتقرير المصير منذ بداية تسعينيات القرن الماضي، مع نزعة موازية باتجاه الاحتواء والتسـوية والحل. ومثلما ذكر هيويت وآخرون[٤]، فإن سـتة وعشـرين نزاعًا مسلحًا متعلقًا بتقرير المصير ظلّت مندلعة حتى أواخر عام ٢٠٠٦، بينما تم التوصّـل إلـى حل لسـتة منها بيـن عامـي ٢٠٠١ و٢٠٠٦، وجـرى احتواء خمسـة عشـر نزاعًا آخر[٥]. ويشـير ديفيد د. لايتين (D. D. Laitin) إلى نقطة مشـابهة، إذ يزعم أن العالم سـيأخذ لونًا مختلفًا إذا حوّلنا أنظارنا من لائحة النزاعـات الإثنية العنيفة إلى احتمالية العنف باعتبار الاختلاف الإثني. وبعد دراسة البيانات الكمية المتوافرة عن العنف الإثني والطائفي في أفريقيا مثلًا، يتوصـل لايتيـن إلـى نتيجة مفادهـا أن «النسـبة المئويـة للجماعـات الإثنية المتجـاورة التـي عانـت حوادث عنـف طائفية متدنّيـة جدًا ـ إذ لـم تتجاوز النزاعات العنيفة المسجّلة في المعدل الوسطي الـ ٥ إلى ١٠,٠٠٠ نزاع في العـام الواحد». الشـيء ذاته ينطبق علـى الأجزاء الأخرى مـن العالم أيضًا؛ ومن ثم فإن «البحث الكمّي يدحض الاعتقاد الشائع بأن الاختلافات الإثنية والقومية تُعَدّ خطرة بحد ذاتها»[٦].

كيف نفسـر هذه الفجـوة بين البيانـات المتوافرة والمـدركات الأكاديمية (والشعبية الشائعة)؟ يتصل أحد الأسباب بـ«التحيز الانتقائي»؛ فوفقًا للايتين، يفـوق الانتبـاه المركّز على الحالات العنيفة كثيرًا ذاك المسـلّط على الحالات السـلمية فـي الأدبيـات والكتابات. ويمكن تفسـير ذلـك جزئيًا بما أشـار إليه بروبيكر (Brubaker) ولايتين بأنه الحضور الكلّي المهيمن للإطار الإثني، الذي «يولّد انحيازًا في البيانات إلى الاتجاه الإثني»:

---

(٤) J. Joseph Hewitt, Jonathan Wilkenfeld and Ted Robert Gurr, *Peace and conflict 2008: Executive Summary* (Maryland: Center for International Development and Conflict Management, University of Maryland, 2008).

(٥) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٦) David D. Laitin, *Nations, States, and Violence* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2007), pp. 10-11 and 22.

اليـوم، لم نعد [نحن: اللاعبيـن الفاعلين والمحللين] نتعامى عن الإثنية، بـل هي التي تشـوّش رؤيتنا وتعمي بصيرتنا. وربما يقودنـا انحيازنا الإثني في التأطيـر إلـى المبالغة في تقدير معدلات حوادث العنف الإثني عبر الرؤية غير المبررة للإثنية تعمل في كل مكان، ومن ثم تتضاعف حوادث «العنف الإثني» بطريقة مصطنعة(٧).

أمّـا السـبب الثاني الذي يخلـق الفجوة بيـن البيانات والمـدركات، وفقًا للايتيـن، فهـو النزعـة إلـى أخذ روايـات المتحاربين بحسـب قيمتها الاسـمية والظاهرية. وربما سـاهمت المظالم والشكاوى التي عبّر عنها المتحاربون في حشـد العنـف، لكن معظمهـا كامن، وهـذه العوامل التي تجعل هـذه المظالم والشكاوى «حيوية وحاسمة وظاهرة» هي التي تميّز حالات العنف عن حالات اللاعنف. «لا تُعَدّ مقاييس مستويات المظالم المعتمدة على التغييرات المتوقّعة مؤشرات تنبؤية صحيحة لتحوّل المظالم الكامنة إلى ظاهرة». وعلى أي حال، يصعب معرفة «هل، ومتى، وأين، وإلى أي مدى، وبأي أسلوب» جرى اعتناق المظالم والمعتقدات والمخاوف المفترضة فعلًا(٨).

تشير هذه الملاحظات إلى أن في الحديث عن نهوض القومية أو انتشار النزاعـات الإثنيـة نوعًـا من المبالغة والغلـو. لكن هل يمكننا أن نسـتنتج على أسـاس ذلـك أن القوميـة غير مهمـة؟ بالتأكيـد لا، وحتى انتشـار الانحياز في البيانـات نحـو الوجهة الإثنيـة والنزعة العنيـدة لإطلاق مناقشـات القومية عبر الإشارة إلى المناطق الساخنة إثنيًا وقوميًا في هذا الجزء أو ذاك من العالم إنما هو شـهادة دامغة على ذلك. القومية مهمة فعلًا - بوصفها مبدأً ناظمًا جوهريًا للنظام بين الدول، ومصدرًا نهائيًا للشـرعية السياسـية، وإطارًا معرفيًا وخطابيًا متوافرًا وجاهزًا، وسـياقًا مسـلّمًا به للحياة اليومية. وبذلك، لا تشـكّل القومية أفق الخطاب السياسي الدولي والمحلي فحسب، ولا الإطار الطبيعي للتفاعل السياسي كله وحسب، بل إنها تبني أيضًا حياتنا اليومية وطريقة إدراكنا للواقع المحيط بنا وأسـلوب تفسيره. وهي تقتحم منظورنا التحليلي، وتشكل تقاليدنا

---

(٧) Rogers Brubaker and David D. Laitin, «Ethnic and Nationalist Violence,» in: *Annual Review of Sociology* (Palo Alto, Calif.: Annual Reviews Inc., 1998), p. 428.

(٨) المصدر نفسه، ص ٤٤٣، و Laitin, *Nations, States, and Violence*, pp. 23-25.

وأعرافنا الأكاديمية المتّبعة. وهذا ما دعاه بعض المعلّقين - وقد أصابوا في التسمية - «القومية المنهجية»، أي النزعة السائدة لمساواة مفهوم «المجتمع» مع مفهوم «الأمة»، وذلك للافتراض مسبقًا أن الأمّة شكل طبيعي وضروري للمجتمع في العصر الحديث[9]. هذه هي الحالة على وجه الخصوص مع التاريخ حيث:

ابتُكرت الأدوات التحليلية ذاتها التي نزعم ممارسة التاريخ العلمي بواسطتها وتحسنت واكتملت ضمن المناخ الأشمل للقومية والاهتمامات القومية. وبدلًا من الأدوات الحيادية للبحث الأكاديمي، تطوّرت المناهج الحديثة للبحث وكتابة التاريخ على نحو خاص لتدعيم الأهداف القومية[10].

يأخذ علماء الاجتماع ومنظرو السياسة أيضًا وجود الأمم قضيةً مسلَّمًا بها، ويجعلونها شرطًا كامنًا وراء تحليلاتهم وتأملاتهم. وهذا ما يقود كانوفان (Canovan) إلى تقديم الحجّة على كمون «افتراضات» تحت معظم التفكير السياسي المعاصر «تتعلق بوجود مجتمعات سياسية مترابطة وموحّدة تثير الشبهة وتبدو مثل الدول القومية»[11]. وباختصار، تحظى القومية بأهمية حاسمة، ويبدو من الصعب الاختلاف مع كالهون (Calhoun) الذي يؤكد في كتابه الأخير (الذي حمل عنوانًا مثيرًا ومناسبًا هو *Nations Matter* (الأمم مهمّة) أن:

علينا الاعتراف بالأهمية المستمرة للتضامن الوطني، حتى حين نوجّه انتقادًا عميقًا إلى القومية كما نراها. وحتى عندما نرغب في نظام عالمي كوني

---

(9) Andreas Wimmer, «Ethnic Exclusion in Nationalizing States,» and Daniel Chernilo, «Methodological Nationalism and Its Critique,» in: Delanty and Kumar, eds., *The SAGE Handbook of Nations and Nationalism*; Andreas Wimmer and Nina Glick Schiller, «Methodological Nationalism and Beyond: Nation-State Building, Migration and the Social Sciences,» *Global Networks*, vol. 2, no. 4 (2002), and Daniel Chernilo, *A Social Theory of the Nation State: The Political Forms of Methodological Nationalism* (London; New York: Routledge, 2007).

(10) Patrick J. Geary, *The Myth of Nations: The Medieval Origins of Europe* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002), p. 16.

(11) Margaret Canovan, *Nationhood and Political Theory* (Cheltenham, UK; Brookfield, Vt.: Edward Elgar, 1996), p. 27.

(كوزموبوليتاني) أكثر تعدّدية وتنوعًا على الصعيد الثقافي، يجب أن نكون واقعيين بما يكفي عدم التصرف اعتمادًا على مجرّد الرغبات(١٢).

وحين نأخذ ذلك كله بالاعتبار، يبدو من المفاجئ أن الأمم والقومية كانت موضع اهتمام هامشي عند النظرية الاجتماعية والسياسية طوال معظم أعوام القرن العشرين. وباستثناء الأعمال الريادية لمؤرخين من أمثال كارلتون هيز (C. Hayes)، وهانز كوهن (H. Kohn)، ولويس سنايدر (L. Snyder)، وإي. هـ. كار (E. H. Carr)، لا نجد إلّا في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي جدلًا أكاديميًا حيويًا حول القومية، استحثته تجربة التحرر من الاستعمار، وحفزه ظهور الدول الجديدة في آسيا وأفريقيا. وعدّت أغلبية الدراسات التي دعمت نسخة من نموذج «بناء الأمة» الصاعد آنذاك، القوميةَ متزامنة مع عمليات التحديث، ونتيجة أو منتجًا جانبيًا للانتقال من المجتمع «التقليدي» إلى المجتمع «الحديث». ثم انتقل الجدل إلى مستوى جديد كليًا في ثمانينيات القرن مع نشر كتاب جون أرمسترونغ *Nations Before Nationalism* **(الأمم ما قبل القومية)** (١٩٨٢)، وكتاب جون بروييلي *Nationalism and the State* **(القومية والدولة)** (١٩٨٢)، وكتاب بينيديكت أندرسون *Imagined Communities* **(جماعات متخيّلة)** (١٩٨٣)، وكتاب إرنست غيلنر *Nations and Nationalism* **(الأمم والقومية)** (١٩٨٣)، وكتاب إريك هوبزباوم وتيرنس رينجر *The Invention of Tradition* **(اختراع التراث التقليدي)** (١٩٨٣)، وكتاب أنتوني د. سميث *The Ethnic Origins of Nations* **(الأصول الإثنية للأمم)** (١٩٨٦)، على سبيل المثال لا الحصر. وأخيرًا، أصبح للقومية التي كان عليها الانتظار حتى عام ١٩٧٤ لصدور أول مجلة أكاديمية عنها، أدبيات وكتابات محفّة وحتى مثيرة للجدل.

من الممكن تحديد سببين اثنين وراء التطور المتأخر للأدبيات المكتملة عن القومية. أولًا، الحالة العامة من اللامبالاة في التيار الرئيس من التفكير الأكاديمي بالقومية بوصفها موضوعًا للاستقصاء، والبحث وعنوانًا مهمًّا بحد ذاته. كان هذا الموقف مشروطًا جزئيًا بالصرامة العلمية والنزعة المحافظة للفروع المعرفية الراسخة، التي عدّت القومية فكرة تجاوزها

(١٢) Craig Calhoun, *Nations Matter: Culture, History, and the Cosmopolitan Dream* (London; New York: Routledge, 2007), p. 1.

الزمن، أو اهتمامًا هامشيًا لا يحظى بالأهمية، في مقابل «الدولة» و«الديمقراطية» و«العدالة» و«التنمية»، وما شابه. وحتى في تسعينيات القرن العشرين، تتذكر يائيل تامير (Yael Tamir) مدى صعوبة تبرير اختيارها القومية موضوعًا لرسالة الدكتوراه في جامعة أكسفورد:

حين قمت بهذا المشروع، بدت القومية موضوعًا منطويًا على مفارقة تاريخية. وفي أثناء أعوام دراستي في أكسفورد، استهلكت «كومة» من العبارات في الإجابة عن تعليق «كم هذا مثير!» (يعني في أكسفورد: «كم هذا غريب!»)، الذي أسمعه عادة بعد أن ذكرت أنني أكتب أطروحة عن القومية[13].

طرأ على الصورة مزيد من التعقيد بسبب الميل إلى الاستخفاف بأهمية الأمم والقومية، وهذه نقطة ألمحنا إليها آنفًا. وتمثّل الغرض الرئيس لحجة بيليغ (M. Billig) حول القومية والمنطق السوسيولوجي السليم في كتابه المهم والمؤثر (*Banal Nationalism*) **(الأصولية المبتذلة)**[14]. ويُظهر بيليغ، وهو يجذب انتباهنا إلى الغياب الغريب للقومية عن فهارس الموضوعات في الكتب التدريسية المعيارية المتعلّقة بعلم الاجتماع، كيف يُفسر «المجتمع» وفقًا لصورة «الدولة القومية» في التيار الرئيس لعلم الاجتماع - وهو افتراض ينتظر منا «نحن»، القراء، المشاركة فيه. وإذا جرى التعامل مع «المجتمع»، السمة المميزة والشاملة للوجود البشري، بوصفه «دولة قومية»، لا تعود القومية تمثّل مشكلة تستحق الاستكشاف، وتصبح جزءًا مملًا ومبتذلًا من حياتنا الاجتماعية. ولا ترجع بصفتها موضوعًا للاستقصاء إلّا حين يهدد شكل كريه ومنفر من القومية سلامة «مجتمعنا». وفي هذه الحالة، كما يؤكد بيليغ، يرجّح أن تضيف الكتب التدريسية في علم الاجتماع أقسامًا فرعية، بل فصولًا كاملة عن القومية. لكن حتى إن فعلت:

ستظل القومية تُعَدّ إضافة تكميلية، بل عرَضية وطارئة. وستكون موضوعًا خاصًا. وسوف يستمر التعامل مع «المجتمع» الذي جرت نمذجته على صورة

---

(١٣) Yael Tamir, *Liberal Nationalism*, Studies in Moral, Political, and Legal Philosophy (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993), p. xi.

(١٤) Michael Billig, ed., *Banal Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: Sage, 1995), chap. 3.

«أمتنا»، بوصفه شـموليًا وعالميًا بالضرورة. وبهذه الطريقة لا تحتاج «قوميتنا» إلى العودة نصيًا[١٥].

يقودنـا هـذا كله إلى السـبب الثانـي الذي يمنـع الاقتحامـات الأكاديمية لظاهـرة القوميـة، وهو النزعـة إلى تقليص القوميـة وتحجيمهـا واختزالها إلى تمظهراتها المتطرفة التي تمثّلها الحركات الانفصالية المهدِّدة لاسـتقرار الدول القائمة، أو سياسة اليمين العدوانية. يضع مثل هذا الرأي القومية على المحيط الهامشـي، ويتعامل معها بوصفها ملْكية الآخرين: «هم» لا «نحن». وبكلمات بيليـغ: «لا تُقـدم «قوميتنـا» بوصفهـا قوميـة، التـي تُعَـدّ زائـدة خطـرة وغريبة ولاعقلانيـة»؛ بل يُعاد عبر المهارة البلاغيـة المخادعة توضيبها وتقديمها على أنها «وطنية»، تُعَدّ ضرورية ومفيدة. وهذا يمكّن المنظرين من تجاهل قومياتهم؛ وحيـن «تُسـقط القوميـة باعتبارهـا شـرطًا علـى «الآخريـن»، يجـري تجاهـل «قوميتنا»، ونسيانها، بل إنكارها نظريًا»[١٦]. لكن هذا الرأي المقبول على نطاق واسـع مضلِّـل، نظـرًا إلـى أنه يتعامـى عن جملـة الطـرق المتعددة التـي يُعاد بواسطتها إنتاج القومية في الأمم الراسخة، لتشكّل ستارة خلفية لحياتنا العامة، وتتجسد في العادات والتقاليد والإجراءات الروتينية المتّبعة في الحياة اليومية.

لن يكون من الخطأ القول إن الأسـباب التي أخّرت تطور أدبيات حيوية ومحفزة عن القومية قد اختفت تدريجيًا مع اقتراب القرن العشرين من خاتمته. وأثبتـت القوميـة أنها أكثر من مجرّد موجة (أو «موضة») أكاديمية عابرة، مقدّر عليها الاختفاء والتلاشي، مثل تكشيرة قطة تشيشر[*] (Cheshire cat)، حالما يتم العثـور على «تسـلية» أخرى لتزجية أوقات الفـراغ، وأصبحت واحدًا من أكثر الموضوعات التي خضعت للاسـتقصاء والاستكشـاف في العلوم الاجتماعية. واليوم، نجد أنفسنا غارقين في طوفان عارم من المنشورات والمطبوعات عن القوميـة، تشـمل (إضافة إلى دراسـات الحالة والأطروحـات النظرية) نصوصًا

---

(١٥) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٥، ١٧ و٥٥.

(*) قطة شهيرة في قصة «مغامرات أليس في بلاد العجائب». بقيت التكشيرة على وجه القطة معلّقة في الهواء بعد أن اختفت القطة ذاتها (المترجم).

تمهيديـة[17]، وكتيبات وكتبًا تعليميـة[18]، وأبحاثًا أكاديمية أو مجموعات معدّة ومكرَّسـة لمنظّر / مفكـر محدّد أو مقاربة معيّنة[19]، وحتى موسـوعات[20]. ثم هنالك مجلات متخصصة، ومراكز أبحاث، وشـبكات على الإنترنت، وبرامج

---

(17) Anthony D. Smith, *Nationalism: Theory, Ideology, History*, Key Concepts (Malden, Mass.: Polity Press, 2001); Spencer and Wollman, *Nationalism: A Critical Introduction*; Gerard Delanty and Patrick O'Mahony, *Nationalism and Social Theory: Modernity and the Recalcitrance of the Nation*, New Horizons in Sociology (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2002); Oliver Zimmer, *Nationalism in Europe, 1890-1940*, Studies in European History (Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2003); Day and Thompson, *Theorizing Nationalism*; Jyoti Puri, *Encountering Nationalism*, 21st-Century Sociology; 6 (Malden, MA: Blackwell, 2004); Paul Lawrence, *Nationalism: History and Theory* (Harlow, England; New York: Pearson Education, 2005); Atsuko Ichijo and Gordana Uzelac, eds., *When Is the Nation?: Towards an Understanding of Theories of Nationalism* (Milton Park Abingdon, Oxon; New York: Routledge, 2005); Alain Dieckhoff and Christophe Jaffrelot, eds., *Revisiting Nationalism: Theories and Processes*, CERI Series in Comparative Politics and International Studies (London: Hurst, 2005); Steven Grosby, *Nationalism: A Very Short Introduction*, Very Short Introductions; 134 (Oxford; New York: Oxford University Press, 2005), and Jonathan Hearn, *Rethinking Nationalism: A Critical Introduction* (Houndmills; Basingstoke; Hampshire, [England]; New York: Palgrave Macmillan, 2006).

(18) Montserrat Guibernau and John Hutchinson, eds., *Understanding Nationalism* (Cambridge: Polity; Malden, MA: Blackwell, 2001); Vincent P. Pecora, ed., *Nations and Identities: Classic Readings*, Keyworks in Cultural Studies; 1 (Malden, Mass.: Blackwell, 2001); Philip Spencer and Howard Wollman, eds., *Nations and Nationalism: A Reader* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2005); Delanty and Kumar, eds., *The SAGE Handbook of Nations and Nationalism*.

(19) Conversi, ed., *Ethnonationalism in the Contemporary World*; Georgios Varouxakis, *Mill on Nationality*, Routledge/PSA Political Studies Series; 3 (London; New York: Routledge, 2002); Pheng Cheah and Jonathan Culler, eds., *Grounds of Comparison: Around the Work of Benedict Anderson* (New York: Routledge, 2003); Frederick M. Barnard, *Herder on Nationality, Humanity, and History*, McGill-Queen's Studies in the History of Ideas; 35 (Montreal; Ithaca: McGill-Queen's University Press, 2003); Monserrat Guibernau and John Hutchinson, eds., *History and National Destiny: Ethnosymbolism and its Critics* (Oxford: Blackwell, 2004); Siniša Malešević and Mark Haugaard, eds., *Ernest Gellner and Contemporary Social Thought* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 2007); Athena S. Leoussi and Steven Elliott Grosby, eds., *Nationalism and Ethnosymbolism: History, Culture and Ethnicity in the Formation of Nations* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2007), and James Dingley, *Nationalism, Social Theory and Durkheim* (Basingstoke, [England]; New York: Palgrave Macmilan, 2008).

(20) Alexander J. Motyl, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, 2 vols (San Diego, Calif.; London: Academic Press, 2001), and Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*.

الأعمال التي وردت هنا نشرت بعد عام ٢٠٠٠؛ وللاطلاع على أمثلة أقدم عهدًا انظر إطار «مراجع إضافية» في نهاية هذه المقدمة [ص ٣٠ من هذا الكتاب].

أكاديمية. أمّا النتيجة النهائية لذلك كله، فكانت اسمًا ـ أصبح من الشائع الآن الإشارة إلى هذا الحقل المعرفي باسم «دراسات القومية» ـ وأدبيات ضخمة شديدة التنوّع. لقد أزف الوقت الآن لا لعملية جرد للجدل النظري حول القومية فقط، بل للانتقال أيضًا إلى ما وراء الجدل الكلاسيكي الذي ازداد عقمًا وضيقًا في الأفق بمرور الأعوام، ووضع «أجندة» بحثية جديدة للمستقبل.

ثانيًا: الأهداف

لهذا الكتاب أهداف ثلاثة: **أولًا**، تزويد القارئ بلمحة منهجية عامة عن بعض المقاربات النظرية المفتاحية للقومية، ومناقشة الانتقادات الرئيسة الموجَّهة إليها من منظور مقارن؛ **ثانيًا**، الإشارة إلى القيود المعيقة للجدل الكلاسيكي، وتحديد المشكلات النظرية التي لا نزال نواجهها؛ **أخيرًا**، اقتراح إطار نظري بديل في ضوء هذه الاعتبارات، يمكن استخدامه في دراسة القومية. لكن قبل المتابعة، أود الإشارة إلى أن هذا الكتاب ليس تفسيرًا تحليليًا للخطابات التاريخية أو الفلسفية عن القومية، بل إنه يركز اهتمامه على المجادلات النظرية المعاصرة حولها، أي تلك التي تطورت ونضجت في النصف الثاني من القرن العشرين. ومن نافل القول إن هذه المجادلات والمناظرات لم تحدث في فراغ؛ فمعظم القضايا والمشكلات التي شغلت المنظّرين المعاصرين جرى تحديدها ومناقشتها أولًا من الفلاسفة والمؤرخين، ثم الرواد في العلوم الاجتماعية على مدى القرنين الماضيين. ولذلك، فإن ثاني أطول فصل في الكتاب سوف يكرس للمناقشات المبكرة عن القومية من أجل وضع الجدل المعاصر في سياق تاريخي أعرض. لكن نظرًا إلى الكميات الضخمة من الحبر الذي سال لجعل القومية مفهومة، فإن معالجة مختلف المفكرين وأعمالهم ستكون بالضرورة سطحية وتقريبية ومتشظية.

لا يُعَدّ هذا الكتاب مجموعة (أو «مجموعة تلصيقية») من دراسات الحالة أيضًا. في الحقيقة، إن من أهدافه جذب الانتباه إلى مشكلة تعيق، وأحيانًا تهدّد، اكتمال دراسة القومية، ألا وهي الاستخدام السطحي والعرَضي

(وربما غير المبالي) لأمثلة تاريخية وجيزة لدعم حجّة محدّدة أو توكيد منظور نظري معيّن ـ أو ما دعاه بروييللي (J. Breuilly) بطريقة ذكية حجّة من نوع «القص واللصق»[21]. هذا النوع من الحجج، المفتقرة إلى التفصيل والسياق، يُبهم التحليل، وهو ما يقودنا إلى رؤية القومية تشتغل في كل مكان. لكن هذا لا يعني ضمنًا أن على المناقشات النظرية الابتعاد من التحليلات التاريخية. بل على العكس، فالنظريات لا تعني الكثير إلّا إذا اختُبرت إزاء الحالات الفعلية. لكن يجب تفحّص الحالات بالتفصيل، وعدم الاكتفاء بالاستشهاد بها لأغراض توضيحية، مع الإحالة إلى بضعة نصوص معيارية (معظمها تجاوزه الزمن). لن ينخرط هذا الكتاب في الحالات الفعلية بالتفصيل، لأسباب تتعلق غالبًا بالمساحة[22]، لكنه لن يسقط في شرك مقاربة «القص واللصق» أيضًا، ولا يشير إلى حالات معيّنة إلّا حين تذكرها النظريات الخاضعة للمراجعة. كما أنه سيشدد على القيمة النظرية للتحليلات التاريخية المتعمقة والدراسات المقارنة برمّتها، ويقترح في الحقيقة هذه الطريقة بوصفها سبيلًا للخروج من المأزق التحليلي الذي يميز المجادلات الراهنة.

أخيرًا، لا يزعم هذا الكتاب الشمولية. ومع أنه يضم الآن مزيدًا من المنظّرين (ومنهم غير الغربيين) مقارنة بحاله سابقًا، فإنه لا يزال يهمل كثيرًا منهم، ولا سيما أصحاب المساهمات المكتوبة باللغات غير الإنكليزية. ولا توجد طريقة ذات معنى تبرر الخيار المتخذ هنا باستثناء إعادة توكيد النقطة المقدَّمة آنفًا: أي انتقاء كهذا لا بد من أن يكون جزئيًا. لكنني أعتقد فعلًا أن اختياري يعبّر عن النزعات الرئيسة في الميدان، ويعرض لمحة عامة ومتوازنة للمساهمات الرئيسة كلها في الجدل النظري حول القومية.

---

(٢١) John Breuilly, «Dating the Nation: How Old Is an Old Nation?,» in: Ichijo and Uzelac, eds., *When Is the Nation?*.

(٢٢) للاطلاع على تفحص استقصائي تفصيلي للحالات اليونانية والتركية، انظر: Umut Özkirimli and Spyros A. Sofos, *Tormented by History: Nationalism in Greece and Turkey* (London: Hurst, 2008).

ثالثًا: البنية الهيكلية

للتفكير التأملي بالقومية ماض طويل، والافتراضات والقناعات المبكرة مستمرة في إلقاء ظلّها على المناقشات المعاصرة بشأن القومية. وأخذًا لذلك كله في الاعتبار، سوف أبدأ الدراسة والمعاينة بوضع المجادلات الراهنة في موقعها التاريخي والنظري.

سوف تكرِّس الفصول الأربعة اللاحقة لمناقشة المواقف النظرية الرئيسة في ما يتعلق بالقومية. وسيُفتتح كل فصل بنظرة شاملة إلى مختلف نسخ المقاربة النظرية المعنية. ثم يوجز الانتقادات الرئيسة الموجّهة إلى هذه المقاربات، ويختتم بمناقشة بمساهمات المنظّرين الذين حاولوا إعادة صوغ هذا الموقف في الأعوام الأخيرة.

وفقًا لهذه النزعة العامة في الميدان، سوف أبدأ مناقشتي بمقاربات المنظّرين المبكرة. ومن ثم، سوف يتفحص **الفصل الثاني** النسخ المختلفة من المرحلة «البدائية» المبكرة، أي التفسيرات القومية، والاجتماعية ـ الحيوية (البيولوجية)، والثقافية، والمتواترة. يركز **الفصل الثالث** على الحداثة. وبعد أن آخذ في الحسبان الفوارق بين المنظّرين المنتمين إلى هذه الفئة، سوف أقسمهم إلى ثلاث مجموعات في ما يتعلق بالعوامل المفتاحية التي حدّدوها في تحليلاتهم. وهكذا، سوف يُناقَش باحثون وأكاديميون، من أمثال توم نيرن (T. Nairn) ومايكل هيكتر (M. Hechter) اللذين شدّدا على أهمية العوامل الاقتصادية، تحت عنوان «التحولات الاقتصادية»؛ ويناقش أمثال جون بروييللي، وبول ر. براس (R. Brass)، وإريك جيه. هوبزباوم، الذين أكدوا دور السياسة وصراعات القوة بين النخب المتنازعة، تحت عنوان «التحولات السياسية»؛ وأخيرًا، سيناقش أمثال إرنست غيلنر (E. Gellner)، وبينيديكت أندرسون (B. Anderson)، وميروسلاف هروش (M. Hroch)، الذين أعطوا الأولوية للعوامل الاجتماعية والثقافية، تحت عنوان «التحولات الاجتماعية / الثقافية». سوف يستكشف **الفصل الرابع** الرمزية ـ الإثنية، مع تركيز اهتمام خاص على مساهمات رائدين لهذه المقاربة: جون أرمسترونغ (J. Armstrong) وأنتوني د. سميث. وسيكرِّس **الفصل الخامس** للمقاربات الحديثة للقومية. وسأحاول في هذا الفصل أولًا إثبات صحة زعم

أننا دخلنا مرحلة جديدة في الجدل النظري منذ نهاية ثمانينيات القرن العشرين. ثـم أناقـش أعمال مايـكل بيليغ، ونيرا يوفـال ـ ديفيز، وبارثا تشـاترجي، وكريغ كالهون، وروجرز بروبيكر لتوضيح مواقف الجيل الجديد من مبحث القومية.

فـي الفصـل السـادس سـأعرض أولًا نقـدًا للتقسـيم الثلاثي الذي شـاع اسـتخدامه في تصنيـف مختلف المواقـف النظرية. ثم أقدم تقويمًا كلاسـيكيًا للمواقـف نفسـها، وأقتـرح إطارًا بديـلًا للتحليل يمكن اسـتخدامه في دراسـة القوميـة. وأختتـم بعـرض بعض الأفـكار التأملية عن الحالة الراهنة ومسـتقبل الدراسات القومية.

مراجع إضافية

مثلما أشرت آنفًا، هنالك الآن نصوص تمهيدية عدة عن القومية. لا يزال من بينها نـص سـميث (١٩٨٣) [١٩٧١] العمل المعيـاري المرجعي للنظريـات التي ظهرت في خمسينيات وستينيات القرن العشرين. وتبدو حقيقة أن سميث مساهم في الجدل المعاصر أكثـر جلاء في دراسـاته ومسـوحه المتأخـرة للميـدان، أي في كتـاب *Nationalism and Modernism* وكتـاب *Nationalism* اللذيـن تأثّـرا بجرعـة كبيرة من الشـك فـي الحداثة: [Anthony D. Smith: *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998), and *Nationalism* [(*Ideology, History*, Key Concepts (Malden, Mass.: Polity Press, 2001)]. للاطّلاع على مراجعـات أكثـر شـمولًا وتوازنًـا تعطـي المقاربـات الحديثـة مـا تسـتحقه مـن وزن وتأثيـر، انظـر: Graham Day and Andrew Thompson, *Theorizing Nationalism*, Consultant Editor Jo Campling (Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2004), and Jyoti Puri, *Encountering Nationalism*, 21st-Century Sociology; 6 (Malden, MA: Blackwell, 2004).

في ما يتعلق بالحالة الراهنة للنشاط في الجدل الكلاسيكي، انظر: Atsuko Ichijo and Gordana Uzelac, eds., *When Is the Nation?: Towards an Understanding of Theories of Nationalism* (Milton Park Abingdon, Oxon; New York: Routledge, 2005).

فـي مـا يتصـل بتأريـخ الجـدل النظـري عـن القوميـة، انظـر: Paul Lawrence, *Nationalism: History and Theory* (Harlow, England; New York: Pearson Education, 2005).

من بين الكتب التعليمية والكتيبات المختلفة، يبرز عمل إيلي وسـوني وديلانتي وكومـار الأول بسـبب المسـاحة التـي خصصها للتفسـيرات البديلة، والثاني لشـمولية الموضوعات ونوعية المساهمات الفردية: [Geoff Eley and Ronald Grigor Suny, eds., *Becoming National: A Reader* (New York: Oxford University Press, 1996), and Gerard Delanty and Krishan Kumar, eds., *The SAGE Handbook of Nations and Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2006)].

أمّا مجموعة المقالات التي كتبها كل من بيريوال وبالاكريشنان فبحاجة أيضًا إلى ذكرها في هذا السياق. [Sukumar Periwal, ed., *Notions of Nationalism* (Budapest; New York: Central European University Press, 1995), and Gopal Balakrishnan, ed., *Mapping the Nation*, with an Introduction by Benedict Anderson (London: Verso, 1996)].

من ناحية أخرى، تُعَدّ موسوعة *Encyclopedia of Nationalism* (٢٠٠٢) التي كتبها موتيل في جزأين، مصدرًا شاملًا لكل مهتم بالقومية، إذ إنها تفسر وتحلل بطريقة شاملة، ولم يقتصر الأمر على نظريات القومية. وأنصح على وجه الخصوص بالمقالات التي كتبها لايتين، وسوني، ووُكر، وكايزر، ودبليو سميث في الجزء الأول (المرتب بحسب الموضوعات) من الموسوعة.

بغضّ النظر عن هذه المراجع كلها، يجب على القارئ مراجعة مختلف المجلات المتخصصة بالقومية، مثل: *Ethnic and Racial Studies*؛ *Nation and Nationalism*؛ *Nationalism and Ethnic Politics*؛ *National Identities*؛ *Nationalities Papers*؛ *Ethnicities*؛ *Ethnopolitics* وغيرها، إضافة إلى *Studies in Ethnicity and Nationalism*، المجلة نصف السنوية لجمعية دراسة الإثنية والقومية، التي تشمل، فضلًا عن المقالات القصيرة المرتبة بحسب الموضوع، لائحة بالجمعيات، ومراكز الأبحاث، والمجلات، والنشرات المكرسة لدراسة القومية، وقسمًا للمطبوعات التي صدرت حديثًا.

الفصل الأول

خطابات ومجادلات بشأن القومية

أولًا: لمحة تاريخية

ربما انطلقت الدراسة الأكاديمية عن القومية في القرن العشرين، لكن القومية ذاتها، بوصفها أيديولوجيا وحركة اجتماعية وسياسية، كانت موجودة وحاضرة منذ نهاية القرن الثامن عشر على أقل تقدير. لقد سال حبر كثير منذ ذلك الحين، أولًا من أقلام الفلاسفة، ثم المؤرخين، في محاولة للتعامل معها وفهمها حين تبيّن بسرعة أن القومية ليست شيئًا يمكن تجاهله أو «كنسه تحت السجادة»، إذا جاز التعبير ـ ولا مرحلة موقتة في الارتقاء التاريخي للمجتمعات البشرية. كان الاهتمام بالقومية في معظم هذه الحقبة أخلاقيًا وسياسيًا أكثر منه تحليليًا، لكن هذه الحقبة هي التي ستعرف لاحقًا باسم «عصر القومية»، ولم يتمكن أي مشارك في المجادلات الفكرية أو السياسية في ذلك الوقت من البقاء غير مبالٍ إزاء جاذبيتها العاطفية / الوجدانية. لكن هذه التأملات، سياسية كانت أم لا، خلفت رؤى نظرية مهمة إلى الأجيال اللاحقة، وسيكون من «قصر النظر» مناقشة المجادلات النظرية المعاصرة حول القومية من دون أخذ هذا السياق التاريخي الأعرض في الحسبان.

لذلك، سوف أبدأ مراجعة الميدان النظري بمناقشة للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر، في محاولة لاقتفاء ارتقاء فكرة القومية وتطوّرها. وسوف يكون انتقائي للمفكرين ناقصًا بالضرورة، نظرًا إلى عدم وجود إجماع واسع في الميدان على المفكرين أو الأفكار التي ساهمت في نشوء الفكر القومي. وسوف أحاول بعد ذلك التركيز على كتابات أولئك المفكرين الذين شاع بين معظم، لا جميع، الباحثين والأكاديميين الاعتراف بدورهم في صوغ فكرة القومية.

تجدر الإشارة منذ البداية إلى أن القرن الثامن عشر لا يحتل مكانًا بارزًا في التصنيفات الحديثة للجدل النظري بشأن القومية، وهذا منطقي بمعنى من

المعانـي، نظـرًا إلـى صعوبـة اعتبـار تأمـلات مفكـري عصـر الأنـوار وأفكار الرومنسـيين الألمـان «نظريـات» عن الأمـم أو القومية. ولذلـك، يبدأ لورنس (P. Lawrence)[1] مراجعتـه مـن عـام ١٨٤٨، ليظهـر من دون لبـس أن هدفه هو إنتاج تأريخ لنظريات القومية. ويبدأ داي وتومبسون (G. Day and A. Thompson)[2]، مـن ناحيـة ثانية، مـن الحقبة ذاتهـا تقريبًا، مـع التركيز على التراث الماركسـي وميراثه. سـوف أبدأ قبل قرن من الزمان، مع كتابات كانط، وروسـو، وهيردر، وفيختـه، نظـرًا إلـى أن هدفـي الرئيس في هذا الفصـل هو اقتفـاء ارتقاء فكرة القوميـة، لا نظريـات القوميـة. وفي ما عدا ذلك، سـوف أتّبع غالبًـا التصنيف التقليدي الشائع في الميدان، الذي يميز بين مرحلتين في تطور الجدل النظري فـي القـرن العشـرين: من عام ١٩١٨ إلـى عام ١٩٤٥، ومن عـام ١٩٤٥ إلى يومنـا الحاضـر[3]. لكن سـأقدّم الحجّة علـى ضرورة عدم التعامـل مع الحقبة اللاحقة على عام ١٩٤٥ بوصفها مرحلة واحدة، وأقترح أن بعض الدراسـات المنتجة في العقد الأخير تؤشـر إلى مرحلة جديدة في دراسـة القومية، وأضع الافتراضات الجوهرية التي ارتكز عليها الجدل «الكلاسيكي» موضع المساءلة. وتبنّـى هـذا التصنيفَ داي وتومبسـون أيضًا، اللذان أشـارا إلى جـدل «ما بعد كلاسـيكي» تطوّر منذ أوائل تسـعينيات القـرن الماضي[4]. يمكـن طبعًا تقديم الحجّـة علـى أن مـن المبكـر جـدًا الحديـث عن مرحلـة جديـدة، وأن معظم التحليـلات مغاليـة فـي تجزّؤهـا وتشـظّيها بحيث يتعـذر إنتاج «رواية سـردية شـاملة» عن القومية[5]. ومقابل هذا الرأي، سـوف أشـدد على القيود المحدّدة للروايات السردية الشاملة، وسوف أؤكد أن القضايا التي تجلب إليها المقاربات الحديثة الانتباه سوف ترسّخ نفسها في ميدان دراسات القومية.

---

(١) Paul Lawrence, *Nationalism: History and Theory* (Harlow, England; New York: Pearson Education, 2005).

(٢) Graham Day and Andrew Thompson, *Theorizing Nationalism*, Consultant Editor Jo Campling (Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2004).

(٣) انظر: Tim Snyder, «Kazimierz Kelles-Krauz (1872–1905): A Pioneering Scholar of Modern Nationalism,» *Nations and Nationalism*, vol. 3, no. 2 (July 1997).

(٤) Day and Thompson, pp. 12-17 and chaps. 5 and 6.

(٥) للاطّلاع على مثل هذه الحجة، انظر: Anthony D. Smith, *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998), p. 219.

من ثم سوف أحدّد أربع مراحل في التفكير في القومية ودراستها:

ـ القرنان الثامن عشر والتاسع عشر، حين ولدت فكرة القومية. هنا، سوف تُناقش بإيجاز مساهمات مفكرين مثل: كانط؛ روسو؛ هيردر؛ فيخته؛ ميل؛ لورد أكتون؛ ماركس؛ إنغلز؛ لينين؛ لوكسمبورغ؛ باور؛ ستالين، ومؤرخين مثل المؤرخين دوركهايم وفيبر.

ـ ١٩١٨ - ١٩٤٥، حين أصبحت القومية موضوعًا للاستقصاء الأكاديمي. وسوف تستقصى في هذا السياق أعمال كارلتون هيز (C. Hayes) وهانز كوهن ولويس سنايدر.

ـ ١٩٤٥ - ١٩٨٩، حين أصبح الجدل النظري حول القومية أكثر كثافة وتنوعًا، مع مساهمات مختلف الفروع المعرفية. هنا، سوف تناقش مساهمات منظّري التحديث مثل دانييل ليرنر (D. Lerner) وكارل و. دويتش (K. W. Deutsch) والمنظرين الأقدم مثل إيلي كدوري[*] (E. Kedourie).

ـ من عام ١٩٨٩ إلى الوقت الحاضر، حين جرت محاولات لتجاوز الجدل الكلاسيكي (المميز للمرحلة الثالثة).

ثانيًا: القرنان الثامن عشر والتاسع عشر

هل تمتعت القومية بـ«مفكرين شموليين عظماء»؟ إجابة أندرسون عن هذا السؤال واضحة لا لبس فيها: «خلافًا لمعظم النظريات الأخرى، لم تنتج القومية مفكرين عظماء: لم تمتلك أمثال هوبز أو توكفيل أو ماركس أو فيبر»[٦]. ووفقًا لغيلنر، لم يُحْدث المفكرون الموجودون فارقًا مهمًّا على أي حال: «إذا سقط أحدهم تقدم آخرون لأخذ مكانه. لم يكن أحد منهم ضروريًا ولا غنى عنه». ويستنتج: «لن نعلم الكثير عن القومية من دراسة أنبيائها» لأنهم عانوا وعيًا مزيفًا منتشرًا على أوسع نطاق[٧]. لكن باحثين آخرين، أشهرهم أوليري

(*) الاسم الأصلي لهذه العائلة العراقية «خضوري».

(٦) Benedict Richard O'Gorman Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*, Rev. and Extended ed. (London; New York: Verso, 1991), p. 5.

(٧) Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Oxford: Blackwell, 1983), pp. 124-125.

(B. O'Leary)، يخالفون هذا الرأي: «من الغريب عدم تصنيف فيبر في فئة المفكرين القوميين العظماء، والأغرب ألّا يعد روسو وبيرك وجون ستيوارت ميل وفريدريك ليست (F. List)، من عظماء المفكرين القوميين»[8]. تكمن المشكلة هنا في تحديد من يمكن أن يُعَدّ «مفكرًا قوميًا لا في تقرير هل يُعَدّ هؤلاء الذين ساهموا فكريًا في العقيدة القومية «عظماء» أم لا. يتضح ذلك باطّراد في العبارة الآتية لياك (Yack): «لا توجد نصوص نظرية عظيمة شاملة توجز القومية وتدافع عنها. لا يوجد ماركس، ولا ميل، ولا مكيافيللي. بل مجرّد نصوص ثانوية لمفكرين من الدرجة الأولى، مثل فيخته، أو نصوص رئيسة لمفكرين من الدرجة الثانية، مثل ماتزيني (Mazzini)»[9]. وبالطبع، كتب ماركس وميل فعلًا عن القومية، إلى جانب آخرين، مثل هيردر وروسو، ويبدو من الغريب شطب مساهماتهم لمجرّد أنهم لم يتعاملوا مع المشكلة بطريقة منهجية منظمة، أو لم يضعوها في البؤرة المركزية لتحليلاتهم. إذًا، من أين نبدأ؟

تُرجِع أغلبية دراسات القومية أصول العقيدة القومية عمومًا إلى الفكر الرومنسي الألماني - أي إلى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر تقريبًا. لكن مفكري هذه الحقبة تأثروا تأثرًا شديدًا بالركائز الفلسفية التي وضعها أسلافهم، ولا سيما كتابات كانط وروسو، الشخصيتين النافذتين في تراث عصر الأنوار. وفي الحقيقة، بدأ كل شيء مع كانط، وفقًا لكدوري[10]، الذي يشرح القومية بتعابير التغيرات الزلزالية الهائلة في الفلسفة الأوروبية.

قد يبدو ذلك مكانًا غريبًا للانطلاق نظرًا إلى أن كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤)

---

(٨) Brendan O'Leary, «Ernest Gellner's Diagnoses of Nationalism: A Critical Overview, or, What Is Living and What Is Dead in Ernest Gellner's Philosophy of Nationalism,» in: John A. Hall, ed., *The State of the Nation: Ernest Gellner and the Theory of Nationalism* (New York: Cambridge University Press, 1998), p. 87, and K. Minogue, «Ernest Gellner and the Dangers of Theorising Nationalism,» in: John A. Hall and Ian Charles Jarvie, eds., *The Social Philosophy of Ernest Gellner*, Poznań Studies in the Philosophy of the Sciences and the Humanities; no. 48 (Atlanta, GA; Amsterdam: Rodopi, 1996).

(٩) ورد في: Ronald Beiner, «Introduction: Nationalism's Challenge to Political Philosophy,» in: Ronald Beiner, ed., *Theorizing Nationalism*, SUNY Series in Political Theory. Contemporary Issues (Albany, NY: State University of New York Press, 1999), p. 2.

(١٠) Elie Kedourie, *Nationalism*, 4th Expanded ed. (Oxford, UK; Cambridge, Mass., USA: Blackwell, 1993).

كان فيلسوف الشمولية الأخلاقية بامتياز(١١). لكن التبعات السياسية للازدواجية الأخلاقية والمعرفية (الإبستمولوجية) التي أنتجها كانت واسعة النطاق(١٢). يكمن في صميم هذه الازدواجية فصل بين العالم الخارجي، أو الظاهراتي، وعالم الإنسان الداخلي. وفي رأي كانط، يتمثّل مصدر المعرفة في عالم الظواهر؛ فمعرفتنا مؤسسة على الإحساسات المنبثقة من الأشياء بحد ذاتها. لكن عالم الظواهر هو عالم «المصادفات التي يتعذّر تفسيرها» و«الضرورات الحديدية»، وإذا استُمدت مبادئنا الأخلاقية أيضًا من هذا النوع من المعرفة، «فلن نكون أحرارًا أبدًا، بل سنظل عبيدًا دومًا إمّا للصدفة الطارئة وإمّا للقوانين الشخصية العمياء». ومن ثم، يجب فصل الأخلاق عن المعرفة، وبالتالي عن عالم الظواهر، عالم المظاهر: بدلًا من ذلك يجب أن تكون «نتيجة الخضوع لقانون كوني شامل يوجد داخل ذواتنا»(١٣).

يؤكد كانط أن البشر لا يمكنهم أن يكونوا أحرارًا إلّا حين يطيعون قوانين الأخلاق التي يجدونها داخل ذواتهم، لا في العالم الخارجي. وهذا، وفقًا لكدوري، تعريف ثوري للحرية. ساوى كانط بين «الفضيلة» و«الإرادة الحرة». من ناحية ثانية، لم تكن الحرية ولا الفضيلة تعتمد على أوامر الخالق ونواهيه. ومن هنا أتت الصيغة الجديدة: «النية الحسنة تجاه الآخرين، التي هي إرادة حرة، إرادة مستقلة أيضًا». وهذه صيغة ثورية أيضًا لأنها وضعت الفرد في مركز الكون ونصّبته حاكمًا عليه، «بطريقة لم يتصورها قط الثوريون الفرنسيون أو أسلافهم من المثقفين والمفكرين»؛ «ومن ثم أصبح تقرير المصير خيرًا سياسيًا أسمى». ويعترف كدوري باستحالة تحميل كانط مسؤولية استخدامات مبدئه، لكن تعاليمه عبّرت عن موقف جديد تجاه المسألتين السياسية والاجتماعية، وعن «مزاج سياسي جديد» سيصبح في ما بعد شائعًا بين الطبقات المثقفة في ألمانيا(١٤).

---

(١١) P. M. Kitromilides, «Enlightenment and Nationalism,» in: Athena S. Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, Consultant Advisor Anthony D. Smith (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001).

(١٢) Anthony D. Smith, *Theories of Nationalism*, 2nd ed. (London: Duckworth, 1983), pp. 31-32.

(١٣) Kedourie, *Nationalism*, p. 14.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٧ - ٢٣.

لكـن أحدًا لم يسـاهم على الأرجـح في فكرة «تقريـر المصير» أكثر من الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨)، الذي مارست أفكاره تأثيرًا في كانط، ومن أهمها فكرته عن «الإرادة العامة». في رأي روسو، يتمثّل أعظم خطر يواجهه الإنسـان حين يعيش في مجتمع، في مقابل حالة الطبيعة، فـي «احتمال طغيـان إرادة الآخرين». ومن أجل اتخاذ الاحتياطات المناسـبة لدرء هذه الخطر، يحتاج البشر إلى مبادلة إرادتهم الأنانية بـ«الإرادة العامة». وهذه لا يمكن تحقيقها إلّا إذا توقفوا عن أن يكونوا بشـرًا طبيعيين ليصبحوا مواطنيـن بـدلًا مـن ذلك. البشـر الطبيعيون يعيشـون من أجل أنفسـهم، بينما يعتمـد المواطنـون علـى الجماعة التـي هم جزء منهـا: «يضـع كل واحد منا شـخصه وقوتـه كلها بطريقة مشـتركة تحت التوجيه الأسـمى لـلإرادة العامة، وفـي طاقتنا الجماعية، نتلقى كل عضـو بوصفه جزءًا لا يتجزأ من الكل»(١٥). ولا يصبح أي ارتباط سياسي مبرَّرًا ومعقولًا، كما اعتقد روسو، إلا إذا تمكّن مـن حمايـة البشـر من نـزوات الآخريـن: «لا يمكـن أن يحدث ذلـك إلا إذا استبدل القانون بالفرد، وإذا تمكّن من توليد إرادة عامة وسلّحها بقوة تتجاوز قوة أي إرادة فرديـة»(١٦).

لكن روسـو أدرك تمامًا أن المواطَنة التي تسـتلزم الخضوع للإرادة العامة، لن توجد تلقائيًا: «من أجل تحقيق هذه الدرجة من الوحدة، يجب إيجاد شعور بالفخـر والاعتـزاز بالانتماء الوطنـي، حيث يرى كل مواطن فـي المواطَنة خيرًا أخلاقيًا أسـمى»(١٧). ولا يمكن خلق هذا الشـعور بالفخر والاعتزاز، هذا الوعي بالانتمـاء الجماعي، إلّا عبر الشـعور الوطني، ذلك «الشـعور الجميل والحيوي الـذي يمنـح قوة حب الذات جمال الفضيلة كله، ويزوّدها بالطاقة التي تجعلها، مـن دون أن تشـوّهها، أكثـر أنـواع العواطف بطولـة»(١٨). كان هذا فـي الحقيقة

---

(١٥) Jean-Jacques Rousseau, «The Social Contract: The Origin of Inequality; and the Government of Poland (1754-72),» in: Vincent P. Pecora, ed., *Nations and Identities: Classic Readings*, Keyworks in Cultural Studies; 1 (Malden, Mass.: Blackwell, 2001), p. 75.

(١٦) Frederick M. Barnard, «Patriotism and Citizenship in Rousseau: A Dual Theory of Public Willing?,» *Review of Politics*, vol. 46, no. 2 (April 1984), p. 246.

(١٧) Frederick M. Barnard, «National Culture and Political Legitimacy: Herder and Rousseau,» *Journal of the History of Ideas*, vol. 44, no. 2 (April - June 1983), p. 239.

(١٨) ورد في: Barnard, «Patriotism and Citizenship in Rousseau,» p. 250.

ما أراد روسو قوله عن الميثاق البولندي حين طُلب منه النصح والمشورة في ما يتعلق بدستور لبولندا المستقلة:

هنالك متراس (Rampart) واحد.. سيظل دومًا يجهز للدفاع، ولن يستطيع جيش اختراقه؛ إنه فضيلة مواطنيه، وحماستهم الوطنية، في الطابع المميز الذي تستطيع المؤسسات الوطنية طبعه وغرسه في نفوسهم.. إذا أسبغت صفة أخرى على عواطف البولنديين؛ تشكل عقولهم وقلوبهم في نمط وطني يميزهم من سواهم من الشعوب، ويحول دون امتصاصهم من الشعوب الأخرى[١٩].

من ناحية أخرى، يُعَدّ التعليم أنجع الطرق لغرس الشعور الوطني:

التعليم هو الذي يجب أن يُعتمد عليه لتشكيل نفوس المواطنين في النمط الوطني.. فالوليد، حين يفتح عينيه، يجب أن ينظر إلى الوطن الأم، وألّا يبصر شيئًا آخر حتى يوم وفاته. إن جمهوريتكم الحقيقية هي إنسان يرضع الحب لوطنه الأم، حب للقوانين والحرية، مع حليب أمه. يكون هذا الحب وجوده بأكمله.. وفي اللحظة التي يفقد فيها وطنه الأم يكف عن الوجود؛ فإذا لم يكن ميتًا فهو في وضع أسوأ من الموتى[٢٠].

جسّد المفكر الألماني يوهان غوتفريد فون هيردر (J. G. von. Herder) (١٧٤٤ - ١٨٠٣) الصلة الرابطة بين التنوير والرومانسية الألمانية. وما يميز هيردر من مفكري عصر الأنوار، مثل روسو ومونتيسكيو، هو اعتقاده بفرادة الثقافات الوطنية وعدم قابليتها للقياس. وهذا ينطبق خصوصًا على اللغة التي «تحمل طابع ذهن الجماعة الوطنية وشخصيتها»، وفقًا لهيردر:

هل تملك الأمّة أثمن من لغة آبائها؟ يسكن في هذه اللغة عالم كامل من التراث والتاريخ والدِّين ومبادئ الحياة وقلبها وروحها. وحرمان الأمّة من لغتها أو الحط من شأنها، هو حرمانها من أثمن ما تملك[٢١].

---

(١٩) Rousseau, p. 77.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٧٩ - ٨٠.

(٢١) ورد في: Derek Heater, *The Theory of Nationhood: A Platonic Symposium* (Basingstoke: Macmillan, 1998), pp. 68-69.

اللغة شيء داخلي، تعبير عن أفكار الإنسان ومشاعره الجوانية الكامنة في أعمق أعماقه، مثل الروابط الثقافية الأخرى التي تربط أفراد أمة؛ هذه الروابط ليست «أشياء أو أدوات صنعها البشر مفروضة من الأعلى، لكنها طاقات حية تنبثق من الداخل»(٢٢). ومن ثم، فإن «الأمة نبتة الطبيعة؛ نبتة طبيعية تماثل العائلة، لكن مع مزيد من الفروع؛ وأكثر الحالات طبيعية.. هي أمة واحدة، عائلة ممتدة لها شخصية وطنية واحدة»(٢٣). في هذا السياق، يعترض هيردر على قهر أمة لأمة:

لا شيء.. أكثر وضوحًا في تناقضه مع هدف الحكم السياسي من التوسّع غير الطبيعي للدول، والخلط الجامح لمختلف الأعراق والقوميات تحت سلطة إمبراطورية واحدة. فمثل هذه الدول.. محرومة كليًا من الحياة الداخلية، وأجزاؤها التكوينية متصلة عبر تدابير آلية بدلًا من روابط العاطفة(٢٤).

في إطراء فضائل تنوع الثقافات، تمثّل هدف هيردر في إنكار الشمولية الكونية لعصر الأنوار؛ فالنظام السياسي الذي تصوّره مستلهم من نموذج العبرانيين القدماء الذين كانوا واعين، كما يُزعم، بأنفسهم بوصفهم «شعبًا واحدًا»، على الرغم من تشظّيهم المؤسسي وتفتّتهم القبلي. وفي مثل هذا النظام «شبه التعددي»، يكون الأفراد أحرارًا في السعي وراء مصالحهم المتنوعة وتشكيل مؤسسات مستقلة متنوعة لخدمة هذه المصالح(٢٥). وخلافًا للحكمة الشائعة إذًا، تتعلق رؤية هيردر بتعددية الثقافات والاحتفاء بها، لا بالقومية الاستبعادية والإقصائية. وهو يدرك في الحقيقة منافع توحيد الألمان؛ «فصل البروسيين عن بقية الألمان عملية محض مصطنعة.. بينما يعتمد فصل الألمان عن الأمم الأوروبية الأخرى على الطبيعة»(٢٦). لكن لا يوجد «شعب مختار» في خطته المرسومة للأشياء. «لا توجد جنسية اصطفاها الله وحدها

(٢٢) Barnard, «National Culture and Political Legitimacy,» pp. 242-243.

(٢٣) Heater, p. 79.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) Barnard, «National Culture and Political Legitimacy,» pp. 246-247.

(٢٦) ورد في: Heater, p. 79.

بوصفها شـعبًا مختارًا للأرض؛ وفوق كل شـيء يجب أن نبحث عن الحقيقة ونرعى حديقة الخير العام»[٢٧].

لسـوء الحظ، لم تكن إنسانوية هيردر هي التي حققت أعمق الاختراقات فـي القرن التاسـع عشـر والفكر الرومانسـي الألماني. فبالنسـبة إلـى القوميين والرومانسـيين، مثلما يلاحـظ بارنارد، «كان دفاعه المثير والنشـط عن اللغات المحليـة باعتبارهـا كنـوزًا يسـتحيل قياسـها، أو انتقـاده المشـحون بالعاطفـة الوجدانية للتنوير الأوروبي، هو المهم أولًا وقبل كل شيء»[٢٨].

تلميـذ كانط، يوهان غوتليـب فيخته (١٧٦٢ - ١٨١٤) هـو الذي أضفى علـى هـذه الأفكار تلوينـًا «ألمانيًا» خاصًـا. ويمكن العثور علـى أوضح عبارة تصريحيـة متعلقـة بأفكار فيخته عـن القومية في كتابه الشـهير *Addresses to the German Nation* (**خطابـات إلـى الأمّـة الألمانيـة**) التـي ألقاهـا بيـن عامـي ١٨٠٧ و١٨٠٨، في أعقاب الهزيمة التي ألحقتها فرنسا ببروسيا في معركة يينا (Jena) عـام ١٨٠٦. كان فيختـه واضحًـا كل الوضـوح فـي مـا يتعلـق بغرض الخطابات وجمهورها:

أريد أن أجمع.. من فوق ترابنا المشـترك كله رجالًا من عواطف وعزائم متشـابهة، وأربطهم معًا، بحيث تتّقد في هذه المرحلة المركزية شـعلة واحدة، ومتواصلة، ولا تنطفئ للنزعة الوطنية، تنتشـر فوق تراب الوطن الأم كله حتى أقصى حدوده[٢٩].

فـي رأي فيختـه، «الألمانـي وحده.. ينتمي إلى شـعب حقًـا، وهو مؤهل للاعتمـاد علـى شـعب، وهـو وحـده قـادر علـى الحـب الحقيقـي والعقلاني لأمته»[٣٠]. وفي الحقيقة، فإن الألمان هم الشـعب الأصلي (Urvolk)، المكلّف برسـالة تجـاه بقيـة البشـر ـ إقامـة الدولـة المثاليـة: «الأولوية لجميـع الألمان

---

(٢٧) ورد في: المصدر نفسه، ص ١٠٨.

(٢٨) انظر: المصدر نفسه، ص ٣٥ و٥٧-٦٤، و Frederick M. Barnard, *Herder on Nationality, Humanity, and History*, McGill-Queen's Studies in the History of Ideas; 35 (Montreal; Ithaca: McGill-Queen's University Press, 2003), p. 12.

(٢٩) ورد في: Heater, p. 111.

(٣٠) Johann Gottlieb Fichte, «Addresses to the German Nation,» in: Pecora, ed., pp. 115.

المدعويـن هي البدء بحقبة جديدة بوصفهم روادًا ونماذج يحتذى مثالها لبقية البشر.. وسوف ترى هذه الأمّة منقذة للعالم ومعيدة لتكوينه ومجددة له»[٣١].
لكن ما الذي يجعل الألمان على هذا القدر من الخصوصية في عيني فيخته؟ ثقافتهـم الرفيعـة، وفـوق كل شـيء لغتهـم. «كلمـا استُعملت الألمانية في الكلام»، يقول فيخته:

يستطيع كل من رأى أولًا ضوء النهار في مجالها أن يَعِدّ نفسـه مواطنًا بمعنـى مـزدوج، الدولة التي ولد فيها من جهة.. وكل الوطن الأم المشـترك للأمـة الألمانيـة، من جهة أخرى. [فـي كل مكان من ألمانيـا] كانت الثقافة الرفيعـة، ومـا زالت، نتيجـة للتفاعل بيـن المواطنين في الولايـات الألمانية كلها: ومن ثم فإن هذه الثقافة الرفيعة تشق طريقها تدريجيًا على هذا الشكل إلى الشعب عمومًا[٣٢].

لا تقتصـر أهميـة اللغـة علـى حالة الألمـان وحدهـم. «أولئـك الذين يتكلمـون اللغـة نفسـها يرتبط أحدهم بالآخـر عبر روابط متعـددة غير مرئية تصنعها الطبيعة ذاتها، قبل زمن طويل من بدء أي تدبير بشـري»، كما يؤكد فيخته بالحجّة:

مـن الثابـت بلا أدنى شـك أنـه كلّمـا وجِدت لغـة منفصلـة توجد أمة مستقلة، تملك الحق في تحمل المسؤولية المستقلة لشؤونها وحكم نفسها.. وحيثما توقف شعب عن حكم نفسه فلا بد من أن يتخلى عن لغته ويندمج مع الغزاة الفاتحين[٣٣].

ليـس من السـهل تقويـم التأثير المباشـر لـ **خطابات فيخته**. ووفقًا لهيتر (Heater) على سـبيل المثال، يجب عدم المبالغة في تضخيم دورها في حشـد الدعـم والتأييـد للوحدة الألمانية؛ إذ لـم يحضر المحاضرات التـي ألقاها في أكاديميـة برليـن فـي أصيـل أيام الآحـاد جمهور كبيـر، ولم تذكرهـا الصحف الألمانيـة الصـادرة في برليـن. ومن ناحية أخـرى، كان عدد أعضـاء المحافل

(٣١) ورد في: Heater, p. 107.
(٣٢) Fichte, pp. 125-126.
(٣٣) ورد في: Heater, p. 69.

الماسونية والجمعيات السرية التي حاولت نشر رسالته محدودًا[٣٤]. لكن تأثير أفكار فيخته على المدى البعيد كان عميقًا. ويقدم كوهن الحجّة على أن فيخته تحدث عن ألماني «مثالي» في خطاباته، شيء لا يمكن إدراكه إلّا بعد عملية تثقيف وتعليم شاملة. لكن ذلك لم يمنعه من أن ينسب إلى الألمان الفعليين تلك السمات والخصائص التي احتفظ بها للألمان «الحقيقيين». وكانت هذه «الخلطة المشوَّشة من الواقع التاريخي والمثالية الميتافيزيقية» هي التي جعلت ميراثه يثير هذا القدر من الجدل الخلافي ويمثل هذه الدرجة من الخطر[٣٥].

لكن لم يظهر أي تشوّش أو ارتباك في كتابات الرومانسيين الألمان، مثل اللاهوتي اللوثري فريدريك شلايرماخر (F. Schleiermacher) (١٧٦٨ - ١٨٣٤)، وصديقه فريدريك شليغل (F. Schlegel) (١٧٧٢ - ١٨٢٩)، وتلميذ فيخته فريدريك فيلهلم شيللينغ (F. W. Schelling) (١٧٧٥ - ١٨٥٤)، والخبير بالشؤون العامة آدم موللر (A. Müller) (١٧٧٩ - ١٨٠٥)، والكاتب المسرحي فريدريك شيللر (F. Schiller) (١٧٥٩ - ١٨٠٥)، والخبير في الشؤون العامة إرنست موريتز آرنيت (E. M. Arnat) (١٧٦٩ - ١٨٦٠)، والداعية التهييجي القومي فريدريك ياهن (F. Jahn) (١٧٧٨ - ١٨٥٢). ويلاحظ كوهن[٣٦] أن فيخته احتل موقعًا فريدًا بين الرومانسيين نظرًا إلى أنه اعتبر الجنسية نامية تاريخية، لا جوهرًا طبيعيًا سرمديًا. وبالنسبة إلى هذا الأخير، فإن الجنسية نامية عضوية تعتمد على العادات والتقاليد المعبّرة عن روح الشعب الأصيلة (Volkgeist). ومن ثم، يعتقد شليغل أن:

من الأنسب للطبيعة أن ينقسم الجنس البشري بصورة صارمة إلى أمم من أن تندمج أمم عدة مثلما حدث مؤخرًا.. فكل دولة كيان فردي مستقل موجود لذاته، وسيد نفسه من دون قيد أو شرط، وله شخصيته الخاصة، ويحكم نفسه بقوانينه وعاداته وتقاليده الخاصة[٣٧].

---

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٢١ و١٣١.

(٣٥) Hans Kohn, «The Paradox of Fichte's Nationalism,» *Journal of the History of Ideas*, vol. 10, no. 3 (June 1949), pp. 336.

(٣٦) Hans Kohn: «The Paradox of Fichte's Nationalism,» and «Romanticism and the Rise of German Nationalism,» *Review of Politics*, vol. 12, no. 4 (October 1950).

(٣٧) ورد في: Kohn, «Romanticism and the Rise of German Nationalism,» p. 460.

ليس من المفاجئ أن يشكل الألمان الأمّة الجوهرية المثالية، شعبًا له «شخصية عظيمة جدًا»:

لا يوجد في أي مكان آخر ما يضاهي هذا العِرق من البشر، إذ يتمتع هؤلاء بخصائص وسمات عدة لا نجد أثرًا لها في أي شعب معروف. أرى في إنجازات الألمان كلها.. مجرّد إشارة دلالية على البدء باقتراب عصر عظيم.. في كل مكان أرى آثارًا للصيرورة والنمو[٣٨].

يكتب شليغل: «من بين الأمم التي فتحت العالم في الماضي، يحتل الألمان مكانة من المرتبة الأولى». و«مع أنهم بالغوا في التشبّث بالمبادئ الأخلاقية بحيث منعهم ذلك من فرض شخصيتهم على الأمم الأخرى، فإنهم رسّخوا جذورهم حيث لم تكن التربة مواتية كثيرًا»[٣٩].

باختصار، كانت الرومانسية ثورة جمالية، حركة للتجديد الأخلاقي والثقافي، وبذلك عارضت عقلانية التنوير وشموليته وتجسّده السياسي ممثّلًا في الثورة الفرنسية. وكانت هذه الأخيرة على الأرجح أهم مصدر سياسي لفكرة القومية نظرًا إلى أن الأمّة أصبحت في سياق الثورة الفرنسية المصدر الشرعي الوحيد للسلطة السياسية. هنا، تشير «الأمة» بدلالتها إلى فكرة «المواطَنة» المشتركة والمتساوية، ومن هنا أتى شعار الثورة الفرنسية: حرية، إخاء، مساواة. وهكذا، استمد الثوريون إلهامهم من كتاب الأب الراهب إيمانويل جوزيف سييز (E.J. Sieyès) **ما هي الطبقة الثالثة؟** (*What is the Third Estate*) في النظام (البائد) القديم، تألف البرلمان الفرنسي من ثلاثة أجزاء: الطبقة الأولى التي تمثّل النبلاء، والطبقة الثانية رجال الدين، والطبقة الثالثة العوام. رفض سييز المزايا الممنوحة للطبقة العليا، وقدّم الحجة على أن أفراد الأمّة جميعهم مواطنون، ومن ثم فهم متساوون أمام القانون:

إحذف نظام الامتيازات وسوف تصبح الأمّة شيئًا أكبر لا أصغر. فما هي إذًا الطبقة الثالثة؟ كل شيء؛ لكن كل شيء خاضع للقيود والقمع. وماذا تكون النتيجة من دون نظام المزايا؟ كل شيء، لكن كل شيء متحرر ومزدهر.. ومن

---

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٤٥٦.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٤٥٨.

ثم تضم الطبقة الثالثة كل شيء متعلّق بالأمة، ولا يمكن لأي فرد خارج الطبقة الثالثة أن يُعَدّ فردًا من الأمّة»[40].

تطلّبت ترجمة هذه الأفكار المتنوعة إلى أيديولوجية كاملة النضج بعض الوقت. لكن العقيدة السياسية التي ندركها اليوم بوصفها قومية ترسخت بقوة مع حلول أوائل القرن التاسع عشر. ومن ناحية أخرى، استمرت المجادلات حول القومية في التعبير عن الاهتمامات الأخلاقية والذرائع السياسية؛ إذ تبنّى بعض المفكرين القومية أو تعاطفوا مع مطالب أمة معيّنة، بينما ذمّها آخرون أو انتقدوها أو أدانوها. لكن مثلما سنرى لاحقًا، لم تكن هذه المواقف ثابتة صلبة كأنها صُبت في قوالب من حجر، بل عُدلت ونُقحت للتوافق مع الظروف المتغيّرة، والأهم مع الوعي المتزايد بأن القومية وجِدت لتبقى. وسوف تشمل مناقشتي للقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الاستجابات الماركسية والليبرالية للقومية، فضلًا عن مساهمات المجالين الوليدين: علم التأريخ والنظرية الاجتماعية.

وثّقت الصعوبات السياسية والنظرية التي مثّلتها القومية للماركسية توثيقًا جدّيًا. وكما يكتب شلومو أفينيري (S. Avineri)، «من بين الظواهر التاريخية كلها التي ناقشها ماركس، كانت الحركات القومية وبزوغ الدولة القومية الأقل إرضاء له»[41]. بل بلغ بعضهم، مثل نيرن (Nairn)، حد الزعم بأن «نظرية القومية تمثّل إخفاقًا تاريخيًا ذريعًا للماركسية»[42]. لكن آخرين لم يوافقوه الرأي؛ إذ يؤكد بينر

---

(40) Emmanuel Joseph Sieyès, *Political Writings: Including the Debate between Sieyès and Tom Paine in 1791*, Edited with an Introduction and Translation of What Is the Third Estate? by Michael Sonenscher (Indianapolis, Ind.: Hackett Pub. Co., 2003), pp. 96 and 98.

(41) Shlomo Avineri, «Marxism and Nationalism,» *Journal of Contemporary History*, vol. 26, nos. 3-4 (1991), p. 638; Ronaldo Munck, *The Difficult Dialogue: Marxism and Nationalism* (London; Atlantic Highlands, NJ: Zed Books, 1986); Ephraim Nimni, *Marxism and Nationalism: Theoretical Origins of a Political Crisis* (London; Concord, Mass.: Pluto Press, 1991); Erica Benner, *Really Existing Nationalisms: A Post-Communist View from Marx and Engels* (Oxford: Clarendon Press; Oxford: New York: Oxford University Press, 1995), and Michael Forman, *Nationalism and the International Labor Movement: The Idea of the Nation in Socialist and Anarchist Theory* (University Park, Pa.: Pennsylvania State University Press, 1998).

(42) Tom Nairn, *The Break-up of Britain: Crisis and Neonationalism*, 2nd Expanded ed. (London: NLB and Verso Editions, 1981), p. 329.

(Benner)، على سبيل المثال، أن ماركس وإنغلز قدّما مجموعة من الحجج التي تتصدى للمسألة القومية، وأن هناك الكثير لنتعلمه منها إذا أردنا فهم القومية في عصرنا الحالي[٤٣]. أمّا مونك (Munck)، من ناحية أخرى، فينتقد محاولات السخرية من أولئك الذين حاولوا فهم القومية والتعامل معها ضمن التراث الماركسي، ويخلص إلى أن «من الضروري الآن صوغ نوع من المقاربة الماركسية المترابطة للقومية على أساس هؤلاء الكتّاب»[٤٤]. إن الموقف الذي يجري تبنّيه هنا أقرب إلى موقف بينر ومونك؛ ربما لم ينتج الماركسيون «نظرية» عن القومية بحد ذاتها، لكنهم ناقشوا بالتأكيد المشكلة في كتاباتهم وضمن إطار المنظمات والمؤتمرات الأممية[*] بدءًا من عام ١٨٦٤. ولن تساعدنا نظرة عامة إلى الحجج المقدمة ضمن التراث الماركسي في فهم أفضل للقومية فقط، بل ستسلط الضوء أيضًا، كما يؤكد بينر، على المجادلات النظرية المعاصرة بين الماركسيين الجدد، من دون أن تكون مقتصرة عليهم.

كان موقف ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وإنغلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) في البيان الشيوعي مؤيدًا للنزعة الأممية. وتستحق المقاطع المثيرة في البيان أن نتذكرها:

..أعطت البرجوازية عبر استغلالها للسوق العالمية الإنتاجَ طبيعة كونية - عالمية (كوزموبوليتانية) في البلدان كلها.. فبدلًا من الاكتفاء الذاتي المحلي والوطني والانعزال، تقوم علاقات متبادلة في كل اتجاه، وتبعية شاملة متبادلة بين الأمم. وما ينطبق على الإنتاج المادي ينطبق أيضًا على الإنتاج الفكري. فالابتكارات الفكرية لكل أمة تصبح ملْكية مشتركة. ويغدو التعصب وضيق الأفق على الصعيد الوطني أكثر استحالة باطّراد. ومن الآداب والوطنية والمحلية ينشأ أدب عالمي[٤٥].

---

(٤٣) Benner, p. 6.

(٤٤) Munck, p. 168.

(*) Internationals: أربع منظمات أممية اشتراكية وشيوعية وفوضوية تشكّلت في أعوام ١٨٦٤، ١٨٨٩، ١٩١٩، ١٩٣٨ (المترجم).

(٤٥) Karl Marx and Friedrich Engels, *The Communist Manifesto: A Modern Edition*, with an Introduction by Eric Hobsbawm (London; New York: Verso, 1998), p. 39.

العمـال لا وطـن لهم. ولا يمكن أن نسـلبهم ما لا يملكـون.. والتباينات القومية والعداوات بين الشعوب تختفي يوميًا بسبب تطور البرجوازية، وحرية التجارة، والسـوق العالمية، والتماثل في نمط الإنتاج وفي الظروف المعيشـية الناجمة عن ذلك كله»[٤٦].

تقدِّم الحجّة في بعض الأحيان على أن بعض فقرات البيان الشيوعي تعبّر عن مشـاعر المؤلِّفين المتناقضة تجاه المسألة القومية. ومن ثم، يزعم ماركس وإنغلز أن نضال البروليتاريا هو أولًا نضال وطني: «يجب على البروليتاريا في كل بلد بالطبع أن تصفّي حسـاباتها مع طبقتها البرجوازية»[٤٧]. لكن تبدو هذه الحجـة غيـر جوهرية؛ حيث أوضح الاثنـان من دون لبـس أن معارك النضال «الوطني» التي يخوضها العمال في مختلف البلدان تسـتهدف توليد المصالح المشتركة لطبقة البروليتاريا برمّتها، «بغضّ النظر عن الجنسية»[٤٨]. وركز مونك على النقطة ذاتها فألح على أن معنى هذه الفقرات بعيد كل البعد من الغموض والإبهـام؛ فعلى العمـال أولًا أن يصبحوا الطبقة القائـدة («الطبقة الوطنية» في النسخة الألمانية الأولى) في أمتهم؛ وعندها فقط يمكنهم العمل على تخفيف حدة العداوات الوطنية. وحين يقول ماركس وإنغلز ذلك، كما يستنتج مونك، فإنهما لا يخونان نزعتهما الأممية[٤٩].

ثمـة جانب أكثـر إثارة للجدل الخلافي في كتابـات ماركس وإنغلز حول المسـألة القوميـة يتعلق فـي انتحالهما التمييـز الهيغلي بين الأمـم «التاريخية» و«غيـر التاريخية». وشـاع تفسـير ذلـك بوصفه إشـارة دلالية علـى تحوّل في مواقـف ماركس وإنغلـز إزاء القومية، اسـتجابة على الأغلـب لظهور حركات وطنية قوية في أعقاب ثورات عامي ١٨٤٨ - ١٨٤٩. على سبيل المثال، يقدم أفينيـري الحجّـة علـى أن ماركس بـدأ رؤية القوميـة بوصفها تعبيـرًا عن البنية الفوقية لحاجة البرجوازية إلى أسواق أكبر وإلى توسع في الأراضي. ومن هذا المنظور، لم تَعُد القومية تعامَل باعتبارها أثرًا باقيًا من العصر ما قبل الصناعي،

---

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٤٩) Munck, p. 24.

بـل تصبـح لبنة أساسـية في صرح الرأسـمالية. وهذا ما قاد ماركـس إلى تأييد توحيد ألمانيا وإيطاليا ومعارضة مختلف الحركات الوطنية في شـرق ووسـط أوروبـا، ولا سـيما تلـك الشـعوب التي حاولـت الانفصال عـن الإمبراطورية النمسـوية ـ الهنغاريـة. فلـو نجحت، كما زعم ماركس، لأبطـأت، أو عرقلت، التصنيـع والتطـور الاقتصادي في هذه المناطق[٥٠]. من ناحية أخرى، احتفظت كتابـات ماركس وإنغلز بتعبير «أمة» للسـكان الدائمين في الدولة القومية، كما يلاحظ نيمني (Nimni)، بينما جرت الإشارة إلى أي مجتمع محلي إثني ـ ثقافي لم يحقق المكانة الوطنية الكاملة، أي دولة خاصة به، بوصفه «جنسية». واعتقد الاثنان أن الجنسيات إمّا ستتحول إلى أمم عبر اكتساب دولة خاصة بها، وإمّا ستبقى «شـعوبًا لا تاريخ لها» (Geschichtslosen Völker). وهذه الأخيرة عاجزة عـن التكيـف مع النمط الرأسـمالي للإنتاج، ومن ثم تعاني حالـةً من الارتداد والنكـوص لأن وجودهـا يعتمد على بقاء النظام القديـم[٥١]. وعلى وجه أعم، يؤكـد ماركـس وإنغلـز أن وجـود لغة وتقاليـد مشـتركة، أو تجانـس جغرافي وتاريخي، لا يكفي لتكوين أمة؛ فالمطلوب مستوى معيّن من التطور الاقتصادي والاجتماعـي، مع أولوية تعطـى للوحدات الأكبر. ووفقًا لمونك، يفسـر ذلك السـببَ وراء اعتراضهمـا علـى التنـازل للدانمارك عن شليسـويغ وهولسـتاين (Schleswig and Holstien) فـي عـام ١٨٤٨؛ فبرأيهمـا، تُعَـدّ ألمانيّـا أكثـر ارتقاء وتقدمًا من الأمم الاسكندنافية بسبب مستواها الأعلى في التطور الرأسمالي[٥٢].

يزعـم بعـض المعلّقين أن ماركس وإنغلز تخلّيا عن هـذا التمييز في أثناء ستينيات القرن التاسع عشر. ويشير مونك إلى حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦)، حيث أيّدا اسـتقلال الشـعوب السـلافية عن السـلطنة العثمانيـة، لتوضيح هذا التغير في الموقـف. ويؤكد أن الحالة الإيرلندية تجسّد مثالًا نموذجيًا أفضل[٥٣]؛ إذ اعتقد ماركس وإنغلز أن إنكلترا لا تسـتطيع السـير على سبيل ثوري إلى أن تحـل المسـألة الإيرلنديـة لمصلحتهـا: «لا يُعَدّ فصـل إيرلندا واسـتقلالها عن

---

(٥٠) Avineri, pp. 640-641.

(٥١) Nimni, *Marxism and Nationalism*, p. 23.

(٥٢) Munck, p. 11.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٥.

إنكلترا خطوة حيوية للتطور الإيرلندي فحسب، بل إنها يحظيان أيضًا بأهمية جوهرية للشعب البريطاني، لأن «الأمة التي تضطهد أخرى تشكّل سلاسلها المقيدة»»[٥٤].

يجب أن نشدّد عند هذه النقطة على عدم وجود اتفاق شامل على أن الحالة الإيرلندية وثيقة الصلة بالموضوع؛ إذ يعدّها مونك نقطة تحوّل في معالجة ماركس وإنغلز للمسألة القومية، ويخصص قسمًا كاملًا لها في كتابه[٥٥]. من ناحية أخرى، يشرح نيمني تأييدهما لاستقلال إيرلندا عبر تعاطفهما عمومًا مع قضية الأمم التاريخية، الذي لا يمتد أبدًا ليشمل الأمم غير التاريخية. وبهذا المعنى، لا يوجد تناقض أو تفكك في منطقهما التحليلي. تستحق الحركتان الوطنيتان الإيرلندية والبولندية الدعم والمساندة، لأنهما تشجعان مسار التقدّم عبر ترسيخ الدول القومية «القادرة على تطوير تناقض صحي بين البروليتاريا والبرجوازية». أمّا الأمم غير التاريخية من ناحية أخرى، فهي إمّا لا تستطيع تطوير طبقة برجوازية لأنها أمم من الفلاحين، وإمّا تعجز عن إقامة دولة خاصة بها، لأنها تعيش في منطقة إقامة مختلطة، أو لأنها صغيرة إلى حد العجز عن إيجاد سوق داخلية. ومن ثم فإن على هذه الأمم السعي وراء تحالفات مع المدافعين عن النظام القديم؛ ويتطلب تدفّق التقدّم الجارف الذي تتعذر مقاومته إمّا التمثّل الطوعي وإمّا فناء هذه المجتمعات المحلية الوطنية[٥٦].

ما هو ميراث آراء ماركس وإنغلز وتأثيرها في الحركة الاشتراكية الدولية؟ وفقًا لأفينيري[٥٧]، من بين المرحلتين اللتين مر بهما تفكيرهما في المسألة الوطنية، مرحلة الأممية في **البيان الشيوعي**، ومرحلة البرجوازية في الأعوام اللاحقة (التي تعاملت مع القومية بوصفها مرحلة ضرورية من التطور الرأسمالي)، تبقى الثانية هي المهيمنة. صحيح أن الحركة الاشتراكية تبنّت موقفًا براغماتيًا عمليًا تجاه المسألة الوطنية منذ تشكُّل الأممية الثانية (منظمة الأحزاب الاشتراكية والعمالية التي تشكّلت في باريس عام ١٨٨٩)، وقدّمت

(٥٤) Nimni, *Marxism and Nationalism*, p. 33.

(٥٥) Munck, pp. 15-20.

(٥٦) Nimni, *Marxism and Nationalism*, p. 33.

(٥٧) Avineri, «Marxism and Nationalism».

دعمًا تكتيكيًا لحركات الاستقلال الوطني للشعوب «المضطهدة»، بتوجيه من لينين، إلّا أن هذه النتيجة بحاجة إلى تحديد بطريقتين اثنتين: أولًا، لم يجرِ التخلي كليًا قط عن النزعة الأممية، نظريًا على أقل تقدير، بوصفها الهدف النهائي للاشتراكية؛ ثانيًا، استمر عدد من الشخصيات النافذة، ولا سيما روزا لوكسمبورغ (١٨٧١ - ١٩١٩)، في التشبث من دون خجل بالموقف المؤيد للأممية، مع المخاطرة بالتعرّض للتهميش السياسي داخل الحركة الاشتراكية. وأي لمحة موجزة عن المجادلات المتأخرة حول المسألة الوطنية سوف تمكّننا من الحكم بطريقة أفضل على ميراث الآباء المؤسسين للاشتراكية.

تُعَدّ الأممية الثانية نقطة انطلاق جيدة في هذا السياق، نظرًا إلى أنها وفّرت منتدى لمناقشة القومية (أو «مسألة القوميات» مثلما شاعت تسميتها)، وهو ما مكّن المفكرين والسياسيين من اليسار الثوري من التعامل مع القضايا الشائكة المتعلقة بالحقوق الوطنية والحق الوطني في تقرير المصير. ومن الممكن تحديد ثلاثة مواقف في ما يتصل بهذه القضايا في سياق الأممية الثانية: الموقف الراديكالي المؤيد للنزعة الأممية الذي تبنّته لوكسمبورغ، والدفاع الاستراتيجي عن حق تقرير المصير الذي تبنّاه لينين، والاستقلال الذاتي الوطني - الثقافي الذي تبنّاه أوتو باور (O. Baur) ورينر[٥٨].

تشكّلت آراء لوكسمبورغ بشأن المسألة الوطنية في ظل ظروف خاصة، ولا سيما في سياق النزاع السياسي بين الحزب الاشتراكي البولندي (PPS) والحزب الديمقراطي الاجتماعي لمملكة بولندا (SDKP) الذي أسسته (تحوّل في ما بعد إلى الحزب الديمقراطي الاجتماعي لمملكة بولندا وليتوانيا (SDKPL) على قضية استقلال بولندا. عارضت لوكسمبورغ، حين وصفت موقف الحزب الاشتراكي البولندي المؤيد للاستقلال بأنه «وطني اجتماعي»، تحرير بولندا على أساس أن مستقبل التطور الاقتصادي البولندي يكمن في روسيا[٥٩]؛ إذ لم يؤد تصنيع بولندا، بفضل السياسات الحمائية للإمبراطورية

---

(٥٨) للاطّلاع على هذا التصنيف، انظر: Forman, *Nationalism and the International Labor Movement*.

(٥٩) Munck, *The Difficult Dialogue*, and Michael Lowy, *Fatherland or Mother Earth?: Essays on the National Question* (London; Sterling, Virginia: Pluto Press, 1998).

القيصرية، إلى تقوية الطبقة البرجوازية وحسب، بل أوجدت أيضًا بروليتاريا مزدهرة. وسيكون استقلال بولندا خطوة إلى الوراء وتراجعًا من وجهة النظر الاشتراكية، لأنه يعيق تطور الرأسمالية في بولندا(٦٠).

على وجه أعم، تعتقد لوكسمبورغ أن «الأمة بوصفها كيانًا اجتماعيًا ـ سياسيًا متجانسًا غير موجودة. بل توجد داخل كل أمة طبقات لها مصالح متعارضة وحقوق متناقضة»(٦١). فالدولة الوطنية هي تشكيل برجوازي خاص، أداة ضرورية وشرط لازم لنموّه. وحين نأخذ هذا بالاعتبار، يصبح الكلام النظري عن «حقوق أمم» تنطبق على الأمم كلها في الأوقات كلّها مجرّد عبارة ميتافيزيقية مبتذلة، تمامًا مثل ما يُدعى «حق العمل» الذي نادى به الطوباويون في القرن التاسع عشر، أو «حق كل إنسان في الأكل من أطباق الذهب» الذي دعا إليه الكاتب تشيرنيشيفسكي (Chernishevsky) (٦٢). ووفقًا لروزا لوكسمبورغ، فإن الاشتراكية وحدها قادرة على تحقيق تقرير المصير للشعوب. «ما دامت الدول الرأسمالية موجودة.. لا يمكن أن يكون هناك «حق وطني في تقرير المصير» في زمن الحرب أو السلم»(٦٣).

لا يعني هذا كله أن لوكسمبورغ تساهلت مع الاضطهاد الوطني. بل كان الاضطهاد الوطني بالنسبة إليها شكلًا من أشكال الاضطهاد والقمع عمومًا الذي يُعَدّ نتاجًا لتقسيم المجتمعات إلى طبقات متنافسة ومتناحرة. وتصبح مهمة البروليتاريا استئصال نظام الاضطهاد والقمع من جذوره، أي المجتمع الطبقي. «نظرًا إلى أن أشكال الاضطهاد كلها مستمدة من الحاجة إلى الحفاظ على الانقسامات الطبقية، سيجلب الانعتاق من المجتمعات الطبقية بالضرورة نهاية اضطهاد الأمم»(٦٤). ومن ثم، كان موقفها معاديًا للقومية وليس معاديًا للجنسية. ورسمت خطًا فاصلًا بين معارضة الاضطهاد والقمع، وتأييد القومية. وعلى أي

---

(٦٠) Nimni, *Marxism and Nationalism*, pp. 50-54.

(٦١) ورد في: Forman, p. 89.

(٦٢) ورد في: Lowy, p. 32.

(٦٣) Rosa Luxemburg, *The Junius Pamphlet: The Crisis in the German Social Democracy* (Colombo: A Young Socialist Publication, 1967), p. 61.

(٦٤) Nimni, *Marxism and Nationalism*, p. 53.

حال، كان من المستحيل تحديد أي شعب عانى ظلمًا أفدح[٦٥]. وفي رسالة إلى صديقتها ماثيلدا فورم (M. Wurm)، التي عبّرت عن قلقها من تعذيب اليهود، سألت:

ما الذي تريدينه في ما يتعلق بهذه المعاناة المحدّدة لليهود؟ لا يختلف هؤلاء بالنسبة إليّ عن الضحايا المساكين في مزارع المطاط في بوتويامو، والزنوج في أفريقيا الذين يتلاعب الأوروبيون بأجسادهم.. ليس في قلبي ركن خاص محجوز للغيتو: أشعر بالارتياح في أي مكان من العالم توجد فيه سحب وعصافير ودموع إنسانية[٦٦].

تعارض آراء فلاديمير إليتش لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) بشأن المسألة القومية آراء لوكسمبورغ معارضة مطلقة. وإذا أردنا فهم معنى الحق الوطني في تقرير المصير، كما يؤكد لينين، فإننا بحاجة إلى التوقف عن التلاعب بالتعريفات القانونية، أو عن اختراع تعريفات تجريدية، وإلى تفحّص الظروف التاريخية ـ الاقتصادية للحركات الوطنية، المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بانتصار الرأسمالية على الإقطاع. «من منظور العلاقات الوطنية، يبدو أن الدولة الوطنية توفّر أفضل الظروف لتطور الرأسمالية»[٦٧]. وهذا قاد لينين إلى التمييز بين حقبتين في تطور الرأسمالية: حقبة انهيار الإقطاع والسلطة الاستبدادية المطلقة حين اجتذبت الحركات الوطنية الدعم الجماهيري، وحقبة الدول الرأسمالية الكاملة التشكل التي تميزت بعداء بُعَيْد التطور بين البرجوازية والبروليتاريا ـ «عشية سقوط الرأسمالية». يجب على البروليتاريا دعم الحركات الوطنية في المرحلة الأولى لضمان السلام الوطني ومساندة قضية الثورة العالمية، ورفض تلك التي تظهر في المرحلة الثانية لأنها تمثّل مصالح الطبقة البرجوازية والأمة المحددة التي تنتمي إليها.

ما دامت بروجوازية الأمّة المضطهَدة تحارب المضطهِدين، فإننا نؤيدها دومًا، وفي كل حالة، وبطريقة أكثر قوة من غيرنا، لأننا ألد أعداء الاضطهاد والقمع وأكثرهم عنادًا. لكن ما دامت برجوازية الأمّة المضطهَدة تقف مع قوميتها البرجوازية، فإننا نعاديها. نحن نحارب المزايا التي تُمنح للأمّة

---

(٦٥) Forman, p. 84.

(٦٦) Rosa Luxemburg, *The Letters of Rosa Luxemburg*, Edited and with an Introd. by Stephen Eric Bronner; with a Foreword by Henry Pachter (Boulder, Colo.: Westview Press, 1978), pp. 179-180.

(٦٧) V. L. Lenin, «The Right of Nations to Self-Determination,» in: Pecora, ed., p. 223.

المضطهِدة وعنفها، ولا نتساهل بأي طريقة مع المساعي الرامية إلى الحصول على المزايا من جانب الأمّة المضطهَدة[٦٨].

يعتقد لينين اعتقادًا جازمًا بأن الاشتراكيين يعملون لمصلحة الطبقة البرجوازية والسادة الإقطاعيين والأمّة المضطهِدة إذا فشلوا في دعم الحق الوطني في تقرير المصير. هذا الدعم ليس «عمليًا» مثلما يؤكد المنتقدون؛ فالمطالب الوطنية خاضعة دومًا لمصالح الصراع الطبقي، ولهذا السبب «تحصر البروليتاريا نفسها، إذا جاز التعبير، في إسار المطلب السلبي بالاعتراف بالحق في تقرير المصير، من دون تقديم أي ضمانات لأي أمّة، ومن دون التعهد بتقديم أي شيء على حساب أمة أخرى»[٦٩].

ثمة جانب أخير من جوانب مساهمة لينين في التفكير الماركسي في المسألة القومية، وربما مارس أعظم الأثر في النظريات المعاصرة حول القومية (انظر على وجه الخصوص نظريات التحولات الاقتصادية في الفصل الثالث من هذا الكتاب)، ألا وهو نظريته عن الاستعمار، إذ إنه يضيف بواسطتها بُعدًا دوليًا لمناقشته حول الحق الوطني في تقرير المصير، ويقدّم الحجّة على أن القومية تكثفت واشتدت في حقبة التوسع الاستعماري. فقومية «المحيط» (= الطرف) تصبح مناهضة للرأسمالية، وهي بالتالي قوة تقدمية في هذا السياق، حيث تبرز بوصفها ردة فعل على استغلال القوى الاستعمارية الغربية (المركز) للمستعمرات، وتساعد في تحطيم السلسلة الاستعمارية في أضعف حلقاتها:

إن تخيّل الثورة الاجتماعية بوصفها ممكنة من دون قيام الأمم الصغيرة بثورات في المستعمرات وفي أوروبا، ومن دون تفجرات ثورية من قسم من البرجوازية مع كل تحيّزها وتعصّبها، ومن دون حركة جماهير البروليتاريا وشبه البروليتاريا الواعية سياسيًا ضد الاضطهاد الذي يمارسه السادة الإقطاعيون والكنيسة والملوك، وضد الاضطهاد الوطني... إلخ - إن تخيّل ذلك كله إنما يعني التنكّر للثورة الاجتماعية[٧٠].

---

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٢٢٦.

(٧٠) ورد في: Nimni, *Marxism and Nationalism*, p. 83.

انظر أيضًا: Avineri, p. 645.

اختلف موقف لينين أيضًا عن موقف الماركسيين النمساويين، مثل باور وكارل رينر اللذين كانا يحاولان منع القوميات الأساسية في الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية من الانفصال عبر منحها «استقلالًا ذاتيًا قوميًا - ثقافيًا». وهذا سيمكّن الجماعات القومية من التنظم بوصفها وحدات مستقلة ذاتيًا أو مجموعات ذات سيادة، مهما يكن موقع إقامتها داخل الإمبراطورية. وشدّد النموذج التي اقترحه باور ورينر على الحاجة إلى فصل الأمّة عن الدولة، ومن ثم تحدّى الافتراض البديهي القائل إن الحق الوطني في تقرير المصير يتطلب تأسيس دولة قومية مستقلة. ووفقًا لهذا النموذج، يعلن المواطنون جميعهم جنسيتهم حين يبلغون سن التصويت؛ ويشكل أعضاء كل جماعة وطنية كيانًا عامًا واحدًا يتمتع بالسيادة والسلطة على التعامل مع الشؤون الوطنية - الثقافية كلها(٧١). كما يشترط النموذج أن تنحصر الوظائف الوطنية في التعليم والثقافة، بينما تتعامل الدولة الاتحادية (الفدرالية) مع القضايا الاجتماعية والاقتصادية فضلًا عن العدل والدفاع والسياسة الخارجية(٧٢).

لم يدفع اهتمام باور ورينر بالفوارق الوطنية إلى التخلّي عن التزامهما بالأممية برمّتها. ففيما يتعلّق بباور كانت محاولة فرض نوع واحد من الاشتراكية، «التي هي نفسها نتاج لتاريخ وطني محدد، وسمات وطنية محددة»، محاولة طوباوية. وبدلًا من ذلك، يجب على الحركة الاشتراكية الأممية أخذ الفوارق الوطنية في أساليب النضال والأيديولوجيات ضمن صفوفها في الحسبان، وتعليم قواتها المتمايزة وطنيًا حشد جهودها في خدمة الأهداف المشتركة؛ فعلى الرغم من كل شيء «ليست إزالة الفوارق الوطنية هي التي يمكن، ويجب، أن تجسد مهمّة الأممية، بل تشجيع الوحدة الأممية ضمن التنوع الوطني»(٧٣).

---

(٧١) Ephraim Nimni, «Introduction for the English-Reading Audience,» in: Otto Bauer, *The Question of Nationalities and Social Democracy*, volume Editor Ephraim J. Nimni; Translated by Joseph O'Donnell; Foreword by Heinz Fisher (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2000), pp. xvii-xviii.

(٧٢) Nicholas Stargardt, «Origins of the Constructivist Theory of the Nation,» in: Sukumar Periwal, ed., *Notions of Nationalism* (Budapest; New York: Central European University Press, 1995), and John Breuilly, *Nationalism and the State*, 2nd ed. (Manchester: Manchester University Press, 1993).

(٧٣) Bauer, *The Question of Nationalities and Social Democracy*, p. 18.

لكن مساهمة باور في التفكير الماركسي المتعلّق بالمسألة الوطنية لم تقتصر على مفهوم «الاستقلال الذاتي الوطني - الثقافي»؛ فكتابه المهم *The Question Of Nationalities* and *Social Democracy* (**مسألة الجنسيات والديمقراطية الاجتماعية**) (٢٠٠٠ [الطبعة الأولى، ١٩٠٧])، كان أول محاولة للانخراط نظريًا في قضية الأمم والقومية من منظور ماركسي. وبالنسبة إليه، تُعَدّ الأمّة «جماعة لها شخصية مشتركة تنبثق من مصير مشترك لا من مجرّد تشابه في المصير». وهذا يشير في دلالته أيضًا إلى أهمية اللغة عند الأمّة، لأنني «أوجِد أوثق صلة مع الناس حين أوجِد لغة مشتركة»[(٧٤)]. ويسارع باور إلى توكيد أن «الشخصية الوطنية»، أي «مجمل السمات الجسدية والذهنية الخاصة بالأمّة»، ليست قابلة للتغيير؛ «بأي طريقة من الطرائق.. ولا سيما لأمّة في عصرنا ترتبط بأسلافها الذين يرقَون إلى ألفين أو ثلاثة آلاف عام»[(٧٥)]. والأهم:

تعني الشخصية الوطنية التشارك النسبي في السمات المميزة لنمط سلوك الأفراد فقط، وهي ليست تفسيرًا لهذه الأنماط الفردية للسلوك. الشخصية الوطنية ليست تفسيرًا، بل إنها شيء يجب تفسيره[(٧٦)].

تُعَدّ هذه الشخصية المشتركة التي هي الأمّة، نتاجًا لمختلف عمليات التحديث، منها انهيار الزراعة التي يعتمد عليها مورد رزق الفلاحين، واستئصال الرأسمالية اللاحق لسكان الأرياف من جذورهم، ودمج المناطق الريفية المعزولة في العلاقات الاقتصادية الإقليمية التي تؤدي بدورها إلى مجانسة اللهجات المتنوعة. هنالك أيضًا مرحلة ثانية توجد فيها «جماعة ثقافية» تجسر الفجوة بين المجتمعات اللغوية والوطنية. هنا، ينحصر التركيز على تطور «الثقافة الرفيعة»، ومعها «اللغة الرفيعة» المهيمنة على اللهجات المحكية كلها. ومن ناحية أخرى، يتمثّل أهم عامل في الانتقال من الجماعة المشتركة إلى الأمّة في «العاطفة»، أو شعور الجماعة بمصيرها المشترك. وبالنسبة إلى باور،

---

(٧٤) Otto Bauer, «The Nation,» in: Gopal Balakrishnan, ed., *Mapping the Nation*, with an Introduction by Benedict Anderson (London: Verso, 1996), p. 52.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٤٠ - ٤١.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ٤١.

يحظى المصير المشترك على أقل تقدير بأهمية الماضي المشترك، ومن هنا أتى تعريفه للأمّة بأنها فوق كل شيء «مصير مشترك»[77].

يزعم باور أيضًا أن الثقافة الوطنية تتشكّل بواسطة مساهمة مختلف الطبقات؛ ففي المجتمع الاشتراكي، سوف تتوقف الصراعات بين مختلف الجنسيات، لأن العلاقات العدائية مؤسَّسة على الانقسامات الطبقية، وما إن تُزال هذه الانقسامات الطبقية حتى تفسح التمايزات الوطنية في المجال لانبثاق تعاون وتعايش. وحين نأخذ ذلك بالاعتبار، نجد أن «الاشتراكية وحدها قادرة على جعل الأمّة مستقلة ذاتيًا فعلًا، لأن الاشتراكية مرادفة لاكتساب عضوية كاملة من جانب الجماهير». ووفقًا لفورمان (Forman)، يؤدي ذلك إلى تعارض مهم مع آراء لينين ولوكسمبورغ، إذ رأى كل منهما في القومية ـ بطرائقه الخاصة ـ أداة أيديولوجية في يد البرجوازية الوطنية. ومن ناحية أخرى، يرى باور أن القومية لا يمكن اختزالها في مجرّد ضروريات البرجوازية، ويدعو إلى إجراء تحليل مختلف وتبنّي استراتيجيات مختلفة[78].

كان إيوسيف فيساريونوفيتش جوغاشفيلي (I. V. Djugashvilli)، الذي عُرف لاحقًا باسم جوزيف ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣)، هو الذي انتقد باور انتقادًا عنيفًا على الحل الذي ابتكره لمشكلة الجنسيات؛ ففي تغاير صارخ مع تعريف باور، كان تعريف ستالين لـ«الأمّة» «وضعاني» (Objectivist) من دون أي خجل: «الأمّة مجتمع مستقر ارتقى تاريخيًا واعتمد على ركيزة التشارك في اللغة والأرض والحياة الاقتصادية والتكوين النفسي، كما تتمظهر كلها في الثقافة المشتركة»[79]. فضلًا عن أن الأمّة هي:

تصنيف تاريخي ينتمي إلى حقبة محددة، حقبة نهوض الرأسمالية؛ فعملية القضاء على الإقطاع وتطور الرأسمالية هي في الوقت نفسه عملية تجميع للشعوب في أمم. تلك هي الحالة مثلًا في أوروبا الغربية؛ إذ شكّل البريطانيون

---

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٤٣ - ٥٠، و Stargardt, pp. 97-98.

(٧٨) Forman, p. 102.

(٧٩) ورد في: Heater, p. 64.

والفرنسيون والألمان والطليان أنفسهم في أمم بالتزامن مع التقدّم المظفّر للرأسمالية وتغلّبها على التفكك الإقطاعي[٨٠].

إن التوازي مع آراء لينين بشأن المسألة الوطنية واضح لا لبس فيه. لكن هناك فوارق أيضًا، ولا سيما في ما يتعلق بمعالجتهما لمسألة الحق الوطني في تقرير المصير. فبرأي ستالين، يستلزم الحق في تقرير المصير أن يكون للأمّة وحدها الحق في تقرير مصيرها، ولا يملك أحد «الحق في التدخّل بالقوة في حياة الأمة، أو تدمير مدارسها ومؤسساتها الأخرى، أو التعدّي على عاداتها وتقاليدها، أو قمع لغتها، أو تقليص حقوقها»[٨١]. لكن السيادة الوطنية ليست الطريقة الوحيدة للتعبير عن هذا الحق:

يعني تقرير المصير أن في إمكان الأمّة ترتيب شؤون حياتها وفقًا لإرادتها. فهي تملك الحق في ترتيب شؤون حياتها على أساس الاستقلال الذاتي. لها الحق بالدخول في علاقات اتحادية (فدرالية) مع الأمم الأخرى. والحق في الانفصال الكامل. الأمم ذات سيادة ومتساوية كلها[٨٢].

سيغدو هذا الدفاع عن الفدرالية والاستقلال الذاتي الدعامة المركزية لبرنامج الجنسيات الرسمي في الاتحاد السوفياتي الذي استهدى بفلسفة «الاشتراكية في بلد واحد». أمّا الهدف المركزي للبرنامج، فتمثّل في إيجاد الظروف التي تؤدي إلى التعايش السلمي بين مختلف الأمم ضمن دولة بروليتارية واحدة. وهذه ستلغي التناقضات بين الجنسيات، وتسقطها على مستوى أممي، حيث سيقف الاتحاد السوفياتي في صف الأمم المضطهدة من الغرب[٨٣].

يكتب أفينيري قائلًا: «حملت الاشتراكية عبء الانحياز المعادي للوطنية، وهذا جعلها عاجزة عن مواجه تحدّيات أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين على وجه الخصوص». و«في هذا الجهل الأحمق وبمعنى عميق

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٨١) ورد في: Forman, p. 129.

(٨٢) المصدر نفسه.

(٨٣) المصدر نفسه، ص ١٣٣ - ١٣٧.

جدًّا، تشترك الماركسية في هذا الفقر مع منافستها، الليبرالية التقليدية»[٨٤]. وبالطبع، لم يتجاهل الماركسيون قط المسألة الوطنية، مثلما أظهرت الصفحات القليلة الماضية. والشيء ذاته يصدق على الليبرالية التقليدية.

كان المنظّر الشهير جون ستيوارت ميل (J. S. Mill) (١٨٠٦ - ١٨٧٣) أول مفكر ليبرالي بارز على الأرجح ينخرط مباشرة في التصدّي للمشكلات العملية والنظرية للقومية[٨٥]. وبرأيه:

يمكن القول إن جزءًا من البشر يؤلّفون جنسية وطنية إذا اتحدوا في ما بينهم عبر تعاطف مشترك لا يوجد بينهم وبين الآخرين ـ وهو ما يجعلهم أكثر استعدادًا للتعاون في ما بينهم من التعاون مع غيرهم، ورغبة في الخضوع للحكم ذاته، وأن يحكموا بأنفسهم أو بقسم منهم حصريًا[٨٦].

ربما يكون هذا الشعور الوطني نتيجة أسباب متنوعة ـ العرق، السلالة، اللغة المشتركة، الدِّين المشترك؛ لكن قبل كل شيء، فإن «تماثل السوابق السياسية: امتلاك تاريخ وطني، والمجموعة اللاحقة من الذكريات؛ والشعور الجمعي بالاعتزاز والإذلال، والمتعة والندم، والاتصال بالأحداث نفسها في الماضي» هو الذي يخلق إحساسًا بالوطنية[٨٧].

حيثما توجد العواطف الوطنية، كما يؤكد ميل، «توجد حجّة واضحة لصالح توحيد جميع الأفراد المنتمين إلى الجنسية الوطنية تحت الحكم ذاته، وحكومة لهم وحدهم. وهذا يعني القول إن مسألة الحكم يجب أن تقرر بواسطة المحكومين». وفي الحقيقة:

يستحيل تقريبًا وجود مؤسسات حرة في بلد مكوَّن من جنسيات مختلفة. ولا يمكن أن يوجد بين أفراد شعب، في غياب الشعور بالتعاطف المشترك،

---

(٨٤) Avineri, p. 654.

(٨٥) Georgios Varouxakis: *Mill on Nationality*, Routledge/PSA Political Studies Series; 3 (London; New York: Routledge, 2002), and «Mill's Theory of Nationality and Nationalism,» in: Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*.

(٨٦) John Stuart Mill, «Considerations on Representative Government,» in: Pecora, ed., p. 143.

(٨٧) المصدر نفسه.

ولا سيما إذا كانوا يستخدمون لغات مختلفة في القراءة والكتابة، الرأي العام الموحد الضروري لعمل الحكومة التمثيلية[٨٨].

لهذه الأسباب، يجب أن تتوافق الحدود بين الحكومات عمومًا مع الحدود بين الجنسيات إذا أردنا قيام مؤسسات حرة. وما يشترك فيه ميل مع معظم، إن لم يكن جميع المفكرين الماركسيين، هو ارتيابه بما يسمّيه الأمم «المتخلّفة». يلاحظ قائلًا: «تثبت التجربة أن من الممكن لجنسية أن تندمج ضمن أخرى تستوعبها؛ وحين تكون في الأصل جزءًا دونيًا ومتخلّفًا من الجنس البشري يكون الاندماج والاستيعاب في مصلحتها»:

لا يمكن لأحد الافتراض أن من غير الأنفع للبريتاني، أو الباسكي في منطقة نافار الفرنسية، التعرّف إلى الأفكار والمشاعر الراهنة للناس الأكثر حضارة وتطورًا ـ وأن يكون جزءًا من القومية الفرنسية.. من أن يعيش في عزلة، مع الأطلال شبه الهمجية للعصور الماضية.. من دون مشاركة واهتمام بالحركة العامة للعالم[٨٩].

أدّت هذه الآراء إلى مقالة حول الموضوع نفسه كتبها في الوقت ذاته تقريبًا المؤرخ والفيلسوف الإنكليزي جون إميريتش إدوارد دالبيرغ ـ أكتون (J. E. E. Dalberg-Acton)، أو اللورد أكتون (١٨٣٤ - ١٩٠٢). فبالنسبة إليه، يُعَدّ مفهوم حقوق الجنسيات برمّته جديدًا تاريخيًا؛ إذ لم ينل الاعتراف من حكومات النظام الأوروبي القديم، ولا أكده الناس. بل إن التقسيم الاستعماري لبولندا ـ «عمل من العنف العشوائي» ـ في أواخر القرن الثامن عشر هو الذي «أيقظ نظرية الجنسية الوطنية، وحول الحق النائم إلى مطمح، والعاطفة إلى مطلب سياسي»[٩٠]. وخلافًا لميل، يعتقد لورد أكتون أن الحفاظ على الحرية الفردية يتم بطريقة أفضل في الدولة المتعددة الجنسيات. «ترتقي الأعراق الدونية عبر العيش في اتحاد سياسي مع الأعراق المتفوقة فكريًا. وتبعث الأمم التي تعاني الإنهاك والانحطاط عبر الاتصال بالحيوية الأكثر شبابًا». وبهذا المعنى، يتمثّل العدو الأكبر في الواقع لحقوق الجنسية

---

(٨٨) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(٩٠) J. E. E. Acton, «Nationality», in: Pecora, ed., p. 151.

الوطنية في نظرية الجنسية الوطنية الحديثة التي تجعل الدولة والأمة متكافئتين. ويخلص إلى أننا:

إذا اعتبرنا ترسيخ الحرية لتحقيق الواجبات الأخلاقية غاية المجتمع المدني، فيجب أن نستنتج أن تلك الدول التي هي في الجوهر الأكثر كمالًا، مثل الإمبراطوريتين البريطانية والنمساوية، تضم جنسيات متعددة من دون أن تقمعها. وتلك التي لا تضم خليطًا من الأعراق ليست كاملة؛ وتلك التي اختفت تأثيراتها عاجزة.. ولذلك فإن نظرية الجنسية الوطنية خطوة متقهقرة إلى الوراء في التاريخ[٩١].

لم توجَّه تهمة التقليل من أهمية القومية إلى الماركسيين والليبراليين وحدهم، بل حل مصير مشابه أيضًا بالمنظّرين الاجتماعيين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ووفقًا لبول وارن جيمس (P.W. James) مثلًا، «لم يطور لا دوركهايم، ولا فيبر، ولا أي من معاصريهما المرتبطين بالمجالات الوليدة لعلم الاجتماع والعلوم السياسية، مثل سيمل (Simmel) أو تونيز (Tönnies) أو باريتو (Pareto) أو موسكا (Mosca) أو كولي (Cooley)، شيئًا يقارب ما يمكن أن ندعوه نظرية للأمة». مرة أخرى نؤكد أن هذا لا يصح إلّا جزئيًا مثلما سارع جيمس نفسه إلى الملاحظة[٩٢]. وعلى شاكلة الماركسيين والليبراليين قبلهم، ناقش المنظّرون الاجتماعيون في تلك الحقبة مختلف جوانب القومية بالفعل. وعلى أي حال، لم ينحصر تأثيرهم في نظريات القومية المعاصرة ضمن كتاباتهم المتفرقة والمتشظية عن الموضوع، بل تجاوزها إلى أعمالهم الأوسع عن الدولة والسلطة والدِّين والتحوّل المجتمعي... إلخ. ولأسباب تتعلّق بالمساحة، سوف أكتفي بتقديم لمحة وجيزة عن آراء دوركهايم وفيبر في ما يخص المسألة الوطنية، نظرًا إلى أن كتابات كلٍّ منهما حَوَت عددًا من الموضوعات التي ستغدو محورية بالنسبة إلى نظريات الأجيال اللاحقة[٩٣].

بالنسبة إلى إميل دوركهايم (١٨٥٨ - ١٩١٧)، «ليست الجنسية الوطنية

---

(٩١) المصدر نفسه، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٩٢) Paul Warren James, *Nation Formation: Towards a Theory of Abstract Community* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 1996), pp. 83 and 86-87.

(٩٣) Smith, *Nationalism and Modernism*, p. 13.

سوى مجموعة من البشر، ترغب ـ لأسباب إثنية أو ربما مجرّد أسباب تاريخية ـ في العيش تحت مظلة القوانين نفسـها، وتشكيل دولة واحدة»[٩٤]. من ناحية أخـرى، تعيّـن «الوطنيـة الأفكار والمشـاعر التي تربـط الفرد بدولـة محددة». وحـرص دوركهايـم علـى توكيـد أن هذه الأفكار والمشـاعر مـن نوع خاص؛ فالوطنية تضم الفرد إلى مجتمع سياسـي «يُرى من منظور معيّن»، «من الزاوية العاطفيـة المؤثـرة». ومن ثم، يمكن لتنظيم سياسـي أن يوجد من دون شـعور بالوطنيـة. علـى سـبيل المثـال، تنتمي فنلنـدا إلى الدولـة الروسـية، كما يقول دوركهايم، «لكن هل يوجد شعور وطني روسي بين الفنلنديين؟»[٩٥].

تشـمل العناصـر التكوينية للأمة، فـي رأي دوركهايم، العـادات والتقاليد والمعتقدات المسـتمَدة من الماضي التاريخي المشترك؛ ومن ثم فإن لكل أمّة روحًا وسـمات خاصة بها، تخضع للتغيير بين يوم وآخر. وليس من المفاجئ أن تجسـد فرنسـا أفضل الأمثلة الممتازة في التعبير عن الأمة. لكن دوركهايم لـم يأخـذ قط وحدة وطنه الأم، أو أي بلد آخر في ما يتعلق بهذا الأمر، قضيةً مُسـلّمًا بهـا. وفي هذا السـياق بالذات يشـدّد على قيمة التجمعـات العمومية، والطقـوس الشـعائرية، والمراسـم الاحتفالية، والشـعارات الدلاليـة في تعزيز اندماج الأمّة وتشجيع تكاملها[٩٦]. «عبر إصدار الصرخة ذاتها، أو نطق الكلمة نفسها، أو أداء الإيماءة ذاتها، يشعر الناس بأنهم متّحدون»[٩٧]. وما يعادل ذلك في الأهمية التربية والتعليم؛ حيث اعتقد دوركهايم أن على التربية الفرنسية أن تكون «وطنية»، وهذا يتطلب غرس بعض الأفكار والممارسات في أفراد الأمّة جميعهـم، ومـن أهمها الارتبـاط بالأمّة. فمهمّـة التربية الأساسـية هي تعريف الأطفـال بـ«الوطن»، ودراسـة تاريخه، والاسـتعداد لوضع مصالـح الأمّة قبل مصالحهم، حتى وإن تضمن ذلك التضحية بحياتهم[٩٨].

(٩٤) ورد في: M. Marion Mitchell, «Emile Durkheim and the Philosophy of Nationalism,» *Political Science Quarterly*, vol. 46, no. 1 (March 1931), p. 96.

(٩٥) Emile Durkheim, *Durkheim on Politics and the State*, Edited with an Introduction by Anthony Giddens; Translated by W. D. Halls. (Oxford: Polity Press, 1986), p. 202.

(٩٦) Mitchell, pp. 97-98.

(٩٧) ورد في: المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٩٨) المصدر نفسه، ص ١٠١ - ١٠٢.

وفقًا لسميث، مارس جانبان اثنان من عمل دوركهايم تأثيرًا نافذًا على وجه الخصوص في النظريات المعاصرة بشأن القومية. الأول توكيده الدِّين بوصفه مجتمعًا أخلاقيًا، واعتقاده بوجود «شيء أبدي في الدِّين».. لأن المجتمعات كلها تشعر بحاجة إلى إعادة توكيد نفسها وإعادة تجديد ذاتها بين الفينة والأخرى عبر الطقوس والشعائر والمراسم الجمعية»[٩٩]. كان ذلك هو الاختراق الرئيس الذي حققه كتاب دوركهايم **الأشكال الابتدائية من الحياة الدينية** (١٩٩٥ [١٩١٢]) و«المبدأ الطوطمي» الشهير الذي ابتكره:

.. يعبّر الطوطم / ويرمز إلى نوعين مختلفين من الأشياء. من وجهة نظر أولى، يمثّل الشكل الخارجي والمرئي لما دعوته المبدأ الطوطمي أو الإله؛ ومن وجهة نظر أخرى، يجسّد أيضًا رمزًا لمجتمع معيّن يدعى العشيرة. وراية العشيرة هي الرمز الذي يميز كل واحدة عن الأخريات.. ومن ثم، إذا كان الطوطم هو رمز الإله والمجتمع كليهما، ألا يعود السبب إلى أن الإله والمجتمع متماثلان؟[١٠٠].

الجانب الآخر المؤثر لعمل دوركهايم هو تحليله للانتقال من التضامن «الآلي» إلى التضامن «العضوي». في الجوهر، يقدم دوركهايم الحجّة على انحسار التقاليد التراثية وتأثير الضمير الجمعي (تشابه المعتقدات والعواطف في مجتمع من المجتمعات)، إلى جانب القوى التلقائية، مثل رابطة الدم، والارتباط بالتراب ذاته، وعبادة الأسلاف، والعادات المشتركة. إذ احتل مكانها تقسيم العمل وأدواره التي يكمل أحدها الآخر[١٠١]. كان هذا الجانب من عمله مؤثرًا على نحو خاص في بعض النظريات الحداثية عن القومية، ولا سيما نظرية إرنست غيلنر.

من ناحية أخرى، لا يمكن لمفهوم «الأمة» في رأي ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠)، أن يعرّف بطريقة تخلو من الغموض:

---

(٩٩) Anthony D. Smith: *Nationalism and Modernism*, p. 15, and *Nationalism: Theory, Ideology, History*, Key Concepts (Malden, Mass.: Polity Press, 2001).

(١٠٠) Emile Durkheim, *The Elementary Forms of Religious Life*, Translated and with an Introduction by Karen E. Fields (New York: Free Press, 1995), p. 208.

(١٠١) Smith, *Nationalism and Modernism*, p. 15.

بالتأكيد، لا يمكن أن نذكر المفهوم بتعابير الخصائص التجريبية الشائعة لدى أولئك الذي يُعتبرون أعضاء في الأمّة. وهو يعني بالنسبة إلى الذين يستعملون التعبير في زمن معيّن، أن الفرد قد يستمد من جماعات معيّنة من البشر شعورًا محدّدًا بالتضامن في مواجهة جماعات أخرى. ومن ثم، ينتمي المفهوم إلى عالم القيم[١٠٢].

يعتقد فيبر أن فكرة الأمّة في نظر المدافعين عنها «تربطها علاقة حميمة جدًا باهتمامات «المكانة»». ولذلك احتوت أوائل التمظهرات المبكرة للفكرة أسطورة «الرسالة الإلهية». لكن في نهاية المطاف، إذا وجِد هدف مشترك يكمن في تعبير «أمّة» فهو يقع في ميدان السياسة:

يمكن تعريف مفهوم الأمّة بالطريقة الآتية: الأمّة مجموعة من الناس تشترك في العواطف نفسها المتمظهرة إلى حدٍ كافٍ في دولة خاصة بها؛ ومن ثم فإن الأمّة هي مجموعة من الناس تميل عادة إلى إنتاج دولة خاصة بها[١٠٣].

كان هذا التشديد على دور السياسة والدولة أهم تراث لتفكير فيبر بشأن القومية كما ثبت، وذلك وفقًا لسميث[١٠٤]. وفي مقالة حديثة عن عمل فيبر في ما يتعلّق بالجماعات الإثنية، يمضي مايكل بانتون (M. Banton) خطوة أبعد: «قلة قليلة من وجهات النظر المعاصرة في ما يخص العرق والعلاقات الإثنية يتعذّر ربطها بطريقة أو بأخرى مع كتابات فيبر»[١٠٥]. وعلى أي حال، ليس من السهل بالتأكيد تجاهل آثار دوركهايم ورؤى فيبر الثاقبة في النظريات المعاصرة عن القومية.

من المرجَّح أن المؤرخين هم المجموعة الوحيدة التي لم تُتهم بتجاهل القومية في سياق المجادلات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ فدور المؤرخين في الترويج لبعض القوميات المعينة ـ قومياتهم عادة ـ وكشف

---

(١٠٢) Max Weber, «The Nation,» in: John Hutchinson and Anthony D. Smith, eds, *Nationalism: Critical Concepts in Political Science*, 5 vols. (London; New York: Routledge, 2000), p. 5.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٩.

(١٠٤) Smith, *Nationalism and Modernism*, p. 14.

(١٠٥) Michael Banton, «Max Weber on «Ethnic Communities»: A Critique,» *Nations and Nationalism*, vol. 13, no. 1 (January 2007), p. 33.

زيف ادعاءات أخرى، معروف على أوسع نطاق[106]. وكثيرًا ما «كشف» «المؤرخون التبشيريون» - وابتدعوا في معظم الحالات - الدليل الذي يثبت وجود أمّتهم السرمدي، أو «أعادوا اكتشاف» - و«ابتكروا» في معظم الحالات - التقاليد التراثية والأساطير والرموز والطقوس التي تكوّن الثقافات القومية. وبكلمات هوبزباوم: «المؤرخون للقومية مثل زارعي الخشخاش في باكستان لمدمني الهيروين: نحن نزوّد السوق بالمادة الخام الأساسية»[107]. وهذا يصدق بوجه خاص على مؤرخي القرن التاسع عشر، مثل جولز ميشليت (J. Michelet)، وهاينريش فون تريتشكي (H. Von Treitschke)، وكونستانتينوس باباريغوبولوس (K. Paparrigopoulos) وفرانتيشك بالاكي (F. Palacky) ونيكولاي جورغا (N. Iorga) وإيوين مكنييل (E. MacNiell)، على سبيل المثال لا الحصر، الذين انخرطوا بشدة في انبعاث أممهم الثقافي والسياسي. على سبيل المثال، لم يكن لدى المؤرخ الألماني فون تريتشكي (١٨٣٤ - ١٨٩٦) أي شك في ما يتعلّق بنوعية الجمهور الذي كان يخاطبه:

أكتب للألمان. وسوف يتدفق ماء كثير في نهر الراين قبل أن يسمح لنا الأجانب بالتحدث عن وطننا الأم بالفخر ذاته الذي ميّز دومًا الأعمال التاريخية الوطنية للإنكليز والفرنسيين. سيأتي زمن تضطر فيه البلدان الأخرى إلى اعتياد المشاعر في ألمانيا الحديثة[108].

كان فون تريتشكي على الدرجة ذاتها من الوضوح في ما يتعلق بأهدافه السياسية:

هنالك حل إنقاذي واحد؛ دولة واحدة؛ ألمانيا ملَكية تحت حكم أسرة

---

(١٠٦) انظر على سبيل المثال: Krishan Kumar, «Nationalism and the Historians,» in: Gerard Delanty and Krishan Kumar, eds., *The SAGE Handbook of Nations and Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2006), and Anthony D. Smith: «Nationalism and the Historians,» in: Balakrishnan, ed., *Mapping the Nation*, and «Nations and History,» in: Montserrat Guibernau and John Hutchinson, eds., *Understanding Nationalism* (Cambridge: Polity; Malden, MA: Blackwell, 2001).

(١٠٧) Eric J. Hobsbawm, «Ethnicity and Nationalism in Europe Today,» in: Balakrishnan, ed., *Mapping the Nation*, p. 255.

(١٠٨) ورد في: J. W. Headlam, «Heinrich von Treitschke,» *English Historical Review*, vol. 12, no. 48 (October 1897), p. 728.

هوهنزوليـرن (Hohenzollern)؛ وطرد الأمراء؛ وضم بروسـيا. هذا هو، بكلمات واضحة ومحددة، برنامجي. من يعتقد أن ذلك سيتحقق سلميًا؟ لكن ألا تفوق أهميـة فكرة وحـدة ألمانيا تحت حكم الإمبراطور وليام الأول حياة مئة ألف؟ بالمقارنة بهذه الفكرة لا تستحق حياتي شروى نقير(١٠٩).

لم يكن سـرد المؤرخ الفرنسي جولز ميشـليت (١٧٩٨ - ١٨٧٤) مختلفًا اختلافًا كبيرًا عن أفكار فون تريتشكي، مع فارق واحد يجسّده «الممثّل الرئيس».

تجتمع الأعراق والأفكار وتتعقد كلما اتجهنا غربًا. هذا المزيج، الناقص فـي إيطاليـا وألمانيا، وغيـر المتكافئ فـي إسـبانيا وإنكلترا، يصبح في فرنسـا متكافئـا ومتعـادلًا ومثاليًـا. أوروبا هـي الجزء الأقل بسـاطة وطبيعيـة والأكثر اصطناعًـا، أي الأقل شـؤمًا وهلاكًا، والأكثر إنسـانية، مـن العالم؛ وأكثر البلاد أوروبية هو بلدي، فرنسا(١١٠).

«تستحق فرنسا أن تستهل حرية العالم وتجمع معًا أول مرة الشعوب كلها في وحدة حقيقية للذكاء والإرادة»، كما يكتب ميشليت(١١١). ويضيـف:

يريد الفرنسي قبل كل شيء أن يطبع شخصيته على سكان البلاد المفتوحة، لكـن لا يريـد أن يجعلهم خاضعين له بل أن يكونـوا نموذجًا للخير والجمال. هـذا هو إيمانه البسـيط. ويعتقد أنه لا يمكن أن يقدّم مـا هو أكثر فائدة ومنفعة للعالم من أفكاره، وتقاليده، وأذواقه. فهو يهدي الشـعوب الأخرى، وسيفه في يده، وبعد المعركة.. يظهر لها كل ما سوف تكسبه حين تصبح فرنسية(١١٢).

لكـن المؤرخين لم ينخرطوا جميعهم في الترويج لقضاياهم الوطنية؛ إذ حـاول بعضهـم تبنّـي موقـف أكثر حياديـة (وانتقـادًا)، وتحليـل ظاهرة القوميـة ـ نزعـة، كما قد نضيف، سـوف تصبـح أكثر بـروزًا ووضوحًا في

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ٧٣٣.

(١١٠) ورد في: David Carroll, «The Art of the People: Aesthetic Transcendence and National Identity in Jules Michelet,» *Boundary 2*, vol. 25, no. 1: *Thinking through Art: Aesthetic Agency and Global Modernity* (Spring 1998), p. 123.

(١١١) ورد في: Ceri Crossley, *French Historians and Romanticism: Thierry, Guizot, the Saint-Simonians, Quinet, Michelet* (London; New York: Routledge, 1993), p. 202.

(١١٢) ورد في: Carroll, p. 126.

القرن العشرين[113]. جسّد المؤرخ الفرنسي إرنست رينان (E. Renan) (١٨٢٣ - ١٨٩٢) مثالًا نموذجيًا لذلك. وفي الحقيقة، فإن بعض الأفكار المتضمنة في محاضرة رينان اللاذعة لكن الثاقبة: «ما هي الأمة؟» التي ألقاها في السوربون في عام ١٨٨٢، سوف تؤثر تأثيرًا عميقًا في الأجيال اللاحقة، لتجعل الاستشهاد به ضرورة إجبارية تقريبًا. وبهذا المعنى، تشكّل صيغ رينان نقطة انطلاق مثالية لدراسة القرن العشرين.

تُعَدّ الأمم، وفقًا لرينان، شيئًا جديدًا في التاريخ؛ إذ لم يكن لها وجود في العصور القديمة: «وجِدت في العصور الكلاسيكية القديمة جمهوريات وممالك مستقلة، واتحادات كونفدرالية من الجمهوريات المحلية والإمبراطوريات، لكن يصعب القول بوجود أمم بالمعنى الذي نفهمه من التعبير»[114]. ويؤكد أن الأمّة الحديثة ابتكار تاريخي ظهر عبر التقاء كثير من الحقائق. يرفض رينان المفاهيم الشائعة التي تعرّف الأمّة بتعابير السمات والصفات الموضوعية مثل العِرق أو اللغة أو الدِّين. ويسأل:

كيف يمكن لسويسرا التي تضم ثلاث لغات، وديانتين اثنتين، وثلاثة أو أربعة أعراق، أن تُعَدّ أمّة، بينما لا تكون توسكانيا أمّة وهي المتجانسة إلى أبعد حد؟ لماذا تكون النمسا دولة لا أمّة؟ وبأي طرق يختلف مبدأ الجنسية الوطنية عن مبدأ الأعراق؟[115].

الأمّة «روح، مبدأ روحي»:

الأمّة.. تضامن واسع النطاق، تتكوّن بواسطة الشعور بالتضحيات التي قام بها الفرد في الماضي، وتلك التي يستعد للقيام بها في المستقبل. فهي تفترض ماضيًا بصورة مسبقة؛ لكن توجزها في الحاضر حقيقة متعينة وملموسة: الموافقة، الرغبة التي تجد التعبير عنها بوضوح في الاستمرار

---

(١١٣) Kumar, «Nationalism and the Historians,» and Ronald Grigor Suny, «History,» in: Alexander J. Motyl, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, 2 vols. (San Diego, Calif.; London: Academic Press, 2001), vol. 1.

(١١٤) E. Renan, «What is a Nation?,» in: Homi K. Bhabha, ed., *Nation and Narration* (London; New York: Routledge, 1990), p. 9.

(١١٥) المصدر نفسه، ص ١٢.

بحياة مشتركة. وجود الأمّة استفتاء عام، إذا جاز التعبير، مثلما هو وجود الفرد توكيد أبدي للحياة[١١٦].

من ثم، لا يُعَدّ العِرق واللغة والمصلحة المادية والشؤون الدينية والجغرافيا والضرورة العسكرية من بين المكوّنات التي تشكّل الأمة؛ بل الماضي البطولي المشترك، والزعماء العظام، والمجد الحقيقي. ثمة مكوّن آخر بالغ الأهمية هو «النسيان الجمعي»:

النسيان، بل أذهب إلى حد القول: الخطأ التاريخي، عامل حاسم في إيجاد الأمة.. لكن جوهر الأمّة هو اشتراك الأفراد جميعهم في أشياء كثيرة، وهو أيضًا نسيانهم أشياء كثيرة. ولا يوجد مواطن فرنسي يعلم هل هو بورغندي أم ألاني، أم تيفاليني أم فيسيغوثي، لكن كل مواطن فرنسي يجب أن ينسى مذبحة سان ـ بارثولوميو (Saint-Barththolomew)[١١٧].

تُظهر هذه اللمحة العامة عن كتابات مختلف المفكرين بوضوح أن الحكمة المقبولة عمومًا التي تؤكد غياب التفكير المتعمّق بالمسألة الوطنية قبل القرن العشرين لا تروي سوى جزء من القصة. صحيح أنه لم توجد «نظرية» عن القومية، إذا فهمنا من هذا التعبير دراسة مستقلة نسبيًا حول القومية، أو صوغ إطار تحليلي يفسر القومية في كل مكان، وفي كل عصر وأوان. لكن مثلما ألمحت سابقًا، يجب تحديد هذا الرأي في ثلاثة سياقات على أقل تقدير. **أولًا**، لا نعلم يقينًا هل توجد مثل هذه النظرية أصلًا؛ إذ إن أغلبية الروايات عن القومية التي أنتجت في النصف الثاني من القرن العشرين لا تُعَدّ مؤهلة لتكون نظريات إذا خضعت للمعايير نفسها ـ «مستقلة»، «شاملة».. **ثانيًا**، انخرط مفكرو القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أكانوا ليبراليين أم محافظين أم ماركسيين، في مواجهة المشكلات التي نجمت عن المسألة الوطنية، وخلّفت تأملاتهم رؤى مهمّة أغنت فهمنا للقومية. **ثالثًا**، تأثّر منظّرو القومية المعاصرون تأثّرًا عميقًا بالكتابات الأوسع نطاقًا لهؤلاء المفكرين، حول قضايا لا تتصل بالقومية إلا بصورة غير مباشرة. باختصار، ليس الجدل النظري المعاصر حول القومية منبثقًا من فراغ.

---

(١١٦) المصدر نفسه، ص ١٩.

(١١٧) المصدر نفسه، ص ١١.

ثالثًا: ١٩١٨ - ١٩٤٥

في العقود الأولى من القرن العشرين، ووسط ركام الحرب العالمية الأولى، أصبحت القومية موضوعًا للاستقصاء الأكاديمي؛ فالكتابات المبكرة لمؤرخين من أمثال هانز كوهن وكارلتون ج. هـ. هيز ولويس سنايدر وألفريد كوبان، وإي. هـ. كار، كانت الرائدة في التعامل مع القومية بوصفها شيئًا يجب تفسيره، لا مجرّد الدفاع عنه أو نقده. يكتب هيز: «أصحبت القومية موضوعًا شائعًا في أنماط تفكير الشعوب المتحضرة وعملها في العالم المعاصر إلى حد الأغلبية اعتبرت القومية قضية مسلمًا بها». هذا الرأي مخادع ومضلِّل كما يعتقد:

يمكننا التأكد من أنه لم يكن هناك قبل القرن الثامن عشر قاعدة عامة للجنسيات المتحضّرة لتسعى هذه الجنسيات وفقها بحماسة ونجاح إلى الوحدة السياسية والاستقلال، بينما كانت هي القاعدة العامة طوال المئة والخمسين عامًا الماضية. وعلى أي حال، لا يوجد نظير للقومية الجماهيرية الشاملة في الحقب المبكرة، بل هي خاصة بالعصور الحديثة[(١١٨)].

يوافقه كوهن الرأي: «لم تظهر القومية كما نفهمها إلّا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر»[(١١٩)]. ومن ثم، كان هيز وكوهن وزملاؤهما المؤرخون أول من شدّدوا على الجدة التاريخية للقومية واستكشاف الظروف البنيوية التي ولدت فيها.

لكن توجد أيضًا أوجه شبه مهمّة بين أعمالهم وأعمال الأجيال السابقة. ومن أسباب ذلك، كما ستُظهر القراءة المتأنية للشواهد المذكورة آنفًا، أن «القومية» لا «الأمّة» أو «الجنسية» هي الإشكالية. ومثلما يلاحظ بروييللي، حين كتب مؤرخو أوائل القرن العشرين عن القومية «عملوا أساسًا عبر عملية جمع وتعميم من مختلف التواريخ الوطنية». وحتى بالنسبة إلى أولئك المعادين للقومية، «كان ذلك يعني دمج ومن ثم تأييد الافتراض بأن القومية هي تعبير عن الأمّة وليست شيئًا يجب أن يُفهم بحد ذاته».

---

(١١٨) Carlton J. H. Hayes, *The Historical Evolution of Modern Nationalism* (New York: Macmillan, 1931), pp. 292-293.

(١١٩) Hans Kohn, *The Idea of Nationalism: A Study in its Origins and Background* (New York: Macmillan Company, 1958), p. 3.

تقاسم مؤرخو هذه الحقبة أيضًا النبرة الأخلاقية مع أسلافهم. ومثلما سنرى لاحقًا بمزيد من التفصيل، كان ذلك واضحًا بجلاء في الأنماط التي طوروها لتصنيف مختلف أشكال القومية التي انتهت عادة بصيغة محاولات لتمييز أشكال القومية التي يمكن الدفاع عنها أخلاقيًا من تلك التي يتعذّر الدفاع عنها أخلاقيًا. لكن على الرغم من هذه القيود المحدّدة، كانت الكتابات المبكرة لأمثال كوهن وهيز رائدة ومبشّرة بجدل حيوي حول القومية.

بالنسبة إلى المؤرخ والدبلوماسي الأميركي هيز، تُعَدّ القومية «تجسيدًا عظيمًا لإخلاص البشر ووفائهم لجنسيات كبيرة والتأسيس الواعي لـ «أمة» على جنسية لغوية وثقافية»[120]. أمّا المسألة المركزية الذي يجب التصدي لها، كما يزعم هيز، فهي: «ما الذي منح القومية في العصر الحديث هذه الشعبية الدارجة»؛ ففي أغلب حقب التاريخ المدوَّن، ظل البشر أوفياء مخلصين لقبائلهم، أو عشائرهم، أو مدنهم، أو مقاطعاتهم، أو قصور نبلائهم، أو نقاباتهم، أو إمبراطورياتهم المتعددة اللغات. والقومية مجرّد تعبير آخر عن ميول البشر الاجتماعية التي ليست أكثر طبيعية أو كمونًا من النزعة القبلية أو الإمبراطورية. إن ما جعل القومية هذه القوة الكبرى في القرن الثامن عشر هو «بعض الميول الأساسية المعيّنة»، وأهمّها على الإطلاق تنامي الإيمان بالدولة القومية بوصفها الوسيلة الفضلى التي يمكن بواسطتها تحقيق التقدّم البشري والتحضر الإنساني[121].

وفقًا لهيز، تمظهرت القومية الحديثة في خمسة أشكال مختلفة[122]:

١ ـ القومية الإنسانية

ذلك هو النوع المبكر للقومية الرسمية، وقد ظل لبعض الوقت النوع الوحيد. كانت المبادئ الأولى، المشروحة في البيئة الفكرية للقرن الثامن عشر، قد تشربت بروح عصر الأنوار. كما أنها أُسست على القانون الطبيعي وقدّمت

---

(١٢٠) Hayes, p. 6.

(١٢١) المصدر نفسه، ص ٢٨٩ - ٣٠٢.

(١٢٢) انظر: المصدر نفسه، الفصول ٢ - ٦، للاطلاع على موجز مكثف، انظر: Louis L. Snyder, *The New Nationalism* (Ithaca, NY: Cornell University Press, [1968]), pp. 48-53.

بوصفها خطوات محتمة، ومن ثم مرغوبًا فيها في التقدم الإنساني. في الغرض، كانت كلها إنسانية بصورة صارمة. ويقدّم هيز الحجّة على أن القومية الإنسانية وجدت ثلاثة مدافعين عنها ومؤيدين لها: السياسي البريطاني المحافظ جون بولينغبروك (J. Bolingbroke) الذي اعتنق شكلًا أرستقراطيًا من القومية، وجان جاك روسو الذي روّج للقومية الديمقراطية، ويوهان غوتفريد فون هيردر الذي تركز اهتمامه على الثقافة، لا السياسة. ومع اقتراب القرن الثامن عشر من خاتمته، شهدت القومية الإنسانية تحوّلًا مهمّا: «أصبحت القومية الديمقراطية «يعقوبية»، وغدت القومية الأرستقراطية «تقليدية»؛ وباتت القومية التي ليست ديمقراطية ولا أرستقراطية «ليبرالية»»[١٢٣].

٢ ـ القومية اليعقوبية

ارتكز هذا الشكل من القومية على نظرية لروسو تتعلّق بالقومية الديمقراطية الإنسانية، وطوّرها الزعماء الثوريون بغرض حماية مبادئ الثورة الفرنسية وتوسيعها. اكتسبت القومية اليعقوبية التي ارتقت في خضم الحرب الخارجية والتمرّد الداخلي، أربع سمات رئيسة: أصبحت كثيرة الشكوك ومتعصبة لا تتساهل مع الانشقاق الداخلي؛ اعتمدت في نهاية المطاف على القوة والعسكر لتحقيق غاياتها؛ أصبحت متزمتة دينيًا؛ تشربت بالحماسة التبشيرية. و«تمثلت مأساة اليعاقبة في مثاليتهم التي بلغت حد التزمت، في عالم شرير»[١٢٤]. وهكذا، كلما قاتلوا أكثر تعاظمت مشاعرهم القومية. وتركوا للأجيال اللاحقة فكرة أن «الأمّة مستعدة للقتال»، و«الأمّة في المدارس العامة». وعبّدت القومية اليعقوبية أيضًا الطريق لقوميات القرن العشرين، ولا سيما الفاشية الإيطالية والاشتراكية القومية (النازية) الألمانية.

٣ ـ القومية التقليدية

اعتنق بعض المفكرين الذين عارضوا الثورة الفرنسية ونابليون شكلًا مختلفًا من القومية. ولم يكن إطارهم المرجعي «العقل» أو «الثورة»، بل التاريخ والتراث؛ حيث كرهوا كل ما يتعلّق باليعاقبة وبمثُلهم. وبينما

---

(١٢٣) Hayes, p. 42.

(١٢٤) المصدر نفسه، ص ٨٠.

كانـت قومية هؤلاء ديمقراطية وثورية، كانت القومية التقليدية أرستقراطية وارتقائيـة. أمّا أشـهر أنصارها فهـم إدموند بيـرك (E. Burke)، وفيكونت دو بونالد (V. de Bonald)، وفريدريك فون شليغل. كانت القومية التقليدية القوة الدافعـة المؤثّرة خلف الثورات داخل فرنسـا وتنامي المقاومة الشـعبية في القـارة، كما جسّـدتها اليقظة القومية في كلٍّ من ألمانيـا وهولندا والبرتغال وإسبانيا، وحتى روسيا. وسادت على منافستها الرئيسة، اليعقوبية، وانتصرت فـي معركـة واترلو عام ١٨١٥، لكن هذا النصر كان ظاهريًا وليس حقيقيًا. فعلى المدى البعيد، اندمج شكل معتدل من اليعقوبية في القومية الليبرالية الناهضة. ومن ناحية أخرى، تواصل التعبير عن القومية التقليدية في شـتى أرجـاء أوروبا، واختفت في نهاية المطاف ضمـن القومية المتكاملة للقرن العشرين.

٤ ـ القومية الليبرالية

«احتلـت القوميـة الليبراليـة موقعًـا متوسـطًا بيـن القوميـة اليعقوبيـة والتقليديـة... نشـأت في إنكلتـرا، بلد التسـوية الأبدية والوعـي الذاتي الحاد بالوطنيـة»[١٢٥]. أمّـا الناطق الرئيس باسـمها فـكان جيرمي بينثـام (J. Bentham) الذي أراد الحد من نطاق سلطة الحكومة ووظائفها في مجالات الحياة كافة. وفـي رأيه، تمثّل الجنسـية الوطنية الركيزة الصحيحـة للدولة والحكومة. وفي هذا السياق، عُدّت الحرب شرًا خالصًا ويجب استئصاله. وسرعان ما انتشرت قوميـة بينثـام الليبرالية مـن إنكلترا إلـى القـارة. وانتُحلت تعاليمه فـي ألمانيا (فيلهلـم فـون همبولـت (W. von Humboldt)، وبـارون هاينريـش فـون سـتاين (H. von Stein)، وكارل تيودور ويلكر (K. Th. Welcker))، وفي فرنسـا (فرانسـوا غيـزو (F. Guizot)، وفيكتـور هوغـو (V. Hugo)، وجـان كاسـيمير ـ بيريـه (J. Casimir-Perier))، وفي إيطاليا (جوسيبي ماتزيني).

ظهـرت فـوارق واختلافـات كثيرة فـي التفاصيـل بين هـؤلاء الأتباع والتلاميـذ المروّجين للفكرة في ما يتعلق بمـدى القومية الليبرالية ونطاقها ومضامينهـا. لكنهـم افترضـوا جميعًا أن «كل قومية يجـب أن تكوّن وحدة

(١٢٥) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

سياسـية في ظل حكومة دسـتورية مسـتقلة تنهي الاسـتبداد والأرستقراطية وتأثيـر الكنيسـة، وتضمـن لـكل مواطـن ممارسـة أوسـع قدر مـن الحرية الشـخصية»[١٢٦]. وتمكّنت القومية الليبرالية من النجاة من الحرب العالمية الأولى، لكن منطقها ومقاصدها السامية لم يكونا كافيين لضمان انتصارها؛ إذ كانـت بحاجة إلى امتشـاق الحسـام وذبـح الأعداء. وهكذا، انحسـرت الليبرالية مع مد القومية، نظرًا إلى أنها اضطرت الآن إلى التنافس مع شكل جديد من القومية[١٢٧].

٥ ـ القومية المتكاملة

عرّف شارل موراس (Ch. Maurass)، الداعية الرئيس لهذا النوع من القومية فـي مجلـة *L'Action Francaise*، القوميـة المتكاملـة بأنهـا «المسـعى الحصـري لتحقيق السياسـات الوطنيـة، والمحافظة التامة على السـيادة الوطنية، والزيادة المطّردة في القوة الوطنية ـ لأن الأمّة تصاب بالانحطاط حين تفقد قوتها»[١٢٨]. وكانـت القوميـة المتكاملـة فـي حالـة مـن العـداء الشـديد لقومية الإنسـانيين والليبراليين؛ فهـي لا تجعـل الأمّة وسـيلة للإنسـانية، بل غاية في حـد ذاتها. وتضع مصالح الأمّة فوق مصالح الفرد والإنسـانية، وترفض التعاون مع الأمم الأخرى. من ناحية ثانية، كانت الليبرالية المتكاملة استبدادية وغير ليبرالية في مـا يتعلّق بالشـؤون الداخلية؛ إذ طالبت المواطنين جميعهـم بالامتثال للمعيار المشترك للسلوك والأخلاق، وتقاسم حماسته المتهورة. وهي تُخضع الحريات الشـخصية كلهـا لغرضهـا الخـاص، وإذا اشـتكى المواطنـون، فسـوف تُقيـد الديمقراطية باسم «المصلحة الوطنية». واستُمدت فلسفة القومية المتكاملة من كتابات عدد من المنظرين في القرنين التاسـع عشـر والعشـرين، مثل أوغست كونـت (A. Comte)، وهيبوليـت أدولـف تايـن (H. A. Taine)، وموريـس بـاري (M. Barres)، وشـارل موراس. وازدهرت القوميـة المتكاملة في النصف الأول من القرن العشرين، ولا سيما في بلدان مثل إيطاليا وألمانيا. كما وصل تأثيرها إلى بلدان مثل هنغاريا وبولندا وتركيا ويوغسلافيا.

---

(١٢٦) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(١٢٧) المصدر نفسه، ص ١٦١ - ١٦٣.

(١٢٨) ورد في: المصدر نفسه، ص ١٦٥.

مثلما يكشف الموجز السابق، يتبع تصنيف هيز الترتيب الزمني والارتقائي. ومن ثم، ارتقت القومية الديمقراطية إلى اليعقوبية، وتطورت القومية الأرستقراطية إلى القومية التقليدية، وارتقت اليعقوبية والتقليدية إلى القومية الليبرالية والقومية المتكاملة. لكن هذا السرد لارتقاء الأيديولوجية القومية ليس وصفيًا وخاليًا من القيمة؛ فتفضيل هيز للقومية الليبرالية - الإنكليزية واضح لا لبس فيه. وكذلك ريبته وشكّه في القومية عمومًا. يسأل هيز: «هل هناك ما هو حتمي في ارتقاء القومية يدفع أتباعها وأنصارها بسرعة مطّردة نحو الحرب؟». إجابته واضحة لا لبس فيها: «أجل»: «من دون شك، مارست القومية في كثير من عقائدها وأغلبية ممارستها دورًا إيجابيًا في التاريخ الحديث. لكن لسوء الحظ، مالت إلى تطوير نوع مولع بالحرب والتّزمّت واللاتسامح أطلقنا عليه عشوائيًا اسم (القومية المتكاملة)»[١٢٩].

على العموم، تعاني أعمال هيز، مثل أعمال معظم معاصريه وأسلافه، نزعةً إلى الاستخفاف بأهمية «الجنسيات الوطنية». قد تكون القومية جديدة ومشروطة تاريخيًا، لكن ذلك لا ينطبق على الجنسيات:

صحيح أن السجلات التاريخية حاشدة منذ أقدم العصور بآثار وجود وعي بالجنسية الوطنية بدرجة أو بأخرى.. وصحيح أيضًا أن لدينا دلائل تاريخية تثبت تعليم القومية الحقيقية وممارستها لدى بعض الشعوب في العهود القديمة نسبيًا، مثل العبرانيين والأرمن واليابانيين[١٣٠].

يحدّ ذلك بالضرورة من القيمة التحليلية للصيغ التي ابتكرها هيز، حين يميل إلى «الافتراض» بدلًا من «شرح» غرضه الرئيس من التحليل: الأمّة - والقومية المشتقة منها[١٣١].

كانت أعمال هانز كوهن أكثر نفوذًا وتأثيرًا؛ حيث امتُدح كتابه الكلاسيكي **فكرة القومية** *(The Idea of Nationalism)* (١٩٤٤) في صحيفة **نيويورك تايمز**

---

(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٣١١ و٣٢٠، للاطّلاع على مشكلات تصنيف الأنواع استنادًا إلى التمايزات الأيديولوجية المجرَّدة، انظر: Smith, *Theories of Nationalism*, p. 196.

(١٣٠) Hayes, p. 292.

(١٣١) انظر: Lawrence, p. 87.

واعتُبِـر «من دون أي مبالغة، أكثر التحليلات التي تناولت القومية، انطلاقًا من أصـول أيديولوجية، براعة وذكاء وشـمولًا ووضوحًـا»[١٣٢]. وفي رأي كوهن، تُعَدّ القومية المنتج النهائي لعملية دمج الجماهير في شـكل سياسـي مشـترك. ولذلك، فهي «مسـتحيلة التصور قبل ظهور الدولة الحديثة في الحقبة الممتدة من القرن السـادس عشـر إلى القرن الثامن عشـر»[١٣٣]. ويعرف كوهن القومية إنهـا «أول حالـة ذهنيـة، وأهم فعل واعٍ» أصبح أكثر شـيوعًا باطّراد منذ الثورة الفرنسـية؛ فهـي تتشـرب في أغلبية الشـعب وتزعـم اختراق أفـراده جميعهم؛ وتفتـرض الدولة القومية الشـكل المثالي للتنظيم السياسـي والجنسـية الوطنية والمصدر النهائي للطاقة الثقافية والرفاه الاقتصادي[١٣٤].

يميـز كوهـن بيـن نوعيـن من القوميـة في مـا يتعلق بالأصول والسـمات الرئيسـة. ففي العالم الغربي، في إنكلترا أو فرنسـا أو الولايات المتحدة، كان نهوض القومية حدثًا سياسـيًا؛ إذ سـبقها نشوء الدولة القومية، أو تزامنت معها كما في حالة الولايات المتحدة. وفي خارج العالم الغربي، في وسـط أوروبا وشرقها وفي آسيا، ظهرت القومية في وقت متأخر، وفي مرحلة أكثر تخلفًا من التطور الاجتماعي والسياسي:

نادرًا ما تزامنت حدود دولة قائمة وجنسية وطنية ناهضة.. ولذلك وجدت تعبيرها الأول في المجال الثقافي.. في الحقيقة «الطبيعية» للجماعة، المرتبطة معًا لا بإرادة أفرادها ولا بأي التزامات عقد، بل بالروابط التقليدية المتمثلة في القرابة والمكانة[١٣٥].

ولِـدت القوميـة الغربيـة من رحم عصـر الأنوار، ولذلـك اتصلت اتصالًا حميمًا بمفاهيم الحرية الفردية والتعددية الثقافية. أمّا القومية اللاحقة في وسط أوروبا وشرقها وفي آسيا، فكان لها توجّه مختلف:

---

(١٣٢) ورد في: Andre Liebich, «Searching for the Perfect Nation: The Itinerary of Hans Kohn (1891–1971),» *Nations and Nationalism*, vol. 12, no. 4 (October 2006), p. 580.

(١٣٣) Kohn, *The Idea of Nationalism*, p. 4.

(١٣٤) المصدر نفسه، ص ١٣ - ١٤ و١٦.

(١٣٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٩ و٣٣١.

اعتمادًا على التأثيرات الخارجية، وبهدف مواجهتها، افتقرت هذه القومية الجديدة، غير المتجذرة في الواقع السياسي والاجتماعي، إلى الثقة بالنفس، وعقدة الدونية التي عانتها عوّضتها غالبًا بالمبالغة والغلو في التشديد على الثقة بالذات، وبدت أمام القوميين في ألمانيا أو روسيا أو الهند شيئًا أعمق إلى أبعد حد من قومية الغرب(١٣٦).

الإطار الرقم (١ - ١) هانز كوهن

ولد هانز كوهن في براغ عام ١٨٩١، وانتقل إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٣، حيث درّس التاريخ الحديث في كلية سميث في نورثامبتون بولاية ماساتشوستس (١٩٣٤-١٩٤٩)، ثم درس في كلية سيتي في نيويورك (١٩٤٩ - ١٩٦٢) إلى أن تقاعد. توفي عام ١٩٧١ في فيلادلفيا. أعظم أعمال كوهن كتاب *The Idea of Nationalism: A Study in its Origins and Background* (فكرة القومية: دراسة في أصولها وخلفيتها) (١٩٤٤)؛ تشمل مساهماته الأخرى في دراسة القومية:

Prophets and Peoples: Studies in Nineteenth Century Nationalism

(أنبياء وشعوب: دراسات في قومية القرن التاسع عشر (١٩٤٦))؛

American Nationalism: An Interpretative Essay

(القومية الأميركية: دراسة تفسيرية (١٩٥٧))؛

The Age of Nationalism: The First Era of Global History

(عصر القومية: الحقبة الأولى من التاريخ العالمي (١٩٦٢))؛

Nationalism: Its Meaning and History

(القومية: معناها وتاريخها (١٩٦٥)).

تعود أصول اهتمام كوهن بالقومية إلى براغ، المدينة التي نشأ فيها عند بداية القرن العشرين. «كانت براغ أهم مختبَر أوروبي للصراعات والتوترات ومضامين القومية الحديثة. هنا، اصطدمت التطلعات والمطامح الجرمانية والسلافية وجهًا لوجه، ووجدت ساحات معاركها الرئيسة. «في الوقت ذاته، أعطت هذه التعددية في الحضارات القومية، وصدامها وتنافسها براغ شخصية عالمية كوزموبوليتانية ومحفزة ثقافيًا»، كما يتذكر لاحقًا. ودفعه «هواء براغ ذاته» إلى دراسة القومية (Andre Liebich, «Searching for the Perfect Nation: The Itinerary of Hans Kohn (1891-1971),» *Nations and Nationalism*, vol. 12, no. 4 (October 2006), pp. 582-583.

(١٣٦) المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

أما التأثير التكويني الآخر في أفكار كوهن، فكان اعتناقه الصهيونية تحت تأثير مارتن بوبر وكتابات أحاد هاعام. «في صيف عام ١٩٠٨، حين كنت في السابعة عشرة، أصبحت صهيونيًا. وبقدر ما أتذكر، اتخذت هذا القرار فجأة، من دون مراجعة متعمّقة للذات». خاب أمل كوهن بالصهيونية في فلسطين التي انتقل للعيش فيها عام ١٩٢٥ في أعقاب أعمال العنف التي اندلعت بين اليهود والعرب وأدت إلى ثورة عام ١٩٢٩. كتب إلى مارتن بوبر يقول: «الأحداث والأحوال في فلسطين سيئة للغاية. نتشارك كلنا في الذنب، ما كان يجب أن نترك الأمور تصل إلى هذا الحد» ([المصدر نفسه، ص ٥٨٤ و٥٨٧]). في الولايات المتحدة وجد كوهن خلاصه الفكري - في شكل أميركي متميز من العقلانية التنويرية والليبرالية: «أن تصبح أميركيًا يعني دومًا ربط الذات بالفكرة. ما هي هذه الفكرة؟ إنها تراث الحرية الإنكليزي كما تطور من الجذور القديمة في الثورتين في القرن السابع عشر» (المصدر نفسه، ص ٥٨٨؛ Craig Calhoun, «Introduction to the Transaction Edition,» in: Hans Kohn, *The Idea of Nationalism: A Study in its Origins and Background*, with a New Introduction by Craig Calhoun (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2005), and Ken Wolf, «Hans Kohn's Liberal Nationalism: The Historian as Prophet,» *Journal of the History of Ideas*, vol. 37, no. 4 (October-December 1976).

سوف يصبح التمييز المزدوج الذي طوره كوهن في كتاب فكرة القومية التصنيف الذي استمر أطول مدة، ومارس أشد التأثير في ميدان دراسات القومية، كما ثبت لاحقًا. كان له أصل بالتأكيد - ففي عام ١٩٠٧، ميز فريدريك مينيك (F. Meinecke) بين الأمم «السياسية» و«الثقافية» - لكن كوهن هو الذي منح التمييز شخصية جغرافية ومعيارية خاصة. والمفارقة أن هذه هي أكثر الجوانب إشكالية في تصنيف كوهن.

مثلما أشار عدد من المعلّقين، كانت الفئات التي قام عليها تمييز كوهن عشوائية. فوفقًا لسميث، مثلًا، يُعَدّ التمييز المكاني بين «شرق» و«غرب» مضلّلًا نظرًا إلى أن إسبانيا وبلجيكا وإيرلندا التي كانت متخلّفة اجتماعيًا آنذاك، تنتمي إلى المعسكر «الشرقي» (تجدر الإشارة إلى أن كوهن لم يستخدم تعبير قومية «شرقية» في كتابه الذي صدر عام ١٩٤٤؛ لكن سميث هو الذي أدخل التعبير عند قراءته لعمل كوهن[١٣٧]؛ وبعض القوميات، مثل قومية النخب التركية أو

(١٣٧) Liebich, p. 593.

التنزانيـة، تمـزج العناصر «الطوعية» أو «العضوية» فـي حركة واحدة؛ وكثير من مستويات التطور، وأنماط البنى، والأوضاع الثقافية، متضمنة داخل كل فئة[١٣٨].

تـزداد حالات الغموض هذه تعقيدًا بالطبيعـة الأخلاقية لتمييز كوهن، أو ميله إلى ربط كل ما هو خير وجيد بالقومية «الغربية». وبكلمات كالهون:

قصته عن القومية قصة الإنجاز الليبرالي والتحدّي غير الليبرالي له. قصة يمثّـل فيهـا الغـرب ما هـو كوني وشـامل وعمومي، بينمـا يمثّل باقـي العالـم، المرتبط غالبًا بالشرق، خصوصيات لا تُعَدّ ولا تُحصى[١٣٩].

لكـن فـي رواية كوهن التفسـيرية إشـكالية كبرى، نظرًا إلـى أن العناصر «السياسية» و«الثقافية»، أو «المدنية» و«الإثنية»، تتناسج وتتشابك في القوميات الموجودة كلها تقريبًا، ولا تُعتبر القومية «السياسية» «المدنية» للغرب حميدة، أو ليبراليـة، أكثـر من نظيراتها «الثقافية» «الإثنية» المزعومة[١٤٠]. ومثلما يشـير كالهون، يعني تمييز كوهن ضمنًا أن الشكل السياسي والعقلاني المحض من القوميـة ممكـن، وأن الانتمـاء يمكـن أن يعتمـد اعتمـادًا كليًـا على التشـبث بـ«فكرة». وهذا لا يعاني شرخًا تحليليًا فقط ـ على الرغم من كل شيء، حتى الحـالات المَنسـقية (البارادايم) للقوميـة، في أميركا أو إنكلترا، تشـمل مكوّنًا ثقافيًا أو شـعورًا بالهوية والانتماء إلى شـعب[١٤١] ـ بل هو خطر سياسـيًا نظرًا إلى أنه «يشـجع من يعلنون أنفسـهم قوميين مدنيين.. على المبالغة في الرضا

(١٣٨) Smith, *Theories of Nationalism*, pp. 196-198.

(١٣٩) Craig Calhoun, «Introduction to the Transaction Edition,» in: Hans Kohn, *The Idea of Nationalism: A Study in its Origins and Background*, with a New Introduction by Craig Calhoun (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2005), p.x.

(١٤٠) للاطلاع على تفاصيل مشكلات التمييز المدني ـ الإثني، انظر: Umut Özkirimli, *Contemporary Debates on Nationalism: A Critical Engagement* (Houndmills, Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2005), pp. 24-28; Rogers Brubaker, *Ethnicity without Groups* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004), chap. 6; David Brown, *Contemporary Nationalism: Civic, Ethnocultural, and Multicultural Politics* (London; New York: Routledge, 2000), chap. 3; Philip Spencer and Howard Wollman, *Nationalism: A Critical Introduction* (London; Thousand Oaks, Calif.: Sage, 2002), chap. 4; Taras Kuzio, «The Myth of the Civic State: A Critical Survey of Hans Kohn's Framework for Understanding Nationalism,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 25, no. 1 (January 2002), and Stephen Shulman, «Challenging the Civic/Ethnic and West/East Dichotomies in the Study of Nationalism,» *Comparative Political Studies*, vol. 35, no. 5 (June 2002).

(١٤١) Brubaker, p. 137.

عن الذات، ورؤية شرور العالم الحديث (المركزية) التي ينتجها القوميون الإثنيون الذين يختلفون عنهم اختلافًا عميقًا بالتأكيد، من مسافة آمنة»[١٤٢].

من التصنيفات المهمة الأخرى التي أنتجت في هذه الحقبة تصنيف المؤرخ البريطاني الشهير إداورد كار (E. H. Car) [١٤٣]. الذي كان أكثر اهتمامًا برسم الحدود الفاصلة بين مختلف مراحل القومية الأوروبية مقارنة بقيمتها الأخلاقية. فبرأيه، «ليست الأمّة جماعة «طبيعية» أو «بيولوجية» ـ بمعنى العائلة مثلًا». وهي ليست كيانًا قابلًا للتحديد والتمييز بوضوح، لأنها «مقتصرة على حقب تاريخية معيّنة وأجزاء محددة من العالم». يقر كار بوجود مكان ووظيفة للأمة الحديثة في المجتمع الأوسع. لكن يجب تحدّي زعم القومية ورفضه، كما يضيف، بجعل الأمّة «المستودع السيادي الشرعي والوحيد للسلطة السياسية والوحدة التكوينية النهائية لتنظيم العالم»[١٤٤].

وفقًا لكار، «ينقسم تاريخ العلاقات الدولية الحديث إلى ثلاث حِقَب متداخلة، تميزها آراء مختلفة اختلافًا كبيرًا في ما يتعلق بالأمّة بوصفها كيانًا سياسيًا»[١٤٥]. بدأت الحقبة الأولى بالذوبان التدريجي للوحدة القروسطية بين الإمبراطورية والكنيسة، وتأسيس الدولة القومية. وانتهت بالثورة الفرنسية والحروب النابليونية. في هذه الحقبة، ارتبطت الأمّة بشخص الملك، وكانت العلاقات الدولية علاقات بين الملوك والأمراء، وما ميز هذه الحقبة أيضًا «الميركنتيلية» التي لم تستهدف ترويج رفاه المجتمع وخير أعضائه، بل تعزيز سلطة الدولة التي كان الملك تجسيدها الوحيد.

كانت الحقبة الثانية، كما يؤكد كار، «نتاجًا في الجوهر للثورة الفرنسية، وامتدت إلى كارثة عام ١٩١٤، مع أن ركائزها المؤسسة تقوّضت بشدة

---

(١٤٢) Calhoun, p. xiii.

(١٤٣) تعرّضت أعمال كار على الأغلب للتجاهل في المناقشات الأخيرة عن القومية.
وللاطلاع على استثناء بارز انظر: Ernest Gellner, *Encounters with Nationalism* (Oxford, [England]; Cambridge, Mass.: Blackwell, 1994), chap. 2; Smith, «Nationalism and the Historians,» p. 183, and Lawrence, pp. 127-128.

(١٤٤) Edward Hallett Carr, *Nationalism and After* (London: Macmillan, 1945), p. 39.

(١٤٥) المصدر نفسه، ص ١.

بدءًا عن عام ١٨٧٠»[١٤٦]. تُعَدّ هذه الحقبة الأكثر تنظيمًا وترتيبًا للعلاقات الدولية (والأكثر إثارة للحسد والإعجاب). واعتمد نجاحها على التوازن بين النزعة القومية والنزعة الدولية، وعلى إقامة تسوية بين السلطة السياسية والاقتصادية بحيث يمكن لكل منهما تطوير مساراتها. أما نشر فكرة القومية الديمقراطية الشعبية التي كان روسو أول من صاغها، إذ قامت أيضًا بدور في ذلك.

من ناحية أخرى، بدأت **الحقبة الثالثة** تتشكّل عند نهاية القرن التاسع عشر (بعد عام ١٨٧٠)، وبلغت ذروتها بين عامي ١٩١٤ و١٩٣٩. وتميزت هذه الحقبة بالنمو الكارثي للنزعة القومية وإفلاس النزعة الدولية. وكانت إعادة تأسيس السلطة السياسية الوطنية على النظام الاقتصادي، «اللازمة الطبيعية والضرورية لتأميم الأمّة» بكلمات كار، حاسمة الأهمية في إحداث هذا الوضع[١٤٧].

لم يكن كار متشائمًا من مستقبل العلاقات الدولية؛ فهو يعتقد أن الدولة القومية الحديثة معرّضة للهجوم من الداخل والخارج، من منظور المثالية والسلطة:

على مستوى الأخلاق، تتعرّض للهجوم من أولئك الذين يدينون المضامين الاستبدادية الشمولية المتأصلة فيها، ويزعمون أن أي سلطة دولية تستحق هذا الاسم يجب أن تهتم بحقوق الرجال والنساء وخيرهم ورفاهيتهم لا بالأمم. وعلى مستوى السلطة، امتصت نسغها التطورات التقانية الحديثة التي جعلت الأمّة كيانًا مهمَلًا آيلًا إلى الزوال باعتبارها الوحدة التنظيمية العسكرية والاقتصادية، وركزت بسرعة القرار المؤثّر والتحكم الفاعل في أيدي الوحدات الكبرى المتعددة الجنسية[١٤٨].

يعتمد المستقبل، كما يختتم كار، على قدرة كل من هذه القوى، وعلى طبيعة التوازن الذي قد يقام بينها.

---

(١٤٦) المصدر نفسه، ص ٢.

(١٤٧) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(١٤٨) المصدر نفسه، ص ٣٨.

على الرغم من المقاصد الأصلية لتصنيف كار، فإنه ليس متحررًا من تأثيرات نبرة أسلافه الأخلاقية، ولا سيما تشكُّك هيز. ولذلك، فهو يلاحظ بصورة عابرة أنه اعتقد ذات مرة باحتمال تحقيق مجتمع الأمم؛ وتبيّن له الآن بكل وضوح أن من الضروري التخلّي عن هذا الاعتقاد[١٤٩]. وهذا ما دفع سميث إلى انتقاده بسبب عدم أخذه بالاعتبار احتمال ظهور موجة من القوميات المناهضة للاستعمار، أو تجدّد القوميات الأوروبية والعالم ثالثية الانعزالية. فهو يعبّر، وفقًا لسميث، عن الأسس الأخلاقية والغائية لتحليله، فضلًا عن تعصبه لأوروبا وإيمانه بتفوقها[١٥٠].

تزامن عمل كار مع نقطة مفصلية في السياسة العالمية، عند نهاية الحرب العالمية الثانية التي كانت أيضًا بداية مرحلة جديدة في دراسة القومية.

رابعًا: ١٩٤٥ - ١٩٨٩

دشنت تجربة التحرر من الاستعمار، مقترنة بالتطورات العامة في العلوم الاجتماعية، الحقبة الأكثر كثافة وغزارة في الأبحاث المتعلقة بالقومية. إذ أنتجت الدراسات المبكرة في هذه الحقبة ـ تلك التي أُجريت تقريبًا في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين ـ تحت سطوة نظريات التحديث، التي هيمنت آنذاك على العلوم الاجتماعية الأميركية.

أمّا نقطة البداية لنظريات التحديث، فتمثّلت في تمييز علم الاجتماع الكلاسيكي بين المجتمعات «التقليدية» و«الحديثة». وعند رسم هذا الخط المميز، افترض الباحثون في تلك الحقبة وجود ثلاث مراحل مختلفة في عملية التحديث: التقليدية والانتقالية والحداثية. وبذلك، يعني التحديث بدلالته انهيار النظام التقليدي وتأسيس نمط جديد من المجتمع بقيم جديدة وعلاقات جديدة. يوجز سميث هذا المسار من الجدل بأسلوب بليغ:

---

(١٤٩) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(١٥٠) Smith, «Nationalism and the Historians,» p. 183.

يجب على المجتمعات، من أجل النجاة من الاضطراب المؤلم، مأسسة أنماط جديدة لتحقيق المبادئ، وتأدية الوظائف التي لم تَعُد بناها الهيكلية السابقة قادرة على التكيف معها. وكي يستحق اللقب، يجب على المجتمع «الجديد» إعادة بناء نفسه على صورة القديم.. ويمكن لآليات إعادة الاندماج والاستقرار تيسير الانتقال وتسهيله؛ ومن هذه الآليات الأيديولوجيات الجمعية مثل القومية التي تنبثق طبيعيًا في أوقات الأزمات الاجتماعية، وتبدو هادفة ومؤثرة وفاعلة بالنسبة إلى المشاركين في الوضع[١٥١].

إذًا، للقومية «وظيفة» واضحة في هذه التفسيرات. ويمكن أن توفّر هوية جامعة في زمن التغير السريع؛ وأن تحفز الناس على العمل لإحداث مزيد من التغيير؛ وتزوّدهم بالخطوط الإرشادية في ميادين ومجالات مثل إيجاد نظام تعليمي جديد، وثقافة «وطنية» معيارية[١٥٢]. أمّا النموذج الأصلي لهذه التفسيرات الوظيفية، فكان كتاب دانييل ليرنر *The Passing of a Traditional Society* (موت مجتمع تقليدي) (١٩٥٨).

ارتكز كتاب ليرنر على قصة عن ثلاث شخصيات من بالغات (Balgat)، البلدة الصغيرة في تركيا، بالقرب من العاصمة أنقرة[١٥٣]. مثّلت هذه الشخصيات المراحل المختلفة من عملية التحديث: زعيم القرية، المطمئن، الأبوي، المؤمن بالقضاء والقدر، يجسّد القيم التركية التقليدية؛ البقّال، القلِق الذي لا يرضيه شيء، هو رمز الحقبة الانتقالية؛ أخيرًا، يمثّل طوسن، مخبِر المؤلّف الآتي من العاصمة، الحداثة. ومشكلة هؤلاء الأشخاص الرئيسة هي «كيف يمكن تحديث الطرائق التقليدية التي لم تعد «تعمل» بحيث ترضيهم»[١٥٤]. وفقًا لليرنر، «يجب على المجتمعات كلها.. المرور من مرحلة المواجهة التقليدية عبر مرحلة «انتقالية» يهيمن عليها عدم اليقين وتناقض المشاعر للوصول في نهاية المطاف إلى سهل المجتمع الوطني والثقافة الوطنية، الحديث

---

(١٥١) Smith, *Theories of Nationalism*, pp. 49-50.

(١٥٢) Breuilly, pp. 418-419.

(١٥٣) للاطّلاع على موجز مكثّف، انظر: Smith, *Theories of Nationalism*, pp. 89-95.

(١٥٤) Daniel Lerner, «The Passing of Traditional Society,» in: J. Timmons Roberts and Amy Hite, eds., *From Modernization to Globalization: Perspectives on Development and Social Change*, Blackwell Readers in Sociology; 1 (Oxford; Malden, MA: Blackwell, 2000), p. 119.

و«التشاركي»»[155]. لا تناقش حقيقة وجود حقبة انتقالية للنموذج الغربي للمجتمع؛ الشيء الوحيد المهم هو «سرعة السير». أين تقف القومية في هذه الصورة؟ مع أن القومية لا تحظى إلا بإشارة عابرة في قصة ليرنر، فإنها موجودة ضمنًا بوصفها أيديولوجية «الانتقاليين»: «الانتقاليون هم مفتاحنا إلى الشرق الأوسط المتغيّر. فما هم عليه اليوم ليس سوى عبور من الحالة التي كانوا عليها ذات يوم، إلى ما يصبحون عليه. وعبورهم، الواضح البيّن، هو موت المجتمع التقليدي في الشرق الأوسط»[156].

تجسد رواية ليرنر مثالًا نمطيًا لسلسلة كاملة من النظريات التفسيرية المستلهمة من مَنسَق (باراديم) التحديث. وتشترك هذه التفسيرات كلها بافتراض أساس يشير إلى أن القومية مصاحِبة للحقبة الانتقالية، وبلسم يهدّئ النفوس القلقة، ويخفف حدة المعاناة الناجمة عن تلك العملية. ومثلما لاحظ عدد من المعلّقين، تعاني التفسيرات الوظيفية شرخًا في أكثر من ناحية.

أولًا، تستمد النظريات الوظيفية التفسيرات من الحالات الختامية؛ ففي هذه التفسيرات، تسبق النتائج الأسباب، وتعامَل الأحداث والعمليات بوصفها واقعة في ما وراء الفهم الإنساني[157]، وتفترض أن الأفراد هم نتاج الظروف الاجتماعية التي وجدوا أنفسهم فيها، «مزق من ورق عبّاد الشمس تتحول إلى اللون الأزرق تحت الشروط المناسبة». وهذا يحدّ حتمًا من مدى الخيارات التي فتحت في البداية للأفراد الذين يستجيبون بأسلوب عقلاني، وقابل للتغيير، لوضعهم، ومن ثم يعيدون تحديده وتعديله[158]. وفقًا لسميث، هنالك عدد كبير من الحالات لمجتمعات تقليدية فشلت في تطوير أي شكل من أشكال الاحتجاج حين أُخضعت للتحديث أو التمايز البنيوي. ومعظم التفسيرات الوظيفية لا يمكن أن تتكيف مع هذه الاستثناءات. والأهم، أن أغلبية الأهداف التي اعتُقد أن

(١٥٥) Smith, *Theories of Nationalism*, p. 90.

(١٥٦) Lerner, p. 133.

(١٥٧) Brendan O'Leary, «On the Nature of Nationalism: An Appraisal of Ernest Gellner's Writings on Nationalism,» in: Hall and Jarvie, eds., p. 86.

(١٥٨) Minogue, p. 117.

القوميـة خدمتهـا لاحقةٌ منطقيًـا وتاريخيًا لظهور الحركـة القومية، ومن ثم لا يمكن استحضارها لتفسيرها[١٥٩].

ثانيًـا، تُعَدّ تفسـيرات أنصـار الوظيفية أنها مبالِغة في التعميم والشـمولية. فوظائـف القوميـة، مثل التضامن أو التحديث، تعابير فضفاضة واسـعة يصعب ربطهـا بمفهـوم محدّد مثـل القومية. وفي ضـوء هذه الملاحظـة، يمكن طرح السـؤال الآتي: «هل يتعذّر تحقيق هذه الأشـياء مـن دون القومية؟». لا يمكن الإجابـة بنعـم، كما يقول برويللي، لأن الإنجـاز يمكن فهمه بوصفه جملة من الطرائـق، ولأن التضامـن أو التحديـث جرى في تشـكيلة متنوعة مـن البيئات والأوضاع من دون أن تصاحبه مشاعر قومية[١٦٠].

ثالثًـا، لا يمكـن لتفسـيرات دعـاة الوظيفية تفسـير تنوّع الاسـتجابات التاريخية للحداثة. يسـأل سـميث: «لمـاذا كانت قومية باكسـتان من النوع المسـمّى التقليديـة الجديدة، بينما كانـت القومية التركيـة علمانية؟ ولماذا كانت الاسـتجابة بولشـفية في روسـيا، وفاشـية في إيطاليا، واشـتراكية في يوغسلافيا وإسرائيل؟»[١٦١].

أخيرًا، تُعَدّ نظريات دعاة الوظيفية متعصّبة لأوروبا ومؤمنة بتفوّقها؛ وتميل إلى تبسـيط الأنماط المثالية لـ«التقليد» و«الحداثة» وتشييئها، واستمدادها من التجـارب الغربيـة. ووفقًا لليرنـر، مثلًا، يُعَدّ نموذج التحديـث الذي ارتقى في الغـرب حقيقـة تاريخيـة. «النمـوذج الأساسـي نفسـه يعـاود الظهـور فـي كل المجتمعات التحديثية فعليًا في قارات العالم قاطبة، بغضّ النظر عن التنويعات في العِرق واللون والعقيدة». وفي الحقيقة، «من الأفضل للتحديثيين في الشرق الأوسـط دراسـة التسلسـل التاريخي للنمو الغربـي»![١٦٢] لكـن مثلما أظهرت عقود عدة من التنظير ما بعد الكولونيالي، وما كشفه التاريخ منذ الخمسينيات والسـتينيات مـن القرن الماضي، فـإن الحقيقة الواقعية أكثر تعقيـدًا ممّا يريدنا ليرنر أن نؤمن به.

---

(١٥٩) Smith, *Theories of Nationalism*, p. 51.

(١٦٠) Breuilly, p. 419.

(١٦١) Smith, *Theories of Nationalism*, p. 53.

(١٦٢) Lerner, p. 120.

من التنويعات الأخرى لنظريات التحديث ما يسمّى «مقاربة الاتصالات»، المرتبطة عمومًا بأعمال عالِم الاجتماع السياسي الأميركي كارل دبليو. دويتش (C. W. Deutsch). بدأ دويتش تحليله بتعريف «الشعب» بأنه مجموعة كبيرة من الأشـخاص المرتبطين بعادات متتامة ومرافق اتصالات. ويقترح تعريفًا وظيفيًا للقوميـة: «جوهريًـا، تعتمـد العضويـة فـي شـعب علـى سلسـلة واسـعة مـن الاتصـالات الاجتماعيـة التـي يتمّـم بعضها بعضًـا. وترتكز علـى القدرة على الاتصـال بطريقـة أكثـر فاعليـة، وحول سلسـلة أوسـع من الموضوعـات، مع أعضاء مجموعة واحدة كبرى مقارنة بالأجانب»[١٦٣]:

في الكفاح السياسي والاجتماعي للعصر الحديث، تعني الجنسية الوطنية تراصفًا لأعداد كبيرة من الأفراد من الطبقتين الوسطى والدنيا، يرتبطون بمراكز إقليمية وجماعات اجتماعية رائدة عبر قنوات من الاتصال الاجتماعي والتفاعل الاقتصـادي، بطريقـة غير مباشـرة مـن رابطة إلـى رابطة، وبطريقة مباشـرة مع المركز[١٦٤].

في عصر القومية، تضغط الجنسـيات الوطنية لاكتسـاب وسـيلة للتحكّم الفاعـل بسـلوك أعضائها. وتسـعى إلى تزويد نفسـها بالقوة، مـع بعض آليات الإجبـار القوية إلى حد يجعل تطبيق الأوامر ممكنًا: «بعد أن تضيف الجنسـية الوطنية هذه القوة لفرض تلاحمها السـابق والارتباط برموز الجماعة، كثيرًا ما تَعِـدّ نفسـها أمّـة وكذلك يجدهـا الآخـرون»[١٦٥]. تُدعّم هذه العملية بتشـكيلة متنوعـة مـن الترتيبات المتكافئة وظيفيًا. وعلـى نحو أخص، فإن ما يحرك بناء الأمّـة هـي العمليـات الاجتماعيـة ـ الديموغرافيـة مثـل التحضيـر، والحراك، والتعلم... إلخ. وتؤدّي آليات الاتصالات دورًا مهمًا في هذا السيناريو، حيث توفّـر أدوارًا جديدة، وآفاقًا جديدة، وتجارب وتخيلات للحفاظ على سلاسـة سير العملية[١٦٦].

---

(١٦٣) Karl W. Deutsch, *Nationalism and Social Communication; an Inquiry into the Foundations of Nationality*, 2nd ed. (Cambridge: MIT Press, 1966), pp. 96-97.

(١٦٤) المصدر نفسه، ص ١٠١.

(١٦٥) المصدر نفسه، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(١٦٦) Smith, *Theories of Nationalism*, p. 99.

أمّا النقيصة الحاسمة في هذه المقاربة، وفقًا لسميث، فهي [أولًا] إهمالها السياق الخاص من المعتقدات والتفسيرات والاهتمامات التي تشتغل ضمنها وسائل الإعلام الجماعية. وآليات الاتصالات هي على الدوام تلك التي تطورت في الغرب، وتلك التي تُعَدّ تأثيراتها خارج الغرب مماثلة للنتائج الغربية(١٦٧).

ثانيًا، يُعَدّ مفهوم الاتصال الجماعي في هذه النظريات وحيد البُعد؛ إذ لا تنقل أنظمة الاتصالات أيديولوجيا واحدة، «التحديث»، والرسائل المنقولة لا يتلقّاها الأفراد الذين يشكّلون المجتمع بالطريقة نفسها. ومن ثم «إن التعرّض لأنظمة الاتصالات الجماعية لا يحمل معه آليًا الرغبة في «الحداثة» وفوائدها»(١٦٨).

ثالثًا، يمكن للاتصالات المكثفة بين الأفراد والجماعات أن تؤدي إلى تفاقم النزاع الداخلي مثلما تؤدي إلى زيادة التضامن. وما يعادل ذلك في الأهمية أن مثل هذا النزاع أو التضامن ربما يعبَّر عنه بتعابير لا علاقة لها بالقومية؛ إذ لا تشير بنى الاتصالات إلى أنواع النزاع والتضامن الموجودة في مجتمع معيّن، ومن ثم لا يمكن بحد ذاتها أن تتوقع أي أنواع من القومية سوف تتطور(١٦٩).

المشكلة الأخيرة أثار انتباهنا إليها فيليب شليسينغر (P. Schlesinger) الذي يقدّم الحجّة على أن تفسير دويتش الوظيفي للدمج الثقافي لا يعمل إذا انتقل مستوى التحليل إلى خارج الدولة القومية. «لا يقدم مبدأ عامًا لتحليل التفاعل بين المجتمعات المتواصلة ـ مسألة تحظى باهتمام محوري في الدراسات الثقافية والإعلامية المعاصرة ـ لأنه لا يقع حيث يكمن مركز الاهتمام»(١٧٠).

على الرغم من هذه النواقص والمثالب، أو بسببها، أعطت نظريات التحديث والاتصالات دافعًا محرّكًا جديدًا للجدل النظري حول القومية.

---

(١٦٧) المصدر نفسه، ص ٩٩ و١٠١.

(١٦٨) المصدر نفسه، ص ١٠١.

(١٦٩) Breuilly, pp. 406-407.

(١٧٠) Philip Schlesinger, «Communications Theories of Nationalism,» in: Leoussi, ed., p. 27.

وشـهدت سـتينيات القرن الماضي بدايـة ظهور اهتمام متعـدد التخصصات بظاهـرة القوميـة. ويعود جزء من السـبب في ذلك إلى تنـوع الآراء النظرية. والحقبة هذه تمثّل من نواح كثيرة «ترسّـخ» الدراسة الأكاديمية للقومية[171]. وفـي هذا السـياق نُشـرت الأعمـال الرائـدة للمقاربـة الحداثيـة، مثل كتاب كدوري القومية *(Nationalism)* (الذي نُشـر أول مرة في عام ١٩٦٠)، وكتاب إرنست غيلنر الفكر والتغيير *(Thought and Change)* (١٩٦٤).

الإطار الرقم (١ - ٢)　إيلي كدوري

ولد إيلي كدوري في بغداد عام ١٩٢٦، وأصبح أستاذًا للعلوم السياسية في كلية لنـدن للاقتصـاد والعلوم السياسـية في عام ١٩٥٣، وبقي هناك إلـى أن تقاعد في عام ١٩٩٠. توفي في واشـنطن عام ١٩٩٢. يُعَدّ كدوري من أهم المرجعيات العالمية في ما يتعلق بالشـرق الأوسـط، ونشـر عددًا كبيـرًا من الدراسـات عن السياسـة والتاريخ والمنطقـة. أمـا مسـاهمته الرئيسـة فـي مجـال دراسـات القوميـة، فهـي كتابـه القومية (١٩٦٠)؛ كمـا أعدّ كتاب القومية في آسـيا وأفريقيـا (١٩٦٠)، وهو مجموعة مقالات كتبها سياسيون ومفكرون قوميون.

اتصفـت كتابـات كدوري عـن القومية بنزعة محافظة عميقة، وبما يسـمّيه مارتن كريمر «عدم إيمانه بالقوة المخلّصة للسياسة الأيديولوجية»، ويمكن اعتبارها جزءًا من انتقاده العام للتاريخ الدبلوماسـي البريطاني في الشـرق الأوسـط، ولا سـيما تشـجيع القومية العربية التي ينسب إليها فشل الإرادة الاستعمارية البريطانية في المنطقة. يكتب كـدوري: «لـم تُمنح القومية العربية درعهـا العقيدية إلّا بعد الحـرب العالمية الأولى، وحدث ذلك بصورة رئيسة في العراق، حيث شرع القوميون العرب المسيطرون على النظـام الإداري والتعليمـي، تحت الرعايـة البريطانية، ببث آرائهم وغرسـها في الجيل الصاعد. ووفقًا لهذه العقيدة، شـكّل العرب، بفضـل التحدث بلغة واحدة... إلخ، أمّة واحـدة، ولذلـك فهـم مؤهلون لتشـكيل دولة واحـدة. وعلى شـاكلة العقائـد القومية الأخرى، تعاني هذه شـرحًا منطقيًا بسـيطًا، إذ لا توجد طريقة لإثبات أن الشعب الذي يتحـدث لغـة واحدة يجب أن يتحد في دولة واحـدة» (Elie Kedourie, «Not So Grand Illusions,» *New York Review of Books*, vol. 9, no. 9 (November 1967).

---

(١٧١) Lawrence, p. 132.

«جماعات إثنية متنوعة «من المساعي المستلهمة من الأيديولوجيا لضمان سيادة وسلامة كل واحدة من هذه الجماعات المتمازجة». يقول كدوري: «البشرية ليست مقسّمة طبيعيًا إلى «أمم»، والسمات المميزة لأي «أمة» محدّدة ليست قابلة للتوكيد بسهولة، ولا متأصلة حصريًا فيها؛ بينما يعني الإصرار على أن النوع الشرعي الوحيد من الحكم هو الحكم الذاتي الوطني النزوة الرافض للتنوع الكبير للترتيبات السياسية التي وافق عليها البشر وأخلصوا الولاء لها، والسعي وراء حالة ستكون محاولة تحقيقها، بحسب طبيعة الأشياء، مدمرة وعقيمة» (Elie Kedourie, *Nationalism in Asia and Africa* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1971), p. 28; Maurice Cranston, «Obituary: Elie Kedourie (1926-92),» *Political Studies*, vol. 40, no. 3 (September 1992), and Martin Kramer: «Elie Kedourie,» in: Kelly Boyd, ed., *Encyclopedia of Historians and Historical Writing*, 2 vols. (London; Chicago: Fitzroy Dearborn, 1999), vol. 1: *A-L*, and «Policy and the Academy: An Illicit Relationship?,» *Middle East Quarterly*, vol. 10, no. 1 (Winter 2003)).

يُعتبر هجوم كدوري المحافظ على القومية معْلمًا بارزًا من معالم ارتقاء الجدل النظري. ففي رأيه، تُعتبر مسألة القومية مشكلة في تاريخ الأفكار: «هدفي من تأليف هذا الكتاب تقديم رواية تاريخية للقومية بوصفها عقيدة، و...إعطاء القارئ فكرة عن ظروف انتشار العقيدة وعواقبه وتبعاته» في أوروبا وغيرها من أجزاء العالم[١٧٢]. ومن ثم فإن:

القومية عقيدة ابتُكرت في أوروبا في بداية القرن التاسع عشر... وباختصار، أكدت العقيدة أن البشرية مقسّمة طبيعيًا إلى أمم، وأن الأمّة تعرف ببعض السمات المعيّنة التي يمكن توكيدها، وأن النوع الشرعي الوحيد للحكم هو الحكم الذاتي الوطني[١٧٣].

مثلما رأينا سابقًا في هذا الفصل، يُرجع كدوري أصول هذه العقيدة إلى كتابات كانط والفكر الرومانسي الألماني. ويشرحها بتعابير الثورة في الفلسفة الأوروبية، مع تشديد خاص على الدور الذي قامت به ازدواجية كانط المعرفية، والتشبيه العضوي الذي طوّره فيخته وتلاميذه، والتاريخانية. لكن القصة لا

(١٧٢) Kedourie, *Nationalism*, p. 136.

(١٧٣) المصدر نفسه، ص ١.

تنتهي هنا؛ إذ يعتقد كدوري أن الثورة في الأفكار صاحبها اضطراب في الحياة الاجتماعية: «في الوقت الذي شرحت فيه العقيدة بالتفصيل، كانت أوروبا في حالة اضطراب.. فالأشياء التي كانت تُعَدّ مستحيلة أصبحت الآن في الحقيقة ممكنة ومعقولة»[١٧٤]. عند هذه النقطة، يلفت كدوري انتباهنا إلى المكانة الاجتماعية المتدنية للرومانسيين الألمان الذين أوقف حراكهم إلى الأعلى آنذاك. أمّا الجيل الشاب، فكان في حالة من القلق الروحي، والاستياء والسخط على الأوضاع السائدة، والتوق إلى التغيير. نتج هذا القلق ـ جزئيًا ـ من أسطورة الثورة الفرنسية. لكن الأهم من ذلك هو «الانقطاع في انتقال العادات السياسية والمعتقدات الدينية من الجيل السابق إلى الجيل اللاحق»[١٧٥].

رفض الأبناء الآباء وأساليبهم، لكن الرفض امتد ليشمل أيضًا الممارسات والتقاليد والمعتقدات التي شُكّلت على مر القرون وكوّنت هذه المجتمعات التي بدت فجأة للشباب مقيّدة وخرقاء وخالية من المواساة الروحية إلى أقصى حد[١٧٦].

وفقًا لكدوري، يمكن لهذه الثورة على الأساليب القديمة أن تفسر أيضًا الطبيعة العنيفة لكثير من الحركات القومية، من حيث إن هذه الأخيرة التي وجّهت ظاهريًا ضد الأجانب، كانت أيضًا تمظهرًا لصراع الأجيال: «الحركات القومية هي حملات الأبناء العنيفة، وأسماؤها ذاتها بيانات ضد الشيخوخة والشيوخ: إيطاليا الفتاة، مصر الفتاة، تركيا الفتاة»[١٧٧]. ومن المؤكد أن هذه الحركات أشبعت حاجة مهمّة هي الانتماء إلى مجتمع متلاحم ومتماسك ومستقر:

تُشبع مثل هذه الحاجة الأسرة عادة، والحي والجماعة الدينية. في الأعوام المئة والخمسين الماضية، كان على مثل هذه المؤسسات في شتى أنحاء العالم أن تتحمل وطأة العنف الاجتماعي والتغير الفكري. وليس من قبيل الصدفة أن تكون القومية في أشد حالاتها حدة وقوة حيثما/ وحينما

(١٧٤) المصدر نفسه، ص ٨٧.
(١٧٥) المصدر نفسه، ص ٩٤.
(١٧٦) المصدر نفسه، ص ٩٥.
(١٧٧) المصدر نفسه، ص ٩٦.

افتقرت هذه المؤسسات إلى المرونة ولم تكن مهيّأة للصمود أمام الهجمات القوية التي أصبحت عرضة لها[178].

تحوّل هؤلاء الشباب المحبطون، لكن المتحمسون، إلى الأدب والفلسفة اللذين يفسحان الطريق على ما بدا إلى عالم نبيل، وفشلوا في ملاحظة أن التأمل الفلسفي لا يتّسق مع النظام المدني. لكن لم يكن ثمة وسائل فاعلة للسيطرة على تأملاتهم لأنها لم تكن ثمرة لمؤامرة: «كانت متأصلة في طبيعة الأشياء، وانبثقت من روح العصر ذاته»[179].

يقول سميث في تعليق له[180]: «هذه أطروحة قوية وأصيلة»، لكن ذلك لا يجعلها منيعة ضد الانتقادات. فهناك أولًا عدد من المعلّقين الذين يخالفون رأي كدوري حول مسألة مساهمة كانط في عقيدة القومية؛ على سبيل المثال، يقدّم غيلنر الحجّة على أن «كانط هو آخر شخص يمكن أن تُنسب إلى رؤيته المساهَمة في القومية». وفي الحقيقة، «إذا وجدت صلة جامعة بين كانط والقومية أصلًا، فإن القومية هي ابتكار ضده، لا من نسله»[181]. ويوافقه سميث الرأي ملاحظًا أنه حتى وإن كان تفسير كدوري لكانط صائبًا، فإنه ينسى دَين كانط لروسو[182]. يردّ كدوري على هذا الانتقاد في «خاتمة» الطبعة الرابعة من كتابة، بالتشديد على أنه لم يزعم قط أن كانط كان «قوميًا». بل إن الحجة تركزت على أن فكرة تقرير المصير التي تكمن في مركز نظرية كانط الأخلاقية، أصبحت فكرة مهيمنة في خطاب خلفائه الأخلاقي والسياسي، ولا سيما فيخته. طبعًا، لم يكن كانط مسؤولًا عن أفعال تلاميذه أو خلفائه[183].

ثانيًا، هنالك علامة استفهام على معالجة كدوري العامة للقومية بوصفها مشكلة في تاريخ الأفكار. يقدم غيلنر، من بين آخرين، حجّة معارضة لكدوري،

---

(١٧٨) المصدر نفسه.

(١٧٩) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(١٨٠) Smith, *Theories of Nationalism*, p. 34.

(١٨١) Gellner, *Nations and Nationalism*, pp. 132 and 134.

(١٨٢) Smith, *Theories of Nationalism*, p. 35.

(١٨٣) Kedourie, *Nationalism*, p. 137.

تؤكد أننا لن نعرف الكثير عن القومية من دراسة أنبيائها[١٨٤]. وفي موقف مشابه، يتهم سميث كدوري بـ«الحتمية الفكرية»؛ إذ تطغى على العوامل الاجتماعية والسياسية في توصيف خدوري، مثل إعاقة حراك الإنتلجنسيا الألمانية وانهيار الطرائق التقليدية، التطوراتُ التي تشهدها الساحة الفكرية، وتصبح العوامل الاجتماعية متغيرات مساهمة أو متدخّلة في ما يمكن أن يُعتبر تفسير العامل الواحد[١٨٥].

ثالثًا، يعارض سميث تشديد كدوري على «الحاجة إلى الانتماء»، مؤكدًا أن هذا العامل لا يقدم إجابة عن الأسئلة الآتية: «لماذا تكون الأمّة، في أزمنة وأمكنة محددة وحسب، هي التي تحل محل العائلة والجماعة الدينية والقرية؟»؛ «لماذا تبدو هذه الحاجة مؤثرة في بعض السكان وليس في غيرهم؟»؛ «كيف يمكن أن نقيس هذا العامل بالنسبة إلى العوامل الأخرى؟». في غياب هذه الأسئلة، كما يستنتج سميث، تُعَدّ الحجّة «جزءًا من استخدام دائري لمفاهيم علم النفس في تفسير التاريخ وغيره»[١٨٦]. وعرض بروييللي حجّة مماثلة يؤكد فيها أن «حاجات الهوية» أكثر شمولًا من القومية. ويلاحظ أن بعضًا من هؤلاء الذين عانوا أزمة هوية تحول إلى أيديولوجيات أخرى ـ طبقية ودينية؛ وقبِل غيرهم التغييرات التي حدثت وسعوا وراء مصالحهم تحت الظروف الجديدة، بينما تحول آخرون إلى الشراب، ولا نعلم شيئًا عن الأغلبية. يلاحظ أيضًا أن القومية لم تلق أقوى دعم لها من تلك الجماعات التي نتصور أنها الأكثر تضررًا من أزمة الهوية[١٨٧].

أخيرًا، ليس من الواضح كيف ساهمت الأفكار في انهيار البنى القائمة؛ حيث حدث التغيّر الاجتماعي السريع قبل القرن الثامن عشر أيضًا. وتعرّضت المؤسسات التقليدية دومًا للانتقاد، على الأغلب من الأجيال الشابة، فلماذا إذًا ظهرت القومية على هذه الدرجة من العشوائية في الحقب المبكرة؟ وما هي السمة الفريدة في الهجمة الحديثة على التراث؟[١٨٨].

---

(١٨٤) Gellner, *Nations and Nationalism*, p. 125.

(١٨٥) Smith, *Theories of Nationalism*, pp. 37-38.

(١٨٦) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(١٨٧) Breuilly, p. 417.

(١٨٨) Smith, *Theories of Nationalism*, pp. 39-40.

شـهدت سـبعينيات القرن العشـرين موجة جديدة من الاهتمام بالقومية. وكانـت مسـاهمة الباحثيـن المنتمين إلى الماركسـية الجديـدة مهمّة على نحو خـاص فـي هذا السـياق. من هذه المسـاهمات المهمّة في هـذه الحقبة كتاب مايـكل هيكتـر *Internal Colonianism: The Celtic Fringe in British National Development 1536-1966* **(الاستعمار الداخلي: الطرف السلتي في التطوّر الوطني البريطانـي ١٥٣٦ - ١٩٦٦)** (١٩٧٥)، وكتـاب تـوم نيـرن *The Break-up of Britain: Crisis and Neo-Nationalism* **(تفكّك بريطانيا: الأزمة والقومية الجديدة)** (١٩٧٧) أمّـا الجـدل، فشـهد انعطافة جديدة فـي الثمانينيات، مع نشـر كتاب جـون أرمسـترونغ *Nations before Nationalism* **(الأمـم قبـل القومية)** (١٩٨٦)، وكتاب أنتوني د. سميث *The Ethnic Origins of Nations* **(الأصول الإثنية للأمم)** (١٩٨٦) الذي وضع الركيزة المؤسسة لنقد «إثني ـ رمزي» للنظريات الحداثية التـي ظهـرت فـي سـتينيات وسـبعينيات القـرن العشـرين. ومـن المفارقـة أن الكلاسـيكيات العظيمة للمقاربة الحداثية ظهـرت أيضًا في هذه الحقبة: كتاب إرنسـت غيلنـر *Nations and Nationalism* **(أمـم وقوميـة)**، وكتـاب بينيديكـت أندرسون *Imagined Communities* **(جماعات متخيّلة)**، وكتاب إريك ج. هوبزباوم وتيرنس رينجر *The Invention of Tradition* **(اختراع التراث)** التي نُشرت كلها في عام ١٩٨٣، هيأت المشهد للمجادلات الحماسية، وأحيانًا الجدلية التي جرت فـي العقـد الماضي (سـوف تُناقَش مسـاهمات هـؤلاء المنظرين بإسـهاب في الفصليـن الرابـع والخامس). ومع ظهور هذه الدراسـات، وصل الجدل حول القومية إلى أكثر مراحله نضجًا.

خامسًا: من عام ١٩٨٩ إلى الآن

من الحجج التي يقدّمها هذا الكتاب أننا دخلنا مرحلة جديدة في الجدل النظـري حـول القومية منذ نهاية ثمانينيات القرن الماضي. وأؤكد أن عددًا من الدراسـات التـي أُنتجـت فـي العقديـن الأخيرين سـعت إلـى تجـاوز الجدل «الكلاسـيكي» الـذي هيمـن منـذ السـتينيات عبـر إلقاء الشـك علـى الأركان الأساسـية التـي ارتكـز عليهـا، وعبـر إضافة أبعـاد جديـدة إلى تحليـل الأمم والقوميـة. وسـوف تثبـت هـذه الحجّة بإسـهاب فـي الفصل السـادس، حيث

سـأناقش مقاربات جديدة للقومية. ويكفي القـول في هذه المرحلة إن الحجّة تتمتـع بقـدر أكبر مـن المصداقية اليوم مقارنـة بحالها في عـام ٢٠٠٠، عندما عُرضـت أول مـرة، وتبنّاهـا، ضمنًـا أو علنًـا، عـدد مـن الدراسـات منذ ذلك الحيـن[١٨٩]. وفـي الحقيقـة، يبلغ داي وتومبسـون حد توكيـد إمكانية تصنيف الدراسات التي ظهرت في العقدين الأخيرين في فئة «ما بعد الكلاسيكية»[١٩٠]، نظرًا إلى الموقع الهامشي النسبي لهذه المقاربات ضمن التيار الرئيس للجدل حول القومية. لكن يجب القول إن المدّ يتحوّل وتحتل مقاربات جديدة موقعًا يقتـرب باطراد من مركز الجدل النظري حول القومية. وبهذا المعنى يمكن أن نختتم بالإشـارة إلى عصر «ما بعد الكلاسيكية» في دراسة القومية ضمن قرابة الأعوام العشرة اللاحقة.

تهدف هذه الجولة الموجزة التي تفتقد العمق بالضرورة، في قرنين من التأمل والتفكيـر بالمسـألة القوميـة، إلـى التمهيد لتقديـم لمحة عامة عن الجـدل النظري المعاصـر حـول القومية الـذي يتصل بصـورة تقريبيـة بالمرحلتين الثالثـة والرابعة ضمـن التصنيـف المذكور آنفًا. وسـوف تتّبع مناقشـتي الترتيب الزمنـي التاريخي، وفقًا للنزعة العامة في الميدان. أبدأ بالمقاربات البدائية ـ المتواترة للقومية.

---

(١٨٩) انظر على سبيل المثال: Lawrence, *Nationalism*; Day and Thompson, *Theorizing Nationalism*, and Jyoti Puri, *Encountering Nationalism*, 21st-Century Sociology; 6 (Malden, MA: Blackwell, 2004).

(١٩٠) Day and Thompson, p. 13.

مراجع إضافية

شـهدت الأعـوام العشـرة الماضيـة زيادة كبيـرة في عدد الكتـب والكتيبـات التي ضمّت كتابات مفكرين كبار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وأكثر الأعمال شمولية بينها كتـاب بيكـورا (Pecora) (٢٠٠١)، وكتـاب داهبـور وإيشـاي (Dahbour and Ishay) حيـث شـمل كلٌ منهمـا قرنين مـن الزمان، وجمعا معًا مسـاهمات المفكرين الكلاسـيكيين مع كتابـات كبـار المفكريـن والسياسـيين المعاصريـن. Vincent P. Pecora, ed., *Nations and Identities: Classic Readings*, Keyworks in Cultural Studies; 1 (Malden, Mass.: Blackwell, 2001), and Omar Dahbour and Micheline R. Ishay, eds., *The Nationalism Reader* (Atlantic Highlands, NJ: Humanities Press, 1995).

وعلى الرغم من الأسـلوب «الأفلاطوني» الغريب، وأحيانًا المزعج، يشـمل كتاب هيتر (Heater) مقتطفـات عـدة من كتابات هيـردر، وفيخته، وماتزيني، وميـل، ورينان، وهتلر، وستالين. ويُعَدّ الكتاب مفيدًا بسبب ذلك كله (Derek Heater, *The Theory of Nationhood: A Platonic Symposium* (Basingstoke: Macmillan, 1998). وبغـضّ النظـر عـن هؤلاء، قد يجـد القـارئ المراجـع التالية مفيـدة أيضًا: كتاب كـدوري - رواية مثيـرة للخلاف لكن كلاسـيكية عـن مسـاهمة كانـط فـي عقيـدة القوميـة. Elie Kedourie, *Nationalism*, 4th Expanded ed. (Oxford, UK; Cambridge, Mass., USA: Blackwell, 1993).

كتابا بارنـارد (١٩٨٣) و(١٩٨٤) عـن روسـو - يضم الأول مقارنـة بين هيردر وروسـو، والثانـي لمحة عامة عن آراء روسـو حـول الوطنية والمواطنة. Frederick M. Barnard: «National Culture and Political Legitimacy: Herder and Rousseau,» *Journal of the History of Ideas*, vol. 44, no. 2 (April - June 1983), and «Patriotism and Citizenship in Rousseau: A Dual Theory of Public Willing?,» *Review of Politics*, vol. 46, no. 2 (April 1984).

وكتاب بارنارد عن هيردر (بالمناسـبة، تجدر الإشـارة إلى أن بارنارد يُعتبر على الأرجـح أهـم مصـدر مرجعي باللغة الإنكليزيـة عن هيردر - وقد فـاز في عام ٢٠٠٢ بجائزة جمعية هيردر الدولية لتحسين دراسات هيردر)؛ Frederick M. Barnard, *Herder on Nationality, Humanity, and History*, McGill-Queen's Studies in the History of Ideas; 35 (Montreal; Ithaca: McGill-Queen's University Press, 2003).

وكتابا كوهن عن فيخته والرومانسـيين الألمان - رواية تفسـيرية متحيّزة إلى حد مـا لكـن مبدعة وحاذقـة لارتقـاء التفكيـر الرومانسـي. Hans Kohn: «The Paradox of Fichte's Nationalism,» *Journal of the History of Ideas*, vol. 10, no. 3 (June 1949), and «Romanticism and the Rise of German Nationalism,» *Review of Politics*, vol. 12, no. 4 (October 1950).

أفضل المراجع عن الماركسية والقومية هي: كتاب مونك (Munck)، وكتاب نيني (Nini)، وفي ما بعد، كتاب فورمان (Forman)، الذي يعرض مسحًا شاملًا للمجادلات حول مسألة القومية / القوميات ضمن الحركة الدولية، ويلقي الشك على خرافة نقص التفكير التأملي النظري في القومية ضمن التراث الماركسي. Ronaldo Munck, *The Difficult Dialogue: Marxism and Nationalism* (London; Atlantic Highlands, NJ: Zed Books, 1986); Ephraim Nimni, *Marxism and Nationalism: Theoretical Origins of a Political Crisis* (London; Concord, Mass.: Pluto Press, 1991), and Michael Forman, *Nationalism and the International Labor Movement: The Idea of the Nation in Socialist and Anarchist Theory* (University Park, Pa.: Pennsylvania State University Press, 1998).

في هذا السياق، يجب الإشارة أيضًا إلى المقالة القصيرة لكن المترعة بالرؤى الثاقبة التي كتبها أفينيري، Shlomo Avineri, «Marxism and Nationalism,» *Journal of Contemporary History*, vol. 26, nos. 3-4 (1991).

أمّا كتاب أوتو باور *The Question of Nationalism and Social Democracy* (مسألة القومية والديمقراطية الاجتماعية) (٢٠٠٠)، الذي يجسّد ربما أكثر المحاولات تطورًا لوضع نظرية للقومية ضمن التراث الماركسي، فقد توافر أخيرًا بالإنكليزية، مع مقدمة متعمقة بقلم نيمني (Nimni).

يمكن الاطّلاع على المراسلات بين جون ستيوارت ميل واللورد أكتون في كتاب بيكورا: Pecora, ed., *Nations and Identities.*

وفي ما يتعلّق بجون ستيوارت ميل، انظر أيضًا: Georgios Varouxakis, *Mill on Nationality*, Routledge/PSA Political Studies Series; 3 (London; New York: Routledge, 2002).

ويوفر روسين (Rosen) موجزًا شاملًا لتأثير القومية في الفكر الليبرالي البريطاني المبكر في القرن التاسع عشر: F. Rosen, «Nationalism and Early British Liberal Thought,» *Journal of Political Ideologies*, vol. 2, no. 2 (1997).

أمّا مساهمات المنظّرين الاجتماعيين، فنادرًا ما ضمّتها الكتب أو مجموعات المقالات. وللاطّلاع على استثناء بارز، انظر المقتطف من فيبر في: John Hutchinson and Anthony D. Smith, eds, *Nationalism: Critical Concepts in Political Science*, 5 vols. (London; New York: Routledge, 2000).

وفي ما يتعلّق بأهمية فيبر لدراسة القومية، انظر أيضًا: Anthony D. Smith, *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998); Zenonas Norkus, «Max Weber on Nations and Nationalism: Political Economy before Political Sociology,» *Canadian*

Journal of Sociology = Cahiers canadiens de sociologie, vol. 29, no. 3 (Summer 2004), and Michael Banton, «Max Weber on «Ethnic Communities»: A Critique,» *Nations and Nationalism*, vol. 13, no. 1 (January 2007).

بالنسبة إلى دوركهايم. انظر: Emile Durkheim: *Durkheim on Politics and the State*, Edited with an Introduction by Anthony Giddens; Translated by W. D. Halls (Oxford: Polity Press, 1986), and *The Elementary Forms of Religious Life*, Translated and with an Introduction by Karen E. Fields (New York: Free Press, 1995).

أمّا كتاب ميتشل من ناحية أخرى، فقد تجاوزه الزمن، لكنه يظل مرجعًا مفيدًا لآراء دوركهايم عن القومية. M. Marion Mitchell, «Emile Durkheim and the Philosophy of Nationalism,» *Political Science Quarterly*, vol. 46, no. 1 (March 1931).

وفي ما يتعلق بالقومية والمؤرخين، انظر: Ronald Grigor Suny, «History,» in: Alexander J. Motyl, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, 2 vols (San Diego, Calif.; London: Academic Press, 2001), and Anthony D. Smith, «Nationalism and the Historians,» in: Gopal Balakrishnan, ed., *Mapping the Nation*, with an Introduction by Benedict Anderson (London: Verso, 1996).

ويمكن الاطّلاع على المحاضرة المهمة التي ألقاها رينان في كتاب بهابها (Bhabha)، وكتاب وُلْف. (Homi K. Bhabha, ed., *Nation and Narration* (London; New York: Routledge, 1990), and Stuart Woolf, ed., *Nationalism in Europe, 1815 to the Present: A Reader* (London; New York: Routledge, 1996).

من بين دارسات تاريخية عدة عامة تناولت القومية وظهرت في النصف الأول من القرن العشرين، لا تزال أعمال هيز، وكوهن، وكار، وثيقة الصلة ومهمّة. Carlton J. H. Hayes, *The Historical Evolution of Modern Nationalism* (New York: Macmillan, 1931); Hans Kohn, *The Idea of Nationalism: A Study in its Origins and Background* (New York: Macmillan Company, 1958), and Edward Hallett Carr, *Nationalism and After* (London: Macmillan, 1945).

بالمناسبة، لنلاحظ أن الطبعة الجديدة من كتاب كوهن *The Idea of Nationalism* (فكرة القومية) (٢٠٠٥) متوافرة الآن، مع مقدمة ثاقبة الرؤى كتبها كالهون. وفي ما يتعلق بكوهن، يجب على القارئ الاطّلاع على مقالة ليبيتش: Andre Liebich, «Searching for the Perfect Nation: The Itinerary of Hans Kohn (1891–1971),» *Nations and Nationalism*, vol. 12, no. 4 (October 2006).

ويمكن العثور على موجز للمجادلات التأريخية في هذه الحقبة في كتاب لورنس: Paul Lawrence, *Nationalism: History and Theory* (Harlow, England; New York: Pearson Education, 2005).

في ما يتعلق بنظريات التحديث في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، انظر: Anthony D. Smith, *Theories of Nationalism*, 2nd ed. (London: Duckworth, 1983).

ومن بين المراجع الأساسية، يعدّ كثيرون كتاب دويتش منْسَقًا أوليًا لمقاربة الاتصالات: Karl W. Deutsch, *Nationalism and Social Communication; an Inquiry into the Foundations of Nationality*, 2nd ed. Cambridge: MIT Press, 1966).

كما تجدر الإشارة إلى كتاب كدوري بوصفه أحد الأعمال الرائدة عن المنْسَق (البراديم) الحداثي: Elie Kedourie, *Nationalism*, 4th Expanded ed. (Oxford, UK; Cambridge, Mass., USA: Blackwell, 1993).

الفصل الثاني

البدائيـة

أولًا: ما هي البدائية؟

«البدائيـة» (Primordialism) تعبيـر شـامل اسـتُخدم لوصـف الاعتقـاد بـأن الجنسـية الوطنية جزء «طبيعي» من البشـر، مثل الكلام أو النظر أو الشم، وأن الأمم وجِدت منذ الأزل. هذا هو رأي القوميين أنفسـهم، وظل لبعض الوقت منْسَقًا (باراديم) مهيمنًا في أوساط علماء الاجتماع، ولا سيما المؤرخين. كما أن البدائية تشكّل رأي الناس العاديين في الأمم والقومية.

يأتي التعبير من صفة «بدائي» (Primordial) التي يعرّفها قاموس أكسفورد بأنها «صفة لشيء يتصل ببداية الزمن، أو يوجد منذ بداية الزمن، أو في زمن مبكر؛ فهو فطري وأصلي، وعتيق (عمومًا)، ومغرق في القِدم»، و«يكون أصل أو نقطة البداية لشـيء اسـتمد أو تطور منه، أو يعتمد عليه؛ شـيء جوهري، وأساسي؛ وأوّلي»[1]. ومن المعتقد عمومًا أن إدوارد شيلز (E. Shils) هو أول من استخدم التعبير لوصف العلاقات ضمن الأسرة؛ فهو يقدّم في مقالته الشهيرة «الروابط البدائية والشخصية والمقدسـة والمدنية» الحجة على أن الرابطة التي يشـعر بها أفراد الأسـرة أحدهم تجاه الآخر، تنبثق من سمات وخصائص «علائقية مهمّة» لا يمكن وصفها إلّا بأنها «بدائيـة». وهي ليسـت مجرّد وظيفـة تفاعل، بل «هي نتيجة نـوع من الأهمية التي تنأى عن الوصف وتُعزى إلى رابطة الدم»[2]. يلاحظ شيلز أن التصوّر الذي وضعه للعلاقات البدائية متأثر بكتب عدة عن سوسـيولوجيا الدِّين، ولا سـيما كتاب أ. د. نـوك (A. D. Nock) *Conversion* (هدايـة) وكتاب مارتن ب. نيلسـون (M. P. Nilsson)

(١) *Oxford English Dictionary* (2008), on the Web: <http://www.oed.com> (accessed 2 October 2008).

(٢) Edward Shils, «Primordial, Personal, Sacred and Civil Ties: Some Particular Observations on the Relationships of Sociological Research and Theory,» *British Journal of Sociology*, vol. 8, no. 2 (June 1957), p. 142.

Greek Popular Religion (دِين الإغريق الشعبي) يكتب قائلًا: «في هذه الكتب جرى تصوير «الإكراه» في الخصائص البدائية للدافع، وروابط الدم، والأرضية المشتركة بأسلوب أخاذ»[٣]. أمّا كليفورد غيرتز (C. Geertz)، فيستخدم تعريفًا مشابهًا في سياق مناقشته للاستقرار الاجتماعي والسياسي في دول ما بعد الحقبة الكولونيالية:

يُقصد بالرابطة البدائية تلك التي تنبثق من «الحقائق المقبولة» ـ أو بصورة أدق، «الحقائق المفترضة»، نظرًا إلى أن الثقافة متضمّنة في مثل هذه الأمور ـ للوجود الاجتماعي: الاتصال المباشر والرابطة القرابية غالبًا، لكن في ما خلفهما الحقيقة المفترضة التي تنبثق من الولادة في جماعة دينية معيّنة، والتكلم بلغة محدّدة، أو حتى بلهجة من اللغة، واتّباع ممارسات اجتماعية معيّنة. ويُنظر إلى هذه الصلات المتناغمة بين روابط الدم واللغة والعادات والتقاليد... إلخ، بأنها تتمتع في حد ذاتها بقوة إكراه تنأى عن الوصف، ويستحيل مقاومتها في بعض الأحيان[٤].

على شاكلة المقاربات النظرية الأخرى التي سنراجعها في هذا الكتاب، لا يشكّل دعاة النظرية البدائية فئة متراصة وحيدة الكتلة. بل يمكن تحديد أربع نسخ مختلفة من المقاربات البدائية: «القومية» و«الاجتماعية ـ الحيوية» (السوسيولوجية ـ البيولوجية) و«الثقافية» و«المتواترة». أمّا القاسم المشترك بين هذه المقاربات فهو اعتقادها بالسمة الطبيعية و/ أو القديمة للأمم. ويفضّل بعض المعلّقين التمييز بين هاتين السمتين، ويتعاملون مع أولئك الذين يعتقدون بقِدم الأمم، من دون اعتبارهم من دعاة المقاربة الطبيعية بأي طريقة، بوصفهم فئة مستقلة، ويطلقون عليهم اسم «دعاة المقاربة المتواترة»[٥]. لن أتّبع هذا الخط من التفكير في الصفحات اللاحقة، بل سأتعامل مع المقاربة المتواترة بوصفها مجرّد صيغة معتدلة من البدائية.

---

(٣) المصدر نفسه.

(٤) Clifford Geertz, *The Interpretation of Cultvres: Selected Essays*, 2nd ed. (London: Fontana Press, 1993), p. 259.

(٥) Anthony D. Smith: *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998); *The Nation in History: Historiographical Debates about Ethnicity and Nationalism* (Cambridge: Polity, 2000), and *Nationalism: Theory, Ideology, History*, Key Concepts (Malden, Mass.: Polity Press, 2001).

الإطار الرقم (٢ - ١) إدوارد شيلز

ولد إدوارد شيلز في فيلادلفيا عام ١٩١٠، ونال لقب «أستاذ الخدمة المتميزة في اللجنة المعنية بالفكر الاجتماعي وعلم الاجتماع في جامعة شيكاغو»، حينما توفي في منزله بشيكاغو عام ١٩٩٥. اشتهر شيلز بكتاباته عن التراث واللطف والكياسة في السلوك، وبعمله حول دور المفكرين والمثقفين وعلاقاتهم بالسلطة والسياسة العامة. «إذا كتبت أطروحة تحت إشراف شيلز، سوف تذهب إلى جنوب إنكلترا، ثم إلى سومطرا وتعود، لكن حين تنجز عملك تكون قد عرفت كل شيء تقريبًا عن موضوعك. لا بد من أن كثيرًا من طلابه غادروا شقته، وكاهلهم ينوء بقائمة من ثلاثين مرجعًا إضافيًا ضخمًا عليهم التمعّن فيها، وأصابهم الدوار حين اكتشفوا أن عليهم، من أجل اتّباع الخطوة المنطقية اللاحقة في دراساتهم، تعلّم البولندية»، كما يتذكر جوزيف إبستاين الذي جمعته به صداقة طويلة. Joseph Epstein, «My Friend Edward,» *Minerva*, vol. 34, no. 1 (1996), p. 388.

في مقالة «الروابط البدائية والشخصية والمقدسة والمدنية»، وهي أهم مساهماته في المجادلات النظرية حول القومية، كتب يقول إن «المجتمع الحديث ليس حشدًا وحيدًا، ولا جمعًا من اللاجئين الهاربين من الحرية، ولا جماعة أنانية متبجّحة لا روح لها، جماعة لا شخصية لا تحب ولا تخلص، وتفتقد أي قوى اندماجية سوى المصلحة أو الإكراه. بل تتماسك وتتلاحم بواسطة عدد لانهائي من الروابط الشخصية، والالتزامات الأخلاقية، في سياقات متعينة وملموسة، واعتزاز خلاق ومهني، وطموح فردي، وروابط بدائية، وإحساس مدني ومتمدن ينخفض لدى البعض ويرتفع لدى غيرهم، ويعتدل لدى الأغلبية». Edward Shils, «Primordial, Personal, Sacred and Civil Ties: Some Particular Observations on the Relationships of Sociological Research and Theory,» *British Journal of Sociology*, vol. 8, no. 2 (June 1957), p. 131.

عبّرت هذه الكلمات عن اهتمام شيلز المتكرر بالدور الاجتماعي للتراث. ففي رأيه: «التراث ليس يدًا ميتة من الماضي، بل هي يد البستاني التي ترعى وتقتلع نزعات الحكم التي لن تكون لولاها قوية بما يكفي من دون مساعدة.. فهو يرسخ الاتصال بين المتلقّي والقيم المقدسة لحياته في المجتمع. في البشر حاجة إلى الاتصال بعلاقات صحيحة مع المقدس. لكن إذا حُرموا من هذه الصلة ردحًا من الزمن، فسوف تتفجر حاجاتهم وتتحول إلى تهور طائش وملتهب».

ورد في: Donald Dewey, «Edward Shils: A Last Harvest,» *Society*, vol. 36, no. 3 (March-April 1999), p. 75.

انظر أيضًا: Richard Boyd, «Civility and Social Science: The Contribution of

Edward Shils,» *Social Science Quarterly*, vol. 79, no. 1 (March 1998), and «Obituary: Edward Shils, Committee on Social Thought, Sociology,» *University of Chicago Chronicle*, vol. 14, no. 11 (February 1995), On the Web: <http://chronicle.uchicago.edu>.

ثانيًا: الأطروحة القومية

تُعَدّ الجنسية الوطنية، في رأي القوميين، سمة متأصلة في الحالة البشرية. «يجب أن يكون للإنسان جنسية مثلما يجب أن يكون له أنف وأذنان»[٦]. يعتقد القوميون أن البشر مقسَّمون إلى أمم مميزة يمكن تحديدها موضوعيًا. ولا يمكن للبشر تحقيق ذواتهم والازدهار إلّا إذا انتموا إلى مجتمع وطني، تتفوق العضوية فيه على أشكال الانتماء الأخرى كلها. فالأمة هي المستودع الوحيد للسيادة والكرامة والمصدر الوحيد للسلطة السياسية والشرعية. وهذا يأتي مع جملة من المطالب والدعاوى الزمانية والمكانية - بامتلاك تاريخ فريد، ومصير متفرد، و«وطن أم» تاريخي.

ليست الأطروحة القومية حكرًا على النخب السياسية، بل هي شكّلت أيضًا المجالات المتطورة للتاريخ والفولكلور والأدب، وهي مجالات اكتسبت رسالة حقيقية لبناء الأمّة في مسار القرن التاسع عشر. ومثلما رأينا في الفصل الثاني، مارس المؤرخون تأثيرًا نافذًا في حركاتهم الوطنية، وانشغلوا بالتنقيب عن «دليل» يثبت بلا أدنى شك الشخصية الأبدية لأمّتهم. أمّا السرديات الوصفية التي أنتجوها، فكان لها موضوعات متكررة، يمكن شرحها بالأمثلة بمساعدة كتاب كدوري (*Nationalism in Asia and Africa*) (القومية في آسيا وأفريقيا) (١٩٧١)، وهو مجموعة من المقالات كتبها زعماء ومفكرون قوميون من آسيا وأفريقيا. هنالك أولًا الموضوع القديم عن الأمّة («الخاصة»). ومن ثم، وفقًا لتيكين ألب (T. Alp) [مويس كوهين] الذي كان ينقل جلسات مؤتمر التاريخ التركي ومداولاته عام ١٩٣٢، حان الوقت:

---

(٦) Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Oxford: Blackwell, 1983), p. 6.

لجعل العالم أجمع، بدءًا بالترك أنفسهم، يفهم أن التاريخ التركي لا يبدأ بقبيلة عثمان، بل في الحقيقة قبل ميلاد المسيح باثني عشر ألف عام. وهو ليس تاريخ قبيلة [تسكن] أربعمئة خيمة، بل أمّة عظيمة، مكوّنة من مئات الملايين من النفوس. أمّا إنجازات الأتراك العثمانيين، فلا تشكّل سوى حدث واحد في تاريخ الأمّة التركية التي أسست إمبراطوريات أخرى عدة[7].

ثانيًا، هنالك موضوع العصر الذهبي. ففي رأي المؤرخ السنغالي شيخ أنتا ديوب (Anta Diop)، يمثّل «الفراعنةَ المحدَثين» في الدراسات الأفريقية:

الإثيوبيون أولًا والمصريون الذين ابتكروا وطوروا بدرجة استثنائية عوامل الحضارة في وقت كانت فيه الشعوب الأخرى كلها ـ ولا سيما الأوراسيين ـ غارقة في البربرية.. يستحيل المبالغة في ما يدين به العالم كله ـ ولا سيما الهيليني ـ للعالَم المصري[8].

ثالثًا، هنالك موضوع تفوّق الثقافة القومية. يزعم شودري رحمات علي (C.R. Ali)، مؤسس حركة باكستان الوطنية، أن:

باكستان هي واحد من أقدم البلدان وأكثرها تميّزًا في الشرق. ليس ذلك وحسب، بل هي البلد الوحيد في العالم الذي يقارن، من حيث قِدم أساطيره ومعارفه المتوارثة شفاهيًا، بالعراق ومصر ـ البلدين المعروفين بأنهما مهد إنجازات البشرية.. باكستان مهد الثقافة والحضارة الإنسانية.. أول وأقوى قلعة للإسلام في قارة دينيا [الهند] وبلدانها[9].

رابعًا، هنالك موضوع حقب التراجع أو «السبات»، حيث من المقدَّر على الأمّة «الاستيقاظ» منها. هذا ما قاله أدامانتيوس كورايس (A. Korais)، أشهر شخصيات التنوير الهيليني الجديد، عن اليونانيين في زمنه:

---

(٧) Elie Kedourie, *Nationalism in Asia and Africa* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1971), p. 210.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٧٥.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

في منتصف القرن الماضي، كان اليونانيون يشكّلون أمّة بائسة عانت حقبة طويلة من العبودية.. في أعقاب هذين التطورين [فتح قنوات جديدة للتجارة والهزيمة العسكرية التي لحقت بالعثمانيين].. يرفع اليونانيون رؤوسهم بقدر ما تتراجع غطرسة مضطهديهم.. هذا عصر حقيقي لليقظة اليونانية.. حيث أول مرة تعمل الأمّة على مسح المشهد الشنيع لجهلها وترتجف عندما تقيس بالعين المجرَّدة المسافة التي تفصلها عن مجد أسلافها[10].

أخيرًا، هنالك موضوع البطل الوطني الذي يأتي ويعمل على إيقاظ الأمّة، لينهي هذه الحقبة العابرة من الانحطاط:

.. لذلك لم يتمكن [كمال أتاتورك] من التساهل مع المفهوم المزيَّف للتاريخ التركي الذي شاع بين بعض المثقفين الأتراك.. ومن ثم عقد العزم على استئصاله بواسطة الهيجان الثوري الذي يخضعه لمصير المفاهيم الخاطئة الأخرى نفسه التي عاناها الشعب التركي طوال قرون[11].

يُظهر هذا الاستكشاف الوجيز في كتابات النخب القومية أن القوميين يتقاسمون لغة مشتركة، وإطارًا مرجعيًا مشتركًا، للتعبير عن مزاعمهم. وما يبقى ثابتًا ومستمرًا ومحوريًا في هذه السرديات كلها الاعتقاد بالأمّة، وتمثيلها، بوصفها كيانًا صوفيًا ملغزًا، عابرًا للزمان، بل ساميًا ومتعاليًا، يظل بقاؤه أهم من بقاء أفراده في أي وقت.

ثالثًا: بيير فاندنبيرغ والمقاربة الاجتماعية ـ الحيوية (البيولوجية)

يكتب بيير فاندنبيرغ (P. Van den Berghe)، أكثر مؤيدي هذه المقاربة صراحة في مجال دراسات القومية: «تؤكد النظرية الاجتماعية ـ الحيوية المتعلّقة بالإثنية والعِرق والقومية، أن هناك في الواقع ركيزة موضوعية ظاهرية لوجود مثل هذه الجماعات» من دون إنكار حقيقة أن هذه الجماعات مشكّلة اجتماعيًا وقابلة للتبدل أيضًا: «بأبسط التعابير الممكنة، يتمثل المشهد

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢١١.

الاجتماعي ـ الحيوي لهذه المجموعات في أنها محدّدة جوهريًا بالتحدر من أصل مشترك ويتم الحفاظ عليها بواسطة التناسل ضمن الزمرة الواحدة. ومن ثم، ليست الإثنية سوى القرابة بشكلها الصارخ الواضح المضخم»[١٢].

السؤال الأساسي الذي طرحه علم الاجتماع هو: «لماذا تكون الحيوانات كائنات اجتماعية، أي لماذا تتعاون؟»[١٣]. الإجابة عن هذا السؤال، وفقًا لفاندنبيرغ، معروفة بالحدس البديهي منذ أمد بعيد: «الحيوانات كائنات اجتماعية إلى الحد الذي يكون فيه التعاون مفيدًا بطريقة متبادلة». ويقدّم فاندنبيرغ الحجّة على أن ما يفعله علم الاجتماع هو توفير الآلية الوراثية الرئيسة للنزعة الاجتماعية لدى الحيوان، أي «الاصطفاء القرابي» لزيادة اللياقة الشاملة (والصلاحية). تطور مفهوم «الاصطفاء القرابي» أولًا على يد وليام دونالد هاملتون (W. D. Hamilton) عام ١٩٦٤، لكنه بقي غامضًا بالنسبة إلى علماء الاجتماع إلى أن نُشر كتاب إدوارد أوزبورن ولسون (E. O. Wilson) *Sociobiology: The New Synthesis* (سوسيولوجيا البيولوجيا: أطروحات جديدة) (١٩٧٥)، وكتاب ريتشارد دوكينز *The Selfish Gene* (المورثة الأنانية) (١٩٧٦)[١٤].

يمكن لحيوان نسخ مورثاته مباشرة عبر تناسله هو، أو بطريقة غير مباشرة عبر تناسل أقران يشترك معها في نسب محددة من المورثات. ولذلك، يمكن أن نتوقع من الحيوانات التصرف بأسلوب تعاوني، ومن ثم تعزيز لياقة (وصلاحية) بعضها بعضًا إلى الحد الذي تتصل به بقرابة وراثية. هذا هو معنى الاصطفاء القرابي[١٥].

---

(١٢) الشواهد مأخوذة كلها من كتاب فاندنبيرغ إلا إذا ذُكر خلاف ذلك. انظر: Pierre L. Van den Berghe, «Sociobiological Theory of Nationalism,» in: Athena S. Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, Consultant Advisor Anthony D. Smith (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001), p. 274.

(١٣) Pierre L. Van den Berghe, «Race and Ethnicity: A Sociobiological Perspective,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 1, no. 4 (1978), p. 402.

(١٤) Pierre L. Van den Berghe, «Kin Selection,» in: Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, p. 167.

(١٥) Van den Berghe, «Race and Ethnicity: A Sociobiological Perspective,» p. 402.

الإطار الرقم (٢-٢) بيير فاندنبيرغ

نشر بيير فاندنبيرغ، الأستاذ الفخري لعلم الاجتماع في جامعة واشنطن، كثيرًا من الدراسات في مجال العلاقات الإثنية والعرقية، منها كتاب *The Ethnic Phenomenon* (الظاهرة الإثنية) (١٩٨١)، وربما يضم أكثر الآراء تفصيلًا وصراحة حول مقاربته الاجتماعية ـ الحيوية (البيولوجية). يكتب: «الفشل العام الذي أصاب علماء الاجتماع في فهم، فضلًا عن قبول، منظور ارتقائي للسلوك البشري يتجاوز مجرّد الجهل والانحياز الأيديولوجي، مع أنه يدمج جزءًا كبيرًا منهما. كما يشمل انزعاجًا عامًا من وجهة نظر بشرية من التفكير الارتقائي.. وعجزًا سوسيولوجيًا مدربًا عن قبول القواعد الجوهرية العامة لتشييد النظرية العلمية: الاختزال والفردانية والمادية والاقتصاد». Pierre L. Van den Berghe, «Why Most Sociologists Don't (and Won't) Think Evolutionarily,» *Sociological Forum*, vol. 5, no. 2 (June 1990).

«كل شيء في سيرتي قدّر عليّ أن أصبح مهتمًا بالعلاقات الإثنية»، كما يقول فاندنبيرغ. «فقد ولدت من أم فرنسية، وأب بلجيكي في الكونغو البلجيكية آنذاك. تعرضت بصورة متلاحقة ومتتالية لتأثير النزاعات اللغوية والطبقية في بلجيكا التي يتكلم سكانها لغتين، والاحتلال النازي لبلجيكا وفرنسا، والحالة الكولونيالية في الكونغو، والعلاقات العرقية الأميركية حين كنت طالبًا في جامعة ستانفورد، ثم باحثًا متدربًا ومتخصصًا بعلم الإناسة (الأنثروبولوجيا) وعلم الاجتماع، وبعد ذلك في أثناء سلسلة متعاقبة من فترات العمل الميداني في أوضاع معقّدة من النزاعات العرقية والإثنية في المكسيك، وجنوب أفريقيا، وغواتيمالا، وكينيا، ونيجيريا، وبيرو. وبحلول منتصف السبعينيات، توضح لي أن الحتمية الثقافية، منسّق علم الاجتماع، المهيمنة طوال نصف قرن، تتحرر من القيود. بدأت أنظر إلى العلاقات الإثنية (و«العرقية») بوصفها علاقات قرابية في شكل صارخ ومضخم، وأربط محاباة الأقارب بارتقاء النزعة الاجتماعية لدى الحيوان عمومًا. ومن ثم، توصلت إلى نموذج للارتقاء المتشارك بين المورثة والثقافة، يعتبر العلاقات الإثنية والمركزية الإثنية نتاجًا للاصطفاء الطبيعي ولتعددية من العوامل الثقافية. وبذلك، أدى تاريخ حياتي دورًا مفتاحيًا: من ناحية والدي، أتحدر من نسل ثلاثة أجيال من الأطباء، كما كان جدي لأمي، موريس كولري، عالمًا بيولوجيًا فرنسيًا متميزًا» (مراسلات شخصية).

يزعم فاندنبيرغ أن الاصطفاء القرابي، أو التزاوج بين الأقارب، قوة تعزِّز النزعة الاجتماعية لدى البشر أيضًا. وفي الحقيقة، فإن الإثنية والعرق كليهما تعبيران موسعان لمصطلح القرابة: «لذلك، تُعَدّ الإثنية والعِرق من العواطف التي يجب فهمها بوصفها صيغة موسعة وضعيفة من الاصطفاء القرابي»[16]. بكلمات أخرى، ليست الجماعات الإثنية، والأعراق، والأمم سوى «عائلات كبرى» من الأقرباء (البعيدين)، الحقيقيين أو المفترضين، الذين يميلون إلى التزاوج في ما بينهم، ويرتبطون معًا بروابط عمودية بواسطة النسب تعزّزها روابط أفقية عبر الزواج»[17]. وليس من المهم أن تكون هذه القرابة الموسعة افتراضية أحيانًا لا حقيقية. وعلى شاكلة الوحدات القرابية الأصغر، كثيرًا ما تكون القرابة حقيقية بما يكفي «لتصبح ركيزة مؤسسة لهذه العواطف القوية التي ندعوها القومية والقبلية والعرقية والمركزية الإثنية». في هذه الحالة، كيف نميز «قرابتنا»؟ وفقًا لفاندنبيرغ، فإن «قلة قليلة من مجتمعات العالم تستخدم أساسًا السمات المرئية المورفولوجية (التكوينية) لتعريف ذاتها». ومن ثم، فإن المعايير الثقافية للعضوية في جماعة ما أكثر بروزًا من المادية، إذا استُخدمت هذه الأخيرة أصلًا. وبطريقة ما، يُعَدّ ذلك حتميًا لأن السكان المتجاورين يتشابهون من حيث التكوين الوراثي (الجيني). ولون العيون في أوروبا، كما يلاحظ فاندنبيرغ، مثال معبر هنا. فكلما اتجهنا شمالًا، تزداد نسبة العيون الملونة. «لكن لن يلاحظ أي انقطاع في أثناء الرحلة». من ناحية أخرى، يجب أن تميز معايير تحديد الأقرباء بطريقة أكثر موثوقية بين الجماعات لا ضمن الجماعات. بكلمات أخرى، «يجب على المعيار المختار إظهار التفاوت بين الجماعات لا ضمن الجماعات». وتلبّي المعايير الثقافية، مثل الفوارق في اللهجة، والسمات الجسدية الثانوية وغيرها، هذا المطلب بصورة أكثر موثوقية من المعايير المادية[18]. اللغة مفيدة على وجه الخصوص في هذا السياق، لأن «الرابطة الإثنية يمكن توكيدها بسرعة عبر الكلام ولا يمكن تزويرها بسهولة»، كما يؤكد فاندنبيرغ[19].

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ٤٠٣.

(١٧) Van den Berghe, «Sociobiological Theory of Nationalism,» p. 274.

(١٨) Van den Berghe, «Race and Ethnicity: A Sociobiological Perspective,» pp. 404-407.

(١٩) Van den Berghe, «Sociobiological Theory of Nationalism,» p. 275.

يلاحظ فاندنبيرغ أن الاصطفاء القرابي لا يفسر النزعة الاجتماعية كلها لدى البشر، ويحدد آليتين إضافيتين: التبادلية والإكراه. «التبادلية هي تعاون من أجل الفائدة المتبادلة، ومع توقع العائد، ويمكن أن تشتغل بين الأقرباء وغير الأقرباء. أما الإكراه فهو استعمال القوة للحصول على منفعة وحيدة الجانب». تستمر المجتمعات البشرية كلها في التنظم على أساس مبادئ النزعة الاجتماعية الثلاثة كلها. لكن «كلما أصبحت النزعة الاجتماعية أكبر وأكثر تعقيدًا تعاظمت أهمية التبادلية»، كما يضيف فاندنبيرغ[20]. فضلًا عن ذلك، بينما يكون الاصطفاء القرابي، الحقيقي أو المفترض، أكثر هيمنة في العلاقات ضمن الجماعة، يصبح الإكراه القاعدة السائدة في العلاقات بين الإثنيات (أو الأعراق)؛ إذ ربما تدخل الجماعات الإثنية بين الحين والآخر في علاقة تكافلية تبادلية المنفعة (التبادلية)، لكنها تظل قصيرة الأجل: العلاقات بين الجماعات المختلفة عدائية في أغلب الأحيان[21].

يقرّ فاندنبيرغ بأن الجماعات الإثنية تظهر وتختفي، وتتوحد وتتفكك. لكن، كما يضيف مسرعًا، تبقى عمليات البناء وإعادة البناء والتفكيك مرتبطة بحقيقة «النسب البيولوجي كما يدرك اجتماعيًا»[22]. هذه البنية، «بيولوجيا التزاوج والإنجاب البشري»، مبكرة: «وجِدت الإثنيات منذ فجر التاريخ»[23]. وربما نتحدث عن القومية، حين يتحول شعور بالانتماء إلى إثنية إلى مطالبة بالحكم الذاتي أو الاستقلال السياسي. وبهذا المعنى، تصبح الأمّة مجرّد «إثنية واعية سياسيًا»[24].

---

(٢٠) Van den Berghe, «Race and Ethnicity: A Sociobiological Perspective,» p. 403.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٤٠٩.

(٢٢) Van den Berghe, «Sociobiological Theory of Nationalism,» p. 274.

(٢٣) Pierre L. Van den Berghe, «Ethnies and Nations: Genealogy Indeed,» in: Atsuko Ichijo and Gordana Uzelac, eds., *When Is the Nation?: Towards an Understanding of Theories of Nationalism* (Milton Park Abingdon, Oxon; New York: Routledge, 2005), p. 115.

(٢٤) Van den Berghe, «Sociobiological Theory of Nationalism,» p. 273.

رابعًا: إدوارد شيلز وكليفورد غيرتز والمقاربة الثقافية

ارتبطت المقاربة الثقافية عمومًا بأعمال إدوارد شيلز وكليفورد غيرتز، اللذين أشرنا آنفًا إلى تعريفهما لـ«البدائية». يقدم إلر (Eller) وكولان (Coughlan) في مقالتهما «The Poverty of Primordialism» (١٩٩٣) التـي تكـرر الاستشـهاد بهـا مـرارًا، الحجّة على أن مفهوم البدائية المستخدَم في أعمال هذين الكاتبين يضم ثلاث أفكار رئيسة:

ـ الهويـات والارتباطات البدائية، هي «حقائـق مقبولة»، بديهية، وأصيلة، وسـابقة على التجارب والتفاعـلات كلها.. الارتباطات البدائيـة «طبيعية»، بل «روحية» لا اجتماعية؛ إذ لا يوجد للارتباطات البدائية مصدر اجتماعي.

ـ العواطف البدائية تنأى عن الوصف، وقاهرة، وإكراهية.. فإذا كان الفرد عضـوًا فـي جماعة، فهو يشـعر بالضرورة برابطة معيّنة مـع تلك الجماعة ومع ممارساتها.

ـ البدائيـة فـي الجوهر مسـألة تتعلق بالعاطفة والشـعور.. هذه المشـاعر تجعـل البدائية أكثر من مجرّد نظرية مثيرة للاهتمام، والهويات البدائية مختلفة اختلافًا نوعيًا عن الأنواع الأخرى من الهويات[٢٥].

مـع ذلـك، لا يتوقـف إلـر وكولان عنـد هذا الحـد، بل يؤكـدان أن هذه الطريقة هي التي اسـتخدمها شـيلز وغيرتز في معاينة الروابط الإثنية والوطنية. لكـن مثلمـا لاحظ معلقون عدة، يُعَدّ ذلك خطأ فادحًـا في قراءة أعمال هذين الكاتبيـن؛ صحيح أن غيرتز، مثلًا، يستشـهد بالانسـجام والتجانس بين روابط الـدم واللغـة والدّيـن وبعض الممارسـات الاجتماعيـة المحـدّدة بوصفها من أغـراض الروابـط البدائية، لكنه لا يقترح أبدًا أن هـذه الأغراض في حد ذاتها «حقائق مقبولة» أو بدائية؛ بل «يفترضها» أفرادٌ بأنها حقائق مقبولة:

فـي الحقيقة، يرتبط الفرد بأقربائـه، وجيرانه، وإخوانه في الدِّين؛ ومن ثم فـإن النتيجـة ليسـت مجـرّد عاطفـة وجدانية شـخصية، أو ضـرورة عملية، أو مصلحـة مشـتركة، أو واجـب مفـروض، لكن تأتـي بفضل مضمـون مطلق لا

(٢٥) Jack Eller and Reed Coughlan, «The Poverty of Primordialism: The Demystification of Ethnic Attachments,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 16, no. 2 (April 1993), p. 187.

يفسر، يُعزى في جزء كبير منه على الأقل إلى الرابطة ذاتها. أمّا القوة العامة لمثل هذه الروابط البدائية.. فهي تختلف من شخص إلى شخص، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن زمن إلى زمن. لكن في ما يتعلّق فعليًا بجميع الأشخاص، والمجتمعات، والأوقات، يبدو بعض الارتباطات متدفقًا من إحساس برابطة طبيعية لا من تفاعل اجتماعي(٢٦).

الإطار الرقم (٢-٣) كليفورد غيرتز

ولد كليفورد غيرتز عام ١٩٢٦ في سان فرانسيسكو، وانضم إلى قسم الأنثروبولوجيا في جامعة شيكاغو عام ١٩٦٠، ثم أصبح أول أستاذ في كلية العلوم الاجتماعية التي أُسست حديثًا في معهد الدراسات المتقدمة في جامعة برينستون عام ١٩٧٠، حيث أقام «كلية لعلم الاجتماعي التفسيري» وكرّس نفسه للأبحاث والكتابة بدوام كامل حتى وفاته عام ٢٠٠٦. Richard Handler, «An Interview with Clifford Geertz,» *Current Anthropology*, vol. 32, no. 5 (1991), p. 610.

وصِف غيرتز بأنه «أشهر العلماء الأنثروبولوجيين الأميركيين وأكثرهم نفوذًا على مدى العقود الماضية» Richard A. Shweder, «The Resolute Irresolution of Clifford Geertz,» *Common Knowledge*, vol. 13, nos. 2-3 (Spring-Fall 2007), p. 191.

أو «أهم وأبرز عالم أنثروبولوجي في جيله» Ben White, «Clifford Geertz: Singular Genius of Interpretive Anthropology,» *Development and Change*, vol. 38, no. 6 (November 2007), p. 1187.

تُعتبر أعماله الحدود الفاصلة بين العلوم الاجتماعية والإنسانية، ويمكن تبيّن تأثيره في مجالات مختلفة ومتنوعة مثل العلوم السياسية، والفلسفة، والنقد الأدبي. أمّا أعظم تأثير مارسه في ميدان دراسات القومية، فتم عبر مجموعة مقالاته *The Interpretation Of Cultures* (تأويل الثقافة) (١٩٧٣).

مقاربة غيرتز للثقافة «سيميائية». «أعتقد، مع ماكس فيبر، بأن الإنسان حيوان عالق في شِباك من الدلالة نسجها بنفسه، والثقافة في رأيي هي هذه الشِّباك، ومن ثم فإن تحليلها ليس علمًا تجريبيًا يبحث عن قانون بل تفسيري يبحث عن معنى» Clifford Geertz, *The Interpretation of Cultures: Selected Essays* (London: Fontana Press, 1973), p. 5.

لكن هذه المقاربة لا تعتمد على نظرية المعنى. يلاحظ: «لست مناديًا بواقعية

---

(٢٦) Geertz, pp. 259-260.

المعنى. ولا أعتقد أن المعاني موجودة كي نضع النظريات عنها. فنحن نحاول معاينة السلوك، وما يقوله الناس، واستخلاص المعنى من ذلك ـ هذه هي مقاربتي النظرية للمعنى. ولهذا السبب.. أختلف قليلًا عن علماء الفينومينولوجيا (علم وصف الظواهر). فهُم يهتمون بالقضايا العامة للمعنى بغضّ النظر عن أي حالة تجريبية. أمّا أنا، فأهتم بما يعني الشيء ـ ما يعنيه صراع الديكة، ما تعنيه الجنازة» Arun Micheelsen, «I Don't Do Systems»: An Interview with Clifford Geertz,» *Method and Theory in the Study of Religion*, vol. 14, no. 1 (March 2002), p. 6.

في موضع آخر، يلاحظ ساخرًا: «عناصر الثقافة لا تشبه كومة من الرمل.. بل هي مثل الأخطبوط، مخلوق متنافر ـ وما يُعَدّ دماغًا يجمعه معًا إلى حد ما في كلّ أخرق واحد. لكن يجب علينا، نحن الأنثروبولوجيين، أن نبحث عن أكبر قدر ممكن من الاتساق والانسجام، وأن نحاول العثور على الروابط والصلات، وحيثما لا نجدها يجب أن نقول ببساطة لا يمكن أن نعثر عليها». ورد في: Shweder, p. 199.

انظر ايضًا: Mark A. Schneider, «Culture-as-Text in the Work of Clifford Geertz,» *Theory and Society*, vol. 16, no. 6 (1987).

إن لغة غيرتز واضحة كل الوضوح هنا (انظر: الإطار الرقم ٢ - ٣): مضمون مطلق لا يُفسر «يُعزى» إلى الرابطة ذاتها، روابط «تبدو» متدفقة، وقبل ذلك، حقائق مقبولة «مفترضة» للوجود الاجتماعي، وهو ما يضفي خاصية «الطبيعية» و«النأي عن الوصف» و«القاهرة» على «الحقائق المقبولة للوجود الاجتماعي» ليس سوى مدركات أولئك المؤمنين بها، لا غيرتز. وبكلمات بروبيكر:

في معظم المناقشات، يتم تجاهل هذا التمييز الحاسم بين «الحقائق المقبولة» المدركة، و«الحقائق المقبولة» الفعلية. ويصور دعاة البدائية بوصفهم «طبيعيين تحليليين» لا «محللين للطبيعيين». وفي الحقيقة، ووفقًا للرواية البدائية، فإن المشاركين، لا المحللين، هم دعاة البدائية الحقيقيين، الذين يتعاملون مع الإثنية بوصفها حقيقة مقبولة طبيعيًا وثابتة لا تتغير[٢٧].

(٢٧) Rogers Brubaker, *Ethnicity without Groups* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004), p. 83.

ينطبق الشيء ذاته على شيلز. إذ يستدل إلر وكولان من مقالة شيلز التي كتبها عام ١٩٥٧ أنه يعتقد بقداسة الروابط البدائية. أما الدليل فيوفره، كما يذكران، توكيده الآتي: «يمكن أن تعزى قداسة للخاصية البدائية»[٢٨]. لكن شيلز، مثل غيرتز، لا يعزو القداسة إلى هذه الارتباطات؛ بل يلاحظ أن هذه الروابط تستمد قوتها من «أهمية دلالية معينة تنأى عن الوصف.. تعزى إلى رابطة الدم»[٢٩]. وتجدر الإشارة عند هذه النقطة إلى أن تفسير إلر وكولان (الخاطئ) أثبت في الحقيقة مرونته؛ فحتى في وقت متأخر يعود إلى عام ٢٠٠٢، يجد ليوسي (Leoussi) أن تصنيف شيلز وغيرتز في فئة «دعاة البدائية الثقافية» «غير مناسب البتة»، نظرًا إلى أن شيلز نفسه نحت تعبير «بدائي»، ولأن «الثقافة لا «تبني» هذه العلاقات بل تكرسها بواسطة التعبير الصريح عنها، أو تفصيلها، أو أمثلتها»[٣٠]. في الحقيقة، كان أنتوني د. سميث أول من استعمل تعبير «دعاة البدائية الثقافية» («دعاة الثقافة» كما جرى تبسيطه هنا) في مسحه الذي أجراه في عام ١٩٩٨ للنظريات المعاصرة عن القومية. يستحق المقطع الاستشهاد به كاملًا، نظرًا إلى أنه يخترق صميم الارتباك الخطير المتواصل الذي يحاصر أعمال شيلز وغيرتز:

لا يَعِدّ غيرتز ولا شيلز الروابط البدائية مجرّد أمور عاطفية.. ولا يَعِدّان البدائية متأصلة في الأغراض ذاتها، بل في المدركات والعواطف التي ولّدتها.. هذه لغة الإدراك والاعتقاد، لغة العالم الذهني والعاطفي للأفراد المعنيين. يؤكد غيرتز قوة ما يمكن أن ندعوه بـ«بدائية المشاركين»؛ وهو لا يقول إن العالم تشكّله واقعية بدائية موضوعية، بل إن كثيرين منّا يعتقدون بالأغراض البدائية ويشعرون بقوتها[٣١].

---

(٢٨) Shils, p. 142.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٤٢، أضفنا التشديد.

(٣٠) Athena S. Leoussi, «Theories of Nationalism and the National Revival,» *Geopolitics*, vol. 7, no. 2 (Autumn 2002), p. 256.

(٣١) Smith: *Nationalism and Modernism*, pp. 157-158; *The Nation in History*, p. 21, and *Nationalism*, pp. 53-54; Steven Fenton, *Ethnicity* (Cambridge: Polity Press, 2003), pp. 82-83, and Virginia Tilley, «The Terms of the Debate: Untangling Language about Ethnicity and Ethnic Movements,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 20, no. 3 (1997).

في ضوء ذلك كله، ربما يكون من الأنسب وصف المقاربة الثقافوية بأنها مقاربة تركز على دور «المدركات» في فهم الروابط الإثنية والوطنية، أو بكلمات غيرتز[٣٢]، على شِباك المعنى التي نسجها الأفراد أنفسهم. ومثلما يشرح تيلي (Tilley) بأسلوب مقْنع، فإن غيرتز في الحقيقة «يستخدم تعبير «بدائي» في معناه «البدئي» الذي يشير إلى «الأول في سلسلة».. كي يسلط الضوء على الطرق التي توفّر فيها مفاهيم التأسيس الركيزة الداعمة للأفكار أو القيم أو التقاليد أو الأيديولوجيات الأخرى التي يعتنقها الأفراد»[٣٣].

خامسًا: أدريان هاستينغز ونظرية التواتر

مثلما ألمحت في الفقرات الافتتاحية في هذا الفصل، يفضّل بعض المعلّقين تمييز الرأي القائل إن الأمم وجِدت منذ فجر التاريخ عن النسخ الأخرى من البدائية. يقدّم سميث تعبير «التواتر» للإشارة إلى أولئك الذين يعتقدون بالقِدم التاريخي لـ«الأمّة»، وشخصيتها المغرِقة في القِدم والمتواترة. ولا يتعامل دعاة التواتر مع الأمّة بوصفها «حقيقة طبيعية»، بل يرونها سمة مستمرة وجوهرية للحياة البشرية على مدى التاريخ المدوّن[٣٤]. هنالك نسختان اثنتان من مقاربة التواتر، وفقًا لسميث. **الأولى**، هي ما يدعوه «التواتر المستمر»، حيث يرى جذور الأمم الحديثة تمتد قرونًا عدّة ـ بل ألف عام في بعض الحالات ـ في الماضي السحيق. وتشدّد هذه النسخة على «الاستمرارية»، وتشير إلى حالات الاستمرارية والهويات الثقافية التي تمتد حقبًا زمنيًا طويلة، وتربط الأمم القروسطية أو القديمة بنظيراتها الحديثة، بينما تشير النسخة **الثانية**، «التواتر المتكرر»، إلى أولئك الذين يعتبرون الأمّة «صنفًا من الرابطة البشرية التي يمكن العثور عليها في

---

(٣٢) Geertz, p. 5.

(٣٣) Tilley, p. 502, and Donald L. Horowitz, «The Primordialists,» in: Daniele Conversi, ed., *Ethnonationalism in the Contemporary World: Walker Connor and the Study of Nationalism* (London; New York: Routledge, 2002), p. 78.

(٣٤) Smith, *Nationalism and Modernism*, p. 159.

كل مكان على مدى التاريخ». بعض الأمم المعيّنة قد تظهر وتختفي، لكن الأمّة نفسها كلّية الوجود، و«متكررة»، بوصفها شكلًا من الهوية الرابطة والجمعية[٣٥]. ووفقًا لسميث، لا تتّضح الخطوط الفاصلة بين هاتين النسختين. ومع ذلك، كما يضيف، فإن دعاة نظرية التواتر المتكرر، مثل مؤرخي القرون الوسطى أدريان هاستينغز (A. Hastings)، وجون كولينغام (J. Cullingham)، وكوليت بون (C. Beaune)، وبرنار غويني (B. Guenee)، أكثر «حرصًا» و«دقة» في تحليلاتهم من دعاة التواتر المستمر. ويؤكدون توافر وثائق وسجلات وحوليات تاريخية كافية لإثبات وجود «الأمم» و«المشاعر الوطنية» في غرب أوروبا منذ أواخر حقبة القرون الوسطى، لكن ليس «القومية» بوصفها أيديولوجيا[٣٦]. نستطيع فهم الموقف المتواتر بصورة أفضل عبر الاطّلاع على كتابات الراحل هاستينغز، أشهر مؤيدي آراء التواتر وأكثر من جرى الاستشهاد بهم في دراسات القومية.

يبدأ هاستينغز تحليله بتعريف الإثنية بأنها «جماعة من الناس تشترك في هوية ثقافية ولغة محكية». أمّا الأمّة فهي مجتمع أكثر وعيًا بالذات من الإثنية؛ تتكون من إثنية أو أكثر، وترتبط بأدب خاص بها، «وتملك، أو تزعم امتلاك، الحق في الهوية السياسية والاستقلال الذاتي كشعب، إلى جانب السيطرة على أرض محددة». من ناحية أخرى، يمكن تعريف القومية بطريقتين اثنتين: بوصفها نظرية سياسية، تزعم أن كل أمّة يجب أن يكون لها دولة، ويعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر. لكنها في الممارسة العملية مستمدة من الاعتقاد بأن التراث الوطني ثمين على نحو خاص، وبحاجة إلى الدفاع عنه مهما يبلغ الثمن، عبر تأسيس دولته أو توسيعها. بهذا المعنى «العملي»، وجِدت القومية كحقيقة واقعية قوية في بعض الأماكن قبل زمن طويل من القرن التاسع عشر[٣٧]. هذه هي في الحقيقة

---

(٣٥) Smith: *The Nation in History*, pp. 34-35; «Perennialism and Modernism,» in: Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, pp. 243-244, and «When is a Nation?,» *Geopolitics*, vol. 7, no. 2 (Autumn 2002), pp. 12-14.

(٣٦) انظر: الاطار الرقم (٢-٤)، ص ١١٨ من هذا الكتاب، و Smith, «When Is a Nation?,» p. 12.

(٣٧) Adrian Hastings, *The Construction of Nationhood: Ethnicity, Religion, and Nationalism*, Wiles Lectures; 1996 (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1997), pp. 3-4.

أطروحة هاستينغز المركزية: لا يمكن للأمم الحديثة إلّا أن تنمو من إثنيات معيّنة، تحت تأثير تطور اللهجة المحلية وضغط الدولة. صحيح أنه ليس كلّ إثنية تصبح أمّة، لكن كثيرًا من الإثنيات تحوّلت إلى أمم. أمّا الأصل المحدّد للأمة، مثل أصل كل واقع عظيم للتجربة الغربية الحديثة، فيحتاج، كما يؤكد هاستينغز، إلى موضعته في عصر أقدم كثيرًا ممّا يعتقد معظم المؤرخين المعاصرين، عصر تشكيل المجتمع القروسطي. يشدد هاستينغز على أن الإثنيات تتحوّل طبيعيًا إلى أمم عند نقطة تنتقل فيها لهجاتها المحلية من الاستعمال الشفهي إلى الكتابي إلى الحد الذي تستخدم فيها بانتظام لإنتاج الأدب، ولا سيما ترجمة الكتاب المقدس[٣٨].

في ضوء الملاحظات الواردة في الإطار الرقم (٢ - ٤)، يشير هاستينغز إلى أن إنكلترا تمثّل النموذج الأوّلي للأمة والدولة القومية بمعناه الكامل. فتطورها القومي يسبق الأمم كلها:

على الرغم من الفعل المضاد للفتح النورماندي الذي ضُخّم إلى حد الغلو في أغلب الأحيان، نجت الدولة القومية الإنكليزية من عام ١٠٦٦، ونمت بثبات قوة وعيها الوطني على مدى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، لكنها اندمجت بشكل أكثر صخبًا مع نهضتها الأدبية باللهجة المحلية وضغط حروب المئة عام بحلول نهاية القرن الرابع عشر. ومع ذلك، ومن دون أي شك، يجب موضعة بؤرة تجربتها القومية في أواخر القرن السادس عشر وما بعده[٣٩].

يمكن العثور على دليل يثبت ذلك في تاريخ كلمة «أمّة» ذاته؛ فبعد أن يتطرق هاستينغز إلى مختلف السجلات والحوليات والوثائق التاريخية، يختتم بالقول: «الوتيرة والاتساق في استعمال الكلمة [أمة / nation] منذ أوائل القرن الرابع عشر يشيران بقوة إلى ركيزة أساسية في التجربة: لقد شعر الإنكليز بأنهم أمّة»[٤٠].

---

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١١ - ١٢ و١٨٠-١٨١.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٤ - ٥.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٥.

الإطار الرقم (٢ - ٤) أدريان هاستينغز

ولد أدريان هاستينغز، اللّاهوتي، والمؤرخ الكنسي، والكاهن، في كوالالمبور بالملايو (ماليزيا) في عام ١٩٢٩. وبرز أول مرة في عام ١٩٧٣، حين فضح المذبحة التي ارتكبها الجيش البرتغالي في موزامبيق بحق ٤٠٠ فلاح في قرية موزامبيقية نائية تدعى ويريامو. وأدّت مقالته اللاحقة في صحيفة التايمز وظهوره أمام الأمم المتحدة إلى التعجيل بسقوط نظام الحكم البرتغالي في العام التالي. أصبح هاستينغز أستاذًا للدراسات الدينية في جامعة زيمبابوي في عام ١٩٨٢، وأستاذًا للّاهوت في جامعة ليدز عام ١٩٨٥، إلى أن تقاعد في عام ١٩٩٤. كان هاستينغز قبل وفاته في ليدز عام ٢٠٠١ أبرز الخبراء المتخصصين بالمسيحية في أفريقيا. أمّا أهم مساهماته في الجدل النظري حول القومية، فهو كتاب *The Construction of Nationhood* (١٩٩٧) (بناء الأمّة) الذي اعتمد على المحاضرات التي ألقاها في جامعة كوين في بلفاست عام ١٩٩٦.

يكتب هاستينغز في الفقرات الافتتاحية من كتابه: «حين اخترت هذا الموضوع، اعتقدت أنني بتطوير موضوعي سوف أتمكّن من البدء بتبنّي وجهة نظر الدراسات الحديثة غالبًا عن القومية، ومن ثم الانتقال إلى إدخال البُعد الديني المهمَل إلى حد ما فيها. على وجه الخصوص، قصدت طبعًا أن أنطلق من محاضرات إريك هوبزباوم التي ألقاها عام ١٩٨٥ حول «الأمم والقومية منذ عام ١٧٨٠».. لكن سرعان ما أدركت أن فهمي للقومية يختلف اختلافًا عميقًا عن فهم هوبزباوم بحيث يستحيل جعل ذلك ممكنًا بالطريقة التي أملت بها، فضلًا عن أن القيود المحددة التي وضعها للموضوع استبعدت فعليًا ثلثي ما أردت مناقشته. وأدركت بدلًا من الابتعاد من هوبزباوم أن السبيل الوحيد المفتوح أمامي هو محاولة تفكيك أطروحته المركزية لصالح أخرى مختلفة تمام الاختلاف.. ونتيجة لذلك، أصبح الموضوع المركزي لهذا الكتاب تاريخ الأمم والقومية في حد ذاتها.. وأدّى ذلك إلى ضرورة إجراء مناقشتي للعلاقة بين الدِّين والقومية ضمن مسار عملية تفكيك تاريخية أكثر اتساعًا، وضمن إطار الوعي بالتحدث من الجانب الآخر لجبهة من الانقسام التأريخي». Adrian Hastings, *The Construction of Nationhood: Ethnicity, Religion, and Nationalism*, Wiles Lectures; 1996 (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1997), pp. 1-2; David Maxwell, «Obituary: The Rev Professor Adrian Hastings,» *Independent*, 7/6/2001, and Paul Gifford, «Adrian Hastings,» *Guardian*, 15/6/2001.

من ناحية أخرى، إن ما يجعل الحالة الإنكليزية على هذه الدرجة من الأهمية هو دور الدِّين في ولادة القومية الإنكليزية، والتأثير الواضح لهذه الأخيرة في البلدان المجاورة والمستعمرات. وفي الحقيقة، فإن الدِّين جزء لا يتجزأ من القومية؛ «وفّر الكتاب المقدس، للعالم المسيحي على أقل تقدير، النموذج الأصلي للأمة»، كما يكتب هاستينغز. ولولاه ولولا تفسيره المسيحي، لما وجِدت الأمم والقومية كما نعرفها» (انظر الإطار الرقم (٢ - ٤).

سادسًا: نقد النظرية البدائية

هنالك مشكلات عدّة كامنة في المقاربات البدائية. وسوف أركّز بشكل رئيس في ما يأتي على الانتقادات العامة للنظرية البدائية، وأتجاوز التُّهم المحدّدة التي وجِهت إلى نسخ معيّنة، كي أتجنب التوصل في نهاية المطاف إلى لائحة طويلة منهِكة. تتصل هذه التُّهم بأربعة جوانب مترابطة للتفسيرات البدائية: طبيعة الروابط الإثنية والوطنية، وأصول الروابط الإثنية والوطنية، وتاريخ ظهور الأمم، ومسألة العاطفة والشعور. ونظرًا إلى أن المشكلات مترابطة، فإن الانتقادات مترابطة أيضًا.

١ ـ طبيعة الروابط الإثنية والوطنية

من القواسم المشتركة بين دعاة النظرية البدائية، باستثناء أصحاب المقاربة الثقافوية، ميلهم إلى اعتبار الهويات الإثنية والوطنية «حقائق مقبولة»، أو حقائق طبيعية؛ فهي تنتقل من جيل سابق إلى جيل لاحق من دون أن تتغير سماتها الأساسية وخصائصها «الجوهرية»، وهي من ثم ثابتة أو ساكنة. وتعرّض هذا الرأي للتأكّل في العقدين الماضيين جرّاء عدد متزايد باطّراد من الدراسات التي شدّدت على طبيعة الهويات الإثنية والوطنية «المشيدة اجتماعيًا»، وهو ما يشير إلى دور الخيارات الفردية، والقرارات التكتيكية، وبُنى الفرصة السياسية، ومختلف الاحتمالات الطارئة في بنائها. أمّا حدودها ومحتوياتها التي هي أبعد ما تكون من الثبات، فتخضع لحالة مستمرة من النقاش والتفاوض وإعادة التحديد

والتعريف في كل جيل، وذلك مع ردة فعل الجماعات على الظروف المتغيّرة أو التكيّف معها.

هذه هي الاندفاعة الرئيسة لنقد البدائية الذرائعي. ووفقًا لبراس، أحد أكثر المؤيدين للمذهب الذرائعي حماسة وصخبًا، فإن الروابط البدائية متغيّرة بشكل واضح[٤١]. خذ اللغة على سبيل المثال: يتكلم كثيرون أكثر من لغة أو لهجة واحدة، أو نظام من الرموز والأرقام في المجتمعات المتعددة اللغات، ولن يعرف كثيرون من الأميين اسم لغتهم الأم، فضلًا عن الارتباط بها. في بعض الحالات، سوف يختار أعضاء مختلف الجماعات الإثنية تغيير لغتهم لإتاحة فرص أفضل لأطفالهم، أو لتمييز أنفسهم أكثر من الجماعات الإثنية الأخرى. أخيرًا، لا يفكر كثيرون بلغتهم أبدًا، ولا يربطون بها أي دلالة عاطفية ووجدانية مهمّة. وقد خضع الدين أيضًا لتغيّرات كثيرة على مدى القرون؛ «التغيّرات في الممارسات الدينية التي تمّت تحت تأثير المصلحين الدينيين حوادث شائعة في المجتمعات ما قبل الحديثة، والتحديثية، وحتى ما بعد الصناعية»[٤٢]. أمّا بالنسبة إلى مكان الولادة، فيمكن الاعتراف بأن الوطن الأم مهم لبعض الناس، لكن كما يلاحظ براس، هاجر كثيرون باختيارهم من أوطانهم، واختارت نسبة كبيرة منهم الاندماج في مجتمعها الجديد وفقدت أي شعور بالارتباط مع تلك الأوطان. والأهم أن ارتباط الشخص بمنطقته أو وطنه الأم نادرًا ما يأخذ أهمية دلالية سياسية إلّا في حالة وجود قدر معيّن من التمييز المدرَك ضد المنطقة أو شعبها في المجتمع الأكبر. يضاف إلى ذلك كلّه أن حتى حقيقة مسقط رأس الفرد تخضع للتغير والتبدّل لأن المنطقة قد تحدَّد بطرق كثيرة. وحين يتعلّق الأمر بالصلات القرابية، يزعم براس أن «سلسلة العلاقات القرابية الحقيقية تكون عادة صغيرة جدًا بحيث يتعذّر أن تأخذ أهمية دلالية سياسية». وربما توسع العلاقات القرابية «المتخيلة» مدى الجماعات الإثنية، لكن حقيقة كونها متخيلة تفترض مسبقًا بالتعريف تقلبها وتغيرها. فضلًا عن ذلك،

---

(٤١) Paul R. Brass, *Ethnicity and Nationalism: Theory and Comparison* (New Delhi; Newbury Park, Calif.: Sage Publications, 1991), pp. 70-72.

للاطلاع على تفسير براس للقومية، انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٤٢) Brass, p. 71.

سوف يتفاوت معنى مثل هذه العلاقات المتخيلة طبعًا من شخص إلى شخص لأن الطبيعة «المتخيّلة» للرابطة سوف تهيمن في هذه العلاقات[٤٣].

قدّم الحجّة ذاتها سميث، أحد أهم أنصار المقاربة الإثنية ـ الرمزية[٤٤]، الذي يؤكد أن «الروابط الإثنية، مثلها مثل الروابط الاجتماعية الأخرى، تخضع للقوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولذلك فهي تتذبذب وتتقلّب وتتغيّر وفقًا للظروف»؛ إذ جعل الزواج المختلط والهجرة والغزو الخارجي واستيراد العمالة أمورًا مستبعَدة بالنسبة إلى كثير من الجماعات الإثنية للحفاظ على «التجانس الثقافي والجوهر «النقي» الذي افترضه كثير من دعاة النظرية البدائية»[٤٥].

في مقالة لاحقة، يرفض فاندنبيرغ هذا النقد، ويلوم «أنصار البنائية الاجتماعية» على الحكم على المقاربات البدائية من دون أن يفهموها فعلًا. وفي رأيه، لا تعني حقيقة أن الروابط الإثنية والوطنية مؤسَّسة على علم الأحياء (البيولوجيا) أنها مجمدة أو سكونية. وفي الحقيقة، فإن ذلك يناقض نظرية النشوء. «ثلاثة أو أربعة أجيال من الأنماط المتغيّرة من زواج الأقارب أو الأباعد يمكن أن تغيّر الحدود الإثنية تغييرًا عميقًا.. وتوجد أخرى جديدة كليًا». باختصار، «الإثنية بدائية ومشيدة واجتماعيًا في آن»[٤٦]. لكن فاندنبيرغ لا يفسّر أبدًا كيف يمكن لذلك أن يحدث، أو يفكر في مضامينه بالنسبة إلى نظريته، نظرية الإثنية الاجتماعية ـ الحيوية التي تتعامل مع الجماعات الإثنية بوصفها «جماعات قرابية ممتدة». كيف يمكن لزواج الأباعد أن يحدث إذا كان البشر مبرمجين بيولوجيًا للزواج مع الأقارب؟ ماذا يحدث لـ«روابط النسل العمودية» إذا/ ومتى تغيّرت الحدود الإثنية؟ وإذا كانت القرابة الممتدة خيالية أو «مفترضة» أو مزعومة كليًا، بحسب كلمات فاندنبيرغ، فماذا يبقى من «البيولوجيا»؟ حجّة مشابهة يقدّمها سميث في مراجعته لكتاب فاندنبيرغ

---

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٤٥) Anthony D. Smith, *Nations and Nationalism in a Global Era* (Cambridge, UK: Polity Press, 1995), p. 33.

(٤٦) Van den Berghe, «Ethnies and Nations: Genealogy Indeed,» p. 117.

الظاهرة الإثنية، حيث يشير إلى أن التشديد على العوامل الثقافية والبيئية «التي تسهل، أو تشجع، أو تكبح، أو تعدّل هذه الميول المحددة وراثيًا (جينيًا)»، يُضعف الرابطة المباشرة بين النظرية الاجتماعية ـ الحيوية وتفسير السلوك البشري[٤٧].

٢ ـ أصول الروابط الإثنية والوطنية

إذا كانت الروابط الإثنية والوطنية «حقائق مقبولة»، فهي أيضًا «أصيلة» (= غير مستمَدة من مصدر آخر)، وسابقة للتفاعل الاجتماعي كله، و«تنأى عن الوصف»، أي «يتعذر التعبير عنها بالكلمات» ـ ومن ثم غير قابلة للتحليل. وهذا ما دفع عددًا من المعلّقين إلى رفض النظرية البدائية، ولا سيما نسختيها القومية والاجتماعية ـ الحيوية، بوصفها غير علمية وغائية (موجَّهة نحو غاية): غير علمية لأن النظرية البدائية، كما أكد إلر وكولان، تميل إلى رؤية تحديد الروابط البدائية نهايةً ناجحة للتحليل[٤٨]. وغائية، لأن دعاة النظرية البدائية يتعاملون مع تاريخ الأمم الحديثة باعتباره عملية متصلّبة (وعنيدة) تنزع نحو نتيجة مقرَّرة سلفًا ـ انطلاقًا من بداياتها الأولية في الحقب القديمة أو القروسطية، وصولًا إلى الدول القومية في يومنا الحالي[٤٩].

مثلما يلاحظ هوروفيتز (Horowitz)، إن ما «ينأى عن الوصف» في الروابط الإثنية والوطنية هو الذي تُرك بلا تفسير في هذه الصيغ. أكثر من ذلك، «لا يُبذل أي جهد لتفسير كيف أصبحت بعض الصلات بدائية، بينما فشلت الصلات المرشَّحة الأخرى، أو لماذا استقرت الحدود الإثنية على حالها المعروف، لتشمل بعض الجماعات الفرعية وتستثني غيرها». في نهاية المطاف، كما يختتم هوروفيتز، لا يوجد في التفسيرات البدائية ما يزيد كثيرًا على توكيد متانة الروابط الإثنية[٥٠].

---

(٤٧) Anthony D. Smith, *Theories of Nationalism*, 2nd ed. (London: Duckworth, 1983), p. 367, and K. Jenkins, «Book Review: *The Ethnic Phenomenon*,» *Man*, vol. 18, no. 2 (1983), p. 430.

(٤٨) Eller and Coughlan, p. 189.

(٤٩) Smith, *The Nation in History*, p. 51.

(٥٠) Horowitz, p. 74.

المشـكلة ذاتها يؤكدها براس الذي يقـدّم الحجّة على أننا لا يمكن أن نتوقّـع، اعتمـادًا على الروابط التي تجمع الناس بهوياتهـم الإثنية أو الوطنية وحدها، الجماعة التي سـتطور حركة قومية ناجحة أو الشكل الذي ستأخذه هذه الحركة. ويستشهد براس بإنشاء دولتي إسرائيل وباكستان مثلًا؛ إذ يؤكد أن من يعرف اليهودية المتزمتة أو الإسلام التقليدي في الهند سوف يستبعد تمامًـا نهوض الحركة الصهيونية أو حركة إقامة دولة باكسـتان، نظرًا إلى أن السـلطات الدينيـة التقليدية فـي الحالتيـن كلتيهما كانت تعـارض قيام دولة علمانية[٥١].

هـذا هـو عـبء الروايات السـردية القومية التي تجسّـد، بكلمـات باليبار (Balibar)، وهمًا مزدوجًا:

تقـوم [الروايات] على الاعتقـاد بأن الأجيال المتلاحقـة على مرّ القرون ورثـت بعضهـا بعضًـا، فوق أرض ثابتـة تقريبًـا، وتحت معنى واضـح الدلالة تقريبًـا، مـادة ثابتة لا تتغيّر. وتقوم على الاعتقاد بـأن عملية التطور التي نختار منها جوانب وملامح عبر استعادة الحوادث الماضية، بحيث نرى أنفسنا ذروة تلك العملية، هي الوحيدة الممكنة، وأنها تمثّل القدر والمصير[٥٢].

لكن هذه الحقبة «ما قبل التاريخية» تتألف من تعددية حوادث متميّزة نوعيًا، لم يؤد أي منها لاحقًا إلى تكوين أمّة. والأهم أن هذه الحوادث لا تنتمـي إلـى تاريـخ أمّـة بعينها. «ليسـت خطًّا مـن الارتقاء الضـروري، بل سلسـلة من العلاقات المؤتلفة التي نقشـتها في ما بعد في شـكل الأمّة ما قبل التاريخي»[٥٣].

يقـارب غيلنـر هذه المشـكلة بطريقتـه المثيرة المشـهودة؛ إذ إن السـؤال الجوهري برأيه هو: «هل توجد للأمّة سُرّة؟» ـ التشبيه هنا مع الحجة الفلسفية المتعلّقة بخلق البشر. فإذا خلق الله آدم في موعد محدّد، فليس من الضروري

---

(٥١) Brass, p. 73.

(٥٢) Etienne Balibar, «The Nation Form: History and Ideology,» *New Left Review*, vol. 13, no. 3 (Summer 1990), p. 338.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

أن يكون له سُرّة، لأنه لم يمرّ عبر العملية التي يحتاج فيها الناس إلى السُّرّة. الشيء ذاته ينطبق على الأمم، كما يقول غيلنر؛ إذ يشبه المجتمع الإثني، الثقافي الوطني، السُّرّة تقريبًا. «بعض الأمم لها سُرّة وبعضها الآخر ليس لها سُرّة، وهي في أي حال ليست جوهرية»[54]. ويشير إلى الإستونيين لشرح حجّته. ويؤكد أن الإستونيين يجسّدون مثالًا واضحًا للقومية الناجحة التي لا تملك سُرّة:

عند بداية القرن التاسع عشر، لم يكن لهم حتى اسم؛ إذ كان يُشار إليهم بوصفهم الشعب الذي عاش على الأرض، في مقابل المواطنين والأرستقراطيين الألمان أو السويديين ومسؤولي الإدارة الروس. لم يكن لهم اسم إثني. كانوا مجرّد فئة من دون أي وعي إثني ذاتي. ومنذ ذلك الحين حققوا نجاحًا باهرًا في إبداع ثقافة حيوية.. ثقافة حيوية ومزدهرة جدًا، لكنها وجِدت بواسطة نوع من العملية الحداثية التي أستطيع تعميمها لتشمل القومية والأمم إجمالًا[55].

يصح هذا الانتقاد على حالة التفسيرات الاجتماعية ـ الحيوية (البيولوجية) أيضًا. إذ لم تتمكن هذه التفسيرات، المؤسَّسة على عوامل «شمولية» مفترضة مثل روابط الدم، والعلاقات القرابية، من تفسير السبب الذي جعل نسبة قليلة فقط من الجماعات الإثنية تعي هويتها المشتركة، بينما اختفت أخرى في ضباب التاريخ. فإذا قبلنا حقيقة أن الجماعات الإثنية ليست سوى استطالات متوسعة لمصطلح القرابة، أي الأُسر الكبرى الممتدة («السوبر»)، فيجب أن يصح ذلك في حالة الجماعات الإثنية كلها. لكن مثلما أكد بعض الباحثين، هنالك عدد غير محدّد من الحركات القومية الفاشلة في مقابل كل حركة ناجحة[56]. فلماذا استطاعت بعض الجماعات تأسيس سقفها السياسي الخاص بطريقة فاعلة، بينما فشل غيرها؟

---

(٥٤) Ernest Gellner, «Ernest Gellner's Reply: «Do Nations Have Navels?»,» *Nations and Nationalism*, vol. 2, no. 3 (November 1996), pp. 367-370.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٣٦٧-٣٦٨.

(٥٦) Gellner, *Nations and Nationalism*, pp. 44-45, and Fred Halliday, *Nation and Religion in the Middle East* (London: Saqi Books, 2000).

٣ ـ تاريخ ظهور الأمم

إن ما يدركه دعاة النظرية البدائية، كما يؤكد غروسبي (Grosby)، هو «وجود روابط بدائية على الدوام»(٥٧)، وذلك على الرغم من التغييرات في شكلها البنيوي. هذه هي الفكرة المركزية الكامنة خلف التفسيرات المتواترة التي يمكن اعتبارها نسخة معتدلة من النظرية البدائية، لأنها ترفض الاعتقاد القومي بـ«طبيعية» الأمم، مع الاحتفاظ بالاعتقاد بقِدمها. ووفقًا لهاستينغز، يمكننا حتى الحديث عن «انقسام تأريخي» بين علماء الاجتماع الحداثيين ومؤرخي القرون الوسطى الذين يرفضون التّزمّت «الحداثي»(٥٨). لكن هذه الصورة ليست دقيقة برمّتها، نظرًا إلى أن في مقابل كل مؤرخ قروسطي يقدّم الحجّة على قِدم الأمم، باحثون آخرون يشدّدون على طبيعتها الحديثة والبنائية. وكل ما يجب أن تفعله، كما يقول برويللي في تدخّل حديث، هو العثور على مؤرّخك القروسطي الذي تفضّله(٥٩).

يجسّد باتريك ج. غيري (P. J. Geary) مثالًا معبّرًا على العدد المتزايد من مؤرّخي القرون الوسطى الذين يرفضون بشدة موقف دعاة البدائية. ففي رأي غيري، يُعَدّ التطابق بين الشعوب التي عاشت في أوائل القرون الوسطى (فضلًا عن العصور القديمة) والشعوب المعاصرة مجرّد خرافة؛ إذ نواجه صعوبة في تمييز الفوارق بين الطرائق المبكرة في إدراك الهويات الجماعية والمواقف الأكثر معاصرة لأننا «نحاصَر في شراك كل عملية تاريخية نحاول دراستها». وما نراه في الواقع الحقيقي هو الاستخدام المتقطع الطويل الأمد لبعض التصنيفات التي أصبحنا نعتبرها «إثنية»(٦٠). لكن هذه الأسماء التصنيفية ليست توصيفية بقدر ما هي مزاعم؛ والحقائق الاجتماعية الكامنة خلفها خضعت لتحوّل سريع وجذري في كل حالة:

---

(٥٧) Steven Grosby, «Primordiality,» in: Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, p. 253.

(٥٨) انظر الإطار الرقم (٢ ـ ٤)، ص ١١٨ من هذا الكتاب، و Hastings, p. 2.

(٥٩) John Breuilly, «Dating the Nation: How Old Is an Old Nation?,» in: Ichijo and Uzelac, eds., p. 47.

(٦٠) Patrick J. Geary, *The Myth of Nations: The Medieval Origins of Europe* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002), pp. 41 and 155.

مهمـا يكـن وضـع القوطي فـي مملكـة سـنيفا (Cniva) في القـرن الثالث الميلادي، فإن واقع القوط في إسـبانيا القرن السـادس عشـر مختلف اختلافًا بيّنًا، في اللغة والدِّين والتنظيم السياسي والاجتماعي، بل حتى في الأسلاف.. ومـع التغيّـر المسـتمر فـي التحالفـات، والزيجـات المختلطـة، والتحـوّلات، وعمليات الاسـتيلاء، يبدو أن الأسـماء هي كل ما يبقى من دون تغيير، وهذه كانت أوعية يمكن أن تستوعب محتويات مختلفة في أزمنة مختلفة[٦١].

في الحقيقة، وخلافًا لزعم هاستينغز وغيره من دعاة نظرية التواتر، كانت الأسـماء مصـادر متجددة؛ يمكن اسـتعادة الأسـماء القديمـة، وتكييفها لتلائم الظـروف الجديدة واسـتخدامها في شـعارات الحشـد والتعبئـة لصالح القوى الجديـدة. ويمكنهـا أن تقنـع النـاس بالاسـتمرارية، حتـى لـو كان الانقطـاع الراديكالي هو الواقع المعيش[٦٢].

يبدأ تاريخ الأمم التي سكنت أوروبا، كما يختتم غيري، في القرن الثامن عشر، لا في القرن السادس. ومن ثم، ينبغي ألّا نأخذ مزاعم الاستمرارية وفقًا لقيمتها الظاهرية؛ فالتاريخ سكوني في المفهوم القومي أو المتواتر؛ وهو مفهوم «نقيض للتاريخ»:

تاريخ الشعوب الأوروبية في أواخر العصور القديمة وبدايات القرون الوسـطى، ليـس قصـة لحظـة بدائيـة بل عمليـة مسـتمرة. قصة الاسـتيلاء والاسـتغلال السياسـيين للأسـماء الموروثـة.. تاريخ من التغيّر المسـتمر، والانقطاعـات الراديكاليـة، والتقلّبات السياسـية والثقافيـة، المقنّعة بعملية تكرار وإعادة استيلاء على الكلمات القديمة لتحديد حقائق واقعية جديدة وتعريفها[٦٣].

مثلمـا سـنرى بمزيـد مـن التفصيـل فـي الفصـل اللاحـق، فإن هـذه هي الأطروحة الرئيسـة للتفسـيرات الحداثية التي تتعامل مع مفهوم الأمّة وأشكال الوحدات السياسـية التي ندعوهـا الآن الدول القومية، بوصفهـا نتاجًا للقرنين

(٦١) المصدر نفسه، ص ١١٨.

(٦٢) المصدر نفسه.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ١٥٥ - ١٥٦.

الماضيين. وكما يذكّرنا سامي زبيدة (S. Zubaida) مثلًا، فإن كثيرًا من الدول والإمبراطوريات في التاريخ حكمت شعوبًا متنوعة ومختلفة. ولم يكن ثمة تجانس إثني بين موظفي الدولة، ولا بين الشعب الخاضع لها، وكثيرًا ما انتمى الحكام إلى إثنية مختلفة عن السكان الذين حكموهم. فضلًا عن ذلك كله، «لم يكن الاشتراك في الإثنية بين الحكام والمحكومين يشكّل على الدوام ركائز للمحاباة أو الدعم المتبادل»(٦٤). وليست الإثنية، ولم تكن قط، الركيزة الأساسية الرئيسة للترابط بين أعضاء هذه الإمبراطوريات المتعددة الجنسيات. أمّا المعاني الدلالية الإثنية، فمع أنها لم تخل من الإشارة إلى المجموعات اللغوية أو الإثنية، استُعملت بطريقة متنافرة ولم تكن لها غالبًا مضامين إثنية. بالنسبة إلى كثيرين، بقي الموقع أو الدِّين ركيزة قوية للهوية حتى القرن التاسع عشر ضمنًا. وحتى في ذلك الحين، كانت الإثنية واحدة من بين هويات كثيرة، ولم تكن بالتأكيد أكثرها أهمية.

يعبّر برويللي عن آراء مشابهة في ما يتعلق بالحالة الإنكليزية، المنْسَق (البارادیم) الأولي للأمّة في نظر هاستينغز. فوفقًا له، «لا يعني استمرار تعبير مثل إنكليزي استمرارية آلية في معناه الدلالي». وما يعادل ذلك في الأهمية، أن «وجود مؤسسة لا ينتج آليًا وعيًا محددًا «مكافئًا»». على سبيل المثال، ربما تُعَدّ محكمة المقاطعة مؤسسة «وطنية» نظرًا إلى المناطق التي تغطيها صلاحياتها وأهميتها، لكن ذلك لا يُظهر، بحد ذاته، أن أولئك الذين استخدموا مثل هذه المحاكم اعتقدوا أنها «وطنية»(٦٥).

لكن ليس الحداثيون وحدهم من تحدّى موقف دعاة نظرية التواتر. «هل الإحساس بالفوارق الثقافية والتاريخية مماثل لـ«القومية»؟»، كما يسأل سميث الذي لا تتناقض قراءته للموقف الحداثي مع قراءة دعاة التواتر. أو «هل يمكن

---

(٦٤) Sami Zubaida, «Theories of Nationalism,» in: G. Littlejohn [et al.] eds., *Power and the State* (London: Groom Helm, 1978), p. 54.

(٦٥) Breuilly, p. 22.

للاطلاع على أطروحة الجدة التاريخية للأمة الإنكليزية انظر أيضًا: Krishan Kumar, *The Making of English National Identity*, Cambridge Cultural Social Studies (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 2003), and Linda Colley, *Britons: Forging the Nation, 1707-1837* (New Haven: Yale University Press, 1992).

لإدراك الفوارق حتى في الرموز السياسية، مثل معبد وأرض وقرابة، أن نسمّيه بأسلوب مفيد قومية؟». إجابة سميث مرنة بالطبع، إذ تدعو إلى مفاهيم مختلفة للقومية في حقب تاريخية مختلفة ومناطق ثقافية مختلفة[٦٦].

إن ما يعقّد الأمور أكثر في هذه الحالات كلها، وعمومًا بالنسبة إلى أي محاولة لمعرفة هل وجدت أمم وقومية في العصور القديمة، هو الافتقار إلى الدليل الدامغ، حتى من الطبقة الحاكمة الصغيرة[٦٧]. وبكلمات كونور (Connor):

من المشكلات المفتاحية التي واجهت الباحثين عند تحديد تاريخ ظهور الأمم أن الوعي الوطني ظاهرة جماهيرية لا نخبوية، والجماهير التي بقيت إلى وقت قريب معزولة تمامًا في جيوب ريفية أمّية أو شبه أمّية، كانت صامتة في ما يتعلّق بإحساسها بالهوية (أو الهويات) الجماعية. واعتمد الباحثون في دليلهم بالضرورة غالبًا على الكلمة المكتوبة، لكن النخب هي التي أرّخت التاريخ وروت حوادثه. ونادرًا ما انطبقت تعميماتها المتصلة بالوعي الوطني على الجماهير..[٦٨].

سوف أعود إلى هذه النقطة في ما بعد، حين أناقش التفسيرات الإثنية ـ الرمزية للأمم والقومية. يكفي القول هنا إن مسألة «تحديد تاريخ» أصول الأمم يخترق صميم الجدل النظري حول القومية، وهنالك باحثون عدّة وضعوا تعريف كونور لـ«الأمّة» بأنها ظاهرة جماهيرية موضع المساءلة والتشكيك. ويرفضه هاستينغز نفسه، مؤكدًا أن من غير الضروري للأمّة كي تنوجد أن يتمتع كل فرد فيها بوعي كامل بوجودها؛ فإذا اعتقد كثيرون من الأشخاص في ما وراء دوائر الحكومة أو الطبقة الحاكمة الصغيرة بوجودها بطريقة متسقة، فستوجد الأمّة حينئذ[٦٩].

---

(٦٦) Smith, *The Nation in History*, p. 49.

(٦٧) Smith, «When is a Nation?».

(٦٨) Walker Connor, «The Timelessness of Nations,» in: Monserrat Guibernau and John Hutchinson, eds., *History and National Destiny: Ethnosymbolism and its Critics* (Oxford: Blackwell, 2004), pp. 40-41.

(٦٩) Hastings, p. 26.

٤ ـ مسألة العواطف والشعور

تتعلّق النظرية البدائية بالعواطف والشعور. وما يعرضه دعاتها، كما يؤكد هوروفيتز، هو «تفسير للطبيعة الكثيفة للارتباطات الإثنية، تعتمد على المجتمع، بل على الطائفة والملّة، على مستوى لا يمكن تبريره إلا بالأساطير عن الأسلاف المشتركين وتشبيهات الإثنية بالعائلات»[٧٠]. بالنسبة إلى بعض المعلقين، يُعَدّ ذلك في الحقيقة أهم مساهمة للمقاربات البدائية في فهمنا للأمم والقومية. إذ تمكن دعاة النظرية البدائية من تركيز انتباهنا، كما يكتب سميث، «على ما تستحضره الإثنية والقومية غالبًا من طاقة وحماسة، بينما فشل الحداثيون [وسنطّلع على تفسيراتهم البديلة في الفصل اللاحق] في التصدّي لهما حتى حين يوجهان الإدانة إليهما»[٧١].

يعارض إلر وكولان إلغاز العواطف وإبهامها، بينما يعترفان بالدور المهم الذي تؤديه في الحياة الاجتماعية البشرية. ويؤكدان أن الإبهام البدائي أدّى إلى الوقوع في خطأ، هو نزع السمة الاجتماعية عن الظاهرة. ومن المقترحات المقدّمة أن هذه الروابط العاطفية/ الوجدانية لا تولد في تفاعلٍ اجتماعي، بل هي موجودة «ضمنيًا في العلاقة [القرابية أو الإثنية] ذاتها». ووفقًا لإلر وكولان، فإن مصدر هذه المغالطة «هو فشل علم الاجتماع [السوسيولوجيا] وعلم الإناسة [الأنثروبولوجيا] في التعامل بذكاء وحذق مع العاطفة»[٧٢].

يكمن المخرج من هذا المأزق في كتابات غيرتز، والمفارقة أن هذه الكتابات مثّلت الهدف الرئيس لمقالة إلر وكولان. اعتمادًا على غيرتز، يؤكد تيلي أن:

العوامل «البدائية» للثقافة ليست الشعور بل الإطار المعرفي الذي يشكّل الشعور ويرشده.. بعض الافتراضات أو الأنظمة المعرفية تُعِدّ المسرح للشعور،

---

(٧٠) Horowitz, p. 75.

(٧١) Anthony D. Smith, *The Cultural Foundations of Nations: Hierarchy, Covenant and Republic* (Malden, MA: Blackwell Pub., 2008), p. 10, and Ichijo and Uzelac, eds., p. 52.

(٧٢) Eller and Coughlan, p. 192.

لم تعد هذه الحالة صحيحة، انظر الفصلين الخامس والسادس من هذا الكتاب، للاطّلاع على أمثلة للأعمال المركّزة على القومية والعواطف من منظور «غير بدائي».

وإلـى الحـد الذي تشـكّل عنده مثل هـذه الأنظمـة المعرفية نوعًا مـن الركيزة المعرفية لا للشعور فقط بل لأكثر الأفكار وعيًا، يمكن القول إنها «بدائية»(٧٣).

سابعًا: النظرية البدائية اليوم

فـي مراجعة شـاملة لمسـاهمة دعـاة النظرية البدائيـة في فهمنـا للقومية، يشتكي هوروفيتز من أن:

الأمر وصل إلى نقطة جعلت كل من يرغب في تقديم الحجّة على سيولة الهويات، أو عقلانية المسعى إلى صراع، يثبت نصف حجّته بالاستشهاد بالرأي المضاد المزعوم لدعاة النظرية البدائية الجهلة من دون تسـميتهم. اللقب مثير للعواطف إلى درجة وجود سـبب للاشتباه في أن دعاة النظرية البدائية لم يعد أحد يقرأهم(٧٤).

كانـت كلماته تردّد صدى كلمات بروبيكر الذي أعلن في عام ١٩٩٦ أن النظريـة البدائيـة «حصان مات منـذ عهد بعيد ومع ذلك يواصـل كتّاب الإثنية والقومية حثّه بالسياط». كتب بروبيكر: «لا يوجد باحث جاد اليوم يتبنّى الرأي الذي يُنسب روتينيًا إلى دعاة النظرية البدائية في حججهم الوهمية التي يسهل دحضهـا، ألا وهي أن الأمـم أو الجماعات الإثنية كيانات بدائية لم تتغير»(٧٥). لقد أظهر الانبعاث الذي حدث مؤخرًا للنظرية البدائية أن هذه الكلمات تفتقد النضج نوعًا ما. وشهد العقد الماضي انتشار الدراسات التي أنعشت المشروع البدائي وقدمت نسخة «مصححة» منه بوصفها بديلًا من التفسيرات الحداثية.

بالنسـبة إلـى دعـاة النظرية البدائيـة الجدد، حتـى مقاربة التواتر ليسـت كافيـة. وهكذا، يتّهم سـتيفن غروسـبي، أكثر مؤيدي النظريـة البدائية صراحة وشجاعة في ميدان الدراسات القومية، هاستينغز بـ«التواتر الذي يفتقد اليقين»،

---

(٧٣) Tilley, p. 503.

(٧٤) Horowitz, p. 73.

(٧٥) Rogers Brubaker, *Nationalism Refrained: Nationhood and the National* (*Question in the New Europe*) (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), P. 15.

مشيرًا إلى زعمه أن إسرائيل التوراتية توفّر مثالًا نموذجيًا للأمم اللاحقة. يؤكد غروسبي: «في ما يتعلق بإدراك هاستينغز لإسرائيل القديمة بوصفها أمّة، يظل احتمال أن تكون الجنسية تمظهرًا متواترًا تاريخيًا احتمالًا مفتوحًا»(٧٦). ووفقًا لغروسبي، «يمكن ملاحظة الدليل على قيام البشر بتشكيل مجتمعات كبيرة متميزة على أراض محددة، من سجلاتنا المكتوبة الأولى»(٧٧). والسؤال هو: هل يمكن اعتبار هذه المجتمعات، مثل المجتمع المبكر في سري لانكا، أو إسرائيل القديمة، أو اليابان في القرن الثامن الميلادي، أو بولندا القروسطية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أو كوريا بين القرنين العاشر والرابع عشر، هل يمكن اعتبارها أممًا. ربما وجِد عدد من العوامل التي أدت، كما يؤكد غروسبي، إلى تشكيل أمم - «مجتمع القرابة، لا سيما ذلك المترابط، والمتوسع على الأرض، والعميق موقتًا»(٧٨) - في حقبة ما قبل العصور الحديثة. كان القانون، على سبيل المثال، عاملًا في إسرائيل القديمة؛ حيث وزع المسؤولون الحكوميون في شتى أنحاء الأراضي لإدارتها وجباية الضرائب. فضلًا عن ذلك، رسمت مجموعة القوانين الإسرائيلية «خطًا مميزًا بين «ساكن الأرض المحلي»، الإسرائيلي الذي ينطبق عليه القانون، والأجنبي». في حالات أخرى، كان الإمبراطور هو العامل التكويني، «هدف الاحترام والتوقير الذي لا يدانيه الشك ويسمو على.. الولاءات المحلية». ولذلك، فإن «إظهار وجود وعي ذاتي، جمعي ووطني [في اليابان القديمة]، في أثناء حقبة توكوغاوا، تم عبر توليفة جمعت شعاري الساموراي «بجّلوا الإمبراطور»، و«اطردوا البرابرة»». والدِّين هو من العوامل المهمة الأخرى في تشكيل ثقافة متميزة. «إله إسرائيل هو يهوه، بينما توجد لتلك البلدان المحيطة بإسرائيل آلهة مختلفة». «في اليابان، استولت أُسرة الإمبراطور بحلول القرن السابع الميلادي على ربة الشمس أماتراسو، لا بوصفها جدّتها المقدسة فحسب، بل باعتبارها متسامية على الآلهة المحلية العشائرية كلها (كامي) أيضًا». كما أن اللغة

---

(٧٦) Steven Grosby, «Religion, Ethnicity and Nationalism: The Uncertain Perennialism of Adrian Hastings,» *Nations and Nationalism*, vol. 9, no. 1 (January 2003), p. 10.

(٧٧) Steven Grosby, *Nationalism: A Very Short Introduction*, Very Short Introductions; 134 (Oxford; New York: Oxford University Press, 2005), p. 1.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ١٤.

ساهمت في تشكيل هذه «المجتمعات الوطنية ما قبل الحديثة». هنالك أدلة تثبت في الحالة الإسرائيلية، كما يشير غروسبي، أن «الفوارق في اللغة قد تُفهم بوصفها تُظهر التمايزات بين الإسرائيليين من الأهالي المحليين والأجانب». العامل التكويني الأخير الذي ذكره غروسبي هو الحرب؛ فالحروب مع الفلسطينيين والعمونيين في حالة إسرائيل القديمة، ومع أسرة تانغ في الصين في حالة اليابان القديمة، تطلّبت تعبئة عامة للسكان برمّتهم، ويصعب تجنّب الاشتباه، نظرًا إلى وجود دين موحَّد مناطقيًا، وقانون ينشره المركز، «بوجود درجة من الاعتراف من الفلاحين بأن مركز مجتمعهم هو كذلك بالضبط، ومن ثم يستحق احترامهم». باختصار، كان لهذه المجتمعات ما قبل الحديثة كلها عدد من الصفات والسمات التي تبرر اعتبارها أممًا: «اسم معيّن ذاتيًا؛ تاريخ مكتوب؛ درجة من الاتساق الثقافي، التي ينتجها الدِّين غالبًا أو يحافظ عليها؛ مجموعة تشريعات قانونية؛ مركز مرجعي، ومفهوم عن الأراضي المحاطة بحدود»[٧٩].

تجدر الإشارة أيضًا إلى أن غروسبي لا يستبعد احتمال التغيير كليًا؛ واستنتاج وجود أمم في العصور ما قبل الحديثة يجبر المحللين على التساهل مع مختلف حالات الغموض، والتطورات الجزئية، كما يقول. لكن هذا ينطبق على الأمم الحديثة أيضًا. يجب أن نحرر أنفسنا من «طغيان التحقيبات المنفصلة الانطباعية»، واعتبار الدليل المستمد من العصور القديمة والوسطى. ويختتم بالقول إن تعبير «أمّة» يتضمن «استمرارية ثقافة محلية متسقة نسبيًا على مر الزمن»[٨٠].

يمضي أفييل روشفالد (A. Roshwald) في كتابه *The Endurance of Nationalism* (دوام القومية) (٢٠٠٦) خطوة أبعد، ويؤكد أن الأمر لا يقتصر على الأمم بل إن «القومية [أيضًا] وجِدت في العالم القديم». ويستعمل تعبير «أمة» للإشارة إلى «أي مجتمع محلي أكبر من ذلك المعتمد على التعارف المتبادل، يزعم امتلاك شكل من السيادة الجمعية المحلية التي تتمتع بحدود

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٦٦ - ٧٢.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٢٠ و٧٤، و Steven Grosby, «The Primordial, Kinship and Nationality,» in: Ichijo and Uzelac, eds., p. 69.

خاصة بها باسم هويتها المتميزة، أو باسم أي سكان تضمّهم بوصفها مجتمعًا تؤكِّد باسمه مثل هذه المزاعم». القومية، من ناحية أخرى، «أيديولوجيا أو مجموعة من المواقف، والعواطف، والذهنيات المرتكزة إلى توكيد مثل هذه المزاعم»[81]. وفقًا لروشفالد، «لا تُعَدّ فكرة الأمة، إضافة إلى ظاهرة الوعي الوطني وتعبيرها المتجسد في القومية، فكرة حديثة حصرًا، بل ظهرت بأشكال متنوعة، في مجتمعات متباينة، في معظم تاريخ الحضارات المثقفة». ومن أجل رؤية ذلك، كما يؤكد، نحن بحاجة إلى تطوير مصطلح يتيح لنا التمييز بين الأشكال ما قبل الحديثة والحديثة للقومية. وعلى شاكلة غروسبي، تجسّد إسرائيل القديمة مثال روشفالد الرئيس للأمة ما قبل الحديثة. أمّا فكرة عصر الأنوار عن العقد الاجتماعي، التي تكمن في أساس المفاهيم العلمانية الحديثة عن السيادة، كما يؤكد، فاستمدت إلهامها من اللاهوت الميثاقي التوراتي. وهذا لا يعني بالطبع أن التوراة منشور دعائي قومي، بل يعني أن «النصوص والطقوس اليهودية المقدسة تفترض مسبقًا / وتعزز إحساسًا قويًا بالخصوصية الوطنية»[82]. لكن اليهود القدماء لم يكونوا الوحيدين الذين طوّروا شكلًا وطنيًا من الهوية يمكن تمييزه؛ إذ امتلك الإغريق القدماء أيضًا مفاهيم ورؤى عن الهوية الجمعية تؤهلها لتكون تعبيرات عن القومية. يحرص روشفالد على التوكيد بأنه لا يقترح تعريفًا للقومية واسع الطيف إلى حد شمول المجتمعات كافة في عصور التاريخ كلها. لكن حتى لو جسّد اليهود القدماء والأثينيين القدماء المثالين الوحيدين للقومية ما قبل الحديثة، فإن لذلك دلالة مهمة نظرًا إلى «أنهما يواجهان المدرسة الفكرية النظرية المهيمنة التي تعتبر القومية ثمرة للظروف المادية والثقافية للحداثة حصرًا»، ولأنهما استُخدما باعتبارهما منْسَقين (باراديم) لتطور المفاهيم الأوروبية عن الرابطة الوطنية[83].

ليست تحليلات غروسبي وروشفالد محصّنة ضد الانتقادات العامة التي وجِّهت إلى مقاربة التواتر أو غيرها من نسخ النظرية البدائية. أمّا فهمهما للهويات والثقافات القومية فهو فهم سكوني، وجوهراني (ماهوي) أحيانًا،

(81) Aviel Roshwald, *The Endurance of Nationalism: Ancient Roots and Modern Dilemmas* (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), p. 3.

(82) المصدر نفسه، ص ١٦ - ١٧.

(83) المصدر نفسه، ص ٣٠ - ٣١.

وروايتهما عن تشكيل الأمّة اختزالي وغائي[٨٤]. والأهم، مثلما أكد حتى المعلقين المتعاطفين مثل سميث أو بروس روتليدج (B. Routledge)، أنهما مذنبان بتهمة «القومية الاستعادية»، أو الميل إلى إسقاط المفاهيم والتصنيفات الحديثة على التشكيلات الاجتماعية المبكرة. ومع أن سميث يعترف بأن تفسيرات مقاربة التواتر للتاريخ اليهودي أثارت بعض الأسئلة المهمة، إلّا أنه يقرّ أيضًا بأن هذه التفسيرات التي تعرضت لتحدي الباحثين «ما بعد الصهيونيين»، تشجع «إمكانية التحليل الميتافيزيقي بدلًا من التحليل التاريخي السببي المحض»، لأنها «تقترح أن الأمّة اليهودية ليست مجرّد هوية ثقافية جمعية تواترت بشكل مرئي على مدى الثلاثة آلاف عام الماضية، بل استطاعت البقاء أيضًا منذ أزمنة سحيقة على الرغم من المنفى الطويل والتشتت والتشظي»[٨٥]. وعلى نحو مشابه، يلاحظ روتليدج، عالِم الآثار الذي يركّز اهتمامه على ثقافات العصرين البرونزي والحديدي في الشرق الأوسط، أن إسرائيل التوراتية باعتبارها «أمّة» ليست «الناتج المنتظر لنزعة شاملة، بل النتيجة المتراكمة للتحوّل المقصود للموارد الثقافية الراسخة في سياق تاريخي محدد». هذا لا يعني أننا لا نستطيع أن نسأل هل كانت إسرائيل القديمة «أمّة». بل ينبغي ألّا ننسى أن «نعم» أو«لا» لا يمثّلان الإجابة المناسبة الوحيدة عن مثل هذا السؤال إذا كان هدفنا استكشاف نظريات أنطولوجية (وجودية) بديلة يعرضها الماضي. فسكان الشرق الأوسط القديم، كما يكتب روتليدج، عرّفوا هويتهم عبر تشكيلة متنوعة من الطرائق وتحت مجموعة متنوعة من الظروف. في الحقيقة، يجب دراسة هذه الممارسات، لكن «من أجل أن تكون هذه الدراسات هادفة، يجب أن تواجه حقب الماضي ما قبل الحديث بوصفها أكثر من «مجرّد مرآة للحاضر»، لأننا عند تفصيل الماضي ليناسب قياس إطار الحاضر نخاطر بالاكتفاء بكشف الحاضر بحالته المعروفة أصلًا»[٨٦].

---

(٨٤) للاطّلاع على نقد موسع لآراء غروسبي، انظر: Umut Özkirimli, «The «Perennial» Question: Nations in Antiquity or the Antique Shop of History?,» *Nations and Nationalism*, vol. 13, no. 3 (July 2007), and Steven Grosby, «Scholarly Obligations in the Study of Nationality,» *Nations and Nationalism*, vol. 13, no. 3 (July 2007).

(٨٥) Smith, *The Nation in History*, pp. 49-50.

(٨٦) Bruce Routledge, «The Antiquity of the Nation? Critical Reflections from the Ancient Near East,» *Nations and Nationalism*, vol. 9, no. 2 (April 2003), pp. 224-225 and 229.

هـذا هـو أيضًا عبء محاولة غروسـبي إعادة تأهيل مفهـوم «البدائية» عبر جذب انتباهنا إلى النزعة الشـاملة لدى البشـر نحو تشـكيل مجتمعات كبيـرة مميـزة مناطقيًا، وتعتمد علـى التمييز بين «الأهالـي المحليين الذين يسـكنون الأرض» و«الأجانب». وربما نسـأل: هل تُعَدّ النزعة نحو التمييز بين «نحن» و«هم» كافية لتبرير وجود الأمم ما قبل الحديثة؟ حجّة غروسبي سطحية ومبتذلة، إلّا إذا تمكنت من إثبات أن هذه النزعة أنتجت النوع ذاته مـن التنظيـم الاجتماعـي أو الهوية الجمعيـة عبر مراحـل التاريخ المدون، الوطني أو سـواه. وهذا يشـكّل أيضًا جوهر الانتقاد الحداثي لخط النظرية البدائيـة فـي التفكيـر. إن التمييـز الواضح بيـن مختلف الحقـب التاريخية حاسـم الأهميـة، كمـا يؤكـد هوبزبـاوم فـي مراسـلات تبادلها مؤخـرًا مع غروسـبي: «نظـرًا إلـى أن هذا الكـم من التقاليـد والرمـوز المفترضة التي تمكنت من البقاء من قدم «الأمم» المزعوم، يأتي لا من «ذاكرة شعبية»، بل هـو نتاج عمومًا للحـكام والمنظّرين الأيديولوجيين، فـي لحظات تاريخية معيّنـة». ووفقًـا لهوبزبـاوم، تُعَـدّ «النظريـة البدائية خطرة علـى المؤرخين وعلماء الاجتماع في آن»:

[النظريـة البدائيـة] تربـك التحليل الاجتماعـي ـ الثقافي عبر الفشـل في التمييز بين «الأمة» الطامحة جوهريًا إلى تشكيل دولة في القرنين التاسع عشر والعشـرين، ومجموعات من المجتمعات المحلية المشتتة سياسيًا بسبب بنيتها التركيبية، مثل الهيلينيين القدماء.. وتشوش التحليل الاجتماعي ـ السياسي عبر الإخفـاق فـي التمييـز، مثلما فعل السياسـيون بـكل وضوح في القرن التاسـع عشـر.. بيـن الواقـع الوطنـي المتحقـق (مـع أو دون تاريـخ مميـز للجماعـة) والإمكانية الوطنية غير المحددة[٨٧].

(٨٧) Eric Hobsbawm, «Comments on Steven Grosby,» in: Ichijo and Uzelac, eds., pp. 81-82.

مراجع إضافية

سوف تحتوي أي مكتبة على وفرة من الكتب والمنشورات التاريخية عن القومية تشدّد على الجذور البدائية لأمم بعينها. ومن المقدّمات التمهيدية المفيدة في هذا السياق مجموعة المقالات التي أعدّها كدوري: Elie Kedourie, *Nationalism in Asia and Africa* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1971).

للاطّلاع على دراسة اجتماعية ـ حيوية (سوسيو ـ بيولوجية) عن القومية، انظر: Pierre L. Van den Berghe: «Race and Ethnicity: A Sociobiological Perspective,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 1, no. 4 (1978), and «Sociobiological Theory of Nationalism,» in: Athena S. Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, Consultant Advisor Anthony D. Smith (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001).

وللتعرّف إلى منظور ثقافي، انظر المقالة الكلاسيكية التي كتبها شيلز وغيرتز: Shils, «Primordial, Personal, Sacred and Civil Ties,» and Clifford Geertz, *The Interpretation of Cultures: Selected Essays*, 2nd ed. (London: Fontana Press, 1993).

للاطّلاع على أطروحة التواتر انظر: Hastings, *The Construction of Nationhood*.

ثمة إعادة صوغ للنظرية البدائية قدّمها روشفالد وغروسبي:

Aviel Roshwald, *The Endurance of Nationalism: Ancient Roots and Modern Dilemmas* (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), and Steven Grosby, *Nationalism: A Very Short Introduction*, Very Short Introductions; 134 (Oxford; New York: Oxford University Press, 2005).

بغض النظر عن هذه المراجع الرئيسة، يجب على القارئ «استشارة» سميث: للاطّلاع على دراسة تفصيلية عن مقاربة التواتر: وهوروفيتز للاطّلاع على مراجعة نقدية للنظرية البدائية. Anthony D. Smith, *The Nation in History: Historiographical Debates about Ethnicity and Nationalism* (Cambridge: Polity, 2000), and Donald L. Horowitz, «The Primordialists,» in: Daniele Conversi, ed., *Ethnonationalism in the Contemporary World: Walker Connor and the Study of Nationalism* (London; New York: Routledge, 2002).

للاطّلاع على نقد للنظرية البدائية من وجهة نظر أدواتية وحداثية، انظر:

Paul R. Brass, *Ethnicity and Nationalism: Theory and Comparison* (New Delhi; Newbury Park, Calif.: Sage Publications, 1991); Eric Hobsbawm, «Comments on Steven Grosby,» and John Breuilly, «Dating the Nation: How Old Is an Old Nation?,» in: Atsuko Ichijo and Gordana Uzelac, eds., *When Is the Nation?: Towards an Understanding of Theories of Nationalism* (Milton Park Abingdon, Oxon; New York: Routledge, 2005).

ثمة مناقشة خلافية لشيلز وغيرتز يمكن العثور عليها في كتاب:
Jack Eller and Reed Coughlan, «The Poverty of Primordialism: The Demystification of Ethnic Attachments,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 16, no. 2 (April 1993).

أمّا كتاب غيري، فيضم تعريضًا ساحرًا وحاذقًا بـ«خرافة» الأصول القروسطية للأمم: Patrick J. Geary, *The Myth of Nations: The Medieval Origins of Europe* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002).

بينما يبدو روتليدج أكثر تعاطفًا، لكن على القدر ذاته من النقد اللاذع لأطروحات دعاة النظرية البدائية: Bruce Routledge, «The Antiquity of the Nation? Critical Reflections from the Ancient Near East,» *Nations and Nationalism*, vol. 9, no. 2 (April 2003).

للاطّلاع على مراسلات جدلية حول مسألة قِدم الأمم، انظر: Umut Özkirimli, «The «Perennial» Question: Nations in Antiquity or the Antique Shop of History?,» *Nations and Nationalism*, vol. 13, no. 3 (July 2007), and Steven Grosby, «Scholarly Obligations in the Study of Nationality,» *Nations and Nationalism*, vol. 13, no. 3 (July 2007).

الفصل الثالث

الحداثـة

أولًا: ما هي الحداثة؟

برزت الحداثة بوصفها ردة فعل على النظرية البدائية البديهية للأجيال الأكبر عمرًا التي عدّت القومية سمة طبيعية وشمولية - أو على الأقل متواترة - للمجتمعات البشرية. وفقًا لسميث، أنجزت مقاربة الحداثة الكلاسيكية، أي الاعتقاد بأن الأمم والقومية متأصلة جوهريًا في العالم الحديث وثورة الحداثة، صيغتها القانونية في نظريات التحديث التي ظهرت في ستينيات القرن العشرين، التي حققت انتشارًا واسعًا في العلوم الاجتماعية في أعقاب ظهور حركات التحرر من الاستعمار في آسيا وأفريقيا[١].

القاسم المشترك بين هذه التفسيرات هو الاعتقاد بحداثة الأمم والقومية. إذ ظهرت الأمم والقومية في القرنين الأخيرين، وهما من منتوجات أنساق حديثة محدّدة مثل الرأسمالية والتصنيع والتمدين والعلمانية وظهور الدولة البيروقراطية الحديثة. وبهذا المعنى، يؤكد الحداثيون زعمهم البنيوي والمتعاقب زمنيًا؛ إذ إنهم لا يعتقدون أن الأمم والقومية مجرّد أمر جديد تاريخيًا، بل يؤكدون أنها أصبحت ضرورة اجتماعية في العالم الحديث، وأنه لم يكن ثمة مكان للأمم أو القومية في الحقبة ما قبل الحديثة[٢].

---

(١) Anthony D. Smith, *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998), p. 3.

(٢) Philip S. Gorski, «Pre-Modern Nationalism: An Oxymoron? The Evidence from England,» in: Gerard Delanty and Krishan Kumar, eds., *The SAGE Handbook of Nations and Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2006), p. 143; Atsuko Ichijo and Gordana Uzelac, eds., *When Is the Nation?: Towards an Understanding of Theories of Nationalism* (Milton Park Abingdon, Oxon; New York: Routledge, 2005), pp. 9-10, and Anthony D. Smith: «The Poverty of Anti-Nationalist Modernism,» *Nations and Nationalism*, vol. 9, no. 3 (July 2003), p. 358; «The Problem of National Identity: Ancient, Medieval and Modern?,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 17, no. 3 (July 1994), and *Nations and Nationalism in a Global Era* (Cambridge, UK: Polity Press, 1995).

مثلما سنرى بمزيد من التفصيل لاحقًا، لا تجمع الحداثيين سوى قلّة قليلة من الآراء المشتركة، بغضّ النظر عن هذا الاعتقاد الأساسي. ولذلك، سوف أقسّم نظريات الحداثيين إلى ثلاث فئات في ما يتعلق بالعوامل المفتاحية التي حددتها، بدءًا من تلك التي تشدد على التحولات الاقتصادية، ثم تلك التي تركز على التحولات السياسية والاجتماعية / الثقافية على التوالي. تجدر الإشارة بادئ ذي بدء، لتجنّب أي سوء فهم، إلى أن النظريات مصنّفة اعتمادًا على أساس العامل الذي يأخذ «الأولوية» في تفسيراتها. هذا لا يعني أنها تعتمد على عامل وحيد لتفسير القومية، لكنها تمنح ثقلًا أكبر إلى مجموعة من العوامل مقابل أخرى.

ثانيًا: التحوّلات الاقتصادية

سوف أبدأ مناقشتي بنظرية الماركسية الجديدة ونظرية الخيار العقلاني اللتين أكدتا العوامل الاقتصادية في تفسيراتهما؛ إذ اعتقد الماركسيون الجدد أن الماركسية التقليدية غير مؤهّلة لمغالبة التحديات التي تفرضها القومية، بعد أن أصبحت ملحّة من جديد في أواخر الستينيات والسبعينيات، مع انتشار الحركات القومية المناهضة للاستعمار في كثير من أرجاء ما سُمّي العالم الثالث ـ الذي يتعاطف معه معظم المفكرين اليساريين ـ و«الانبعاث الإثني» الذي ظهر مؤخرًا في أوروبا وأميركا الشمالية، ويهدّد الآن وحدة الدول القومية «الراسخة» في العالم الغربي.

حاول الجيل الجديد من الماركسيين إصلاح العقيدة التقليدية من دون «تفكيك الصرح القديم»[٣]، وإعطاء ثقل أكبر لدور الثقافة والأيديولوجيا واللغة في تحليلاتهم. وربما يكون أهم التصريحات والعبارات التي توضح موقف الماركسية الجديدة متضمنة في كتاب توم نيرن *The Break-up of Britain: Crisis and New-Nationalism* **(تفكّك بريطانيا: الأزمة والقومية الجديدة)** (١٩٨١)، الذي نُشر أول مرة في عام ١٩٧٧، وكتاب مايكل هيكتر *Internal Colonialism: The Celtic Fringe in British National Development, 1536 - 1966* **(الاستعمار الداخلي:**

---

(٣) Paul Warren James, *Nation Formation: Towards a Theory of Abstract Community* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 1996), p. 107.

الطرف السلتي في التطور القومي البريطاني، ١٥٣٦ - ١٩٦٦) (١٩٧٥). ستشمل الفقرات الآتية أيضًا مناقشة وجيزة لأعمال هيكتر اللاحقة، ولا سيما كتاب احتواء القومية[٤] الذي يجسّد مثالًا نموذجيًا لمقاربة الخيار العقلاني للقومية.

١ ـ توم نيرن والتطوّر اللامتكافئ

يعبّر كتاب تفكّك بريطانيا الذي انطلق من سلسلة من المقالات التي نُشرت غالبًا في مجلة *New Left Review*، عن اهتمام نيرن النظري والسياسي بقضايا القومية ردحًا من الزمن. وعلى الرغم من مؤهلاته الماركسية، لقّبه بعضهم بالبيان (المانيفستو) القومي[٥]، وعدّه آخرون «نقشًا على ضريح الماركسية»[٦]. أمّا غيلنر فيعتقد أن نظرية نيرن صحيحة جوهريًا، لكنها محيرة في ما يتعلّق بكيف يمكن لنيرن أن يفكر بأن نظريته منسجمة مع الماركسية، ويفسر هذه المعضلة بأسلوبه الاستثنائي في براعته وظرفه:

مرّ المسيحيون عبر ثلاث مراحل على أقل تقدير: أولًا، حين آمنوا فعلًا بما قالوه، عندما اجتذبتهم الرسالة الفعلية ووعدها بالخلاص، وعندما كانت الاستمرارية التاريخية مع المؤمنين المبكرين غير ذات صلة؛ ثانيًا، حين اضطروا إلى الكفاح للاحتفاظ بإيمانهم في مواجهة حيّز متاح على نحو متزايد وضاغط للكفر، وفشل كثير في المقاومة؛ ثالثًا، مرحلة اللاهوت الحداثي، حين اكتسب «الإيمان» محتوى قليل الأهمية (أو مقياسًا متغيرًا ومرتبطًا بعوامل أخرى)، وعندما أصبح الزعم بالاستمرارية والاتصال بمجرّد الاسم مع الأسلاف المكافأة النفسية الوحيدة والعلامة الدلالية على الولاء، والعقيدة التي تقلصت أهميتها بوصفها غير ذات صلة. وبدا من المقدر على الماركسيين المرور بمراحل التطور نفسها. وحين سيبلغون المرحلة الثالثة (بعضهم بلغها فعلًا)، لن تكون لأفكارهم أهمية فكرية. لا يزال توم نيرن في المرحلة الثانية..

---

(٤) Michael Hechter, *Containing Nationalism* (Oxford, [England]; New York: Oxford University Press, 2000).

(٥) Neil Davidson, «In Perspective: Tom Nairn,» *International Socialism Journal*, no. 82 (March 1999), on the Web: <http://pubs.socialistreviewindex.org.uk/isj82ydavidson.htm>.

(٦) Joan Cocks, «Fetish zed Nationalism?,» in: Tom Nairn and Paul James, *Global Matrix: Nationalism, Globalism and State-Terrorism* (London; Ann Arbor, MI: Pluto Press, 2005), p. 79.

وما زال كفاحه في سبيل الإيمان أو ضده، حماسيًا وإشكاليًا ومخلصًا، وهذا ما يعطي الكتاب بعضًا من إثارته[7].

الإطار الرقم (٣-١) توم نيرن

أمضى توم نيرن تسعينيات القرن العشرين في جامعة إدنبره ومركز دراسات القومية في كلية براغ في الجامعة الأوروبية المركزية، ثم انتقل إلى أستراليا في عام ٢٠٠١، ليعمل أولًا في كلية الأبحاث الاجتماعية والسياسية في جامعة موناش (ملبورن)، ثم في معهد ملبورن الملكي للتقانة، لينضم إلى وحدة أبحاث العولمة التي أسستها ماري كالانتزيس وبول جيمس. تشمل أعمال نيرن الرئيسة المنشورة في ميدان دراسات القومية كتابه المهم **تفكّك بريطانيا: الأزمة والقومية الجديدة** (١٩٨١)؛ وكتاب *The Faces of Nationalism: The Janus Revisited* (**أوجه القومية: عودة إلى جينوس**) (١٩٩٧)؛ وكتاب **المصفوفة العالمية: القومية، والعولمة، وإرهاب الدولة** (مع بول جيمس) *The Global Matrix: Nationalism, Globalism and State-Terrorism* (٢٠٠٥).

حين سئل نيرن «هل يُعِدّ كتاب تفكّك بريطانيا بيانًا (مانيفستو) قوميًا؟»، أجاب ساخرًا: «أجل: مذنب بالتهمة!» Tom Nairn and Paul James, *Global Matrix: Nationalism, Globalism and State-Terrorism* (London; Ann Arbor, MI: Pluto Press, 2005), p. 85.

يكتب في موضع آخر: «الدليل الوحيد على البراءة الذي أستطيع تقديمه في هذا السياق هو أنني لم أحاول قط إخفاء حقيقة أن المعضلات وحالات الغرابة والشذوذ التي واجهتها انبثقت من بلادي اسكتلندا. وهذا يفسر بلا شك الكثير من عواطفي واهتماماتي الفكرية. ومن الأسهل للآخرين استشعار ذلك، وتفسيره، والهزء منه، لكنني لم أحاول تجنّبه. لا توجد هنا أي حجّة، ولا علاقة للأمر بهالات مريبة مثل الفخر والعار.. كثيرًا ما ترتبط الخشية من النسبية الفلسفية بالقبول بمدى التأمل المتحيز عادة جرّاء الخلفية التاريخية للمنظّر أو المؤرّخ. وفي رأيي، فإن هذا لا أساس له من الصحة؛ فهو ينبعث دومًا تقريبًا من عالم فكري حضري يفترض المفكر ضمنه أنه يتمتع بالمزايا وبالوصول الغريزي إلى العالمية.. كنت دومًا متفائلًا فوضويًا، وشعرت غريزيًا بأن التنوير يجب أن يكمن في مكان بعيد ومتقدم كثيرًا من «هذا كله»: عبر مجتمع الهوية الوطنية الذي جرت حمايتنا منه بدلًا من أن نكون ضده نظريًا». Tom Nairn, *Faces of Nationalism: Janus Revisited* (London: Verso, 1997), pp. 180-181, and «The World and Scotland too: Tom Nairn at 75,» (Open Democracy, 2007), on the Web: <http://www.opendemocracy.net/globalization-vision_reflections/nairn_trib-ute_4667.jsp>.

(٧) Ernest Gellner, *Spectacles and Predicaments: Essays in Social Theory* (Cambridge, [Eng.]; New York: Cambridge University Press, 1979), pp. 265-266.

ليس هدف نيرن المعلن في كتاب **تفكّك بريطانيا** تقديم نظرية للقومية، بل «اللمحة الأكثر إيجازًا» عن كيفية صوغ واحدة. يبدأ بملاحظة أن «نظرية القومية تمثّل أعظم فشل تاريخي للماركسية»[8]. كان هذا الفشل الذي يمكن ملاحظته إمّا في النظرية وإمّا في الممارسة السياسية، محتومًا ويتعذّر تجنّبه. فضلًا عن ذلك، لم يكن مقتصرًا على الماركسيين حصرًا؛ إذ لم يقم أحد، أو لم يقدر، على تقديم نظرية للقومية في تلك الحقبة، لأن الوقت ـ ببساطة ـ لم يأزف بعدُ. لكننا نستطيع، كما يؤكد نيرن، فهم القومية بتعبيرات مادية. أمّا المهمة الرئيسة للمنظّر، فهي العثور على الإطار التفسيري الصحيح الذي يمكن تقويم القومية ضمنه بطريقة مناسبة.

في رأي نيرن، يجب عدم البحث عن جذور القومية في الديناميات الداخلية للمجتمعات الفردية، بل في العمليات والأنساق العامة للتطور التاريخي منذ نهاية القرن الثامن عشر. ومن ثم، فإن الإطار التفسيري الوحيد المفيد هو إطار «تاريخ العالم» ككل. وبهذا المعنى، فإن القومية «تُحدّد بواسطة ملامح ومعالم معيّنة من الاقتصاد السياسي العالمي، في الحقبة الممتدة بين الثورتين الفرنسية والصناعية والوقت الراهن»[9]. هنا، يبدو تأثير «المدرسة المعتمدة» في آراء نيرن، ولا سيما أعمال أندريه غوندر فرانك (A. G. Frank) وسمير أمين وإيمانويل والرشتاين (I. Wallerstein)، واضحًا من دون لبس في النظام الدولي للاستغلال الرأسمالي[10].

لكن أصول القومية لا تكمن في عملية تطور الاقتصاد السياسي العالمي بحد ذاته ـ بكلمات أخرى، القومية ليست مجرّد ظاهرة ملازمة للتصنيع حتمًا ـ بل في «التطور غير المتكافئ» للتاريخ منذ القرن الثامن عشر. طوال قرون كثيرة، ساد الاعتقاد بأن العكس هو الصحيح، وأن الحضارة المادية سوف تتطور بصورة متكافئة وتقدمية. ووفقًا لهذا الرأي، المميّز لفكر عصر

(8) Tom Nairn, *The Break-up of Britain: Crisis and Neonationalism*, 2nd Expanded ed. (London: NLB and Verso Editions, 1981), p. 329.

(9) المصدر نفسه، ص ٣٣٢.

(10) Sami Zubaida, «Theories of Nationalism,» in: G. Littlejohn [et al.], eds., *Power and the State* (London: Groom Helm, 1978), p. 66.

الأنوار، استهلت دول أوروبا الغربية عملية التطوّر الرأسمالي، وتمكّنت من مراكمة رأس المال الضروري لتأبيد هذه العملية ردحًا من الزمن. أمّا فكرة «التطور المتكافئ»، فتؤكد أن «هذا التقدّم يمكن اتباعه بطريق مباشرة، ونسخ المؤسسات المسؤولة عنه ـ ومن ثم، سيلحق الطرف، ريف العالم، بركب الدول القائدة والرائدة في الوقت المناسب»[11]. لكن التاريخ لم يتكشف كما توقّع الفلاسفة الغربيون؛ إذ لم يُختبر التطور الرأسمالي بـ«شكل متكافئ».

بدلًا من ذلك، اختُبر تأثير البلدان القائدة والرائدة بصورة هيمنة وغزو. وكان هذا محتّمًا يتعذّر تفاديه لأن الفجوة بين المركز والأطراف واسعة وعميقة الغور، و«قوى التطوّر الجديدة لم تكن في أيدي نخبة محسنة وكريمة ونزيهة ومهتمة بتقدم البشرية». وسرعان ما تعلّمت شعوب البلدان المتخلّفة أن «التقدم نظريًا يعني الهيمنة عمليًا، من قوى لم تتمكن من إدراكها إلّا بوصفها أجنبية أو غريبة». لكن التوقّعات والآمال الشعبية لم تجهض بسبب تمييز هذه الحقيقة. ونظرًا إلى أن هذه التوقّعات والآمال كانت تسبق دومًا التقدّم المادي نفسه، فإن «النخب المحيطية (Peripherical) (غير المركزية) لم يكن أمامها من خيار سوى محاولة تلبية هذه المطالب عبر أخذ زمام الأمور بأيديها»[12]. في رأي نيرن، ترمز عبارة «أخذ زمام الأمور» إلى جزء كبير من جوهر القومية؛ إذ كان على النخب حث الجماهير على اتّباع الطريق المختصرة؛ وتحدّي الشكل المتعيّن الملموس الذي اتخذه التقدم، حين شرعت في التقدم بنفسها، وأرادت بناء المصانع والمدارس والبرلمانات، ولذلك اضطُرت إلى نسخ مؤسسات البلدان الرائدة إلى حد ما؛ لكن وجب عليها القيام بذلك بطريقة رفضت التدخّل المباشر لهذه البلدان. «كان هذا يعني التشكيل الواعي لمجتمع مقاتل ومتداخل الطبقات، تمتّع بوعي قوي (وإن كان أسطوريًا) بهويته المستقلة في مقابل قوى الهيمنة الخارجية». ولم يكن هناك سبيل آخر لأداء المهمة. «كان على عملية الحشد أن تتم اعتمادًا على ما هو متوافر هناك؛ وتمثلت

(11) Nairn, *The Break-up of Britain*, p. 337.

(12) المصدر نفسه، ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

المعضلة كلها في عدم توافر أي شيء». أو بأسلوب أدق، لم يتوافر سوى الناس، وكلامهم، وتراثهم الشعبي، ولون بشرتهم... إلخ. وتحت هذه الظروف «كان على الإنتلجنسيا القومية من الطبقة الوسطى الجديدة دعوة الجماهير إلى دخول التاريخ؛ ووجب كتابة بطاقة الدعوة بلغة تفهمها»(١٣).

باختصار، كانت التكلفة الاجتماعية ـ التاريخية لغرس الرأسمالية بسرعة في المجتمع العالمي هي «القومية». لكن ذلك لا يمثّل القصة كلها. وبالطبع، كان من الممكن اختتام القصة هنا، واستنتاج نظرية مناهضة للاستعمار من ذلك كله، حيث يمكن رؤية القومية تحت ضوء أخلاقي إيجابي، أي بوصفها القوة المحرّكة لكفاح الأطراف ضد القوى الاستعمارية في الغرب. لكن القصة كانت جدلية؛ فالعملية لم تصل إلى نهايتها مع ظهور القومية في بلدان الأطراف تحت تأثير التطور غير المتكافئ، وما إن نجحت القومية حتى ردّت على بلدان المركز التي سقطت هي أيضًا تحت سطوتها. لم تبتكر هذه البلدان القومية، ولم تكن بحاجة إلى ذلك لأنها كانت في المقدّمة و«امتلكت العوامل التكوينية للقومية». لكن ما إن تحوّلت الدولة القومية إلى معيار مقْنع وآسر، أو إلى «المناخ الجديد للسياسة العالمية»، حتى تحتم على بلدان المركز أن تصبح قومية. باختصار، «ليس «التطور غير المتكافئ» مجرّد حكاية عن الحظ التعس للبلدان الفقيرة»(١٤)؛ «فالأعضاء المؤسسون»، و«الأغنياء الجدد» يجبرون بعضهم بعضًا على التغير باستمرار. وعلى المدى البعيد، أصبحت قومية المركز محتومة مثلها مثل قومية الأطراف.

يؤكد نيرن أن هذه الصورة تُظهر بوضوح أن من غير المهم والمجدي التمييز بين القوميات «الجيدة» والقوميات «السيئة»؛ إذ تحتوي القوميات كلها على بذور التقدّم والنكوص في آن. وفي الحقيقة، يُعَدّ هذا الغموض والازدواجية سبب بقائها:

---

(١٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٤.

عبر القومية، تحاول المجتمعات دفع نفسها قُدُمًا لتحقيق أنواع معيّنة من الأهداف (التصنيع، الرخاء، المساواة مع الشعوب الأخرى... إلخ) وبنوع من النكوص ـ عبر النظر إلى الداخل، والاعتماد بشكل أعمق على الموارد المحلية، وإحياء الأبطال والأساطير الشعبية للماضي التليد وغير ذلك[١٥].

يتبع ذلك كله أن جوهر القومية غامض وملتبس دومًا، من الناحيتين الأخلاقية والسياسية. ويمكن تصوير القومية بهذا المعنى على هيئة الإله الروماني القديم جانوس الذي وقف فوق البوابات ينظر بأحد وجهيه إلى الأمام وبالوجه الآخر إلى الخلف. والقومية تقف فوق المعبر إلى الحداثة: «حين يُدفع البشر دفعًا عبر مدخلها الضيق، تنظر بيأس إلى الماضي، لتجمع القوة أينما وجِدت من أجل محنة «التطور»»[١٦].

إن أعظم فشل مُنيت به الماركسية التقليدية هو الاعتقاد الراسخ بأن الطبقة تحظى دومًا بأهمية أكبر في التاريخ من الفوارق الوطنية. لكن كما يزعم نيرن، ضَمِن الانتشار الاستعماري غير المتكافئ للرأسمالية ألّا يكون التناقض الجوهري متعلّقًا بالصراع الطبقي بل بالجنسية الوطنية. «مع انتشار الرأسمالية، وتحطيمها التشكيلات الاجتماعية القديمة المحيطة بها، نزعت هذه دومًا إلى التفكّك والانهيار على طول خطوط الصدع المتضمّنة داخلها. والحقيقة البديهية الابتدائية أن خطوط الانقسام هذه كانت دومًا تقريبًا خطوط الجنسية الوطنية»[١٧].

أزف الوقت الآن لصوغ نظرية ماركسية عن القومية. يجب أن تتخلّص الماركسية من ركائزها التنويرية وتصبح «نظرية عالمية أصيلة»، أي نظرية تركز على التطور الاجتماعي للعالم برمّته. أمّا «لغز القومية الغامض»، فقد كشف طبيعة الماركسية المتمركزة على أوروبا والمؤمنة بتفوّقها. لكنها لن تتمكن من رؤية ـ ومغالبة ـ هذه القيود النظرية إلى أن ضعفت وتأكّلت في الممارسة العملية. وكانت حوادث الستينيات والسبعينيات من القرن

(١٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٨.
(١٦) المصدر نفسه، ص ٣٤٩.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٥٣.

الماضي حاسمة الأهمية في هذا السياق، نظرًا إلى أنها مكّنت الماركسية من التأقلم والتعايش مع إخفاقاتها. وأصبح من الممكن أخيرًا «فصل الماركسية الثابتة والمتينة ـ «العلمية»، أو كما اخترت أن أدعوها آنفًا «المادية التاريخية» ـ عن الأيديولوجيا، وفصل الحب عن القشر ممثّلًا بهزيمة الفلسفة الغربية»[18].

كانت هذه حجج نيرن الأساسية، كما عبّر عنها في كتاب **تفكّك بريطانيا**. لكنه تخلّى عن موقفه بعد أعوام، وتبنّى موقفًا أكثر تعاطفًا تجاه النظرية البدائية. دفع هذا بعض المعلّقين إلى التحدث عن «التحولات» في أفكاره حول المسألة القومية بين أواخر السبعينيات وأوائل التسعينيات. ونيرن نفسه لا يخجل من هذا التغيير في الفكر؛ ففي مقدمة كتابه **المصفوفة الذهبية** (*The Global Matrix*) (٢٠٠٥) (مع بول جيمس)، يكتب: «توم نيرن مدافع (احتياطي) سابق يلعب على اليسار في فريق العالم الحديث المهووس بالاقتصاد، انتقل إلى الفريق الآخر في التسعينيات وانضم موقتًا إلى دعاة النظرية البدائية الجدد، على الأقل من أجل المناقشات التي تجري بعد المباراة»[19]. يؤكد نيرن «الجديد» أن «التجديد الذي برز في القومية الحديثة ليس خلقًا من عدم» بل «إعادة صوغ مقيدة بماض محدّد»[20]. أمّا مفتاح فهم القومية فيكمن في «الطبيعة البشرية»؛ إذ تحمل العاطفة الملتهبة والعنف الشديد للقومية الإثنية معنى أكثر منطقية حين يقتفى أثرهما في هذا الجذر المحدد. وما نحتاج إليه هو صهر لوجهات النظر، «علم حياة»، يدمج المورثات (الجينات) الجديدة، عبر «السوسيولوجيا الحيوية (البيولوجية)»، و«الأنثربولوجيا المبكرة»، وسوسيولوجيا الحداثيين»[21]. لكن من الواضح أن ما يفضّله نيرن يميل نحو المورثات الجديدة؛ فالبديل الوحيد، كما يكتب، هو نفسي (سيكولوجي): «إن قصة «الطبيعة البشرية»،

---

(١٨) المصدر نفسه، ص ٣٦٣.

(١٩) انظر الإطار الرقم (٣-١)، ص ١٤٤ من هذا الكتاب، و Nairn and James, *Global Matrix*, p. 7.

(٢٠) Tom Nairn, «The Curse of Rurality: Limits of Modernisation Theory,» in: John A. Hall, ed., *The State of the Nation: Ernest Gellner and the Theory of Nationalism* (New York: Cambridge University Press, 1998), p. 121.

(٢١) Tom Nairn, *Faces of Nationalism: Janus Revisited* (London: Verso, 1997), p. 13.

في الحقيقة، حيث مشاعر «الانتماء» أو القرابة الممتدة، تُقرأ بوصفها وقائع جوهرية تعرّضت لانتهاك ظروف الحداثة»[٢٢].

٢ ـ مايكل هيكتر والاستعمار الداخلي

من المساهمات المؤثرة في تنامي الأدبيات المتعلّقة بالقومية في سبعينيات القرن العشرين كتاب مايكل هيكتر **الاستعمار الداخلي: الطرف السلتي في التطور القومي البريطاني، ١٥٣٦ - ١٩٦٦** (١٩٧٥). كان الكتاب مهمًّا من ناحيتين اثنتين: أولًا، أدخل مفهوم «الاستعمار الداخلي» في دراسة القومية. في الأصل، نحت الشعبويون الروس المفهوم لوصف استغلال الطبقات المدينية للفلاحين، ثم تبنّاه في ما بعد غرامشي ولينين لجلب الانتباه إلى التخلّف الاقتصادي الملحّ والمستمر لبعض المناطق الإيطالية والروسية. وفي هذا الاستعمال:

يشير الاستعمار الداخلي إلى عملية تبادل غير متكافئ بين أراضي دولة معيّنة تحدث بوصفها إمّا نتيجة للعبة حرة تمارسها قوى السوق، وإمّا نتيجة سياسات اقتصادية لدولة مركزية أدّت قصدًا أو من دون قصد إلى تبعات توزيعية للمنطقة. لكن منذ ستينيات القرن العشرين، اقتصر التعبير غالبًا على مناطق محرومة اقتصاديًا ومتميزة ثقافيًا (بشكل متزامن) من المناطق المركزية للدولة المضيفة[٢٣].

ثانيًا، استفاد هيكتر، خلافًا لكثيرين من أسلافه ـ الاستثناء الملحوظ هو دويتش (Deutsch) (١٩٦٦) ـ من استخدام مستدام للبيانات الكمية والتحليل الإحصائي المتعدد المتغيرات لدعم أطروحته. أمّا رسالة هذه الأطروحة الضمنية، كما يكتب هيكتر في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه في عام ١٩٩٩، فهي أن «أفضل فكر اجتماعي راديكالي يتمتع بصرامة تحليلية ويستحق أن يخضع لاختبارات تجريبية جدية»[٢٤].

(٢٢) Nairn, «The Curse of Rurality,» p. 123.

(٢٣) Michael Hechter, *Internal Colonialism: The Celtic Fringe in British National Development*, with a New Introduction and Appendix by the Author (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 1999), p. xiv.

(٢٤) المصدر نفسه.

الإطار الرقم (٣-٢) مايكل هيكتر

مايكل هيكتر أستاذ مؤسس للدراسات العالمية في جامعة أريزونا. من كتبه المهمّة: الاستعمار الداخلي: الطرف السلتي في التطور القومي البريطاني، ١٥٣٦-١٩٦٦ (١٩٧٥)، و*Containing Nationalism* (احتواء القومية) (٢٠٠٠). هكذا يتذكر هيكتر أصول اهتمامه بمبحث القومية:

«اهتمامي بالقومية ـ والموقف العلمي الذي ميّز دومًا تحليلي لها ـ يدين بالفضل أساسًا لتأثير والدي، أوسكار هيكتر الذي هو الابن الأول لعائلة يهودية فقيرة هاجرت من رومانيا وأقامت في شيكاغو، وشق طريقه مخترقًا البنية المهنية الأميركية ليصبح واحدًا من أبرز علماء الكيمياء الحيوية في عصره. وقد مثّل العلم الذي وفّر له السلم للارتقاء والتخلص من الفقر، تعويذته الأيديولوجية الرئيسة. لكن الماركسية جذبته على الطريق أيضًا ـ فدرسها وتبحّر فيها، لأنها عبّرت عن اهتمامها القوي بإعادة العدالة الاجتماعية بمصطلحات علمية على الأغلب. ومع أن والدي لم يكن بحاجة إلى الدّين، فإننا احتفلنا دومًا بعيد الفصح [اليهودي]، وتلك قصة تردّد صداها على الأرجح في خروجه الخاص من الأسر المصري في حي ويست سايد في شيكاغو. قصة عيد الفصح (خروج العبرانيين من مصر وتحرّرهم من الأسر) قصة قومية في الجوهر، وقد تركت انطباعًا مؤثرًا في نفسي. وفقًا لنسخة والدي من الحادث، استخدم موسى أساليب تكتيكية لينينية، ليتأكد من بقاء اليهود المنفيين تائهين مدة أربعين عامًا في الصحراء إلى أن يفنى كبار السن، مع آرائهم التي تقبل بالعبودية، قبل الوصول إلى الأرض الموعودة. في ما بعد، وفي أثناء أعوام مراهقتي المبكرة، أصبح والدي مستشارًا لشركة أدوية مقرّها في مونتريال. والقصص التي جلبها معه عن الثورة الصامتة في كيبك وبداية ظهور القومية الفرانكوفونية، جعلتني أدرك شمولية حركات التحرر الوطني. ومنذ ذلك الحين سحرتني القضايا القومية (مراسلة شخصية).

إن نقطة انطلاق هيكتر هي مشكلات النزاع العرقي والاندماج الإثني التي شغلت السياسة الأميركية منذ ستينيات القرن العشرين. وبصورة أعم، هنالك طريقتان بديلتان لحل هذه المشكلات في الأدبيات الفكرية والأكاديمية حول العلاقات بين الجماعات: «الاندماجية» و«القومية». يلاحظ هيكتر أن أغلبية الأكاديميين صادقت على الموقف الاندماجي آنذاك. باختصار، يؤكد دعاة الاندماج أن الأقليات الإثنية/ العرقية فقيرة ومحبطة لأنها معزولة عن

الثقافة الوطنية، وأن معايير مجتمعات الغيتو المحلية وقيمها تعاني اختلالًا وظيفيًا في المجتمع الأوسع. وهذا يتضمّن حل المشكلات المتعلّقة بصعوبة التأقلم وما يسمّى «ثقافة الفقر»، إذا ما أرادت الحكومات استثمار الموارد الضرورية لتعليم أطفال الغيتو وتدريبهم على المشاركة في النشاطات الاجتماعية[٢٥].

وفقًا لهيكتر، هنالك نموذج محدّد من التطور الوطني يشكّل الأساس للمنظور الاندماجي، ويدعوه «نموذج نشر التطور». يحدّد هذا النموذج ثلاث مراحل في عملية التطور الوطني. الأولى قبل صناعية: في هذه المرحلة، لا توجد علاقة بين المركز والطرف؛ فكل منهما معزول عن الآخر عمليًا. فضلًا عن ذلك، هنالك فوارق جوهرية في مؤسساتهما الاقتصادية والثقافية والسياسية. وتفضي زيادة الاتصال بين مناطق المركز والطرف إلى المرحلة الثانية من التطوّر الوطني، التي ترتبط عمومًا بعملية التصنيع. «كقاعدة عامة، تؤكد وجهة نظر نشر التطور أن السمات المشتركة ستأتي من التفاعل»[٢٦]. وكان من المعتقد أن المؤسسات في المركز المتطور سوف «تنتشر» بمرور الوقت إلى الطرف. أمّا الأشكال الثقافية في الطرف التي ارتقت في عزلة تامة عن بقية العالم، فسوف تجدد، أو بكلمات هيكتر، «تُحدِّثُ» نفسها نتيجة زيادة الاتصال مع المركز المحدِّث. صحيح أن الاضطراب الاجتماعي الهائل الذي نجم عن التصنيع وتوسُّع التفاعل قد يؤدي في البداية إلى إحساس متزايد بالانفصال الثقافي في الطرف، وهو ما يستحث أولئك الذين يعانون عملية التغيير السريع هذه على التشبث بأنماطهم الثقافية المألوفة، إلّا أن هذا «السلوك التقليدي» موقت، وسوف ينزع إلى الانحسار مع تشجيع عملية التصنيع للرفاه والخير العام وتقليص الفوارق المناطقية الأولية. يفترض المنْسَق (البارادايم) أن مناطق المركز والطرف ستصبح متجانسة ثقافيًا على المدى الطويل، وذلك مع اختفاء الأسس الاقتصادية والسياسية والثقافية للتمايزات الإثنية. في المرحلة الثالثة والأخيرة، سوف تتوزع ثروة المناطق بالتساوي، ولن يعود للفوارق الثقافية أي معنى اجتماعي، وسوف تجري العمليات السياسية ضمن إطار الأطراف الوطنية[٢٧].

---

(٢٥) Michael Hechter, *Internal Colonialism: The Celtic Fringe in British National Development, 1536-1966*, International Library of Sociology (London: Routledge and Kegan Paul, 1975), pp. xiv-xv.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٧.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٧ – ٨.

يؤكـد هيكتر أن هذا نموذج «مبالِغ في التفاؤل» للتغيير الاجتماعي. وفي رأيـه أن النمـوذج الـذي يبـدو أكثر واقعيـة هو ما يدعـوه «نموذج الاسـتعمار الداخلـي». يعتبـر هذا النموذج أن علاقـة مختلفة كليًا سـوف تنجم عن زيادة الاتصـال بيـن المركز والطرف. وسـوف يهيمـن المركز على الطرف سياسـيًا ويسـتغله اقتصاديًـا. وباسـتثناء عـدد صغيـر من الحـالات، لن يـؤدي التصنيع وزيادة الاتصال بين المناطق إلى تطوّر وطني[٢٨].

يمكـن تلخيـص الافتراضات الرئيسـة في هذا المنْسَـق كمـا يأتي: توجد موجة التحديث غير المتكافئ التي تكتسـح أراضي الدولة جماعات «متقدّمة» و«أقـل تقدّمًـا». ونتيجة لهـذه الميزة الطارئـة الأولية، توزَّع الموارد والسـلطة بطريقة غير متساوية بين جماعتين. تحاول الجماعة الأقوى، أو المركز، تثبيت مزاياها عبر مأسسـة النظام الطبقي القائم. ويتميـز اقتصاد المركز ببنية صناعية متنوعة، حيث يعتمد اقتصاد الطرف على اقتصاد المركز ويكمله.

يكـون تصنيـع الطرف، إذا حدث أصلًا، علـى درجة عالية من التخصص وموجَّهًا ومعدًّا للتصدير. ولذلك، فإن الاقتصاد الطرفي حساس نسبيًا لتقلّبات الأسـعار فـي السـوق العالميـة. أمّا القـرارات المتعلقـة بالاسـتثمار والائتمان والأجـور، فتُتخـذ في المركز. ونتيجـة للاتكال الاقتصادي، تصبـح الثروة في الطرف تابعة للمركز[٢٩].

مـن ناحية أخرى، تنظّم الجماعة المتقدّمـة تخصيص الأدوار الاجتماعية وتوزيعهـا بطريقـة تحتفظ بأكثر الأدوار مكانة وهيبـة واحترامًا لأعضائها. وفي المقابل، يُحرم أعضاء الجماعة الأقل تقدّمًا من تأدية هذه الأدوار. يدعو هيكتر نظـام التقسـيم الطبقي هذا «التقسـيم الثقافي للعمل». وربمـا يتعزّز هذا النظام بالقانون، حين تتدخّل الدولة بطريقة فاعلة لمنع أدوار معيّنة عن بعض أعضاء الجماعـة المحرومـة. من ناحية أخرى، قد يصبح أمرًا واقعًا يتم الحفاظ عليه، عبـر سياسـات تمييزيـة ومتحيزة، أي عبـر الإتاحة المتمايزة للمؤسسـات التي تسـبغ المكانـة والهيبـة والاعتبار في المجتمـع، مثل المؤسسـات التعليمية أو

---

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٨ - ٩.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٩ - ١٠.

الدينية أو العسكرية[30]. أمّا التقسيم الثقافي للعمل، فيدفع الأفراد إلى الارتباط بجماعاتهم والمساهمة في تطوير هوية إثنية متميزة. «يعرّف اللاعبون الاجتماعيون أنفسهم والآخرين وفقًا لسلسلة من الأدوار التي يُنتظر من كلٍّ منهم أن يقوم بها. يساعدهم في هذا التصنيف حضور علامات دلالية مرئية»[31]. تزيد مثل هذه العلامات المرئية التضامن بين الجماعة وتوحّدها حول سمات مشتركة معيّنة للتعريفات.

يحدّد هيكتر شرطين إضافيين لبروز التضامن بين الجماعة. **أولًا**، لا بد من وجود حالات من عدم المساواة الاقتصادية الجوهرية بين الأفراد إلى حد أن هؤلاء يرون هذا الظلم جزءًا من نمط من القمع الجمعي. لكن ذلك ليس كافيًا في حد ذاته لتطور تضامن جمعي، نظرًا إلى ضرورة وجود «وعي اجتماعي مصاحب وتعريف ملازم للوضع بوصفه ظالمًا وغير شرعي»، ومن هنا يأتي الشرط الثاني: لا بد من وجود اتصال كافٍ بين أعضاء الجماعة المضطهَدة[32]. يمكن إيجاز هذه الملاحظات العامة عبر ثلاثة اقتراحات:

ـ كلما تفاقمت حالة عدم المساواة بين الجماعات، تعاظم احتمال التضامن داخل الجماعة الأقل تمتّعًا بالامتيازات، ومن ثم مقاومتها للدمج السياسي.

ـ كلما ازدادت وتيرة الاتصال بين الجماعة، ازداد التضامن بين أفراد الجماعة الطرفية. وكلما تعاظمت الاختلافات في الثقافة بين الجماعات، ولا سيما في ما يتعلّق بالقابلية للتصنيف والتعريف والارتباط، تعاظم احتمال التضامن في الجماعة الطرفية المتميزة ثقافيًا[33].

باختصار، حين تضاف الفوارق الثقافية الموضوعية إلى حالات عدم المساواة الاقتصادية، وهو ما يؤدي إلى تقسيم ثقافي للعمل، وحين توجد

---

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٩ - ٤٠.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٩.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٤٣.

درجة كافية من الاتصال داخل الجماعة، تتقلص إلى الحد الأقصى فرص الاندماج الثقافي الناجح للجماعة الطرفية في المجتمع الوطني. وربما يبدأ أعضاء الجماعة المحرومة من الامتيازات في توكيد أن ثقافتهم مساوية لثقافة الجماعة المتمتعة بالامتيازات أو متفوّقة عليها، والمطالبة بانفصال أمّتهم والسعي إلى تحقيق الاستقلال(٣٤).

تُشابه الصورة التي رسمها نموذج الاستعمار الداخلي من نواحٍ كثيرة صورة الوضع الاستعماري الخارجي؛ إذ يجبر اقتصاد الطرف/ المستعمرة على التطور التكميلي لاقتصاد المركز/ العاصمة، ومن ثم يصبح معتمدًا على الأسواق العالمية. وتقرر حركة العمل في الطرف/ المستعمرة القرارات المتَّخذة في المركز/ العاصمة. تتعزّز هذه الاتكالية الاقتصادية بواسطة الإجراءات السياسية والعسكرية. هنالك مستوى معيشة أدنى في الطرف/ المستعمرة، وإحساس أقوى بالحرمان. أمّا التمييز على أساس اللغة أو الدِّين أو سواهما من الأشكال الثقافية، فيصبح حدثًا روتينيًا، يقع كل يوم(٣٥).

يؤكد هيكتر أن نموذج الاستعمار الداخلي يوفّر شرحًا أوفى وأشمل لعملية التطور الوطني مقارنة بنموذج نشر التطور؛ فهو يقدم تفسيرًا للتخلّف المستمر في بؤرة المجتمع الصناعي وخطورة الدمج السياسي. فضلًا عن ذلك، يقترح، عبر ربط الفوارق الاقتصادية والمهنية بين الجماعات مع الفوارق الثقافية، تفسيرًا لمرونة الثقافات الطرفية(٣٦).

تعرّض نموذج الاستعمار الداخلي الذي طوره هيكتر لعدد من الانتقادات (نعرض لاحقًا مناقشة أكثر تفصيلًا لها). أمّا أهم اعتراض على النظرية، فيتعلّق بـ«عدم» كفايتها الواقعية؛ إذ إن النموذج لا ينطبق ولا يصح على بعض الحالات المعيّنة. وتشكّل اسكتلندا على وجه الخصوص شذوذًا يناقض تفسير هيكتر، لأن الاسكتلنديين لم تُخفَّض منزلتهم إلى مواقع اجتماعية دونية في بريطانيا، بينما شهدت اسكتلندا المستوى نفسه من التصنيع الذي اختبرته

---

(٣٤) المصدر نفسه، ص ١٠.
(٣٥) المصدر نفسه، ص ٣١ - ٣٤.
(٣٦) المصدر نفسه، ص ٣٤.

بريطانيا منذ القرن الثامن عشر. وفي ضوء هذه الانتقادات، أدخل هيكتر تعديلًا مهمًا على نظريته(٣٧).

استُلهم التعديل من اليهود الأميركيين. ومثلما نتذكر، يؤكد هيكتر في نظريته الأصلية أن حالات عدم المساواة الاقتصادية تزيد التضامن الجماعي. من ناحية أخرى، يتمتّع اليهود الأميركيون بمستوى متقدّم من التضامن، لكن «يتعذر اعتبارهم بأي معنى من المعاني محرومين ماديًا». يفسر هيكتر هذا الشذوذ بالإشارة إلى الدرجة الرفيعة من «التخصص المهني» بين اليهود؛ إذ إن تجمّع اليهود في مواقع مهنية متخصصة ومحددة ساهم في التضامن الجماعي عبر تشجيع المساواة والتشارك في المصالح الاقتصادية ضمن حدود الجماعة. واعتمادًا على هذه الملاحظة، يستنتج هيكتر أن للتقسيم الثقافي للعمل بُعدين منفصلين ومستقلين على أقل تقدير: «بُعد تراتبي، تتوزع فيه مختلف الجماعات عموديًا في البنية الهيكلية المهنية، وبُعد قطاعي تكون فيها الجماعات متخصصة مهنيًا على أي مستوى من البنية الهيكلية»(٣٨).

يعتقد هيكتر أن هذا البُعد الثاني يمكّننا من استخلاص معنى منطقي من الحالة الاسكتلندية؛ إذ لم تختبر اسكتلندا الاستعمار الداخلي بدرجة كبيرة، لكنها تمتّعت بدلًا من ذلك بمستوى رفيع من «الاستقلالية المؤسسية». ووفقًا لقانون الاتحاد الموقَّع في عام ١٧٠٧ بين إنكلترا واسكتلندا، تمتلك اسكتلندا الحق في إقامة مؤسساتها التعليمية والقانونية والدينية. ويقدّم هيكتر الحجة على أن هذه الاستقلالية المؤسسية أوجدت ركيزة قوية لتطوّر تقسيم ثقافي «قطاعي» للعمل؛ إذ تجمّع الاسكتلنديون في مواقع مهنية محددة أوجدها الاستقلال الذاتي المؤسسي في اسكتلندا. وبغض النظر عن التحيّز ضد تميّزهم الثقافي، كثيرًا ما دانت وظائفهم بالفضل لوجود هذا التميّز. إضافة إلى ذلك كله، لم تكن هذه الوظائف أقل مكانة أو هيبة من تلك المتوافرة في إنكلترا. أمّا وجود هذه المؤسسات،

---

(٣٧) Michael Hechter, «Internal Colonialism Revisited,» in: Edward A. Tiryakian and Ronald Rogowski, eds., *New Nationalisms of the Developed West: Toward Explanation* (Boston: Allen and Unwin, 1985).

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٢١، و Hechter, *Internal Colonialism* (1999), p. xix.

فساعد سكان الطرف على ربط أنفسهم بثقافتهم وتوفير حافز قوي لإعادة إنتاج هذه الثقافة عبر التاريخ[٣٩].

ينتقل هيكتر في أعماله اللاحقة إلى تحليل الخيار العقلاني للعلاقات بين الجماعات، مع التركيز بوجه خاص على السؤال المتعلّق بكيفية احتواء العنف القومي؛ إذ يكمن خلف جزء كبير من العنف القومي الذي يبدو في الظاهر لاعقلانيًا، سبب معقول، كما يقول هيكتر. وإذا نتج أغلبه، إن لم يكن كله، من عمل عاقل، فيمكن في الحقيقة تحت ظروف معيّنة احتواؤه «لأن اللاعبين العقلانيين سوف يستجيبون للحوافز المؤسسية»[٤٠]. هذا هو عبء كتاب هيكتر اللاحق احتواء القومية[٤١]. في هذا الكتاب، يعرّف هيكتر القومية بأنها «عمل جمعي مصمَّم لجعل حدود الأمّة منسجمة ومتطابقة مع حدود الوحدة الحاكمة». وإلى المدى الذي تسعى فيه الجماعة إلى تحقيق هدف أقل من السيادة الكاملة، كما يكتب هيكتر، «تكون لزومًا أقل قومية»[٤٢]. يستدعي ذلك أن المطالبة بالقومية لا تظهر إلّا حين تتنافر الحدود بين الأمّة والوحدة الحاكمة. وهذا بدوره يفسر حداثة القومية، حيث إن معظم الدول قبل القرنين الأخيرين لم تكن وحدات حكم كما نفهمها اليوم. «قبل مقدَم تقانة الاتصالات الحديثة، لم يملك أي حاكم مركزي القدرة على تنفيذ إرادته على الأراضي والمناطق البعيدة». وبالنسبة إلى المناطق النائية، اضطُر الحكام إلى الاعتماد على «الحكم غير المباشر». أمّا المنطق الكامن خلف الحكم غير المباشر، فهو بسيط: يفوّض الحاكم المركزي للدولة الواسعة الأرجاء والممتدة جغرافيًا السلطة إلى الوكلاء المحليين في مقابل تعويض قد يأخذ شكل جزية، أو ضريبة، أو مدفوعات عينية، والتزام بتوفير الخدمة العسكرية في حال نشوب حرب[٤٣]. تلك كانت

---

(٣٩) Hechter, «Internal Colonialism Revisited,» pp. 21-22.

(٤٠) Michael Hechter, «Nationalism and Rationality,» *Studies in Comparative International Development*, vol. 35, no. 1 (Spring 2000), p. 6; Michael Hechter and Margaret Levi, «The Comparative Analysis of Ethnoregional Movements,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 2, no. 3 (1979), and Michael Banton, «Rational Choice Theories of Nationalism,» in: Athena S. Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, Consultant Advisor Anthony D. Smith (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001).

(٤١) Hechter, *Containing Nationalism.*

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٧ – ٨.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٢٧.

الطريقة الوحيدة لممارسة سيطرة محدودة، أقلّها على المناطق البعيدة وسكانها في العصور ما قبل الحديثة، أي قبل مقدَم التصنيع وتطوّر تقانة الاتصالات الحديثة. لكن الحكم غير المباشر أعاق القومية، عبر آليتين اثنتين:

في حين تكبح إحدى الآليتين القومية عبر تقليص المطالبة بالسيادة لدى أعضاء الجماعات المتميزة ثقافيًا، تزيد الأخرى تكلفة العمل الجمعي عمومًا. والآليتان كلتاهما تؤدي إلى النتيجة نفسها. يستدعي ذلك أن القومية تبرز على الأرجح في أعقاب انهيار الحكم غير المباشر. يمكن أن يتـأكّل الحكم غير المباشر بطريقتين مختلفتين اختلافًا جذريًا: بسبب نهوض الحكم المباشر، ونتيجة انهيار مركز الإمبراطورية المتعددة القوميات[٤٤].

يوفر ذلك أيضًا لهيكتر الإجابة عن السؤال المرشد للكتاب، ألا وهو: «كيف يمكن احتواء القومية؟». في رأي هيكتر، سوف ينحسر النزاع القومي تحت ثلاثة أنواع من الظروف: تلك التي تزيد تكاليف العمل الجمعي، وتلك التي تقلص بروز الهوية الوطنية، وتلك التي تزيد المطالبة بالسيادة الوطنية. ترتفع تكاليف العمل الجمعي إلى أقصى حد في الأنظمة القمعية، لكن القمع يصبح أشد صعوبة في العصر العولمي الذي نعيش فيه، ولا توجد بالتأكيد علامات دالة على ضعف الهويات الوطنية. ونظرًا إلى ذلك، يبدو أن أفضل أمل باحتواء العنف القومي يعتمد على الظروف التي تقلّص المطالبة بالسيادة لدى الجماعات الوطنية[٤٥]. ولا يمكن إنجاز ذلك، كما يستنتج هيكتر، إلّا بإدخال شكل من أشكال الحكم غير المباشر، وإيجاد المؤسسات التي تنزع المركزية عن عملية صنع القرار داخل الدول المتعددة الجنسيات[٤٦].

ثالثًا: التحوّلات السياسية

ثمة تنويع آخر للحداثة اقترحه الباحثون والأكاديميون الذين يركزون على التحولات السياسية، مثل نهوض الدولة البيروقراطية الحديثة، أو توسع حق

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٣٤ - ١٣٦.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٣.

الاقتـراع، أو تنامـي دور النخب وصراعها على السـلطة، أو تغيّر طبيعة الحرب، لتفسـير القوميـة. سـأناقش فـي ما يأتـي مسـاهمات ثلاثة باحثيـن اتّبعـوا مقاربة «التحوّلات السياسية»، وهم جون بروييللي، وبول آر. براس، وإريك ج. هوبزباوم.

١ ـ جون بروييللي والقومية بوصفها شكلًا من أشكال السياسة

أصبح كتاب جون بروييللي القومية والدولة واحدًا من النصوص المفتاحية حول القومية منذ صدور طبعته الأولى في عام ١٩٨٢. يختلف المسح التاريخي الشامل الذي أجراه بروييللي عن الدراسات التاريخية في الفترات السابقة، التي اقتصـرت غالبًا على الروايـات المرتّبة زمنيًا لقوميات معيّنـة، عبر إصراره على الجمع بين المنظور التاريخي والتحليل النظري. وعبر التحليل المقارن لتشكيلة واسـعة من الحـالات، يُدخل بروييللي مفهومًا جديـدًا للقومية: القومية بوصفها شـكلًا من أشكال السياسة، ويبتكر تصنيفًا أصيلًا لأنواع الحركات القومية. أمّا اتسـاع مـدى الكتاب الذي يشـمل أكثر مـن ثلاثين حالة فردية مـن القومية من قـارات مختلفة وحقـب تاريخية متنوعة، فحاز تقدير المراجعين النقديين الذين أقرّوا بأن الكتاب مصدر «ثمين ومفيد» للمعلومات[٤٧].

يجب التوكيد منذ البداية أن تحليل بروييللي التاريخي لا يرقى إلى مستوى «نظرية عن القومية»، بل يتمثّل هدفه في تقديم لمحة عامة وتطبيق إجراء عملي عام لدراسـة القوميـة[٤٨]. ويذكر بروييللي بوضوح أنه يشـكّك فـي النظريات أو الدراسـات «الشـاملة» التـي طـورت حجّـة عامـة، باسـتخدام الأمثلة بأسـلوب توضيحـي فحسـب، نظرًا إلى أن هـذه الأمثلة غير تمثيلية ومنفصلة عن سـياقها التاريخي. ولا يقبل أي إطار عام للتحليل، في رأيه، إلّا إذا سمح بتحليل فاعل لحالات خاصة محدّدة. وهذا يتطلب شرطين اثنين. أولًا، من الضروري تطوير تصنيـف لأنـواع القومية، نظـرًا إلى أن القوميات متباينة إلى حد يتعذّر تفسـيرها بواسـطة منهـج اسـتقصائي واحـد. ومن ثـم يجب أن تبـدأ أي دراسـة بتعريف مختلـف أنـواع القوميـة التـي يمكـن اعتبارهـا منفصلـة ومسـتقلة. ثانيًـا، يجب

---

(٤٧) Konstantin Symmons-Symonolewicz, «Book Review: *Nationalism and the State*,» *Canadian Review of Studies in Nationalism*, vol. 12, no. 2 (1985), p. 359.

(٤٨) John Breuilly, *Nationalism and the State*, 2nd ed. (Manchester: Manchester University Press, 1993), p. 1.

استقصاء كل نوع بمنهج التاريخ المقارن. وفي ضوء هذه الملاحظات، يطوّر برويللي أولًا تصنيفًا لأنواع القومية، ثم يختار بضع حالات من كل فئة ويحللها بإسهاب وتفصيل باستخدام المناهج والمفاهيم نفسها. ويؤكد أن هذا الإجراء يمكّنه من مقارنة هذه الأنواع المختلفة ومغايرتها منهجيًا[٤٩].

يميز برويللي الملامح والسمات الرئيسة لحجّته بوصفها حداثية ومعتمدة على الدولة[٥٠]. وتشير القومية، في رأيه، إلى «الحركات السياسية الساعية إلى سلطة الدولة أو إلى ممارستها وتبرير هذا العمل بالحجج القومية»، بينما تُعَدّ الحجة القومية بدورها عقيدة سياسية مرتكزة على ثلاثة توكيدات أساسية:

- توجد أمة لها شخصية واضحة وظاهرة وفريدة.
- تحظى مصالح وقيم هذه الأمّة بالأولوية على المصالح والقيم الأخرى.
- يجب أن تكون الأمّة مستقلة إلى أقصى حد ممكن. وهذا يتطلب عادة تحقيق السيادة السياسية على أقل تقدير[٥١].

يلاحظ برويللي أن القومية فُسّرت بأساليب متنوعة في الأدبيات عبر الإشارة إلى الأفكار، أو المصلحة الطبقية، أو التحديث الاقتصادي، أو الحاجات النفسية (السيكولوجية)، أو الثقافة. لكن على الرغم من أن عددًا من القوميات المحددة يمكن توضيحها وفهمها عبر مختلف الطبقات أو الأفكار أو الإنجازات الثقافية، فإن هذه العوامل كلها لا تستطيع في رأيه مساعدتنا في فهم القومية عمومًا. ويؤكد أن هذه المقاربات كلها تتجاهل نقطة حاسمة الأهمية: القومية قبل كل شيء تتعلّق بالسياسة والسياسة بالسلطة. «تتعلق السلطة في العالم الحديث بشكل رئيس بالسيطرة على الدولة». ولذلك، فإن مهمتنا المركزية هي «ربط القومية بأهداف الحصول على سلطة الدولة واستخدامها. نحن بحاجة إلى فهم لماذا أدّت القومية دورًا رئيسًا في السعي لتحقيق هذه الأهداف»[٥٢]. بكلمات أخرى، نحتاج إلى اكتشاف السبب الذي

---

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٢.

(٥٠) John Breuilly, «The State and Nationalism,» in: Montserrat Guibernau and John Hutchinson, eds., *Understanding Nationalism* (Cambridge: Polity; Malden, MA: Blackwell, 2001), p. 32.

(٥١) Breuilly, *Nationalism and the State*, p. 2.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١.

يجعل القومية تكتسب هذه الدرجة من الأهمية في السياسة الحديثة. وعندئذ فقط يمكن أن نتابع التفكير في مساهمات عوامل أخرى مثل الطبقة أو المصلحة الاقتصادية أو الثقافة. يستدعي ذلك أن تكون الخطوة الأولى في صوغ إطار تحليلي لدراسة القومية هي اعتبارها شكلًا من أشكال السياسة. يؤكد برويللي أن مثل هذه المقاربة سوف تمكّننا أيضًا من تقويم أهمية الموضوع، نظرًا إلى أن من الممكن طرح السؤال المتعلّق بحجم الدعم الذي تستطيع الحركات القومية جمعه والاستفادة منه في مجتمعها، بينما يصعب جدًا تقدير أهمية الأفكار أو العواطف(٥٣).

الإطار الرقم (٣-٣) جون برويللي

يشغل جون برويللي منصب أستاذ الدراسات القومية والإثنية في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية. درّس سابقًا التاريخ الحديث في جامعتي برمنغهام ومانشستر في الفترة بين عامي ١٩٧٢ و٢٠٠٤. أمّا أهم مساهمة له في حقل الدراسات القومية، فهي كتابه المعروف القومية والدولة (١٩٨٢).

يقول برويللي: «تطوّر اهتمامي بالقومية عبر التدريس في المقام الأول؛ إذ أرادت جماعة من المؤرخين الشبان في جامعة مانشستر في منتصف سبعينيات القرن العشرين تدريس مقرّرات عامة تتعلّق بالموضوعات بدلًا من الأماكن والحقب. تطوعت لتدريس موضوعات الدولة والأمة في التاريخ الأوروبي منذ عام ١٥٠٠. وعلى مدى أعوام عدّة، حين كنت أُعِدّ المحاضرات، وأنظّم حلقات البحث، وأضع الدرجات للمقالات والامتحانات، بحثت عن كتاب للتاريخ السياسي المقارن يركز على علاقة الدولة / الأمة لاستعماله نصًا مركزيًا. في نهاية المطاف، تبيّن لي عدم وجود مثل هذا العمل، وأن عليَّ كتابته بنفسي. فشلت تمامًا في إنتاج كتاب تعليمي مفيد لطلاب الجامعة لأن عملية الكتابة دفعتني إلى الانتقال من الأمّة إلى القومية، وتوسيع دراسة الحالة لتتجاوز تخوم أوروبا، وتفرز مقاربة عامة ورأيًا حول الموضوع. وحين نُشر الكتاب في عام ١٩٨٢، لم يكن الاهتمام بالقومية كبيرًا، وعدت غالبًا إلى اهتماماتي الأخرى، مثل ألمانيا في القرن التاسع عشر، والتاريخ المقارن الاجتماعي والفكري والحضري. تغيّرت الأمور بسرعة بعد عام ١٩٨٩ لأسباب واضحة، وغدت مشكلتي الرئيسة الآن أن أجد وقتًا كافيًا للبحث في موضوعات أخرى غير القومية!» (مراسلة شخصية).

---

(٥٣) John Breuilly, «Approaches to Nationalism,» in: Gopal Balakrishnan, ed., *Mapping the Nation*, with an Introduction by Benedict Anderson (London: Verso, 1996), p. 163.

تتألف الخطوة اللاحقة من وصل القومية بعملية التحديث. يدرك بروييللي القومية بوصفها تشمل تغييرًا جوهريًا في «التقسيم العام للعمل». أمّا أهم مرحلة في هذا التغيير، فهي الانتقال من التقسيم «المشترك» (المؤسسي) إلى التقسيم «الوظيفي» للعمل. يوجد الأول في مجتمع تؤدى فيه مجموعة من الوظائف بواسطة مؤسسات محدّدة، تمثّل عادة جماعة مميّزة. يشير بروييللي إلى النقابات بوصفها مثالًا معبّرًا عن هذه المؤسسات. سوف تؤدي النقابة المثالية ـ النمطية وظائف اقتصادية (تنظيم الإنتاج وتوزيع السلع والخدمات)؛ ووظائف ثقافية (تدريب مهني للمبتدئين، تنظيم نشاطات ترفيهية أو احتفالية رسمية لأعضاء النقابة)؛ ووظائف سياسية (إدارة المحاكم التي تفرض العقوبات على السلوك الجامح، إرسال الأعضاء إلى مجالس الحكم المحلية). في مثل هذا النظام، تكون الكنائس والمقاطعات الخاضعة لسلطة اللوردات والوحدات الإدارية الريفية، وحتى الممالك، متعدّدة الوظائف. يؤكد بروييللي أن هذا النظام تعرّض لانتقاد متزايد منذ القرن الثامن عشر وتداعى في كثير من أجزاء أوروبا الغربية والوسطى. وارتكز النظام الجديد على تقسيم مختلف للعمل، حيث تنفذ كلّ وظيفة اجتماعية رئيسة بواسطة مؤسسة محدّدة. وسُلّمت الوظائف الاقتصادية إلى أفراد أو شركات متنافسة في سوق حرة، وأصبحت الكنائس جمعيات حرة للمؤمنين، وفُوضت السلطة السياسية إلى بيروقراطيات متخصصة خاضعة لسيطرة برلمانات منتخبة أو حكام مستبدين متنورين[٥٤].

تاريخيًا، لم يكن هذا التحوّل سهلًا ولا سلسًا؛ حيث تطوّر بخطى مختلفة وطرائق متباينة. أمّا ربط هذا التحوّل بالسياسة القومية، فيشكّل الخطوة الثالثة من إطار بروييللي العام. ويؤكد أن هذا يتطلب تركيز الاهتمام على جانب واحد من التحوّل، ألا وهو تطوّر الدولة الحديثة[٥٥].

وفقًا لروييللي، تطوّرت الدولة الحديثة أصلًا بشكل ليبرالي. ومن ثم، سلّمت السلطات «العامة» إلى مؤسسات الدولة المتخصصة (البرلمانات، البيروقراطيات)، وتُرك كثير من السلطات «الخاصة» تحت سيطرة المؤسسات غير السياسية (الأسواق الحرة، الشركات الخاصة، العائلات... إلخ). شمل

---

(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

ذلك تحوّلًا مزدوجًا: «خسـرت مؤسسـات مثل الملَكية سـلطاتها «الخاصة».. كما خسرت مؤسسات أخرى مثل الكنائس، والنقابات، ومقاطعات اللوردات، سـلطاتها «العامة» لصالح الحكومات»[56]. وبهذه الطريقة، كما يتابع بروييلي، أصبـح التمايـز بين الدولة بوصفها «عامة» والمجتمـع المدني بوصفه «خاصًا» أكثر وضوحًا.

من ناحية أخرى، ومع انهيار التقسيم المشترك (المؤسسي) للعمل، ظهر الآن توكيـد جديـد على الناس بوصفهم أفرادًا لا أعضـاء في جماعات معيّنة. وتحت مثل هذه الظروف، تمثّلت المشكلة الرئيسة في كيفية ترسيخ رابطة بين الدولة والمجتمع، أو بأسلوب آخر، كيفية عقد المصالحة بين المصالح العامة للمواطنيـن والمصالـح الخاصـة للأفراد الأنانييـن. عند هذا النقطـة المفصلية بالضبط ظهرت الأفكار القومية في المشهد. يعتقد بروييلي أن الإجابات التي قُدمت عن هذا السـؤال الحاسـم في أهميته اتّخذت صيغتين رئيسـتين وأدّت القومية دورًا حاسمًا في كلتيهما[57].

كانـت الإجابة **الأولى** «سياسـية» وارتكزت على فكـرة المواطنة. في هذا الحالة، كما يلاحظ بروييلي، حُدّد مجتمع الأفراد بشـكل متزامن بوصفه كيانًا سياسيًا للمواطنين. ووفقًا لهذا الرأي، لا يمكن أن يتولد التزام بالدولة إلّا عبر المشاركة في المؤسسات الديمقراطية والليبرالية. كانت «الأمة» مجرّد هيئة من المواطنين، والمهم هو الحقوق السياسية للمواطنين لا هوياتهم الثقافية. يزعم بروييلـي أن مثـل هـذا المفهوم عـن القومية شـكّل الركيزة المؤسسـة لبرامج الوطنيين المتحمسـين في القرن الثامن عشـر. وفي أكثر أشـكاله تطرفًا ساوى بين الحرية وتطبيق مبدأ «الإرادة العامة»[58].

من ناحية أخرى، كانت الإجابة **الثانية** «ثقافية»؛ وتألفت من التشديد على الشـخصية الجمعيـة للمجتمـع. فـي البدايـة، جرى صوغهـا بواسـطة النخب

(٥٦) John Breuilly, «Nationalism and the State,» in: Roger Michener, ed., *Nationality, Patriotism, and Nationalism in Liberal Democratic Societies*, World Social Systems. Liberal Democratic Societies (St. Paul, MN: Professors World Peace Academy (PWPA), 1993), p. 22.

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٢٣، و Breuilly, «Approaches to Nationalism,» p. 165.

(٥٨) Breuilly, «Approaches to Nationalism,» p. 165.

السياسية في مواجهة مشكلتين: فكرية (كيف يمكن شرعنة عمل الدولة؟)، وسياسية (كيف يمكن تأمين دعم الجماهير وتأييدها؟). ومن ثم، تمّت معايرة هذا الحل الذي أصبح الطريقة الرئيسة لتزويد أعضاء مختلف الجماعات الاجتماعية بالهوية[٥٩].

يؤكد بروييلي أن عجز الليبرالية عن التكيّف مع المصالح الجمعية أو المجتمعية كان عاملًا حاسم الأهمية في هذا السياق. فضلًا عن ذلك، لم تجتذب الليبرالية، «أول مبدأ سياسي رئيس للحداثة»، بحسب تعبير بروييلي، كثيرًا من الجماعات، لأن النظام الذي ولّدها اعتمد غالبًا على الظلم المشيد اجتماعيًا. وفقًا لبروييلي، أصبحت هذه الجماعات طريدة سهلة للمنظّرين القوميين المتحمّسين. لكن الصورة ليست بهذه البساطة؛ إذ عقدت الأمور الحاجة «الحديثة» إلى تطوير لغات وحركات سياسية يمكن أن تجتذب سلسلة واسعة من الجماعات. وأفضل من يستطيع القيام بذلك قومية ظلت بصيغة «أيديولوجية حاذقة» تصل بين الحلين الاثنين: الأمّة بوصفها هيئة من المواطنين وجماعة ثقافية في آن معًا[٦٠].

يقدّم بروييلي الحجّة على أن الصورة العامة المرسومة إلى الآن لا تمكّننا من تحليل حركات قومية محدّدة، لأن القومية، كونها محايدة سياسيًا على الأغلب، اتخذت جملة متنوعة ومحيّرة من الأشكال. ويتطلّب استقصاء هذه الأشكال المختلفة كلها تصنيفًا ومفاهيم مساعدة تجذب انتباهنا إلى الوظائف المختلفة التي تؤديها السياسة القومية. يركز بروييلي بؤرة اهتمامه على ملمحين اثنين من ملامح الحركات القومية عند تطوير تصنيفه. يتعلق الأول بالعلاقة بين الحركة والدولة التي تعارضها أو تسيطر عليها. وفي عالم لم تصبح فيه الأمّة بعدُ المصدر الأساسي للشرعية السياسية، كانت هذه الحركات معارضة بالضرورة: «لم تتمكن الحكومات التي تشكّلت نتيجة نجاح الحركات المعارضة القومية، أو ضمّت أفكار هذه الحركات المعارضة، من جعل الحجج القومية الركيزة المؤسسة لمطالبتها بالشرعية، إلّا في مرحلة لاحقة»[٦١].

---

(٥٩) المصدر نفسه.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ١٦٦، و Breuilly, «Nationalism and the State,» pp. 23-24.

(٦١) Breuilly, «Approaches to Nationalism,» p. 166.

يتصل الجانب الثاني بأهداف الحركات القومية، ومن ثم، يمكن المعارضة القومية أن تسعى إلى الانشقاق عن الدولة الراهنة (الانفصال)، أو إعادة إصلاحها على أسس قومية (الإصلاح)، أو جمعها مع دول أخرى (التوحيد). وإضافة إلى هذين الجانبين، كما يلاحظ برويللي، يمكن الدولة التي تعارض أن تعرّف / أو لا تعرّف نفسها بوصفها دولة قومية. ويجب أن يعبر التصنيف عن هذا الفارق المميّز أيضًا لأن ذلك سيكون له مضامين معيّنة بالنسبة إلى طبيعة النزاع بين الدولة والحركة القومية المعنية. ويقوم برويللي، بعد عرضه هذه المواصفات، بتقديم تصنيفه(٦٢):

	معارِضة للدول غير القومية	معارِضة للدول القومية
الانفصال	مجرية، يونانية، نيجيرية	الباسك، إيبو
الإصلاح	تركية، يابانية	الفاشية، النازية
التوحيد	ألمانية، إيطالية	عربية، أفريقية

أخيرًا، يحدّد برويللي ثلاث وظائف مختلفة تؤدّيها الأفكار القومية: «التنسيق»، و«التعبئة»، و«الشرعية». يعني بالتنسيق استعمال الأفكار القومية «لترويج فكرة المصالح المشتركة بين عدد من النخب التي كان لها لولا ذلك مصالح واضحة في معارضة الدولة القائمة». ويعني بالتعبئة استعمال الأفكار القومية «لتوليد الدعم للحركة السياسية من جماعات واسعة استُبعدت إلى الآن من العملية السياسية». ويعني بالشرعية استعمال الأفكار القومية «لتبرير أهداف الحركة السياسية تجاه الدولة التي تعارضها والوكلاء الخارجيين الأقوياء، مثل الدول الأجنبية والرأي العام فيها»(٦٣).

بعد أن يقدّم برويللي وصفًا موجزًا للإطار، يتفحص تطور القومية في عدد من الحالات. ومثلما لاحظنا آنفًا، يشمل استقصاؤه سلسلة واسعة من الحركات القومية: من أوروبا إلى العالم العربي، ومن أفريقيا إلى شبه القارة

(٦٢) Breuilly, *Nationalism and the State*, p. 9.

(٦٣) Breuilly, «Approaches to Nationalism,» pp. 166-167.

الهندية، وحقبة زمنية طويلة تمتد من القرن الثامن عشر إلى عام ١٩٨٩. ولأن مراجعة النتائج التي توصّل إليها تتجاوز مدى هذا الكتاب، لنتحوّل الآن إلى تحليل براس لتشكّل الأمّة.

٢ ـ بول ر. براس والأدواتية

اشتهر بول براس في الأدبيات التي تتناول القومية بسبب تشديده على الطبيعة «الأدواتية» للإثنية والقومية. عمومًا، تفسّر الأدواتية بداية / واستمرار الدعم للقومية بالمصالح التي تدّعي خدمتها. ووفقًا لهذا الرأي، تصبح الهويات الإثنية والقومية أدوات مناسبة في أيدي النخب المتنافسة لتوليد الدعم الجماهيري في المسعى الشامل من أجل الوصول إلى الثروة والسلطة والمكانة[٦٤]. وفي تغاير صارخ مع دعاة النظرية البدائية الذين تعاملوا مع الإثنية بوصفها «حقيقة مقبولة» للظرف الإنساني، تؤكد هذه النخب أن الارتباطات الإثنية والقومية تخضع باستمرار لعملية إعادة تحديد وتعريف وتشييد استجابةً للظروف المتغيّرة ومخططات النخب السياسية المراوغة. يستلزم ذلك أن تكون:

دراسة الإثنية والقومية في جزء كبير منها دراسة للتغير الثقافي المحفز سياسيًا. وبأسلوب أدق، دراسة العملية التي تختار عبرها النخب والشرائح المعادية للنخب ضمن الجماعات الإثنية جوانب من ثقافة الجماعة، وتربط بها قيمة ومعاني جديدة، وتستخدمها رموزًا لتعبئة الجماعة وحشدها، والدفاع عن مصالحها، والتنافس مع الجماعات الأخرى[٦٥].

---

(٦٤) Brendan O'Leary, «Instrumentalist Theories of Nationalism,» in: Leoussi, ed., p. 148, and Anthony D. Smith, *The Ethnic Origins of Nations* (Oxford, UK; New York, NY: B. Blackwell, 1986), p. 9.

(٦٥) انظر الإطار الرقم (٣-٤)، ص ١٦٧ من هذا الكتاب، و Paul R. Brass, «Elite Groups, Symbol Manipulation, and Ethnic Identity among the Muslims of South Asia,» in: David Taylor and Malcolm Yapp, eds., *Political Identity in South Asia*, Collected Papers on South Asia; no. 2 (London: Curzon Press; Atlantic Highlands, NJ: Humanities Press, 1979), pp. 40-41.

الإطار الرقم (٣-٤)   بول ر. براس

يشغل بول براس منصب الأستاذ الفخري في كلية العلوم السياسية والدراسات الدولية في جامعة واشنطن (في سياتل). نشر أعمالًا كثيرة في مجالات السياسة المقارنة والسياسة الإثنية والعنف الجماعي في جنوب آسيا ـ اعتمادًا على بحث ميداني أجراه في ولايات أوتربراديش، وبيهار، والبنجاب، وتاميل نادو، وغوجارات، وآسام في الهند، وفي أثناء كثير من الزيارات التي قام بها منذ عام ١٩٦١. أمّا كتبه الرئيسة المنشورة، فتشمل *Ethnic Groups and the State* (الجماعات الإثنية والدولة) (١٩٨٥)؛ *Ethnicity and Nationalism: Theory and Comparison* (الإثنية والقومية: نظرية ومقارنة) (١٩٩١)؛ *Riots and Pogroms* (أعمال شغب ومذابح) (١٩٩٦)؛ *Theft of an Idol: Text and Context in the Representation of Collective Violence* (سرقة وثن: نص وسياق في تمثيل العنف الجمعي) (١٩٩٧).

قاد العمل الميداني براس إلى استنتاج أن «الإثنية والقومية لا تمثّلان «حقيقتين مقبولتين»، بل بنيتين اجتماعيتين وسياسيتين. وهما من ابتكار النخب التي اعتمدت على مواد، شوّهتها حينًا واختلقتها أحيانًا، من ثقافات الجماعات التي ترغب في تمثيلها من أجل حماية ما تتمتّع به من رفاه وخير، أو وجودها، أو لاكتساب ميزة سياسية واقتصادية لها ولجماعاتها. فضلًا عن ذلك كله، تُعَدّ الإثنية والقومية ظاهرتين حديثتين ترتبطان بصلة لا يمكن فصم عراها مع نشاطات الدولة المركزية الحديثة». يقول براس: «تفصل هذه الحجج موقفي عن موقف الكتّاب في هذا المجال الذين يعدون الإثنية والقومية انعكاسات للهويات البدائية، بعد أن عادوا إلى الماضي بحثًا عن دليل يثبت وجود الهويات الإثنية والقومية على مدى التاريخ المدون. لكن موقفي، على النقيض من ذلك، يعتمد على فكرة انبثاق الهوية الإثنية والقومية الحديثة من أنماط محدّدة من التفاعل بين قيادات المناطق المركزية ونخب الجماعات الإثنية غير المهيمنة، خصوصًا لكن ليس حصرًا، على أطراف هذه الدول». Paul R. Brass, *Ethnicity and Nationalism: Theory and Comparison* (New Delhi; Newbury Park, Calif.: Sage Publications, 1991), pp. 8-9.

قادت هذه الآراء براس إلى خوض جدل ضارٍ مع فرانسيس روبنسون (F. Robinson) حول دور النخب السياسية في العملية التي بلغت ذروتها في تشكيل دولتين قوميتين منفصلتين في شبه القارة الهندية: الهند وباكستان. سوف أترك هذا الجدل لقسم الانتقادات، وأنتقل الآن إلى تفسير براس للقومية الذي اعتُبر عمومًا مثالًا جوهريًا نموذجيًا للموقف الذرائعي.

يعتمد إطار براس النظري على عدد من الافتراضات الأساسية. يتعلق الأول بقابلية الهويات الإثنية للتغير والتبدل. في رأي براس، لا يوجد شيء حتمي في ما يتعلّق بنهوض الهويات الإثنية وتحوّلها إلى قومية. بل على العكس، لا يمكن تسييس الهويات الثقافية إلّا تحت ظروف محددة يجب تعريفها وتحليلها بعناية. ثانيًا، لا تنبثق النزاعات الإثنية من الفوارق والاختلافات الثقافية، بل من بيئة سياسية واقتصادية أوسع تشكّل أيضًا طبيعة التنافس بين جماعات النخب. ثالثًا، سوف يؤثر هذا التنافس أيضًا في تعريف الجماعات الإثنية المعنية ومثابرتها وإصرارها. ويرجع ذلك إلى أن الأشكال والقيم والممارسات الثقافية للجماعات الإثنية تصبح مصادر سياسية للنخب، تستغلها في مسعاها للتمتّع بالسلطة والمكانة والاعتبار. وهي تتحوّل إلى رموز يمكن أن تسهّل خلق هوية سياسية وتوليد دعم أكبر؛ بكلمات أخرى، تعتمد معانيها ومحتوياتها على الظروف السياسية. أخيرًا، تظهر هذه الافتراضات كلّها أن عملية تشكيل الهوية الإثنية وتحوّلها إلى قومية عملية قابلة للعكس. واعتمادًا على الظروف السياسية والاقتصادية، قد تختار النخب التقليل من شأن الفوارق الإثنية وأهميتها والسعي إلى التعاون مع جماعات أخرى أو سلطات الدولة[٦٦].

بعد أن وضع براس افتراضاته الأساسية، شرع في تطوير إطار عام للتحليل يركز على عمليات تشكيل الهوية وتغيير الهوية. يبدأ بتعريف ما يدعوه «الفئة الإثنية». وبحسب تعبيره:

تشكّل أي جماعة من الناس لا تتشابه مع الأخريات من ناحية المعايير الثقافية الموضوعية، وتضم في عضويتها، من حيث المبدأ أو من حيث الممارسة، عوامل للتقسيم الكامل للعمل ولأشكال إعادة الإنتاج، فئة إثنية[٦٧].

لكن براس يسارع إلى توكيد أن هذه «المعايير الثقافية الموضوعية» ليست ثابتة، بل هي حساسة للتغير والتنوع. فضلًا عن ذلك، كما يضيف، فإن الحدود

---

(٦٦) انظر الإطار الرقم (٣-٤)، ص ١٦٧ من هذا الكتاب، و Paul R. Brass, *Ethnicity and Nationalism: Theory and Comparison* (New Delhi; Newbury Park, Calif.: Sage Publications, 1991), pp. 13-16.

(٦٧) Brass, *Ethnicity and Nationalism*, p. 19.

الفاصلة بين مختلف الفئات الإثنية ليست واضحة تمامًا في المجتمعات ما قبل الحديثة، حيث لم تبدأ بعدُ عملية التحوّل الإثني (إلى قومية)، أو في المجتمعات ما بعد الصناعية، حيث جرى قدر كبير من الاندماج الثقافي.

تصبح الحدود المعنية أكثر وضوحًا ودقة في عملية التحوّل الإثني. في هذه العملية التي يجب تمييزها من مجرّد استمرار الفوارق الإثنية بين السكان:

يتم اختيار المؤشرات الإثنية واستعمالها بوصفها أساسًا لتمييز الجماعة من الجماعات الأخرى، بوصفها بؤرة تعزيز التضامن الداخلي للجماعة، والمطالبة بمكانة اجتماعية محدّدة، ومبرِّرًا للمطالبة إمّا بحقوق الجماعة في النظام السياسي القائم وإمّا بالاعتراف بها أمّة منفصلة إذا أصبحت الجماعة الإثنية مسيَّسة[٦٨].

يلاحظ براس أن وجود المؤشرات الثقافية الموضوعية ـ تصبح هنا الفوارق الإثنية ـ في جماعة سكانية معيّنة شرط ضروري لكن ليس كافيًا لبدء عملية التحوّل الإثني.

ثمة شرط آخر ضروري لكن ليس كافيًا أيضًا هو تنافس النخب على قيادة الجماعة الإثنية أو السيطرة على مختلف الموارد المادية المتعيّنة/ أو غير المتعيّنة. وفقًا لبراس، قد يأخذ التنافس على السيطرة المحلية أشكالًا مختلفة: تلك التي تنشأ بين المتحكمين المحليين في الأرض والسلطات الأجنبية، وبين النخب الدينية المتنافسة، وبين النخب الدينية المحلية والأرستقراطيين المحليين المتواطئين، وبين النخب الدينية المحلية والأرستقراطيين الغرباء. وهناك نمط عام آخر للمنافسة ينشأ من عمليات التحديث غير المتكافئة ويتّخذ شكل منافسة على الوظائف الحكومية والصناعية والجامعية[٦٩].

لكن وجود الفوارق الإثنية والتنافس بين النخب لا يمثّل شروطًا كافية لبدء عملية التحوّل الإثني. أمّا الشروط الكافية، كما يؤكد براس، فهي:

---

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٦٩) المصدر نفسه.

وجود الوسائل اللازمة لنقل (وبث) الرموز المختارة للهوية إلى الطبقات الاجتماعيـة الأخـرى ضمـن الجماعـة الإثنية، ووجود سـكان يمكـن تعبئتهم وحشدهم ثقافيًا يمكن أن تُنقل إليهم الرموز، وغياب أي صدع طبقي عميق أو غير ذلك من الصعوبات المعرقِلة للاتصال بين النخب والجماعات الاجتماعية والطبقات الأخرى[٧٠].

يستشـهد براس بنمو معدَّلات التعليم، وتطوّر وسـائط الاتصال ووسـائل الإعـلام الجماهيرية، ولا سـيما الصحـف، ومعايرة اللغـات المحلية، ووجود الكتـب باللغـات المحليـة، وتوافر المـدارس حيث وسـيلة التعليم هـي اللغة الأهليـة، بوصفها من العوامل الضرورية لتشـجيع الاتصال بين الطبقات. وفي إشـارة إلى دويتش، يؤكد أن نمو مرافق الاتصالات يجب أن يُسـتكمل بظهور جماعات جديدة في المجتمع «تتوافر» من أجل مزيد من الاتصالات المكثفة، وتطالـب بالتعليـم والوظائـف الجديدة فـي القطاعات الحديثة مـن الاقتصاد. بكلمات أخرى، يكون الطلب على القدر نفسه من أهمية العرض.

يلاحـظ بـراس عَرَضًـا أن الدرجة المرتفعـة من التعبئة الطائفية سـتتحقق بسـهولة أكبـر في نمطيـن اثنين من الأوضاع: أحدهما حيـث توجد نخبة دينية محلية تسـيطر على المعابد أو الأضرحة أو الكنائس والأراضي المتصلة بها ـ إضافة إلى شـبكة من المدارس الدينية، والآخر حيث تعترف سـلطات الدولة باللغة المحلية بوصفها أداة شرعية للتعليم والإدارة، ومن ثم تزويد الإنتلجنسيا المحليـة بالوسـيلة اللازمـة لتلبيـة مطامـح الجماعـات الاجتماعيـة الجديـدة للحصول على فرص التعليم والوظائف[٧١].

وفقًـا لبـراس، تُعَدّ الشـروط الضروريـة والكافية للتحوّل الإثني شـروطًا مسـبقة أيضًـا لتطوير حركـة قومية ناجحـة. ويزعم أن القوميـة بوصفها ظاهرة نخبويـة قـد تنبثق في أي وقت، حتى في المراحل المبكرة من التحوّل الإثني. لكـن علـى القومية، من أجل أن تكتسـب قاعدة جماهيريـة، أن تتجاوز مجرّد التنافس بين النخب:

(٧٠) المصدر نفسه.

(٧١) المصدر نفسه، ص ٦٣ - ٦٤.

يمكن إيجاد قاعدة جماهيرية للقومية عندما تجري منافسة واسعة النطاق بين الطبقات نتيجة حركة من أعداد كبيرة من الناس، إمّا من جماعة ريفية سابقة على الأغلب وإمّا من جماعة محرومة، إلى قطاعات اقتصادية تحتلها أساسًا جماعات إثنية أخرى. إذا واجهت مثل هذه الحركة مقاومة من الجماعة المهيمنة، بدعم ظاهر أو مضمر من سلطات الدولة، فإن الجماعة الطامحة سوف تُحشد وتعبأ بسهولة بواسطة المناشدات القومية التي تتحدّى البنية الاقتصادية القائمة والقيم الثقافية المرتبطة بها[٧٢].

من ناحية أخرى، إذا اعتبرت الجماعة المهيمنة تطلّعات الجماعة المحرومة وطموحاتها تهديدًا لمكانتها، فربما تطوِّر حركة قومية خاصة بها. يقدم براس الحجّة على أن التوزيع غير المتكافئ للجماعات الإثنية في المناطق الحضرية (المدينية) والريفية قد يفاقم الوضع، نظرًا إلى أن ذلك سوف يؤدي إلى منافسة ضارية على موارد شحيحة أو/ والسيطرة على بنية الدولة الهيكلية.

وبينما توفّر المنافسة الإثنية على الفرص الاقتصادية، أو ما يدعوه براس «المنافسة القطاعية المرتكز على السيطرة على سلطة الدولة»، القاعدة الجماهيرية للقومية، فإن المطالب المعلنة ونجاح الحركة القومية يعتمدان على عوامل سياسية. يستشهد براس بثلاثة من مثل هذه العوامل: وجود استراتيجيات تتّبعها المنظمات السياسية القومية، وطبيعة استجابة الحكومة لمطالب الجماعة الإثنية، والسياق السياسي العام[٧٣].

أ ـ التنظيم السياسي

وفقًا لبراس، القومية هي حركة سياسية بالتعريف. ومن ثم، تتطلب تنظيمًا سليمًا، وقيادة ماهرة، وموارد وافرة من أجل المنافسة بفاعلية في النظام. يضع براس خمسة اقتراحات في ما يتعلّق بالتنظيمات السياسية. أولًا، من المرجح أن تكون المنظمات/ المؤسسات التي تسيطر على الموارد المجتمعية أكثر فاعلية من تلك التي لا تسيطر. ثانيًا، من المرجح أن تكون المنظمات/ المؤسسات

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٧٣) المصدر نفسه.

التـي تنجح في ربط نفسـها بالمجتمع ككل أكثـر فاعلية من تلك التي «تكتفي بمجـرّد» تمثيـل المجتمـع، أو تلك التي تسـعى إلى تحقيـق نجاحها الخاص. ثالثًا، يجب أن تكون المنظمات / المؤسسات القومية الفاعلة قادرة على صوغ هويـة للجماعات التي تقودها. أخيرًا، من أجل أن تحقق المنظمة / المؤسسـة السياسـية النجـاح، يجب أن تكـون مهيمنة في تمثيل مصالـح الجماعة الإثنية ضد منافساتها[٧٤].

ب ـ السياسات الحكومية

يؤكد براس أن الآليات المؤسسية في الكيان السياسي المعني واستجابات الحكومات للمطالب الإثنية ربما تكون حاسمة الأهمية في تقرير قدرة جماعة معيّنـة علـى البقـاء، وتعريفهـا لنفسـها، وتحديدهـا لأهدافهـا النهائيـة. أمّـا الاسـتراتيجيات التـي تتبنّاهـا الحكومات لمنع «إعادة تسـعير النيـران الإثنية»، فتُظهـر تنوعًـا كبيـرًا، وهي تتراوح بين أشـد أشـكال القمع والاضطهـاد تطرّفًا (إبـادة جماعيـة، ترحيـل قسـري)، والسياسـات المصمَّمـة لتقويـض القاعـدة الجماهيريـة للجماعـات الإثنية (الدمج عبر المـدارس، ودمج زعماء الجماعة الإثنيـة فـي النظام). من جهة أخـرى، ربما تحاول الحكومـات تلبية المطالب الإثنية عبر اتّباع سياسـات تعدّدية. وهذه قد تشـمل ترسيخ البنى السياسية مثل الفدراليـة أو تقديـم بعـض التنازلات المحـدّدة مثل الحق فـي الحصول على التعليم باللغة المحلية[٧٥].

ج ـ السياق السياسي

العامـل الثالـث الذي قد يؤثّر فـي نجاح الحركات القومية هو السـياق السياسـي العـام. وفقًـا لبراس، هنالـك ثلاثة جوانب من السـياق السياسـي تحظـى بأهميـة خاصـة: «احتمـالات إعـادة ترتيـب القـوى والمؤسسـات والمنظمات السياسـية والاجتماعية؛ اسـتعداد النخب مـن الجماعات الإثنية المهيمنة لاقتسام السلطة مع زعماء الجماعة الإثنية الطامحة؛ توافر الميادين السياسية البديلة»[٧٦].

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٤٨ - ٤٩.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ٥٥.

يلاحظ براس أن الحاجة إلى إعادة الترتيب السياسي قد لا تنبثق في المرحلة المبكرة من تحديث المجتمعات، حيث تكون أولى الجماعات التي تنظَّم سياسيًا هي الجماعات الإثنية، أو حيث تعبّر المنظمات الرائدة عن القوميات المحلية. تنبثق هذه الحاجة حين لا تتمكّن المنظمات السياسية المحلية من التعامل بنجاح مع التغيّرات الاجتماعية التي تقوّض قواعدها الداعمة، أو في أوقات الاضطراب والجيشان الثورية. يؤكد براس أن عملية إعادة الترتيب السياسي العام سوف تؤدي إلى تأسيس منظمات قومية جديدة وتقديمها مع فرص جديدة لتأمين الدعم الجماهيري.

من ناحية أخرى، يقرر استعدادُ النخب المنتمية إلى الجماعات الإثنية المهيمنة لاقتسام السلطة السياسية طريقةَ حل النزاعات الإثنية: «حين لا يوجد هذا الاستعداد، يتجه المجتمع المعني نحو النزاع، بل حتى الحرب الأهلية والانفصال. لكن حين يوجد مثل هذه الاستعداد، تتحسن احتمالات الحلول التعددية للنزاعات الإثنية الجماعية»[٧٧].

الجانب الثالث الحاسم الأهمية في السياق السياسي العام هو توافر الميادين السياسية البديلة، والثمن الذي يجب دفعه من الجماعة الإثنية في مقابل تغيير هذه الميادين. يؤكد براس أن الدول الاتحادية التي تضم أقلية متمركزة جغرافيًا سوف تواجه حتمًا عند مرحلة ما مطالب نزع المركزية الإدارية و/ أو السياسية، إذا لم تلبِّ السلطات السياسية الحاجات السياسية لهذه الأقليات بصورة كافية. وتحت مثل هذه الظروف، قد تختار الحكومات إعادة تنظيم الميادين السياسية القديمة، أو بناء أخرى جديدة لتلبية المطالب الإثنية. ووفقًا لبراس، يؤدي استخدام هذه الاستراتيجيات وظيفته على أفضل وجه تحت الظروف الآتية: حيث يوجد نظام مفتوح نسبيًا من المساومة والمنافسة السياسية؛ حيث يتوافر توزيع عقلاني رشيد للسلطة بين الوحدات الفدرالية (الاتحادية) والمحلية بحيث لا يغلق استيلاء جماعة إثنية واحدة على السلطة على مستوى القنوات كلها المهمة للسلطة؛ حيث لا تتشابك النزاعات الإثنية مع الاختلافات

---

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٥٧ - ٥٨.

الأيديولوجيـة بين أنصـار التوحيد ودعاة الفدراليـة؛ حيث لا تكون القوى الخارجية راغبة في التدخّل[٧٨].

يزعم براس أن غياب أي من هذه الظروف ربما يؤدي إلى فشل الحلول التعدّديـة (أو الفدرالية)، وإلى حرب أهليـة أو انفصال. لكن كما يضيف، يُعَدّ الانفصال اسـتراتيجيا مرتفعة التكلفة لن تتبنّاها أغلبية النخب إلّا إذا استنفدت البدائـل الأخرى كلها، وظهر احتمال معقـول للتدخّل الخارجي لصالحها[٧٩]. ونتيجـة لذلـك، كان من النادر تبنـي الانفصال بوصفه اسـتراتيجيا لحل النزاع الإثني في الحقبة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية.

من الصعب أن نفي هذه النظرية المعقّدة حقها في بضع صفحات. يكفي القـول إن المنافسـة والمناورة بين النخب تظلان، فـي رأي براس أو برأي أي مناصر للمذهب الذرائعي في هذا السياق، المفتاح لفهم القومية.

٣ ـ إريك هوبزباوم واختراع التراث

المـؤرخ الماركسـي البـارز إريـك هوبزبـاوم باحث أكاديمي آخر يسـلط الضوء على دور التحوّلات السياسـية في فهم القومية. وتشـكّل آراؤه المتعلّقة بالقوميـة جـزءًا مـن مشـروعه الأوسـع لكتابـة تاريـخ الحداثـة[٨٠]. وقد جمع أطروحاتـه فـي كتـاب *The Invention of Tradition* **(اختـراع التـراث)** (١٩٨٣)، الـذي ألّفـه بالاشـتراك مـع تيرنـس رينجـر (T. Ranger)، وكتـاب *Nations and Nationality since 1780: Programme, Myth, and Reality* **(الأمم والقومية منذ عام ١٧٨٠: البرنامج والأسطورة والحقيقة)** (١٩٩٠) الذي تألّف من المحاضرات التي ألقاها في جامعة كوين في بلفاست عام ١٩٨٥.

وفقًـا لهوبزباوم، تُعَدّ الأمم والقومية نتاجًا لـ«الهندسـة الاجتماعية». وما يسـتحق انتباهًا خاصًا في هذه العملية هو حالـة «اختراع التقاليد التراثية» التي يعنـي بهـا «جملة مـن الممارسـات، المحكومة عادة بشـكل علنـي أو ضمني

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٦٠ – ٦١.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٨٠) انظر الإطار الرقم (٣-٥)، ص ١٧٦ من هذا الكتاب.

بقواعد وقوانين مقبولة، ومن طبيعة شعائرية أو رمزية، تسعى إلى غرس قيم ومعايير سلوكية معيّنة عبر التكرار الذي يتضمن آليًا الاستمرارية مع الماضي»[٨١].

يؤكد هوبزباوم أن «الأمّة» وأدواتها هي الأكثر شيوعًا وانتشارًا من هذه التقاليد التراثية المختَرَعة. وعلى الرغم من جدّتها التاريخية، فإنها ترسّخ استمرارية مع الماضي المناسب، و«تستخدم التاريخ مشرعنًا للعمل وداعمًا للُحْمة الجماعة»[٨٢]. وفي رأي هوبزباوم، تكون هذه الاستمرارية متخيَّلة غالبًا. أمّا التقاليد التراثية المخترعة، فهي «استجابات لحالات جديدة تأخذ شكل إشارة مرجعية إلى حالات قديمة». ولتوضيح هذه النقطة، يستشهد بالاختيار المقصود للأسلوب القوطي لإعادة بناء البرلمان البريطاني في القرن التاسع عشر[٨٣].

يميّز هوبزباوم بين عمليتين من الاختراع: تعديل التقاليد التراثية والمؤسسات القديمة لتلائم المؤسسات الجديدة، والابتكار المتعمّد لتقاليد تراثية «جديدة» لأغراض جديدة تمامًا. يمكن العثور على النوع الأول في المجتمعات كلها، ومنها ما يسمّى ـ «التقليدية» كما هي الحال في مواجهة الكنيسة الكاثوليكية للتحديات الأيديولوجية والسياسية الجديدة، أو مواجهة الجيوش المحترفة للتجنيد الإلزامي. لكن الحالة الأخيرة لا تحدث إلّا في فترات التغيّر الاجتماعي السريع، حين تشتد الحاجة إلى إيجاد نظام ووحدة. وهذا يفسر أهمية فكرة «المجتمع الوطني» التي يمكن أن تضمن اللُحمة والتماسك في وجه التشظّي والتفكّك جرّاء التصنيع السريع[٨٤].

وفقًا لهوبزباوم، يمكن اعتبار الحقبة الممتدة بين عامي ١٨٧٠ و١٩١٤، التي تزامنت مع ظهور السياسة الجماهيرية، ذروة التقاليد التراثية المختَرَعة. أمّا اقتحام الشرائح التي أُقصيت إلى الآن عن المجتمع ميدان السياسة، فقد

(٨١) Eric J. Hobsbawm and Terence Ranger, eds., *The Invention of Tradition*, Past and Present Publications (Cambridge, [Cambridgeshire]; New York: Cambridge University Press, 1983), p. 1.

(٨٢) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٨٣) المصدر نفسه، ص ٢.

(٨٤) المصدر نفسه، الفصل ٧.

أثار مشكلات غير مسبوقة للحكام الذين وجدوا أنه يصعب باطّراد الحفاظ على طاعة رعيتهم وولائهم وتعاونهم ـ بعد أن أصبحوا الآن يُعرفون باسم المواطنين، حيث جرى الاعتراف بنشاطاتهم السياسية بوصفها شيئًا يجب أخذه في الحسبان، على الأقل بشكل انتخابات[85].

كان «اختراع التراث» الاستراتيجيا الرئيسة التي تبنّتها النخب الحاكمة لمواجهة التهديد القادم من الديمقراطية الجماهيرية. [هنا] يختار هوبزباوم ثلاثة اختراعات رئيسة في هذا العصر بوصفها وثيقة الصلة على نحو خاص: تطوُّر التعليم الأساسي، وابتكار المراسم الشعائرية العامة (مثل عيد سقوط الباستيل)، والإنتاج بالجملة للنُصُب التذكارية العامة[86]. ونتيجة لهذه العمليات، «أصبحت القومية بديلًا من لُحمة الاجتماعية عبر كنيسة وطنية، أو أسرة مالكة، أو تقاليد تراثية أخرى متماسكة، أو مثيلات ذاتية لجماعة جمعية، أو دين علماني جديد»[87]. ونظرًا إلى أن معظم ما يكوّن «الأمّة» الحديثة ذاتيًا مؤلَّف من مثل هذه البنى الذهنية المركّبة ومرتبط بالرموز الملائمة، أو الحديثة عمومًا، أو خطاب مفصل بشكل مناسب (مثل التاريخ «الوطني»)، لا يمكن للظاهرة القومية أن تحظى بما يكفي من الاستقصاء من دون تركيز انتباه دقيق على «اختراع التراث»[88].

الإطار الرقم (٣-٥)　　إريك ج. هوبزباوم

يعتبر كثيرون هوبزباوم أبرز مؤرخ ماركسي في القرن العشرين. درّس التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في كلية بيربيك في جامعة لندن، إلى أن تقاعد في عام ١٩٨٢. ثم انتقل إلى التدريس في الكلية الجديدة للأبحاث الاجتماعية في نيويورك. ألّف ثلاثة وعشرين كتابًا في التاريخ، منها ثلاثية عن القرن التاسع عشر حظيت بالتقدير والإعجاب والاهتمام. أمّا أطروحته الرئيسة عن القومية، فعرضها في كتابه اختراع التراث (بالاشتراك مع تيرنس رينجر، ١٩٨٣)، وفي كتاب الأمم والقومية منذ عام ١٧٨٠: البرنامج والأسطورة والحقيقة (١٩٩٠).

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.
(٨٦) المصدر نفسه، ص ٢٧٠ - ٢٧١.
(٨٧) المصدر نفسه، ص ٣٠٣.
(٨٨) المصدر نفسه، ص ١٤.

يكتب هوبزباوم في سيرته الذاتية *Interesting Times* (عصر مثير) (٢٠٠٢) قائلًا: «بدءًا من الميزة الهائلة لخلفية في إمبراطورية هابسبورغ القديمة، عرفت نفسي في جملة إي. إم. فورستر عن سي. بي. كافافي، الشاعر اليوناني الناطق بالإنكليزية من مسقط رأسي الإسكندرية، الذي «نظر إلى الكون من زاوية مفتوحة».. ظل وضعي هكذا طوال معظم أعوام حياتي: عشت في قالب منمط نتيجة الولادة في مصر التي لم تؤثر عمليًا في تاريخ حياتي، كأنما ولِدت في مكان آخر. ارتبطتُ بالكثير من البلدان، وشعرتُ بأنها وطني الأم، وعرفتُ كثيرًا غيرها. لكن في هذه البلدان كلها، ومنها البلد الذي ولِدت وأنا أحمل جنسيته، لم أكن بالضرورة غريبًا، بل شخص لا ينتمي كليًا إلى البلد الذي يجد نفسه فيه، بغضّ النظر عمّا إذا كان إنكليزيًا بين أهالي وسط أوروبا، أو مهاجرًا من القارة في بريطانيا، أو يهوديًا في كل مكان ـ حتى، بل ولا سيما في إسرائيل ـ أو معاديًا للتخصص في عالم المختصين، ومتعدد اللغات والثقافات، ومثقفًا كرّس سياسته وأعماله الأكاديمية لغير المثقفين، بل كنت على مدى معظم أعوام العمر شذوذًا بين الشيوعيين، وهم أنفسهم أقلية من البشر السياسيين في البلدان التي عرفتها. لقد عقّد ذلك كله حياتي كإنسان، لكنه كان مصدر قوة مهنية للمؤرخ» Eric J. Hobsbawm, *Interesting Times: A Twentieth-Century Life* (London: Abacus, 2002), pp. 415-416; Tristram Hunt, «Man of the Extreme Century,» *Observer*, 22/9/2002; Perry Anderson, «The Age of EJH,» *London Review of Books*, vol. 24, no. 19 (October 2002), and John Crace, «Living History,» *BBK Magazine*, no. 22 (Summer 2007).

[تحوّلت «الثلاثية» إلى «رباعية» عندما استكمل إريك هوبزباوم هذه السلسلة بإصدار كتاب عن تاريخ القرن العشرين. انظر: Eric Hobsbawm: *The Age of Revolution*; *The Age of Capital*; *The Age of Empire*, and *The Age of Extreme*. (المحرر)].

في ضوء هذه الملاحظات، يوافق هوبزباوم على تعريف غيلنر للقومية في كتبه اللاحقة ـ «مبدأ يؤمن بأن الوحدة السياسية والوطنية يجب أن تكون منسجمة ومتطابقة»[٨٩]. وضمن هذا المبدأ، في رأيه أيضًا، أن واجبات المواطنين السياسية تجاه الأمّة تجبُّ الواجبات الأخرى كلها. وهذا ما يميز

---

(٨٩) Eric J. Hobsbawm, *Nations and Nationalism Since 1780: Programme, Myth, Reality*, Wiles Lectures (Cambridge, [England]; New York: Cambridge University Press, 1990), p. 9, and Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Oxford: Blackwell, 1983), p. 1.

انظر الفقرات اللاحقة للاطلاع على نظرية غيلنر عن القومية.

القوميـة الحديثـة مـن الأشـكال السـابقة مـن الرابطـة الجماعيـة الأقـل تطلبًا وشـروطًا. ويُبطل هذا المفهوم عن القومية الفهم «البدائي» للأمّة الذي يتعامل معهـا بوصفهـا «حقيقة مقبولة» وصنفًا ثابتًا لا يتغيّـر. يؤكد هوبزباوم أن الأمم تنتمي إلى حقبة خاصة حديثة تاريخيًا. ولا معنى للحديث عن أمم قبل نهوض الدولـة الإقليمية الحديثة، نظرًا إلى الرابطة الوثيقة التي تجمعهما معًا(٩٠). هنا، يذعن هوبزباوم لغيلنر مرة أخرى:

تُعَدّ الأمم، بوصفها طريقة طبيعية وربانية لتصنيف البشر، ومصيرًا سياسيًا متأصلًا، مع أنه مؤخر كثيرًا، مجرّد أسـطورة؛ أمّا القومية التي تأخذ في بعض الأحيان ثقافات موجودة مسبقًا وتحوّلها إلى أمم، وتخترعها في أحيان أخرى، وكثيرًا ما تلغي الثقافات الموجودة مسـبقًا، فإنها حقيقة، وحقيقة يتعذّر النجاة من إسارها عمومًا(٩١).

باختصار، «الأمم لا تصنع الدول والقوميات، بل العكس هو الصحيح»(٩٢).

وفقًـا لهوبزبـاوم، يجب البحث عـن أصول القومية عند نقطة تقاطع السياسـة والتقانة والتحوّل الاجتماعي؛ فالأمم ليست مجرّد نواتج للمسعى الهادف إلى إقامة دولـة إقليميـة؛ ولا يمكـن أن توجد إلّا في سياق مرحلة معيّنة مـن التطور التقاني والاقتصادي. على سبيل المثال، لا يمكن للغات الوطنية أن تظهر بوصفها كذلك قبل اختراع الطباعة وانتشار التعليم بين شرائح واسعة من المجتمع، ومن ثم التعليم الجماهيري. يُظهر ذلك، وفقًا لهوبزباوم، أن الأمم والقومية ظاهرة مزدوجة، «مبنية جوهريًـا مـن القمة، لكن يتعذّر فهمهـا إلّا إذا جرى تحليلها من القاعدة، أي في ما يتعلّـق بافتراضـات النـاس العاديـين وآمالهـم وحاجاتهـم وتطلعاتهـم واهتماماتهم ومصالحهم، وهي ليست بالضرورة وطنية، فضلًا عن أنها ليست قومية»(٩٣).

يجـد هوبزباوم تفسـير غيلنر ناقصًـا من هذه الناحيـة لأن الأخير لا يركز انتباهًـا كافيًا على المشـهد الظاهر مـن القاعدة. من الواضح أن اكتشـاف آراء

---

(٩٠) Hobsbawm, *Nations and Nationalism Since 1780*, pp. 9-10.

(٩١) Gellner, *Nations and Nationalism*, pp. 48-49.

(٩٢) Hobsbawm, *Nations and Nationalism Since 1780*, p. 10.

(٩٣) المصدر نفسه.

الناس العاديين وحاجاتهم ليست عملية سهلة. لكن، كما يتابع هوبزباوم، يمكن التوصّل إلى نتائج أولية من كتابات المؤرخين الاجتماعيين. ويقترح ثلاثًا من مثل هذه النتائج المستخلصة. أولًا، لا تُعَدّ الأيديولوجيات الرسمية للدول والحركات دلائل إرشادية موثوقة في ما يتعلّق بأفكار الناس العاديين، بل حتى أشد المواطنين ولاء وإخلاصًا. ثانيًا، لا يمكننا الافتراض أن رابطة التماهي القومية بالنسبة إلى معظم الناس متفوقة دائمًا وأبدًا على الأشكال الأخرى من الروابط والهويات التي تكوّن الكائن الاجتماعي. ثالثًا، يمكن لرابطة التماهي الوطنية وما تعنيه من دلالة لكل فرد أن تتغيّر بمرور الوقت، حتى في أثناء الفترات الزمنية القصيرة[٩٤].

عمومًا، يحدّد هوبزباوم ثلاث مراحل في تاريخ ارتقاء القومية. تشمل المرحلة الأولى الحقبة الممتدة من الثورة الفرنسية إلى عام ١٩١٨، حين ولِدت القومية واكتسبت قاعدة انطلاق سريع. وفي هذه المرحلة يميّز هوبزباوم بين نوعين من القومية: أولهما النوع الذي غيّر خريطة أوروبا بين عامي ١٨٣٠ و١٨٧٠، وهو القومية الديمقراطية لـ«الأمم الكبرى» التي انبثقت من مُثُل الثورة الفرنسية، وثانيهما النوع الذي انتقل إلى الواجهة منذ عام ١٨٧٠، وهو القوميات الرجعية لـ«الأمم الصغرى»، التي عارضت أغلبيتها سياسات الإمبراطوريتين العثمانية والقيصرية وإمبراطورية هابسبورغ[٩٥].

تشمل المرحلة الثانية في رأي هوبزباوم الحقبة الممتدة بين عامي ١٩١٨ و١٩٥٠. ويعتقد أن هذه الحقبة تجسّد «ذروة القومية»، لا بسبب نهوض الفاشية، بل نتيجة تنامي العاطفة الوطنية على اليسار، كما تمثّلت نموذجيًا في مسار الحرب الأهلية الإسبانية. يزعم هوبزباوم أن القومية اكتسبت رابطة متينة مع اليسار في أثناء حقبة مناهضة الفاشية؛ «رابطة تعزّزت لاحقًا بتجربة الكفاح ضد الاستعمار في البلدان المستعمَرة». بالنسبة إلى هوبزباوم، ليست القومية المقاتلة أكثر من تمظهر لليأس، طوباوية «أولئك الذين فقدوا الطوباويات القديمة لعصر الأنوار»[٩٦].

(٩٤) المصدر نفسه، ص ١٠ - ١١.

(٩٥) المصدر نفسه، الفصل ١.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ١٤٤ و١٤٨.

يشـكّل أواخر القرن العشـرين المرحلـة الأخيرة وفقًا لتقسـيم هوبزباوم. ويؤكد أن قوميات هذه الحقبة مختلفة وظيفيًا عن تلك التي ظهرت في الحقب السابقة. إذ كانت قوميات القرنين التاسع عشر والعشرين «توحيدية وانعتاقية»، وجسّدت «الحقيقة المركزية للتحوّل التاريخي». لكن القومية في أواخر القرن العشرين لم تعد «مسارًا رئيسًا للتطور التاريخي»[٩٧]. بل هي:

سـلبية فـي الجوهر، أو بالأحـرى مثيرة للنـزاع والخـلاف.. وبمعنى من المعانـي ربما تُعَدّ خليفة، وأحيانًا وارثـة، للحركات الوطنية الصغيرة الموجّهة ضـد الإمبراطوريتيـن العثمانية والقيصريـة وإمبراطورية هابسـبورغ. ومرة بعد مـرة، تبـدو وكأنها ردّات أفعـال على الضعـف والخوف، ومحـاولات لإقامة متاريس لصد قوى العالم الحديث[٩٨].

يستشـهد هوبزباوم بقوميـات كيبك وويلز وإسـتونيا لتوضيح هذا الزعم، ويقدّم الحجّة على أن «القومية، على الرغم من وضوح أهميتها وبروز مكانتها، أقل أهمية على الصعيد التاريخي»؛ إذ على الرغم من كل شـيء، يعني التقدّم السـريع الذي حققـه المؤرخون الآن في تحليل القوميـة أن الظاهرة تجاوزت نقطة الذروة. ويستنتج هوبزباوم أن «بومة مينرفا التي تجلب الحكمة، كما قال هيغل، طارت في الغسـق. ومن العلامات الدلالية المبشّـرة بالخير أنها تحوم الآن فوق الأمم والقومية»[٩٩].

رابعًا: التحوّلات الاجتماعية / الثقافية

تشـدّد المجموعة الأخيـرة من النظريات التي سأناقشـها في هذا الفصل على أهمية التحوّلات الاجتماعية / الثقافية في فهم القومية. سوف أراجع في هـذا القسـم التحليليـن المهمّيـن والمؤثّريـن اللذيـن قدّمهمـا إرنسـت غيلنر

---

(٩٧) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(٩٨) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ١٨١ و١٨٣، و Wade Matthews, «Class, Nation, and Capitalist Globalization: Eric Hobsbawm and the National Question,» *International Review of Social History*, vol. 53, no. 1 (2008), pp. 87-94.

وبينيديكت أندرسون، وأختتم القسم بتقويم لتفسير ميروسلاف هروش لنهوض الحركات الوطنية بين «الأمم الصغيرة» في وسط أوروبا وشرقها.

١ - إرنست غيلنر والثقافات العليا

تُعَدّ نظرية غيلنر عمومًا أهم محاولة للعثور على معنى منطقي مترابط في القومية. وأقرّ بأصالة تحليله حتى أشد منتقديه حماسة. وهكذا، يصف توم نيرن كتاب غيلنر **الفكر والتغيير** (١٩٦٤) (*Thought and Change*) بأنه «أهم الدراسات الحديثة باللغة الإنكليزية وأكثرها نفوذًا وتأثيرًا»(١٠٠). أمّا أنتوني د. سميث الذي كتب أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه تحت إشراف غيلنر في عام ١٩٦٦، فيُعِدّ نظريته «واحدة من أكثر المحاولات لفهم ظاهرة القومية الكلية الحضور تعقيدًا وأصالة»(١٠١). في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب **أمم وقومية** (٢٠٠٦)، يؤكد جون بروييلي أن «كتاب غيلنر ما زال يمثّل أهم محاولة مفردة لتقديم نظرية عن القومية ككل»(١٠٢). أمّا الترجمة الإنكليزية للكتاب، فأُعيد طبعها تسع عشرة مرة، وبيع منها ١٦٠,٠٠٠ نسخة منذ نُشرت أول مرة في عام ١٩٨٣، فضلًا عن الدراسات والمراجعات النقدية المتعدّدة التي كُرّست لنظرية غيلنر أو أعماله عمومًا(١٠٣).

تكمن أصالة تحليل غيلنر في مداه النظري الواسع؛ فالأطروحة التي عرضها أولًا في الفصل السابع من كتاب **الفكر والتغيير** تجاوزت أطروحات أسلافه في ما يتعلق بالمدى والتفصيل. لكن المدى الواسع لتحليله جعله أيضًا هدفًا لعدد كبير من الانتقادات. في الحقيقة، لم يكن غيلنر متحفّظًا أو

(١٠٠) Nairn, *The Break-up of Britain*, p. 96.

(١٠١) Anthony D. Smith, *Theories of Nationalism*, 2nd ed. (London: Duckworth, 1983), p. 109.

(١٠٢) John Breuilly, «Introduction,» in: Ernest Gellner, *Nations and Nationalism*, Introduction by John Breuilly, New Perspectives on the Past, 2nd ed. (Malden, MA: Blackwell Pub., 2006), p. liii.

(١٠٣) John A. Hall and Ian Charles Jarvie, eds., *The Social Philosophy of Ernest Gellner*, Poznań Studies in the Philosophy of the Sciences and the Humanities; no. 48 (Atlanta, GA; Amsterdam: Rodopi, 1996); Hall, ed., *The State of the Nation*, and Siniša Malešević and Mark Haugaard, eds., *Ernest Gellner and Contemporary Social Thought* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 2007).

للاطلاع على أرقام المبيعات انظر: Breuilly, «Introduction,» p. xiii.

متواضعًا عندما قدّم نظريته. يقول: «ثمة نموذج نظري متوافر، بدءًا من التعميمات المعقولة إلى أبعد حد، التي لا يمكن معارضتها بصورة جدية، بالاقتران ببيانات ومعطيات متاحة في ما يتعلّق بتحوّل المجتمع في القرن التاسع عشر، يفسر فعلًا الظاهرة المعنية». وبعد تقديم ملخص وجيز للنموذج، يستنتج:

تبدو الحجّة لي إقليدية فعليًا في منطقها المقْنع. يبدو لي من المستحيل مواجهة هذه الروابط المنطقية الواضحة من دون الموافقة عليها.. والحقيقة المؤسفة أن عددًا مذهلًا من الأشخاص فشلوا في قبول النظرية حتى حين واجهتهم(١٠٤).

يمكن فهم نظرية غيلنر بصورة أفضل ضمن سياق التراث الاجتماعي الطويل الذي تعود أصوله إلى دوركهايم وفيبر. أمّا الملمح الرئيس لهذا التراث، فهو التمييز بين المجتمعات «التقليدية» والمجتمعات «الحديثة». وباتّباع خطى الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع، يفترض غيلنر وجود ثلاث مراحل في التاريخ البشري: مرحلة الصيد ـ جمع الثمار، ومرحلة المعرفة والدراية بالزراعة، ومرحلة الصناعة. يشكّل هذا التمييز ركيزة تفسير غيلنر الذي يقدمه بوصفه بديلًا من «النظريات المغلوطة للقومية». ويحدّد أربعًا من مثل هذه النظريات: النظرية القومية التي ترى القومية ظاهرة طبيعية، وبديهية، ومتولدة ذاتيًا؛ نظرية إيلي كدوري التي تتعامل معها باعتبارها «عاقبة مصطنعة لأفكار لم تكن قط بحاجة إلى صوغ، وظهرت عبر حادث مؤسف»؛ «نظرية العنوان الخاطئ» التي فضّلها الماركسيون وتفترض أن «رسالة اليقظة كانت موجّهة إلى الطبقات، لكن سُلّمت إلى الأمم نتيجة خطأ بريدي مروّع»؛ «نظرية الآلهة الدكناء» التي يتقاسمها المغرمون بالقومية والكارهون لها، وتعدّها «إعادة ظهور لقوى الأسلاف في [روابط] الدم أو الأرض»(١٠٥).

---

(١٠٤) Ernest Gellner, «The Coming of Nationalism and its Interpretation: The Myth of Nation and Class,» in: Balakrishnan, ed., pp. 98 and 110-111.

(١٠٥) Gellner, *Nations and Nationalism*, pp. 129-130.

الإطار الرقم (٣-٦)   إرنست غيلنر

ولد إرنست غيلنر، الفيلسوف وعالِم الاجتماع والأنثروبولوجيا، في باريس عام ١٩٢٥ ونشأ في براغ. في عام ١٩٦٢ عمل أستاذًا للفلسفة والمنطق والمنهج العلمي في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية. وفي أعقاب عقد من النجاح في التدريس في كلية الأنثروبولوجيا الاجتماعية في جامعة كمبريدج، تقاعد في عام ١٩٩٣ ليرئس مركز دراسة القومية الجديد في الجامعة الأوروبية المركزية في براغ. توفي في مطار براغ عام ١٩٩٥. من كتبه عن القومية: الفكر والتغيير (١٩٦٤)، وأمم وقومية (١٩٨٣)، و *Encounters with Nationalism* (مواجهات مع القومية) (١٩٩٥) والقومية (١٩٩٧) الذي نُشر بعد وفاته.

«إن ظروف حياة غيلنر.. قد جعلت من المستحيل عليه تمامًا تجاهل القومية»، كما يقول جون أ. هول في مقدمته لكتاب *The State of the Nation* (دولة الأمّة) وهو عبارة عن مجموعة من المقالات حول نظرية غيلنر عن القومية.

John A. Hall, ed., *The State of the Nation: Ernest Gellner and the Theory of Nationalism* (New York: Cambridge University Press, 1998), p. 1.

يؤكد غيلنر بالقول: «أنا حساس في العمق لسحر القومية الطاغي. أستطيع أن أعزف بفمي نحو ثلاثين أغنية من فولكلور بوهيميا (أو أغنيات سمعتها في شبابي بوصفها كذلك). أمّا أقدم أصدقائي الذي عرفته مذ كنت في الثالثة أو الرابعة، فهو تشيكي ووطني متحمس، ولا يمكن أن يتحمّل سماع هذه الأغنيات مني لأنه يقول إنني أغنّيها بطريقة عاطفية مفرطة: «أغنيها نواحًا من فرط التأثر». لا أعتقد أنني كنت قادرًا على تأليف الكتاب الذي ألّفته عن القومية لو لم أكن قادرًا على البكاء، بمساعدة قدح من الشراب، وأنا أردد الأغنيات الفولكلورية التي تمثل الشكل الموسيقي المفضَّل لدي. حضرت عروضًا فولكلورية مختارة، لكن الذهاب إلى كوفنت غاردن [في لندن]، أو ناردوني ديفادولو [في براغ]، لا يستحثه سوى الواجب الاجتماعي أو دافع تقليد النخبة الراقية». Ernest Gellner, «Reply to Critics,» in: John A. Hall and Ian Charles Jarvie, eds., *The Social Philosophy of Ernest Gellner*, Poznań Studies in the Philosophy of the Sciences and the Humanities; no. 48 (Atlanta, GA; Amsterdam: Rodopi, 1996), pp. 624-625.

يكتب في موضع آخر: «لا يمكن إنكار كثافة الشعور وعمقه، أو حتى رفضه وازدرائه. بل على العكس، فهو يشكّل واحدًا من الركائز المفتاحية للموقف برمته. وهذا بالضبط هو المدرك بصورة كاملة، ويجب تفسيره.. أما التفسير الذي يجب تقديمه فقد يكون أو لا يكون صحيحًا: هذه قضية أخرى، يجب أن تترك لحكم الآخرين. لكن، ببساطة، يتعذر إنكار أو تجاهل كثافة الشعور بالقومية وأصالته».

Ernest Gellner, *Nationalism* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1997), p. 12, and The Ernest Gellner Resource Site (1999), <http://www.lse.ac.uk/collections/gellner/>.

من ناحية أخرى، يرى غيلنر أن «القومية مبدأ سياسي أساسًا يؤكد أن الوحدة السياسية والوطنية يجب أن تكون منسجمة ومتطابقة»[١٠٦]. وهي أيضًا ملمح جوهري من ملامح العالم الحديث لأن الوحدات السياسية في معظم حقب التاريخ البشري لم تكن منظّمة على أساس المبادئ القومية. ونادرًا ما تطابقت حدود الدول ـ المدن، أو الكيانات الإقطاعية، أو الإمبراطوريات مع حدود الأمم. في العصور قبل الحديثة، لم تكن جنسية الحكام مهمّة للمحكومين؛ ما كان يهمّهم هو هل الحكام أكثر عدلًا ورحمة من أسلافهم[١٠٧]. ولم تصبح القومية ضرورة سوسيولوجية إلّا في العالم الحديث، وتتمثّل مهمّة نظرية القومية في تفسير كيف ولماذا حدث ذلك[١٠٨].

يحاول غيلنر تفسير غياب الأمم والقوميات في العصور قبل الحديثة عبر الإشارة إلى العلاقة بين «السلطة» و«الثقافة». ولا يتوقف طويلًا عند المرحلة الأولى، مرحلة الصيد ـ جمع الثمار، نظرًا إلى عدم وجود دول في تلك المرحلة، ومن ثم عدم وجود مجال للقومية التي تميل إلى منح الثقافة الوطنية سقفًا سياسيًا. من ناحية أخرى، تتميز المجتمعات التي تملك الدراية والمعرفة بالزراعة بنظام معقّد ومستقر لإضفاء الهيبة والمكانة والاعتبار: «التمتع بالمكانة، والحصول على حقوقها ومزاياها، يمثّلان عمومًا أهم الاعتبارات لأعضاء مثل هذا المجتمع. فالإنسان هو منزلته ومرتبته ومكانته»[١٠٩]. في مثل هذا المجتمع، لا تنزع السلطة والثقافة، الشريكتان المحتملتان المحتم عليهما البقاء معًا وفقًا لنظرية القومية، إلى الاجتماع معًا؛ إذ تستخدم الطبقة الحاكمة، المؤلفة من المحاربين والكهنة ورجال الدِّين والمسؤولين الإداريين والتجار الأثرياء، الثقافة لتمييز نفسها من الأغلبية الساحقة من المنتجين الزراعيين المباشرين الذين يقتصر وجودهم على المجتمعات المحلية الصغيرة، حيث الثقافة غير مرئية تقريبًا[١١٠]. أمّا الاتصال في هذه الوحدات المغلقة ذاتيًا، فهو

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ١.

(١٠٧) Ernest Gellner, *Thought and Change* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1964), p. 153.

(١٠٨) Gellner: *Nations and Nationalism*, p. 6, and «The Coming of Nationalism and its Interpretation,» p. 98.

(١٠٩) Gellner, «The Coming of Nationalism and its Interpretation,» p. 100-101.

(١١٠) Gellner, *Nations and Nationalism*, pp. 9-10 and 12.

«سياقي» ومغاير للاتصال «المتحرر من السياق» للطبقة المتعلمة. ومن ثم، يتميز هذا النوع من المجتمع بـ«التناقض، وأحيانًا بالنزاع، بين ثقافة عليا ودنيا»[111]. لا يوجد باعث محفز للحكام لفرض التجانس الثقافي على رعيتهم؛ بل على العكس، فهم يستفيدون من التنوع. أمّا الطبقة الوحيدة التي ربما تستفيد من فرض بعض المعايير الثقافية المشتركة فهي الإنتلجنسيا، لكنها لا تملك الوسائل اللازمة لدمج الجماهير في الثقافة العليا[112]. النتيجة الإجمالية لغيلنر مباشرة وصريحة: نظرًا إلى عدم وجود تجانس ثقافي في المجتمعات التي تتمتع بالمعرفة بالزراعة، لا يمكن أن توجد أمم.

يفترض غيلنر وجود علاقة مختلفة تمامًا بين السلطة والثقافة في المجتمعات الصناعية. الآن، «تنتشر في المجتمع كله ثقافة عليا، تحدّده وتعرّفه، وتكون بحاجة إلى الاستدامة عبر كيان سياسي»[113]. لا تُعَدّ الثقافة المشتركة ضرورية للحفاظ على النظام الاجتماعي في المجتمع العارف بالزراعة، نظرًا إلى أن المكانة، أي مكان الفرد في نظام الأدوار الاجتماعية، معزوة ومنسوبة (إلى الفرد). في مثل هذه المجتمعات، تكتفي الثقافة بتوكيد البنية الهيكلية وتعزيز الولاءات القائمة. وعلى العكس من ذلك، تؤدي الثقافة دورًا أكثر فاعلية ونشاطًا في المجتمعات الصناعية التي تتميز بمستويات مرتفعة من الحراك الاجتماعي، وحيث الأدوار لا تُعزى إلى الأفراد أو تُنسب إليهم. كما أن طبيعة العمل مختلفة تمامًا عنها في المجتمعات العارفة بالزراعة:

اختفى العمل العضلي بأي شكل كان. وما ظل يسمّى العمل اليدوي لا يشمل استخدام المعول أو حفر التربة بالرفش.. بل يشمل عمومًا التحكم، والإدارة، وصيانة الآلة بآليات تحكّم معقّدة تمامًا[114].

كان لهذا كله مضامين عميقة بالنسبة إلى الثقافة؛ إذ لم يَعُد في إمكان النظام تحمّل اتّكال المعنى على «الخصوصية الجدلية المحلية»، ومن هنا أتت الحاجة إلى الاتصال غير الشخصي والمتحرّر من السياق، والمعايرة الثقافية

---

(١١١) Gellner, «The Coming of Nationalism and its Interpretation,» p. 102.

(١١٢) Gellner, *Nations and Nationalism*, p. 11.

(١١٣) المصدر نفسه، ص ١٨.

(١١٤) Gellner, «The Coming of Nationalism and its Interpretation,» p. 106.

الرفيعة المستوى. إذ أول مرة في التاريخ تصبح الثقافة مهمّة في حد ذاتها؛ فهي «لا تؤكد البنية: بل تحل محلها»[115].

لكن هناك عاملًا آخر يفسر معايرة الثقافية. فالمجتمع الصناعي مؤسَّس على فكرة «النمو الدائم»، ولا يمكن الحفاظ على ذلك إلّا بالتحوّل المستمر للبنية المهنية:

ببساطة، لا يمكن للمجتمع أن يشكل نظامًا مستقرًا للأدوار المنسوبة، مثلما فعل في العصر الزراعي.. فضلًا عن ذلك، يعني المستوى المرتفع من المهارة التقنية المطلوبة لنسبة مهمّة من المناصب على أقل تقدير.. أن هذه المناصب يجب شغلها اعتمادًا على «المؤهلات»[116].

تمثّلت النتيجة الفورية لذلك في «نوع معيّن من التسووية» (Egalitarianism). والمجتمع تَسْوَوي لأنه متحرك، وبطريقة من الطرائق، يجب أن يكون متحركًا. بينما تميل نزعة اللامساواة المستمرة في الوجود إلى التمويه لا إلى التحدّي السافر.

من ناحية أخرى، يُعَدّ المجتمع الصناعي مجتمعًا على درجة عالية من التخصص. لكن المسافة بين تخصصاته المتنوعة ليست شاسعة. وهذا يفسر السبب وراء سعينا إلى «التدريب العام» قبل التدريب التخصصي في الوظيفة وفي سبيل الحصول عليها:

بهذا المعنى، يصبح المجتمع الحديث أكثر شبهًا بالجيش الحديث؛ فهو يوفّر لمجنّديه تدريبًا مطوّلًا وشاملًا، ويصر على بعض المؤهلات المعيّنة المشتركة: معرفة القراءة والكتابة، وحساب الأرقام، وعادات العمل الأساسية، والمهارات الاجتماعية.. أمّا الافتراض، فهو: كل من استكمل التدريب العام الشائع لدى السكان جميعهم، يمكن إعادة تدريبه لمعظم الوظائف الأخرى من دون صعوبة كبيرة[117].

---

(١١٥) Gellner, *Thought and Change*, p. 155.

(١١٦) Gellner, «The Coming of Nationalism and its Interpretation,» p. 108.

(١١٧) Gellner, *Nations and Nationalism*, pp. 27-28.

نظام التعليم هذا مختلف تمامًا عن مبدأ التدريب الفردي أو التدريب في أثناء ممارسة الوظيفة الذي وجد في المجتمعات قبل الحديثة: «لم تعد عملية تشكيل الناس تتم في حضن أمهاتهم، بل في مدرسة التمريض»[١١٨]. من الطبقات المهمّة جدًا في المجتمعات العارفة بالزراعة طبقة الكتبة الذين ينقلون ويبثّون تعلّم القراءة والكتابة. أمّا في المجتمع الصناعي، حيث يصبح التعليم الخارجي هو المعيار، يكون كل فرد كاتبًا، ويجب أن يكون «متحرّكًا»، ومستعدًّا للانتقال من نشاط إلى آخر، ويجب أن يمتلك التدريب العام الذي يمكّنه من اتّباع الكتيبات الإرشادية والتعليمات الصادرة عن نشاط جديد أو مهنة جديدة[١١٩]. يستلزم ذلك:

أن يعتمد الاستخدام، والكرامة، والأمن، واحترام الذات للأفراد.. على تعليمهم.. فتعليم الفرد هو غالبًا أهم وأثمن استثمار، ويسبغ عليه هوية في الواقع. الفرد الحديث ليس مواليًا لملك أو أرض أو دين، أو أي شيء آخر، بل لثقافة[١٢٠].

من الواضح أن البنية التحتية التعليمية واسعة وباهظة التكلفة. أمّا المؤسسة الوحيدة القادرة على المحافظة على استدامة هذا النظام الواسع والإشراف عليه، فهي الدولة المركزية:

نظرًا إلى التنافس بين مختلف الدول على مناطق التجمع المتداخلة، فإن الطريقة الوحيدة التي يمكن عبرها لثقافة معيّنة أن تحمي نفسها من الأخريات، التي تملك دولة تحميها، هي إقامة واحدة خاصة بها، إن لم تملك واحدة. ومثلما يجب أن تجد كل فتاة عريسًا، ويفضّل أن يكون لها وحدها، كذلك يجب أن تكون لكل ثقافة دولة، ويفضّل أن تكون لها وحدها[١٢١].

هذا ما يجمع الدولة والثقافة معًا. فـ«ضرورة التهيئة الاجتماعية الخارجية هي المؤشر الرئيس للسبب الموجب لربط الدولة والثقافة الآن، بينما كانت

---

(١١٨) Gellner, «The Coming of Nationalism and its Interpretation,» p. 109.

(١١٩) Gellner, *Nations and Nationalism*, p. 35.

(١٢٠) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(١٢١) Gellner, «The Coming of Nationalism and its Interpretation,» p. 110.

الصلـة بينهما في الماضي واهية واعتباطيـة ومتنوعة ورخوة، وغالبًا عند الحد الأدنى.. هذه هي القومية»[١٢٢].

باختصـار، تُعَـدّ القومية نتاجًـا للتنظيم الاجتماعي الصناعي. وهذا يفسـر ضعفهـا وقوتهـا فـي آن؛ فهي ضعيفة بمعنـى أن عدد الأمـم المحتملة يتجاوز كثيرًا عدد تلك التي تزعم ذلك فعلًا. تدخل أغلبية الثقافات عصر القومية من دون أن تبذل حتى «أوهى جهد» للاستفادة منه[١٢٣]. وهي تفضّل البقاء ثقافات «برية جامحة»، تنتج وتعيد إنتاج ذاتها تلقائيًا، من دون خطة واعية أو إشـراف أو تغذية خاصة. وفي المقابل، تُعتبر الثقافات التي تميّز الحقبة الحديثة ثقافات «أهلية مدجنة» تحافظ عادة على بقائها بواسطة التعليم والمتخصصين، وسوف تختفي إذ حُرمت من تغذيتها المتميّزة[١٢٤].

من ناحية أخرى، تُعَدّ القومية قوية لأنها «تقرر معيار الشـرعية للوحدات السياسـية فـي العالم الحديث»؛ إذ يمكن تصوير العالـم الحديث بوصفه نوعًا من «الحوض المائي الضخم» أو «غرفة تنفس» مصمَّمة للحفاظ على الفوارق الثقافية السطحية. أمّا الجو والماء في هذه الغرفة فمصمَّمان على نحو خاص لتلبيـة حاجـات النوع الجديد، الإنسـان الصناعـي الذي يتعذّر عليـه البقاء في الجو الطبيعي. لكن الحفاظ على الهواء الذي يتنفسه ليبقى حيًا، أو الماء الذي يشربه، ليس آليًا، بل «يتطلّب مصنعًا خاصًا. أمّا اسم هذا المصنع، فهو النظام الوطني للتعليم والاتصالات»[١٢٥].

هـذا مـا يكمن خلف توكيد غيلنر أن «الأمـم لا يمكن تعريفها إلّا بتعابير عصـر القومية». يمكن للأمم أن تبرز «حين تنتشـر الظروف الاجتماعية العامة التي تفسر المعايرة والتجانس والثقافات العليا التي يتم الحفاظ عليها مركزيًا، بين السـكان جميعًـا ولا تنحصر ضمن الأقليات النخبويـة وحدها». ومن ثم، «فإن القومية هي التي تولّد الأمم لا العكس»[١٢٦]:

---

(١٢٢) Gellner, *Nations and Nationalism*, p. 38.

(١٢٣) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(١٢٤) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(١٢٥) المصدر نفسه، ص ٤٩ و٥١ – ٥٢.

(١٢٦) المصدر نفسه، ص ٥٥.

القوميـة جوهريًا هي ما تفرضه الثقافة العليا عمومًا على المجتمع، حيث استولت الثقافات الدنيا سـابقًا على حياة أغلبية السـكان، أو السكان جميعهم في بعض الأحيان.. إنها تأسـيس مجتمع مجهول الاسـم وغير شخصي، يضم أفرادًا مذرَّرين يمكن لأحدهم أن يحل محل الآخر، ويتماسـك قبل كل شـيء بواسطة ثقافة مشتركة من هذا النوع[١٢٧].

كيـف تصبح جماعات محليـة صغيرة واعيـة بثقافتها «البريـة الجامحة»، ولمـاذا تسـعى إلى تحويلها إلـى ثقافة «أهليـة مدجنة»؟ إجابـة غيلنر عن هذا السؤال بسيطة: تكشف هجرة العمالة والاستخدام البيروقراطي «الفارق المميز بيـن التعامـل مع الإخوان في الوطن الذين يفهمـون ثقافتهم ويتعاطفون معها، وبيـن المعاديـن لهـا». تعلّـم هـذه التجربـة الملموسـة المتعيّنة النـاس الوعي بثقافتهـم، وحبّهـا. وهكذا، فـي ظروف الحـراك الاجتماعي الواسـع، «تصبح الثقافة التي لُقّن الفرد كيفية التواصل ضمنها جوهر هويته»[١٢٨].

هـذا أيضًـا أحد المبدأين المهمّين للانقسـام والتشـظّي فـي المجتمع الصناعي. ويدعوه غيلنر «مبدأ الحواجز المعيقة للاتصال»؛ حواجز تسـتند إلى الثقافات ما قبل الصناعية. أمّا المبدأ الآخر، فهو ما يسـمّيه «السـمات المقاومة للتجانس الاجتماعي» مثل لون البشرة، والعادات الدينية والثقافية المتأصلـة التـي لا تنزع إلى أن تصبح، حتى بمرور الزمن، منتشـرة بصورة متكافئـة فـي المجتمـع برمّتـه[١٢٩]. ففـي المراحـل المتأخـرة مـن التطـور الصناعـي، حيـن «ينتهي عصر البؤس المزمن، والتشـوش، والموت جوعًا تقريبًـا، وينتهـي الاغتراب الكلي للطبقـة الدنيا»، كما يعتقـد غيلنر، تصبح السـمات العنيدة «المضادة للتجانـس الاجتماعي» (وراثية كانت أم ثقافية) هي مصدر الصراع. وبكلمات غيلنر: «لا يتولّد الاستياء والسخط الآن من ظرف موضوعي لا يُحتمل.. بقدر ما يحدث قبل كل شـيء نتيجة التوزيع الاجتماعي غير العشوائي لسمة مرئية وملاحَظة في العادة»[١٣٠]. ربما يؤدي

---

(١٢٧) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٦١.

(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(١٣٠) المصدر نفسه، ص ٧٤ – ٧٥.

هـذا الصـراع إلى ظهـور أمم جديدة منظمـة حول ثقافة عليـا أو ثقافة دنيا سابقًا.

حاولـتُ أن أقدّم وصفًا كاملًا نسـبيًا لنظرية غيلنر عبـر التركيز غالبًا على كتـاب أمم وقومية، مع الإشـارة إلى فصل سـابق في كتـاب فكر وتغيير، وغير ذلـك مـن الكتابات عندما يكون ذلك مناسـبًا. وأعاد غيلنر فـي ما بعد العمل علـى نظريتـه، وافتـرض وجـود خمـس مراحـل علـى الطريـق مـن عالـم الإمبراطوريـات غيـر الإثنيـة والوحـدات المصغّرة، إلـى عالم الـدول القومية المتجانسة(١٣١):

ـ **نقطة الانطلاق.** في هذه المرحلة، لم تصبح الإثنية مهمّة بعدُ، كما كانت فكرة الرابطة بينها وبين الشرعية السياسية غائبة كليًا.

ـ **التحريرية الوحدوية القومية.** تكون الحدود والبنى السياسية لهذه المرحلة موروثة من حقبة سابقة، لكن الإثنية ـ أو القومية ـ تشرع في العمل بوصفها مبدأ سياسيًا. وتتعرض الحدود والبنى القديمة للضغط من الاهتياج القومي.

ـ **انتصـار التحريريـة الوحدوية الوطنية والتدمير الذاتي.** في هذه المرحلة، تنهـار الإمبراطوريات المتعـدّدة الإثنيات وتحل القومية محل المصدر الملكي الوراثي ـ الديني للشـرعية السياسية. تبرز دول جديدة نتيجة الاهتياج القومي. لكـن هـذه الحالـة، كما يؤكـد غيلنر، ذاتيـة التدمير، نظـرًا إلى أن هـذه الدول الجديدة «مسكونة بهاجس الأقلية» مثل الدول الكبرى التي حلّت محلّها.

ـ **«الليـل والضبـاب».** اسـتعمل النازيـون هـذا التعبيـر لتصويـر بعـض من عملياتهـم السـرية فـي أثنـاء الحـرب العالميـة الثانية. في هـذه المرحلـة، تعلّق المعاييـر الأخلاقيـة كلهـا، ويطبـق مبـدأ القومية الـذي يتطلب وحـدات وطنية متجانسة، بنوع جديد من الوحشية. [هنا] تحلّ عمليات القتل الجماعي والترحيل الإجباري للسكان محل الأساليب الحميدة، مثل الدمج والهضم والتمثل.

ـ **المرحلـة مـا بعد الصناعية.** هذه هـي الحقبة التي أعقبـت عام ١٩٤٥.

---

(١٣١) Ernest Gellner: *Encounters with Nationalism* (Oxford, [England]; Cambridge, Mass.: Blackwell, 1994), and «The Coming of Nationalism and its Interpretation».

يؤدي مستوى مرتفع من إشباع المبدأ القومي، بمصاحبة وفرة عامة وتقارب ثقافي، إلى إضعاف، لكن ليس إلى اختفاء، خبث القومية(١٣٢).

تمثّل هذه المراحل الخمس، في رأي غيلنر، توصيفًا معقولًا للانتقال من النظام غير القومي إلى النظام القومي. لكن هذه الخطة غير قابلة للتطبيق شموليًا في كل مكان، ولا حتى في أوروبا. ويلاحظ أن المراحل التي افترضها تمظهرت بطرائق مختلفة في مختلف المناطق الزمنية. ويحدد أربعًا من مثل هذه المناطق في أوروبا.

انطلاقًا من الغرب إلى الشرق، أولًا الساحل الأطلسي. هنا، وجِدت منذ العصور ما قبل الحديثة دول ملَكية وراثية قوية. وتتصل الوحدات السياسية التي قامت في لشبونة ولندن وباريس ومدريد، بمناطق ثقافية ـ لغوية متجانسة تقريبًا. ومن ثم، حين أتى عصر القومية، لم يتطلب الأمر إعادة رسم جذرية للحدود. في هذه المنطقة، يصعب العثور على «قومية إثنوغرافية»، أي «دراسة الثقافات الفلاحية، وتصنيفها وترتيبها، وأمثلتها لصالح تشكيل ثقافة وطنية جديدة»(١٣٣). إذ تمثّلت المشكلة في تحويل الفلاحين إلى مواطنين، لا في ابتكار ثقافة جديدة على أساس الخصوصية الفلاحية(١٣٤).

تتصل المنطقة الزمنية الثانية بأراضي الإمبراطورية الرومانية المقدّسة السابقة. وخضعت هذه المنطقة لسيطرة ثقافتين عاليتين غنيتين وجِدتا منذ عصر النهضة والإصلاح، ألا وهما الثقافتان الألمانية والإيطالية. ومن ثم، فإن أولئك الذين حاولوا إبداع أدب ألماني في أواخر القرن الثامن عشر كانوا في الواقع يرسّخون ثقافة قائمة، ولا يكوّنون واحدة جديدة. وفي ما يتعلق بالتعليم والوعي بالذات، لم يكن الألمان أدنى منزلة من الفرنسيين، بينما وجِدت علاقة مشابهة بين الإيطاليين والنمساويين. وكل ما كان مطلوبًا هنا هو تزويد الثقافة العليا القائمة بسقف سياسي(١٣٥).

---

(١٣٢) Gellner, «The Coming of Nationalism and its Interpretation,» pp. 111 - 112.

(١٣٣) Gellner, *Encounters with Nationalism*, p. 29.

(١٣٤) المصدر نفسه، و Gellner, «The Coming of Nationalism and its Interpretation,» pp. 127-128.

(١٣٥) Gellner: *Encounters with Nationalism*, pp. 29 - 30, and «The Coming of Nationalism and its Interpretation,» pp. 128 - 129.

لكـن الأمور كانت أشـد تعقيـدًا في المنطقـة الزمنية الثالثـة الواقعة على مسـافة أبعـد باتجاه الشـرق. كانت هذه المنطقـة الوحيدة التـي تمظهرت فيها المراحـل الخمـس بالكامل. هنـا، لم يكن ثمة وجود لا لثقافـات عليا محدّدة ومعرّفـة جيـدًا، ولا لـدول لتغطيهـا وتحميهـا؛ إذ تميّـزت المنطقـة بوجـود إمبراطوريـات قديمة غير قومية، وتعدّدية من الثقافات الشـعبية. ومن ثم، كان مـن الضروري للاقتران بين الثقافة والسياسـة، وهو الشـرط المطلوب لوجود القومية، إنشاء الاثنتين معًا، وهو ما جعل مهمّة القوميين أكثر صعوبة «وبالتالي، كثيرًا ما كان تنفيذها أكثر وحشية»[١٣٦].

أخيرًا، هنالك المنطقة الزمنية الرابعة. يؤكد غيلنر أن هذه المنطقة اشتركت في المسار نفسه مع المنطقة السابقة حتى عام ١٩١٨، أو بداية عشرينيات القرن الماضـي. لكن مع ذلك، اختلف مصيـر كلٍّ منهما عن الأخرى؛ فبينما تفكّكت اثنتـان مـن الإمبراطوريات الثـلاث في المنطقـة الرابعة، إمبراطورية هابسـبورغ والسـلطنة العثمانيـة، تمكّنت الثالثة من الانبعاث بطريقـة دراماتيكية تحت إدارة جديدة وباسم أيديولوجيا ملهِمة جديدة. يلاحظ غيلنر أن الزحف الظافر للجيش الأحمـر فـي عام ١٩٤٥، ودمج جزء كبير من المنطقة الزمنية الثالثة في الرابعة، أضافـا مزيـدًا من التعقيد إلى الأمـور هنا؛ حيث تمكّن النظـام الجديد من كبح القومية، وتمثّل الثمنُ في تدمير المجتمع المدني. ومن ثم، حين تفكّك النظام، بـرزت القوميـة بكامـل حيويتهـا وطاقتهـا، مع قلـة قليلة مـن المنافسـين. وبعد التعـرّض للتجمـد الصناعي فـي نهايـة المرحلة الثانيـة، يمكن للمنطقـة الزمنية الرابعـة اسـتئناف مسـارها العـادي فـي المرحلـة الثالثـة (القوميـة التوحيديـة والتحريريـة)، أو الرابعة (مذابح أو ترحيل السـكان)، أو الخامسـة (تراجع حدة النـزاع الإثنـي). أيٌّ مـن هذه الخيارات سيسـود؟ هذا هو السـؤال الحاسـم في أهميته الذي يواجه أراضي (جمهوريات) الاتحاد السوفياتي السابق[١٣٧].

٢ ـ بينيديكت أندرسون والجماعات المتخيَّلة

شهد عام ١٩٨٣ نشر كتاب مؤثّر آخر عن القومية، إلى جانب كتب غيلنر

---

(١٣٦) المصدران نفسهما، ص ٣٠ و ١٢٩ على التوالي.

(١٣٧) المصدران نفسهما، ص ٣٠ - ٣١ و ١٢٩ - ١٣٢ على التوالي.

وهوبزباوم ورينجر، هو جماعات متخيَّلة: تأملات حول أصل القومية وانتشارها لبينيديكت أندرسون. أمّا الدافع الأوّلي المحفّز لتأليف هذا الكتاب، كما يتذكر المؤلـف فـي ما بعد، فأتى من «الحـرب المثلّثة بين ما يسـمّى الدول الثورية: الصين وفييتنام وكمبوديا عند نهاية سبعينيات القرن العشرين». يكتب أندرسون: «صدمتنـي هذه الحـروب وأذهلتني بوصفها دليلًا واضحًا على أن الاشـتراكية الانتقاليـة خضعـت لطغيـان القوميـة، وهذه نذير شـؤم للمسـتقبل». من ناحية أخرى، اسـتهدف الكتاب جمهورًا محدَّدًا مع «أحكام مسـبقة متحيّزة ومحدّدة ومحرجة»: «استهدف بكل جرأة وحماسة بريطانيا لا الولايات المتحدة، وقُصد منـه أن يكون نوعًـا من الرد على كتاب توم نيرن الرائع تفـكّك بريطانيا»[١٣٨]. اعتقد أندرسون، كما يقول، أن من الضروري توسيع مدى انتقادات نيرن التي وجّهت أساسًـا إلى الماركسـية الكلاسـيكية، وذلك مع فشـل هذه الأخيرة في فهم أن القومية لا تتعلق بالخصوصية الفردية بأي حال من الأحوال، بل ميّزت التفسيرات الليبرالية والمحافظة آنذاك أيضًا. والأهم «نزع الأوْربة» عن الدراسة النظريـة للقومية ـ ومـن هنا تركيز الكتاب على المجتمعـات اللاأوروبية، مثل الإندونيسـية أو التايلندية / السـيامية[١٣٩]. وتمتّـع الكتـاب ـ وهـذا غير متوقّع، وفقًـا للمؤلـف ـ بجاذبيـة واسـعة؛ إذ أصبح وصف أندرسـون الذي لا يُنسـى للأمـم بأنهـا «جماعات متخيَّلـة» ـ «زوج من الكلمات التـي امتص منها الآن مصاصـو الدمـاء بطريقة مبتذلـة كل ما فيها من دماء تقريبًا»[١٤٠]، «شـعارًا» في المناقشات الأكاديمية للقومية، شيئًا يتعلق بـ«صحة وكفاءة السؤال الكلاسيكي: «لماذا لم يدرك أحد ذلك من قبل؟»»[١٤١].

تتمثّل نقطة انطلاق أندرسون في أن الجنسية الوطنية والقومية منتجات

---

(١٣٨) Benedict Richard O'Gorman Anderson, «Responses,» in: Pheng Cheah and Jonathan Culler, eds., *Grounds of Comparison: Around the Work of Benedict Anderson* (New York: Routledge, 2003), pp. 226 and 238.

(١٣٩) Benedict Richard O'Gorman Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*, rev. ed. (London; New York; Verso, 2006), pp. 208-209.

(١٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(١٤١) انظر الإطار الرقم (٣-٧)، ص ١٩٥ من هذا الكتاب، و: Marc Redfield, «Imagi-Nation: The Imagined Community and the Aesthetics of Mourning,» and Jonathan Culler, «Anderson and the Novel,» in: Cheah and Culler, eds., pp. 77 and 30 resp.

صنعية ثقافية من نوع خاص. ومن أجل فهمهما بشكل صحيح، نحن بحاجة إلى اكتشاف كيف وجِدت كل منهما، وبأي طرائق تغيّر معناها بمرور الزمن، ولماذا حظيت بهذه الشرعية الوجدانية العميقة. يؤكد أندرسون أن القومية ظهرت قرب نهاية القرن الثامن عشر نتيجة «تكثيف تلقائي لـ«نقطة تقاطع» معقّدة بين قوى تاريخية منفصلة»، وما إن وجدت حتى أصبحت نماذج يمكن محاكاتها في تشكيلة واسعة التنوع من البيئات الاجتماعية، بواسطة تشكيلة واسعة من الأيديولوجيات ذات الصلة[١٤٢]. وفي رأيه، يجب على التفسير المقْنع للقومية ألّا ينحصر في تحديد العوامل الثقافية والسياسية التي تسهّل نمو الأمم. أمّا التحدي الحقيقي، فيكمن في إظهار لماذا وكيف أثارت هذه المنتجات الصنعية الثقافية الخاصة مثل هذه الارتباطات العميقة والوثيقة. بكلمات أخرى، إن السؤال الحاسم في أهميته هو: ما الذي يجعل التخيّلات المتقلصة في التاريخ الحديث (الذي لا يمتد أكثر من قرنين من الزمن) تولّد مثل هذه التضحيات الهائلة»؟[١٤٣]. يبدأ أندرسون بتقديم تعريف عملي لتعبير «أمة».

في رأي أندرسون، نجم جزء من التشوش الاصطلاحي المحيط بمفهوم الأمّة من الميل نحو التعامل معها باعتبارها بنية أيديولوجية. وستكون الأشياء أكثر سهولة إذا اعتُبرت منتمية إلى العائلة نفسها بوصفها «قرابة» أو «دينًا»؛ ومن ثم يصبح تعريفه للأمة هو: «مجتمع سياسي متخيَّل - ومتخيَّل بوصفه محدودًا ومستقلًا جوهريًا». وهو متخيَّل لأن «أفراد حتى أصغر الأمم لن يعرفوا أبدًا إخوانهم، ولن يقابلوهم، أو حتى يسمعوا بهم، لكن تعيش في أذهانهم جميعهم صورة وحدتهم وتعاطفهم وعلاقتهم الوثيقة». ومتخيَّل بوصفه محدودًا لأن لكل أمة حدودًا ثابتة ومعيّنة تقع خلفها أمم أخرى. ومتخيَّل بوصفه مستقلًا لأنه ولِد في عصر الأنوار والثورة، حين كانت المملكة الوراثية التراتبية التي استمدت الشرعية من القداسة، تنحسر وتأفل بسرعة؛ وكانت الأمم تحلم بالتحرر، وبأقل قدر من السيطرة المباشرة للمقدّس.

---

(١٤٢) Benedict Richard O'Gorman Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*, Rev. and Extended ed. (London; New York: Verso, 1991), p. 4.

(١٤٣) المصدر نفسه، ص ٧.

أخيرًا، هو متخيَّل بوصفه جماعة لأن «الأمة، بغضّ النظر عن هيمنة اللامساواة والاستغلال فيها، تُعتبر دومًا نوعًا من العلاقة الرفاقية العميقة والأفقية». ووفقًا لأندرسون، فإن هذا الشعور بالأخوّة هو الذي يجعل في نهاية المطاف من الممكن لملايين البشر التضحية بحياتهم عن طيب خاطر في سبيل أمتهم»[144].

الإطار الرقم (٣-٧) بينيديكت أندرسون

يُعَدّ بينيديكت أندرسون، الأستاذ (المتقاعد) في كلية الدراسات الدولية، في جامعة كورنيل، واحدًا من أبرز خبراء العالم بشؤون جنوب شرق آسيا، ولا سيما التاريخ والسياسة في إندونيسيا وتايلاند. مُنع من دخول إندونيسيا في أثناء حكم سوهارتو بعد أن نشر في عام ١٩٧١، مع روث مكفي، ما عُرف آنذاك بـ«ورقة كورنيل»، التي تتساءل عن تورط سوهارتو في الانقلاب العسكري المزعوم الذي قام به الجنود الشيوعيون عام ١٩٦٥. لكنه عاد إلى إندونيسيا في عام ١٩٩٩ في أعقاب موت سوهارتو. أهم ما نشر أندرسون عن القومية كتاب **جماعات متخيَّلة: تأملات حول أصل القومية وانتشارها** (١٩٨٣) الذي أصبح مؤلَّفًا كلاسيكيًا نُشر في ثلاثة وثلاثين بلدًا بتسع وعشرين لغة. من أعماله المنشورة الأخرى في هذا المجال *The Specters of Comparison: Nationalism, Southeast Asia and the World* (**أشباح المقارنة: القومية وجنوب شرق آسيا والعالم**) (١٩٩٨) وكتاب *Under Three Flags: Anarchism and the Anti-Colonial Imagination* (**تحت ثلاث رايات: الفوضوية والخيال المناهض للاستعمار**) (٢٠٠٥).

يقول أندرسون في مقابلة أجراها عام ٢٠٠٥: «علاقتي بـ [«جماعات متخيَّلة»] كالعلاقة بابنة كبرت وهربت مع سائق حافلة: أراها بين الحين والآخر، لكنها تعيش فعلًا حياتها السعيدة الخاصة بها. أستطيع أن أتمنّى لها حظًا سعيدًا، لكنها الآن مع شخص آخر. ما الذي أغيّره في الكتاب؟ هل أحاول تغيير ابنتي؟» L. Khazaleh, «Benedict Anderson: «I Like Nationalism's Utopian Elements»,» (2005), on the Web: <http://www.eulcom.uio.no/english/news/2005/>.

في إجابة عن السؤال: «إذًا أنت قومي قليلًا - على الرغم من الكتاب الكاشف الذي ألّفته عن القومية؟»، يقول: «أجل بالتأكيد. لا بد أنني الوحيد الذي كتب عن القومية ولا يعتقد بأنها بشعة. وإذا فكرتَ ببعض الباحثين، مثل غيلنر وهوبزباوم، تجد أنهم يتبنّون موقفًا معاديًا للقومية. أظن فعلًا أن القومية يمكن أن تكون أيديولوجيا

(١٤٤) المصدر نفسه، ص ٦ - ٧.

جذابة. تعجبني عناصرها اليوتوبية / الطوباوية.. أنت تطيع القوانين لأنها قوانينك ـ ليس دومًا، لأنك قد تغش في استمارات الضرائب، لكنك في العادة تطيعها. القومية تشجع السلوك القويم. في رأي بيليغ (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب)، تشبه القومية الجسم البشري. يكون أحيانًا في حالة صحية جيدة، إلّا أن المرض يصيبه بين الحين والآخر، وتجتاحه الحمى، فيفعل أشياء سيئة. لكن درجة حرارة الجسم العادية ليست ٤١ درجة مئوية بل ٣٦,٥». المصدر نفسه، و Benedict Richard O'Gorman Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*, rev. ed. (London; New York; Verso, 2006).

عند هذه النقطة، تجدر الإشارة إلى أن «التخيّل»، في رأي أندرسون، لا يتضمّن في دلالته «التزييف». وهو يوضح هذه النقطة بقوة حين يتّهم غيلنر بدمج «الابتكار» بـ«التلفيق» و«التزوير»، بدلًا من «التخيّل» و«الإبداع»، بقصد إظهار أن القومية تتستر خلف أقنعة مزيفة ومزاعم كاذبة. يتضمّن مثل هذا الرأي أن هناك مجتمعات «حقيقية» يمكن أن تتمتّع بالمزايا، مقارنة بالأمم. لكن في الحقيقة، تُعتبر المجتمعات كلها التي تكون أكبر من القرى الصغيرة التي يعرف أهلها بعضهم بعضًا بشكل مباشر (وربما حتى هذه)، متخيَّلة. ويجب عدم تمييز المجتمعات، كما يختتم أندرسون، وفقًا لصدقها / أو كذبها، بل تبعًا للأسلوب الذي يجري تخيّلها فيه[١٤٥].

يلتفت أندرسون بعد ذلك إلى الظروف التي تؤدي إلى ظهور مثل هذه الجماعات المتخيَّلة. يبدأ بالجذور الثقافية للقومية، مؤكدًا «وجوب فهم القومية عبر رصفها، لا مع الأيديولوجيات السياسية المعتنقة بطريقة واعية بذاتها، بل مع الأنظمة الثقافية الكبيرة السابقة عليها، التي خرجت من رحمها، أو كانت ردًّا عليها»[١٤٦]. ويستشهد بنظامين اثنين على صلة وثيقة بالموضوع: الجماعة الدينية والمملكة الوراثية، وهما النظامان اللذان هيمنا على معظم أنحاء أوروبا حتى القرن السادس عشر. ووفّر انحسارهما التدريجي الذي بدأ في القرن السابع عشر، الحيّز التاريخي والجغرافي الضروري لنهوض الأمم.

(١٤٥) المصدر نفسه، ص ٦.

(١٤٦) المصدر نفسه، ص ١٢.

كان انحطـاط «المجتمعات العظيمة المتخيلـة دينيًا» على قدر خاص من الأهميـة فـي هـذا السـياق؛ إذ يشـدد أندرسـون علـى سـببين اثنيـن وراء هذا الانحطـاط. الأول، تأثيـر الاستكشـافات الجغرافيـة للعالـم اللاأوروبـي التـي وسّـعت الأفق العـام الثقافي والجغرافي، وأظهرت للأوروبيين وجود أشـكال بديلة ممكنة أيضًا للحياة الإنسانية. وتمثّل السبب الثاني في الانحسار التدريجي للغة المقدَّسـة نفسها. إذ كانت اللاتينية لغة الطبقة المثقفة العليا (الإنتلجنسيا) في عموم أوروبا، وفي الحقيقة، اللغة الوحيدة التي دُرّسـت في أوروبا الغربية القروسـطية. لكن بحلول القرن السـادس عشـر، تغير ذلك كله بسرعة. وأُلّف مزيد من الكتب باللغات المحلية، ولم يعُدْ النشر مشروعًا دوليًا[١٤٧].

مـا هـي الأهميـة الدلالية لهـذه التطورات كلها بالنسبة إلـى ظهور فكرة الأمّـة؟ يكمـن الجـواب، كما يؤكد أندرسـون، في الدور الحاسـم الـذي أدّته الأديـان التقليديـة فـي حياة البشـر. إذ خففـت، أولًا وقبل كل شـيء، المعاناة الناجمـة عـن النوائـب الطارئـة في الحيـاة («لماذا خلـق صديقي مشـلولًا؟»، و«لماذا أصيبت ابنتي بإعاقة؟»)، عبر تفسـيرها بـذريعة «القدر المكتوب». من ناحية أخرى، وعلى مستوى أكثر روحانية، زوّدت البشر بالخلاص من عشوائية الموت عبر تحويله إلى اسـتمرارية (الحياة بعد الموت)، وتأسـيس صلة رابطة بيـن الموت والولادة. ومثلما هو متوقَّع، لـم يؤدِّ مدُّ الرؤى الدينية للعالم إلى تقلص مُرافق في المعاناة الإنسـانية. وفـي الحقيقة، أصبحت النكبات الفاجعة الآن أكثـر عشـوائية واعتباطية من ذي قبل. «مـا كان مطلوبًا آنذاك هو تحويل عَلْماني للموت إلى استمرارية، والحادثة الطارئة إلى معنى دلالي». ولم يلائم هـذه الغاية شـيء أكثر من فكـرة الأمّة التي هيمنت دومًـا انطلاقًا من الماضي الغابـر، والأهـم أنها انزلقت إلى مسـتقبل لا حد له: «سـحر القومية هو الذي حوّل المصادفة إلى قدر مكتوب»[١٤٨].

لكن سيكون من المبالغة في التبسيط الإشارة إلى أن الأمم نمت انطلاقًا مـن المجتمعـات الدينيـة والممالك الوراثية ثم حلّت محلهـا؛ إذ يكمن تحت تحلّل هذه المجتمعات المقدّسة تحوّل أكثر جوهرية أصاب أنماط فهم العالم.

---

(١٤٧) المصدر نفسه، ص ١٢ – ١٩.

(١٤٨) المصدر نفسه، ص ١١ – ١٢.

يتعلّق هذا التغيّر بالمفهوم المسيحي القروسطي عن الزمن المرتكز على فكرة التزامن؛ فوفقًا لهذا المفهوم، تموضعت الحوادث بشكل متزامن في الماضي والحاضر والمستقبل: الماضي يتنبأ بالمستقبل، بحيث إن الثاني «يلبّي» ما تم إعلانه والوعد به في الأول. وحوادث الماضي والمستقبل ليست مترابطة موقتًا أو بقانون السببية / العلّية، بل بواسطة العناية الإلهية التي يمكنها وحدها ابتكار هذه الخطة للتاريخ. ووفقًا لهذا النظرة للأشياء، كما يلاحظ أندرسون، «لا يمكن لكلمة «بينما» أن تحظى بمعنى دلالي حقيقي»[149]. واستُبدل مفهوم «التزامن على طول الزمن» بفكرة «الزمن الفارغ المتجانس»، وهو تعبير يستعيره أندرسون من فالتر بنيامين؛ إذ يُفهم التزامن الآن بوصفه خطًا مستعرضًا عبر الزمن، تميّزه مصادفات زمنية ويقاس بالساعة والروزنامة. لقد جعل المفهوم الجديد للزمن «تخيّل» الأمّة بوصفها «نظامًا سوسيولوجيًا» ينتقل بثبات عبر التاريخ (صعودًا أو هبوطًا) أمرًا ممكنًا[150]. ولشرح هذه النقطة، يتفحص أندرسون شكلين شائعين من أشكال التخيّل: الرواية والصحيفة.

يتناول بدايةً رواية بسيطة العقدة مؤلّفة من أربع شخصيات: رجل (أ)، له زوجة (ب)، وخليلة (ج)، لها بدورها عشيق (د). وبافتراض أن (ج) لعبت أوراقها بطريقة صحيحة، وأن (أ) و(د) لم يلتقيا قط، فما الذي يربط فعلًا بين هاتين الشخصيتين؟ أولًا، يعيشان في «مجتمعين» (لوبيك، لوس أنجلوس). «مثل هذه المجتمعات كيانات سوسيولوجية تحظى بواقع صلب ومستقر إلى حد يمكن فيه وصف أعضائها (مثل أ ود) بأن أحدهم يمر بالآخر في الطريق من دون أن يتعارفا، ويبقيان مع ذلك مرتبطين»[151]. ثانيًا، يرتبطان في أذهان القراء. القراء وحدهم يعلمون ما يفعله كلٌّ من (أ) و(د) في أي لحظة زمنية. وفقًا لأندرسون، «تؤدى هذه الأفعال كلّها في الزمن المقيس بالساعة والروزنامة، وبواسطة ممثّلين لا يعلم غالبًا أحدهم بوجود الآخر، وهو ما يُظهر جدة هذا العالم المتخيَّل الذي يستحضره المؤلف في ذهن قرائه». ولهذا مضامين عميقة لفكرة الأمّة. ربما لا يقابل الأميركي، أو حتى لا يعرف

(١٤٩) المصدر نفسه، ص ٢٤.

(١٥٠) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(١٥١) المصدر نفسه، ص ٢٥.

سوى أسماء حفنة من مواطنيه الأميركيين. وليست لديه فكرة عمّا يفعلون في لحظة زمنية معيّنة. ومع ذلك، يثق ثقة كاملة بوجودهم و«بنشاطهم المتزامن المجهول الثابت»[١٥٢].

ثمة رابطة مشابهة ترسّخها الصحيفة (اليومية) التي تجسّد تخيّلًا عميقًا. فإذا ألقينا نظرة سريعة على الصفحة الأولى لأي صحيفة، سوف نكتشف عددًا من القصص التي تبدو منفصلة. يسأل أندرسون: «ما الذي يربطها معًا؟». أولًا، المصادفة المتعلقة بحدوثها في يوم معيّن. ويوفّر التاريخ المكتوب في أعلى الصفحة رابطة جوهرية: «ضمن إطار ذلك الزمن، يسير «العالم» بقوة إلى الأمام». وإذا اختفت مالي مثلًا من الصفحات الأولى للجرائد، لا نظن أن مالي اختفت كليًا، بل «تطمئننا الصيغة الروائية للصحيفة بأن «شخصية» مالي تتحرك بهدوء في مكان ما هناك، بانتظار ظهورها اللاحق وفقًا للعقدة»[١٥٣].

الصلة الثانية يوفّرها الاستهلاك الجماعي المتزامن للصحف. وبهذا المعنى، يمكن اعتبار الصحيفة «شكلًا متطرّفًا من الكتاب»، «كتابًا يباع على نطاق واسع» أو «الأفضل مبيعًا كل يوم». نعلم أن طبعة معيّنة سوف تُقرأ في المدة بين هذه الساعة وتلك، في هذا اليوم فقط، لا في غيره. وهذا يمثّل بطريقة ما طقسًا شعائريًا جماعيًا، يؤدى بصمت وعلى انفراد، «لكن كلّ مشارك بالاتصال يعلم تمام العلم أن الطقس الذي يؤدّيه يكرره في الوقت ذاته آلاف (أو ملايين) الآخرين الذين يثق بوجودهم، لكن ليست لديه أدنى فكرة عن هوياتهم»[١٥٤]. يصعب تصوّر شكل أكثر وضوحًا للمجتمع المتخيل الدنيوي المحسوب بساعة التاريخ. فضلًا عن ذلك، عند ملاحظة القارئ أن النسخ المماثلة من صحيفته يستهلكها جيرانه، في مترو الأنفاق أو صالون الحلاقة، يشعر باطمئنان مستمر بأن العالم المتخيل متجذر في الحياة اليومية: «يزحف الخيال بطريقة صامتة وهادئة ومتواصلة لينتشر في الواقع، ويخلق تلك الثقة المشهودة بوجود مجتمع غير مميّز الملامح يُعتبر من معالم الأمم الحديثة»[١٥٥].

---

(١٥٢) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(١٥٣) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(١٥٤) المصدر نفسه، ص ٣٣ - ٣٥.

(١٥٥) المصدر نفسه، ص ٣٦.

باختصار، يمكن تاريخيًا موضعة الأصول الثقافية للأمّة الحديثة على نقطة تقاطع ثلاثة تطوّرات: تغيّر في مفاهيم الزمن، وانحطاط المجتمعات الدينية، وانحسار الممالك الوراثية. لكن الصورة لم تكتمل بعدُ. أمّا المكوّن المفقود، فيوفّره النشر التجاري للكتب على نطاق واسع، أو ما يدعوه أندرسون «الطباعة الرأسمالية». ووفّر هذا، أكثر من أي شيء آخر، إمكانية أن تفكّر أعداد متنامية بسرعة من الناس في أنفسهم بطرائق جديدة تمامًا.

تمثّلت السوق الأوّلية لصناعة نشر الكتب الرأسمالية في طبقة رقيقة من قرّاء اللاتينية. وظلّت هذه السوق، كما يلاحظ أندرسون، مشبعة طوال ١٥٠ عامًا. لكن الرأسمالية بحاجة إلى ربح، ومن ثم إلى أسواق جديدة. وأجبر المنطق المتأصل في الرأسمالية الناشرين، ما إن أشبعت السوق اللاتينية النخبوية، على إنتاج طبعات رخيصة باللغات المحلية بهدف الوصول إلى الجماهير التي تقرأ لغة واحدة فقط. وعجّلت بهذه العملية ثلاثة عوامل. أولًا، تغيُّر طرأ على طبيعة اللغة اللاتينية؛ فبفضل الإنسانويين، اكتُشفت الأعمال الأدبية القديمة التي تعود إلى ما قبل حقبة المسيحية، ونُشرت في السوق. وولّد ذلك اهتمامًا جديدًا بأسلوب القدماء المعقّد في الكتابة، وزاد في إبعاد اللاتينية عمّا هو كنسي وديني وعن الحياة اليومية. ثانيًا، تأثير الإصلاح (الديني) الذي يدين للطباعة الرأسمالية بفضل الكثير من نجاحه. أمّا الائتلاف بين البروتستانتية والطباعة الرأسمالية، فأوجد بسرعة شريحة كبيرة من عموم القراء وحشدهم لأغراض سياسية / دينية. ثالثًا، تبنّي بعض اللغات المحلية لتكون لغات إدارية. يلاحظ أندرسون أن ظهور اللغات الإدارية (المحلية) سبق تاريخيًا الطباعة والإصلاح، ولذلك يجب اعتباره عاملًا مستقلًا. وأدّت هذه العوامل الثلاثة معًا إلى إسقاط اللاتينية عن عرشها وإيجاد شريحة واسعة من عموم قرّاء اللغات المحلية[١٥٦].

يؤكد أندرسون أن هذه اللغات المطبوعة وضعت الأسس اللازمة للوعي القومي عبر ثلاث طرائق. أولًا، أوجدت «مجالات موحّدة للتواصل والاتصال تحت مستوى اللاتينية وفوق مستوى اللغات المحلية المحكية». ثانيًا، منحت الطباعة الرأسمالية ثباتًا جديدًا للغة ساعد في بناء صورة ذهنية للقدماء أدّت

(١٥٦) المصدر نفسه، ص ٣٨ - ٤٣.

دورًا محوريًا في فكرة الأمة. ثالثًا، أوجدت الطباعة الرأسمالية لغات سلطة من نوع مختلف عن اللغات المحلية الإدارية السابقة. باختصار، إن ما جعل المجتمعات الجديدة قابلة للتخيّل هو «تفاعل شبه اعتباطي، لكن متفجّر، بين نظام إنتاج وعلاقات إنتاج (رأسمالية)، وتقانة اتصالات (طباعة)، وحتمية التنوع الإنساني»(١٥٧).

بعد تحديد العوامل السببية العامة الكامنة خلف نهوض الأمم، يتحوّل أندرسون إلى سياقات تاريخية/ ثقافية محدّدة بهدف استكشاف «مكوّنات» تطوّر الرأسمالية. يبدأ بتناول القسم المتعلّق بأميركا اللاتينية، وهو يحتوي على واحدة من أكثر الحجج إثارة للنقاش والخلاف في الكتاب: طوّرت مجتمعات الكريول (= المتحدرين من أصول أوروبية) في الأميركيتين وعيها الوطني قبل معظم الأوروبيين. ووفقًا لأندرسون، هنالك جانبان اثنان في قوميات أميركا اللاتينية يفصلانها عن مثيلاتها في أوروبا. أولًا، لم تؤدِّ اللغة دورًا مهمًّا في تشكيلها نظرًا إلى أن المستعمرات تقاسمت لغة مشتركة مع حواضرها الاستعمارية. ثانيًا، قاد الحركات الوطنية في المستعمرات نخب من الكريول لا الطبقة المثقفة (الإنتلجنسيا). من ناحية أخرى، لم تنحصر العوامل التي حفّزت الحركات في تشديد سيطرة مدريد وهيمنتها وانتشار الأفكار التحررية لعصر الأنوار؛ إذ كانت كل واحدة من جمهوريات أميركا الجنوبية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر وحدة إدارية، وهو ما أدى بها إلى تطوير «واقع أشد صلابة» بمرور الزمن، وهي عملية عجّلت بها «رحلات الحج الإدارية»، أو ما يسمّيه أندرسون «الرحلة بين العصور، والمراتب (الاجتماعية/ القانونية)، والأماكن». التقى المسؤولون البيروقراطيون الكريول بزملائهم، «إخوانهم الحجاج»، من أماكن وعائلات نادرًا ما سمعوا بها في مسار رحلات الحج هذه، وطوّروا عند التعامل معهم بوصفهم رفاق السفر، وعيًا بالاتصال (لماذا نحن.. هنا.. معًا؟)(١٥٨).

تزامن انتهاء حقبة الحركات الوطنية الناجحة في الأميركيتين، كما يؤكد أندرسون، مع مقدَم عصر القومية في أوروبا. والأمثلة المبكرة للقوميات

---

(١٥٧) المصدر نفسه، ص ٤٢ - ٤٤.

(١٥٨) المصدر نفسه، ص ٥٠ - ٥٦.

الأوروبية مختلفة عن سابقاتها من ناحيتين اثنتين: كانت لغات الطباعة الوطنية مسألة مهمّة في تشكيلها، وحظيت بـ«نماذج» تتطلّع إليها منذ البداية. يستشهد أندرسون بتطوّرين اثنين سرّعا نهوض القوميات اللغوية الكلاسيكية. الأول هو اكتشاف حضارات «جليلة» بعيدة، مثل الصينية أو اليابانية أو الهندية أو الأزتيك أو الإنكا، أتاحت للأوروبيين التفكير في حضارتهم بوصفها واحدة من بين حضارات عدة، وليست المختارة أو الأفضل بالضرورة[١٥٩]. الثاني هو التغير في الأفكار الأوروبية عن اللغة. يلاحظ أندرسون أن الدراسة العلمية المقارِنة للغات بدأت منذ أواخر القرن الثامن عشر. في هذه الحقبة، بُعثت اللغات المحلية الدارجة، وأُنتجت المعاجم وكتب النحو. وكان لذلك كله مضامين عميقة ومؤثرة بالنسبة إلى اللغات القديمة المقدّسة التي اعتُبرت الآن على قدم المساواة مع منافساتها المحلية الدارجة. أمّا أجلى تمظهر لهذه النزعة التَسْوَوية، فيتبدّى في «المعاجم الثنائية اللغة»؛ إذ «مهما تكن الوقائع والحقائق السياسية في الخارج، فإن التشيكية ـ الألمانية / الألمانية ـ التشيكية تشتركان في المكانة والاعتبار ضمن غلافي المعجم الثنائي اللغة»[١٦٠]. من الواضح أن هذه «الثورة المعجمية» لم تُختبر في فراغ؛ إذ أنتجت المعاجم أو الكتب النحوية لسوق النشر، ومن ثم لعموم المستهلكين. أمّا الزيادة العامة في معدلات معرفة القراءة والكتابة، إلى جانب نمو موازٍ في التجارة والصناعة والاتصالات، حيث أوجدت دوافع محفّزة جديدة للتوحّد اللغوي المحلي. وهذا بدوره جعل مهمة القومية أكثر سهولة.

من ناحية أخرى، أوجدت هذه التطوّرات مشكلات سياسية متزايدة لكثير من الأسر الحاكمة طوال القرن التاسع عشر، لأن شرعية أغلبيتها لا علاقة لها بـ«الوطنية». إذ تعرّضت الأُسر الحاكمة والطبقة الأرستقراطية لتهديد التهميش أو الإقصاء عن «الجماعات المتخيلة» الوليدة. وأدّى ذلك إلى نشوء «قوميات رسمية» (وهو تعبير استعاره أندرسون من سيتون ـ واتسون). وهذه القوميات وفّرت:

الوسيلة لجمع التطبيع مع الاحتفاظ بالسلطة الوراثية، ولا سيما التحكّم

---

(١٥٩) المصدر نفسه، ص ٦٩ - ٧٠.

(١٦٠) المصدر نفسه، ص ٧١.

بممالك شاسعة متعددة اللغات منذ العصور الوسطى، أو بأسلوب آخر، مدّ جلد الأمّة القصير والضيق ليغطي جسم الإمبراطورية الضخم[١٦١].

يشدّد أندرسون على أن القوميات الرسمية تطوّرت بعد انتشار الحركات الوطنية الشعبية في أوروبا منذ عشرينيات القرن التاسع عشر، وكردّة فعلٍ على ذلك الانتشار. ومن ثم كانت «مستحيلة» تاريخيًا قبل ظهورها. فضلًا عن ذلك، لم تنحصر هذه القوميات في أوروبا، بل اتُّبعت سياسات مشابهة في المناطق الشاسعة التي أُخضعت في أفريقيا وآسيا في مسار القرن التاسع عشر، حين التقطتها النخب المحلية الحاكمة وحاكتها في المناطق التي نجت من الاحتلال والإخضاع[١٦٢].

ينقل ذلك كله أندرسون إلى محطته الأخيرة: القوميات المناهضة للاستعمار في آسيا وأفريقيا؛ فهذه «الموجة الأخيرة» من القوميات، كما يؤكد، استمدت إلهامها غالبًا من النموذج الذي جسّدته الحركات المبكرة في أوروبا والأميركتين. وأدّت القوميات الرسمية في هذه العملية دورًا مفتاحيًا، حيث نقلت سياسات «الروسنة» (نسبة إلى روسيا) وزرعتها في مستعمراتها الأوروبية الإضافية. يزعم أندرسون أن هذه النزعة الأيديولوجية تناسجت مع ضرورات ومتطلبات عملية، نظرًا إلى أن إمبراطوريات أواخر القرن التاسع عشر كانت كبيرة وشاسعة وممتدة إلى حد تعذّر حكمها بواسطة حفنة من الوطنيين. يُضاف إلى ذلك أن الدولة كانت تضاعف، وبسرعة، وظائفها في الحواضر والمستعمرات معًا. وما كان مطلوبًا آنذاك هو كوادر متعلّمة وخاضعة للدولة وبيروقراطيات مشتركة. وتولّدت هذه بواسطة نظام المدارس الجديد الذي أدّى بدوره إلى رحلات حج جديدة، لم تكن هذه المرة إدارية وحسب، بل تعليمية أيضًا.

من ناحية أخرى، اعتمد منطق الاستعمار على دعوة الأهالي المحليين إلى المدارس والمكاتب، لكن ليس إلى غرف مجالس الإدارة. والنتيجة؟ «أفراد من الطبقة المثقفة (الإنتلجنسيا) الذين يتكلّمون لغتين، ويشعرون بالعزلة والوحدة، وغير مرتبطين بالطبقات البرجوازية المحلية القوية»، وأصبحوا

(١٦١) المصدر نفسه، ص ٨٦.

(١٦٢) المصدر نفسه، ص ١٠٩ - ١١٠.

ناطقين أساسيين باسم القوميات في المستعمرات[١٦٣]. وبوصفهم أفرادًا من الطبقة المثقفة (الإنتلجنسيا) الناطقين بلغتين اثنتين، أُتيح لهم الوصول إلى نماذج من الأمّة والقومية، «جرت تنقيتها من شوائب واضطراب وفوضى تجارب أكثر من قرن من التاريخ الأميركي والأوروبي». كان في المستطاع نسخ هذه النماذج، وتعديلها وتكييفها، وتحسينها. أخيرًا، مكّنت تقانات الاتصال المحسَّنة أفراد الطبقة المثقفة من نشر رسالاتهم لا بين جماهير الأميين وحسب، بل أيضًا بين الجماهير المتعلّمة التي تقرأ لغات مختلفة. وفي ظروف القرن العشرين، صار بناء الأمّة أسهل كثيرًا من ذي قبل[١٦٤].

تتضمن الطبعة الثانية من كتاب **جماعات متخيَّلة** فصلين جديدة مكرَّسين لتحليل القومية الرسمية في عوالم مستعمرات آسيا وأفريقيا، وجدهما أندرسون ناقصين في الطبعة الأصلية. ومن ثم يركز أندرسون على ثلاثة مؤسسات، هي الإحصاء والخريطة والمتحف، ذوات تأثير عميق في تفكير الدولة الاستعمارية المتأخرة في مستعمراتها الخاضعة لها ـ «طبيعة البشر الذين تحكمهم، وجغرافية المستعمرة، وشرعية الأسلاف»[١٦٥]. وفقًا لأندرسون، تمثّل «الوشاح» في هذا التفكير «شبكة تصنيفية إجمالية، يمكن تطبيقها بمرونة لا نهائية على كل ما هو حقيقي أو متخيَّل يخضع لسيطرة الدولة: الشعوب، والمناطق، والأديان، واللغات، والمنتجات، والمعالم التاريخية، وسواها». أمّا «النسيج»، فهو ما يسمّيه «الإنتاج المسلسل»: «الافتراض بأن العالم مكوَّن من تعدديات جمعية يمكن نسخها». ولذلك طمحت الدولة الاستعمارية إلى إيجاد مشهد طبيعي بشري ظاهر للعيان تمامًا تحت سيطرتها؛ رؤية «يكون فيها لكل شخص وكل شيء رقم متسلسل (إذا جاز التعبير)». ثم يرث هذه السلاسل المنسوخة خليفة الدولة في المرحلة ما بعد الكولونيالية: «النتيجة المنطقية النهائية هي الشعار.. الذي يجمع بخوائه، وخروجه عن السياق، وسهولة تذكره بصريًا، وقابليته اللامحدودة لإعادة الإنتاج في كل جهة، الإحصاء والخريطة، والوشاح والنسيج المحبوك، في كتلة يتعذّر محوها أو فصم عراها»[١٦٦].

---

(١٦٣) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(١٦٤) المصدر نفسه.

(١٦٥) Anderson, *Imagined Communities* (2006), p. 146.

(١٦٦) المصدر نفسه، ص ١٨٤ - ١٨٥.

يصعب أن نوفي تفسير أندرسون السردي المعقّد حقه في بضع صفحات. وينسب المؤلف نفسه نجاح كتابه إلى اندفاعاته الجدلية المثيرة للخلاف التي لا تتأثر بمرور الزمن. ومن ثم كان كتاب **جماعات متخيَّلة** عند نشره الدراسة المقارنة الوحيدة للقومية المكتوبة من منظور غير أوروبي؛ قد انتقد الاستعمارين البريطاني والأميركي، مع أنه كتب بالإنكليزية. والأهم أن الكتاب:

باقتراحه مفهوم «المجتمع المتخيّل»، عرض للمقارنة بشيء من المفارقة الساخرة إلى حدٍ ما نوعًا من المجتمع الذي يغري القوميين جميعهم بشيء مقلق، لا هو «متخيَّل» مثل «الحصان الخرافي الوحيد القرن»، ولا «حقيقي» واقعي مثل «جهاز التلفاز»، بل شيء مشابه لشخصيتي مدام بوفاري وكويكج، اللتين انبثق وجودهما من اللحظة التي تخيّلهما لنا كلٌ من فلوبير (Flaubert) وميلفيل (Melville)[١٦٧].

أخيرًا، يلاحظ أندرسون ـ في حكمة لاحقة على وقوع الحادث ـ أن الكتاب سعى إلى جمع شكل من المادية التاريخية مع ما سوف يُدعى لاحقًا «تحليل الخطاب» (Discourse Analysis) ـ ليضع أساس التحليلات «ما بعد الحداثية» للقومية[١٦٨].

٣ ـ ميروسلاف هروش والمراحل الثلاث للقومية

النموذج النظري الأخير الذي سأناقشه في هذا القسم هو الذي وضعه المؤرخ التشيكي ميروسلاف هروش. أعماله التي جُمعت في كتابَي: **(الشروط الاجتماعية للانبعاث القومي في أوروبا)** (براغ ١٩٦٨). *Die Vorkämpfer der nationalen Bewegung bei den kleinen Völkern Europas. Eine vergleichende Analyse zur gesellschaftlichen Schichtung der patriotischen Gruppen.*؛ و**(انبعاث الأمم الأوروبية الصغيرة: أمم شمال أوروبا وغربها)** (براغ ١٩٧١)، *Obrozeni malych evropskich narodu. I: Narody severni a vychodni Evropy.*

كانت رائدة من جوانب عدة. كان هروش أول باحث أكاديمي يتولّى القيام بالتحليل الاجتماعي ـ التاريخي الكمّي للحركات القومية في إطار منهجي

(١٦٧) المصدر نفسه، ص ٢٢٧.

(١٦٨) المصدر نفسه، والإطار الرقم (٣-٧)، ص ١٩٥ من هذا الكتاب.

مقـارن. كتـب قائـلًا: «لو كانت لـدي أي طموحات فـي ما وراء ميـدان البحث التجريبـي، لوجِـدت في ميادين المناهج لا النظريات: لقـد حاولت إظهار فائدة المناهج المقارنة حين لم يكن استعمالها شائعًا في علم التأريخ الأوروبي (فضلًا عن التشيكي)»[١٦٩]. ثانيًا، ربط تشكيل الأمّة بعمليات التحوّل الاجتماعي الأوسع، ولا سـيما تلك المتصلة بانتشـار الرأسـمالية، لكنه فعل ذلك عبر تجنّب المبالغة في التبسـيط الاقتصـادي، مركّزًا على تأثيـرات الحراك الاجتماعـي والجغرافي، والاتصالات الأكثر كثافة، وانتشار التعليم وتغيّر الأجيال بوصفها عوامل وسيطة. يبلغنا هروش في ما بعد أن عمله كان «ردًّا نقديًا على التشديد الأحادي الجانب الذي وضعه [كارل] دويتش على دور الحراك والاتصال الاجتماعيين»[١٧٠].

المذهل فعلًا أن دراسات هروش الرائدة والطليعية لم تترجَم إلى الإنكليزية حتى عام ١٩٨٥. وإلى ذلك الحين، عرف الجمهور العريض ما توصل إليه من نتائـج عبر كتابات إريك هوبزباوم (١٩٧٢)، وتوم نيرن (١٩٧٤) اللذين تعاملا مع أعمال هروش بوصفها تحليلًا مقارَنًا ممتازًا. وفي موقف مماثل، علّق غيلنر بالقـول إن نشـر كتـاب *Social Preconditions of National Revival in Europe: A Comparative Analysis of the Social Composition of Patriotic Groups among the Smaller European Nations* **(الشـروط الاجتماعيـة المسـبقة للانبعـاث القومي في أوروبا: تحليل مقارَن للتركيبة الاجتماعية للجماعات الوطنية بين الأمم الأوروبية الصغيرة)** (١٩٨٥) جعل من الصعب عليه فتح فمه خوفًا من ارتكاب خطأ[١٧١].

يبدأ هروش تحليله بملاحظة تجريبية. في بداية القرن التاسـع عشـر، كمـا يقـول، كانـت في أوروبـا ثمانـي «دول قومية» تسـتعمل لغـات أدبية متطـوّرة إلـى حد ما، وتتمتّع بثقافـات رفيعة ونخب حاكمة متجانسـة إثنيًا (شـملت الطبقـة الأرسـتقراطية والطبقـة البرجوازيـة التجاريـة والصناعيـة البازغـة). كانـت هـذه الدول القومية ـ إنكلترا وفرنسـا وإسـبانيا والسـويد

---

(١٦٩) انظر الإطار الرقم (٣-٨)، ص ٢٠٨ من هذا الكتاب، و Miroslav Hroch, «Real and Constructed: The Nature of the Nation,» in: Hall, ed., *The State of the Nation*, p. 91.

(١٧٠) Miroslav Hroch: «Modernization and Communication as Factors of Nation Formation» in: Delanty and Kumar, eds., p. 25.

(١٧١) ورد في: John A. Hall, «Introduction,» in: Hall, ed., *The State of the Nation*, p. 6.

والدانمارك والبرتغال وهولندا، ثم روسيا في ما بعد ـ نتاج عملية طويلة من بناء الأمّة بدأت في العصور الوسطى. هنالك أيضًا أمّتان بازغتان، لكلٍّ منهما ثقافة متطوّرة ونخبة متجانسة إثنيًا، لكن من دون سقف سياسي: ألمانيا وإيطاليا[172].

في الوقت ذاته، كان هناك أكثر من ثلاثين «جماعة إثنية غير مهيمنة» منتشرة حول أراضي الإمبراطوريات المتعددة الإثنيات، وعدد من الدول القومية المذكورة آنفًا. لم تكن لهذه الجماعات دول خاصة بها، ولا نخب حاكمة محلية، ولا تراث ثقافي مستمر بلغاتها الأدبية. واحتلت عادة أراضي محصورة، لكن تحت هيمنة طبقة حاكمة خارجية ـ أي تنتمي إلى جماعة إثنية مختلفة. ومع أن هذه الجماعات، كما يلاحظ هروش، ارتبطت بشرق أوروبا وجنوب شرقها، فإن كثيرًا من المجتمعات المحلية المشابهة وجِدت في أوروبا الغربية أيضًا[173]. وعاجلًا أو آجلًا، سوف يعي بعض من أعضاء هذه الجماعات إثنيتهم، ويبدأون إدراك أنفسهم بوصفهم أمّة محتمَلة. وعند مقارنة وضعهم بوضع الأمم الراسخة، اكتشفوا بعض العيوب والنواقص المعيّنة التي لن تتوجد في أمّة المستقبل، وبذلوا جهودًا لمغالبتها، وسعوا إلى الحصول على الدعم والمساندة من رفاقهم. يلاحظ هروش أن هذا الاهتياج القومي بدأ مبكرًا جدًّا في بعض الحالات، أي في عام ١٨٠٠ تقريبًا (اليونان، التشيك، النرويجيون، الإيرلنديون)، أو بعد جيل آخر (الفنلنديون، الكروات، السلوفينيون، الفلمنكيون، الويلزيون)، أو حتى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (اللاتفيون، الإستونيون، الكاتالونيون، الباسك)[174].

---

(١٧٢) Miroslav Hroch: «From National Movement to the Fully-Formed Nation: The Nation-Building Process in Europe,» *New Left Review*, vol. 1, no. 198 (March-April 1993); «National Self-Determination from a Historical Perspective,» in: Sukumar Periwal, ed., *Notions of Nationalism* (Budapest; New York: Central European University Press, 1995), and «Nationalism and National Movements: Comparing the Past and the Present of Central and Eastern Europe,» *Nations and Nationalism*, vol. 2, no. 1 (March 1996).

(١٧٣) Hroch, «From National Movement to the Fully-Formed Nation,» p. 5.

(١٧٤) Hroch, «Nationalism and National Movements,» p. 37.

الإطار الرقم (٣-٨) ميروسلاف هروش

يعمل ميروسلاف هروش أستاذًا للتاريخ في كلية الفلسفة في جامعة تشارلز في براغ. وهو مؤلف كتابين مؤثرين ومهمّين جدًا هما الشروط الاجتماعية المسبقة للانبعاث القومي في أوروبا: تحليل مقارن للتركيبة الاجتماعية للجماعات الوطنية بين الأمم الأوروبية الصغيرة (١٩٨٥)، و*(Comparative Studies in Modern European History: Nation, Nationalism, Social Change)* (دراسات مقارنة في التاريخ الأوروبي الحديث: الأمّة والقومية والتغيير الاجتماعي) (٢٠٠٧).

يكتب هروش في مقدمة آخر مجموعة من المقالات التي نشرها: «أهم حجّة في عملي الأكاديمي، وحيث أخالف أغلبية الأبحاث المعاصرة، هي الاعتقاد بأننا لا نستطيع دراسة عملية تشكّل الأمّة بوصفها مجرّد منتج جانبي للقومية الغامضة. يجب أن نفهمها باعتبارها جزءًا من التحوّل الاجتماعي والثقافي، ومكوّنًا من مكوّنات تحديث المجتمعات الأوروبية، حتى وإن لم تحدث عملية التحديث هذه بشكل متزامن، وكان لها مواصفات محلية مهمة». Miroslav Hroch, *Comparative Studies in Modern European History: Nation, Nationalism, Social Change*, Variorum Collected Studies Series; CS886 (Aldershot; Burlington, VT: Ashgate Variorum, 2007), p. x.

«إذا قال قائل إن الناس يتركون أحدهم يخدعهم ويدفعهم إلى التفكير في أنهم أمّة، نعتقد أنه مجرّد هراء. لكن إذا أكد أحدهم أن جماعة معيّنة من السياسيين بدأت توكيد الأمّة للوصول إلى السلطة، لا في ما يتعلّق بالوجود الفعلي، بل كافتراض يتيح سبيلًا أفضل إلى السلطة، فإننا نجد في ذلك الكثير من الحقيقة. لهذا، من الضروري القبول بالوجود الموضوعي لجماعة اجتماعية كبيرة (يمكن أن تكون أمّة)، من ناحية. ومن ناحية أخرى، يجب الحذر من استغلال هذه الحقيقة في المسعى إلى السلطة»... «تشيكوسلوفاكيا مثال نموذجي على استحالة اختراع هوية وطنية. ويظهر فشل تشيكوسلوفاكيا كيف يرفض الناس ـ السلوفاك في هذه الحالة ـ مفهوم أمّة لا يتوافق مع الحقيقة». David Svoboda, «Nations under Siege - Interview with Historian Miroslav Hroch,» *New Presence*, no. 4 (Winter 2004), pp. 24 and 26.

يدعو هروش هذه «المساعي المنظّمة لتحقيق السمات والملامح كلها للأمّة الكاملة النضج»، حركة وطنية. ويقدّم الحجّة على أن الميل إلى وصفها بأنها «قومية» يؤدي إلى تشوّش خطِر، نظرًا إلى أن القومية بالمعنى الدقيق شيء آخر، أي تلك «النظرة التي تعطي أولوية مطلقة لقيم الأمّة على القيم والمصالح

الأخرى كلها»[١٧٥]. بهذا المعنى، ليست القومية سوى شكل واحد من الأشكال الكثيرة للوعي الوطني التي ستظهر في مسار هذه الحركات. أمّا تعبير «قومي»، فيمكن تطبيقه على شخوص تمثيلية مثل الشاعر النرويجي فيرغلاند (Wergeland) الذي حاول إيجاد لغة لبلاده، أو الكاتب البولندي ميكيفيتش (Mickiewicz) الذي تاق إلى تحرير وطنه، لكن يتعذّر القول إن جميع المشاركين في هذه الحركات هم «قوميون» بهذا المعنى. لقد أصبحت القومية بالطبع قوة مهمّة في هذه المجالات، كما يعترف هروش، لكن مثلما هي الحال في الغرب، كان ذلك تطورًا متأخرًا؛ فبرامج الحركات الوطنية الكلاسيكية من نوع مختلف. وهي تشمل، وفقًا لهروش، ثلاث مجموعات من المطالبات:

- تطوير أو تحسين الثقافة الوطنية اعتمادًا على اللغة المحلية التي يجب استعمالها في التعليم، والإدارة، والحياة الاقتصادية.

- إيجاد بنية اجتماعية كاملة، تشمل نخبها المتعلمة وطبقة رجال الأعمال من ذوي الذهنية التجارية المغامرة.

- إنجاز حقوق مدنية متساوية وتحقيق درجة معيّنة من الإدارة الذاتية السياسية[١٧٦].

يتفاوت توقيت هذه المجموعات الثلاثية من المطالب وتتباين أولويتها النسبية، لكن مسار أي حركة وطنية لم يكتمل إلّا حين تحققت كلها[١٧٧].

من ناحية أخرى، يميّز هروش ثلاث مراحل بنيوية بين نقطة انطلاق أي حركة وطنية واكتمالها الناجح. في أثناء الحقبة الأولية، التي يدعوها المرحلة (أ)، التزم الناشطون بالاستقصاء العلمي الأكاديمي للسمات والخصائص اللغوية والتاريخية والثقافية لجماعتهم الإثنية. ولم يحاولوا اللجوء إلى الاهتياج الوطني أو إلى صوغ أي أهداف سياسية في هذه المرحلة، لأنهم معزولون من جهة، ولأنهم لم يعتقدوا بأنها ستخدم أي غرض من جهة ثانية[١٧٨]. في الحقبة

---

(١٧٥) Hroch, «From National Movement to the Fully-Formed Nation,» p. 6.

(١٧٦) Hroch, «National Self-Determination from a Historical Perspective,» pp. 66-67.

(١٧٧) Hroch, «From National Movement to the Fully-Formed Nation,» p. 6.

(١٧٨) Miroslav Hroch, *Social Preconditions of National Revival in Europe: A Comparative* =

الثانية، المرحلة (ب)، برزت مجموعة جديدة من الناشطين الذين عزموا على ضم أكبر عدد ممكن من الأنصار في جماعتهم الإثنية إلى مشروع تكوين أمّة. يلاحظ هروش أن هؤلاء الناشطين لم ينجحوا في البداية، لكن جهودهم لقيت استقبالًا وقبولًا متناميًا بمرور الوقت. وحين أصبح الوعي الوطني اهتمامًا يشغل أغلبية السكان، تشكّلت حركة جماعية، يسمّيها هروش المرحلة (ج). في هذه المرحلة وحسب أمكن تشكيل بنية اجتماعية كاملة[١٧٩]. يشدّد هروش على أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى لم يتم بضربة واحدة: «بين تمظهرات الاهتمام العلمي الأكاديمي، من ناحية، والانتشار الجماهيري للمواقف الوطنية، من ناحية أخرى، تكمن حقبة تميزت باهتياج وطني ناشط: عملية تخمير الوعي الوطني»[١٨٠].

يتيح هذا التحقيب، كما يتابع هروش، إجراء مقارنات هادفة بين الحركات الوطنية. ففي رأيه، يتمثل أهم معيار لأي تصنيف للحركات الوطنية في العلاقة بين الانتقال إلى المرحلة (ب) ثم إلى المرحلة (ج)، من جهة، والانتقال إلى المجتمع الدستوري، من ناحية ثانية. وعند جمع هاتين السلسلتين من التغييرات، يحدد أربعة أنماط من الحركات الوطنية في أوروبا:

- في النمط الأول، بدأ الاهتياج الوطني تحت مظلة النظام الاستبدادي القديم، لكنه وصل إلى الجماهير في زمن من التغيّرات الثورية. أمّا زعماء المرحلة (ب) فعملوا على صوغ برامجهم الوطنية في ظروف الاضطراب السياسي. يستشهد هروش بحالة الاهتياج التشيكي في بوهيميا والحركات الهنغارية والنرويجية لشرح هذا النمط وتوضيحه. لقد دخلت هذه الحركات كلّها المرحلة (ب) في القرن التاسع عشر تقريبًا؛ إذ حصل النرويجيون على استقلالهم (ودستورهم الليبرالي) في عام ١٨١٤، وطُورت البرامج الوطنية في تشيكيا والمجر في مسار ثورات عام ١٨٤٨.

= *Analysis of the Social Composition of Patriotic Groups among the Smaller European Nations* (Cambridge, [Cambridgeshire]; New York: Cambridge University Press, 1985), p. 23.

(١٧٩) Hroch: «From National Movement to the Fully-Formed Nation,» p. 7, and «National Self-Determination from a Historical Perspective,» p. 67.

(١٨٠) Hroch, *Social Preconditions of National Revival in Europe*, p. 23.

ـ فـي النمط الثاني، بدأ الاهتياج الوطني أيضًا تحت مظلة النظام القديم، لكن الانتقال إلى المرحلة (ج) تأخر إلى ما بعد الثورة الدستورية. ونجم هذا الانتقال إمّا عن التطور الاقتصادي غير المتكافئ، مثلما هي الحال في ليتوانيا أو لاتفيـا أو سـلوفينيا أو كرواتيـا، وإمّـا عن القمع الأجنبـي، مثلما حدث في سـلوفاكيا أو أوكرانيا. يلاحظ هـروش أن المرحلة (ب) بدأت في كرواتيا في ثلاثينيات القرن التاسـع عشر، وفي سـلوفينيا في أربعينيات القرن، وفي لاتفيا فـي أواخر الخمسـينيات، وتأخرت فـي ليتوانيا إلى ما بعد السـبعينيات. وهذا أخّر الانتقال إلى المرحلة (ج) إلى ثمانينيات القرن في كرواتيا، والتسـعينيات فـي سـلوفينيا، وثـورة عـام ١٩٠٥ فـي لاتفيـا وليتوانيـا. ويؤكد أن سياسـات «التمجير» (نسـبة إلى المجر) أوقفت الانتقال إلى المرحلة (ج) في سـلوفاكيا إلى ما بعد عام ١٨٦٧، مثلما فعلت «الروسنة» الإجبارية في أوكرانيا.

ـ في النمط الثالث، تشكّلت حركة جماعية تحت مظلة النظام القديـم، أي قبل تأسـيس نظام دسـتوري. وانحصر هذا النمط في مناطق السـلطنة العثمانية في أوروبا ـ صربيا واليونان وبلغاريا.

في النمط الرابع والأخير، بدأ الاهتياج الوطني في ظل الظروف الدستورية في أوضاع رأسمالية أكثر تطورًا، فكان هذا النمط سمة مميّزة لأوروبا الغربية. في بعض من هذه الحالات حدث الانتقال إلى المرحلة (ج) في وقت مبكر، كمـا في أراضي الباسـك وكاتالونيا، بينما نتج بعـد امتداد المرحلة (ب) حقبة طويلـة جـدًّا، كمـا في الفلانـدرز، أو من دونها كمـا في ويلز أو اسـكتلندا أو بريتانيا[181].

يؤكد هروش أن هذه الأنماط لا تمكّننا من فهم أصول مختلف الحركات الوطنيـة ونتائجهـا، نظرًا إلى أنهـا تعتمد على تعميمـات[182]. ويجب على أي تفسـير مـرضٍ أن يكـون «متعـدد الأسـباب»، ويرسّـخ الصـلات الرابطـة بين المراحل البنيوية التي حدّدناها آنفًا. وفي ضوء هذه الاعتبارات، يحاول هروش تقديـم إجابات عن الأسـئلة التاليـة: كيـف أثّرت تجارب (وبنـى) الماضي في

---

(١٨١) للاطّلاع على هذه الأنماط انظر: المصدر نفسه، الفصل ٧، و Hroch, «From National Movement to the Fully-Formed Nation,» pp. 7-8.

(١٨٢) انظر الإطار الرقم (٣-٨)، ص ٢٠٨ من هذا الكتاب.

عملية بناء الأمّة الحديثة؟ كيف/ ولماذا تحوّلت الاهتمامات العلمية الأكاديمية لعدد صغير من المثقفين إلى برامج سياسية تلقّت الدعم من ارتباطات عاطفية/ وجدانية قوية؟ ما الذي يفسر نجاح بعض من هذه الحركات وفشل بعضها الآخر؟ يبدأ هروش بدراسة «المقدّمات السابقة على بناء الأمّة».

وفقًا لهروش، لم تكن تجارب الماضي، أو ما يدعوه «التمهيد لبناء الأمّة الحديثة» (أي المحاولات المبكرة لبناء الأمّة)، مهمة لـ«الدول القومية» في الغرب وحسب، بل للجماعات الإثنية غير المهيمنة في وسط أوروبا وشرقها أيضًا. أمّا إرث الماضي، فيجسّد ثلاثة مصادر مهمّة يمكن أن تسهّل ظهور الحركة الوطنية. أولًا، «الآثار الباقية من استقلال ذاتي سياسي سابق»؛ فكثيرًا ما أدّت الأملاك الموهوبة أو الامتيازات الممنوحة في عهد النظام القديم إلى توتّرات بين هذه الأملاك والنظام الاستبدادي «الجديد»، وهذا وفّر بدوره الدوافع المحفّزة للحركات الوطنية لاحقًا. يشير هروش إلى مقاومة المناطق الهنغارية والبوهيمية والكرواتية لمركزية جوزفين (Josephine) لتوضيح حجّته. وتمثّل المصدر الثاني في «ذكرى استقلال سابق أو دولة في الماضي». أمكن لذلك أيضًا تأدية دور محفّز كما في الحالات التي تظهرها الحركات التشيكية والليتوانية والبلغارية والكاتالونية. أخيرًا، كان وجود «لغة مكتوبة قروسطية» حاسم الأهمية نظرًا إلى أنها جعلت تطوّر لغة أدبية حديثة أكثر سهولة. لقد جرت المبالغة كثيرًا، كما يؤكد هروش، حول غياب هذا المصدر في القرن التاسع عشر، وهو ما أدى إلى التمييز بين شعوب «تاريخية» وشعوب «لاتاريخية». وفي الحقيقة، كان بروزه مقتصرًا على الإيقاع الذي رافق تطوّر الوعي التاريخي بالأمّة[١٨٣].

مهما يكن ميراث الماضي، بدأت عملية بناء الأمّة الحديثة دومًا مع مجموعة من المعلومات المتعلقة بالتاريخ واللغة والعادات والتقاليد الخاصة بالجماعة الإثنية غير المهيمنة؛ إذ ينقّب علماء الآثار الإثنيون في المرحلة (أ) في ماضي الجماعة، ويعبّدون الطريق للمعلومات اللاحقة عن الهوية الوطنية. لكن جهودهم، كما يؤكد هروش، لا يمكن أن تسمّى حركة سياسية

---

(١٨٣) Hroch: «From National Movement to the Fully-Formed Nation,» pp. 8-9, and «National Self-Determination from a Historical Perspective,» p. 69.

أو اجتماعيـة منظمـة نظرًا إلـى أنهم لم يعبّـروا بعدُ عن مطالـب وطنية. أمّا تحـوّل نشـاطهم الفكـري إلـى حركة تسـعى إلـى إحـداث تغييـرات ثقافية وسياسـية، فهو نتاج المرحلة (ب). يميز هروش بين ثلاثة تطوّرات عجّلت بهذا التحوّل:

ـ أزمة اجتماعية و/ أو سياسية في النظام القديم، مترافقة بتوترات وآفاق جديدة؛

ـ ظهور مشاعر الاستياء والسخط بين عناصر مهمّة من السكان؛

ـ فقـدان الثقـة بالأنظمة الأخلاقية التقليدية، وقبل كل شـيء انحسـار في الشـرعية الدينيـة، حتـى لـو أن ذلـك أثّـر فـي أعـداد قليلـة مـن المفكريـن والمثقفين[١٨٤].

مـن ناحيـة أخرى، لم يضمن اسـتهلال الهيـاج الوطنـي (المرحلة (ب)) بواسـطة مجموعة من الناشـطين ظهور حركة جماعية. وبـدوره، اعتمد الدعم الجماهيري وتحقيق الهدف النهائي بنجاح ـ في عملية تشكيل الأمّة الحديثة ـ على أربعة شروط:

ـ أزمة شرعية، ارتبطت بتوتّرات اجتماعية، وأخلاقية، وثقافية؛

ـ حد أساسي من الحراك الاجتماعي العمودي (لا بد من أن يأتي بعض المثقفين من الجماعة الإثنية غير المهيمنة)؛

ـ مسـتوى مرتفـع مـن الاتصـال الاجتماعي، يشـمل التعليـم والمدارس وعلاقات السوق؛

ـ صراعات مصالح وطنية الصلة[١٨٥].

يسـتعير هروش الشـرطين الثانـي والثالث مـن دويتش. ويوافـق على أن المسـتوى المرتفع من الحراك الاجتماعي والاتصال الاجتماعي يسـهّل ظهور الحركة الوطنية. لكن موافقته ليست مطلقة. ويلاحَظ أن هذه الشروط لا تنطبق

---

(١٨٤) Hroch, «From National Movement to the Fully-Formed Nation,» p. 10.

(١٨٥) المصدر نفسه، ص ١٢.

علـى حالتين اثنتين على أقل تقدير. **أولًا**، يشـير إلى حالة مقاطعة بولسـي في بولنـدا فـي فترة ما بين الحربين، حيث لم تشـهد إلّا الحد الأدنى من الحراك، واتصالات ضعيفة جدًا مع السوق، وأقل قدر من التعليم. وساد النمط ذاته في شـرق ليتوانيا وغرب بروسـيا ولوساتيا السـفلى، ومختلف مناطق البلقان. في هذه الحالات كلها، كانت الاستجابة للاهتياج الوطني حماسية تمامًا. من جهة أخـرى، كانـت المسـتويات المرتفعـة مـن الحـراك الاجتماعـي والاتصـال الاجتماعي في ويلز وبلجيكا وبريتانيا وشلسويغ غير كافية لتوليد دعم جماعي للحركات الوطنية فيها[١٨٦].

اعتمـادًا على هـذه الملاحظات، يؤكد هروش ضـرورة وجود عامل آخر ساعد فـي الانتقال إلى المرحلة (ج). وهذا مـا دعاه «صـراع مصالح وطني الصلـة»، أي «توتّـر اجتماعـي أو صـدام اجتماعي يمكن تمثيلهما بانقسـامات لغويـة (وأحيانًا دينية أيضًا). ووفقًـا لهروش، فإن أفضل مثال لهذا الصراع في القرن التاسـع عشـر هـو التوتّر بين خريجـي الجامعات الجـدد الذين أتوا من جماعـات إثنيـة غيـر مهيمنة، ونخبـة مغلقة مـن الأمّة الحاكمـة حافظت على سـيطرة موروثـة علـى المواقـع البـارزة والقيادية فـي الدولـة والمجتمع. ثمة صدامـات أيضًـا بيـن الفلاحين مـن الجماعة الإثنيـة غير المهيمنـة وأصحاب الأراضي من الجماعة المهيمنة، وبين الحرفيين من الأولى والتجار من الثانية. ويشـدّد هروش على أن صراعات المصالح هذه لا يمكن اختزالها إلى مجرّد صراع طبقات، نظرًا إلى أن الحركات الوطنية جنّدت دومًا الأنصار والمؤيدين من طبقات عدة[١٨٧].

أخيرًا، يطرح هروش السـؤال الآتي: «لماذا استُعملت التعابير الوطنية لوصـف هـذا النوع من الصراعـات الاجتماعية بأسـلوب أكثـر نجاحًا في بعـض أجزاء أوروبا من سـواها؟». إنـه يزعم أن الاهتيـاج الوطني بدأ في وقـت مبكـر وحقق نجاحًا أكبر في مناطق عاشـت فيهـا الجماعات الإثنية غير المهيمنة تحت قمع اسـتبدادي مطلق. في مثل هذه المناطق، لم يكن قـادة هـذه الجماعات ـ وأفرادهـا جميعهم ـ يتمتعون بأي قـدر من الثقافة

---

(١٨٦) المصدر نفسه، ص ١١.

(١٨٧) المصدر نفسه، ص ١١ - ١٢.

السياسـية أو التجربة السياسـية. فضلًا عن ذلك، لم يكن ثمة مساحة كافية لأشـكال بديلـة وأكثـر تطـورًا من الخطـاب السياسـي. ومن ثـم، كان من الأسـهل التعبير عن العداوات بالعبارات والتصنيفات الوطنية، مثلما كانت الحال في بوهيميا وإسـتونيا. وفقًا لهروش، كان ذلك هو السـبب بالضبط وراء اختلاف هذه المناطق عن أوروبا الغربية. أمّا المستويات المرتفعة من الثقافـة السياسـية والتجربـة السياسـية فـي الغـرب، فسـمحت بالتعبير عن صراعـات المصالـح الوطنية الصلة باللغة السياسـية. وجرت ملاحظة هذه الظاهـرة فـي الحـالات الفلمنكية والاسـكتلندية والويلزيـة، حيث وجدت البرامج الوطنية للناشطين أن من الصعب الفوز بتأييد الجماهير الجماعي، وفي بعض الحالات لم تحقق قط الانتقال إلى المرحلة (ج). يتابع هروش: «الدرس المسـتفاد هو أن حصر التفكير في المستوى الرسمي وحسب من الاتصـال الاجتماعـي الذي وصـل إليه مجتمع معيّـن لا يكفي - بل يجب معاينة تعقيد المحتويات التي جرى التوسط بشأنها عبره»[188]. يمكن بلوغ المرحلـة (ج) فـي وقـت قصير نسـبيًا إذا اتصلت الأهداف التـي عبّر عنها الناشـطون المهيَّجون بالحاجات الملحّة والتطلّعات المباشرة لأغلبية أفراد الجماعـة الإثنيـة غيـر المهيمنـة. وسـوف أختتـم هـذه المراجعـة الوجيزة بملاحظـة عامـة أبداها هروش بشـأن الانبعاث الإثني المعاصر في وسـط أوروبا وشرقها:

في وضع اجتماعي كان النظام القديم ينهار فيه، والعلاقات القديمة تتغيّر باسـتمرار، وحالة انعدام الأمن تتنامى عمومًا، رأى أفراد «الجماعة الإثنية غير المهيمنـة» الاشـتراك في اللغـة والثقافة بوصفـه اليقين المطلـق، القيمة القابلة للإثبـات مـن دون أي لبس. اليوم، مع تفكّك النظـام أو الاقتصاد المخطَّط له والأمن الاجتماعي، تعمل اللغة مرة أخرى - الحالة مشابهة - كبديل من عوامل الاندماج في مجتمع مفكَّك ومتداع. حين يفشـل المجتمع ويعجز، تبدو الأمّة الضامن النهائي[189].

---

(١٨٨) المصدر نفسه، ص ١٢.

(١٨٩) ورد في: Eric J. Hobsbawm, «Ethnicity and Nationalism in Europe Today,» in: Balakrishnan, ed., p. 261.

خامسًا: انتقاد الحداثة

تعرّضت نظريات الحداثة لانتقادات عدة على مر السنين، جلب انتباهنا إلى بعضها دعاةُ المقاربة البدائية وأتباع الإثنية ـ الرمزية الذين رفضوا الافتراضات الرئيسة للتفسيرات الحداثية، بينما وجّه بعضَها الآخر عدد من الزملاء الحداثيين أنفسهم، وأولئك الذين ساهموا في آراء وأفكار نظرية أحدث عهدًا، حيث حافظوا على ولائهم للإطار الحداثي العريض، من دون أن يوافقوا على جوانب محدّدة من نظريات معيّنة. وسوف أقسم هذه الانتقادات مرة أخرى إلى ثلاث فئات، تبعًا لمجموعة النظريات التي تتصدى لها، بدءًا من الاعتراضات العامة ووصولًا إلى الانتقادات الأكثر تحديدًا في كل حالة. يجدر التوكيد هنا، ربما أكثر من أي وقت مضى، أن وجود إحدى هذه الفئات لا ينفي وجود الأخرى، وسوف يكتشف القارئ في المناقشة اللاحقة عددًا من الموضوعات المتكررة، والانتقادات الموجّهة إلى نسخ الحداثة كلها.

١ ـ التحولات الاقتصادية

أ ـ نظريات التحولات الاقتصادية لا تنسجم مع الحقائق

مثلما أشار عدد من المعلقين، لا تنسجم النظريات المحددة التي تعطي الأولوية للعوامل الاقتصادية في تفسير القومية مع الحقائق والوقائع على الأرض. على سبيل المثال، يؤكد برويللي أن نظرية نيرن تقلب التسلسل الفعلي للحوادث رأسًا على عقب عبر وضع أصول القومية ضمن البلدان الأقل تطورًا. وفي رأيه، تعود أصول القومية إلى أوروبا في الحقبة السابقة على تأسيس الإمبراطوريات الاستعمارية في ما وراء البحار. ومن ثم، تأتي القوميات المناهضة للاستعمار التي يمكن اعتبارها ردة فعل على الاستعمار، بعد القوميات الأوروبية لا قبلها. فضلًا عن ذلك كله، يستحيل تفسير ظهور أوائل الحركات القومية بلغة الاستغلال الاقتصادي أو التخلّف الاقتصادي. يستشهد برويللي بمثال القومية المجرية في إمبراطورية هابسبورغ لدعم توكيده. ويلاحظ أن المجريين الذين طوّروا أول حركة قومية في إمبراطورية هابسبورغ، لم يكونوا جماعة متخلّفة أو مستغَلّة؛ بل على العكس، كانوا يتمتّعون بعدد من المزايا. ويقدم الحجّة على أن القومية المجرية كانت ردة

فعـل على السـيطرة القمعية التي مارسـتها فيينا. هنالك حـركات قومية أخرى أيضًـا، ولا سـيما بين الجماعات غيـر المجرية التي اسـتغلّها المجريون، لكن كمـا يصـر برويللـي، كان ذلك تطـوّرًا متأخـرًا[١٩٠]. لا يُعَدّ برويللي الشـخص الوحيد الذي يضع موضع المساءلة تعامل نيرن مع القومية في بلدان «المركز» بوصفهـا ردة فعـل علـى قومية الأطـراف؛ فوفقًـا لهوبزباوم، مثـلًا، تهمل هذه الحجّـة الأصـل التاريخـي والـدور التاريخـي للقومية فـي بلـدان المركز التي شـهدت التطـور الرأسـمالي - إنكلترا وفرنسـا والولايـات المتحـدة وألمانيا - ووفّرت النموذج النظري للقوميات في البلدان الأخرى[١٩١].

يضاعـف أوريـدج (Orridge) عـدد الأمثلـة المضادة. ويلاحـظ أن مناطق كاتالونيـا والباسـك، حيث توجد حـركات قومية قوية، كانـت وما زالت أكثر المناطـق تطوّرًا في إسـبانيا. وعلى نحو مشـابه، كانت بوهيميـا «قلب القومية التشـيكية في القرن التاسع عشـر»، بكلمات أوريدج، الجزء الأكثر تطوّرًا من إمبراطورية هابسبورغ. أخيرًا، وصلت بلجيكا إلى مستوى مرتفع من التصنيع حين انفصلت عن هولندا في ثلاثينيات القرن التاسـع عشـر[١٩٢]. الشـيء ذاته ينطبـق علـى اسـكتلندا، كما يقـول مان (Mann)، «لأن اسـكتلندا لـم تكن، لا تاريخيًـا ولا اليـوم، منطقـة طرفيـة تابعـة (باسـتثناء منطقـة المرتفعـات (Highlands)»[١٩٣]. يحـاول نيـرن مراوغة هذه الانتقـادات عبر تأكيد أن «التطوّر اللامتكافئ» يمكن أن يشـتغل أحيانًا بطريقة عكسـية ويولد مناطق طرفية على مستوى مرتفع من التطوّر ضمن الدول المتخلّفة. لكن، كما يلاحظ أوريدج، هنالـك أيضًـا «أمثلـة لقوميـة لا تترافـق مع أي فـوارق ضخمة في المسـتوى التطـوري عن بيئتها المحيطة». ومن ثم، لا يوجد اختلاف مهم، في ما يتعلّق بالمستوى التطوري، بين النرويج والسويد، أو بين فنلندا وروسيا، حين تطوّر

---

(١٩٠) Breuilly, *Nationalism and the State*, pp. 412-413.

(١٩١) Eric J. Hobsbawm, «Some Reflections on «The Break-up of Britain»,» *New Left Review*, vol. 1, no. 105 (September-October 1977), p. 14; Smith, *Theories of Nationalism*, p. xvii, and Cocks, «Fetish zed Nationalism?,» p. 86.

(١٩٢) Andrew W. Orridge, «Uneven Development and Nationalism, 2,» *Political Studies*, vol. 29, no. 2 (June 1981), pp. 181-182.

(١٩٣) Michael Mann, «Book Review: *The Break-up of Britain: Crisis and Neo-Nationalism*,» *British Journal of Sociology*, vol. 29, no. 4 (December 1978), p. 529.

البلدان الصغيرة قومياتها. على نحو مشابه، عندما نالت أمم البلقان استقلالها في القرن التاسع عشر، لم تكن أكثر تطوّرًا أو تخلّفًا من منطقة المركز: السلطنة العثمانية. ويؤكد أوريدج أن من الأصعب استيعاب هذه الحالات ضمن نظرية نيرن(١٩٤).

هنالك صعوبة أخرى في تفسير نيرن تتمثّل في وجود أمثلة على «تطور لا متكافئ» من دون وجود حركات قومية قوية. يسأل أوريدج عن السبب وراء عدم وجود نظير لقوميتي اسكتلندا وويلز في شمال إنكلترا أو جنوب إيطاليا(١٩٥). ويمضي بروييلي خطوة أبعد ويقدّم الحجّة على أن من الصعب وصل قوة الحركة القومية وشدّتها مع درجة الاستغلال الاقتصادي والتخلّف الاقتصادي. ويلاحِظ أن القوميات كثيرًا ما تطوّرت بسرعة في المناطق الأقل استغلالًا أو تخلّفًا، فضلًا عن عدم ظهور حركات قومية مهمّة في المناطق التي وقعت فيها أشد أشكال الاستغلال الصارخة وضوحًا(١٩٦).

ثمة مشكلة مشابهة تكتنف نظرية هيكتر بشأن الاستعمار الداخلي. مرة أخرى، تجسّد الحالات الصعبة كاتالونيا واسكتلندا؛ إذ لم تصبح كاتالونيا قط مستعمرة داخلية. بل على العكس، كانت وما زالت تتمتّع بأقوى اقتصاد مناطقي في إسبانيا. ويلاحظ براند (Brand) أن اقتصاد كاتالونيا هو الاقتصاد الصناعي الوحيد في إسبانيا حين اكتسبت القومية الدعم الجماهيري، «والثاني بعد الاقتصاد البريطاني في طاقته الإنتاجية وتفوّقه التقاني في صناعة النسيج»(١٩٧). من ناحية أخرى، مثّلت اسكتلندا حالة من «التطوّر المفرط»؛ «فقد ظل الاسكتلنديون ردحًا من الزمن متفوّقين في الابتكار ضمن السياق البريطاني - في التعليم والمال والتقانة، والعلوم الطبيعية والاجتماعية»(١٩٨).

(١٩٤) Orridge, «Uneven Development and Nationalism, 2,» p. 182.

(١٩٥) المصدر نفسه.

(١٩٦) Breuilly, *Nationalism and the State*, p. 413.

(١٩٧) Jack A. Brand, «Nationalism and the Non-Colonial Periphery: A Discussion of Scotland and Catalonia,» in: Tiryakian and Rogowski, eds., p. 277.

(١٩٨) Hechter: «Internal Colonialism Revisited,» p. 20, and *Internal Colonialism: The Celtic Fringe in British National Development*, pp. xiii-xix, and J. Stone and S. Trencher, «Internal Colonialism,» in: Leoussi, ed., p. 159.

ومثلما رأينا سابقًا، يحاول هيكتر تعديل نظريته عبر إضافة بُعد ثانٍ إلى التقسيم الثقافي للعمل، بُعد «قطاعي»، حيث يتجمّع أعضاء الجماعات المحرومة في مجالات مهنية متخصصة ومحدّدة. في الحالة الاسكتلندية، يشتغل هذه التقسيم القطاعي للعمل عبر آلية «الاستقلال الذاتي المؤسسي»؛ حيث طور الاسكتلنديون، حين عثروا على وظائف في المؤسسات الاسكتلندية خصوصًا، درجة أعلى من التضامن الجماعي، مقارنة بما توقّعته النظرية الأصلية.

لكن هذا التعديل لم ينقذ، وفقًا للنقاد، نظرية هيكتر. ويؤكد براند أن النسخة الأولية كانت مقيَّدة بنموذج ماركسي أوسع للمجتمع. ولا تظهر في النسخة الجديدة أي علاقة بالنظرية الأصلية التي وضعها لينين. ومن ثم، كما يستنتج: «لا يوجد أي منطق في تسميتها «الاستعمار الداخلي»»[199].

والأهم، أن شروط التقسيم إلى قطاعات، التي عُرضت خصيصًا للتعامل مع الحالات الاستثنائية مثل اسكتلندا أو كاتالونيا، لم توجد في هذه البلدان. أولًا، كانت نسبة الاسكتلنديين الذين عملوا في المؤسسات التي أُنشئت بواسطة قانون الاستيطان في عام ١٧٠٧، صغيرة جدًا. ثانيًا، «حتى إذا قبلنا بأن مركزيتها عوّضت عن عددها القليل، فلا يوجد دليل يثبت أهميتها للتنظيمات المبكرة على الصعيد المناطقي والقومي»[200]. ويلاحظ براند أن هذه المؤسسات الاسكتلندية تحديدًا لم تكن تتعاطف مع القومية. على سبيل المثال، لم تبدأ كنيسة اسكتلندا بدعم «الحكم الذاتي» إلّا بعد الحرب العالمية الثانية، وبحلول هذا الوقت تضاءلت قوّتها وانحسر نفوذها بسرعة في المجتمع الاسكتلندي. أخيرًا، استُخدم عدد كبير من الاسكتلنديين في الخدمة الإدارية والاستعمارية للإمبراطورية البريطانية[201]. ولم تكن حالة كاتالونيا واعدة أيضًا. ومثلما ذكرنا آنفًا، كانت كاتالونيا منطقة على مستوى مرتفع من التصنيع، لكن «العمال الصناعيين في كاتالونيا، ولا سيما في برشلونة، هم الأصعب من حيث تعبئتهم وتجنيدهم لصالح القضية الكاتالونية»[202].

---

(١٩٩) Brand, p. 279.

(٢٠٠) المصدر نفسه، ص ٢٨١.

(٢٠١) Smith, *Theories of Nationalism*, p. xvi.

(٢٠٢) Brand, p. 282.

من ناحية أخرى، يلاحظ براند أن التقسيم المهني للسكان في اسكتلندا لا يتميّز بالسِّمة التي حدّدها هيكتر في اليهود الأميركيين، حيث انخرطت نسبة كبيرة من الاسكتلنديين في العمل الزراعي. ومن أجل أن ينتج التجمّع المهني قدرًا أعظم من التضامن الجماعي، يجب توافر اتصال كافٍ بين أعضاء الجماعة المعنية. لكن من بين جميع المهن، يُعَدّ العمال الزراعيون الأصعب على التنظيم. ويعتقد براند أن لذلك علاقة بالجغرافيا، إذ يمكن الاتصال بمئتي عامل في المصنع خلال نصف ساعة، بينما يتطلب ذلك ثلاثة أسابيع في الريف[٢٠٣]. لكن جوهر القضية يكمن في مكان آخر. وربما يمكن الاعتراف بأن الأفراد الذين يتجمّعون في مهن معيّنة سوف يلتقون معًا بانتظام ويتقاسمون الأفكار. ومن هذا التفاعل، سوف تبرز على الأرجح وجهة نظر مشتركة. لكن «ذلك لا يجيب عن السؤال الآتي: لماذا يجب أن تنمو من التفاعل وجهة نظر قومية تحديدًا؟»[٢٠٤].

قبل اختتام المناقشة، لنلاحظْ أن كتاب هيكتر اللاحق، احتواء القومية، تعرّض للانتقاد ذاته؛ ففي مراجعة هويير (Hoijer) للكتاب، يزعم أن «هيكتر لم ينخرط في اختبار منهجي لنظريته، على الرغم من أنه يناقش كثيرًا من الحالات التجريبية للقومية. ويخفق إلى حد ما في أخذ الأمثلة التجريبية التي يبدو أنها تدحض النظرية، بالاعتبار». يجسّد انفصال النرويج عن السويد في عام ١٩٠٥ مثالًا معبّرًا في هذا السياق، كما يؤكد هويير، نظرًا إلى أن توسيع نطاق الحكم الذاتي للنرويجيين في هذه الحقبة سبق تطوّر القومية النرويجية. ولهذا، ليس من السهل تقرير التأثير السببي للحكم غير المباشر، مثلما يعترف هيكتر ذاته. وفي الحقيقة، قد يسهّل نزع المركزية أو اتّباع أسلوب الحكم غير المباشر، العمل الجمعي القومي عبر منح موارد سياسية مهمة للزعماء السياسيين المحليين[٢٠٥].

---

(٢٠٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٠.

(٢٠٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٢.

(٢٠٥) R. Hoijer, «Book Review: *Containing Nationalism*,» *European Sociological Review*, vol. 16, no. 3 (September 2000), pp. 324-325, and D. Stefanovic, «Containing Rational Choice Theory: Michael Hechter's Rational Choice, Theory of Nationalism vs. the East European Experience with Nationalism,» Paper Presented at: The Annual Meeting of the American Sociological Association, New York, 11 August 2007.

ب ـ نظريات التحوّلات الاقتصادية اختزالية

ثمة اعتراض مشترك وجِّه إلى معظم نظريات الحداثة عن القومية يتعلّق بـ«نزعتها الاختزالية». ويكمن في صميم هذا الاعتراض الاعتقاد بأن القومية معقّدة جدًّا بحيث يتعذّر تفسيرها بمجرّد عامل مفرد. على سبيل المثال، يؤكد سميث أن صيغة نيرن بسيطة وفجّة إلى حد يستحيل عليها أن تشمل تنويع وتوقيت القوميات. إضافة إلى أننا «لا نستطيع ببساطة اختزال «العواطف» الإثنية إلى مصالح طبقية «حقيقية»، ولو اقتصر السبب على أن العواطف «حقيقية» أيضًا، والقومية تشمل ما يفوق كثيرًا مجرّد العواطف»[٢٠٦].

زعم بعضهم أيضًا أن نظرية هيكتر، على الرغم من التعديل الذي أُجري على النموذج المبكر، تستمر في تفسير التصدّعات الثقافية والعواطف الإثنية بواسطة الخصائص والسمات الاقتصادية والمكانية المجرَّدة. يختزل مثل هذا التفسير القومية إلى مجرّد استياء ناجم عن حالات الاستغلال وعدم المساواة الاقتصادية بين المناطق. علينا فقط أن نفكر في حالات الانبعاث الإثني لدى الأرمن واليهود والسود والغجر المشتتين لندرك سطحية هذا الرأي. وفقًا لسميث، ينحصر تأثير الاستغلال الاقتصادي في مضاعفة مشاعر الاستياء والشكوى الموجودة أصلًا[٢٠٧].

إضافة إلى ذلك كلّه، كما يؤكد سميث، يحدّ تفسير القومية بعامل مفرد، في هذا الحالة «الاستعمار الداخلي»، من فائدة النموذج حتمًا. ونظرًا إلى عجز هذا النموذج عن تفسير السبب وراء وجود حالات من الانبعاث القومي في مناطق كان فيها تأثير الرأسمالية، فضلًا عن التصنيع، عند الحد الأدنى (إريتريا)؛ ولماذا مرت مدة طويلة فاصلة بين ظهور التصنيع والانبعاث القومي في البلدان الغربية؛ ولماذا لم يظهر انبعاث إثني أو حركة قومية قوية في المناطق المتخلفة اقتصاديًا مثل شمال إنكلترا أو جنوب إيطاليا[٢٠٨].

---

(٢٠٦) Smith, *Theories of Nationalism*, p. xvii-xviii, and Orridge, «Uneven Development and Nationalism, 2,» pp. 190.

(٢٠٧) قارن: المصدران نفسهما، ص xvi و ١٨٨-١٨٩ على التوالي.

(٢٠٨) Smith, *Theories of Nationalism*, p. xvi.

ج ـ نظريات الخيار العقلاني قيمة تفسيرية محدودة

يتصل أحد الانتقادات المعيارية لنظريات الخيار العقلاني كلّها بعجزها (المزعوم) عن تفسير العواطف الحماسية القوية المتولّدة بواسطة الهويات والروابط الإثنية الوطنية. بل إن ممثّليها الرئيسيين يعترفون بالحدود المقيِّدة لنظرية الخيار العقلاني حين يتعلّق الأمر بالسلوك «العاطفي» أو «الطائش». يكتب مايكل بانتون (M. Banton)، أحد مؤيدي نظرية الخيار العقلاني: «سوف يبدو أي تفسير من منظور الخيار العقلاني للحوادث التاريخية المتسلسلة بعد وقوعها، تفسيرًا معقولًا يتفق مع الحكم المنطقي السليم وليس اختبارًا للنظرية». لكن، «عزو الحوادث إلى تأثير العاطفة القومية من دون توضيح ما الذي استحضرها أو قرر قوّتها، لا يُعَدّ تفسيرًا أفضل»، كما يتابع[٢٠٩].

يبدو أن المشكلة تنبثق من الافتراض المركزي لنظرية الخيار العقلاني، المتمثّل في العقلانية الأدواتية المفيدة والمرتكزة على المصلحة. ولأن من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، امتلاك حتى فهم أساسي لدوافع اللاعبين المعنيين ومدركاتهم، «يجرّم» المنظِّر العقلانية «بعد وقوع الجريمة» في معظم الحالات، مثلما يكشف شاهد بانتون. وحتى إذا تجاهلنا الأسس «غير الأدواتية وغير النفعية» للعمل، فكيف نعرف أن السيادة الوطنية (أو تقرير المصير) هدف عالمي شامل ـ عابر للتاريخ وللثقافة ـ تعتنقه الجماعات القومية كلّها، كما يزعم هيكتر في «احتواء القومية»؟ يؤكد النقاد أن سؤال «ما هي الأهداف المشتركة» يعتمد على سياق محدّد، هو الثقافة، أو الموقع الاجتماعي، أو الحقبة التاريخية ـ ومن ثم تُعَدّ المصالح الجمعية والأهداف المشتركة بنى مشيدة اجتماعيًا، وليست ثابتة أو عالمية شاملة. ويمكننا بالأسلوب نفسه أن نسأل «لماذا لا يترك الأفراد، بوصفهم أنانيين يشدّدون على أهمية المصالح، الجماعات الإثنية أو الوطنية التي ينتمون إليها حتى عندما يكون من الأنفع لهم فعل ذلك؟». تتمثّل المشكلة هنا، كما يؤكد النقاد، في أن الهويات الإثنية والوطنية، على الرغم من مستوى معيّن من السيولة والتدخّل الفردي، لا يتم اختيارها بحرّية، ولا النجاة منها بسهولة[٢١٠]. يوافق أوليري على هذا الرأي،

---

(٢٠٩) Banton, p. 263.

(٢١٠) Stefanovic, «Containing Rational Choice Theory».

ملاحظًا أن «كثيرًا من سمات ومعالم القومية «تكاليف لا يمكن استعادتها»، ومتأصلة في التقاليد التراثية، وتستفيد من العواطف إضافة إلى المصالح، وتبدو صفاتها التعبيرية عصيّة على اختراق المهارة الإبداعية لمنظّري الخيار العقلاني». ربما يكون هذا في الحقيقة أهم مساهمة للتراث في فهمنا للقومية: إظهار حدود الخيار وقيود العقلانية[٢١١].

يشكّل ذلك أيضًا جوهر انتقاد أتباع المقاربة الإثنية ـ الرمزية لنظرية الخيار العقلاني؛ فوفقًا لسميث مثلًا، يهمل هيكتر دور الذاكرة. وتُظهر لنا الحروب التي اندلعت مؤخرًا بين الصرب والكروات أن ذكريات المواجهات الدموية السابقة يمكن أن تدفع الناس إلى ارتكاب فظائع لا تستطيع الحسابات الاستراتيجية للمعركة أن تضمن عدم وقوعها. على نحو مشابه، ليس من السهل تفسير إبادة هتلر لليهود الأوروبيين بواسطة الحسابات العقلانية لأعضاء مجموعات التضامن[٢١٢].

د ـ نظرية نيرن جوهرانية

يتعامل نيرن مع التشكّل الأصلي لأمم «المركز»، مثل فرنسا وإنكلترا، بوصفه حقيقة تاريخية مقبولة، وبمجرّد ملاحظة أنها تدين بفضل قومياتها لعملية جدلية ناتجة من ردّة فعل من قوميات الأطراف أجبرتها على التحوّل إلى أمم قومية[٢١٣]. لكنه لا يفسر كيف وجِدت هذه الأمم في المقام الأول. وتتمظهر هذه النزعة بوضوح في موقفه تجاه اسكتلندا، «وطنه الأم». ومثلما يلاحظ أندرسون، يتعامل نيرن مع «وطنه «اسكتلندا» بوصفه حقيقة مقبولة بدائية وغير إشكالية»[٢١٤]. لكن اسكتلندا تمثّل شذوذًا يناقض نظرية نيرن لأن القومية الاسكتلندية تتطوّر في موعد متأخر نسبيًا[٢١٥]. يفسر نيرن ذلك عبر

---

(٢١١) O'Leary, «Instrumentalist Theories of Nationalism,» p. 152.

(٢١٢) Smith, *Nationalism and Modernism*, p. 67.

(٢١٣) James, *Nation Formation*, p. 111.

(٢١٤) انظر الإطار الرقم (٣ - ١)، ص ١٤٤ من هذا الكتاب، و Anderson, *Imagined Communities* (1991), p. 89.

(٢١٥) Edward A. Tiryakian, «Nationalism and Modernity,» in: John L. Comaroff and Paul C. Stern, eds., *Perspectives on Nationalism and War*, International Studies in Global Change; v. 7 ([Australia; United States]: Gordon and Breach, 1995), p. 221.

الإشـارة إلـى حقيقـة أن اسـكتلندا اندمجت فـي الدولـة البريطانيـة قبل حقبة التصنيع. لذلك، لم تختبر الاستغلال الاقتصادي حتى وقت قريب(٢١٦).

دفـع ميل نيـرن إلى التعامل مع وجود الأمم بوصفـه «حقيقة مقبولة» بعض المعلقين إلى اتهامه بـ«الجوهرانية». يسأل زبيدة على سبيل المثال، كيف يمكن لـ«الجنسـية»، مـن دون افتراض وجود أمم جوهريـة، أن تكوّن «خطوط تصدّع» انهداميـة ضمـن التشـكيلات الاجتماعيـة القديمـة(٢١٧). يبدو أن نيـرن يؤكد هذه الملاحظة حين يزعم أن إنكلترا «بلد الجنسـية الوطنية المسـتقرة والقديمة»(٢١٨)، أو أن «القوميـة، خلافًـا للجنسـية أو التنويـع الإثنـي، يتعـذّر اعتبارهـا ظاهـرة «طبيعيـة»»(٢١٩). واعتمـادًا علـى هذه الأمثلـة، يؤكد زبيدة أن نيرن يسـقط ضحية للافتراضـات الجوهريـة للخطاب القومي؛ إذ يعتبر الأمم «رعايا تاريخية متفوّقة» «حشدت» و«طمحت إلى»، و«دفعت نفسها قُدُمًا»... إلخ. لكن «لا بد من وجود طريقة تحدد «الأمّة» منهجيًا كي تعتبر خطوط التصدّع خطوطًا للجنسية»(٢٢٠).

يدعم ذلك أيضًا تهمة «القومية»، التي عبّر عنها بأوضح صورة ديفيدسـون(٢٢١)، إذ يؤكـد أن نيـرن ليـس مجـرّد «مفكر في القوميـة»، بل هو «منظّـر قومي». ويلاحظ كوكس (Cocks)، بأسلوب مشابه، أن ولاء نيرن للقومية الاسكتلندية يقوده إلى توثين الإثنية والمحلية والوطنية، ووضع «القومية مباشرة في جانب التقدّم والحرية والتنوع والديمقراطيـة»(٢٢٢). مـن ناحيـة أخـرى، يؤكـد هوبزبـاوم أن «الخطـر الحقيقـي على الماركسيين هو إغراء الترحيب بالقومية بوصفها أيديولوجيا وبرنامجًا، بدلًا من القبول بها حقيقةً واقعية، وشـرطًا من شـروط نضالهم كاشـتراكيين». يعيق هذا الاقتناعُ، كما

---

(٢١٦) Tom Nairn, «Scotland and Europe,» *New Left Review*, Vol. 1, no. 83 (January - February 1974).

(٢١٧) Zubaida, p. 69.

انظر الشاهد وثيق الصلة من نيرن آنفًا.

(٢١٨) Nairn, *The Break-up of Britain*, p. 262.

(٢١٩) المصدر نفسه، ص ٩٩. أضفنا التشديد إلى الشاهد.

(٢٢٠) Zubaida, p. 69.

(٢٢١) Davidson, «In Perspective: Tom Nairn».

(٢٢٢) Cocks, «Fetish zed Nationalism?,» pp. 74, 82 and 84.

للاطلاع على رد نيرن انظر الإطار الرقم (٣ - ١)، ص ١٤٤ من هذا الكتاب.

يتابع هوبزباوم، الفهمَ الواقعي، الماركسي وغيره، لوضع العالم. وتحتاج الكتب، مثل كتب نيرن، إلى النقد لأن رؤاها «عَرَض للمرض الذي تزعم أنها العلاج له»[٢٢٣].

٢ ـ التحولات السياسية

أ ـ نظريات التحوّلات السياسية مضلِّلة في ما يتعلق بتاريخ ظهور الأمم

هذا هو النقد الإثني ـ الرمزي المعياري للتفسيرات الحداثية، السياسية أو غيرها. ووفقًا لسميث، أبرز ممثلي المقاربة الإثنية ـ الرمزية وأشهر أنصارها، تُعَدّ المشكلة مفهومية في جزء منها؛ إذ يشتغل الحداثيون على أمّة مثالية النمط، مستمدة من التجربة الغربية بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، التي تمثّل «السلسلة الكاملة من الأفكار التي يشملها ذلك المفهوم، نسخة تحمل المعالم المميزة كلها للثقافة في زمان ومكان محدّدين». يعني هذا أيضًا أن:

توكيد حداثة الأمّة ليس سوى لغو، يستبعد أي تعريف منافس للأمة، خارج إطار الحداثة والغرب. وأصبح الفهم الغربي للأمة الحديثة مقياس فهمنا لمفهوم الأمّة بحد ذاته، وهو ما أدّى إلى نزع الشرعية عن المفاهيم الأخرى[٢٢٤].

تأتي ملاحظة مشابهة من غورسكي (Gorski): حتى القوميات الحديثة، كما يؤكد، ستفشل في تلبية المعايير التي وضعها الباحثون والأكاديميون الحداثيون؛ فمن المتوقّع أن تكون القومية الحقيقية علمانية وديمقراطية بالكامل، كما يزعم، ومن السهل إظهار أن الحركات ما قبل الحديثة لم تتمكن من بلوغ هذه المعايير. لكن قلة قليلة من أمثلة القومية الحديثة تلبّيها أيضًا، هذا إن وجِدت أصلًا. لقد حشر الحداثيون أنفسهم في الزاوية عبر محاولة رسم خط صارم يفصل بين القومية الحديثة والعواطف والمجادلات والخطابات ما قبل الحديثة. أمّا اختبار القومية الذي عملوا على بنائه، فهو صارم وعسير ومتشدد إلى حد يتعذّر على القوميات الحديثة اجتيازه[٢٢٥].

---

(٢٢٣) Hobsbawm, «Some Reflections on «The Break-up of Britain»,» p. 14.

(٢٢٤) التشديد من الأصل، انظر: Anthony D. Smith, *The Cultural Foundations of Nations: Hierarchy, Covenant and Republic* (Malden, MA: Blackwell Pub., 2008), pp. 13-14.

(٢٢٥) Gorski, «Pre-Modern Nationalism: An Oxymoron?,» pp. 152-153.

مثلمـا سنرى بمزيد مـن التفصيل في الفصـل القادم، يزعم دعـاة المقاربة الإثنيـة ـ الرمزيـة أن من الممكن العثور علـى أوائل الأمثلة على الأمم والقومية في وقت مبكر يسبق القرن الثامن عشر. ربما تكون القومية بوصفها أيديولوجيا وحركة ظاهرة متأخرة كثيرًا، لكن في المسـتطاع اقتفاء أصول العواطف الوطنية في القرنين الخامس عشـر والسـادس عشـر فـي كثير من بلدان أوروبـا الغربية. ووفقًا لسميث، بدأت الطبقات الصغيرة من الموظفين والبيروقراطيين في فرنسا وإنكلترا وإسـبانيا والسـويد الشـعور برابطة قويـة بالأمّة، التي اعتُبـرت جماعة مناطقيـة ـ ثقافيـة، منذ القرن الخامس عشـر. بينما ظهرت قومية خاصة بـ«طبقة وسطى» أوسع بحلول القرن السادس عشر، ولا سيما في إنكلترا وهولندا[٢٢٦].

ب ـ نظريات التحوّلات السياسية تفشل في تفسير استدامة ومثابرة الروابط الإثنية ما قبل الحديثة

من نتائج الانتقاد الآنف الذكر زعم أن نظريات التحوّلات السياسية تعجز عن تفسير استمرار أهمية وصلاحية الزوابط الإثنية ما قبل الحديثة. وبافتراض أن البنى الهيكلية التقليدية تأكّلت جرّاء ثورات الحداثة، يفشـل الحداثيون في ملاحظـة أن تأثير هـذه الثورات أكثر وضوحًا في مناطـق منها في أخرى، كما اخترقت بعض طبقات السـكان بدرجة أكثر عمقًا من أخرى. يؤكد سـميث أن الدِّيـن والإثنيـة على وجه الخصـوص تمكّنا من مقاومة اسـتيعاب وامتصاص «الـروح المهيمنة والعلمانية للحداثة»[٢٢٧]. وفي رأيه، لا يمكن للنظريات التي لا تأخـذ ديمومـة الروابـط الإثنية بالاعتبار أن تجيب عن الأسـئلة الآتية: «هل يمكـن لهـذه المناورات أن تأمل بتحقيق نجاحٍ يتجـاوز اللحظة الراهنة؟ لماذا تكـون نسـخة مخترَعة من الماضي أشـد إقناعًـا من غيرها؟ لمـاذا العودة إلى الماضي أصلًا، حين تُعَدّ سلسلة التقاليد التراثية غير قابلة للإصلاح؟»[٢٢٨].

اعتمادًا على هذه الملاحظات، يعترض سميث على فكرة هوبزباوم بشأن «التقاليـد التراثيـة المخترَعـة»، ويزعم أن هذه في الحقيقة أكثر شـبهًا بـ«إعادة

(٢٢٦) Smith, *Nations and Nationalism in a Global Era*, p. 38.

(٢٢٧) المصدر نفسه، ص ٤٠ - ٤١.

(٢٢٨) Anthony D. Smith, «The Nation: Invented, Imagined, Reconstructed?,» *Millennium: Journal of International Studies*, vol. 20, no. 3 (March 1991), p. 357.

بناء» أو «إعادة اكتشاف» جوانب من الماضي الإثني. ومع أن من الممكن تفسير الماضي بطرائق مختلفة، فإن ذلك لا ينطبق على «أي» ماضٍ، بل على «ماضي مجتمع معيّن ذي أنماط مميّزة من الحوادث والأشخاص والبيئات». يعمل هذا الماضي مثل قيد يعيق ألاعيب النخب ومناوراتها، ومن ثم يعرقل الاختراع[٢٢٩]. وسوف تقبل الجماهير التقاليد التراثية «الجديدة» ما دام في الإمكان إظهار أنها استمرار للماضي الحي.

ج ـ نظريات التحوّلات السياسية اختزالية

وجُهت تهمة النزعة الاختزالية إلى نظريات التحوّلات السياسية أيضًا. وتركز نسخة دعاة الإثنية ـ الرمزية من هذا الانتقاد على تصوير الحداثيين للتاريخ القريب. ووفقًا لهتشينسون (Hutchinson) على سبيل المثال، يصوّر الحداثيون القرنين الأخيرين وكأنهما تشكّلا بواسطة تحوّل حاسم وحيد، تميّز بالثورات السياسية، والإقلاع الصناعي، وانحسار السلطة الدينية. ويدعو ذلك النموذج «الثوري» للتحديث. وفي رأي الباحثين والأكاديميين الذين يعتنقون نسخة من النموذج الثوري، تُعَدّ القومية واحدًا من المنتجات الثانوية ـ على الرغم من أهميته ـ لهذا الانتقال الحاسم إلى الحداثة. يؤكد هتشينسون أن هذا النموذج يعجز عن تفسير عملية التشكّل الأكثر ثورية للدول القومية في أوروبا الغربية. وفي رأيه، تحتاج هذه العملية إلى استقصاء وتفحّص على المدى الطويل، لتغطية مدة زمنية أطول[٢٣٠]. يعبّر سميث عن ذلك بأسلوب مختلف؛ إذ يقدّم الحجّة على أن المقاربات الحداثية تقلل من أهمية السياقات المحلية الثقافية والاجتماعية. وما يقرر كثافة القومية وشخصيتها ومداها، في رأيه، هو التفاعل بين موجة مدّ التحديث وهذه التنويعات الثقافية. كما يوافق على أن الحداثة أدّت دورها في توليد قوميات السكان الأصليين في أستراليا مثلما فعلت في فرنسا وروسيا: لكن ذلك لا يخبرنا الكثير عن التوقيت والمدى والشخصية في ما يتعلق بهذه القوميات المختلفة اختلافًا كليًا[٢٣١].

---

(٢٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٥٨.

(٢٣٠) John Hutchinson, *Modern Nationalism* (London: Fontana, 1994), pp. 23-24, and Josep R. Llobera, *The God of Modernity: The Development of Nationalism in Western Europe*, Berg European Studies Series (Oxford, [England]; Providence, USA: Berg, 1994).

(٢٣١) Smith, *Nations and Nationalism in a Global Era*, p. 42.

إلّا أن دعاة الإثنية ـ الرمزية وأنصارها ليسوا الوحيدين الذين وجّهوا تهمة المبالغة في التبسيط؛ إذ تتّهم بيوري (Puri) على سبيل المثال منظّري التحوّلات السياسية بالتقليل من أهمية دور الثقافة في تشكيل القوميات، وتجاهل مساهمات غير النخب من الناس العاديين. وتقول إن مقاربات هؤلاء المنظّرين السياسية لا يمكن أن تستخلص معنى منطقيًا من الجدل الخلافي الذي تثيره القوميات، والجوانب المتشظية من الدولة، والتناقضات بين مؤسسات الدولة والقوميات المهيمنة، والعمليات الراديكالية والجندرية (المعتمدة على النوع الاجتماعي) لضم القوميات واستبعادها[٢٣٢]. من ناحية أخرى، يشدّد مكرون (McCrone) على استقلالية القوميات الثقافية، رافضًا التعامل معها، كما يفعل الحداثيون السياسيون بحسب اعتقاده، بوصفها غطاء للقومية السياسية[٢٣٣].

د ـ نظريات التحولات السياسية تعجز عن تفسير العواطف الحماسية التي تولّدها القومية

يرفض دعاة الإثنية ـ الرمزية أيضًا الأدواتية النفعية في هذه النظريات؛ ففي رأيهم، تعجز هذه النظريات عن تفسير السبب الذي دفع ملايين الناس إلى التضحية بأرواحهم في سبيل أمتهم. يؤكد سميث أن هذا الفشل ينجم عن الأسلوب المتجه من «الأعلى إلى الأسفل» الذي استخدمه معظم المنظرين الحداثيين: «يركزون، في أغلبيتهم العظمى، على استغلال النخب لـ«الجماهير» بدلًا من ديناميات الحشد الجماهيري بحد ذاتها». ونتيجة لذلك، لا يركزون انتباهًا كافيًا على حاجات الناس العاديين، واهتماماتهم ومصالحهم، وآمالهم، ورغباتهم[٢٣٤]. ينطبق ذلك أيضًا على هوبزباوم الذي ينتقد غيلنر بسبب تجاهل «الرأي القادم من الأسفل». أمّا كويلبل (Koelble)، فيلاحظ أن هوبزباوم نفسه «لا يقدّم تحليلًا كافيًا لتأثيرات التحديث في الطبقات الدنيا»[٢٣٥].

(٢٣٢) Jyoti Puri, *Encountering Nationalism*, 21st-Century Sociology; 6 (Malden, MA: Blackwell, 2004), pp. 53 and 55.

(٢٣٣) David McCrone, *The Sociology of Nationalism: Tomorrow's Ancestors*, International Library of Sociology (London; New York: Routledge, 1998), p. 101.

(٢٣٤) Smith, *Nations and Nationalism in a Global Era*, p. 40.

(٢٣٥) Thomas A. Koelble, «Towards a Theory of Nationalism: Culture, Structure and Choice Analyses Revisited,» *Nationalism and Ethnic Politics*, vol. 1, no. 4 (Winter 1995), p. 78.

كما هو واضح، لا يُعَدّ منظرو التحوّلات السياسية جميعهم من أتباع المذهب الذرائعي النفعي. ومن ثم يعبّر بروييللي عن شكوى مشابهة من المقاربة الأدواتية، مؤكدًا أنها لا يمكن أن تفسر لماذا/ وكيف تقنع القومية بدعمها أولئك الذين ليست لديهم مصلحة - بل تضر فعليًا بمصلحتهم(٢٣٦). تتمحور هذه الانتقادات كلّها حول سؤال واحد بسيط: لماذا يوجد هذا العدد الكبير من الأشخاص المستعدين للتضحية بأرواحهم عن طيب خاطر في سبيل أمّتهم؟ في مقابلة مع موقع H-Nationalism على الويب، يقدّم بروييللي إجابات فجّة عن هذا السؤال. أولًا، ليس صحيحًا أن الناس يُقتلون ويموتون دومًا «عن طيب خاطر» في سبيل أمّتهم. اليوم، لا يوجد بلد في أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة، كما يؤكد، يقبل الأوامر التي صدرت إلى الجنود في الحرب العالمية الأولى. وعلى أي حال، «لا تبلغ الحماسة للحرب، حتى عند التعبير عنها بواسطة التطوع الجماعي، مستوى الاستعداد للموت عن طيب خاطر. فكثيرًا ما يذهب الشباب إلى الحرب وليست لديهم أدنى فكرة عنها، بل يعتبرونها مغامرة يتوقّعون أن يعودوا منها سالمين». ثانيًا، هنالك مسألة السلطة؛ «كثيرون من الناس يقاتلون ويُقتلون لأن السلطة أمرتهم بأن يقاتلوا ويموتوا». أخيرًا، «إن الكيفية التي تخرج عبرها من الحياة المدنية إلى الخنادق، وتنظّم في أفواج المقاتلين، وتتلقّى الأوامر، عملية معقدة في حد ذاتها وتغيّر الناس». ومثلما اكتشف الاختصاصيون النفسانيون في الجيش، يمكن للأفراد أن ينضموا إلى فصيلة، جماعة من اثنين وعشرين فردًا، ويستعدوا للمخاطرة بأرواحهم من أجل رفاقهم. ومن ثم فإن بعض العوامل التي أنتجت الاستعداد للموت عن طيب خاطر لم تعُد موجودة في المجتمعات الغربية، وعلى أي حال ليست لها علاقة بالفكرة الوطنية بحد ذاتها، كما يختتم بروييللي(٢٣٧).

هـ - النظريات الأدواتية تبالغ في دور النخب في تشكيل الهويات الوطنية

أدّى هذا الانتقاد إلى حوار متبادل لا يُنسى بين فرانسيس روبنسون وبول ر. براس حول الثقل النسبي الذي يجب ربطه بالقيم الإسلامية، وبمناورات

---

(٢٣٦) Breuilly, «Nationalism and the State,» p. 21.

(٢٣٧) «John Breuilly Interview for H-Nationalism,» (H-Nationalism, March 2006), on the Web: <http://www.h-net.org/~national/Breuilly.pdf>.

النخب الاستغلالية في العملية التي أفضت إلى تشكيل دولتين منفصلتين في شبه الجزيرة الهندية[٢٣٨]. يفترض روبنسون، في معرض اتهامه براس بالمبالغة في الدور الذي نسبه إلى مناورات النخب في هذه العملية، أن قيم الأفكار الدينية ـ السياسية في الإسلام، ولا سيما تلك التي تشدد على وجود الأمّة الإسلامية، حدّت من مدى الأفعال المتاحة لجماعات النخبة الإسلامية. إذ شكلت هذه الأفكار «مخاوفها الخاصة ممّا هو ممكن وما يجب عليها محاولة تحقيقه»، ومن ثم جسّدت عاملًا معيقًا للتعاون الهندوسي ـ الإسلامي[٢٣٩].

في رأي روبنسون، كانت الاختلافات والخلافات الدينية بين المسلمين والهندوس في القرن التاسع عشر عميقة إلى درجة لم تكن تسمح لهم بالتعايش السلمي. وبطريقة ما، كان لديهم ميل مسبق إلى العيش كجماعتين وطنيتين منفصلتين. لا يتجاهل براس هذه الاختلافات، أو بشكل أعم القيم الثقافية الموجودة مسبقًا التي ربما تؤثّر في قدرة النخب على استغلال رموز معيّنة. لكن يبقى السؤال الحاسم بنظره هو:

باعتبار وجود مصفوفة من التمايزات الثقافية بين الناس واحتمال نشوب صراعات ثقافية بينهم ـ في مجتمع متعدّد الإثنيات ـ ما هي العوامل الحاسمة الأهمية في تقرير أي من هذه التمايزات، إن وجِدت، سوف تُستخدم لبناء هويات سياسية[٢٤٠]؟.

هنا، ينتقل براس إلى دور النخب السياسية، والتوازن بين معدلات التعبئة الاجتماعية، والاندماج بين الجماعات الإثنية، وبناء المؤسسات السياسية لترويج الهويات الجماعية، وتأثير السياسات الحكومية. ومن الواضح أن للإجابة عن هذا السؤال مضامين نظرية أوسع تتعلّق بواحد من الانقسامات

---

(٢٣٨) Paul R. Brass: «A Reply to Francis Robinson,» *Journal of Commonwealth and Comparative Politics*, vol. 15, no. 3 (1977), and «Elite Groups, Symbol Manipulation, and Ethnic Identity among the Muslims of South Asia,» and Francis Robinson: «Nation Formation: The Brass Thesis and Muslim Separatism,» *Journal of Commonwealth and Comparative Politics*, vol. 15, no. 3 (1977), and «Islam and Muslim Separatism,» in: Taylor and Yapp, eds., *Political Identity in South Asia*.

(٢٣٩) Robinson, «Islam and Muslim Separatism,» p. 106.

(٢٤٠) انظر الإطار الرقم (٣ - ٤)، ص ١٦٧ من هذا الكتاب، و Brass, *Ethnicity and Nationalism*, p. 77.

الجوهرية بين الأدبيات التي تناولت القومية، أي بين أصحاب المقاربة «البدائية» والمقاربة «الأدواتية»؛ إذ يوافق كتّاب النظريتين على أن المقاربتين تعبّران عن موقفين متطرفين، وأن الإجابة تكمن في مكان ما بينهما. ومثلما تُظهر المناقشة الواردة آنفًا، يغيّر براس رأيه، ويميل إلى الموقف الذرائعي، بينما يصر روبنسون بإلحاح على أن «ميزان الحجّة المقْنعة يجب أن يميل أكثر نحو موقف دعاة المقاربة البدائية»(٢٤١).

من ناحية أخرى، يزعم أوليري أن نظرية براس لا تتصدى، على الرغم من طبيعتها المعقدة، لسؤال لماذا/ ومتى تختار النخب الهويات الإثنية والوطنية للحشد والتعبئة لا غيرها بطريقة مرْضية. يعتقد أوليري أن النخب والطبقات المهيمنة، مثلها مثل الجماهير أو الطبقات الخاضعة، مقيَّدة بهوياتها الإثنية أو الوطنية، وليست مدفوعة ببواعث مصالحها وحسب. فضلًا عن ذلك، ليست الجماهير مجرد متلقية مستكينة وسلبية للخطابات الاستغلالية والمخادعة المفروضة عليها من الأعلى؛ إذ إن لديها أسبابها للإذعان لها. ولا ريب في أن مثل هذا التفسير يعطي ثقلًا كافيًا للدور المستقل للأفكار والعقائد والمبادئ، ويختزل الهويات إلى مجرد مصالح، ومن ثم يرتكب خطأ تصنيفيًا فلسفيًا يخلط ما يريده الناس مع ما يريدون أن يكونوا عليه(٢٤٢).

٣ ـ التحولات الاجتماعية/ الثقافية

أ ـ نظريات التحوّلات الاجتماعية/ الثقافية لا تنسجم مع الحقائق

ربما تكون العلاقة التبادلية والتكاملية المزعومة بين التصنيع والقومية أكثر الجوانب إشكالية في نظرية غيلنر؛ إذ شكّك معلقون عدة في افتراضات غيلنر عبر الإشارة إلى سلسلة من الأمثلة المضادة. بادئ ذي بدء، جرى تأكيد أن كثيرًا من الحركات القومية ازدهرت في مجتمعات لم تشهد بعدُ مرحلة التصنيع. يؤكد كدوري على سبيل المثال أن القومية بوصفها عقيدة وجدت التعبير عنها في الأراضي الناطقة بالألمانية حين لم يكن ثمة أي نوع من

(٢٤١) Brass, *Ethnicity and Nationalism*, chap. 3, and Robinson, «Islam and Muslim Separatism,» p. 107.

(٢٤٢) O'Leary, «Instrumentalist Theories of Nationalism,» pp. 150-151.

التصنيع تقريبًا[٢٤٣]. ويقدم كيتشنغ (Kitching) حجّة مشابهة تثبتها بريطانيا، زاعمًا أن ظهور القومية في الجزر البريطانية سبق حتى الحقبة المبكرة من التصنيع بمدة ١٥٠ إلى ٢٠٠ عام[٢٤٤]. والأمثلة المضادة وفيرة؛ إذ وقعت بلدان البلقان في القرن التاسع عشر، ولا سيما اليونان، ضحية للقومية من دون أن تشهد التصنيع[٢٤٥]. في ضوء هذه الأمثلة المضادة، يؤكد النقاد أن من الممكن اعتبار التصنيع واحدًا من بين كثير من الشروط المسبقة لتشكّل الأمّة بنجاح، وليس «نقطة انطلاق» بالتأكيد لانتشار القومية[٢٤٦].

يعرض بروييلي حجّة مشابهة، مؤكدًا أن الزراعة التجارية، والتعليم الجماهيري، وأنظمة الاتصال الحديثة، يمكن أن تفرز تأثيرات ينسبها غيلنر إلى التصنيع[٢٤٧]. أمّا القوميات المناهضة للاستعمار، أو التي ظهرت في الحقبة ما بعد الكولونيالية، فهي أمثلة معبّرة في هذه السياق. كانت قومية غاندي على سبيل المثال معادية للتصنيع بوضوح لا لبس فيه. وفي روسيا من ناحية أخرى، استولى نظام يعادي القومية عداء شديدًا على الإمبراطورية في عام ١٩١٧، وعمل على توفير الشروط التي يعدّها غيلنر ضرورية للمجتمع الصناعي[٢٤٨]. باختصار، سبقت القومية التصنيع في أماكن كثيرة، وفي غيرها لم تكن القومية مترافقة ولا متزامنة مع عملية التصنيع.

من الجدير بالملاحظة أن غيلنر يحاول مواجهة هذه الانتقادات بتقديم

---

(٢٤٣) Elie Kedourie, *Nationalism*, 4th Expanded ed. (Oxford, UK; Cambridge, Mass., USA: Blackwell, 1993), p. 143.

(٢٤٤) G. Kitching, «Nationalism: The Instrumental Passion,» *Capital and Class*, no. 25 (1985), p. 106.

(٢٤٥) Nicos Mouzelis, «Nationalism: Restructuring Gellner's Theory,» in: Malešević and Haugaard, eds., pp. 132-133; K. Minogue, «Gellner's Theory of Nationalism: A Critical Assessment,» in: Leoussi, ed., p. 108, and Brendan O'Leary, «Ernest Gellner's Diagnoses of Nationalism: A Critical Overview, or, What Is Living and What Is Dead in Ernest Gellner's Philosophy of Nationalism,» in: Hall, ed., *The State of the Nation*, p. 73.

(٢٤٦) Hroch, «Modernization and Communication,» p. 25.

(٢٤٧) Breuilly, «Approaches to Nationalism,» p. 162.

(٢٤٨) K. Minogue, «Ernest Gellner and the Dangers of Theorising Nationalism,» in: Hall and Jarvie, eds., p. 120.

الحجّـة علـى أن «التصنيع يُلقي ظـلًا طويلًا» أمام واقعه الحقيقـي، وأن المثقفين والمفكرين وحدهم القوميون، على أي حال[٢٤٩]. لكنه يعترف بأن الحالة اليونانية تمثّل شـذوذًا في نظريته ـ «موريا لا تشـبه أودية لانكشـير»[٢٥٠]. هنالك مشكلتان اثنتان في هذه الحجّة، وفقًا لبرويللي: **أولًا**، لا تتعلّق أمثلة القومية السابقة للحقبة الصناعيـة كلها بالتصنيع. إذ يرفض بعض القوميين، مثل غاندي مجدّدًا، الغربنة، حتـى مـع وجود آخرين في الحركة نفسـها، مثـل نهرو، يؤيدونهـا. ثانيًا، يتصرف كثيرون من القوميين بطرائق تدفع بلدهم إلى الوراء (مثل عمليات القتل الجماعي التـي مارسـها نظام بـول بوت في كمبوديا ضـد النخبة [الكمبوديـة] المتعلّمة في الغـرب). باختصـار، كما يختتم برويللـي، «يمكن أن تتعلّق قوميـة ما قبل الحقبة الصناعية بكثير من العوامل غير التصنيع»[٢٥١].

وجِّهـت تُهـم مشـابهة إلى نظرية أندرسـون فـي ما يتصـل بحججه حول العلاقة بين الدِّين والقومية، وحول «مسقط رأس» القومية. على سبيل المثال، جرى توكيد أن القومية لا تحل دومًا محل الدِّين؛ يشير كيلاس (Kellas) لدعم هذه الحجة إلى حالات إيرلندا وبولندا وأرمينيا وإسرائيل وإيران، حيث عملت المؤسسات الدينية على تعزيز القومية. هنالك أيضًا حالات تزدهر فيها القومية والدِّين معًا. لذلك، يصعب أن ننسب نهوض القومية إلى انحطاط الدِّين[٢٥٢].

يتقدم غرينفيلد (Greenfeld) خطوة أبعد، ويؤكد أن «القومية ظهرت في زمن هيمنة العواطف الدينية المتحمسة، حيث نمت أسئلة الهوية الدينية بصورة أكثر (لا أقـل) حـدّة، وغدا الإيمـان أكثر أهمية ـ زمن الإصـلاح (الديني). وتمكنت القوميـة من التطوّر والترسّـخ بدعم من الدِّين، كما يكتـب غرينفيلد. وحتى في مراحل متأخرة، حين حلّت محله بوصفها العاطفة الحماسـية المهيمنة، دمجت الدِّين باعتباره جزءًا من الوعي الوطني في كثير من الحالات[٢٥٣].

---

(٢٤٩) حوار مع كدوري في هيئة الإذاعة البريطانية، ورد الشاهد في: المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(٢٥٠) ورد في: O'Leary, «Ernest Gellner's Diagnoses of Nationalism,» p. 73.

(٢٥١) Breuilly, «Introduction,» p. xxxix.

(٢٥٢) James G. Kellas, *The Politics of Nationalism and Ethnicity* (London: Macmillan, 1991), p. 48.

(٢٥٣) Liah Greenfeld, «Transcending the Nation's Worth,» *Daedalus*, vol. 122, no. 3 (Summer 1993), p. 49.

مثلما ألمحنا آنفًا، تعرّض تشديد أندرسون على أن حركات التحرير الوطني في الأميركيتين شكّلت الأمثلة المبكرة للقومية الحديثة، لجدل خلافي واسع(٢٥٤). لقد تنوّعت الآراء في ما يتعلّق بالأمثلة المبكرة على القومية؛ إذ أكد بعضهم أنها ظهرت في إنكلترا(٢٥٥)، أو فرنسا(٢٥٦)، أو ألمانيا(٢٥٧). لكن أندرسون يلح على أن «من العلامات المدهشة الدالّة على عمق المركزانية الأوروبية [والاعتقاد بالتفوّق الثقافي الأوروبي] إصرار هذا العدد الكبير من الباحثين الأوروبيين، على الرغم من الأدلة كلها، على اعتبار القومية ابتكارًا أوروبيًا»(٢٥٨). يردّ هاستينغز الهجوم، ويزعم أن أندرسون لا يفسّر لماذا كانت الموجة الأولى من بناء الأمم أميركية. ولا يقدم أندرسون أي تفسير، ويكتب: «مثلما نسأل لماذا لم يكن للنمو في عدد الكتب في القرن السادس عشر التأثير الذي افترضه في أواخر القرن الثامن عشر»(٢٥٩).

ب ـ نظريات التحوّلات الاجتماعية / الثقافية لا يمكن أن تفسر العواطف الحماسية التي تولّدها القومية

مثلما يلاحظ غيلنر نفسه، أثار هذه النقطة كثيرون من النقاد على الطرفين المتقابلين من الطيف الأيديولوجي(٢٦٠). على سبيل المثال، يؤكد بيري أندرسون، الشخصية البارزة في «اليسار الجديد»، أن نظرية غيلنر لا يمكن أن تفسّر القوة العاطفية للقومية: «بينما كان فيبر مأخوذًا بسحر القومية إلى حد عجزه عن التنظير لها، تمكّن غيلنر من التنظير للقومية من دون اكتشاف

---

(٢٥٤) P. M. Kitromilides and Georgios Varouxakis, «The «Imagined Communities» Theory of Nationalism,» in: Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, and Pheng Cheah, «Grounds of Comparison,» in: Cheah and Culler, eds., *Grounds of Comparison*.

(٢٥٥) Liah Greenfeld, *Nationalism: Five Roads to Modernity* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1992), and Adrian Hastings, *The Construction of Nationhood: Ethnicity, Religion, and Nationalism*, Wiles Lectures; 1996 (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1997).

(٢٥٦) Peter Alter, *Nationalism* (London: Edward Arnold, 1989).

(٢٥٧) Kedourie, *Nationalism*.

(٢٥٨) Anderson, *Imagined Communities* (1991), p. 191, note 9.

(٢٥٩) Anderson, (1997), p. 11.

(٢٦٠) Ernest Gellner, «Reply to Critics,» in: Hall and Jarvie, eds., p. 625.

سحرها»[٢٦١]. يعبّر أوليري ومينوغ (Minogue) عن رأي مماثل؛ فبينما يتّهم أوليري غيلنر بالاعتماد على «التفسيرات الثقافية والمادية المغالية في التبسيط للدوافع السياسية التي تنتج القومية»، ينتقد مينوغ إهماله لقوة الهوية[٢٦٢].

مثلما رأينا آنفًا، تشكّل هذه النقطة أيضًا واحدة من الحجج المركزية للنقد الإثني ـ الرمزي للنظريات الحداثية. يبدأ أتباع المقاربة الإثنية ـ الرمزية، مثل سميث، بطرح السؤال الآتي: لماذا يتماهى الناس بحماسة واندفاع مع ثقافة عليا مخترَعة ويصبحون على أتم الاستعداد للتضحية بأرواحهم عن طيب خاطر في سبيلها؟[٢٦٣]. يبحث غيلنر عن الإجابة في الأنظمة الحديثة للتعليم الجماهيري. لكن، كما يلاحظ سميث، يستحيل أن تكون الحماسة العاطفية للقوميين في العهود المبكرة، أي أولئك الذين أوجدوا الأمم في المقام الأول، نتاجًا للنظام التعليمي الجماهيري الوطني الذي لم يكن قد ظهر بعدُ إلى حيّز الوجود. فمن غير الممكن ترسيخ نظام تعليم «وطني» من دون تقرير من هي «الأمّة» أولًا. ومن سيتلقى التعليم؟ وبأي لغة؟ ولا ريب في أن شرح القومية لأولئك الذين يقترحون إجابات عن هذه الأسئلة، أي أولئك الذين «بنوا» الأمّة، بواسطة التعليم الجماهيري يعني السقوط في فخ النزعة «الوظيفية»[٢٦٤].

يرفض غيلنر هذه التّهم بتوكيده أنها مؤسَّسة على قراءة خاطئة لنظريته؛ إذ لا يفسّر النموذج القومية بالطريقة التي استعملها في شرعنة التحديث، كما يقول، بل بحقيقة أن «الأفراد يجدون أنفسهم في أوضاع معرّضة لضغط شديد، إلى حين تلبية المطلب القومي المتمثّل في الانسجام بين ثقافة الإنسان وثقافة البيئة». ومن دون مثل هذه الانسجام، ستتحول الحياة إلى جحيم ـ ومن

---

(٢٦١) Perry Anderson, *A Zone of Engagement* (London; New York: Verso, 1992), p. 205.
للاطلاع على رد غيلنر، انظر الإطار الرقم (٣ - ٦)، ص ١٨٣ من هذا الكتاب.

(٢٦٢) Brendan O'Leary, «On the Nature of Nationalism: An Appraisal of Ernest Gellner's Writings on Nationalism,» in: Hall and Jarvie, eds., p. 100, and Minogue, «Ernest Gellner and the Dangers of Theorising Nationalism,» p. 126.

(٢٦٣) Anthony D. Smith, «History and Modernity: Reflections on the Theory of Nationalism,» in: Hall and Jarvie, eds., p. 134.

(٢٦٤) المصدر نفسه، ص ١٣٥، وللاطلاع على مناقشة مفصلة حول النزعة الوظيفية لدى غيلنر، انظر الفقرات اللاحقة.

هنا أتت العاطفة الحماسية العميقة التي ظن بعضهم بأنها غائبة عن النظرية. العاطفة الحماسية ليست وسيلة لغاية، «بل ردّة فعل على وضع لا يُحتمل، على إزعاج مؤلم ومتواصل في النشاط الذي يُعَدّ غالبًا أهم شيء في الحياة ـ الاتصال والتواصل مع إخواننا البشر»[٢٦٥].

على الرغم من إصرار نظرية أندرسون على تفسير «الرابطة التي يشعر بها الناس مع اختراعات مخيلتهم»[٢٦٦]، فإنها لم تتمكّن من النجاة من الانتقاد ذاته. في رأي سميث، يشتت التشديد على المخيّلة، بوصفها المفتاح لنهوض القومية وانتشارها، الانتباه بعيدًا من الرابطة والعاطفة الجمعيتين. و«الـ «المخيّلة» تساعدنا بالتأكيد في فهم مدى السهولة الذي يمكن فيه لمفهوم الأمّة الانتشار والانتقال من مكان إلى آخر. لكن لماذا يجب أن ينتشر، ولماذا يجب (على الأمّة) أن تنتقل لتزرع في مكان آخر؟». ما الذي يوجد في الأمّة ويجعل أفرادها يشعرون بالارتباط بـ«الأمم»؟[٢٦٧]. تبدو هذه المزاعم خارجة عن السياق نوعًا ما، نظرًا إلى حساسيات أندرسون التي تقف بالتأكيد في صف القومية ـ مثلما يشير عدد من المعلّقين. ولذلك، يجد ريدفيلد (Redfield) أن أندرسون يكتب بوصفه رومنسيًا متأخرًا، لا لأنه يستحضر الخيال، بل لأنه يحاول، عند القيام بذلك، إنقاذ القومية من غطرسة التعددية الإثنية والثقافية:

هكذا، يموضع أندرسون القومية بعيدًا من الدولة: جذورها مختلفة عن جذور الدولة، وأكثر عمقًا، وتستمد مصادرها في نهاية المطاف من المخيّلة ذاتها.. ومن السّمات المميّزة لنص أندرسون أيضًا.. أنه يقترح استحالة منع الأمّة والدولة من التداخل والتشابك وإبهام الخطوط الفاصلة بينهما، بالضبط لأن الأمّة، بوصفها «متخيّلة»، تصبح حتمًا هدفًا للبيداغوجية الجمالية[٢٦٨].

على نحو مشابه، يلاحظ كوكس أن أندرسون «يصور الأمّة بوصفها جماعة ودودة من قراء الصحف ومردّدي النشيط الوطني». هذه الجماعة

---

(٢٦٥) Gellner, «Reply to Critics,» p. 626.

(٢٦٦) Anderson, *Imagined Communities* (2006), p. 141.

(٢٦٧) التشديد من الأصل، Smith, *Nationalism and Modernism*, p. 137

(٢٦٨) التشديد من الأصل، Redfield, p. 78.

انظر أيضًا: Ernesto Laclau, «On Imagined Communities,» in: Cheah and Culler, eds., pp. 25 and 28.

«استيعابية» بفضل اللغة المشتركة التي يمكن الجميع تعلمها، في مقابل عمليات الاستبعاد والإقصاء الإثنية - العنصرية للأيديولوجيات الأرستقراطية - لا الوطنية - القائمة على «العِرق» والدم[٢٦٩]. وردًّا على منتقديه، يُذعن أندرسون ويقبل الانتقاد على مضض:

أقبل الانتقاد كاملًا.. أنا رومانسي متأخر، لدي نزعة فاسدة للاعتقاد بالسقوط.. الخطوط التي جرّبت كثيرًا رسمها بين القومية «الحقيقية» الشعبية وغير الملوَّثة، ونوع القومية المكيافيللية المنبثقة عن الدولة وعن الأرستقراطيين والملوك المهدّدين، هي نظريًا غير معقولة وتعيدني إلى التغايرات بين الحقيقي والمزيف، والأصلي والمشتق، التي قصدت تدميرَها النصوصُ الأخرى الكثيرة التي كتبتها[٢٧٠].

ج - نظريات التحوّلات الاجتماعية / الثقافية مبالِغة في التبسيط

وفقًا لزبيدة، تفترض النظريات العامة للقومية كلها «تجانسًا سوسيولوجيًا» - أي وجود بنى وعمليات اجتماعية مشتركة تحفز الظواهر الأيديولوجية / السياسية، وتشترك كلها في بنية أساسية على الرغم من تنويعاتها المفهومية والاصطلاحية. وفي سبيل شرح هذه البنية، يدرس نظرية غيلنر التي يراها رمزًا مجسّدًا لمثل هذه النظريات. أمّا العناصر الرئيسة للتفسير فهي: عملية تاريخية عالمية (تحديث أو تصنيع)؛ مجتمعات تقليدية تصيبها هذه العملية بسرعات متباينة، وهو ما يؤدي إلى اختلافات في درجة التطوّر، وإلى انهيار الروابط والبنى التقليدية؛ جماعات اجتماعية معيّنة (طبقة مثقفة (إنتلجنسيا) وطبقة عمالية (بروليتاريا) في رأي غيلنر) تتولّى الصراع المزدوج ضد التراث التقليدي داخليًا والأعداء الخارجيين. تنتهي القصة بتأسيس الدول القومية، التي يعقبها صراع على استبدال الولاءات التقليدية بأخرى وطنية لدى السكان عمومًا. يتولّد ذلك، في رأي غيلنر، نتيجة نظام تعليمي ينتج مواطنين مزوَّدين بالمواصفات والمؤهلات المطلوبة[٢٧١].

---

(٢٦٩) Joan Cocks, «From Politics to Paralysis: Critical Intellectuals Answer the National Question,» *Political Theory*, vol. 24, no. 3 (August 1996), p. 529.

(٢٧٠) انظر الإطار رقم (٣-٧)، ص ١٩٥ من هذا الكتاب، و Anderson, «Responses,» p. 231.

(٢٧١) Zubaida, pp. 56-57.

لكـن الواقـع الحقيقي، فـي رأي زبيدة، أشـد تعقيدًا بكثير؛ فهـو يؤكد أن التفسيرات السوسـيولوجية للحركات القومية مؤسَّسة على عمليات وجماعات غيـر قابلـة للتعميم أو المقارنة بين مختلف السـياقات الاجتماعية. على سـبيل المثال، لا يحمل تعبير «صناعة» المعنى الدلالي ذاته في كل مكان؛ فهو يشمل سلسـلة واسـعة من أشـكال الإنتاج، بدءًا بالورش الصغيـرة، وانتهاء بمحطات توليـد الطاقـة النووية. فضلًا عن ذلك كلّه، لا تتماثـل عواقب التطور الصناعي وتبعاتـه؛ فعوامـل مثل تكثيف رأس المال، وتقسـيم سـوق العمـل إلى طبقات وشرائح، ومصدر استثمار رأس المال وطبيعته ومدّته، وعلاقة الصناعة بالقطاع الزراعـي، قـد تؤثر كلهـا في نتيجـة التصنيع وتـؤدي إلى تشـكيلات وترتيبات اجتماعيـة ـ اقتصاديـة شـديدة الاختـلاف. باختصار، قد لا يـؤدي التصنيع إلى القومية في هذه المجتمعات كلها. ومن ثم، تتجاهل نظرية غيلنر ـ أو أي نظرية عامة للقومية في هذا السياق ـ التنويعات الإقليمية (المناطقية) والتاريخية[٢٧٢].

يشتكي بروييلي أيضًا من الشكل التجريدي والسوسيولوجي لنظرية غيلنر الذي لا يعطي ثقلًا مناسبًا لدور الدولة والسياسة. فإذا لم تنتج حالات التصنيع كلهـا القومية، كما يقول بروييلي، وإذا أمكن إنتاج القومية في غياب التصنيع، فإن علينا إذًا «الإقرار بأن الدولة الحديثة ليست بالضرورة وطنية أو قومية»[٢٧٣]. يوافقه أوليري الرأي: «ما تفتقده على ما يبدو هو الإحساس السياسي المستدام والمتطوّر». تتجاهل نظرية غيلنر دور علاقات السياسة المرتكزة إلى القوة في تقريـر الثقافـات التـي تتطوّر إلـى أمم، «واحتمـال أن يرى بنـاة الأمّة بوضوح العلاقة الوظيفية بين القومية والحداثة التي يفترضها»[٢٧٤].

ثمة اعتراض مشـابه أثير ضد توكيد أندرسـون دور التمثيلات الثقافية في بناء الأمم بوصفها «جماعات متخيَّلة». وينتقد بروييلي أندرسـون أيضًا بسـبب التقليل من أهمية البُعد السياسي للقومية، ولا سيما المبالغة في أهمية القومية الثقافيـة فـي أوروبـا القرن التاسـع عشـر. فمـع أن أطروحة أندرسـون معقولة ومقْنعة في أميركا القرن الثامن عشر، فإنها، وفقًا لبروييلي، تتعثّر عند الانتقال

---

(٢٧٢) المصدر نفسه، ص ٥٨ - ٥٩.

(٢٧٣) Breuilly, «Introduction,» pp. xliii-xlv.

(٢٧٤) O'Leary, «Ernest Gellner's Diagnoses of Nationalism,» p. 63, and Puri, p. 50.

إلى أوروبا؛ ولا تستطيع التعامل مع المشكلة الشائكة المتمثّلة في الافتقار إلى الانسجام والتطابق بين القومية «الثقافية» و«السياسية» في بعض الحالات المعيّنة. ومن أجل توضيح هذه النقطة، يشير بروييلي إلى التوحيد «السياسي» لألمانيا الذي لم يترافق مع توحيد «ثقافي»؛ فللبُعد السياسي دور أكثر أهمية حتى في حالة حركات التحرر التي تطوّرت في أميركا القرن الثامن عشر، وتنطبق عليها حجّة أندرسون بشكل أفضل، إذ هو يلاحظ أن معظم هذه الحركات عملت ضمن الإطار المناطقي الذي وضعه النظام الاستعماري(٢٧٥).

على وجه العموم، يعترف بروييلي بأن البُعد الثقافي مهم لفهم القومية، لكنه يضيف أن هذا البُعد لا يمكنه سوى تفسير السبب وراء استعداد بعض الجماعات الصغيرة المعيّنة لتخيّل نفسها أمّة والتصرّف سياسيًا على أساس هذا الافتراض. ولا يمكن لنظرية أندرسون، كما يتابع، أن تقدم إجابة عن سؤال «لماذا يأخذ أي شخص في أعلى الهرم (في السلطة) أو في أسفله (في المجتمع الذي يزعم أنه وطني) هذه الحجج على محمل الجد». يؤكد بروييلي أن نظرية غيلنر أكثر إقناعًا في هذا السياق لأنها تحاول أن تحدّد بدقة التغيّرات الأساسية في البنية الاجتماعية التي ربما تدعم نوع العمليات الثقافية التي يفكر فيها أندرسون. ويختتم بزعم أن استقصاء أكثر دقة للروابط بين الدولة الحديثة والقومية من شأنه أن يقدّم حلًا لهذه المشكلة(٢٧٦).

بالمناسبة، لنلاحظْ أن نموذج هروش تعرّض للانتقاد أيضًا بسبب إهمال المحدّدات السياسية للقومية(٢٧٧). لكنه يحاول إعادة التوازن في أعماله المتأخرة عبر مزيد من التركيز على البُعد السياسي. في مقالة لاحقة بشأن الحق الوطني في تقرير المصير مثلًا، يتفحّص كيف تشكّلت بنية البرامج الوطنية بواسطة الأوضاع السياسية التي اشتغلت في ظلها ومتى دخلت المطالب السياسية هذه البرامج. ويؤكد أساسًا أن «قوة الدعوة إلى تقرير المصير وتوقيتها لم يعتمدا على شدّة القمع السياسي، ولم تجمعهما صلة

(٢٧٥) John Breuilly, «Reflections on Nationalism,» *Philosophy of the Social Sciences*, vol. 15, no. 1 (1985), pp. 71-72.

(٢٧٦) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٢٧٧) John A. Hall, «Nationalisms: Classified and Explained,» *Daedalus*, vol. 122, no. 3 (Summer 1993), p. 25.

رابطة بمستوى المطالب اللغوية والثقافية»، بل أصبح تقرير المصير أكثر نجاحًا في الحركات «التي أُسست على بنية اجتماعية كاملة لجماعتها الإثنية غير المهيمنة، والتي يمكن أن تستخدم بعض المؤسسات أو التقاليد التراثية لدولتها في الماضي»(٢٧٨).

د ـ نظرية غيلنر مغالية في النزعة الوظيفية

ثمة انتقاد معياري آخر وجِّه إلى نظرية غيلنر يتصل بنزعتها الوظيفية الصارخة؛ حيث أكد عدد من المعلقين أن غيلنر يحاول تفسير القومية على أساس العواقب والتبعات التي تولّدها، «عبر الإشارة إلى النتيجة التاريخية (ظهور «المجتمع الصناعي») التي تبعتها زمنيًا»(٢٧٩). في رأي غيلنر، تُعَدّ القومية مطلبًا من مطالب المجتمع الصناعي الذي لا يمكن أن يؤدي «وظيفته» من دونها؛ ومن ثم، تُعتبر القومية مفيدة للدول التحديثية. في مثل هذه الصورة، لم تكن القومية مقصودة من الأطراف الفاعلة التي أنتجت التحديث، نظرًا إلى أنها غير مدركة للعلاقة السببية بين هاتين العمليتين. يؤكد أوليري أن:

حجّة غيلنر تُظهر شرور المنطق الوظيفي كلها ـ حيث تعامل الحوادث والعمليات التي تجري بأسلوب غير معقول وغير مقْنع بوصفها تقع في ما وراء فهم البشر، وحيث النتائج تسبق الأسباب، وتنبثق الشكوك في أن الكيانات ما فوق الفردية والجمعية تُستحضر ضمنًا للقيام بأعمال تفسيرية(٢٨٠).

من ناحية أخرى، يلاحظ برويللي أن هناك تعددية من الوظائف التي يمكن أن تخدمها القومية كما هو مقترح؛ إذ يرى بعض المعلقين أن القومية تسهّل عملية التحديث؛ ويجد آخرون أنها تساعد في الحفاظ على الهويات والبنى التقليدية. ويعتبر غيرهم أنها وظيفة للمصلحة الطبقية؛ وحاجة للارتباط

---

(٢٧٨) Hroch, «National Self-Determination from a Historical Perspective,» p. 79.

(٢٧٩) Kitching, p. 106, and David Laitin, «Nationalism and Language: A Post-Soviet Perspective,» in: Hall, ed., *The State of the Nation*, p. 137.

للاطلاع على رأي مخالف، انظر: John A. Hall, «Structural Approaches to Nations and Nationalism,» in: Delanty and Kumar, eds., pp. 36-37.

(٢٨٠) O'Leary, «On the Nature of Nationalism,» pp. 85-86.

والهوية. ونظرًا إلى عدم وجود تفسير مقبول شموليًا، ليس من المنطقي تفسير القومية بلغة «الوظيفة» التي تخدمها[٢٨١].

يمضي مينوغ خطوة أبعد ويؤكد أن التفسيرات الوظيفية استعلائية، بمعنى أنها تتعامل مع الباحثين/ المنظِّرين بوصفهم صنفًا من الكائنات الكلّية القدرة. يتضمن هذا التفسير أن ما يفعله الناس مختلف فعليًا عمّا يؤمنون به، وأن المنظِّر في موقع يؤهله لإدراك الحقيقة. ومن ثم، ربما يظن القوميون أنهم يحررون الأمّة، لكن غيلنر يعرف أن ما يفعلونه في الواقع هو تسهيل الانتقال إلى المجتمع الصناعي. يكتشف المنظّر الخارق أسباب ما يحدث ويكشفها للقراء. وينتقد مينوغ غيلنر أيضًا بسبب التفسيرات الوظيفية عمومًا، والتقليل من أهمية الشروط الكاملة للعامل البشري. ويؤكد أن الأفراد يستجيبون بعقلانية للأوضاع التي يجدون أنفسهم فيها، في ضوء الفهم الذي يملكونه لها. إن «الأفكار المختلفة، مثل رفة جناح الفراشة المشهورة التي تولّد اضطرابًا على الجانب الآخر من العالم، يمكن أن تؤدي إلى تبعات وعواقب مفاجئة تمامًا»، وفقًا لمينوغ. وربما يحوّل تجاهلُ هذه الأفكار النظريةَ إلى مجرّد استقراء[٢٨٢].

لا تتمظهر النزعة الوظيفية لدى غيلنر في مجرّد تصويره للعلاقة بين القومية والتصنيع؛ إذ يبدي تفسيره لنهوض التعليم الجماهيري دلالات وظيفية مشابهة. تفترض النظرية أن النظام التعليمي الجديد المؤسَّس على التدريب العام هو نتاج للظروف المجتمعية الجديدة. لكن، مرة أخرى، تُفسّر العملية - ظهور الأنظمة التعليمية المتشابهة والموحَّدة المعايير - بالإشارة المرجعية إلى وظيفة تزعم القيام بها. يسأل برويللي: «صحيح أن التعليم يؤدي وظيفة بهذه الطريقة في نهاية المطاف، لكن هل يفسر ذلك تطوره؟». يجيب بالنفي: «لا يمكن أن يُعَدّ ذلك تفسيرًا قبل أن تحدّد إمّا نية متعمدة ومقصودة من جانب الجماعات الأساسية لإعطاء هذا النتيجة، وإمّا آلية للتغذية الإرجاعية سوف «تختار» أنماطًا تدريبية عامة من التعليم إزاء أخرى»[٢٨٣].

(٢٨١) Breuilly, *Nationalism and the State*, p. 419.

(٢٨٢) Minogue, «Ernest Gellner and the Dangers of Theorising Nationalism,» p. 117 - 118.

(٢٨٣) Breuilly, «Reflections on Nationalism,» p. 68.

هـ ـ هروش يبالغ في تشييء الأمم

يأتـي هذا الانتقاد من غيلنر الذي يصف مقاربة هروش بأنها «محاولة مثيرة لإنقاذ.. الرؤية القومية ذاتها بالتشديد على أن الأمم توجد فعلًا وتعبّر عن نفسها من خلال المسعى القومي»(٢٨٤). إن ما يكمن خلف هذا الانتقاد هـو تمييز هروش بيـن «الدول القومية» الراسـخة و«الجماعات الإثنية غير المهيمنة». ومثلما رأينا آنفًا، يؤكد هروش أن هناك ثماني دول قومية كاملة التطوّر والأهلية في أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر، كانت نتاج عملية طويلـة مـن التطور بدأت في العصور الوسـطى. قادت هـذه الحجّة بعض الباحثيـن والأكاديمييـن إلـى الإشـارة إلى مقاربـة هروش بأنهـا خلطة من البدائية والحداثة. ولذلك، يرى هول أن «هروش يقترب من أنتوني سميث [أبرز أنصار وممثلي الإثنية ـ الرمزية] في الإصرار على أن القومية ستكون عديمة الفاعلية حين لا توجَّه جاذبيتها إلى مجتمع موجود مسبقًا»(٢٨٥). يردّ هروش بملاحظة أنه يستعمل تعبير «إحياء» بالمعنى المجازي، من دون أن يتضمـن أن الأمـم تصنيفـات أبديـة. ترتكـز اعتراضـات غيلنر، كمـا يعلّق هروش، على سـوء فهم من ناحية، وعلى تفسـير ناقص للتعابير والمفاهيم التـي اسـتخدمها في نموذجه، من ناحية أخـرى(٢٨٦)؛ إذ يرى أن الاختلاف الأساسي في الرأي يكمن في مكان آخر:

> لا أسـتطيع قبول الرأي القائل إن الأمم مجرّد «أسـطورة»، ولا قبول فهم غيلنر العالمي للقومية بوصفها تفسـيرًا شـموليًا يضم تصنيفات تُعَدّ الأمّة فيها مجـرّد اشـتقاق. إن العلاقة بين الأمّـة والوعي الوطنـي (أو الهوية الوطنية، أو «القومية») ليسـت اشـتقاقًا من جانب واحد، بل صلة متبادلة ومتنامة، ومناقشة أيّهـا «أوّليـي» يمكـن أن تُتـرك، علـى الأقل فـي الوقـت الحاضر، للفلاسـفة والمنظِّرين الأيديولوجيين(٢٨٧).

فـي موضـع آخر، يبـدو هروش أكثـر وضوحًا وصراحة فـي ما يتعلّق

(٢٨٤) Gellner, *Encounters with Nationalism*, p. 182.

(٢٨٥) Hall, «Introduction,» p. 6.

(٢٨٦) Hroch, «Real and Constructed: The Nature of the Nation,» pp. 94 and 106, note 30.

(٢٨٧) المصدر نفسه، ص ١٠٤، والإطار الرقم (٣-٨)، ص ٢٠٨ من هذا الكتاب.

بنظرياته المفضَّلة. «لا أعتبر نفسي «بدائيًا» ولا «حداثيًا». ولا أعتبر الأمّة خلقًا إلهيًا أبديًا، ولا نتاجًا صناعيًا لمخيّلة حفنة من المفكرين، بل نتيجة لتطور تاريخي طويل»، كما يقول[288]. ومع ذلك كلّه، تبقى ملاحظة هول مقْنعة: لا يبدو أن هروش يقف في موقع أقرب إلى البدائية من الحداثة. يسأل هروش: لماذا لم يخطر ببال أحد عند بداية القرن التاسع عشر أن يطلق حملة لإقناع الإيرلنديين بأنهم في الحقيقة ألمان، أو الهنغاريين بأنهم في الواقع صينيون؟

الجواب بسيط: الشرط الأساسي لنجاح أي اهتياج.. هو أن حجّته تتصل، على الأقل بشكل تقريبي، بالحقيقة الواقعية كما أدركها أولئك الذين يوجّه إليهم. لذلك كان على الاهتياج الوطني أن يبدأ (وهذا ما فعله عادة) مع حقيقة أن بعض العلاقات والروابط المعيّنة تطوّرت على مدى القرون، باستقلالية تامة عن إرادة «الوطنيين الغيورين»، ووحّدت أولئك الذين يوجّه إليهم الاهتياج[289].

لكن ما هي «الحقيقة الواقعية» كما أدركتها الجماهير؟ ما هي الطبيعة الدقيقة للعلاقات والروابط التي تطوّرت على مدى القرون؟ وإلى أي مدى كانت «وطنية»؟ ومن وصفها بأنها «وطنية»، ومتى، ولأي غرض؟ على أي حال، يبدو سؤال هروش بلاغيًا. لماذا يطلق المهيجون الوطنيون حملة لإقناع الإيرلنديين بأنهم ألمان، والهنغاريين بأنهم صينيون في المقام الأول؟ لكن من المفهوم طبعًا بأنهم يطلقون حملة لإقناع الإيرلنديين بأنهم إنكليز، والهنغاريين بأنهم رومانيون. صحيح أن المهيّجين اعتمدوا على روابط وعلاقات موجودة سلفًا لحشد الجماهير وتعبئتها، لكنهم استغلوا، كما سأثبت بمزيد من التفصيل في الفصل السادس، بعض الروابط، وتجاهلوا سواها، وغيّروها تغييرًا جذريًا لتلائم الحاجات (السياسية) الراهنة.

---

(٢٨٨) Miroslav Hroch, *Comparative Studies in Modern European History: Nation, Nationalism, Social Change*, Variorum Collected Studies Series; CS886 (Aldershot; Burlington, VT: Ashgate Variorum, 2007), pp. iii - 74.

(٢٨٩) Hroch, «Real and Constructed: The Nature of the Nation,» p. 99.

سادسًا: الحداثة اليوم

على الرغم من الشكاوى المتنوعة من الافتراضات الرئيسة، استمرت الحداثة في تكوين العمود الفقري لبعض التحليلات البالغة التأثير والنفوذ للقومية التي برزت واشتهرت في الأعوام الأخيرة. المثال المعبر في هذا السياق تجسّده نظرية مايكل مان بشأن القومية التي توفّر تفسيرًا مسيَّسًا لنهوض الأمم والقومية، وتركز خصوصًا على دور المؤسسات والحركات السياسية الشعبية. لا يخفي مايكل مان حقيقة كونه حداثيًا. ويؤكد أن الأمم لم تظهر إلّا في القرن الثامن عشر، أولًا في أوروبا ثم في أميركا، ثم في باقي أرجاء العالم. ويندر احتمال تحديد الوحدات السياسية بواسطة ثقافة حديثة في العصور ما قبل الحديثة، مثلما هي حال الأمّة، نظرًا إلى أن ثقافة الطبقات المهيمنة وتنظيمها كانا معزولين غالبًا عن حياة الجماهير(٢٩٠).

مع ذلك، يحدّد مان مرحلتين «وطنيتين أوليتين» سبقتا الظهور الكامل للأمم والقومية: المرحلة الدينية والمرحلة التجارية/ التحكم المركزي للدولة. وجسّد توسيع تعلم القراءة والكتابة عاملًا مركزيًا لكلتيهما. في الأولى، المرحلة الدينية التي بدأت في القرن السادس عشر، «وسّعت البروتستانتية ومناهضة الإصلاح (الديني) تعلّم القراءة والكتابة عبر انتشار كل لغة محلية دارجة وصولًا إلى الطبقات الوسطى. وفي الثانية، المرحلة التجارية/ التحكم المركزي للدولة التي بدأت في أواخر القرن السابع عشر، تولّت الرأسمالية التجارية وتنظيم الدولة العسكري مهمّة توسيع تعلم القراءة والكتابة. يمكن اكتشاف بعض العواطف «الوطنية الأولية» التي وصلت إلى الطبقات الدنيا في المرحلتين كلتيهما، لكن نظرًا إلى كون الرأسمالية، وتعلّم الطبقات العليا للقراءة والكتابة، والكنائس، عابرة للحدود الوطنية كلها، بقيت الهوية الوطنية محدودة. من ناحية أخرى، لم تكن الدول مهمّة ومؤثرة إلى حد يكفي تشكّل بؤرة تركيز هويات الناس وأيديولوجياتهم. أدّت هذه العمليات أيضًا إلى ترسيخ بطيء لكن ثابت للمجتمعات المحلية والإقليمية (المناطقية) التي بدأت تنظيم وتفعيل «أساليب حياتية» كاملة بحلول أواخر القرن السابع عشر.

---

(٢٩٠) Michael Mann, «A Political Theory of Nationalism and its Excesses,» in: Periwal, ed., pp. 44-45.

لكن حدود هذه المجتمعات «الإثنية على ما يبدو» بقيت في حالة من السيولة وعدم الدقة[291].

يزعم مان أن اندماج هذه العوامل الوطنية الأوّلية، ولا سيما «الدولة المتميزة بحدودها الواضحة وجذورها الضعيفة، والمجتمع الإثني المحلي-المناطقي المتّسم بالازدهار والحيوية من دون وضوح معالم تخومه، وتحوّلها إلى أمم كاملة التطور، حدث في ثلاث مراحل: عسكرية وصناعية وحداثية، دامت من أواخر القرن الثامن عشر إلى أواخر القرن العشرين. وفقًا لمان، تكمن الإجابة عن سؤال: «لماذا تطوّرت الأمم؟» في الدولة. في المرحلة العسكرية، وتحت تأثير ما يدعوه «الثورة العسكرية» التي تعززت بحروب لا نهاية لها في القرن الثامن عشر، بدأت النشاطات العسكرية للدولة تؤثر تأثيرًا نافذًا في الحياة الاجتماعية. «لم تعُد الدول الآن قليلة الأهمية أو غير ذات صلة، بل هيمنت بظلها على حياة رعيتها، حيث فرضت عليهم الضرائب وجنّدتهم في جيشها، وحاولت حشد حماستهم لتحقيق أهدافها». لكن زيادة ما تأخذه الدولة أدّت إلى ردات أفعال شعبية ومطالَبة بالمواطنة السياسية ـ لـ«الشعب» و«الأمّة». كما أدّت المجتمعات الإثنية المحلية ـ المناطقية دورها في توجيه الحشد السياسي[292]. في المرحلة الصناعية التي امتدت من منتصف القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى، غيّرت الدول مساراتها بطريقتين اثنتين، تحت ضغط الرأسمالية الصناعية. أولًا، استولت فكرة السيادة الشعبية على قلوب وعقول الطبقات الخاضعة التي عبّأها انتشار التصنيع والتجارة والزراعة التجارية. **ثانيًا**، توسّعت وظائف الدولة بسرعة؛ وأول مرة في التاريخ تولّت الدولة القيام بوظائف مدنية كبرى، ورعاية أنظمة اتصالات ـ قنوات مائية، طرق، مكاتب بريد، سكك حديدية، أنظمة برق، والأهم المدارس[293]. وبدورها، دعمت السيادة الشعبية ونشاطات الدولة «الأمّة بوصفها مجتمعًا متمرسًا، يربط المؤسسات المركزة والعاطفية، مثل الأُسرة والحي والإثنية، مع مؤسسات

---

(٢٩١) المصدر نفسه، ص ٤٥ - ٤٦.

(٢٩٢) المصدر نفسه، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢٩٣) Michael Mann, *The Sources of Social Power* (New York: Cambridge University Press, 1993), vol. 2: *The Rise of Classes and Nation-States, 1760-1914*, p. 730.

السلطة الأكثر شمولًا وتأثيرًا ونفوذًا»[٢٩٤]. في هذا المرحلة أصبحت الأمم أكثر حماسة وجرأة وعدوانية:

استُمدت العاطفة الحماسية بشكل رئيس من الروابط الوثيقة بين الدولة والمجال المركّز والعاطفي لتفاعل الأسرة والحي، حيث هيمن التعليم في مدارس الدولة والبنى التحتية المادية والأخلاقية. وبالغت الأيديولوجيات في اعتبار الأمّة أمًا أو أبًا أو بيتًا أو حياة عائلية. أمّا العدوانية، فنتجت من استمرار الدول كلّها في التبلور بوصفها عسكرية؛ كانت كلّها عسكرية من الناحية الجغرافية - السياسية، وبقي بعضها محليًا كذلك[٢٩٥].

بدأت المرحلة الأخيرة، الحداثية، مع التسويات السلمية بين عامي ١٩١٧ و١٩١٩، وأعادت رسم الخريطة السياسية بطريقة راديكالية تمامًا. لقد قوّضت الحرب وتسويات السلْم معظم الأنظمة الاستبدادية وشبه الاستبدادية في أوروبا، ودمرت أغلبية أدوات السيطرة المؤسسية على الجماهير. بقيت الكنائس والجيوش وبعض الملوك والأحزاب المحافظة. لكنها أُجبرت على أن تقدّم تنازلات للطبقات الخاضعة، وذلك البرلمانات وعلاقات العمل الممأسسة، والإصلاح الزراعي. لكن في معظم أرجاء أوروبا الوسطى والشرقية والجنوبية، لم تخضع الأنظمة البرلمانية بعدُ لعملية مأسسة ثابتة ومستقرة:

نتيجة الضغط والمطالب، انقسمت النزعة المحافظة إلى برلمانية ويمينية راديكالية استبدادية.. وفي مختلف أرجاء الوسط والجنوب والشرق (باستثناء تشيكوسلوفاكيا)، أفرزت المنافسة بين النظامين اليمينيين نتيجة واحدة: انتصار الاستبداد بصيغة محافظين برلمانيين قاموا بانقلابات، أو حين اكتسحهم اليمينيون الراديكاليون شبه الفاشيين. وبحلول عام ١٩٣٨ تخنق الاستبداد الحديث في ثلثي القارة[٢٩٦].

على الرغم من محاولة نظرية مان إضافة المقاربة المتجهة من الأعلى

(٢٩٤) Mann, «A Political Theory of Nationalism and its Excesses,» pp. 53-54.

(٢٩٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٧، و Mann, *The Sources of Social Power*, vol. 2: *The Rise of Classes and Nation-States, 1760-1914*, p. 732.

(٢٩٦) Mann, «A Political Theory of Nationalism and its Excesses,» pp. 57-58.

إلى الأسـفل والمميّزة للتفسيرات السياسية السـابقة، مع تركيز على الحركات السياسية الشعبية بغرض تفسير العواطف الحماسية المتولّدة عن القومية، فإنها لـم تكن منيعـة على الانتقـادات التي وجِّهت إلـى الحداثة عمومًـا، والحداثة السياسية على وجه الخصوص. على سبيل المثال، يؤكد سميث أن المقاربات المتمركزة على الدولة تتعثّر وتفشل حين يتعلّق الأمر بوسط أوروبا أو بألمانيا وإيطاليـا. ألـم يكن علينـا أن نتوقّع ظهور أمّة بروسـية أو بيدمونتيـة، بدلًا من ألمانيـة وإيطالية؟ «لماذا كان الكفاح من أجل الديمقراطية والحكومة التمثيلية بحـد ذاتـه حركة من أجل أمّـة ألمانية وإيطالية؟». فضلًا عـن ذلك كله، يعتقد سـميث أن نظرية مان، مهما تكن مراميها، لا تزال تفشـل في تفسير العواطف الحماسية التي تثيرها القومية:

ما يحظى بأهمية حاسمة بالنسبة إلى القوميين هو الشعور بـ«الوطن الأم» وبـالأرض التاريخية بل المقدّسـة، لا مجـرّد الحـدود.. إن العلاقة العاطفية/ الوجدانية والسياسية، بين الأرض والشعب، والتاريخ والمنطقة، هي التي توفر إحـدى القـوى الدافعـة الرئيسـة للحشـد الوطني.. ولذلك تفشـل التفسـيرات المتعلّقة بالعلاقات بين الدول والحرب في كشف المصادر العاطفية/ الوجدانية للمشاعر الوطنية[٢٩٧].

ثمة إعادة صوغ أحدث عهدًا للموقف الحداثي تأتي من ديفيد د. لايتين، فـي كتابـه **الأمـم والـدول والعنـف** (٢٠٠٧)، يقدّمهـا المؤلـف بوصفهـا رأيًا «تقدميًـا» حـول القوميـة. وهو تقدّمـي، كما يبلغنـا، لأنه يتحـدّى وجهة النظر البديهية التي تقول إن شبحًا يجتاح السلْم العالمي اليوم يتمثل في المصادمات بين الإثنيات والحضارات. «الاعتقاد الشـائع بـأن القومية والفوارق الإثنية في حـد ذاتهـا خطـرة تدحضـه الأبحاث الكميـة»، كما يؤكـد لايتين. أمّـا مصادر الحروب الأهلية المعاصرة، فتكمن في مكان آخر ـ «الدولة الضعيفة، العاجزة عن توفير الخدمات الأساسية لسكانها، وعن حراسة حدودها الطرفية، والتمييز بين الملتزمين بالقانون والخارجين عليه»[٢٩٨].

---

(٢٩٧) Smith, *Nationalism and Modernism*, pp. 83-84.

(٢٩٨) David D. Laitin, *Nations, States, and Violence* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2007), pp. vii and 21-22.

يعتمـد البديل الـذي يقدّمه لايتين، الخيار العقلانـي، على نموذج الخبير الاقتصادي (الفائز بجائزة نوبل) توماس شيلينغ، القائم على الخيار المزدوج ـ «اللعبـة الحاسـمة». وفقًـا للايتيـن، تُعَـدّ الأمم نتاجًـا للخيارات التـي يتخذها أفرادها. لكن هذه الخيارات يتبادل بعضها الاعتماد على بعض:

الأفـراد لا يختـارون.. فـي خصوصية مطلقة. بـل يختار الفـرد (أ) غالبًا اعتمـادًا على إشـارات وعلامات يتلقاها من الأفـراد (ب)، (ج)، (د)... حول الكيفية التي يختارون بها.. وخلافًا للاسـتفتاء الذي يتوقّع فيه الأفراد انقسـامًا فـي الأصـوات في مجتمعهـم المحلي، حين يتعلّـق الأمر بالارتبـاط الوطني، يتوقّـع الأفـراد نتيجة متناسـقة. وخلافًا للاسـتفتاء الذي يكون فيـه للجماعات الفرعيـة المختلفـة فـي المجتمع المحلـي مصالح مختلفة، فـي حالة الارتباط الوطنـي، تتعاظم المكافـآت التي يحصل عليها كل فرد مشـارك في التصويت بتعاظم الاتفاق على الوحدة الوطنية[٢٩٩].

في ضوء هذه الملاحظات، يعرّف لايتين الأمّة بأنها:

مجموعة من السـكان الذين يتّبعون جملة منسّـقة من المعتقدات المتعلّقة بهوياتهم الثقافية (مثلًا: البُعد الثقافي البارز، تصنيفهم على ذلك البعد، السّمات والصفـات التي تؤهل الناس للعضوية في تلك الفئة) التي يدّعي ممثلوها الحق فـي ملكيـة دولة لهـم (أو على الأقـل منطقة متمتّعـة بالاسـتقلال الذاتي ضمن دولة) باستخدام ذلك التنسيق عبر الانفصال أو الاندماج أو العودة[٣٠٠].

تبـرر المناشـدات للأمّـة، كمـا يتابـع لايتيـن، بواسـطة ممثّلـي السـكان المعنيين ـ «المقاولـون الإثنيون» بحسـب تعبيره ـ عبر اصطفـاء فئة معيّنة على البُعـد البارز. «هذه المناشـدات مقْنعة وملزِمة إلى حـد أن المؤهّلين للعضوية ينسّـقون هوياتهـم وفقًا للرؤية الوطنيـة لهؤلاء المقاوليـن»[٣٠١]. هنالك بالطبع عوامـل عـدة تؤثـر فـي خيارات/ قـرارات الأفراد، تحظـى ثلاثة منهـا بأهمية خاصـة: الفوائـد الاقتصاديـة (مثـلًا: احتمـالات الوظائـف)، والمكانـة داخل

(٢٩٩) المصدر نفسه، ص ٣٠، التشديد من الأصل.

(٣٠٠) المصدر نفسه، ص ٤٠ - ٤١.

(٣٠١) المصدر نفسه، ص ٤١.

الجماعة (مستويات الدعم الاجتماعي والوصمة الاجتماعية التي ينسبها أعضاء مجتمع محلي معيّن إلى خيارات الهوية التي يتخذها أترابهم)، والقبول من خارج الجماعة (مثلًا، حين يتلقّى أعضاء في مجتمع محلي مندمج المكانة ضمن أغلبية المجتمع بوصفها مكافأة على التكيف والتلاؤم مع ممارسات ثقافية جديدة). يختتم لايتين بالتشديد على دور «التنسيق»:

لا يصوّت الناس لجنسيتهم مثلما يفعلون لمجموعة من البدائل السياسية لأن الهدف الرئيس في هذا النوع من الانتخابات ليس الفوز، بل اختيار الهوية الوطنية التي يرجّح أن يختارها معظم الآخرين في المجتمع المحلي. وحين يتعلّق الأمر بالهويات الوطنية، لا ندخل في منافسة مع جيراننا بل في تنسيق معهم. لكن التنسيق بين أعداد كبيرة من الناس ليس من السهل تحقيقه، حتى إذا وافق الجميع على النتيجة المفضّلة. ومن هنا أتى دور المقاولين الإثنيين[٣٠٢].

ليس من المفاجئ أن يفشل تفسير لايتين البديل في النجاة من الانتقادات؛ فعند الإشارة إلى أعمال لايتين المبكرة، يؤكد موتيل (Motyl) أن أكثر الجوانب إشكالية في نموذجه هو إصراره على أن الخيارات المزدوجة تحرك الناس وتحفّزهم فعلًا. فهل تشمل خيارات الفرد المتعلقة بالهوية تطبيق هذا النموذج فعلًا، يسأل موتيل:

هل يتصرف الناس أساسًا، إن لم يكن حصرًا، اعتمادًا على الصفقات والتسويات التي يتضمنها النموذج؟ ألا يدرك الناس هذه الصفقات والتسويات؟ أم أن الألعاب الحاسمة تشبيه مجازي، جهاز مفهومي مثير يرتكز إلى «كأنما»، أو نظام إجرائي للتعبير عن الاتجاهات العامة في السلوك البشري الجمعي؟ لا يمكن تجاهل هذه الأسئلة بمجرّد التشديد، مثلما يفعل لايتين في الواقع، على أن النموذج معقول ومقبول، وأن الخيارات اتُّخذت[٣٠٣].

ثمة مشكلة أخرى، كما يتابع موتيل، تتمثّل في عجز الخيار العقلاني عن تفسير التفضيلات التي تكمن خلف التغيرات في الهوية. فحين يفترض

---

(٣٠٢) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٣٠٣) Alexander J. Motyl, «Imagined Communities, Rational Choosers, Invented Ethnies,» *Comparative Politics*, vol. 34, no. 2 (January 2002), p. 238.

النمـوذج أن التفضيـلات كلهـا في كل زمن ومـكان مادية حصـرًا، يصبح من السـهل تكذيـب زعمـه. أمّا عندمـا يعتـرف بإمكانية وجود تفضيـلات أخرى، اعتمـادًا علـى الثقافة والتاريـخ والأيديولوجيا، فيجب عليـه أن يعطي الأولوية للثقافـة والتاريـخ والأيديولوجيـا ـ ومن ثـم يفقـد العمق والأهميـة، لأن ذلك سـوف «يجعل فائدة تضخيـم (ومخاطرة تقليص) الاسـتراتيجيا الكامنة خلف حساب تفاضل وتكامل الخيار العقلاني نسبية»[٣٠٤].

(٣٠٤) المصدر نفسه، ٢٣٨ - ٢٣٩، وللاطلاع على مراجعات أخرى لأعمال لايتين، انظر: Eric S. McLaughlin, «Book Review: *Nations, States, and Violence*, by D. D. Laitin,» *Comparative Political Studies*, vol. 41 (2008); C. Rojas, «Book Review: *Nations, States, and Violence*,» *International Affairs*, vol. 84, no. 4 (2008), and Arash Abizadeh, «Book Review: *Nations, States, and Violence* by David D. Laitin,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 3 (July 2008).

مراجع إضافية

يمكـن العثـور على مناقشـات محفّزة لمعظم النظريات التـي راجعها هذا الفصل فـي: Anthony D. Smith, *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998); Graham Day and Andrew Thompson, *Theorizing Nationalism*, Consultant Editor Jo Campling (Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2004); Atsuko Ichijo and Gordana Uzelac, eds., *When Is the Nation?: Towards an Understanding of Theories of Nationalism* (Milton Park Abingdon, Oxon; New York: Routledge, 2005), and Jonathan Hearn, *Rethinking Nationalism: A Critical Introduction* (Houndmills; Basingstoke; Hampshire, [England]; New York: Palgrave Macmillan, 2006).

فـي مـا يتعلق حتى الآن بنظريـات التحولات الاقتصادية، مـن الضروري قراءة: Tom Nairn, *The Break-up of Britain: Crisis and Neonationalism*, 2nd Expanded ed. (London: NLB and Verso Editions, 1981), and Michael Hechter, *Internal Colonialism: The Celtic Fringe in British National Development, 1536-1966*, International Library of Sociology (London: Routledge and Kegan Paul, 1975).

تتوافر الآن طبعات جديدة وموسّعة من الكتابين كليهما، انظر:

Tom Nairn, *The Break-up of Britain: Crisis and Neonationalism*, 3rd ed. (Melbourne: Common Ground Publishing, 2003), and Michael Hechter, *Internal Colonialism: The Celtic Fringe in British National Development*, with a New Introduction and Appendix by the Author (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 1999).

للاطّلاع على إعادة صوغ متأخرة لآراء نيرن وهيكتر بشأن القومية، انظر مختلف المقالات التي كتبها نيرن في: Tom Nairn and Paul James, *Global Matrix: Nationalism, Globalism and State-Terrorism* (London; Ann Arbor, MI: Pluto Press, 2005), and Michael Hechter, *Containing Nationalism* (Oxford, [England]; New York: Oxford University Press, 2000), resp.

أمّـا النصـوص المقبولـة والمعتـرف بهـا والممثلـة للحداثة السياسـية فهـي: John Breuilly, *Nationalism and the State*, 2nd ed. (Manchester: Manchester University Press, 1993); Paul R. Brass, *Ethnicity and Nationalism: Theory and Comparison* (New Delhi; Newbury Park, Calif.: Sage Publications, 1991); Eric J. Hobsbawm and Terence Ranger, eds., *The Invention of Tradition*, Past and Present Publications (Cambridge, [Cambridgeshire]; New York: Cambridge University Press, 1983), and Eric J. Hobsbawm, *Nations and Nationalism Since 1780: Programme, Myth, Reality*, Wiles Lectures (Cambridge, [England]; New York: Cambridge University Press, 1990).

أمّا أكثر البيانات وضوحًا وتفصيلًا عن نظرية غيلنر فيمكن العثور عليها في كتابه أمم وقومية (١٩٨٣)؛ وللاطّلاع على نسخة مبكرة من نظريته، انظر: Ernest Gellner, *Thought and Change* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1964).

للاطّلاع على نظرية أندرسون، انظر الطبعة الثانية الموسّعة من كتابه جماعات متخيّلة: Benedict Richard O'Gorman Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*, Rev. and Extended ed. (London; New York: Verso, 1991).

في ما يتعلّق بنموذج هروش المرحلي الشهير، انظر: Miroslav Hroch: *Social Preconditions of National Revival in Europe: A Comparative Analysis of the Social Composition of Patriotic Groups among the Smaller European Nations*, (Cambridge, [Cambridgeshire]; New York: Cambridge University Press, 1985), and «From National Movement to the Fully-Formed Nation: The Nation-Building Process in Europe,» *New Left Review, vol. 1, no. 198 (March-April 1993).*

من النصوص الحداثية المفتاحية الأخرى:
Michael Mann: *The Sources of Social Power* (New York: Cambridge University Press, 1993), «A Political Theory of Nationalism and its Excesses,» in: Sukumar Periwal, ed., *Notions of Nationalism* (Budapest; New York: Central European University Press, 1995), and David D. Laitin, *Nations, States, and Violence* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2007).

تعرّضت نظريات الحداثيين لانتقادات ضارية من دعاة المقاربتين البدائية والإثنية - الرمزية - انظر على سبيل المثال: Anthony D. Smith: *Theories of Nationalism*, 2nd ed. (London: Duckworth, 1983); *Nations and Nationalism in a Global Era* (Cambridge, UK: Polity Press, 1995), and *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998); Adrian Hastings, *The Construction of Nationhood: Ethnicity, Religion, and Nationalism*, Wiles Lectures; 1996 (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1997), and Steven Grosby, *Nationalism: A Very Short Introduction*, Very Short Introductions; 134 (Oxford; New York: Oxford University Press, 2005).

للاطّلاع على نقد لنظريتي نيرن وهيكتر، انظر: Andrew W. Orridge: «Uneven Development and Nationalism, 1,» *Political Studies*, vol. 29, no. 1 (March 1981), and «Uneven Development and Nationalism, 2,» *Political Studies*, vol. 29, no. 2 (June 1981), and Jack A. Brand, «Nationalism and the Non-Colonial Periphery: A Discussion of Scotland and Catalonia,» in: Edward A. Tiryakian and Ronald Rogowski, eds., *New Nationalisms of the Developed West: Toward Explanation* (Boston: Allen and Unwin, 1985).

يشـن كوكس وديفيدسـون هجومًا عنيفًا على عواطف نيرن «القومية». انظر: Joan Cocks, «Fetish zed Nationalism?,» in: Nairn and James, *Global Matrix*, and Neil Davidson, «In Perspective: Tom Nairn,» *International Socialism Journal*, no. 82 (March 1999), on the Web: <http://pubs.socialistreviewindex.org.uk/isj82ydavidson.htm>.

يمكن العثور على رد نيرن في: Nairn and James, *Global Matrix*, chap. 6.

للاطّلاع علـى انتقاد عـام لنظريات الخيـار العقلانـي والنزعة الأدواتيـة، انظر: Brendan O'Leary, «Instrumentalist Theories of Nationalism,» in: Athena S. Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, Consultant Advisor Anthony D. Smith (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001).

For a critique of hechter's later rational choice, model, see:

R. Hoijer, «Book Review: *Containing Nationalism*,» *European Sociological Review*, vol. 16, no. 3 (September 2000), and D. Stefanovic, «Containing Rational Choice Theory: Michael Hechter's Rational Choice, Theory of Nationalism vs. the East European Experience with Nationalism,» Paper Presented at: The Annual Meeting of the American Sociological Association, New York, 11 August 2007.

الحوار بين براس وروبنسون لا يزال يستحق القراءة بوصفه موجزًا مكثفًا لانقسام الآراء حـول دور النخـب في بنـاء الهويات الإثنيـة والوطنية. انظـر: Paul R. Brass: «A Reply to Francis Robinson,» *Journal of Commonwealth and Comparative Politics*, vol. 15, no. 3 (1977), and «Elite Groups, Symbol Manipulation, and Ethnic Identity among the Muslims of South Asia,» in: David Taylor and Malcolm Yapp, eds., *Political Identity in South Asia*, Collected Papers on South Asia; no. 2 (London: Curzon Press; Atlantic Highlands, NJ: Humanities Press, 1979), and Francis Robinson: «Nation Formation: The Brass Thesis and Muslim Separatism,» *Journal of Commonwealth and Comparative Politics*, vol. 15, no. 3 (1977), and «Islam and Muslim Separatism,» in: Taylor and Yapp, eds., *Political Identity in South Asia*.

في سـياق الحداثة السياسـية، انظـر أيضًا انتقـاد ماثيو المقْنـع لآراء هوبزباوم حول القوميـة. Wade Matthews, «Class, Nation, and Capitalist Globalization: Eric Hobsbawm and the National Question,» *International Review of Social History*, vol. 53, no. 1 (2008).

في ما يتعلق بنظرية غيلنر، انظر: John A. Hall and Ian Charles Jarvie, eds., *The Social Philosophy of Ernest Gellner*, Poznań Studies in the Philosophy of the Sciences and the Humanities; no. 48 (Atlanta, GA; Amsterdam: Rodopi, 1996); John A. Hall, ed., *The State of the Nation: Ernest Gellner and the Theory of Nationalism* (New York: Cambridge University Press, 1998), esp. Essays by O'Leary and Laitin, and Siniša Malešević and Mark Haugaard, eds., *Ernest Gellner and Contemporary Social*

Thought (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 2007), esp. Essays by Mouzelis.

ومـن بين هذه، تقـدّم الأولى والأخيرة تقويمات عامة لفلسـفة غيلنر الاجتماعية وتحتويان على أقسـام تناقش نقديًا حججه حول القومية. أمّا الثانية، من ناحية أخرى، فمكرّسة حصرًا لنظرية غيلنر عن القومية، ومن ثم فهي تستكشف كل جانب من تلك النظرية. تجدر الإشـارة في هذا السـياق أيضًا إلى مقدّمة بروييللي الشـاملة والمتوازنة للطبعة الجديدة من كتاب غيلنر أمم وقومية (٢٠٠٦). ويمكن الاطّلاع على رد غيلنر على هذه الانتقادات في:

Ernest Gellner: «Reply to Critics,» in: Hall, and Jarvie, eds., *The Social Philosophy of Ernest Gellner*, and *Nationalism* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1997).

للاطّلاع على نقد لمختلف جوانب نظرية أندرسـون، انظر المقالات التي كتبها كولـر وشـياه والمقالـة الثاقبة والمهمّة التي كتبها تشـاترجي. انظـر: Pheng Cheah and Jonathan Culler, eds., *Grounds of Comparison: Around the Work of Benedict Anderson* (New York: Routledge, 2003), and Partha Chatterjee, «Whose Imagined Community?,» in: Gopal Balakrishnan, ed., *Mapping the Nation*, with an Introduction by Benedict Anderson (London: Verso, 1996).

للاطّلاع على رد أندرسون على بعض من هذه الانتقادات الموجهة إلى نظريته، انظـر: Benedict Richard O'Gorman Anderson, «Responses,» in: Cheah and Culler, eds., *Grounds of Comparison.*

للاطّلاع على انتقادات مترعة بالرؤى الثاقبة لنظريتي غيلنر وأندرسون من منظور حداثـي، انظر: John Breuilly: «Reflections on Nationalism,» *Philosophy of the Social Sciences*, vol. 15, no. 1 (1985), and «Approaches to Nationalism,» in: Balakrishnan, ed., *Mapping the Nation*, and Sami Zubaida, «Theories of Nationalism,» in: G. Littlejohn [et al.], eds., *Power and the State* (London: Groom Helm, 1978).

تعرّضـت أعمال هروش للانتقاد بحماسـة من غيلنر: Ernest Gellner, *Encounters with Nationalism* (Oxford, [England]; Cambridge, Mass.: Blackwell, 1994).

أمّا رد هروش على هذه الانتقادات، فيمكن العثور عليه في:

Miroslav Hroch: «Real and Constructed: The Nature of the Nation,» in: Hall, ed., *The State of the Nation*, and *Comparative Studies in Modern European History: Nation, Nationalism, Social Change*, Variorum Collected Studies Series; CS886 (Aldershot; Burlington, VT: Ashgate Variorum, 2007), chap. ix esp.

الفصل الرابع

الإثنيـة ـ الرمزيـة

أولًا: ما هي الإثنية ـ الرمزية؟

تنبثق الإثنية ـ الرمزية من النقد النظري للحداثة. عمومًا، يشير التعبير إلى مقاربة تشدّد على دور الأساطير والرموز والذكريات والقيم والتقاليد التراثية، في تشكيل الإثنية والقومية وبقائهما المستمر والتغيير الذي يطرأ عليهما(١). وفقًا لأنتوني د. سميث، أبرز ممثلي هذه المقاربة وأشهر أنصارها، تشدّد المقاربة الإثنية ـ الرمزية على: الحاجة إلى إجراء تحليل للهويات الثقافية الجمعية على مدى حقبة زمنية تدوم قرونًا عدة؛ أهمية عوامل الاستمرار والتكرار والضم بوصفها نماذج مختلفة لوصل الماضي الوطني بالحاضر والمستقبل؛ أهمية المجتمعات المحلية الإثنية الموجودة مسبقًا، أو الإثنيات، في تشكيل الأمم الحديثة؛ دور ذكريات العصور الذهبية، وأساطير الأصول والانتخاب الإثني، وطقوس إجلال الأبطال والأسلاف واحترامهم، والارتباط بالوطن الأم في تشكيل الهويات الوطنية وديمومتها؛ الأنواع المختلفة من الجماعات الإثنية التي تشكّل الركيزة المؤسّسة لمختلف أنواع الأمم؛ المساهمة الخاصة لأيديولوجية القومية الحديثة في نشر المثال النموذجي للأمة(٢). ويؤكد سميث أن مثل هذه المقاربة تختلف عن المقاربات الأخرى في التشديد على أهمية العوامل الذاتية في فهمنا للجماعات الإثنية والأمم،

(١) Anthony D. Smith, «Ethno-Symbolism,» in: Athena S. Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, Consultant Advisor Anthony D. Smith (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001), p. 84.

(٢) Anthony D. Smith: «When Is a Nation?,» *Geopolitics*, vol. 7, no. 2 (Autumn 2002), pp. 14-15; *Myths and Memories of the Nation* (Oxford: Oxford University Press, 1999), chap. 1, and «The Genealogy of Nations: An Ethno-Symbolic Approach,» in: Atsuko Ichijo and Gordana Uzelac, eds., *When Is the Nation?: Towards an Understanding of Theories of Nationalism* (Milton Park Abingdon, Oxon; New York: Routledge, 2005), p. 98.

وذلك عبر الثقل الذي تعطيه للثقافات والممارسات الشعبية، وكيف تضع الحدود لأفهام النخبة واستراتيجياتها(٣).

يشكّل دعاة الإثنية ـ الرمزية صنفًا أكثر تجانسًا من أنصار المقاربتين البدائية والحداثية؛ إذ يشدّدون، مسترشدين بالإجلال المشترك للماضي التليد، على العمليات المتشابهة في تفسيراتهم للأمم والقومية. وفي رأيهم، لا يمكن فهم ظهور الأمم الحالية بصورة صحيحة من دون أن نأخذ في الحسبان أسلافها الإثنيين. بكلمات أخرى، يحتاج نهوض الأمم إلى وضعه ضمن سياق الظاهرة الأوسع للإثنية التي شكّلتها(٤). أمّا الاختلافات بين الأمم الحديثة والوحدات الثقافية الجمعية للحقب الزمنية المبكرة، فهي في الدرجة لا في النوع. وهذا يدل على أن الهويات الإثنية تتغيّر بصورة أبطأ ممّا هو مفترض عمومًا؛ وما إن تتشكّل حتى تصبح قوية ومتينة إلى حد استثنائي تحت ظل المتغيّرات «العادية» للتاريخ، مثل الهجرات والغزوات والزيجات المختلطة، وتستمر على مدى أجيال كثيرة، بل حتى على مدى قرون(٥). باختصار، لا تُعَدّ الحقبة الحديثة «لوحًا أملس»:

بل على العكس؛ انبثقت من تشكيلات اجتماعية وإثنية معقّدة في الحقب المبكرة، ومن الأنواع المختلفة من الإثنية التي غيّرتها القوى الحديثة، لكن لم تتمكّن من محوها قط. وفي هذا السياق، تشبه الحقبة الحديثة لوحًا سُجلت عليه التجارب والهويات المتراكمة لمختلف الحقب، إضافة إلى جملة متنوعة من التشكيلات الإثنية، حيث تؤثّر اللاحقة في السابقة وتعدّل السابقة اللاحقة، لإنتاج نمط مركّب من الوحدة الثقافية الجمعية التي ندعوها «الأمة»(٦).

يعلن أنصار الإثنية ـ الرمزية رفض «الاستمرارية» الصارخة لدعاة مقاربة التواتر وإعطاء الثقل المناسب للتحوّلات التي فرضتها الحداثة. كما يرفضون

(٣) Smith, «Ethno-Symbolism,» p. 84.

(٤) John Hutchinson, *Modern Nationalism* (London: Fontana, 1994), p. 7.

(٥) Anthony D. Smith, *The Ethnic Origins of Nations* (Oxford, UK; New York, NY: B. Blackwell, 1986), p. 16.

(٦) Anthony D. Smith, *Nations and Nationalism in a Global Era* (Cambridge, UK: Polity Press, 1995), pp. 59-60.

مزاعم الحداثيين عبر تقديم الحجّة على وجود قدر كبير من الاستمرارية بين الحقب «التقليدية» و«الحديثة»، أو بين «الزراعية» و«الصناعية» ـ ومن هنا أتت الحاجة إلى نظرية أوسع للتشكيل الإثني تُبرز أوجه الاختلاف والتشابه بين الوحدات الوطنية المعاصرة والمجتمعات الإثنية ما قبل الحديثة(٧).

يؤكد سميث أن مثل هذه المقاربة أكثر فائدة من البدائل الأخرى عبر ثلاث طرائق على أقل تقدير. أولًا، تساعد في إظهار أي الشعوب يرجَّح أن تبدأ حركةً قومية تحت ظروف معيّنة، وما هو مضمون هذه الحركة. ثانيًا، تمكّننا من فهم أهمية دور الذكريات والقيم والأساطير والرموز؛ إذ تشمل القومية غالبًا، كما يؤكد سميث، المسعى وراء تحقيق الأهداف الرمزية مثل التعليم بلغة معيّنة، أو امتلاك قناة تلفزيونية باللغة المعنية، أو حماية المواقع الأثرية المقدسة. ونظريات القومية المادية والحداثية تفشل في توضيح هذه القضايا نظرًا إلى عجزها عن فهم القوة العاطفية للذكريات الجمعية. أخيرًا، تفسّر المقاربة الإثنية ـ الرمزية كيف/ ولماذا تتمكّن القومية من توليد مثل هذه الدعم الشعبي العريض(٨).

الأهم ربما هو أن المقاربة الإثنية ـ الرمزية يمكن أن تساعدنا في فهم استمرارية الإثنية وثباتها والتحوّلات التي طرأت عليها في التاريخ، واستمرار قوة الأمم والقومية ومثابرتها في بداية الألفية الثالثة. وهذا يحدث لأنها توجّه انتباهنا إلى العوالم الداخلية للإثنية والأمة(٩).

١ ـ جون أرمسترونغ وتعقيدات الأسطورة ـ الرمز

وفقًا لأنتوني د. سميث، كان جون أ. أرمسترونغ (J. Armstrong) أول من شدّد على أهمية المدة الزمنية الطويلة لدراسة القومية في كتابه الرائد الذي شكّل اختراقًا مهمًّا»: **أمم قبل القومية** (*Nations before Nationalism*) (١٩٨٢)،

(٧) Smith, *The Ethnic Origins of Nations*, p. 13.

(٨) Anthony D. Smith, «Opening Statement Nations and their Pasts,» *Nations and Nationalism*, vol. 2, no. 3 (November 1996), p. 362.

(٩) Anthony D. Smith, *The Nation in History: Historiographical Debates about Ethnicity and Nationlism* (Cambridge: Polity, 200), p. 77.

إذ أتخمه باستقصاء واسع للركائز ما قبل الحديثة للإثنية[10]. أمّا هدف أرمسترونغ المعلن، فهو استكشاف «ظهور الهوية الجماعية المكثّفة التي ندعوها اليوم «أمة»» عبر تبنّي ما يسمّيه «منظورًا زمنيًا موسّعًا» يصل إلى القدماء. وبعد استقصاء الجماعات الإثنية في مسار رحلتها التاريخية الطويلة، يتوقف عند «عتبة القومية»، أي قبل الحقبة التي تصبح فيها القومية العقيدة السياسية المهيمنة في القرن الثامن عشر. وهو يبرر ذلك بملاحظة أنه أكثر اهتمامًا بالمثابرة والاستمرارية من بدايات أنماط محدّدة[11].

الإطار الرقم (٤ - ١) جون أرمسترونغ

أستاذ فخري في كلية العلوم السياسية بجامعة ويسكونسين (ماديسون)، مارس تأثيرًا نافذًا في نحو خاص في ميدان دراسات القومية عبر كتابه *Nations before Nationalism* (أمم قبل القومية) (١٩٨٢).

يكتب أرمسترونغ في موجز لمساره الفكري: «ضم أول ما نشرته عن القومية إشارات مرجعية موسّعة إلى الدِّين.. ومكّنني التآلف اللاحق مع العمل السوسيولوجي المؤثر الذي كتبه بيتر بيرغر وتوماس لوكمان، من أن أظهر بمزيد من الوضوح كيف تؤوي القومية، بوصفها نوعًا من أنواع الهوية «الفرد وتحميه من الرعب المطلق»، أي الموت باعتباره «أكثر أشكال انهيار الهوية رعبًا». وبالنسبة إلى مؤمن مثلي، تبقى الديانات العالمية (ولا سيما ديانات الشعوب التي تنزّلت عليها الكتب السماوية: المسلمون واليهود والمسيحيون) أكثر إرضاء وإقناعًا من القومية. لكن.. في عالم مُعلْمَن، كثيرًا ما يتكرر تدعيم التوليفات التي تجمع الهوية الوطنية والدينية. أمّا الاقتناع بعدم وجود أمة «بدائية» بل انطلاق الأمم كلّها من البشر في أزمنة وأمكنة معيّنة، فيتبنّاه على نطاق واسع الباحثون المتخصصون بالقومية، والاستثناء الشهير يمثّله ستيفن غروسبي. على وجه العموم، أشارك في هذا الإجماع، لكن أشترط أن أممًا، لكن ليس أمة محدّدة من النمط الحديث، وبالتأكيد ليس القومية، وجدت قبل القرن السادس عشر. تُعَدّ قضايا مثل التوقيت والعامل البشري بالغة الأهمية لنظريتي، لأن المنهج المفضّل لدي هو الاستخدام المكثّف للبيانات والمعطيات التاريخية مدة

(١٠) Anthony D. Smith, «History and National Destiny: Responses and Clarifications,» in: Monserrat Guibernau and John Hutchinson, eds., *History and National Destiny: Ethnosymbolism and its Critics* (Oxford: Blackwell, 2004), p. 199.

(١١) John Alexander Armstrong, *Nations before Nationalism* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1982), pp. 3-4.

طويلة. ورفضت باستمرار «نظرية الارتقاء» وأنطولوجيتها البيولوجية، بل حتى الوظيفية البنيوية ما دام نموذجها العضوي ينزع إلى رفض العامل البشري. وأفضّل بدلًا منها التفسيرات المتعدّدة العوامل التي تترك مدى واسعًا للمبادرات الفردية والجماعية. إن التشكيلات الاجتماعية ما قبل الحديثة التي تناولتها في كتاب أمم قبل القومية (١٩٨٢) وفي مواضع أخرى.. تتطلّب مقاربة أقل تحديدًا نوعًا ما في ما يتعلّق بزمان ومكان بداية نشوء الأفكار الوطنية. والموضوعات الجوهرية هي الأسطورة والرمز والاتصال، لا سيما في علاقتها بآليات حدود ذات طبيعة نفسية لا مناطقية».
John Alexander Armstrong, «Myth and Symbolism Theory of Nationalism,» in: Athena S. Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, Consultant Advisor Anthony D. Smith (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001), pp. 197-198.

في رأي أرمسترونغ، يتمتّع الوعي الإثني بتاريخ طويل، ويمكن العثور على آثاره في الحضارات القديمة، في مصر وما بين النهرين على سبيل المثال. وبهذا المعنى، ليست القومية المعاصرة سوى المرحلة الأخيرة من دورة أكبر من الوعي الإثني تعود إلى أقدم أشكال التنظيم الجمعي. أمّا أهم معلم مميز في معالم هذا الوعي، فهو ـ وفقًا لأرمسترونغ ـ مثابرته المستمرة. ومن ثم يجب تفحّص تشكيل الهويات الإثنية في بُعد زمني لقرون كثيرة، يشابه منظور المدة الطويلة التي شدّدت عليه مدرسة الحوليات في كتابة التاريخ الفرنسي. ولا يمكن لشيء سوى منظور زمني موسّع كشف مثابرة الارتباطات الإثنية واستمرارها و«الأهمية المتغيّرة للحدود بالنسبة إلى الهوية البشرية»[١٢].

يشير هذا التشديد على الحدود إلى موقف أرمسترونغ إزاء الهويات الإثنية؛ فهو يقدّم الحجّة بعد تبنّي نموذج التفاعل الاجتماعي للعالم الأنثروبولوجي النرويجي فريدريك بارث (F. Barth)، على أن «الجماعات تميل إلى تعريف نفسها لا بالإشارة إلى سماتها الخاصة بل بالاستثناء، أي بالمقارنة بـ«الأجانب»»[١٣]. يستلزم ذلك عدم إمكانية وجود «شخصية» ثابتة أو «جوهر» ثابت للجماعة؛ إذ تتفاوت حدود الهويات وفقًا لمدركات الأفراد الذين يشكّلون الجماعة. ومن ثم، من المنطقي أكثر التركيز على آليات الحدود التي

(١٢) المصدر نفسه، ص ٤.
(١٣) المصدر نفسه، ص ٥.

تميّز جماعة معيّنة من غيرها بدلًا من السِّمات الجماعية الموضوعية. وفي رأي أرمسترونغ، تعرض مقاربة بارث الشخصية الكثير من الفوائد والمزايا؛ فهي، أولًا، تفسح المجال للتغيّرات في المحتوى الثقافي والبيولوجي للجماعة ما دام يجري الحفاظ على آليات الحدود. ثانيًا، تُظهر أن الجماعات الإثنية لا تعتمد بالضرورة على احتلال مناطق حصرية معيّنة. أمّا مفتاح فهم الهوية الإثنية، فهو «التجربة الغريبة لمواجهة الآخرين» الذين بقوا صامتين ردًّا على محاولات الاتصال، الشفاهية أو عبر الإشارات والإيماءات الرمزية. إن العجز عن الاتصال يُطلق عملية «تمايز» تجلب بدورها الاعتراف بالانتماء الإثني[١٤].

يتضمن مثل هذا المفهوم عن الجماعة الإثنية، أي تعريف الجماعة بالاستثناء، عدم وجود طريقة تعريفية لتمييز الإثنية من الأنماط الأخرى من الهوية الجمعية. وسوف تتشابك الروابط الإثنية غالبًا مع الولاءات الدينية أو الطبقية. «هذه السِّمة المعقّدة المتغيّرة بالضبط هي التي نفّرت كثيرًا من علماء الاجتماع ومنعتهم من تحليل الهوية الإثنية مدة طويلة من الزمن». واعتمادًا على هذه الملاحظة، يعلن أرمسترونغ أنه أكثر اهتمامًا بالتفاعل المتغيّر بين الولاءات الطبقية والإثنية والدينية منه بـ«التعريفات التصنيفية». لكن من أجل القيام بذلك، يجب أن تنتقل بؤرة تركيز الاستقصاء من السمات الجماعية الداخلية إلى آليات الحدود الرمزية التي تمايز بين هذه الجماعات من دون تجاهل حقيقة أن الآليات المعنية توجد في الأذهان، ولا تأخذ شكل خطوط على خريطة، أو معايير في كتاب القوانين والقواعد الرسمية[١٥].

لاحظنا آنفًا أن أرمسترونغ يشدّد بصورة خاصة على مثابرة هذه الآليات الحدودية الرمزية واستمراريتها ودوامها. وفي رأيه، «تُعَدّ الأسطورة والرمز والاتصال وجملة العوامل الشخصية المترابطة أكثر مثابرة وديمومة في العادة من العوامل المادية الصرفة»[١٦]. فما هي إذًا العوامل التي تضمن هذه المثابرة والديمومة؟ يحاول أرمسترونغ تحديد هذه العوامل وتحليلها في باقي فصول كتابه.

---

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٦ - ٧.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٩.

يبدأ بأكثر العوامل عمومية، ألا وهي سبل العيش والتجارب المرتبطة بها. ثمة سبيلان للعيش مختلفان اختلافًا جوهريًا: المترحل والمقيم اللذان يحظيان بأهمية خاصة في هذا السياق، لأن الأساطير والرموز التي يجسدانها ـ ويعبَّر عنها بالحنين إلى الماضي ـ توجِد نوعين من الهويات اعتمادًا على مبدأين متناقضين. وهكذا، أصبح مبدأ المنطقة (الأرض) والحنين الخاص به في نهاية المطاف الشكل المهيمن في أوروبا، بينما استمر مبدأ السلالة (النسب) أو شبه السلالة في الهيمنة على معظم أرجاء الشرق الأوسط. أمّا العامل الثاني، الدِّين، فقد عزز هذا الفارق الأساسي. وأنتجت الديانتان العالميتان العظيمتان، المسيحية والإسلام، حضارتين مختلفتين وأساطير / رموزًا مرتبطة بهما شكّلت الهويات الإثنية بطرائقهما المحدّدة المتباينة. العامل الثالث في رأي أرمسترونغ تمثّله المدينة. وتحليل تأثير المدن في الهوية الإثنية يتطلّب، كما يؤكد أرمسترونغ، تفحّص جملة من العوامل المختلفة: بدءًا بتأثير تخطيط المدن وانتهاء بالتأثيرات التوحيدية أو الطاردة من المركز لمختلف التشريعات القانونية، ولا سيما قانون لوبيك (Lübeck) وماغديبورغ (Magdeburg). ثم ينتقل إلى دور الكيانات السياسية الإمبراطورية. عند هذه النقطة، يصبح السؤال المحوري هو: «كيف يمكن للوعي المكثف بالولاء والهوية الذي ترسّخ عبر الاتصال المباشر وجهًا لوجه في الدولة ـ المدينة أن يتحوّل إلى تكتلات أكبر من المدن والأرياف المعروفة باسم الإمبراطوريات؟». هنا، يشدّد أرمسترونغ على التأثيرات المتفاوتة لأسطورة بلاد ما بين النهرين بشأن الكيان السياسي ـ ما يدعوه «القوة الدافعة للأسطورة» ـ بوصفها انعكاسًا للحكم الإلهي. واستُخدمت هذه الأسطورة وسيلةً لدمج الولاءات للمدينة ـ الدولة في إطار أوسع. وفي رأيه، ربما شكّل ذلك أول الأمثلة المبكرة على «تحوّل الأسطورة لأغراض سياسية»[17]. أخيرًا، يُدخل أرمسترونغ مسألة اللغة ويقوّم تأثيرها في تشكّل الهوية في الحقبة ما قبل القومية. وخلافًا للافتراضات البديهية والمنطقية، يستنتج أرمسترونغ أن «أهمية اللغة للهوية الإثنية مشروطة إلى درجة كبيرة» في الحقب ما قبل الحديثة. واعتمدت أهميتها الدلالية في المدى الطويل على القوى والتحالفات السياسية والدينية[18].

---

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٣.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٨٢.

يخفف أرمسترونغ من حدّة موقفه في أعماله اللاحقة؛ فبينما يتشبّث بقوة باعتقاده أن الأمم لم تكن موجودة قبل القومية[19]، فإنه يتّفق مع أندرسون وهوبزباوم على أن الهوية الوطنية، مثل الهويات البشرية الأخرى، ليست سوى اختراع. أمّا الخلاف الباقي الوحيد، كما يؤكد أرمسترونغ، فيتعلق بـ«قِدم بعض الاختراعات، وذخيرة السِّمات الجماعية الموجودة مسبقًا التي تمكّن المخترعون من الاعتماد عليها والانطلاق منها»[20].

يمكن توكيد أن أعمال أرمسترونغ، بتركيزها على الحضارات القروسطية في أوروبا والشرق الأوسط، تعرض لمحة أكثر شمولًا لعملية الارتباط الإثني مقارنة بالدراسات المقارنة الأخرى في الميدان. وفي رأي سميث، يقدّم أرمسترونغ حجّة مقْنعة لتأسيس ظهور الهويات الوطنية الحديثة على أنماط المثابرة والاستمرارية الإثنية، ولا سيما التأثير البعيد المدى لـ«التعقيدات الأسطورية ـ الرمزية»[21].

في الحقيقة، فإن سميث هو الذي استكشف هذه القضايا بمزيد من التفصيل، ووسّع إطار التحليل الذي طوّره أرمسترونغ.

٢ ـ أنتوني د. سميث والأصول الإثنية للأمم

يُعَدّ أنتوني سميث آخر ممثّلي سلسلة من الباحثين والأكاديميين الذين ساهموا في ما يدعوه إرنست غيلنر «جدل كلّية لندن للاقتصاد» بشأن القومية[22]، حيث تابع تقليدًا ورثه من باحثين مميَّزين مثل إيلي كدوري وكينيث مينوغ وغيلنر نفسه. لكن سميث يختلف عن الجيل الذي سبقه في جانب مهم واحد؛ حيث كان معظم المساهمين في جدل كلّية لندن للاقتصاد،

---

(١٩) John Alexander Armstrong, «Towards a Theory of Nationalism: Consensus and Dissensus,» in: Sukumar Periwal, ed., *Notions of Nationalism* (Budapest; New York: Central European University Press, 1995), p. 42, note 2.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٣٦، و John Alexander Armstrong, «Myth and Symbolism Theory of Nationalism,» in: Leoussi, ed., pp. 198-199.

(٢١) Anthony D. Smith, *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998), p. 185.

(٢٢) Ernest Gellner, *Encounters with Nationalism* (Oxford, [England]; Cambridge, Mass.: Blackwell, 1994), p. 61.

ومنهم كدوري ومينوغ وسميث، أنصارًا مؤيدين للمَنْسَق (البراديم) الحداثي. أمّا سميث، من ناحية أخرى، فأسس مقاربته على نقد للحداثة. وتقوم أطروحته المركزية على تعذّر فهم الأمم الحديثة من دون أخذ المكوّنات الإثنية الموجودة مسبقًا بالاعتبار، وأن غيابها يرجِّح أن ينشئ مأزقًا خطِرًا لعملية «بناء الأمّة». يقرّ سميث بوجود تشكيلة متنوعة من الحالات لا تعترض فيها عوائق كثيرة طريق التراث الإثني الغني. لكن، كما يتابع، تُعَدّ هذه الحالات المتطرفة نادرة الحدوث. «في العادة، يوجد أساس إثني لبناء الأمم الحديثة، لكن لا يؤمل بإحياء سوى بعض الذكريات الواهية والعناصر الثقافية الباهتة والنسب المزعوم»[23]. يستلزم ذلك ضرورة دراسة نهوض الأمم المعاصرة في سياق خلفيتها الإثنية، ما يعني:

تأسيس فهمنا للقومية الحديثة على ركيزة تاريخية تشمل فترات زمنية طويلة، لرؤية مدى التصوّر المسبق لموضوعاتها وأشكالها في الحقب المبكرة، وكيف يمكن ترسيخ صلة جامعة مع الروابط والعواطف الإثنية المبكرة[24].

وفقًا لسميث، إذا أردنا تجاوز التعميمات الجارفة للحداثة والنظرية البدائية، نحتاج إلى صوغ تعريفات عملية واضحة للتعابير المفتاحية، مثل «أمّة» و«قومية»، ومن ثم الخروج من المأزق المستمر في عرقلة التقدّم في هذا الميدان. فالمشكلة في النظريات الحداثية، كما يؤكد، تتمثّل في كونها تقدّم تعريفًا، لا للأمّة بحد ذاتها، بل لنوع خاص من الأمم: الأمّة الحديثة. وهو يعبّر عن السّمات المميّزة للأمم في أوروبا الغربية وأميركا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولذلك فهو جزئي ومتمركز على أوروبا اعتقادًا بتفوقها الثقافي[25]. ما نحتاج إليه هو تعريف مثالي ـ نمطي للأمّة؛ تعريف يتعامل معها بوصفها صنفًا تحليليًا عامًا، يمكن تطبيقه من حيث المبدأ على القارات والعصور التاريخية كلها[26]. ومن ثم يقترح التعريف الآتي للأمّة،

---

(٢٣) Smith, *The Ethnic Origins of Nations*, p. 17.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٢٥) Smith, «The Genealogy of Nations: An Ethno-Symbolic Approach,» p. 95.

(٢٦) Anthony D. Smith, *The Cultural Foundations of Nations: Hierarchy, Covenant and Republic* (Malden, MA: Blackwell Pub., 2008), p. 19.

وهو مستمَد إلى حد بعيد من الصور والافتراضات التي يتبنّاها معظم القوميين أو جميعهم: الأمّة «سكان من البشر لهم اسم ويتقاسمون منطقة تاريخية، وأساطير مشتركة، وذكريات تاريخية، وثقافة جماهيرية عمومية، واقتصادًا مشتركًا، وحقوقًا وواجبات قانونية للأعضاء جميعهم»[27]. يعتقد سميث أن مثل هذا التعريف يكشف الطبيعة المعقّدة والمجرّدة للهوية الوطنية التي تُعَدّ جوهريًا متعدّدة الأبعاد.

من ناحية أخرى، تُعَدّ أصول الأمّة وجذورها معقّدة تعقيد طبيعتها. وربما نبدأ بالبحث عن تفسير عام عبر طرح الأسئلة الآتية:

- من هي الأمة؟ وما هي الركائز والنماذج الإثنية للأمم الحديثة؟ ولماذا ظهرت هذه الأمم المحددة؟

- لماذا/ وكيف انبثقت الأمة؟ أي، ما هي الأسباب والآليات العامة التي حرّكت عملية تشكيل الأمّة من مختلف الروابط والذكريات الإثنية؟

- متى/ وأين نهضت الأمة؟[28].

الإطار الرقم (٤ - ٢) أنتوني د. سميث

أستاذ فخري للإثنية والقومية في قسم الإدارة والحكم في كلّية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية. وهو مؤسس ومحرر (أصبح الآن رئيس تحرير) مجلة *Nations and Nationalism*، ورئيس جمعية دراسة الإثنية والقومية (ASEN) التي أسسها الباحثون من الطلاب والأكاديميين في عام ١٩٩٠ في كلية لندن للاقتصاد. تشمل مؤلفاته الكثيرة المنشورة في موضوع القومية: *Theories of Nationalism* (نظريات القومية) (١٩٧١)؛ *The Ethnic Origins of Nations* (الأصول الإثنية للأمم) (١٩٨٦)؛ *National Identity* (الهوية الوطنية) (١٩٩١أ)؛ *Nations and Nationalism in a Global Era* (الأمم والقومية في حقبة عالمية) (١٩٨٦)؛ *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (القومية والحداثة: دراسة نقدية للنظريات الحديثة للأمم والقومية) (١٩٩٨)؛ *The Nation in History: Historiographical Debates*

(٢٧) Anthony D. Smith, *National Identity* (London. Penguin, 1991), p. 14.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٩.

about Ethnicity and Nationalism (الأمّة في التاريخ: مجادلات تأريخية حول الإثنية والقومية) (٢٠٠٠)؛ Nationalism: Theory, Ideology, History (القومية: النظرية، الأيديولوجيا، التاريخ) (٢٠٠١)؛ Chosen Peoples: Sacred Sources of National Identity (شعوب مختارة: مصادر مقدّسة للهوية الوطنية) (٢٠٠٣)؛ الأسس الثقافية للأمم (٢٠٠٨).

يكتب سميث في القومية والحداثة: «لئن تقدّم أرمسترونغ من الماضي الغابر إلى عصر القومية، فإن عملي اتخذ مسارًا معاكسًا: من الحقبة الحديثة للدول القومية والقومية إلى أقدم تمظهرات العواطف الثقافية الجمعية». بشروط مهمّة «أقبل حداثة الأمم والقومية، بوصفي تلميذًا نجيبًا لإرنست غيلنر. لكن المخطط الأوّلي لأصول القومية الإثنية الذي عرضته شدّد على دور العوامل السياسية والدينية لا على دور العوامل الاجتماعية والثقافية. [بحلول] أوائل ثمانينيات القرن العشرين، بدأت أشعر بأن هذا التحليل للطبقات المثقفة (الإنتلجنسيا) المحلية المعزولة والمستأصلة من جذورها التي غدت راديكالية بواسطة الدول البيروقراطية الأجنبية، ساعد في تفسير جزء من ظاهرة القومية، إلّا أنه فشل فشلًا ذريعًا في تفسير الصورة الاجتماعية الأوسع، أو تشكيلات الأمم ووتيرة ظهور القوميات وكثافتها. في الواقع، ثمة حاجة إلى سوسيولوجيا تاريخية للأمم والقومية». يقول سميث أيضًا: «من الممكن العثور على أمثلة لتشكيلات اجتماعية في الحقب ما قبل الحديثة، بل حتى في القديمة، اقتربت على مدى عقود أو حتى قرون من تعريف شامل لمفهوم «الأمة»، ولا سيما بين اليهود وسكان أرمينيا القدماء، إضافة إلى المصريين القدماء إلى حد ما، وربما اليابانيين والكوريين في العصور الوسطى. تبدو هذه الأمثلة، مع أنها غير كافية لتقويض النموذج الحداثي، وكأنها تلقي الشك على إصرار غيلنر على استحالة وجود الأمم في العصور ما قبل الحديثة. في ضوء هذه الاعتبارات، بدأت بؤرة تركيز تحليلي بالانتقال من القوميات إلى الأمم، ومن الأمم إلى المجتمعات المحلية الإثنية».
Anthony D. Smith, *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998), pp. 187-191, and Montserrat Guibernau, «Anthony D. Smith on Nations and National Identity: A Critical Assessment,» *Nations and Nationalism*, vol. 10, nos. 1-2 (January 2004).

في رأي سميث، يجب البحث عن الإجابة عن السؤال الأول في المجتمعات المحلية الإثنية المبكرة (يفضل استعمال التعبير الفرنسي *ethnie* / إثنية) نظرًا إلى أن الهويات والموروثات ما قبل الحديثة تشكّل الطبقة

الأساسية لكثير من الأمم المعاصرة. ويفترض وجود ست سمات رئيسة لمثل هذه المجتمعات: اسـم علم جمعي؛ أسـطورة عن أسلاف مشتركين؛ ذكريات تاريخيـة مشـتركة؛ عنصر تمييزي أو أكثـر من ثقافة مشـتركة؛ ارتباط بوطن أُم محدد؛ شعور بالتضامن مع قطاعات مهمّة من السكان[٢٩]. ومثلما تكشف هذه اللائحة، فإن لأغلبية هذه السِّـمات محتوى ثقافي وتاريخي، إضافة إلى مكوّن ذاتي قوي. وهذا يشـير، خلافًا للخطاب البلاغي للأيديولوجيات القومية، إلى أن الإثنيـة ليسـت بدائيـة على الإطلاق. ومع توسّـع وانحسـار الأهمية الذاتية لكلٍّ من هذه السـمات بالنسـبة إلى أعضاء المجتمع المحلي، وفقًا لسـميث، يتوسع / وينحسر تلاحمهم وتماسكهم ووعيهم الذاتي[٣٠].

إذا لـم تكـن الإثنيـة كيانًـا بدائيًا، فكيف ظهـرت إلى حيّـز الوجود إذًا؟ يحـدّد سـميث نمطيـن رئيسـين لتشـكّل الإثنية: الاندمـاج والانقسـام. يعني بالاندمـاج تجمّـع الوحـدات المنفصلـة التـي يمكـن بدورها أن تنقسـم إلى عمليـات تكتّـل لوحـدات منفصلة مثـل الـدول ـ المدن، وامتصـاص وحدة لأخرى مثل عملية اندماج المناطق. ويقصد بالانقسـام الانقسـام الفرعي عبر الانشـطار، مثل الانقسام الطائفي، أو عبر «الانتشار» (وهو تعبير يستعيره من هوروفيتـز)، حيـن ينفصل جزء مـن المجتمع المحلي الإثني ليشـكّل وحدة جديدة كما في حالة بنغلاديش[٣١].

يلاحظ سـميث أن الإثنيات ما إن تتشـكّل حتى تميل إلى أن تكون ثابتة ومتينـة إلى حد اسـتثنائي[٣٢]. لكـن ينبغي ألّا يدفعنا ذلك إلى الاسـتنتاج بأنها تعبـر التاريـخ مـن دون أي تغييرات تصيـب تكوينها الديموغرافي (السـكاني) و / أو محتوياتهـا الثقافيـة. بكلمـات أخـرى، يجب أن نحـاول تجاهل حدود الاستقطاب القصوى للجدل البدائي ـ الذرائعي عند تقويم عودة ظهور الروابط والمجتمعـات المحليـة الإثنيـة. يعتـرف سـميث بوجود حـوادث معيّنـة تولّد تغييـرات عميقـة في المحتويات الثقافيـة للهويات الإثنية، ينتقـي منها الحرب

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٣ – ٢٤.

(٣٢) Smith, *The Ethnic Origins of Nations*, p. 16.

والفتح، والمنفى والاستعباد، وتدفق المهاجرين والهداية الدينية[٣٣]. ومع ذلك، فإن ما يهم فعلًا هو مدى انعكاس هذه التغيّرات على (وتعطيل) الإحساس بالاستمرارية الثقافية الذي يجمع الأجيال المتلاحقة معًا. في رأي سميث، حتى أشد التغييرات راديكالية لا يمكن أن تدمّر هذا الإحساس بالاستمرارية والإثنية المشتركة. ويعود جزء من السبب إلى وجود عدد من القوى الخارجية التي تساعد في بلورة هويات إثنية وتضمن مثابرتها وديمومتها على مدى حقب زمنية طويلة. ومن هذه القوى الحاسمة الأهمية: إنشاء الدولة، والتعبئة العسكرية، والدِّين المنظَّم.

في ضوء هذه الملاحظات، ينطلق سميث لتحديد الآليات الرئيسة للتجديد الذاتي الإثني. أُولى هذه الآليات «الإصلاح الديني». وتاريخ اليهود حاشد بكثير من الأمثلة لذلك. وفي المقابل، حاولت الجماعات التي وقعت ضحية للنزعة الدينية المحافظة التعويض عن الفشل في إدخال الإصلاحات عبر التحوّل إلى أشكال أخرى من التجديد الذاتي. تلك هي المعضلة التي واجهت اليونانيين عند بداية القرن التاسع عشر؛ فحين فشلت التراتبية الأرثوذكسية في الاستجابة للطموحات الشعبية، تحوّلت الطبقات الوسطى اليونانية إلى الخطابات الأيديولوجية العلمانية لتحقيق أهدافها. أمّا الآلية الثانية، فهي «الاستعارة الثقافية»، بمعنى الاتصال المنظَّم والتبادل الثقافي الانتقائي بين مختلف المجتمعات المحلية. هنا، يمكن العثور مرة أخرى على أمثلة في التاريخ اليهودي. والمواجهة الحيوية بين الثقافتين اليهودية واليونانية، كما يعتقد سميث، أثرت ميدان الهوية والثقافة اليهودية برمّته. الآلية الثالثة هي «المشاركة الشعبية». ولا ريب في أن الحركات الشعبية من أجل مزيد من المشاركة في النظام السياسي أنقذت كثيرًا من الإثنيات من الاضمحلال والتلاشي عبر توليد الحماسة التبشيرية بين المشاركين في هذه الحركات. الآلية الأخيرة هي التجديد الذاتي الإثني الذي يعرّفه سميث بأنه «أساطير الانتخاب الإثني». وفي رأيه، فإن الإثنية التي تفتقر إلى مثل هذه الأساطير تمتصها الإثنيات الأخرى غالبًا بعد أن تفقد استقلاليتها[٣٤].

---

(٣٣) Smith, *National Identity*, p. 26.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٣٥ - ٣٦.

تضمن هذه الآليات الأربع معًا بقاء بعض المجتمعات المحلية الإثنية طوال قـرون، على الرغم من التغيّـرات في تركيبتها الديموغرافيـة ومحتوياتها الثقافية. كما تؤدي إلى التشـكّل التدريجي لما يسمّيه سميث «المراكز الجوهرية الإثنية»؛ إذ تشـكّل هذه «الإثنيات المتلاحمة والمتميزة بوعيها الذاتي» الركيزة المؤسسـة للـدول والممالك في العصور اللاحقة. ومن ثم، يسـاعدنا تعيين موضع المراكز الجوهرية الإثنية كثيرًا في الإجابة عن سؤال «من هي الأمة»؟ يلاحظ سميث أن معظـم الأمـم المتأخرة أقيمت حـول إثنية مهيمنة، ضمّـت أو جذبت مجتمعات محلية إثنية إلى الدولة التي أسستها، وأعطتها اسمًا وشخصية ثقافية(٣٥).

لكن هذه الملاحظة ليست كافية لتبرير بحثنا عن أصول الأمم في الحقبة ما قبل الحديثة، نظرًا إلى وجود حالات كثيرة من الأمم التي تشكّلت من دون سوابق إثنية مباشرة. بكلمات أخرى، تجمع الأمم الحديثة والمراكز الجوهرية الإثنية السـابقة علاقة إشـكالية. عند هذه النقطة، يُدرج سـميث ثلاثة أسـباب أخرى لدعم حجّته. أولًا، تشكّلت الأمم الأولى على أساس المراكز الجوهرية الإثنية. ولأنها قوية ومؤثرة ثقافية، جسّدت نماذج للحالات اللاحقة من تشكّل الأمم. السبب الثاني هو أن هذا النموذج كبح بسهولة نوع المجتمعات المحلية «الشعبية» ما قبل الحديثة (وسوف نشرح ذلك لاحقًا). وبحسب تعبير سميث، «كان النمـوذج الإثنـي خصبًا من الناحية السوسـيولوجية». أخيـرًا، حتى حين انتفت السـوابق الإثنية، أصبحت الحاجة إلى تلفيق أسـطورة متماسكة ورمزية متلاحمة مهيمنة في كل مكان لضمان البقاء والوحدة الوطنية(٣٦).

يسـاعدنا وجـود الروابط الإثنية ما قبـل الحديثة في تقريـر أي الوحدات السـكانية يرجَّح أن تتحوّل إلى أمم، لكنـه لا يخبرنا لماذا/ وكيف حدث هذا التحـوّل. وللإجابة عن السـؤال الثانـي المطروح آنفًـا: «لماذا/ وكيف ظهرت الأمم؟»، نحن بحاجة إلى تحديد الأنماط الرئيسة من «تشكّل الهوية» والعوامل التي أطلقت تطوّرها. يبدأ سميث بتحديد نوعين من المجتمع المحلي الإثني، «الأفقي» (الأرستقراطي) والعمودي (الشعبي)، ملاحظًا أن هذين النوعين ولّدا أنماطًا مختلفة من تشكّل الأمم.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٣٨ - ٣٩.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٤٠ - ٤١.

تألفت الإثنيات «الأفقية» عمومًا من الأرستقراطيين وكبار رجال الدِّين، وإن ضمت في بعض الحالات البيروقراطيين، وكبار المسؤولين العسكريين، والتجار الأثرياء. يفسر سميث اختياره لتعبير «أفقي» عبر الإشارة إلى أن هذه الإثنيات كانت في الوقت نفسه مقتصرة اجتماعيًا على الطبقة العليا، ومنتشرة جغرافيًا لتشكيل صلات وثيقة مع الطبقات العليا للإثنيات الأفقية المجاورة. ونتيجة لذلك، كانت حدودها «ممزَّقة»، لكنها افتقدت العمق الاجتماعي، «وكثيرًا ما ارتبط إحساسها الواضح بالإثنية المشتركة مع عصبيتها (روح التضامن) بوصفها طبقة رفيعة المكانة وحاكمة». وخلافًا لذلك، كانت الإثنيات «العمودية» أكثر تركّزًا وشعبية. وانتشرت ثقافتها إلى الشرائح الأخرى من السكان أيضًا. ولم تتدعم الانقسامات الاجتماعية بفوارق ثقافية؛ «بل ساعدت ثقافة تاريخية مميّزة في توحيد الطبقات المختلفة حول تراث وتقاليد مشتركة، ولا سيما حين تعرّضت هذه الأخيرة لتهديد من الخارج». ونتيجة لذلك، كانت الرابطة الإثنية وثيقة وحصرية، وكانت الحواجز أمام الدخول والقبول أكثر ارتفاعًا[٣٧].

مثلما لاحظنا آنفًا، اتّبع هذان النمطان من المجتمعات المحلية الإثنية مسارين مختلفين في عملية صيرورة الأمّة. يدعو سميث المسار **الأول** الأفقي «الدمج البيروقراطي». إذ اعتمد بقاء المجتمعات الإثنية الأرستقراطية إلى حد بعيد على قدرتها على دمج الطبقات الأخرى من السكان ضمن مدارها الثقافي. وتحقق ذلك في أنجح صورة في أوروبا الغربية. ففي إنكلترا وفرنسا وإسبانيا والسويد، تمكّنت الإثنية المهيمنة من دمج الطبقات الوسطى والمناطق الطرفية في ثقافة النخبة. ووفقًا لسميث، كانت الوسيلة الرئيسة في هذه العملية الدولة البيروقراطية البازغة حديثًا. وعبر سلسلة من «الثورات»، في المجالات الإدارية والاقتصادية والثقافية، استطاعت الدولة نشر الثقافة المهيمنة بين الطبقات الدنيا من السلّم الاجتماعي. أمّا المكونات الرئيسة لـ«الثورة الإدارية»، فتمثّلت في توسيع حقوق المواطَنة، والتجنيد، والضرائب، وتشييد البنية التحتية التي ربطت بين الأجزاء البعيدة في المملكة. استكملت هذه التطوّرات بـ«ثورات» موازية في المجالين الاقتصادي والثقافي. [هنا] ينتقي

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٥٣.

سميث عمليتين اثنتين على صلة وثيقة بتشكّل الأمم: الانتقال إلى اقتصاد السوق وانحسار سلطة الكنيسة. وتحظى العملية الثانية بأهمية خاصة لأنها أتاحت تطوّر الدراسات العلمانية والتعليم الجامعي. وأدّى هذا بدوره إلى «ازدهار» في وسائل الاتصال وأنماطه الشعبية ـ روايات، مسرحيات، مجلات. وأدّى المفكرون والمثقفون والمهنيون دورًا مهمًا في هذه العمليات(٣٨).

انطلق المسار الثاني لتشكّل الأمم الذي يدعوه سميث «التعبئة اللغوية المحلية»، من إثنية عمودية. كان تأثير الدولة البيروقراطية غير مباشر في هذه الحالة لأن الإثنيات العمودية على الأغلب كانت مجتمعات محلية خاضعة في العادة. هنا، تمثّلت الآلية الأساسية للمثابرة الإثنية والاستمرارية في الدِّين المنظَّم. وعبر أساطير الشعب المختار، والنصوص والكتب المقدسة، ومكانة رجال الدِّين، أمكن ضمان بقاء التقاليد التراثية الجمعية المشتركة. لكن المجتمعات الشعبية واجهت مشكلات خاصة بها، ظهرت على السطح في المراحل الأولية من عملية تشكّل الأمّة. بادئ ذي بدء، تداخلت الثقافة الإثنية عادة مع الدائرة الأوسع للثقافة الدينية والولاء الديني، ولم يكن ثمة عامل إكراه داخلي لكسر القالب، فضلًا عن أن أعضاء المجتمع المحلي افترضوا ببساطة أنهم يشكّلون أمّة أصلًا، مع أنها من دون سقف سياسي. في ظل هذه الظروف، تمثلت المهمة الرئيسة للطبقة المثقفة العلمانية (الإنتلجنسيا) في تعديل وتصحيح العلاقة الأساسية بين الإثنية والدِّين. بكلمات أخرى، كان من الضروري تمييز مجتمع المؤمنين عن مجتمع الثقافة التاريخية. يحدّد سميث ثلاثة توجّهات مختلفة برزت بين المثقفين الذين واجهتهم هذه المعضلة: عودة واعية وتحديثية إلى التراث («النزعة التقليدية»)؛ رغبة جارفة في استيعاب الحداثة الغربية («الاستيعاب» أو «الحداثة»)؛ محاولة دفاعية لتوليف وتركيب عوامل من التراث مع جوانب مع الحداثة الغربية، ومن ثم إحياء مجتمع أصيل نقي مشكل على نموذج العصر الذهبي السابق («الإحياء الإصلاحي»)(٣٩).

كان للحل الذي تبنّاه المثقفون مضامين عميقة أثّرت في عملية تشكّل الأمّة وصيغتها ووتيرتها ومداها وكثافتها. لكن بغضّ النظر عن مضمون الحل،

---

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٥٩ – ٦٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٦٣ – ٦٤.

تمثّلت المهمّة الرئيسة للطبقة المثقفة الإثنية في «حشد وتعبئة مجتمع مستكين وسلبي سابقًا لتشكيل أمّة حول الثقافة التاريخية الجديدة المحلية اللغة التي أعادت اكتشافها»(٤٠). في كل حالة، كان عليها توفير «تعاريف ذاتية وأهداف مشتركة جديدة»، ورسم «خرائط ومبادئ أخلاقية مستمَدة من الماضي الإثني الحي». وأمكن تحقيق ذلك بطريقتين اثنتين: بالعودة إلى «الطبيعة» و«فضاءاتها الشعرية» التي تشكّل الموئل التاريخي للناس وذخيرة ذكرياتهم، وبتمجيد العصور الذهبية. استخدم «المثقفون ـ المعلمون» الطريقتين مرارًا وتكرارًا لتشجيع الإحياء الوطني.

تجدر الإشارة بالمناسبة إلى أن سميث يحدّد في أعماله المتأخرة طريقًا ثالثة لتشكّل الأمّة، تسلكها الأمم المهاجرة المؤلفة غالبًا من أجزاء متشظية من إثنيات أخرى، ولا سيما تلك التي أتت من وراء البحار. في بلدان مثل الولايات المتحدة وكندا وأستراليا، أوجد المهاجرون ـ المستوطنون «قومية حدود العناية الإلهية» التي شجعت مفهومًا «تعدديًا» للأمّة، يقبل، بل يحتفي بالتنوع الإثني والثقافي ضمن الإطار الشامل للهوية الوطنية السياسية والقانونية واللغوية(٤١).

يقودنا هذا كله إلى السؤال الأخير الذي يستهدي به إطار سميث التفسيري: «أين / ومتى ظهرت الأمّة؟». هنا تتدخّل القومية. يؤكد سميث أن القومية لا تساعدنا في تقرير أي الوحدات السكانية مؤهّلة للتحوّل إلى أمم، ولا لماذا تحوّلت إلى أمم، لكنها تؤدي دورًا مهمًّا في تحديد متى / وأين ستظهر الأمم(٤٢). إذًا، تتمثّل الخطوة التالية في التفكير بتأثير القومية (السياسي) في عدد من الحالات المحددة. لكن يتعذر القيام بذلك من دون توضيح مفهوم القومية بحد ذاته.

يبدأ سميث بملاحظة أن تعبير «قومية» استُعمل في خمس طرائق مختلفة:

ـ عملية تشكيل الأمم والحفاظ عليها برمتها؛

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٤١) Smith: *Nationalism and Modernism*, p. 194, and *Nations and Nationalism in a Global Era*, chap. 4.

(٤٢) Smith, *National Identity*, p. 99.

- وعي بالانتماء إلى أمّة؛ لغة ورمزية لـ«الأمّة»؛
- أيديولوجيا (تشمل عقيدة ثقافية للأمم)؛
- حركة اجتماعية وسياسية لبلوغ أهداف الأمّة وتحقيق الإرادة الوطنية[٤٣].

يشدّد سميث على المعنيين الرابع والخامس في تعريفه. ومن ثم، فإن القومية «حركة أيديولوجية للحصول على الاستقلال الذاتي والوحدة والهوية، والحفاظ عليها كلّها باسم السكان الذين يعتقد بعض أفرادهم أنهم يكوّنون «أمة» فعلية أو محتملة». التعابير المفتاحية في هذا التعريف هي الاستقلال الذاتي والوحدة والهوية، حيث يشير الاستقلال الذاتي إلى فكرة تقرير المصير والمسعى الجمعي لتحقيق إرادة وطنية حقيقية و«أصيلة»، بينما تدل الوحدة على وحدة الأراضي الوطنية وتجميع المواطنين جميعهم داخل الوطن الأُم. أخيرًا، تعني الهوية في دلالتها «التماثل»، أي إن أعضاء جماعة معيّنة متشابهون في تلك الملامح والجوانب التي يختلفون بها عن غير الأعضاء، لكن تتضمّن أيضًا إعادة اكتشاف «الذات الجمعية» (أو «العبقرية الوطنية»)[٤٤].

من جهة أخرى، تتألف «العقيدة الجوهرية» للقومية من أربعة افتراضات مركزية:

- العالم مقسَّم إلى أمم، لكل منها شخصيتها وتاريخها ومصيرها الخاص.
- الأمّة مصدر السلطة السياسية والاجتماعية، ويتمتع الولاء للأمّة بالأولوية على الولاءات الأخرى كلها.
- يجب أن يرتبط البشر بأمّة إذا أرادوا تحرير نفوسهم وتحقيق ذواتهم.
- يجب أن تكون الأمم حرة وآمنة إذا أردنا أن يخيم السلام على العالم[٤٥].

ينتقل سميث بعد ذلك إلى أنواع القومية. واعتمادًا على تمييز كوهن الفلسفي بين النسخة الأكثر عقلانية والأكثر عضوية من الأيديولوجيا القومية،

---

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٧٢.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٧٣ - ٧٧.
(٤٥) المصدر نفسه، ص ٧٤.

يحـدّد نوعيـن اثنيـن مـن القوميـة: «المناطقيـة» و«الإثنيـة» (ارتـكازًا علـى النموذجيـن «الغربـي» المدينـي ـ المناطقي، و«الشـرقي» الإثني ـ السـلالي للأمّـة، على التوالي). على هذا الأسـاس، يبني تصنيفًا موقتًا للقوميات، مع الأخـذ بالاعتبـار الوضـع الإجمالـي الـذي تجد فيـه الحركات نفسـها قبل الاستقلال وبعده:

أ ـ القوميات المناطقية

ـ حركات ما قبل **الاستقلال** المؤسَّسة على النموذج المديني للأمّة سوف تسـعى أولًا إلـى رفـض الحكّام الأجانـب، ثم تقيـم دولة قوميـة جديدة على الأرض الاستعمارية القديمة؛ هذه هي القوميات «المناهضة للاستعمار».

ـ حـركات مـا بعد **الاسـتقلال** المؤسَّسـة علـى النمـوذج المديني للأمة سوف تحاول جمع السكان المختلفين إثنيًا في الأغلب، ودمجهم في مجتمع سياسي جديـد يحل محـل الدولة الكولونيالية السـابقة؛ هذه هـي القوميات «الاندماجية».

ب ـ القوميات الإثنية

ـ حـركات ما قبل **الاسـتقلال** المؤسَّسـة على النموذج الإثني / السـلالي للأمة سـوف تسـعى إلى الانفصال عن وحدة سياسـية أكبر، وإقامة «أمة إثنية» جديدة مكانها؛ هذه هي قوميات «الانفصال» و«الشتات».

ـ حـركات ما بعد **الاسـتقلال** المؤسَّسـة على النموذج الإثني / السـلالي للأمّة سـوف تسـعى إلى التوسـع عبـر ضم القرابـة الإثنية من خـارج الحدود الحالية، وإقامة «أمّة إثنية» أكبر حجمًا عبر اتحاد الدول المتشابهة ثقافيًا وإثنيًا؛ هذه هي القوميات «التحريرية التوحيدية» و«الشاملة للكل»[٤٦].

يعتـرف سـميث بـأن التصنيـف الـذي طـوّره ليـس جامعًـا شـاملًا؛ فهو لا يتضمـن بعض الأمثلة المشـهورة للقومية، مثل قومية مـوراس «المتكاملة». لكنه يصر على أن هذا التصنيف الأساسي يساعدنا في مقارنة القوميات ضمن

---

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٨٢ – ٨٣.

كل فئة. ولْنوجزْ المناقشة التي أجريناها إلى الآن بتمثيل بياني بسيط للسبيلين الرئيسين لتشكّل الأمّة كما افترضهما سميث:

ـ إثنيات أفقية (أرستقراطية) دمج بيروقراطي أمم مدينية ـ مناطقية قوميات مناطقية (من الأعلى؛ بقيادة النخب عادة).

ـ إثنيات عمودية (شعبية) تعبئة لغوية محلية أمم إثنية / سلالية قوميات إثنية (من الأسفل؛ بقيادة الطبقة المثقفة / الإنتلجنسيا / عادة).

عدّل سميث، من دون التخلّي عن قناعاته الإثنية ـ الرمزية واعتقاده بها، موقفه من عدد من القضايا الحاسمة في أعماله المتأخرة. تتعلّق أولى هذه القضايا بتعريفه لـ«الأمّة». الآن، أصبحت الأمّة «مجتمعًا مسمّى ومحدَّدًا ذاتيًا يرعى أعضاؤه أساطير وذكريات ورموزًا وقيمًا مشتركة، ويملكون / وينشرون ثقافة عامة متميزة، ويقيمون في وطن أُم تاريخي ويرتبطون به، ويضعون / ويروّجون قوانين مشتركة، وعادات مشتركة»[٤٧]. يُعَدّ هذا تعريفًا أكثر عملية وإجرائية وتفاعلية للأمّة، إذ يشدّد على «التعريف الذاتي» و«التاريخية» على حساب العوامل الأكثر موضوعية، مثل «الاقتصاد المشترك» و«الحقوق والواجبات القانونية المشتركة للأعضاء جميعهم». والأهم أن «العامل التدخّلي» الذي غاب عن التعريف السابق، يعود الآن: لا «يملك» أفراد الأمّة مجرد سمات معيّنة، بل «يرعون» هذه السّمات و«يضعونها»، و«ينشرونها»[٤٨]. من ناحية أخرى، يمكّن هذا التعريف الجديد سميث من التوسّع في تفسير الفوارق بين الأمم والمجتمعات الإثنية المبكرة؛ فكل منهما (الأمّة والمجتمع الإثني) شكل من أشكال المجتمع الثقافي، يشترك في درجة مرتفعة من التعريف الذاتي ووفرة من الأساطير والرموز والذكريات، كما يقول سميث. لكن الأمم تختلف عن الإثنيات من حيث:

إقامة كثير من أعضاء المجتمع في أرض تاريخية معيّنة أو وطن أُم؛

(٤٧) Smith, «The Genealogy of Nations: An Ethno-Symbolic Approach,» p. 98.

(٤٨) John Breuilly, «Dating the Nation: How Old Is an Old Nation?,» in: Ichijo and Uzelac, eds., pp. 17 and 90.

انتشار الثقافة العامة بين الأعضاء (في مقابل عوامل الثقافة المشتركة)؛ انتشار القوانين والعادات المعيارية بين الأعضاء(٤٩).

لكن هذا لا يعني بالطبع إنكار الروابط بين نوعي التجمّعات الثقافية: ما قبل الحديث والحديث. وأوضح شكل من هذه الروابط هو شكل «الاستمرارية»، خصوصًا أن من الممكن اقتفاء أثر الأمم في الحقبة القروسطية أو حتى القديمة، كما يكتب سميث. وكثيرًا ما يعتمد أعضاء الأمم الحديثة على العوامل الرمزية للإثنيات السابقة التي يزعمون الارتباط بها عبر القرابة أو الأسلاف. الشكل الثاني من الروابط هو «عودة» الإثنية وشكل الأمّة؛ فالإثنيات والأمم أشكال من التنظيم الاجتماعي والمجتمع الثقافي التي يمكن العثور عليها في كل حقبة وقارة. الشكل الأخير من الروابط يتجسد عبر «اكتشاف» التاريخ الإثني و«الاستيلاء» عليه:

في الحالة النمطية، يتوسّع الكهنة والكتّاب والمفكرون في تفسير المجتمع الوطني والكيان السياسي الجديد، حيث يختارون لهذا الغرض عناصر رمزية من الثقافات الإثنية والوطنية المبكرة «ذات القرابة». في الحقبة الحديثة، تصبح الأصالة ضوءًا هاديًا لهم؛ حاجة إلى اكتشاف واستعمال كل ما هو أصلي ومحلي لبناء مجتمعات محلية وطنية تكون نقية وأصيلة وفريدة(٥٠).

التعديل الثاني في أعمال سميث المتأخرة يتعلق بالأصول الإثنية للأمم؛ فبينما يستمر سميث في التشبّث باعتقاده أن الإثنية والروابط الإثنية تؤدّي دورًا مفتاحيًا في تشكّل الأمم، يزعم الآن أن من الضروري إلقاء نظرة أوسع على الأسس الثقافية للأمم، مع تسليط الضوء على أهمية الأنواع الأخرى من المجتمعات السياسية والدينية ـ مثل التقاليد التراثية «التراتبية» و«الجمهورية» المنبثقة من الشرق الأوسط القديم والعالم الكلاسيكي(٥١).

---

(٤٩) Smith: «The Genealogy of Nations: An Ethno-Symbolic Approach,» p. 99; *The Nation in History*, p. 65, and «When Is a Nation?,» p. 25.

(٥٠) Smith: «The Genealogy of Nations: An Ethno-Symbolic Approach,» pp. 99-100, and *The Nation in History*, pp. 63-65.

(٥١) Smith, *The Cultural Foundations of Nations*, pp. x and xiv.

يتصل التعديل الثالث بتوقيت ظهور أيديولوجيا القومية؛ فما زال سميث يعتقد أن القومية، بوصفها عقيدة، ظهرت في القرن الثامن عشر. لكن عددًا من عناصرها، كما يضيف الآن، ظهر في وقت أبكر كثيرًا، و«يمكن العثور على نوع معيّن من القومية الشعبية والمحلية في القرن السابع عشر في بعض الدول، مثل إنكلترا واسكتلندا وهولندا ـ وربما في أماكن أخرى أيضًا». وهذا بدوره يتطلّب منا تعديل الترتيب الزمني (الكرونولوجي) الحداثي للقومية، إضافة إلى الأمم[٥٢].

ثمة ملمح إضافي آخر في أعمال سميث المتأخرة هو تشديده على «الأسس المقدّسة» للأمم، وعلاقتها بالمعتقدات والرموز والطقوس القديمة للأديان التقليدية، عند تفسير قوة الهويات الوطنية وديمومتها ومتانتها. ولا يمكن فهم هذه الأسس، كما يؤكد سميث، إلّا ضمن إطار التعهدات الملزمة للدِّين؛ فـ«في مجال «الدين» يجب أن نبحث أساسًا عن مصادر الارتباطات الوطنية»[٥٣]. وهذا سيمكّننا أيضًا من استخلاص معنى منطقي من الانبعاث الذي شهدته «القوميات الدينية» مؤخّرًا:

من الواضح عدم كفاية الحجّة التي تثبت انبثاق الأمم والقومية من / وضد الأنظمة الثقافية الدينية الكبرى في عالم العصور الوسطى. يجب أن ندرك تعقيد العلاقات المستمرة بين الأديان وأشكال المقدّس من جهة، والرموز والذكريات والتقاليد التراثية الوطنية، من جهة أخرى[٥٤].

ثانيًا: نقد الإثنية ـ الرمزية

سوف تكشف نظرة سريعة إلى الأدبيات أن دعاة الإثنية ـ الرمزية تلقّوا نصيبهم العادل من النقد. يتعلّق بعض هذه الانتقادات بالمقدّمات المنطقية المفهومية والمنهجية للتفسيرات الإثنية ـ الرمزية، ويتصل غيرها ببراعتها

---

(٥٢) المصدر نفسه.

(٥٣) Anthony D. Smith, *Chosen Peoples* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2003), pp. 4-5.

(٥٤) Smith, *The Cultural Foundations of Nations*, p. 8.

النظرية وقيمتها التفسيرية. سوف نتناول بالتفصيل في ما يأتي خمسة اعتراضات موجَّهة إلى الإثنية ـ الرمزية.

١ ـ دعاة الإثنية ـ الرمزية يعانون ارتباكًا مفهوميًا

وفقًا لأنصار هذا الرأي، تكوّن الحجج الإثنية ـ الرمزية توضيحًا نموذجيًا لـ«التشوش الاصطلاحي» الذي يصيب بآفته دراسة القومية. يلاحظ كونور (W. Connor)، أحد أشد نقّاد الفوضى المفهومية صرامة في الميدان، أن من أكثر تمظهرات هذه الفوضى شيوعًا الاستعمال المتعدّد لتعابير الإثنية والجماعة الإثنية والأمّة[٥٥]. ويُتّهم سميث وأرمسترونغ بالسقوط في الفخ نفسه، بينما يعبّر أوليري عن ذلك بأسلوب بليغ، حين يؤكد أن من غير المفاجئ كثيرًا العثور على القومية في القرن السادس عشر إذا منحنا التعبير هذا المدى التجريبي. وفي رأيه، فإن «معظم أولئك الذين يناقشون «الأمم» قبل «القومية» يؤسسون في الحقيقة وجود سوابق ثقافية، وإثنية ومواد أخرى، شُكّلت لاحقًا وأُعيد تشكيلها بواسطة القوميين الساعين إلى بناء الأمّة»[٥٦].

هذا ما يحفز أيضًا تهمة «القومية الاستعادية» (وهي تهمة وجِّهت أيضًا، كما رأينا سابقًا، إلى دعاة نظرية التواتر)، أي النزعة إلى إسقاط التشكيلات الاجتماعية السابقة على الملامح والجوانب المميّزة للأمم والقومية الحديثة. يرفض سميث هذه التّهمة، مؤكدًا أنها تخلط بين اهتمام بـ«المدة الطويلة» ونظرية التواتر. وربما يستعمل أرمسترونغ تعبير «أمّة» لوصف الإثنيات ما قبل الحديثة، كما يقول، لكنه يفرّق بوضوح بين الأمم الحديثة والتشكيلات الثقافية المبكرة، ويزعم أنه يفعل الشيء نفسه، حيث يفصل بوضوح القومية الحديثة عن العواطف الإثنية ما قبل الحديثة:

---

(٥٥) Walker Connor, *Ethnonationalism: The Quest for Understanding* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), chap. 4.

(٥٦) Brendan O'Leary, «On the Nature of Nationalism: An Appraisal of Ernest Gellner's Writings on Nationalism,» in: John A. Hall and Ian Charles Jarvie, eds., *The Social Philosophy of Ernest Gellner*, Poznań Studies in the Philosophy of the Sciences and the Humanities; no. 48 (Atlanta, GA; Amsterdam: Rodopi, 1996), p. 90.

الفوارق في السياق التاريخي كبيرة إلى حد لا يسمح بمثل هذه التعميمات الاستعادية.. بل هي مسألة اقتفاء في السجل التاريخي لتشكيل الهويات الوطنية غير المستمر غالبًا، وذلك بالعودة إلى الركائز الثقافية والروابط الإثنية الموجودة مسبقًا ـ وهي قضية تتعلق بالاستقصاء التجريبي لا بالتنظير القَبْلي(٥٧).

٢ ـ دعاة الإثنية ـ الرمزية يقللون من أهمية الفوارق بين الأمم الحديثة والمجتمعات الإثنية المبكرة

يؤدي الانتقاد الأول إلى اعتراض أكثر عمومية على التفسيرات الإثنية ـ الرمزية، ومن ثم إلى صميم الجدل الذي احتدم مؤخّرًا بين سميث وكونور بشأن طبيعة الأمم الحديثة. ومثلما رأينا في الفصل الثاني، يرى كونور الوعي الوطني أساسًا ظاهرة جماهيرية لا نخبوية، و«الدليل على الوعي الإثني لدى الطبقة الأرستقراطية أو المثقفة لا يمكن قبوله دليلًا على الوعي الوطني من دون دليل يثبت أنه مشترك عبر الطيف العريض الأوسع للأمّة المفترَضة». نحن ندرس الأمم والقومية، كما يتابع كونور، بالتحديد لأن جاذبيتهما غير مقتصرة على جماعة صغيرة من النخب، بل ممتدة لتشمل جميع الشرائح الرئيسة من السكان الذين يشكّلون الأمّة المفترَضة. وعلى أي حال، هنالك دومًا فترة زمنية فاصلة بين ظهور الوعي الوطني لدى النخب وامتداده إلى الجماهير؛ ومن ثم فإن تشكّل الأمم عملية نسقية لا حادث أو واقعة أو مناسبة. وهذا يوجِد مزيدًا من الصعوبات أمام الإجابة عن سؤال «متى ظهرت الأمّة؟» نظرًا إلى سهولة تحديد تاريخ وقوع الحوادث، بينما يصعب تحديد توقيت مراحل العملية النسقية:

عند أي نقطة يكتسب عدد كافٍ / أو نسبة كافية من الناس المعنيين وعيًا وطنيًا بحيث تستحق الجماعة لقب أمّة؟ لا توجد صيغة جاهزة. نريد أن نعرف النقطة في عملية قام فيها جزء كافٍ من السكان بتذويت الهوية الوطنية [جعلها جزءًا من الذات] من أجل أن يناشد الآخرين باسمها لتصبح قوة حشد وتعبئة

---

(٥٧) Smith, *Nationalism and Modernism*, p. 196.

للجماهير.. النقطة التي تطلِق عندها إضافةٌ كميةٌ في عدد الذين يتقاسمون شعورًا مشتركًا بالأمّة تحوّلًا نوعيًا إلى أمّة تقاوم التعريف الحسابي[58].

سميث يخالف هذا الرأي؛ إذ إنه يعتقد أن «غياب الدليل لا يماثل دليل الغياب»، والحجّة المستَمَدة من الصمت سيف ذو حدين، نظرًا إلى أن ذلك يمكن أن يؤوَّل بأن الجماهير تستخف بأهمية ارتباطاتها الإثنية أو الوطنية وتأخذها قضية مسلّمًا بها. أكثر من ذلك، يتعذّر تقديم الحجّة، كما يفعل كونور، على أن مفاهيم النخبة لا تمتد لتشمل الجماهير، لأن ذلك يعني في دلالته أننا أكثر معرفة بمعتقدات الجماهير في الحقبة ما قبل الحديثة من نخبها المعاصرة التي أرّخت هذه العواطف. في المقابل، يمكن أن نضع موضع المساءلة صلة عاطفة جماهير الفلاحين بالعزم على إيجاد الأمّة، كما يتابع سميث. ونظرًا إلى غيابهم عن التاريخ والسياسة في معظم الحقب، يمكن توكيد أن مشاعرهم وأفكارهم عن أمّتهم غير ذات صلة على الأغلب:

تشكّل الأقليات الثقافات والكيانات السياسية، بواسطة نوع أو آخر من النخب عادة. وكل ما يهم أن عددًا كبيرًا من الناس خارج الطبقة الحاكمة يجب أن يشعروا بالانتماء إلى أمّة معيّنة، كي يقال إنها موجودة[59].

في الحقبة الحديثة على أي حال، ليس هناك سوى قلة قليلة من الأمم التي يمكن أن تُدعى «أممًا جماهيرية»؛ إذ يُستثنى كثير من أفرادها، ولا سيما الطبقات العاملة والنساء والأقليات الإثنية، من الحقوق المدنية. ومن ثم، يجب أن نكون مستعدين لتمييز أنواع أخرى من الأمم، كما يختتم سميث، على الأقل نظريًا[60].

تجدر الإشارة هنا إلى أن كونور ليس الوحيد الذي يتّهم سميث على

---

(٥٨) Walker Connor: «The Timelessness of Nations,» in: Guibernau and Hutchinson, eds., *History and National Destiny*, pp. 40-42, and «The Dawning of Nations,» in: Ichijo and Uzelac, eds., *When Is the Nation?*, and Philip S. Gorski, «Pre-Modern Nationalism: An Oxymoron? The Evidence from England,» in: Gerard Delanty and Krishan Kumar, eds., *The SAGE Handbook of Nations and Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2006), pp. 150-151.

(٥٩) Smith, *The Cultural Foundations of Nations*, pp. 5-6.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ١٥، و Smith, «When Is a Nation?,» pp. 10-11 and 28-29.

وجه الخصوص، ودعاة الإثنية ـ الرمزية عمومًا، بالخلط بين الجماعات الإثنية والأمم؛ إذ قدّم قنسطنطين سيمونز ـ سيمونوليفيتز (K. Symmons-Symonolewicz) حجّة مشابهة قبل أكثر من عقدين من الزمن، زاعمًا أن سميث يعزو إلى الجماعات الإثنية جميعها وعيًا جماعيًا كامل التطوّر وإحساسًا عميقًا بالتاريخ[٦١]. يتفق بروييللي مع سيمونز ـ سيمونوليفيتز وكونور، مؤكدًا أن من المستحيل معرفة معنى مثل هذه العواطف الإثنية بالنسبة إلى أغلبية الناس. لكنه يكتشف أيضًا فارقًا آخر بين الأمم الحديثة والمجتمعات الإثنية المبكرة، هو افتقار الهويات ما قبل الحديثة إلى الركيزة المؤسَّسية. يؤكد سميث أن العوامل الجوهرية الثلاثة للوطنية الحديثة، أي الهوية القانونية والسياسية والاقتصادية، غائبة في الإثنيات ما قبل الحديثة (مثلما رأينا آنفًا، يستثني سميث في ما بعد العامل الاقتصادي من تعريفه للأمّة). لكن وفقًا لبروييللي، هذه هي المؤسسات الرئيسة التي تحقّق الهوية الوطنية الشكل عبرها، وهو ما يؤدي إلى تناقض في حجج سميث، نظرًا إلى أن الهويات المترسّخة خارج المؤسسات، كما يؤكد بروييللي، ولا سيما تلك التي تجمع الناس معًا عبر مساحات اجتماعية وجغرافية واسعة، هي بالضرورة متشظية، وتفتقر إلى الاستمرارية، ومراوِغة. وكانت المؤسّستان الوحيدتان اللتان يمكن أن توفرا ركيزة مؤسّسية للولاءات الإثنية في الحقب ما قبل الحديثة، الكنيسة والأسرة الحاكمة، عابرتين للمحلية، وتحملان في جوهرهما إحساسًا بديلًا بالهوية، ومناقضًا في نهاية المطاف، لإحساس الجماعة الإثنية[٦٢].

يعترف سميث بأهمية الدور الذي تؤدّيه المؤسسات بوصفها حوامل وحوافظ للهويات الجمعية، لكنه يؤكد أن فهم بروييللي لمثل هذه المؤسسات حداثي وضيق الأفق؛ فهناك عدد كبير من الناس الذين تضمّهم المدارس والمعابد والأديرة وجملة من المؤسسات القانونية والسياسية الأخرى. والأهم ضمّهم إلى «الأنظمة اللغوية والأدب الشعبي والطقوس والاحتفالات والمعارض التجارية والأسواق والمناطق الإثنية أو «الوطن الأم»، فضلًا عن

(٦١) Konstantin Symmons-Symonolewicz, «The Concept of Nationhood: Toward a Theoretical Clarification,» *Canadian Review of Studies in Nationalism*, vol. 12, no. 2 (1985), p. 219.

(٦٢) John Breuilly, «Approaches to Nationalism,» in: Gopal Balakrishnan, ed., *Mapping the Nation*, with an Introduction by Benedict Anderson (London: Verso, 1996), pp. 150-151.

الخدمة المدنية والعسكرية». لم تعزّز هذه المؤسسات كلها، كما هو واضح، شعورًا بالإثنية المشتركة، لكن كثيرًا منها فعل ذلك. ويختتم سميث بالتشديد على وجود عدد أكبر كثيرًا من الحالات الأخرى للهويات الإثنية في العصور ما قبل الحديثة، مقارنة بما يعتقده بروييللي ويسمح به هو وغيره من الحداثيين، وأن لبعضها «أهمية دلالية سياسية»، مثل الدول الإثنية في الحقبة الهيلينستية القديمة[٦٣].

٣ ـ من غير الممكن الحديث عن أمم وقوميات في الحقب ما قبل الحديثة

إذًا، هل يمكننا أن نزعم وجود أمم وقوميات في الحقب ما قبل الحديثة؟ يجيب الباحثون الذين يؤيدون شكلًا من أشكال الحداثة عن هذا السؤال بالنفي. يؤكد إيلي (G. Eley) وسوني (G. Suny) أن الإغريق في العصر الكلاسيكي أو الأرمن في القرن الخامس الميلادي، لم يكونوا، ولا كان في وسعهم، أن يشكّلوا أمّة بالمعنى الحديث للكلمة. وبغضّ النظر عن درجة التلاحم والتماسك والوعي، فإن هذه التشكيلات الإثنية ـ الدينية لم تطالب بالحق في أرض / منطقة، أو حكم ذاتي، أو استقلال، وما كان بمقدورها ذلك، نظرًا إلى أن هذه المطالب بالحقوق السياسية لم تصبح مشروعة إلّا في عصر القومية[٦٤]. يقدّم كريشان كومار (K. Kumar) حجّة مشابهة، فيؤكد أن فكرة الأمّة «القديمة» أو «القروسطية» تبدو على درجة كبيرة من المفارقة التاريخية، نظرًا إلى الهيمنة الساحقة للإمبراطوريات وغيرها من أشكال الدول «الشاملة» وتلك التي تحكمها الأسر الوراثية المالكة طوال معظم العصور القديمة والقروسطية[٦٥].

يزعم سيمونز ـ سيمونوليفيتز وجود ثلاثة أنواع فقط من العواطف الجمعية في العصور الوسطى: دينية وسياسية وإثنية. تضمّن الأول الولاء

(٦٣) Smith: *Nationalism and Modernism*, p. 197, and *The Cultural Foundations of Nations*, p. 7.

(٦٤) Geoff Eley and Ronald Grigor Suny, «Introduction: From the Moment of Social History to the Work of Cultural Representation,» in: Geoff Eley and Ronald Grigor Suny, eds., *Becoming National: A Reader* (New York: Oxford University Press, 1996), p. 11.

(٦٥) Krishan Kumar, «Nationalism and the Historians,» and Paul Warren James, «Theorizing Nation Formation in the Context of Imperalism and Globalism,» in: Delanty and Kumar, eds., pp. 15 and 374-375 resp.

للكنيسة أو لمختلف الحركات المهرطقة، وشمل الثاني الولاءات للسيد الإقطاعي، والدولة - المدينة، والأسرة الوراثية المالكة، والملك والإمبراطور، وتألف الثالث من الولاء للحي أو المنطقة. انحسر بعض من هذه الولاءات وبهت بمرور الزمن، بينما استبدل غيرها بولاءات جديدة، وظل بعضها الآخر يوفّر «مواد البناء الأساسية» التي شُيدت بها الوحدة الثقافية لأمّة المستقبل. لكن من غير الممكن أن نعرف يقينًا أيًا من هذه العواطف هي التي سادت وهيمنت في وضع معيّن[٦٦]. وهذا هو أيضًا الاختراق الرئيس الذي حققته أعمال مؤرخ القرون الوسطى باتريك غيري (P. J. Geary)، الذي يؤكد أن «تاريخ شعوب أوروبا في أوائل العصور الوسطى لا يمكن استخدامه حجّة مع / أو ضد الحركات الاجتماعية والمناطقية والأيديولوجية في هذه الأيام». من الواضح أن الماضي عامل مهم؛ لكن ينبغي ألّا يجعلنا نتعامى عن حقيقة انفتاح عضوية / وهوية الجماعات الاجتماعية والسياسية في العصور الوسطى على التفاوض والنزاع والتحوّل على الدوام[٦٧].

إن ما يشترك فيه هؤلاء الباحثون جميعهم هو اعتقاد بحداثة الأمم والقوميات. والقومية تشمل شكلًا جديدًا من الهوية الجماعية والعضوية في جماعة، و«تتطلّب تجانسًا داخليًا في الأمّة المفترضة، لا استمرارية تدريجية لتنوّع ثقافي أو جيوبًا من التميز الثقافي الفرعي»[٦٨]. بهذا المعنى، ينبغي ألّا نقرأ التواريخ الماضية للأمم بوصفها مجرد تواريخ مضت وانقضت، بل «باعتبارها تطوّرات تاريخية متنوّعة بقيت مساراتها مفتوحة»[٦٩].

في هذا السياق، يضع الحداثيون أهمية مواد الماضي الثقافية موضع المساءلة. على سبيل المثال، يعترف بروييلي بأن المفكرين والمثقفين والسياسيين القوميين يستغلون أساطير الماضي ورموزه ويستخدمونها لترويج

---

(٦٦) Konstantin Symmons-Symonolewicz, «National Consciousness in Medieval Europe: Some Theoretical Problems,» *Canadian Review of Studies in Nationalism*, vol. 8, no. 1 (1981), pp. 158-163.

(٦٧) Patrick J. Geary, *The Myth of Nations: The Medieval Origins of Europe* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002), p. 173.

(٦٨) Craig Calhoun, «Nationalism and Ethnicity,» in: *Annual Review of Sociology* (Palo Alto, Calif.: Annual Reviews Inc., 1993), p. 229.

(٦٩) Eley and Suny, «Introduction,» p. 11.

هويـة وطنيـة معيّنـة. لكـن، كما يتابـع، «من الصعـب ربط هـذه الدرجة من النجاح مع الأهمية «الموضوعية» لمثل هذه الأساطير والرموز». في كثير من الحـالات يختـرع القوميـون أسـاطير، أو يتجاهلـون تلـك التـي لا تخـدم أغراضهـم ـ ومـن ثـم مقابل كل أسـطورة وطنية استُخدمت هنالك أسـاطير كثيـرة أخـرى أُلقيت في سـلة مهملات التاريخ. فضلًا عـن ذلك كله، يمكن استخدام أساطير الماضي ورموزه بأشكال متعدّدة ومتنوعة، وكثيرًا ما تكون متناقضـة. أخيـرًا، هنالـك أيضًا كثير مـن الحركات القوميـة التي نجحت من دون أن تملك تاريخًا إثنيا غنيًا تتغذى عليه[٧٠]. يضيف سينيسـا ماليسـيفيتش (S. Malesêvić) إلى هذا بُعدًا سياسيًا، ملاحظًا أن درجة الاستمرارية بين بعض المجتمعـات الإثنية ما قبـل الحديثة والأمم الحديثة أقل ارتباطًا بالسـرديات المشـتركة للماضي الأسـطوري والذكريات الجمعية، نظرًا إلى وجود ذخيرة ضخمـة لا تنفـد تقريبًا، وأكثـر ارتباطًا بالنزاعـات الاجتماعيـة (والاقتصادية والسياسية كما يمكن أن نضيف) الفعلية والمعاصرة[٧١].

يوافـق على هذا الـرأي كالهون، ويؤكد أن ملاحظة الاسـتمرارية في التقاليد التراثية الإثنية لا تفسـر أيًا من هذه التقاليد، وأيّها يصبح أساسًا للأمم أو المطالب القومية[٧٢]. والأهم أن التقاليد التراثية لا تورث بل يجب إعادة إنتاجها:

يجـب رواية القصص مرارًا وتكرارًا، ويجـب تكييف أجزاء من التقاليد التراثية وتعديلها لتلائم الظروف الجديدة وتبقى هادفة وذات معنى، وما يبدو عمليـات تحديـث ثانوية ربمـا تُلحق بالمعانـي تغييرات عميقـة، وفي بعض الأحيـان تتغيّـر «العبـر الأخلاقيـة» ـ الـدروس المسـتمدة ـ حتـى وإن بقيت الروايات السـردية على حالها.. ببسـاطة، القومية متجذّرة في التقاليد التراثية الإثنية، ومن ثم فهي تُبعد من أبصارنا الفوارق المهمّة في حجم عملية إعادة الإنتاج وأسلوبها[٧٣].

---

(٧٠) Breuilly, «Approaches to Nationalism,» p. 151.

(٧١) Siniša Malešević, *Identity as Ideology: Understanding Ethnicity and Nationalism* (Basingstoke, [England]; New York: Palgrave Macmillan, 2006), p. 134.

(٧٢) Craig Calhoun, *Nationalism* (Buckingham: Open University Press, 1997), p. 49.

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٥٠.

٤ ـ التحليلات الإثنية ـ الرمزية تفتقر إلى التفاصيل التاريخية والصرامة التحليلية

يؤكد عدد متزايد من المعلّقين أن المشكلات التي تواجه القراءة الإثنية ـ الرمزية للماضي وعلاقته بالأمم الحديثة، تنبع من قيود منهجية. وفقًا لبرويللي على سبيل المثال، يجب تأطير النقد الحداثي للإثنية ـ الرمزية ضمن المنهج، نظرًا إلى أن معظم مزاعم هذا النقد تأخذ شكل توكيد عام بمصاحبة أمثلة وجيزة ـ وهو ما يدعوه حجج «القص واللصق» ـ تفتقر إلى السياق التاريخي والتفصيل[٧٤]. ولإظهار ذلك، يقترح تجربة اختبارية فكرية، تشمل مباراة متخيَّلة تُحسم نتيجتها بالضربة القاضية بين ١٢٨ متنافسًا، لكل متنافس اسم وعلامة مميزة. يُقسم المتنافسون إلى أزواج في كل جولة (إلى ٦٤ زوجًا، ثم ٣٢... إلخ) إلى أن يُعلَن الفائز بعد سبع جولات. أمّا طبيعة المنافسة، فتتفاوت في كل جولة؛ يلعب الحظ دوره حينًا، والمهارة أو القوة أحيانًا. نعلم مسبقًا بأن الفائز سيكون واحدًا، لكن لن نعرف من هو. وحالما تنتهي المنافسة، سيكون الاسم والعلامة المميزة اللذان سيبرزان هما للفائز، نظرًا إلى أنهما يظهران في كل جولة. أمّا الأسماء والعلامات المميزة للخاسرين، فسوف تتعرّض للنسيان على الأغلب. سيكون من السهل، كما يلاحظ برويللي، رؤية اسم الفائز وعلامته باعتبارهما إلى حد ما «سبب» النصر، عند النظر إلى الوراء بعد النتيجة النهائية. هذه عملية انتقائية، وللعمليات الانتقائية تاريخ دومًا، وهذا التاريخ يُظهر استمرارية على الدوام. لكن إلى أن يتم تحديد آلية سببية معيّنة للانتقاء، لن تعني الاستمرارية شيئًا سوى البقاء عبر الانتقاء العشوائي. والمجتمعات تعطي نفسها أسماء تربطها بسِمات، أو علامات مميّزة، هذه الأسماء والعلامات تنتقل بشكل انتقائي من جيل إلى آخر، وبعضها يبقى مدة أطول من غيره:

لكن افتراض أن هذا، بحد ذاته، يعلمنا شيئًا عن الأسماء «الناجحة» في ما وراء البقاء يشبه الافتراض بأن اسم وعلامة الفائز بالمنافسة، اعتمادًا على توليفة تجمع الحظ والصدفة ومعايير الأداء المتغيرة باستمرار، ساهما في

---

(٧٤) John Breuilly, «Dating the Nation,» p. 15.

ذلك النصر.. ومن أجل دحض الاعتراضات الحداثية على الأساليب الإثنية - الرمزية والمتواترة في رواية قصة استمرارية طويلة المدى، لا يكفي إظهار تاريخ طويل ومستمر لأسماء معيّنة. بل يجب أن نُظهر أن هذه الأسماء استُخدمت للأغراض ذاتها وبالطرائق ذاتها من جيل إلى جيل[٧٥].

ثمة ملاحظة مشابهة قدّمها لايتين الذي يؤكد أن تحليلات سميث تبقى «محاصَرة في فخ الافتراضات». على سبيل المثال، يفترض سميث أن معظم الناس «مرتبطون ارتباطًا عميقًا» بمجتمعاتهم المحلية الإثنية، أو أنهم على استعداد للموت من أجلها. لكنه «نادرًا ما يفكر في مدى صوابية الافتراضات ذاتها التي توجّه أبحاثه وتدفعها». ومن ثم يرفض التفسيرات الحداثية، مؤكِّدًا أنها لا تفسر انتشار جاذبية القومية على أوسع نطاق. ونظرًا إلى أنه يفترض أن الجاذبية واسعة الانتشار، كما يلاحظ لايتين، يرفض مقاربة رئيسة بالافتراض. أكثر من ذلك، «يحرف البحث عن دليل بطريقة متحيّزة دعمًا للإطار الذي وضعه»، ولا يركز انتباهًا كافيًا على الجماعات الإثنية أو الأمم التي تظهر صلة واهية بإطاره، أو لا تظهر أي صلة على الإطلاق. على سبيل المثال، يأخذ الكروات انتباهًا أكبر في عمله، نظرًا إلى أنهم تفاخروا بمشروع قومي ناجح في تسعينيات القرن العشرين، لكن لم يتطرق إلى ذكر بافاريا. «يدرس سميث الإثنيات التي تتحوّل إلى أمم، مع استثناء «الكلاب التي لا تنبح» إذا جاز التعبير. وبذلك، لا نملك أي طريقة لمعرفة أي إثنية يحتمل أن تصبح أمّة»[٧٦]. المشكلة ذاتها واضحة في زعم سميث بأن القوميين مقيدون بالحقائق التاريخية. «يجب أن تكون تفسيراتهم متوافقة لا مع المطالب الأيديولوجية للقومية وحسب»، كما يؤكد سميث، «بل مع الدليل العلمي، والصدى الشعبي، وتشكيل التواريخ الإثنية المحددة»[٧٧]. «كلما زاد تأسيس التاريخ الإثني على الحقائق الواقعية، تعاظمت قوة المشروع القومي» (بحسب تعبير لايتين)؛ والاستخدام الصهيوني لقلعة مسادا (Masada) الأثرية كان قويًا ومؤثرًا لأن الدليل الآثاري

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٨ - ١٩.

(٧٦) David D. Laitin, «Trapped in Assumptions,» *Review of Politics*, vol. 63, no. 1 (December 2001), pp. 176-178, and Andreas Wimmer, «How to Modernise Ethno-Symbolism,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 1 (January 2008).

(٧٧) Smith, *Myths and Memories of the Nation*, p. 181.

(الأركيولوجي) أثبت أن هذه الأسطورة حقيقية بالفعل. لكن سميث، كما يتابع لايتين، لا يأخذ بالاعتبار الدليل المناقض لهذه النقطة: «هل يريد زعم أن القومية الألمانية تحت التوجيه الأيديولوجي النازي كانت أقل قوة لأن دعاويها وادعاءاتها حول اليهود اعتمدت على أسس علمية زائفة ومشينة؟»(٧٨).

يختتم لايتين بالشكوى ـ بأسلوب بروييللي ـ من استخدام سميث للحالات الواقعية بطريقة تخدم غرضًا محددًا:

من بضع ملاحظات عرَضية بشأن السلوفينيين والصرب والإريتريين، والسلوفاك والباسك والكاتالونيين، يؤكد بكل ثقة أن تلك الحركات الوطنية بتواريخها الإثنية الهزيلة سوف تحتل مرتبة متدنّية على سلّم الاستدامة والبقاء. لكن هل هذا مبرَّر ومقبول؟ يُعَدّ عنف الباسك، حيث الكثير من الآثار الباقية، دليلًا على كثافة قوميتهم وصلابتها. لكن عنف الإريتريين، حيث الآثار الباقية قليلة، يفسَّر بوصفه دليلًا على «التعويض» عن الافتقار إلى التاريخ الإثني العميق. وإذا افترضت الملاحظات نفسها (العنف الإثني) نتيجة عمق التاريخ الإثني وسطحيته في آن معًا، فإن النظرية مبهمة وعاجزة عن التحديد والتقرير(٧٩).

٥ ـ دعاة الإثنية ـ الرمزية يُشيِّئون الأمم

ثمة مشكلة أخرى في التفسيرات الإثنية ـ الرمزية هي الاعتقاد بـ«مثابرة» الروابط الإثنية و«متانتها وثباتها». على سبيل المثال، يلاحظ كدوري أن الهويات الإثنية والوطنية أثبتت أنها مصطنَعة وعلى درجة كبيرة من السيولة على مدى القرون، كما أنها خضعت لتغييرات وتحوّلات واسعة النطاق. وهكذا «يصبح المواطن الروماني الوثني في شمال أفريقيا، عبر ذريته البيولوجية، واحدًا من رعايا إمبراطور مسيحي، ثم عضوًا في «أمة» المسلمين، ومواطنًا اليوم في جمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية ربما، أو الجماهيرية الليبية [السابقة]»(٨٠). من ناحية أخرى، يرى نورفال (Norval) أن إصرار سميث

---

(٧٨) Laitin, «Trapped in Assumptions,» p. 179.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٨٠) Elie Kedourie, *Nationalism*, 4th Expanded ed. (Oxford, UK; Cambridge, Mass., USA: Blackwell, 1993), p. 141.

على الاحتفاظ بشكل موجود مسبقًا، وما قبل حديث من الإثنية، يقوده إلى إخضاع تنظير الأمم إلى تبسيط مبالغ في الموضوعية، إلى «أرض» خارج أشكال بناء الخطاب والجدل كلّها: «يمكن للأمم وفق هذه القراءة ألّا تكون سوى أشكال أيديولوجية تشمل موضوعيات كامنة أكثر عمقًا؛ موضوعيات ربما تُكشَف عبر رفع حجاب الخداع الذي يبدو أنها تشيده». أمّا مضامين مثل هذه المقاربة، فيمكن أن تكون بالغة الخطورة، كما يكتب نورفال:

رفض الطبيعة المشيدة رمزيًا لأشكال معينة من الارتباط لصالح كشف حقيقة موضوعية يقع ضمن شكل من التنظير كان إشكاليًا بالتأكيد لعقلانيته، ومزاعمه بامتلاك حقيقة لا تصل إلى وعي أولئك الذين ينخرطون في بناء هوياتهم، وأخيرًا لعواقبه السلطوية المحتملة[(٨١)].

النقطة ذاتها أكّدها نيرن وجيمس اللذان لاحظا أن عداء أنصار المقاربة البدائية لنظرية التحديث، بما في ذلك بعض أعمال سميث، اعتمد على حجّة خاطئة تؤكد ضرورة وجود «إثنيات» محدّدة، أو أمم محتملة لكل أمّة حديثة كي تنهض. «تواطأ هذا الرأي مع رأي القوميين الرومانسيين الذين يدعمون سياستهم طبعًا بالتشديد على أن لا بد من وجود صرب وإسكيمو.. في الانتظار إذا جاز التعبير، لكنهم حُرموا بالخداع من فرصة تحقيق الذات»[(٨٢)]. تؤكّد بيوري أيضًا أن فكرة سميث عن الثقافة عابرة للتاريخ؛ فالأساطير والرموز والقيم والذكريات التي تشكّل الثقافة «تنزع إلى أن تكون ثابتة ومستمرة إلى حد استثنائي تحت مظلة المتغيرات «العادية» وتدوم عبر أجيال عدة، بل حتى قرون»، وتضع، في رأي سميث، حدودًا لمحاولات الخداع التي تقوم بها النخبة[(٨٣)]. وما دام هذا الرأي عن الثقافة يظل مرشدًا لتحليل سميث، كما تختتم بيوري، فلا يمكنه تجنّب تهمة «القومية الاستعادية» التي ربطها بالنظرية البدائية[(٨٤)].

---

(٨١) Aletta J. Norval, «Thinking Identities: Against a Theory of Ethnicity,» in: Edwin N. Wilmsen and Patrick McAllister, eds., *The Politics of Difference: Ethnic Premises in a World of Power* (Chicago: University of Chicago Press, 1996), p. 62.

(٨٢) Tom Nairn and Paul James, *Global Matrix: Nationalism, Globalism and State-Terrorism* (London; Ann Arbor, MI: Pluto Press, 2005), pp. 13-14.

(٨٣) Smith, *The Ethnic Origins of Nations*, p. 16.

(٨٤) Jyoti Puri, *Encountering Nationalism*, 21st-Century Sociology; 6 (Malden, MA: Blackwell, =

هـذا هـو في الحقيقـة الاختـراق الرئيس لانتقاد ماليسـيفيتش لتفسـير سميث للقومية؛ إذ يؤكّد أن «الحتمية التاريخية الارتقائية» التي تميز أعمال سـميث مؤسَّسـة على ثلاثة افتراضات أنطولوجية: حتميـة وجبرية وغائية. وضمن هذا المنظور، حدّد التاريخ بوضوح «وقدّر مسبقًا» مراحل التطوّر، بينما يُدرك الارتقاء التاريخي بوصفه يملك رسالة؛ ومقدّر على الإثنيات أن تتحوّل إلى أمم، ومن ثم تغدو فرقة الممثّلين الرئيسـين في دراما التاريخ، لهـا «غـرض ودور وظيفـي في سلسـلة الخلـق الكبـرى». لا يوجد مكان للمصادفة الطارئة في هذا «السرد المشكَّل غائيًا»، كما يلاحظ ماليسيفيتش. والأهم ربما أن سميث يشيئ الأمم (والإثنيات كما يمكن أن نضيف) عبر القبول ـ من دون أي شـروط أو مشـكلات ـ بالمفاهيم الشـعبية، والتعامل مـع اللاعبيـن الاجتماعييـن الفاعلين على نطاق واسـع كأنمـا لهم إرادات اسـتثنائية مشـهودة قابلة للتمييـز. ومن ثم نقرأ عـن «الفنلنديين» عبر النظر إلـى الـوراء إلى عصر الحكمـة والبطولة، أو عن «السـلوفاك» بالعودة إلى المملكـة الموارافيـة القديمـة، أو عصـر دولـة «روس كييـف» الـذي يزعم الأوكرانيون والروس أنه يمثّل عصرهم الذهبي.. كيف يعلم سميث طريقة تفكيـر خمسـة ملاييـن مواطن فـي فنلنـدا، أو هل فكروا أصـلًا، في عصر البطولة، يسأل ماليسيفيتش:

كـم عـدد الأفراد السـلوفاك الذيـن عادوا بانتظـام ومن دون شـروط إلى «مملكة مورافية سابقة»؟ هل يزعم كل فرد يصف نفسه بأنه أوكراني أو روسي الحق في دولة «روس كييف» القديمة، أم أن هذا الزعم تدّعيه جماعات وأفراد باسـم الأوكرانييـن والـروس؟ هل تتغيـر هذه المـدركات؟ هل توجـد طرائق متنافسة لفهم الصفة السلوفاكية والفنلندية؟[٨٥].

إن التفسـيرات المهيمنة لما هو «وطني» ناجمة عن محاولات في التعبير عن الفكرة الوطنية بواسطة حركات اجتماعية متنوعة أو نخب ثقافية وسياسية، كما يختتم ماليسيفيتش، وليست نتيجة تواريخ إثنية محددة.

= 2004), p. 49, and Graham Day and Andrew Thompson, *Theorizing Nationalism*, Consultant Editor Jo Campling (Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2004), p. 81.

(٨٥) Malešević, *Identity as Ideology*, p. 131.

ثالثًا: الإثنية ـ الرمزية اليوم

يلاحظ إريك كوفمان في مقدّمته التمهيدية للجدل حول كتاب جون هتشينسون *Nations as Zones of Conflict* **(الأمم بوصفها مناطق صراع)** (٢٠٠٥)، أنه «بينما قدّم الكتاب الشباب على اختلاف مشاربهم، مثل روجرز بروبيكر وأندرياس فيمر، تفسيراتهم الجديدة للقواعد والقوانين العامة والأدبيات الحداثية، بقيت في الواقع قلة قليلة من منظّري «الجيل الثاني» المعروفين تعمل ضمن تراث سميث ـ أرمسترونغ»[٨٦]. ولا تُعَدّ ملاحظة كوفمان صحيحة كليًا نظرًا إلى وجود مجموعة كبيرة ومتزايدة من الكتّاب «الشباب» (منهم أتسوكو إيشيجو وغوردانا أوزيلاك وأوليفر زيمر وكوفمان نفسه، من بين آخرين ـ وأغلبيتهم من تلاميذ سميث) بقيت متعاطفة عمومًا مع المشروع الإثني ـ الرمزي، على الرغم من عدم موافقتها على مختلف جوانبه وملامحه. من ناحية أخرى، من المؤكد أن هتشينسون هو المنظّر الوحيد على الأرجح الذي حاول إعادة صوغ الموقف الإثني ـ الرمزي في ضوء التطوّرات النظرية التي حصلت مؤخرًا في الميدان.

في تحدٍّ لما يسمّيه «النموذج المغالي في التماسك» لنظريات التحديث، يشرع هتشينسون في تقديم نموذج بديل لتشكّل الأمة؛ «نموذج يدرك الأمّة بوصفها نوعًا من أنواع المشروع الإثني، لا يتصل بالدولة إلّا عرضًا، ويدرك أن قدرة الدول على تنظيم السكان محدودة ومتقلّبة». ويتعيّن على هذا النموذج أن يتصدّى للطبيعة الثابتة والدائمة للأمم اعتمادًا على إحساس بأنها متجذّرة في مجتمعات (إثنية) أقدم عهدًا، واستطاعت البقاء على مدى قرون من التغيّرات المفاجئة، والثورات الثقافية الداخلية الضرورية قبل أن يتمكّن القوميون من التغلّب على الهويات الراسخة، ومنها التقاليد التراثية الإثنية، وديمومة الفوارق الثقافية في الأمم واستمراريتها ووظائفها، والطبيعة الدورية والمتقطعة للعودة القومية طوال الحقبة الحديثة[٨٧].

---

(٨٦) Eric Kaufmann, «Introducing *Nations as Zones of Conflict*,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 1 (January 2008), p. 1.

(٨٧) John Hutchinson, *Nations as Zones of Conflict* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2005), p. 4.

يتعامـل مثـل هذا النموذج مع الأمم لا بوصفها كلّيات واحدة متجانسـة، بـل مناطق صراع، تعبّر عـن قرون من النزاعات والذكريـات التي حملتها إلى الحقبة الحديثة جملة من المؤسسـات. لهذا السـبب أيضًا ترافق نهوض الأمم على الدوام تقريبًا بصراع على الشرعية مع الممسكين بزمام السلطة التقليدية، وبقـاء التوتّـرات بين القوميين والحداثيين في كثير مـن المجتمعات. ولا تزال الحروب الثقافية تصيب بآفتها معظم القوميات، مع سـعي الممثّلين الرئيسـين إلى اسـتلهام الماضي البديل لبرامجهم. ربما زادت السلطات التنظيمية للدول في الحقبة الحديثة (ولا سيما عبر منح حقوق المواطَنة)، لكن ذلك لم يوجِد في حد ذاته مجتمعات وطنية موحَّدة وذات سيادة:

القومية حركة دورية، اسـتحثتها حالات العجز الدورية للدول عن حماية الأمّـة طـوال العصر الحديث. وهذا يشـير إلـى أن الأمم كيانـات دينامية تبني اسـتجابتنا للعمليـات المتعـددة والمفاجئة التي نواجهها، وليسـت اسـتطالات «مستكينة» وسلبية خارجة من القوى الحديثة[٨٨].

يؤكد هتشينسون أن هذا «التفسير الدوري» يجمع معًا مقاربتين متضادتين علـى ما يبـدو. **أولًا**، منظور «المدة الطويلة» الذي تبنّاه دعـاة الإثنية ـ الرمزية، مثل أرمسـترونغ وسميث، و«الذي يرى الأمم بوصفها عمليات تاريخية دينامية طويلة الأجل تبني أشكال الحداثة». **ثانيًا**، الإطار «ما بعد الحداثي» الذي وضعه باحثـون، مثل أوزكيريملي ويوفال ـ ديفيز (Yuval-Davys)، وهو «يشـدّد على أن للتجمعـات والأفـراد هويـات متعـدّدة ومتناقضة لا يمكن التوصـل إلى إجماع نهائي عليها». يزعم هتشينسون أنه يتفق مع رفض أنصار ما بعد الحداثة لفكرة أن التحديـث يؤدي إلى عالم من الدول القومية المتجانسـة، واعتقادهم بأهمية النزاع والصراع في تشكيل التجمّعات. لكنه لا يشاركهم في ما يدعوه «طوعيتهم المثالية واللااجتماعية» التي تتجاهل القوة الملزِمة للهويات الممأسسة. يستهدف هتشينسون، كما يكتب، من دمج رؤى ممثلي «ما بعد الحداثة» ضمن إطار إثني ـ رمزي، جمع تقدير لأهمية الطبيعة الدائمة والمستمرة للأمم الحديثة مع دور الصراع في تشكّلها، «والتشديد على أن الحفاظ على الفوارق الملحّة والمستمرة

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٤ - ٥ و١٩١-١٩٣.

والذخيرة الثقافية المنافسة واحد من الأسباب المهمّة وراء قابلية الأمّة للتكيّف على مدى قرنين من التغيّر العنيف»[٨٩].

هذه في الحقيقة «إثنية ـ رمزية مستقبلية»، تعترف بدور التعدّدية والصراع في تشكّل الأمم أكثر من سابقتها الكلاسيكية. ومن ثم، يرى هتشينسون أن «الصراع عارض منتشر في الأمم»؛ وتضم الأمم كلها ذخائر إثنية متعدّدة تولّد مشاريع ثقافية وسياسية متنافسة في العصر الحديث ـ ومن ثم يُعَدّ تشكّل الأمم عملية ارتقائية وغير مكتملة[٩٠]. لكن هذا التشديد الجديد على الذخائر الإثنية المتعددة والمتناقضة لا يتناسب مع إصرار هتشينسون على رؤية الأمم الحديثة بوصفها منتجات لـ«تشكيلات أقدم عهدًا»، أو «هويات إثنية موجودة مسبقًا» استطاعت البقاء على مدى «قرون من التغيّرات»[٩١]. كيف يمكننا الحديث عن «تشكيلات إثنية أقدم عهدًا» استطاعت البقاء والنجاة من التغيّرات التاريخية إذا وجِد في الحقيقة عدد من الرؤى أو المشاريع المتنافسة ضمن كل تشكيل إثني؟ ما الذي استطاع البقاء على مر القرون؟ أي مشروع أو رؤية يتبنّاها القوميون في العصر الحديث؟ لماذا اختيرت هذه النسخة المحدّدة من الهوية وليس غيرها؟

مثلما رأينا آنفًا، تدور القصة الإثنية ـ الرمزية حول «الاستمرارية» و«العودة» و«الاستحواذ»، أو الطريقة التي يقيّد بها الماضي الحاضر. لكن من غير الممكن تقديم الحجّة على أن النخب الحالية مقيَّدة بالماضي «الوطني» إذا وجِدت في الحقيقة نسخ عدة من الماضي (أو «الوطني») يمكن الاختيار منها. إن اعتراف هتشينسون بالتعدّدية والصراع يجعل الإثنية ـ الرمزية غير موجودة، أو يقلّصها إلى مجرد مقاربة تكتفي بالتشديد على أهمية الأساطير والرموز والذكريات والتقاليد في بناء الأمم، وتلك حقيقة بديهية لا بد أن

---

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٥، و John Hutchinson, «Nations and Culture,» in: Montserrat Guibernau and John Hutchinson, eds., *Understanding Nationalism* (Cambridge: Polity; Malden, MA: Blackwell, 2001), pp. 84-87.

(٩٠) John Hutchinson: «In Defence of Transhistorical Ethno-Symbolism: A Reply to my Critics,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 1 (January 2008), p. 19, and *Nations as Zones of Conflict*, p. 193.

(٩١) Hutchinson, *Nations as Zones of Conflict*, pp. 4-5 and 14.

معظـم منظـري القوميـة من أنصـار المقاربـة البدائيـة أو الحداثيـة أو «ما بعد الحداثية» على استعداد لقبولها[92].

مـن ناحيـة أخـرى، تبقـى تركيبة هتشينسـون المقترحة حساسـة للشـروخ والعيـوب والنواقـص التـي تعانيها التحليـلات الإثنية ـ الرمزيـة الأخرى أيضًا. وهكـذا، يقـدّم فيمر الحجّة على أن هتشينسـون، على شـاكلة سـواه من أنصار الإثنية ـ الرمزية، يفضّل الأمثلة التي يبدو أنها تدعم نظريته ولا يناقش الحالات التي لا تناسب خطته. يتابع فيمر (Vimmer): «من أجل اقتراح حجج مقدّمة وفق التراث الإثني ـ الرمزي، يجب مغالبة التحيّز في انتقاء الحالات وتبنّي منهجية بحث نظامية حيث لا يتقرر اختيار الأمثلة بحسب درجة ملاءمتها للحجّة»[93].

أكثر من ذلك، يؤسّـس هتشينسـون حججه على «أنطولوجيا رومانسـية»، ويشـيّئ الأمم. فليس الأفراد أو المجموعات من اللاعبين الفاعلين هم الذين يسـعون وراء مشاريع سياسية، والتحالف/ أو القتال بعضهم مع بعض، بل إن الأمم، والأساطير، والذكريات هي التي «تقوم» بمثل هذه الأمور:

لدينـا هنـا نظرية عن الأمّة بوصفهـا كائنًا حيًا يمتد عمـره مئات أو آلاف الأعوام.. وهو رأي يحمل أكثر من مجرد تشابه مع رأي فيلسوف القرن الثامن عشـر يوهان غوتفريد فون هيردر.. ولا يمثّل مجرد زلة اصطلاحية.. بل حجّة نظريـة جوهريـة. ومن دون زعم أن للأسـاطير والرمـوز والذكريات قوة عابرة للتاريـخ تشـكّل الفعـل البشـري على مسـار القـرون، فسـوف ينهـار البرنامج الإثنـي ـ الرمـزي ويتحوّل إلى مجـرّد حجّة تؤكّـد أن الأُطر الثقافية المشـيدة تاريخيًا.. مهمّة لعمليات الحشد السياسي[94].

أخيرًا، يشير فيمر إلى غياب «السياسة» أو «السلطة» عن تحليل هتشينسون، على الرغم من تشديده على الصراع والكفاح من أجل الهيمنة. فوفقًا لتحليله،

---

(٩٢) للاطلاع على مناقشة أكثر تفصيلًا، انظر: Umut Özkirimli, «The Double Life of John Hutchinson or Bringing Ethno-Symbolism and Postmodernism Together,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 1 (January 2008), pp. 6-9.

(٩٣) التشديد من الأصل، Hutchinson, «In Defence of Transhistorical Ethno-Symbolism,» pp. 11-12.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ١٢ – ١٣.

كما يلاحظ فيمر، لا يحرك النزاعات حول تعريف الأمّة باعث المسعى وراء السلطة من قِبل مختلف اللاعبين السياسيين الفاعلين، بل بواسطة «الذكريات والأساطير التي تبدو أنها تعيش حياتها الخاصة وتتنفس، مثل «روح الشعب» التي تحدّث عنها هيردر، عبر أجساد الأمة»[٩٥].

يحاول هتشينسون مواجهة هذه الانتقادات، مؤكّدًا أنه لا يرى تنافرًا بين التشديد على تجذّر الذخيرة الإثنية وعلى الطبيعة المتحوّلة للقومية: «أرى توتّرًا، ولا أرى تناقضًا»، كما يكتب:

ربما يتوافر للقوميين كثير من حالات الماضي البديل. لكن لتحقيق النجاح، يجب على القوميين التحدّث إلى مواطنيهم بلغات يفهمها هؤلاء. فإن فشلوا في ذلك، فإن مشروعهم سيموت في مهده وربما تنقلب عليهم النخب المضادة. بهذا المعنى أتحدث عن أسلوب التجربة والخطأ، الذي يتضمّن تفاعلًا بين النخب والسكان المستهدَفين[٩٦].

---

(٩٥) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ٢٨.

مراجع إضافية

للاطّلاع على تعريف للإثنية ـ الرمزية (وشرح للأطروحات الرئيسة)، انظر: Anthony D. Smith: *Myths and Memories of the Nation* (Oxford: Oxford University Press, 1999), chap. 1, and «Ethno-Symbolism,» in: Athena S. Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, Consultant Advisor Anthony D. Smith (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001).

تشمل المقدمات التمهيدية المفيدة للإثنية ـ الرمزية: Atsuko Ichijo and Gordana Uzelac, eds., *When Is the Nation?: Towards an Understanding of Theories of Nationalism* (Milton Park Abingdon, Oxon; New York: Routledge, 2005), pp. 89-92, and Graham Day and Andrew Thompson, *Theorizing Nationalism*, Consultant Editor Jo Campling (Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2004), chap. 4.

من الأعمال الكلاسيكية المكتوبة وفقًا للتراث الإثني ـ الرمزي: John Alexander Armstrong, *Nations before Nationalism* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1982), and Anthony D. Smith: *The Ethnic Origins of Nations* (Oxford, UK; New York, NY: B. Blackwell, 1986), and *National Identity* (London. Penguin, 1991).

يُعدّل سميث موقفه في عدد من القضايا في أعماله المتأخّرة؛ انظر: Anthony D. Smith: *Chosen Peoples* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2003), and «The Genealogy of Nations: An Ethno-Symbolic Approach,» in: Ichijo and Uzelac, eds., *When Is the Nation?*.

يمكن العثور على النقاش المتبادل بين كونور وسميث حول طبيعة الأمم الحديثة في: Walker Connor, «The Timelessness of Nations,» in: Monserrat Guibernau and John Hutchinson, eds., *History and National Destiny: Ethnosymbolism and its Critics* (Oxford: Blackwell, 2004), and Anthony D. Smith: «When Is a Nation?,» *Geopolitics*, vol. 7, no. 2 (Autumn 2002), and *The Cultural Foundations of Nations: Hierarchy, Covenant and Republic* (Malden, MA: Blackwell Pub., 2008).

حول هذه النقطة، انظر أيضًا مقالة كونور الرائدة والمؤثرة «متى تظهر الأمّة؟» انظر: Walker Connor, *Ethnonationalism: The Quest for Understanding* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994).

للاطّلاع على نقد منهجي للإثنية ـ الرمزية عمومًا، وأعمال سميث خصوصًا، انظر: David D. Laitin, «Trapped in Assumptions,» *Review of Politics*, vol. 63, no. 1 (December 2001), and John Breuilly, «Dating the Nation: How Old Is an Old Nation?,» in: Ichijo and Uzelac, eds., *When Is the Nation?*.

يمكن العثور على انتقادات أخرى أكثر أهمية في: John Breuilly, «Approaches to Nationalism,» in: Gopal Balakrishnan, ed., *Mapping the Nation*, with an Introduction

by Benedict Anderson (London: Verso, 1996), and Siniša Malešević, *Identity as Ideology: Understanding Ethnicity and Nationalism* (Basingstoke, [England]; New York: Palgrave Macmillan, 2006), chap. 5.

يمكن الاطّلاع على ردّ سميث على بعض من هذه الانتقادات في:

Anthony D. Smith, *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998), pp. 196-198.

للاطّـلاع علـى إعادة صوغ للإثنية ـ الرمزية، انظر: John Hutchinson, *Nations as Zones of Conflict* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2005).

وعلـى نقـد للإثنيـة ـ الرمزية «الجديـدة»، انظـر: Umut Özkirimli, «The Double Life of John Hutchinson or Bringing Ethno-symbolism and Postmodernism Together,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 1 (January 2008); Andreas Wimmer, «How to Modernise Ethno-Symbolism,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 1 (January 2008), and John Hutchinson, «In Defence of Transhistorical Ethno-Symbolism: A Reply to my Critics,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 1 (January 2008).

الفصل الخامس

مقاربات جديدة للقومية

أولًا: لماذا «جديدة»؟

من الحجج الجوهرية في هذا الكتاب توكيد أننا دخلنا مرحلة جديدة في الجدل النظري بشأن القومية منذ نهاية ثمانينيات القرن العشرين. بدت هذه الحجّة غريبة نوعًا ما في عام ٢٠٠٠، حين نُشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، نظرًا إلى أنها تعاملت مع عدد محدود من الدراسات المستقلة باعتبارها فئة منفصلة ـ موجة جديدة من التنظير المختلفة نوعيًا عن الكتلة الكاملة من الأعمال التي أُنتجت حتى ذلك الحين. في أثناء هذه المدة، تزايد بسرعة عدد الدراسات التي تبنّت مقاربات مشابهة، وانتقلت الرؤى التي قدّمتها إلى واجهة المناقشات النظرية حول القومية. ومن ثم، تبنّت الحجّة ضمنًا أو علنًا نصوصًا عدة تمهيدية عن القومية. ومثلما ألمحنا في الفصل الأول، بدأ بعضها التحدث عن عصر «ما بعد كلاسيكي» في دراسة القومية[1].

إن أكثر السّمات تميزًا في هذه الكوكبة من الدراسات موقفها النقدي تجاه التيار الرئيس السائد من البحث الأكاديمي حول موضوع القومية. وعلى الرغم من حقيقة أن كلًا منها يسلط الضوء على مشكلة مختلفة في النظريات السابقة، فإنها كلّها تضع الافتراضات الجوهرية لسابقاتها موضع المساءلة، وتسعى إلى تجاوز الجدل الكلاسيكي عبر استكشاف القضايا التي تعرّضت للإهمال أو التجاهل، وعبر اقتراح طرائق جديدة للتفكير في الظاهرة الوطنية. تأثرت المقاربات الجديدة بـ«الانعطافة الثقافية» في العلوم الاجتماعية التي عجّل بها ظهور حركات اجتماعية جديدة في الربع الأخير من القرن العشرين،

(١) Graham Day and Andrew Thompson, *Theorizing Nationalism*, Consultant Editor Jo Campling (Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2004); Jyoti Puri, *Encountering Nationalism*, 21st-Century Sociology; 6 (Malden, MA: Blackwell, 2004), and Paul Lawrence, *Nationalism: History and Theory* (Harlow, England; New York: Pearson Education, 2005).

تحدّت التجانس المزعوم للثقافات والهويات الوطنية في الغرب. في هذا السياق، استُبدلت الفكرة الجامدة/ السكونية لـ«الثقافة» بوصفها كلًا متلاحمًا متجانسًا بتفسيرات أكثر سيولة وديناميةً تتعامل مع الثقافة باعتبارها مفهومًا مثيرًا للجدل الحاد والخلاف العميق، ويتواصل التفاوض على معناه، وتنقيحه وتعديله وإعادة تفسيره بواسطة أجيال متلاحقة وجماعات متنوعة تكوّن المجتمع «الوطني» كما هو مفترض. ووفقًا لهذا الرأي، لا تُعَدّ الثقافة منفصلة عن حالات الانقسام والتشظّي والتمييز الاجتماعية على أساس الطبقة والجندر (النوع الاجتماعي) والجنسانية والإثنية والمكان في دورة الحياة، وبالتالي عن تراتبيات السلطة، ولا تمثّل في كثير من الحالات ما يتقاسمه الناس، بل ما يختارون للتقاتل عليه[٢].

على المستوى المنهجي، تتحدّى المقاربات الجديدة ميل معظم نظريات التيار الرئيس إلى «التواطؤ» مع موضوع تحليلها، وتجلب الانتباه إلى المدى الذي شكّل فيه الجدل حول القومية وخطابها أُطرنا المفهومية ومفرداتنا التحليلية ذاتها. وهي ترفض، حين تبتعد من «القومية المنهجية» و«التشييء»، أخذ الأمم والقومية، أو جاذبيتهما الواسعة، قضية مسلّمًا بها، وتسعى إلى فهم الظروف التي أصبحت في ظلّها مركزية ومحورية للسياسة والثقافة في العصر الحديث.

يؤدي هذا كلّه إلى التشديد مجدّدًا على الطبيعة المتعددة التخصصات للقومية بوصفها موضوعًا للاستقصاء الأكاديمي. ومن ثم، تفتح الدراسة المعنية ميدانًا أمام مساهمات مناهج جديدة في التحليل، مثل تحليل الخطاب النقدي، وتحليل الحوار، والنظرية البلاغية، والتحليل النفسي، ووجهات نظر إبستيمولوجية (معرفية) جديدة مثل النسوية، وما بعد الكولونيالية، وما بعد الحداثة. كما تشدّد على الحاجة إلى تصحيح نخبوية نظريات التيار الرئيس عبر ضم التحليلات على المستوين الشامل والمفصّل معًا، أي عبر اعتبار الرأي القادم من الأسفل («الجماهير»، «الناس

---

(٢) Geoff Eley and Ronald Grigor Suny, «Introduction: From the Moment of Social History to the Work of Cultural Representation,» in: Geoff Eley and Ronald Grigor Suny, eds., *Becoming National: A Reader* (New York: Oxford University Press, 1996), p. 9.

العاديـون»)، إضافـة إلـى الـرأي الآتي مـن الأعلـى («النخـب»، أو «الطبقة المثقفة»، أو «موظفو الدولة البيروقراطيون»).

على مستوى أكثـر جوهرية، تؤكّد المقاربات الجديـدة أن بعض القضايا المعيّنة، مثل تحديد عصر أصول الأمم، استقطبت الجدل الكلاسيكي إلى حد غير ضروري على حسـاب أخرى، وتنتقد الطبيعة المرتكزة على تفوّق الثقافة الأوروبيـة والمتعامية عـن الفـوارق الجندريـة (النـوع الاجتماعـي) لأدبيات وكتابات التيار الرئيس المهمين. كما تتجاهل «السرديات الكبرى» أو «النظريات الجامعـة الشـاملة» المصمَّمة لتفسـير «القومية عمومًا»، الأمـر الذي مكّنها من التركيـز على الممارسـات والتمثيـلات القومية، والجوانب المهملة سـابقًا من القوميـة، مثـل الطبيعـة الجندريـة والجنسـية للمشـاريع القومية، وإعـادة إنتاج القوميـة عبر الثقافة الشـعبية وفي الحيـاة اليومية، ومعضلات «بنـاء الأمّة» في المجتمعات ما بعد الكولونيالية، من بين أخرى، مع حساسية متزايدة لتجارب الجماعات المهمّشة سابقًا في كل حالة[٣].

يمكن للحجّة التي تؤكد أننا دخلنا مرحلة جديدة في الجدل حول القومية منـذ أواخـر ثمانينيـات القـرن الماضـي، أن تحظـى بمزيـد من الدعـم والقوة بالاستقصاء المفصَّل لعدد من الدراسات التي تضع موضع المساءلة التنظيرات التقليدية والمقبولة والسائدة حول الأمم والقومية.

١ ـ مايكل بيليغ والقومية المبتذَلة

تعرّضت مسألة إعادة إنتاج الأمم والقوميات عمومًا للتجاهل من كتابات التيـار الرئيـس السـائد حول الموضـوع. ومثلما سـنرى في القسـم اللاحق، تناولت القضية أولًا الكاتبات النسويات اللاتي سعين إلى تقديم فهم للقومية

(٣) للاطلاع على مناقشة للسمات المميزة للمقاربات الجديدة، انظر: Eley and Suny, «Introduction»; Day and Thompson, pp. 12-17, 86 and 196-197; Puri, p. 60; R. Walker, «Postmodernism,» in: Alexander J. Motyl, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, 2 vols (San Diego, Calif.; London: Academic Press, 2001), vol. 1, and F. Salehi, «A Postmodern Conception of the Nation-State,» and Anna Triandafyllidou, «Hybridity Theory of Nationalism (Homi Bhabha on Nationalism),» in: Athena S. Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, Consultant Advisor Anthony D. Smith (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001).

يأخذ الجندر (النوع الاجتماعي) بالاعتبار عبر استكشاف الطرائق المتنوّعة التي ساهمت فيها المرأة في إعادة إنتاج أمّتها على الصعد البيولوجية والرمزية والأيديولوجية. ومن الاستثناءات المهمّة الأخرى الباحث الماركسي الفرنسي إيتيان باليبار (E. Balibar) الذي تعامل مع الأمّة باعتبارها تشكيلًا اجتماعيًا بمعنى أنها:

بناء تبقى وحدته إشكالية، وتشكيل من الطبقات الاجتماعية المتناحرة لا تتمتع بالاستقلال الذاتي كليًا، ولا تصبح محدّدة نسبيًا إلّا في معارضتها للطبقات الأخرى وعن طريق صراعات القوة، جماعات المصالح والأيديولوجيات المتناقضة التي تطوّرت خلال **المدة الطويلة** بواسطة هذا التضاد والعداء[٤].

وفقًا لباليبار، لا تتمثّل المشكلة الرئيسة الناجمة عن وجود التشكيلات الاجتماعية في بدايتها أو نهايتها، بل في إعادة إنتاجها، أي في «الظروف التي تستطيع في ظلها الحفاظ على وحدتها الصراعية التي توجِد استقلالها الذاتي على مدى عصور تاريخية طويلة»[٥]. ومايكل بيليغ هو من شرع في تحديد هذه الظروف في كتابه المهم والمؤثّر *Banal Nationalism* (قومية مبتذَلة) (١٩٩٥) الذي يمكن اعتباره أول دراسة لتقديم تحليل نظامي ومنهجي لإعادة إنتاج القومية[٦].

أُسست مقاربة بيليغ على نقد للتنظيرات المهيمنة والمقبولة التي تميل إلى ربط القومية بـ«أولئك الذين يكافحون لإيجاد دول جديدة، أو بسياسة الجناح اليميني المتطرف». وفقًا لهذا الرأي، تُعَدّ القومية من أملاك «الآخرين»، الدول الطرفية التي لم تستكمل بعد عمليات بناء الأمة، لا «نحن»، «الدول القومية» الراسخة في الغرب. القومية حالة ذهنية موقتة في الغرب، لم تتمظهر إلّا تحت ظروف «استثنائية» معيّنة، أي في أوقات الأزمات ـ واختفت ما إن

(٤) التشديد من الأصل، Etienne Balibar, «The Nation Form: History and Ideology,» *New Left Review*, vol. 13, no. 3 (Summer 1990), p. 334.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٦) للاطلاع على محاولة لاحقة، انظر: الفصل السادس من هذا الكتاب، و Tim Edensor, *National Identity, Popular Culture and Everyday Life* (Oxford; New York: Berg Publishers, 2002).

جـرت اسـتعادة الظروف الطبيعية. بهذا المعنى، تشـبه الأزمـات العدوى التي تسـبّب الحمى في «الجسم السـليم». وحين تهدأ الأزمات «تنخفض الحرارة، وتطـوى الرايات، ثم تعـود الأمور إلى طبيعتها»[٧]. يرفـض بيليغ هذه الصورة التبسـيطية، بـل السـاذجة، مؤكّـدًا أن الأزمات تعتمـد على ركائـز أيديولوجية قائمة. وهي لا توجِد الدول القومية باعتبارها دولًا قومية: «بين الحين والآخر، تسـتمر الولايات المتحـدة الأميركية وفرنسـا والمملكة المتحـدة، وغيرها في الوجـود. ويعـاد إنتاجهـا يوميًا كأمم، وباعتبـار مواطنيها مواطنيـن». لكن هذه التذكير مألوف إلى حد أنه لا يسـجَّل في الوعي بوصفه تذكيرًا. وأدخل بيليغ تعبير «قومية مبتذَلة» ليشمل «العادات الأيديولوجية التي تمكّن الأمم الراسخة فـي الغـرب من إعادة إنتاج ذاتها»: «الصورة الذهنية المجازية للقومية المبتذلة ليسـت راية يلوّح بها بطريقة واعية وبحماسـة جارفة: بل راية معلّقة على مبنى رسمي من دون أن يلاحظها أحد»[٨].

يلقي مثل هذا المفهوم الشك على التفسيرات المعيارية التي تؤكد أن القومية تصبح شيئًا إضافيًا للحياة اليومية ما إن ترسخ الدولة القومية، ولا تعـود إلّا حيـن ينهـار الروتيـن اليومـي المنظّـم. ووفقًا لبيليـغ، لا تختفي القومية حين تكتسب الأمّة سقفًا سياسيًا، بل تمتصها البيئة المحيطة للوطن الأم الراسـخ[٩]. وتغـدو رموز الأمّـة (النقود المعدنية والورقيـة والطوابع) جـزءًا من حياتنا اليومية. هذه المذكّرات الصغيرة تحوّل المسـاحة الخلفية إلى مساحة «وطنية».

يؤكد بيليغ أن من غير الممكن تفسير هذه العادات الروتينية كلّها أو ردة الفعـل الشـعبية في أعقـاب لحظات الأزمـة بتعابيـر الهوية. ويؤكـد أن الهوية الوطنية ليسـت إضافة كمالية نفسية (سـيكولوجية) يحملها الناس دومًا معهم، لاسـتخدامها كلّما دعت الضرورة. فمن أجل أن تؤدي الهوية الوطنية عملها، يجـب أن يعرف الناس ما هـي الهوية. بكلمات أخرى، يجب أن يكون لديهم افتراضات متعلّقة بماهية الأمّة، وما هو الشعور الوطني في الحقيقة.

---

(٧) Michael Billig, ed., *Banal Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: Sage, 1995), p. 5.

(٨) المصدر نفسه، ص ٦ - ٨.

(٩) المصدر نفسه، ص ٤١.

الإطار الرقم (٥ – ١) مايكل بيليغ

أستاذ العلوم الاجتماعية في جامعة لوكبورو. اشتهر في ميدان دراسات القومية بسبب كتابه قومية مبتذَلة (١٩٩٥). هكذا يتذكر بيليغ خلفية هذا الكتاب:

«تركز اهتمامي ودراستي على علم النفس الاجتماعي. وبعد أن أجريت أبحاثًا في ميدان علم النفس الاجتماعي في ما يتعلق بالتحيّز، ومنه النزعة الفاشية الجديدة، شعرت بعدم الرضا على مقاربات التيار الرئيس لعلم النفس الاجتماعي؛ حيث بدت أنها تساوي بين أشكال التحيّز والأحكام المسبقة كلها، بل تقترح أن من «الطبيعي» التنميط. لذلك، بدأت استكشاف احتمال أن يكون التفكير البشري بلاغيًا منمَّقًا فطريًا. وبدا أيضًا أن من الخطأ التعامل مع أشكال الهوية كافة كأنما هي متشابهة سيكولوجيًا. وفي سبيل إثبات ذلك، بدأتُ القراءة عن القومية. تأثرتُ على نحو خاص بغيلنر وأندرسون اللذين أكّدا وجود شيء جديد تاريخيًا في ما يتصل بالهوية الوطنية. لكن شعرت بأن معظم الكتّاب الذين تناولوا القومية يغفلون شيئًا مهمًّا: قومية الحياة اليومية للدول القومية الراسخة. وبدا من المفاجئ أن علماء الاجتماع يتجاهلون الاستعراضات اليومية للقومية في أقوى دولة قومية في العالم: الولايات المتحدة الأميركية.

تلك هي الخلفية الممهِّدة لكتابي قومية مبتذَلة. وعلى وجه العموم، تعامل معه المتخصصون بدراسة القومية برقّة ولطف، مع أنه كُتب بواسطة «أجنبي» دخيل ليس له سجل في دراسة القومية. ظهر الكتاب في عام ١٩٩٥، لكن منذ ذلك الحين، عملت في مجالات أخرى. وآخر الكتب التي ألّفتها استقصت تشكيلة متنوعة من الموضوعات، مثل نظرية فرويد عن القمع، وأهمية الفكاهة في الحياة الاجتماعية، وأحدثها نظريات القرن الثامن عشر عن الذهن. ربما سأرجع يومًا ما إلى إعادة التفكير بطبيعة القومية ـ فعلى الرغم من كلّ شيء، تؤكّد الأخبار كلّ يوم الهيمنة التي تمارسها القومية على الذهن المعاصر» (مراسلة شخصية).

تأتي هذه المعلومات من مصادر مختلفة. على سبيل المثال، تخبرنا التواريخ الوطنية قصة شعب سافر عبر الزمن ـ «شعبنا» مع «أساليبنا» الحياتية. من ناحية أخرى، لا يمكن للمجتمع الوطني أن يكون متخيَّلًا من دون تخيّل مجتمعات الأجانب التي تجعل ثقافتـ«نا» فريدة: لا يمكن وجود «نحن» من دون «هم»[١٠]. في هذا المرحلة تأتي الأحكام المنمَّطة. وتصبح الأنماط

---

(١٠) المصدر نفسه، ص ٧٨ – ٧٩.

وسيلة لتمييز «هم» من «نحن»؛ «نحن» نمثّل المعيار، العادي، الطبيعي، الذي يبدو انحراف«هم» إزاءه ملحوظًا. مجتمع الثقافة الفريد هذا مرتبط أيضًا بأرض محدَّدة، مساحة جغرافية محددة تمثّل وطنـ«نا» الأم. وفي الحقيقة، العالم كلّه مؤلف من مجتمعات ثقافية مثل مجتمعنا، يرتبط كل منها بقطعة أرض محدّدة. في رأي بيليغ، يشكل هذا الوعي العالمي جزءًا لا يتجزأ من الخطاب الحديث عن القومية[11].

تثير هذه الملاحظات سؤالًا آخر: لماذا لا ننسى، نحن في الأمم الراسخة، هويتنا الوطنية؟ الجواب بسيط، في رأي بيليغ: «نحن» نُذكَّر دائمًا بـ «أننا» نعيش في أمم. وتقوم «العادات الروتينية المألوفة للغة» بـدور مهم في عملية التذكير هذه. «كلمات صغيرة، لا جمل عظيمة لا تُنسى» تجعل هويتنا الوطنية راسخة ومحفورة في الذاكرة. ومن أجل استكشاف مثل هذه الأمور، ينبغي ألّا نكتفي بالانتباه لكلمات مثل «شعب» أو «مجتمع» وحسب، بل يجب أن نصبح «مهتمّين بأدق التفاصيل اللغوية» نظرًا إلى أن القومية المبتذَلة تكمن في كلمات صغيرة مثل «نحن»، و«هذا»، و«هنا»[12]. ومثلما هو متوقّع، يشيع استعمال هذه الكلمات على ألسنة السياسيين استعمالًا واسع النطاق.

يقوم السياسيون بدور مهم في إعادة إنتاج القومية، لكن ليس لأنهم شخصيات عظيمة النفوذ وبالغة التأثير. بل على العكس؛ إذ يؤكّد كثيرون من المعلّقين أن الثقل الذي يتمتعون به في آليات صنع القرار الرئيسة ينحسر ويتراجع باستمرار، ويعود جزء من السبب إلى زيادة العولمة. يحظى السياسيون بالأهمية لأنهم شخصيات مألوفة، حيث تظهر وجوههم بانتظام في الصحف أو على شاشات التلفزة؛ فهم بطريقة ما «نجوم» العصر الحديث، وكلماتهم تصل يوميًا إلى الملايين[13]. في مثل هذا السياق، يحظى محتوى وأسلوب ما يقولونه بأقصى قدر من الأهمية. «البطاقة الوطنية» يلعب بها السياسيون جميعهم تقريبًا. لكن الأهم أن السياسيين يزعمون التحدث باسم الأمّة. وعند استدعاء أفراد الأمّة برمّتها بوصفهم مستمعين لهم، يقدّمون أنفسهم بأسلوب

(١١) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٩٣ - ٩٤.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٩٦.

بلاغـي منمّق باعتبارهم يمثّلون المصلحة الوطنية. وعبر اسـتخدام الكلمات المتعلقـة بالوطـن الأم التـي يعتمـد معناها الدلالي على السـياق، يناشـدوننا «نحـن» الوطنييـن ويضعونـ«نا» ضمـن وطنـ«نا» الأم. وحين تُسـتعمل جمل صنـع الوطـن الأم بانتظام، تُذكِّر «نحن» بمن «نحـن» وأين «نحن». فضلًا عن ذلـك، يُقـدَّم مـا «نملكه» بوصفـه عالمًـا موضوعيًا، ويغيب الوطـن الأم عن الملاحظة عبر تقديمه باعتباره السـياق[14].

من ناحية أخرى، لا يُعَدّ السياسـيون اللاعبين الوحيدين الذين يسـاهمون في إعادة الإنتاج اليومية للرابطة الوطنية؛ إذ تستعير الصحف أساليبهم البلاغية وكلماتهم السياقية. وعلى شاكلة السياسيين، تزعم الصحف أنها تقف في قلب الأمّـة. وتسـتحضر المقـالات الافتتاحيـة وأعمدة الـرأي «نحـن» الوطنية التي تشـمل القرّاء والكتّاب على حد سـواء (إضافة إلى الجمهور العريض). الهوية الوطنيـة هي التـي توحّد القارئ والكاتب، وتجعل منهما «نحن». كما تسـاهم الصحـف أيضًـا في عمليـة تخيّل «نحن» الوطنيـة عبر تنظيمهـا الداخلي وبنية عرض الأخبار وتقديمها. الأخبار «الداخلية» منفصلة عن الأخبار «الخارجية»؛ «تشـير «الداخليـة» إلى أكثـر من مجرد محتـوى الصفحة المعيّنـة: فهي تحدد وتبرز داخل/ وطـن الصحيفة والقرّاء المخاطبيـن المفترضين». نحن، القرّاء، نتبع اللوحات الإرشادية ونعثر على طريقنا في أرجاء أرض الصحيفة المألوفة: «وحين نفعل ذلك، نشعر عادة بالألفة في بنية نصية، تستخدم الحدود الوطنية للوطن الأم، وتقسم العالم إلى «وطن أم» و«أجنبي»»[15].

من أكثر أطروحات بيليغ إقناعًا دراسته المتعلّقة بدور علماء الاجتماع في إعادة إنتاج القومية. وفقًا لبيليغ، يساهم الباحثون والأكاديميون في هذه العملية عبر:

- إسـقاط القوميـة. تحـدّد أغلبيـة المقاربـات الاجتماعية القوميـة بطريقة مقيّدة إلى حد بعيد، بوصفها ظاهرة متطرفة/ زائدة، ومن ثم فهي تحصرها في الحركات القومية التي تسـتفزها العواطف اللاعقلانية المتهورة. بهذا الطريقة،

---

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٠٦ - ١٠٩.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١١٩.

تسقط القومية على «الآخرين»، بينما «يجري تجاهل قوميتـ«نـا»، وتناسيها، بل حتى إنكارها نظريًا».

ـ تطبيـع القومية. يختزل بعض المنظّرين القومية إلى مجرّد حاجة نفسـية (سـيكولوجية) عبر التشديد على أن الولاءات للدول القومية أمثلة لشيء عام، أو واسع الانتشار وملازم للظرف الإنساني. وبذلك، «لم تَعُد «القومية المبتذَلة» قومية، بل لم تَعُد مشكلة للفحص والاستقصاء»[١٦].

يلاحـظ بيليغ أن بعض الباحثين يؤدي المهمتين في آن معًا. وهذا يفضي إلـى تمييـز نظـري (وبلاغـي): لا تقـدِّم قوميتـ«نـا» بوصفهـا قومية، أو شـيئًا لاعقلانيًا وزائدًا وأجنبيًا إلى حد خطر؛ إذ وجِد تصنيف جديد لها، «الوطنية»، المفيدة والضرورية. ومن ثم، تقدم «وطنيتنا» بوصفها طبيعية، ولذلك فهي غير مرئية، بينما تُعَدّ «القومية» من أملاك «الآخرين»[١٧].

إذا كانـت القوميـة المبتذَلـة على هذا القدر الواسـع من الانتشـار، فماذا يجـب أن يفعل علماء الاجتماع؟ أولًا وقبل كل شـيء، يجب أن يعترفوا. يقرّ بيليغ بأنه يشعر بالسرور إذا استطاع مواطن من وطنه الأم التفوق على الأجانب فـي الجـري أو القفز. على نحو مشـابه، يعتـرف بأنه يقرأ الأخبـار «الداخلية» (أخبار الوطن) باهتمام أكبر. على وجه العموم، جميعنا مشـاركون في الجدل بشأن القومية: «إنها حاضرة في كل كلمة ربما نحاول استعمالها للتحليل»[١٨]. بهـذا المعنى، يمكن تقديـم الحجّة على أن النصوص كلها المتعلّقة بالقومية ـ حتى الانتقادية منها ـ تساهم في إعادة إنتاجها. يلخّص كالهون ذلك بأسلوب بليغ: «كثير من التصنيفات والافتراضات المسبقة حول هذا الجدل منغرسة في عمق لغتنا اليومية ونظرياتنا الأكاديمية إلى حد أن من المستحيل عمليًا إزالتها، ونستطيع فقط تذكير أنفسنا بأخذها في الحسبان»[١٩]. يجب علينا القيام بذلك على أقل تقدير، لأننا:

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٦ - ١٧.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٧ و٥٥.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٢.

(١٩) Craig Calhoun, «Nationalism and Ethnicity,» in: *Annual Review of Sociology* (Palo Alto, Calif.: Annual Reviews Inc., 1993), p. 214.

لا ننسى وطننا الأم، ولو تعرّض كل شيء آخر للنسيان في عالم متخم بالمعلومات.. وإذا كنا نستعد بشكل روتيني لمواجهة أخطار المستقبل، فهذا استعداد لا يُعَدّ إضافة زائدة إلى ذخيرة من الطاقة العدوانية، بل هو شكل من أشكال القراءة والمراقبة والفهم والاستخفاف؛ شكل من الحياة نتلقى «نحن» فيه الدعوة باستمرار للاسترخاء في البيت، ضمن حدود الوطن الأُم. هذا الشكل من الحياة هو الهوية الوطنية.. حيث تبدو إمكاناتها الخطرة عادية ومألوفة ولا تضر[٢٠].

٢ ـ نيرا يوفال ـ ديفيز والمقاربات النسوية

من القضايا المفتاحية في تحليل الأمم والقومية البنيةُ التكوينية للعضوية في المجتمع الوطني، والمشاركة التفاضلية لمختلف الجماعات الاجتماعية في المشاريع القومية. أصبح من المعترف به عمومًا أن الحركات القومية تعتمد على جماعات مختلفة من الأنصار، بطرائق غير متكافئة، وهناك كثير من الكتابات والدراسات التي تحلل الجوانب المختلفة لهذه الحركات، مثل مكوّناتها الطبقية، ومستويات التعليم التي يتمتع بها المشاركون فيها... إلخ. لكن أغلبية هذه الكتابات والدراسات لم تنخرط في دمج تفاضلي للنساء والرجال في المشاريع الوطنية بطريقة منهجية ونظامية[٢١]. وبالطبع لم تغب النساء ـ ولا يغبن الآن ـ عن الخطاب القومي، حيث يصوَّرن بأنهن خليلات «الفاتحين»، و«ضحايا عمليات الاغتصاب في الحرب، وبغايا عسكرية، وبطلات مجنّدات على الطريقة السينمائية، وعارضات مغريات على الروزنامات الوطنية»، وباعتبارهن عاملات، وزوجات، وصديقات حميمات، وبنات يؤدين واجبهن عبر الانتظار في المنزل[٢٢]. لكن كما لاحظ بعض المعلّقين، فإن معظم التنظيرات السائدة حول الأمم والقومية، حتى تلك التي كتبتها نساء[٢٣]،

---

(٢٠) Billig, ed., p. 127.

(٢١) Sylvia Walby, «Woman and Nation,» in: Gopal Balakrishnan, ed., *Mapping the Nation*, with an Introduction by Benedict Anderson (London: Verso, 1996), p. 235.

(٢٢) Enloe (1993), Cited in: Eley and Suny, «Introduction,» p. 27.

(٢٣) انظر على سبيل المثال: Liah Greenfeld, *Nationalism: Five Roads to Modernity* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1992).

تجاهلت العلاقات الجندرية (المتعلقة بالنوع الاجتماعي) بوصفها غير ذات صلة[٢٤]، وذلك على الرغم من محوريتها بالنسبة إلى الخطاب القومي؛ حيث اعتُبرت القومية عمومًا ظاهرة ذكورية، انبثقت من ذاكرة مذكَّرة، وإذلال مذكَّر، وأمل مذكَّر[٢٥]. هذا ما دفع الكاتبة الشهيرة فيرجينيا وولف إلى إعلان حياديتها عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، وحثّ النساء على الانضمام إلى مجتمعها المتخيَّل، «مجتمع اللامنتميات»:

تعاملت معي «بلادنا».. طوال الجزء الأكبر من التاريخ بوصفي جارية؛ حرمتني التعليم أو أي نصيب في ممتلكاتها.. لذلك، إذا أصررتم على القتال لحمايتي، أو حماية «بلدنا»، ليكن مفهومًا.. أنكم تقاتلون لإشباع غريزة جنسية لا يمكن أن أقتسمها معكم؛ لجلب المنافع التي لم أشارك فيها ولن أشارك على الأرجح. لأنني.. في الحقيقة كامرأة، ليس لي بلد. وباعتباري امرأة، لا أريد بلدًا. وبوصفي امرأة أعتبر العالم كلّه بلدي[٢٦].

تعرّض عمى الجندر (النوع الاجتماعي) الذي تعانيه النظريات السائدة للمساءلة على نحو متزايد منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي. على سبيل المثال، يؤكد مكلينتوك (McClintock) أن القومية تشكّلت منذ البداية بوصفها خطابًا جندريًا (متعلّقًا بالنوع الاجتماعي)، ولا يمكن فهمها من دون نظرية عن سلطة الجندر[٢٧]. وبهذا المعنى، ينبغي ألّا نكتفي بإضافة الجندر (النوع الاجتماعي) بوصفه بُعدًا مفقودًا إلى مناقشاتنا المتعلقة بالقومية، بل يجب دمجه في نظرياتنا. وفي الحقيقة، يرى مكلينتوك أننا بحاجة إلى نظرية نسوية للقومية:

---

(٢٤) Nira Yuval-Davis, *Gender and Nation*, Politics and Culture (London; Thousand Oaks, Calif.: Sage Publications, 1997), p. 1.

(٢٥) Cynthia Enloe, *Bananas, Beaches and Bases: Making Feminist Sense of International Politics* (London: Pandora, 1989), p. 44.

حول الذكورية والقومية انظر: Wendy Bracewell, «Rape in Kosovo: Masculinity and Serbian Nationalism,» *Nations and Nationalism*, vol. 6, no. 4 (October 2000); Michel Huysseune, «Masculinity and Secessionism in Italy: An Assessment,» *Nations and Nationalism*, vol. 6, no. 4 (October 2000), and Puri, pp. 128-133.

(٢٦) V. Woolf, «Three Guineas,» in: Vincent P. Pecora, ed., *Nations and Identities: Classic Readings*, Keyworks in Cultural Studies; 1 (Malden, Mass.: Blackwell, 2001), p. 252.

(٢٧) Anne McClintock, «No Longer in a Future Heaven,» in: Eley and Suny, eds., p. 261.

- تستقصي التشكيل الجندري للنظريات الذكورية المتّفَق عليها؛

- تسلط الضوء على مشاركة المرأة الثقافية والسياسية الفاعلة في التشكيلات الوطنية؛

- تضع المؤسسات القومية في علاقة نقدية مع البنى والمؤسسات الاجتماعية الأخرى؛

- تركّز انتباهًا دقيقًا في الوقت نفسه على بنى السلطة العرقية والإثنية والطبقية المستمرة في إفساد الأشكال المحظوظة من النسوية[٢٨].

هذا هو ما حاولتْ فعله باحثات مثل كوماري جاياواردينا، وسينثيا إينلوي، وسيلفيا والبي، ونيرا يوفال ـ ديفيز، وفلويا أنثياس[٢٩]، أي تقديم فهم للأمم والقومية يأخذ بُعد الجندر (النوع الاجتماعي) بالاعتبار. ومن بين هذه الأعمال، يحظى عمل نيرا يوفال ـ ديفيز بأهمية خاصة؛ ففي تدخّل مبكر، استكشفت يوفال ـ ديفيز ومشارِكتها في الإعداد فلويا أنثياس الطرائق المتنوعة التي تؤثر عبرها النساء، ويتأثرن بالعمليات الإثنية / الوطنية، وكيف تتصل هذه بالدولة. في ما بعد، قدمت يوفال ـ ديفيز تفاصيل بشأن بعض الأطروحات التي تطوّرت في هذا المسعى الجمعي، ووسّعتها لتصبح كتابًا حمل عنوان *Gender and Nation* **(الجندر والأمّة)** (١٩٩٧).

نقطة انطلاق أنثياس ويوفال ـ ديفيز، في مقدّمة كتابهما الرائد **المرأة ـ الأمة ـ الدولة**، هي النواقص والعيوب في النقد النسوي للدولة. في رأيهما، تمثّلت ميزة النسويات والنسويات الاجتماعيات في كشف كيف تبني الدولة الرجال والنساء بأساليب مختلفة. بهذه الطريقة، تمكنت الكاتبتان من تسليط الضوء على الأسلوب الذي شكّلت عبره دولة الرعاية الاجتماعية «رعية

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

(٢٩) Kumari Jayawardena, *Feminism and Nationalism in the Third World*, Third World Books (New Delhi: Kali for Women; London: Zed Books; Totowa, NJ: U.S. Distributor, Biblio Distribution Center, 1986); Enloe, *Bananas, Beaches and Bases*; Walby, «Woman and Nation»; Nira Yuval-Davis and Floya Anthias, eds., *Woman-Nation-State*, Consulting Editor Jo Campling (Houndmills; Basingstoke; Hampshire: Macmillan, 1989), and Nira Yuval-Davis, *Gender and Nation*, Politics and Culture (London; Thousand Oaks, Calif.: Sage Publications, 1997).

الدولـة» بطريقـة جندرية، أي ذكوريـة جوهريًا بطاقاتهـا وحاجاتها[٣٠]. لكن أنثياس ويوفال ـ ديفيز تؤكدان أن انتقاد فهم الدولة للمواطَنة لا يكفي، نظرًا إلى أن هذا المفهوم يتصل وحسب بالطريقة التي تمارس فيها الدولة تأثيرها في الفرد لا بالطريقة التي تشـكّل عبرها الدولة مشـروعها السياسي. لذلك، لا يمكنـه بحد ذاته تفسـير القوى الاجتماعيـة المهيمنة ضمن الدولة. ووفقًا لهمـا، لا تتضمن فكـرة المواطَنة بصورة كافية علاقات السـيطرة والتفاوض الموجـودة في مختلـف مجالات الحيـاة الاجتماعية. المطلـوب إذًا تحديد الطرائـق التـي تسـاهم النسـاء عبرها فـي العمليـات الوطنيـة والإثنية ضمن المجتمع المدني، واستكشاف كيف تتصل هذه العمليات بالدولة. لكن قبل القيام بذلك، تؤكد يوفال ـ ديفيز وأنثياس عدم وجود تصنيف أحادي للنساء اللاتي يمكن اعتبارهن من دون أي مشـكلات بؤرة تركيز سياسـات الدولة الإثنيـة والوطنيـة: «تقسـم النسـاء على خطـوط الطبقـة، والإثنيـة، والدورة الحياتيـة، وفـي معظـم المجتمعـات توجّـه الاسـتراتيجيات المختلفـة نحو جماعات نسائية مختلفة»[٣١]. في ضوء هذه الملاحظات، تشير يوفال ـ ديفيز وأنثيـاس إلـى خمس طرائق رئيسـة اتخذتها المرأة للمشـاركة في العمليات الإثنية والوطنية:

ـ إعادة الإنتاج البيولوجي لأعضاء التجمعات الإثنية؛

ـ إعادة إنتاج الحدود للجماعات الإثنية/ الوطنية؛

ـ المشـاركة بـدور مركـزي فـي إعـادة الإنتـاج الأيديولوجـي للتجمّـع (الجماعي) ونقل/ بث ثقافته؛

ـ الدلالـة علـى الفـوارق الإثنية/ الوطنيـة ـ كبـؤرة ورمز فـي الخطابات الأيديولوجية المستخدمة في بناء التصنيفات الإثنية/ الوطنية، وإعادة إنتاجها، وتحويلها؛

ـ المساهمة في النضال الوطني والاقتصادي والسياسي والعسكري[٣٢].

---

(٣٠) Yuval-Davis and Anthias, eds., p. 6.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٧.

(٣٢) المصدر نفسه.

أ ـ إعادة الإنتاج البيولوجي لأعضاء التجمعات الإثنية

تلاحظ يوفال ـ ديفيز أن معظم المناقشات حول الحقوق الإنجابية للمرأة تركّزت على تأثيرات وجود أو غياب هذه الحقوق عن النساء بصفتهن أفرادًا. لكن الضغط على المرأة، كما تؤكد، لإنجاب أو عدم إنجاب الأطفال كثيرًا ما لا يتصل بهن كأفراد، بل بصفتهن أعضاء في جماعات وطنية محدّدة: «وفقًا لمختلف المشاريع الوطنية، وتحت ظروف تاريخية محدّدة، تُطالَب بعض / أو كل جماعات النساء في عمر الإنجاب، وأحيانًا تقدَّم لهن رشوة، وفي أحيان أخرى يجبرن على إنجاب عدد أقل أو أكثر من الأطفال»[٣٣].

تحدد يوفال ـ ديفيز ثلاثة خطابات رئيسة تميل إلى الهيمنة على السياسات الوطنية المتعلقة بالسيطرة على السكان. أولًا، خطاب «السكان بوصفهم قوة»، حيث يعتبر مستقبل الأمّة معتمدًا على نموّها (السكاني) المستمر[٣٤]. هنا، يجري السعي وراء سياسات متنوّعة لتشجيع النساء على إنجاب مزيد من الأطفال. في إسرائيل على سبيل المثال، هنالك دعوات للنساء كي ينجبن مزيدًا الأطفال في أوقات تراجع الهجرة أو الأزمات الوطنية. يُدعّم هذا التشجيع بالخطابات الدينية حول واجب النساء في إنجاب مزيد من الأطفال. ويغذّي السياسيون الخوف من «المحرقة الديموغرافية» عبر جلب الانتباه إلى الأمثال والأقوال الفلسطينية الشعبية «يهزمنا الإسرائيليون على الحدود لكننا نهزمهم في غرف النوم»، ويستغلونها لزيادة الضغط على النساء. لكن الدولة لا تعتمد دومًا على الحشد الأيديولوجي، حيث تتبنّى إجراءات أقل راديكالية، مثل إقامة أنظمة لرعاية الأطفال ومساعدتهم أو تخصيص القروض (برامج رعاية الأمومة) لهذا الغرض[٣٥].

الخطاب الثاني الذي تحدّده يوفال ـ ديفيز هو اليوجينيّ (تحسين النسل). لا يتعلق علم تحسين النسل بحجم الأمّة، بل بـ«نوعيتها»[٣٦]، وهو ما أنتج سياسات متنوّعة استهدفت الحد من الأعداد المادية / الفيزيائية

---

(٣٣) Yuval-Davis, *Gender and Nation*, p. 22.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٩ - ٣١.

(٣٥) Yuval-Davis and Anthias, eds., pp. 8-9, and Nira Yuval-Davis, «National Reproduction and the «Demographic Race» in Israel,» in: Yuval-Davis and Anthias, eds. *Woman-Nation-State*.

(٣٦) Yuval-Davis, *Gender and Nation*, pp. 31-32.

لأعضاء الجماعات «غير المرغوب فيها». ربما تأخذ هذه السياسات أحيانًا شكل السيطرة على الهجرة، وربما تشمل في أحيان أخرى إجراءات أكثر تطرّفًا، مثل طرد جماعات معيّنة أو إبادتها فعلًا (مثلًا: اليهود والغجر في ألمانيا النازية). من الاستراتيجيات الأخرى تحديد عدد المولودين في جماعات إثنية معيّنة عبر السيطرة على قدرة النساء على الإنجاب. مرة أخرى، يجري اتّباع سياسات متنوعة هنا، تتراوح بين التعقيم الإجباري، وتنظيم حملات واسعة النطاق لتحديد النسل. من العواقب الناجمة عن هذه الاستراتيجيا التشجيع الفاعل للنمو السكاني من «النوع الصحيح»، أي من الجماعة الإثنية المهيمنة[٣٧].

الخطاب الأخير الذي تحدده يوفال ـ ديفيز هو المالثوسي [نسبة إلى الاقتصادي البريطاني توماس روبرت مالثوس]. وفي تغاير صارخ مع الخطاب الأول، يعتبر أتباع الخطاب المالثوسي تخفيض عدد الأطفال طريقة لمنع حدوث كارثة وطنية مستقبلية. ويتوضح هذا الخطاب بأجلى صورة في البلدان النامية، حيث يجري تبنّي عدد من السياسات الهادفة إلى تخفيض معدل النمو الإجمالي. «كثيرًا ما تصبح النساء الشريحة السكانية «الأسيرة» المستهدَفة من مثل هذه السياسات». تلاحظ يوفال ـ ديفيز أن البلد الذي مضى أبعد شوط في هذا السياق هو الصين. هنا، اتُّخذت إجراءات عدة لمنع أغلبية العائلات من إنجاب أكثر من طفل واحد. أمّا عقوبات التهرّب من هذه الإجراءات، فتتراوح بين طرد الآباء من العمل وحرمان الأطفال من التعليم.

ووفقًا ليوفال ـ ديفيز، يُعَدّ تأثير السياسات المالثوسية في درجة عالية من الانحياز الجندري: «حيثما يمارَس ضغط قوي للحد من عدد الأطفال، وحيث للأطفال الذكور قيمة أعلى لأسباب اجتماعية واقتصادية، توجَّه نحو الإناث ممارسات الإجهاض وقتل المواليد»[٣٨].

---

(٣٧) Yuval-Davis and Anthias, eds., pp. 8-9.

(٣٨) Yuval-Davis, *Gender and Nation*, pp. 32-35.

للاطلاع على خطابات حول السيطرة على السكان، انظر: Nira Yuval-Davis, «Nationalism, Feminism and Gender Relations,» in: Montserrat Guibernau and John Hutchinson, eds., *Understanding Nationalism* (Cambridge: Polity; Malden, MA: Blackwell, 2001), pp. 124-125.

الإطار الرقم (٥ - ٢) **نيرا يوفال ـ ديفيز**

أستاذة ومديرة مقرّر التخرّج في دراسات الجندر والجنسانية والإثنية في جامعة إيست لندن. وهي من أوائل من أدخلوا قضية الجندر المهمَلة منذ أمد طويل في دراسة القومية، عبر كتابيها المرأة ـ الأمة ـ الدولة (بالاشتراك مع فلويا أنثياس، ١٩٨٩)، والجندر والأمة (١٩٩٧). هكذا تروي يوفال ـ ديفيز أصول اهتمامها بالقومية:

«من ذكرياتي المهمّة المبكرة الاستماع مع والديّ إلى التصويت في الجمعية العامة للأمم المتحدة. كنت في الرابعة من العمر آنذاك، ولم أفهم حقًا ما كان يجري، لكنني عرفت أنه بالغ الأهمية. فجأة نهض أبي ودعانا أنا وشقيقتي والإثارة تترع كيانه: «أصبح لنا دولة! أصبح لنا دولة!». بعد وقت قصير خرج الجميع إلى الشوارع، وأتذكر أصوات الغناء والموسيقى، والنشوة العارمة التي ملأت الناس طوال الليل. ثم انسحب البريطانيون وبدأت حرب عام ١٩٤٨.

شكلت القومية، بصيغتها الصهيونية المحدّدة، ولا سيما الصهيونية العمالية، حياتي منذ البداية، وما عرفناه عن مصير أقاربنا جميعهم الذين قتل النازيون أغلبهم والقلة الناجية التي أتت إلى إسرائيل بعد عام ١٩٤٨، مثّل السياق العاطفي / الوجداني للسبب الذي جعل الاستقلال الوطني اليهودي على هذه الدرجة من الأهمية. لكن عندما كبرت، بدأت أرى بالتدريج أن بعض الأطفال في مدرستي، الذين أتوا من عائلات «مرزاحي»، كانوا أكثر تهميشًا في المجتمع الوطني الذي بنته الصهيونية العمالية وشغلت فيه أسرتي مكانًا مركزيًا، وحين بلغت سن المراهقة، واجهت وعرفت مصير الفلسطينيين الإسرائيليين الذين كانوا مواطنين رسميًا، لكنهم ظلّوا تحت الحكم العسكري، وخضعت تحركاتهم للسيطرة الصارمة.

هكذا بدأت رحلة طويلة ومؤلمة من عمليات الكشف والتفكيك ونزع السحر، مع أن تحوّلي التدريجي من الصهيونية إلى معادة الصهيونية

(Nira Yuval-Davis, «The Contaminated Paradise,» in: Nahla Abdo and Ronit Lentin, eds., *Women and the Politics of Military Confrontation: Palestinian and Israeli Gendered Narratives of Dislocation* (New York: Berghahn Books, 2002).

لم يكتمل إلّا حين غادرت إسرائيل وأدركت أن الناس في المجتمعات الأخرى يتدبّرون فعلًا أمر العيش في مجتمعات تعدّدية، وعندما بدأت أحلل إسرائيل / فلسطين بوصفها مجتمعًا من المستوطنين لا مجرد دولة قومية.

Daiva Stasiulis and Nira Yuval-Davis, eds., *Unsettling Settler Societies: Articulations of Gender, Race, Ethnicity and Class*, Sage Series on Race and Ethnic Relations; v. 11 (London; Thousand Oaks, Calif.: Sage, 1995).

بعد أن عشت وعملت في ثلاثة بلدان وزرت الكثير غيرها، أدركت أيضًا أهمية التشديد على توكيد أوتو بويريان على «المصير المشترك» بدلًا من مجرّد «الأصل المشترك» الذي أشار إليه أنتوني سميثيان بوصفهما من الجوانب الحاسمة في الخطاب القومي، لكن في الوقت نفسه تمكّنت أيضًا من تقويم الخطاب القومي اللاقومي السائد في الغرب بأسلوب نقدي. والأهم أنني استطعت، بدءًا من عملي في إسرائيل ثم في البلدان الأخرى عمومًا، تحليل الأمم والخطابات القومية بطريقة متقاطعة، مع الإشارة إلى أن الانقسامات الاجتماعية الجنسية والإثنية والطبقية وغيرها، تبني أشكالًا متمايزة ومتعددة الطبقات للانتماء إلى التجمعات الوطنية ـ ومن هنا أتى كتاب الجندر والأمّة (١٩٩٧)، والتقاطع والانتماء الذي أعمل على تأليفه هذه الأيام» (مراسلة شخصية).

ب ـ إعادة إنتاج الحدود للجماعات الإثنية / الوطنية

اعتمادًا على عمل أرمسترونغ، تؤكد يوفال ـ ديفيز أن الحفاظ على الوحدة الأسطورية لـ«الجماعات الوطنية المتخيَّلة» وإعادة إنتاجها ينجزهما نظام كامل من «حرس الحدود» الرمزيين الذي يصنّف الناس بصفتهم أعضاء / وغير أعضاء في تجمّع (جمعي) محدّد. يرتبط حرس الحدود هؤلاء ارتباطًا وثيقًا بـ«أنظمة ثقافية محدّدة تقرر قواعد اللباس والسلوك، إضافة إلى تلك الأكثر تفصيلًا والمتعلّقة بالعادات والتقاليد والدِّين والأدب والأنماط الفنية للإنتاج، واللغة بالطبع»[٣٩]. وتقوم علاقات الجندر والجنسانية بدور مهم في هذا كله؛ فالنساء يجسّدن التجمّعات الإثنية / الوطنية، ويُعدن إنتاجها حسبما يُعتقد. ووفقًا ليوفال ـ ديفيز، يُعتبر هذا البُعد من حياة النساء حاسم الأهمية لفهم «الذاتانية» والعلاقات المتبادلة بين النساء، ومع الرجال والأطفال.

نظرًا إلى محورية دور النساء باعتبارهن حرس الحدود الرمزيين، يسهل فهم السبب الذي يجعل السيطرة على النساء لا تتم عبر تشجيعهن / أو عدم تشجيعهن على إنجاب الأطفال وحسب، بل في ما يتعلّق أيضًا بالطريقة «الصحيحة» التي يجب عليهن اتّباعها للإنجاب ـ أي بالطرائق التي تعيد إنتاج حدود جماعتهن الإثنية أو جماعة أزواجهن. ومن ثم، لا يُسمح لهن في بعض

---

(٣٩) Yuval-Davis, *Gender and Nation*, p. 23.

الحالات بإقامة علاقات جنسية مع رجال من الجماعات الأخرى (حتى وقت قريب في جنوب أفريقيا مثلًا). تلك هي الحالة بالضبط بالنسبة إلى النساء المنتميات إلى الجماعة الإثنية المهيمنة. ويُعَدّ الزواج الشرعي شرطًا مسبقًا للاعتراف بالطفل عضوًا في الجماعة. وكثيرًا ما تُملي التقاليد الدينية والاجتماعية من يتزوج بمن، بحيث يمكن الحفاظ على شخصية الجماعة وحدودها على مدى الأجيال(٤٠). في إسرائيل على سبيل المثال، الأُم هي التي تقرر جنسية الطفل. لكن إذا تزوجت برجل آخر، يصبح الطفل منبوذًا (حتى وإن طلّقت بالقانون المدني لا الدِّيني، لأن الزواج المدني غير معترف به أمام المحكمة الدينية)، ولا يُسمح لذريتها بالزواج من يهودي طوال عشرة أجيال(٤١).

ج ـ المشاركة بدور مركزي في إعادة الإنتاج الأيديولوجي للتجمّع (الجمعي) ونقل / بث ثقافته

مثلما لاحظنا آنفًا، تُعَدّ النساء عادة «حوامل ثقافية» في الجماعة الإثنية / الوطنية؛ إذ يشكلن المصدر الرئيس للتهيئة الاجتماعية للأطفال الصغار، ومن ثم فمشاركتهن مطلوبة لنقل / بث الميراث الغني من الرموز الإثنية، والتقاليد التراثية، والقيم إلى الأعضاء الصغار في الجماعة(٤٢). هنا، تشدّد يوفال ـ ديفيز على الحاجة إلى التعامل مع «الثقافة» لا بوصفها صنفًا ثابتًا مشيئًا، بل «باعتبارها عملية دينامية، تتغيّر باستمرار، وحافلة بالتناقضات الداخلية التي يستخدمها مختلف الممثّلين الاجتماعيين والسياسيين، من أصحاب المواقع المختلفة، بطرائق مختلفة»(٤٣).

د ـ الدلالة على الفوارق الإثنية / الوطنية

النساء لا يكتفين بنقل / بث الميراث الثقافي للجماعات الإثنية والوطنية، بل «يرمزن إليه» أيضًا؛ فكثيرًا ما يجري تخيّل الأمّة على هيئة امرأة محبوبة أو أم فقدت أبناءها في المعركة. ومن أجل «النساء والأطفال» يذهب الرجال إلى

---

(٤٠) Yuval-Davis and Anthias, eds., p. 9.

(٤١) Yuval-Davis, «National Reproduction and the «Demographic Race» in Israel,» p. 103.

(٤٢) Yuval-Davis and Anthias, eds., p. 9.

(٤٣) Yuval-Davis, *Gender and Nation*, p. 67.

الحرب كما هو مفترض[44]. تؤكد يوفال ـ ديفيز أن «عبء التمثيل» هذا أدّى إلى بناء المرأة بوصفها حاملة لشرف الجماعة. ولذلك، توضع عادة أنظمة وقواعد محدّدة، تعيّن من هي «المرأة الصالحة»، ومن هو «الرجل الصالح». في حركة الشباب الهتلرية مثلاً، كان شعار البنات «كوني وفية ونقية وألمانية». وبالنسبة إلى الشباب، «عش حياتك وفيًا وقاتل بشجاعة ومت ضاحكًا»[45]. في بعض الأحيان، يقرر الفارق المميّز بين جماعتين اثنيتين بواسطة سلوك المرأة[46]. على سبيل المثال، يجب على الفتاة القبرصية «الحقيقية» أن تتصرف بطرائق محتشمة على الصعيد الجنسي، وإلّا لن تنتمي لا هي ولا أطفالها إلى المجتمع[47]. وبكلمات يوفال ـ ديفيز:

النساء الأخريات في كثير من المجتمعات الأخرى يتعرضن للتعذيب والقتل على أيدي أقربائهن بسبب الزنا، والهرب من المنزل، وغيرها من الانتهاكات الثقافية لقواعد السلوك التي تجلب، كما يعتقد، الخزي والعار إلى الأقرباء الذكور والمجتمع المحلي[48].

هـ ـ المساهمة في النضال الوطني والاقتصادي والسياسي والعسكري

خضع دور المرأة في النضال الوطني والإثني لأوسع استكشاف وبحث؛ فبينما لم تشارك المرأة دومًا، كما تؤكد يوفال ـ ديفيز، في القتال بشكل مباشر (مع أنه ليس من غير الشائع أن تفعل)، فإن لها دورًا محدّدًا على الدوام في المعركة، «مثل رعاية الجرحى أو باعتبارها من الغنائم التي يمتلكها المنتصرون»[49]. لكن هذا «التقسيم الجنسي للعمل» يختفي عادة حين لا

---

(٤٤) Enloe (1990), Cited in: ibid., p. 15.

(٤٥) Yuval-Davis, *Gender and Nation*, p. 45.

(٤٦) حول العلاقة المعقدة بين الجنسانية والقومية، انظر أيضًا: George L. Mosse, *Nationalism and Sexuality: Respectability and Abnormal Sexuality in Modern Europe* (Madison, Wisc.: University of Wisconsin Press, 1985); Andrew Parker [et al.], eds., *Nationalisms and Sexualities* (New York: Routledge, 1992), and puri, chap. 4.

(٤٧) Yuval-Davis and Anthias, eds., p. 10, and Floya Anthias, «Women and Nationalism in Cyprus,» in: Yuval-Davis and Anthias, eds. *Woman-Nation-State*.

(٤٨) Yuval-Davis, *Gender and Nation*, p. 46.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٩٥.

يظهـر تمايز واضح بين «جبهة المعركة» و«الجبهة الداخلية». عند هذه النقطة، تشير يوفال ـ ديفيز إلى أن الطبيعة المتغيّرة للحرب وامتهان الحرفة العسكرية، مارسا تأثيرًا إيجابيًا في دمج النساء في المؤسسة العسكرية. لكن، كما تضيف، «من النادر جدًا، إن حدث ذلك أصلًا، أن تلغى علاقات السلطة المتمايزة بين الرجال والنساء، حتى ضمن جيوش التحرير الوطني الأكثر تنظيمًا وتقدّمًا من الناحية الاجتماعية أو المؤسسات العسكرية المحترفة الغربية»[٥٠].

ثمة موضوع آخر تطوّر في دراسة يوفال ـ ديفيز المتأخرة يتعلق بالأبعاد المتعددة للمشاريع القومية؛ فبعد أن لاحظت أن المشاريع القومية كثيرًا ما تكون معقّدة ومركّبة، تؤكد أن «مختلف أعضاء التجمع (الجمعي) يميلون إلى تشجيع تركيبات بنائية متنافسة تنزع إلى أن تكون أكثر / أو أقل حصرية، وأكثر / أو أقل ارتباطًا بالأيديولوجيات الأخرى مثل الاشتراكية أو / والدِّين»[٥١]. وفي رأيها، فإن محاولات تصنيف هذه الدول والمجتمعات المختلفة كلها وفقًا للأنماط المختلفة من القومية تشكّل مهمّة مستحيلة ولاتاريخية. بدلًا من ذلك، يجب أن نتعامل مع هذه الأنماط بوصفها أبعادًا مختلفة من المشاريع القومية التي تجمّعت بطرائق مختلفة في حالات تاريخية محددة.

اعتمادًا على هذه الملاحظة، تميز يوفال ـ ديفيز بين ثلاثة أبعاد رئيسة للمشارع القومية. أولًا، البُعد «السلالي» الخاص بسلسلة النِّسب الذي يُبنى حول الأصل المحدّد للناس أو عِرقهم (الأمّة). ثانيًا، البُعد «الثقافي»، حيث يُبنى الميراث الرمزي الذي توفّره اللغة أو الدين و / أو عادات وتقاليد أخرى بوصفه «جوهر» الأمّة (الأمّة الثقافية). أخيرًا، هنالك بُعد «مدني» يركز على المواطَنة بوصفها معيِّنةً لحدود الأمّة، ويربطها مباشرة بأفكار سيادة الدولة والمنطقة المحدّدة (الدولة القومية)[٥٢]. وفقًا ليوفال ـ ديفيز، تؤدي علاقات الجندر (النوع الاجتماعي) دورًا محوريًا في كلٍّ من هذه الأبعاد، وهي بالغة الأهمية لأي تنظير سليم وصحيح لها.

في كتاب الأمّة والجندر، تعرض يوفال ـ ديفيز أيضًا تحليلًا أكثر تفصيلًا

---

(٥٠) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٥١) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٥٢) المصدر نفسه.

لغياب المرأة عن التنظير السائد المتعلّق بالأمم والقومية. وتذكر تفسيرين اثنين ربما تكون لهما صلة في هذا السياق. يأتي الأول من كارول بيتمان (C. Pateman) التي تُرجع أصول هذا «النسيان الأكاديمي الجمعي» إلى النظريات التأسيسية الكلاسيكية التي شكّلت الفهم البديهي المعقول والمتّسق للنظام الغربي السياسي والاجتماعي. تقسم هذه النظريات فضاء المجتمع المدني إلى مجالين: عام وخاص، وتضع المرأة (والعائلة) في المجال الخاص الذي لا يُعَدّ متصلًا بالسياسة. من ناحية أخرى، تؤكد ريبيكا غرانت (R. Grant)، أن النظريات التأسيسية لهوبز وروسو ترسم الانتقال من حالة الطبيعة إلى مجتمع منظّم حصريًا ضمن ما تفترض بأنه سمات وصفات ذكورية ـ الطبيعة العدائية الجسورة للرجال (هوبز) والقدرة على التفكير العقلاني في الرجال (روسو). لا تُعَدّ المرأة جزءًا من هذه العملية، ومن ثم فهي مستثناة من «الاجتماعي». تؤكد غرانت أن النظريات اللاحقة أخذت هذه الافتراضات قضية مسلّمًا بها[٥٣]. لكن من المهم ملاحظة أن الإهمال كان متبادلًا، وأن الأمم والقومية لم تكن تمثّل بؤرة تركيز الباحثات النسويات حتى وقت قريب نسبيًا. وفقًا ليوفال ـ ديفيز، يعود جزء من السبب وراء ذلك إلى حقيقة أن الباحثات النسويات أتين على مدى فترة طويلة من بيئات محظوظة وميسورة، وفي مقدورهن الاتفاق مع تصريح فرجينيا وولف: «في الحقيقة، [أنا] كامرأة، ليس لي بلد!». يُعتبر كتاب كوماري جاياواردينا **النسوية والقومية في العالم الثالث** (١٩٨٦) نقطة تحوّل في هذا السياق، كما تؤكد، حيث أظهر للباحثات النسويات في الغرب أن الولاء لحركة التحرر الوطني لا يعني بالضرورة أن النساء لا يناضلن في سبيل تحسين وضعهن في المجتمع[٥٤].

تلاحظ يوفال ـ ديفيز أن عمى الجندر في الأدبيات السائدة بقي على حاله ولم يتغيّر، على الرغم من الانتشار الواسع للتحليلات النسوية للقومية والمشاريع القومية المحدّدة في الأعوام الأخيرة[٥٥]. أمّا هتشينسون وسميث،

---

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٢.

(٥٤) Yuval-Davis, «Nationalism, Feminism and Gender Relations,» pp. 121 and 134-136; McClintock, p. 281, and Lois A. West, «Introduction: Feminism Constructs Nationalism,» in: Lois A. West, ed., *Feminist Nationalism* (New York: Routledge, 1997).

(٥٥) إضافة إلى المصادر المذكورة آنفًا، انظر أيضًا: Inderpal Grewal and Caren Kaplan, eds., *Scattered Hegemonies: Postmodernity and Transnational Feminist Practices* (Minneapolis: University =

محرّرا كتاب القومية الذي لقي قبولًا حسنًا، فوضعا مثلًا الاقتباس الوحيد حول القومية وعلاقات الجندر (من بين تسعة وأربعين) في القسم الأخير تحت عنوان «في ما وراء القومية»، وقدّما له بالكلمات الآتية: «دخول المرأة إلى المجال الوطني باعتبار أنها تعيد الإنتاج الثقافي والبيولوجي للأمّة وتنقل/ تبث قيمها، أعاد أيضًا تعريف محتوى الإثنية والأمّة وحدودهما»[٥٦]. كان رد يوفال - ديفيز حادًا ومكثفًا: «لكن المرأة بالطبع لم تكتف «بدخول» المجال الوطني: فهي موجودة دومًا هناك، وتؤدي دورًا مركزيًا في عمليات بنائه وإعادة إنتاجه!»[٥٧]. يمكن قراءة ذلك بوصفه مثالًا آخر على مدى التجذّر العميق للانحياز «الذكوري الشمولي» في عمليات التيار السائد لبناء الأمم والقومية. وهذا بالضبط ما قامت الأبحاث

= of Minnesota Press, 1994); Alexandra Stiglmayer, ed., *Mass Rape: The War against Women in Bosnia-Herzegovina*, Translations by Marion Faber; Foreword by Roy Gutman (Lincoln: University of Nebraska Press, 1994); Valentine M. Moghadam, ed., *Gender and National Identity: Women and Politics in Muslim Societies* (London; Atlantic Hughlands, NJ: Zed Books; Karachi: Oxford University Press, 1994); Helma Lutz, Ann Phoenix and Nira Yuval-Davis, eds., *Crossfires: Nationalism, Racism, and Gender in Europe* (London: Pluto Press, 1995); Fiona Wilson and Bodil Folke Frederiksen, eds., *Ethnicity, Gender, and the Subversion of Nationalism* (London; Portland, Or.: F. Cass in Association with the European Association of Development Research and Training Institutes (EADI), 1995); Constance R. Sutton, ed., *Feminism, Nationalism, and Militarism* (Arlington, VA: Association for Feminist Anthropology/American Anthropological Association in Collaboration with the International Women's Anthropology Conference, 1995); Jan Jindy Pettman, *Worlding Women: A Feminist International Politics* (London; New York: Routledge, 1996); West, ed., *Feminist Nationalism*; Rick Wilford and Robert L. Miller, eds., *Women, Ethnicity and Nationalism: The Politics of Transition* (London; New York: Routledge, 1998); Tamar Mayer, ed., *Gender Ironies of Nationalism: Sexing the Nation* (London; New York: Routledge, 2000), and Syliva Walby, «Gender Approaches to Nations and Nationalism,» in: Gerard Delanty and Krishan Kumar, eds., *The SAGE Handbook of Nations and Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2006).

والأعداد الخاصة من مجلات: *Journal of Gender Studies*, vol. 1, no. 3: *Feminism and Nationalism* (1992); *Feminist Review*, no. 44: *Nationalisms and National Identities* (Summer 1993); *Gender and History*, vol. 5, no. 2: *Gender, Nationalisms and National Identities* (1993); *Women's Studies International Forum*, vol. 19, nos. 1-2: *Links Across Differences: Gender, Ethnicity and Nationalism* (1996), and *Nations and Nationalism*, vol. 6, no. 4: *Gender and Nationalism* (October 2000).

(٥٦) John Hutchinson and Anthony D. Smith, eds., *Nationalism*, Oxford Readers (Oxford; New York: Oxford University Press, 1994), p. 287.

(٥٧) Yuval-Davis, *Gender and Nation*, p. 3.

والدراسات النسوية بتحدّيه، كما تكتب يوفال ـ ديفيز، عبر تسليط الضوء على التقسيم الجنسي للعمل الذي ارتكزت عليه المشاريع القومية، والموقع المزدوج للمرأة بوصفها موضوع المشاريع القومية وغرضها(٥٨).

٣ ـ بارثا تشاترجي ونظرية ما بعد الكولونيالية

من أهم المكتسبات النظرية في العقد الأخير، استكشاف العلاقات بين «أوروبا»، أو «الغرب»، و«الآخر». وليس من المفاجئ أن يستهل هذه العملية باحثون من خارج أوروبا، ولا سيما أعضاء «مجموعة الدراسات الثانوية» الخارجة من رحم الماركسية الهندية(٥٩).

تمثّلت نقطة انطلاق بارثا تشاترجي في انتقاد المناقشات البرجوازية ـ العقلانية (المحافظة أو الليبرالية) والماركسية للقومية التي فشلت في إدراك الخصوصيات المميّزة لبناء الأمّة في عالم ما بعد الكولونيالية. في هذه المناقشات، لا تشكّل القومية خطابًا مستقلًا للعالم اللاأوروبي. وعلى الرغم من وصف كاتب متطوّر ومتعمّق مثل بينيديكت أندرسون قوميات العالم الثالث بأنها «وحدات معيارية مستقلة» في الشكل، اعتمادًا على أكثر من قرن ونصف القرن من التجربة البشرية والنماذج السابقة من القومية، تسأل تشاترجي:

إذا كان على قوميات بقية العالم اختيار مجتمعها المتخيّل من بين أشكال معيّنة من «الوحدات المعيارية المستقلة» التي أتاحتها أوروبا والأميركيتان، فما الذي تُرك لها لتتخيّله؟ يبدو أن التاريخ حكم بأن علينا، نحن في العالم ما بعد الكولونيالي، أن نكون مستهلِكين للحداثة إلى الأبد. فكرت أوروبا والأميركيتان، وهي الموضوعات الحقيقية الوحيدة للتاريخ، بالنيابة عنّا لا في ما يتعلّق بنص التنوير والاستغلال الكولونيالي وحسب، بل

---

(٥٨) Yuval-Davis, «Nationalism, Feminism and Gender Relations,» p. 137, and Sylvia Walby «Gender, Nations and States in a Global Era;» Tricia Cusack, «Janus and Gender: Women and the Nation's Backward Look;» Deniz Kandiyoti, «Guest Editor's Introduction: The Awkward Relationship: Gender and Nationalism;» and Nadje AL-Ali, «Review Article: Nationalisms, National Identities and Nation States: Gendered Perspectives,» *Nations and Nationalism*, vol. 6, no. 4 (October 2000), pp. 529, 545 - 546, 491 and 632 resp.

(٥٩) انظر الإطار الرقم (٥-٣)، ص ٣٢٣ من هذا الكتاب.

بمقاومتنا المناهضة للاستعمار وبؤسنا ما بعد الكولونيالي. حتى تخيّلاتنا يجب أن تبقى مستعمَرة إلى الأبد(٦٠).

يرفض تشاترجي هذه التفسيرات، مؤكدًا أن «أكثر النتائج إبداعًا للمخيّلة القومية في آسيا وأفريقيا لا توضع على هوية بل على فارق مع الأشكال «المعيارية» للمجتمع الوطني الذي ينشره الغرب الحديث». ينشأ هذه الخطأ الشائع عن فهم مزاعم القومية بأنها حركة سياسية فهمًا حرفيًا وأخذها على محمل الجد. لكن، كما يتابع، «مثلما هو التاريخ، تعاني السيرة الذاتية للقومية عيوبًا وشروخًا ونواقص»(٦١).

يحدّد تفسير تشاترجي للقومية في العالم اللاأوروبي ثلاث مراحل، أو «لحظات»: لحظات المغادرة، والمناورة، والوصول. تبدأ لحظة المغادرة بمواجهة بين القومية وإطار المعرفة الذي ابتكره الفكر العقلاني ما بعد التنويري، تؤدّي إلى وعي وقبول، باختلاف ثقافي جوهري بين الشرق والغرب. ومن المعتقد أن الثقافة الأوروبية الحديثة تمتلك سمات وصفات متصلة بالسلطة والقوة والتقدّم، بينما يحكم غياب مثل هذه الصفات والسّمات عن الثقافات «التقليدية» الشرقية على هذه البلدان بالفقر والخضوع. لكن القوميين يزعمون أن هذا التخلّف ليس ثابتًا تاريخيًا؛ إذ يمكن مغالبته بتبنّي السّمات والصفات الحديثة للثقافة الأوروبية(٦٢). في هذه المرحلة، يقسم الفكر القومي عالم المؤسسات والممارسات الاجتماعية إلى مجالين اثنين: مادي وروحي.

المادي هو مجال «الخارج»، الاقتصاد وفن إدارة شؤون الدولة، والعلم والتقانة؛ مجال أثبت فيه الغرب تفوّقًا، وأظهر فيه الشرق تخلّفًا وخضوعًا.

---

(٦٠) Partha Chatterjee: *The Nation and its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories*, Princeton Studies in Culture/Power/History (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993), p. 5, and «The Nation in Heterogeneous Time,» in: Umut Özkirimli, *Nationalism and its Futures* (New York: Palgrave Macmillan, 2003).

(٦١) Chatterjee, *The Nation and its Fragments*, pp. 5-6.

(٦٢) Partha Chatterjee, *Nationalist Thought and the Colonial World: A Derivative Discourse?*, Third World Books (London, UK: Zed Books; Totowa, NJ: US Distributor, Biblio Distribution Center, 1986), pp. 50-51.

ومن ثم، يجب الاعتراف بتفوّق الغرب في هذا المجال ودراسة إنجازاته بعناية ونسخها. من ناحية أخرى، يُعَدّ الروحي مجال «الداخل» الذي يحمل العلامات المميّـزة «الجوهريـة» للهوية الثقافيـة. لذلك، كلّما تعاظـم النجاح في محاكاة المهارات الغربية في المجال المادي، اشـتدت الحاجة إلى الحفاظ على تميّز الثقافة الروحية[٦٣].

الإطار الرقم (٥-٣) بارثا تشاترجي

أسـتاذ العلـوم السياسـية في مركز دراسـات العلـوم الاجتماعية فـي كلكتا، كما يعمل في الوقت نفسـه أسـتاذًا للأنثروبولوجيا في جامعة كولومبيا. هو عضو مؤسـس في «مجموعة الدراسـات الثانوية» النافذة التي حاولت إعادة تفسـير تاريخ مجتمعات جنوب آسيا، ولا سيما الهند، من منظور الخاضعين. أهم مساهماته الرئيسة في ميدان دراسات القومية: *Nationalist Thought and the Colonial World: A Derivative Discourse* (الفكـر القومـي والعالـم الكولونيالي: خطـاب مشـتق) (١٩٨٦)؛ *The Nation and Its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories* (الأمّة وشظاياها: التواريخ الكولونيالية وما بعد الكولونيالية) (١٩٩٣).

يقـول تشـاترجي فـي مقابلـة مـع صحيفة آسـيا سـورس: «لـم أبدأ فعـلًا مهنتي الأكاديميـة بدراسـة القوميـة. حصلت على الدكتـوراه في العلوم السياسـية من جامعة روشسـتر، حيـث درسـت العلاقـات الدوليـة واسـتراتيجيات الحـرب النوويـة. وبعد اسـتكمال أطروحتي مباشـرة، عدت إلى كلكتا، حيث ولدت ونشأت. بدا من الواضح تعـذّر متابعـة العمـل ذاتـه في الهنـد، نظرًا إلى عدم وجـود أحد غيـري يعمل في هذا المجال. في أوائل السبعينيات، اهتم جزء كبير من الأبحاث بالبنى الزراعية والحركات الفلاحيـة. كان الجو برمّته مشـحونًا بالأسـئلة المتعلّقة بطبيعة الدولـة الهندية. وتبدّى لكلكتـا وغـرب البنغال بوضوح لا لبس فيـه، حتى قبل إعلان حالة الطوارئ في الهند (١٩٧٥-١٩٧٧)، وجـه الدولـة الاسـتبدادي فـي حقبـة الانتفاضـة الماويـة (١٩٦٩-١٩٧١) وبعد ذلك مباشـرة. وهكذا انشـغل الناس بالأسـئلة المتعلّقة بعنف الدولة ومسـؤوليات الحركات السياسـية المرتكزة على الفلاحيـن. تلك كانت بالفعل الأسئلة الرئيسة التي أثارتها الحركة الماوية.

هـذا ما بـدأت التفكير فيه. أمّا طريقة الشـروع في الإجابة عن هذه الأسـئلة، مع الأخـذ بالاعتبـار المناهج الشـائعة آنذاك، فكانـت تفحّص السـياق التاريخي. بكلمات

---

(٦٣) Chatterjee, *The Nation and its Fragments*, p. 6.

أخرى، كيف ظهرت الدولة الهندية المستقلة؟ أصبحت الأسئلة المركزية تشمل القصة الكاملة للحركة المناهضة للاستعمار، وكيفية مشاركة الفلاحين الهنود في تلك الحركة وفي تشكيل تلك الدولة. إذًا، هكذا دخلت الميدان. لم تكن القومية تمثّل اهتمامي المباشر؛ بل التاريخ المحدّد لظهور حزب المؤتمر والطريقة التي ضم عبرها الفلاحين إلى الحركة الوطنية. تلك كانت القضية التي شغلتني في نهاية المطاف: ظهور الحركات القومية عمومًا، لكن تحديدًا نوع القومية الذي تبنّاه حزب المؤتمر ووجد ركيزة مؤسسة في المناطق الريفية عبر محاولة تنظيم الفلاحين وضمهم إلى النضال ضد الاستعمار».
«Towards a Postcolonial Modernity: AsiaSource Interview with Partha Chatterjee,» (Asia Source, 2009), on the Web: <http://www.asiasource.org/news/special_reports/chatterjee.cfm>.

وفقًا لتشاترجي، «تعلن القومية المجال الروحي منطقتها ذات السيادة»، وترفض السماح للقوة الاستعمارية التدخّل فيها. لكن ذلك لا يعني أن يترك المجال الروحي على حاله من دون تغيير. بل على العكس، «هنا تطلق القومية مشروعها الأكثر قوة وإبداعًا وأهمية تاريخية: تشكيل ثقافة وطنية «حديثة» تكون مع ذلك غير غربية. فإذا كانت الأمّة مجتمعًا متخيَّلًا، فهنا تظهر إلى حيّز الوجود»[(٦٤)]. لهذا السبب، كما يؤكد تشاترجي، تخاطب النصوص القومية «الشعب» الذي يكوّن الأمّة كما هو مفترض، والسادة الاستعماريين.

بالنسبة إلى الطرفين كليهما، سعت القومية إلى إظهار زيف الزعم الاستعماري بأن الشعوب المتخلّفة عاجزة ثقافيًا عن حكم نفسها في ظروف العالم الحديث. أنكرت القومية الدونية المزعومة للشعوب المستعمَرة؛ كما أكدت أن الأمّة المتخلّفة قادرة على «تحديث» نفسها مع الاحتفاظ بهويتها الثقافية. وبذلك أنتجت خطابًا قبلت فيه، إلى جانب تحديها الزعم الكولونيالي بالحق في الهيمنة السياسية، المقدّمة المنطقية الفكرية لـ«الحداثة» ذاتها التي أُسست عليها الهيمنة الاستعمارية[(٦٥)].

---

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٦ و١٢٠-١٢١، و Chatterjee, *Nationalist Thought and the Colonial World*, pp. 41-42.

(٦٥) Chatterjee, *Nationalist Thought and the Colonial World*, p. 30.

لكن هذا المشروع يتضمّن بالضرورة برنامجًا نخبويًا، لأن التركيبة الثقافية المعنية لا يمكن أن يدركها إلّا المفكرون المتمرسون والمتميزون. أمّا الجماهير، «الغارقة في قرون من الخرافات والدِّين الشعبي اللاعقلاني»، فلا يمكن أن نتوقّع منها اعتناق هذا المثال. والتحوّل يجب أن يأتي من الخارج، عبر «ثورة هادئة سلبية». بينما يتمثّل الهدف النهائي في تأسيس دولة قومية مستقلة سياسيًا. وهذا يتطلب «إيجاد سلسلة من التحالفات، ضمن البنية التنظيمية للحركة الوطنية، بين البرجوازية والطبقات المهيمنة الأخرى وحشد.. الدعم الجماهيري من الطبقات الخاضعة». لا يحاول القوميون التخلص من البنى المؤسسية للسلطة «العقلانية» المقامة في حقبة الحكم الاستعماري أو تغييرها بأي طريقة جذرية، كما يلاحظ تشاترجي. ولا تولي مهمة الهجوم الشامل على الطبقات المهيمنة ما قبل الرأسمالية. بل يسعون إلى تحديد سلطتهم، و«الوصول إلى موقع الحلفاء الثانويين والمساعدين ضمن بنية الدولة التي خضعت للإصلاح». يتحقق ذلك كله في **لحظة المناورة**، وهي مرحلة حاسمة متخمة بالاحتمالات المتناقضة. «تتألف من التعزيز التاريخي لـ«الوطني» عبر انتقاد «الحديث»، والاستعداد للإنتاج الرأسمالي عبر أيديولوجية مناهضة الرأسمالية»[66].

من ناحية أخرى، يمكننا الحديث عن **لحظة الوصول** حين يبلغ الفكر القومي تطوّره الكامل. فهو يصبح الآن خطاب النظام، التنظيم العقلاني للسلطة. «هنا، لا يعبّر عن الخطاب بواسطة صوت مفرد، ومتّسق، وواضح المعالم وحسب، بل ينجح أيضًا في تجاوز التناقضات والانقسامات والاختلافات السابقة كلها». ويحقق فعلًا الوحدة الأيديولوجية للفكر القومي في الحياة الموحّدة للدولة. «الخطاب القومي في لحظة الوصول ثورة هادئة تنطق بتاريخ حياته»[67].

يمكن هذا التفسير أن يساعدنا، كما يضيف تشاترجي، في فهم «الحل القومي لقضية المرأة» في عالم ما بعد الكولونيالية؛ إذ ينبغي ألّا نفسر عدم أهمية قضية المرأة (نسبيًا) في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر بحقيقة أنها انتُزعت من أجندة الإصلاح أو طغت عليها قضايا أخرى أكثر إلحاحًا تتعلّق

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٤٨ - ٤٩ و٥١.

(٦٧) المصدر نفسه.

بالنضـال السياسـي. يكمـن الجواب في نجـاح القومية في تقليـص أهمية قضية المرأة وضمّها إلى المجال الداخلي للسيادة، بعيدًا من النزاع السياسي مع الدولة المسـتعمرة. أمّـا التمييز بين المجاليـن المادي والروحي، فيكثّـف ويُختزل إلى تمييز أصغر لكن أكثر قوة ـ بين الخارجي والداخلي، أو الوطن والعالم:

العالـم خارجي، مجال المادي، بينما يمثّل الوطن الذات الروحية الجوانية، الهويـة الحقيقيـة. العالـم أرض غادرة خطرة للسـعي وراء المصالـح المادية، تطغـى فيها الاعتبارات العمليـة وتهيمن. وهو نمطيًا مجال الذكور. الوطن في جوهـره يجـب أن يبقى منيعًـا أمام تأثيـر النشـاطات الدنيوية المدنّسـة للعالم المادي، والمرأة هي من تمثّله(٦٨).

المطلب الرئيس للقوميين، كما يتابع تشـاترجي، هو الاحتفاظ بالروحانية الداخلية للحياة الاجتماعية المحلية:

البيـت هـو الموقع الرئيـس للتعبير عـن السّـمة الروحية المميـزة للثقافة الوطنية، ويجب على المرأة أن تحمل المسـؤولية الرئيسـة المتمثّلة في حماية هذه السّمة ورعايتها. وبغضّ النظر عن التغييرات في الظروف الخارجية للحياة بالنسـبة إلى المرأة، ينبغـي ألّا تفقد فضائلها الروحيـة الجوهرية (= الأنثوية)؛ بكلمات أخرى، ينبغي ألا تصبح متغربنة جوهريًا(٦٩).

يعنـي هذا ضرورة الحفـاظ على التمييز بيـن الأدوار الاجتماعية للرجال والنسـاء فـي الأوقـات كلّها. ويجـب أن يكون ثمـة فارق واضـح المعالم في الدرجة والأسـلوب لغربنة النسـاء، في مقابل الرجال. ومن ثم، تخضع المرأة «الجديـدة» عنـد القوميين إلى أبويـة (بطركية) «جديـدة». إذن يمكنها الذهاب إلى المدرسـة، واسـتخدام وسـائل المواصلات العامة، بل حتى العمل خارج المنزل ما دامت «أنثويتها» الجوهرية ثابتة ومصونة في ما يتعلّق ببعض السّمات «الروحيـة» المرئيـة ثقافيًا ـ في اللباس وعـادات الأكل والسـلوك الاجتماعي والتقـوى الدينيـة. ولا يمكن العثـور على الدليل الذي يثبـت نضال المرأة في

---

(٦٨) Chatterjee, *The Nation and its Fragments*, p. 120.

(٦٩) Partha Chatterjee, «The Nationalist Resolution of the Women's Question,» in: Kumkum Sangari and Sudesh Vaid, eds., *Recasting Women: Essays in Indian Colonial History* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1990), p. 243.

سبيل المساواة والحرية، كما يلاحظ تشاترجي، في المحفوظات (الأرشيفات) العامة؛ فخلافًا للحركة النسائية في القرنين التاسع عشر والعشرين في أوروبا، لم تشن الحرب هناك في عالم ما بعد الكولونيالية. ومثال المرأة «الجديدة» تحقّق فعلًا في «المنزل»، ولا يمكن اقتفاء التاريخ الحقيقي لذلك التغيير إلّا في السِّيَر الذاتية والتواريخ العائلية والنصوص الدينية والأدب والمسرح والأغنيات، واللوحات الفنية التي تصف بيوت الطبقة الوسطى[٧٠].

كيف يساهم هذا التفسير المحدَّد في فهمنا للقومية؟ يتمثّل أحد الأسباب، كما يؤكد تشاترجي، في أنه يُظهر أن المزاعم الشمولية للتفسيرات الغربية هي نفسها محدودة بالاحتمالات الطارئة للإمبراطورية والقوة العالمية، وأن «الشمولية الغربية»، كما «الاستثنائية الشرقية»، ليست أكثر من شكل محدَّد من وضع تصور ذهني أكثر غنى وتنوعًا لفكرة شمولية. وربما لا يكتفي ذلك بتمكيننا من التفكير في الأشكال الجديدة للمجتمع الحديث، بل في أشكال جديدة للدولة الحديثة أيضًا. الهدف إذًا، كما يختتم تشاترجي، هو «المطالبة من أجلنا، نحن الذين استُعمروا ذات يوم، بحرّية التخيّل. ونحن نعلم جيدًا أن المطالب لا تقدَّم إلّا بشكل نزاعات في مجال السلطة»[٧١].

٤ ـ كريغ كالهون والقومية بوصفها تشكيلًا خِطابيًا

يحدّد كريغ كالهون القومية، في معرض انتقاده ورفضه نزعة معظم التحليلات السائدة إلى «تشييء» الأمم، بأنها «تشكيل خِطابي»؛ «طريقة في الكلام تشكّل وعينا»، لكنها إشكالية بما يكفي استمرارها في توليد الأسئلة، ودفعنا إلى مزيد من الكلام وإنتاج المجادلات في شأن كيفية التفكير فيها[٧٢].

---

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٢٤٧ - ٢٥٠.

(٧١) الإطار الرقم (٥-٣)، ص ٣٢٣ من هذا الكتاب؛ Partha Chatterjee: *The Nation and its Fragments*; «Beyond the Nation? Or Within?,» *Social Text*, no. 56 (Autumn 1998); «On Religious and Linguistic Nationalisms: The Second Partition of Bengal,» in: Peter van der Veer and Hartmut Lehmann, eds., *Nation and Religion: Perspectives on Europe and Asia* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999), and «Empire and Nation Revisited: 50 Years after Bandung,» *Inter-Asia Cultural Studies*, vol. 6, no. 4 (2005).

(٧٢) Craig Calhoun, *Nationalism* (Buckingham: Open University Press, 1997), p. 3.

للاطلاع على مقاربة مشابهة انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

يتطلّب الاعتراف بأمّة تضامنًا اجتماعيًا، أو مستوى من الاندماج بين أعضاء الأمّة المفترضة، كما يؤكد كالهون، لكن التضامن يوجَد في كثير من أنواع التجمّعات والجماعات، بدءًا بالعائلات وانتهاء بالفِرَق الرياضية أو موظفي الشركات، ومن ثم لا يكفي التضامن بحد ذاته لتعريف أمّة. هنا يأتي خطاب القومية. وبوصفه طريقة محدّدة للتفكير في التضامن الاجتماعي، يؤدي دورًا حاسم الأهمية في إنتاج الفهم الذاتي القومي والاعتراف بالمزاعم القومية للآخرين. يستشهد كالهون بعشرة ملامح مميّزة لخطاب الأمّة البلاغي:

- حدود الأرض أو السكان، أو كليهما؛

- عدم القابلية للانقسام والانفصال؛

- السيادة، أو الطموح إلى السيادة، عبر دولة مستقلة عادة ومكتفية ذاتيًا كما هو مفترض؛

- فكرة «مهيمنة» عن الشرعية، أو الفكرة القائلة إن الحكومة عادلة حين تدعم من الإرادة الشعبية؛

- مشاركة شعبية في الشؤون الجمعية؛

- عضوية مباشرة، حيث يشكّل كل فرد جزءًا من الأمّة، ويساوي دون قيد أو شرط الأعضاء الآخرين؛

- ثقافة تشمل بعض التوليفات الجامعة للغة والمعتقدات والقيم المشتركة؛

- عمق زمني، وفكرة أن الأمّة تمتد من الماضي إلى المستقبل؛

- تحدّر (نسب) مشترك أو سمات عرقية مشتركة؛

- علاقات تاريخية خاصة، وأحيانًا مقدّسة، مع أرض محددة[٧٣].

لكن لا تُعَدّ أي من هذه السّمات والملامح حاسمة أو نهائية، كما يضيف كالهون بسرعة؛ فهي مزاعم تُعلَن باسم الأمم. والأمم لا يمكن تعريفها «موضوعيًا»:

---

(٧٣) Calhoun, *Nationalism*, pp. 4-5.

بل إن الأمم تتشكّل غالبًا بالمزاعم نفسها، بطريقة الكلام والتفكير والفعل التـي تعتمـد على هذه الأنواع من المزاعم لإنتاج هوية جمعية، وحشـد الناس وتعبئتهم للمشاريع الجمعية، وتقويم الشعوب والممارسات[٧٤].

بهـذا المعنـى، تعمل آليـة الاعتراف بالأمـم عبر ما دعاه فيتغنشـتاين (Wittgenstein) نمط «التشابه مع الأُسرة»، لا عبر تحديد «الجوهر» المشترك للأمّة. بعض الأقربـاء سيـرث أنف الأُسرة، دون الفك، أو عيونها المتميّزة دون جبينهـا المتميـز؛ «لا يشـترك أعضاء الأُسـرة جميعهم بأي سـمة من السّـمات من دون الاشـتراك بها مع آخرين ليســـوا جزءًا من الأُسـرة». لكن النمط موجود. ومن ثم يتطلّب الاعتراف بالأمّة رجحان هذا النمط، لا تعريفه بشـكل دقيق[٧٥]. أمّا الأمر الحاسـم الذي يجـب فهمه هنا، كما يؤكد كالهون، فهو أن الأمم لا يمكن أن توجَد إلّا ضمن سـياق القومية. «الأمّـة هـي طريقة خاصة في التفكير في ما يعنيه أن يكون الناس شـعبًا». ويساعد الخطاب القومي في صنع الأمم[٧٦].

يفسـر هذا أيضًا حداثة الأمم. ربما يكون تعبير «أمّة» قديمًا، لكنه كان يعنـي ارتبـاط جماعة من الناس بمكان الـولادة أو الثقافة؛ ولـم يكن يحمل أي مضاميـن سياسـية. وربما سـاهمت الأنماط الثقافيـة الموجودة منذ مدة طويلة في تشـكيل الهويات الوطنية، لكن معنى هذه الأنماط وشكلها تغيّرا في الحقبة الحديثة؛ فالقومية، كما يؤكد كالهون، «ليست مجرّد زعم التشابه الإثنـي، بـل هي زعم أن التشـابه الإثني يجـب أن يعتبـر التعريف (بالألف والـلام) للمجتمع السياسـي». ومن ثم فهي تحتاج إلـى حدود ثابتة بطريقة لـم تعهدها الجماعات الإثنية ما قبل الحديثة. كما تزعـم أن الهويات الوطنية تطغـى على الهويـات الأخرى الفردية والجمعية. وفي هذا تغاير صارخ مع الهويات الإثنية التي تنشأ من العضوية في العائلة، ومن القرابة أو غيرها من الجماعـات الوسـيطة. باختصـار، خطـاب القوميـة هـو المهم، ولـم يحتل الخطاب مكانه الراسـخ إلّا بحلول نهاية القرن الثامن عشـر. لبعض عناصر

---

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٥.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٦.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ٩٩.

هـذا الخطـاب تاريـخ أطول خـاص بها، وفـي الحقيقة فإن لبعـض البلدان الحديثة تواريخ تسـبق خطاب القومية؛ لكن «هذه تشـكّل بصورة اسـتعادية بوصفها تواريخ وطنية»(٧٧).

من ناحية أخرى، يحرص كالهون على عدم اختزال القومية إلى عقيدة سياسـية؛ فهذا الـرأي، المميّز لبعـض الحداثيين، مثل غيلنـر وكدوري، لا يوفـي مجموعة الطرائق المتعددة التي تشـكّل عبرهـا القومية حياتنا خارج الاهتمامات السياسية الصريحة حقها. ولذلك فهي ليست مجرّد عقيدة، بل «طريقـة أساسـية للحديـث، والتفكير، والفعـل». وبذلك، لا تفقـد القومية قوّتها إذا تمكّن الباحثون من إظهار أنها «مصطنَعة ومركّبة»، أو تفشـل في تأديـة المهمّـات التـي يُفترض أن تؤدّيهـا. يقول كالهـون، «بوصفها طريقة لتخيّـل المجتمعـات، لا تُعَـدّ مجرّد صحيحـة أو خاطئة. إنهـا طريقة لبناء الحقيقـة الاجتماعيـة الواقعيـة التـي يمكن أن ننـدم عليهـا.. أو نرغب في تغييرهـا، لكنهـا لا تقبل بمجـرّد الأحـكام الصحيحة / الخاطئـة»(٧٨). هذه النقطـة الأخيرة حاسـمة في أهميتهـا، كما يؤكد كالهون فـي كتابه اللاحق الأمم مهمّة (٢٠٠٧)، وذلك مع انتقال مؤلف إثر مؤلف من إظهار الطبيعة المشـيَّدة والمركّبـة والمصطنَعة للفهم الذاتي الوطنـي إلى اقتراح أن الأمم ليست حقيقية إلى حد ما. ربما تكون الأمم، أو التقاليد التراثية التي شُيّدت عليهـا، مختـرَعـة، وربمـا يكـون نقدهـا ضروريّـا، لكـن «مـن سـوء الفهم السوسـيولوجي الاعتقاد بأن حقيقـة الأمم تعتمد على دقة تمثيلاتها الذاتية الجمعية». و«القول إن القومية جزء من المخيال الاجتماعي لا يعني القول إن الأمّـة مجـرّد وهم مهلوس وملفّـق يجب تبديده بمزيـد من التحليلات الواقعية»(٧٩).

---

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٩؛ Craig Calhoun: «Nationalism and Ethnicity,» p. 229, and *Nations Matter: Culture, History, and the Cosmopolitan Dream* (London; New York: Routledge, 2007), pp. 3 and 47.

(٧٨) Calhoun, *Nationalism*, pp. 11-12.

(٧٩) Craig Calhoun: *Nations Matter*, pp. 27 and 40-41; «Nationalism and Cosmopolitanism,» in: Özkirimli, *Nationalism and its Futures*, and «Belonging» in the Cosmopolitan Imaginary,» *Ethnicities*, vol. 3, no. 4 (2003).

والإطار النظري المعروض في الفصل السادس من هذا الكتاب.

الإطار الرقم (٥-٤) كريغ كالهون

رئيس مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية (SSRC) منذ عام ١٩٩٩، وأستاذ العلوم الاجتماعية في جامعة نيويورك. نشر دراسات كثيرة في مختلف مجالات العلوم الاجتماعية. ويمكن العثور على مساهمته في دراسة القومية في كتابيه القومية (١٩٩٧)، والأمم مهمّة (٢٠٠٧). هكذا يجيب كالهون عن سؤال: «ما الذي دفعك إلى دراسة القومية؟»:

«كتبت أول دراسة عن القومية استجابة لطلب من مجلة *The Annual Review of Sociology* بالمساهمة بمقالة حول «الفعل والبنية». أجبت بالقول إنني لا أعتقد أن قول المزيد عن تلك الإشكالية المجرّدة سيكون مفيدًا، لكنني مهتم كثيرًا بمشكلات القومية، وأودّ مراجعة الأدبيات بشأن القومية. كان ذلك، كما أحسب، في كانون الثاني/ يناير ١٩٩١. ردّت المجلة بالقول إن القومية في الجوهر ليست موضوعًا مهمًّا إلى حد كافٍ في علم الاجتماع، وطلبت مني العودة إلى الاقتراح الأصلي. تجادلنا طوال العام، ووافقتْ أخيرًا ما دمت سأكتب عن «القومية والإثنية». وهذا ما فعلت.

كنت مهتمًا بالقومية، لأنها أولًا وقبل كل شيء واضحة من دون لبس في الأزمة اليوغسلافية وفي تفكّك الاتحاد السوفياتي السابق (صُدمت لأن علماء الاجتماع الآخرين لم يُظهروا مزيدًا من الانتباه). ثانيًا، كنت أعمل على دراسة حول حركة الطلاب الصينيين في عام ١٩٨٩، حيث تمثل أحد الموضوعات في الوعي الوطني للطلاب (كنت أقرأ كثيرًا عن القومية الصينية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والحركات ذات الصلة، مع أنني لم أكتب بشكل منفصل عنها قط). لم تحتل القومية واجهة دراساتي المبكرة عن الحركات الاجتماعية، والسياسة الطبقية، والتغير الاجتماعي في القرن التاسع عشر - مع أنني أعتقد الآن أنها يجب أن تحظى بأهمية أكبر. في سياق الأحداث التي جرت بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٢، بدأت إعادة التفكير في أهمية القومية في السياقات السابقة أيضًا. ومن أجل دعم الاستكشافات التي قمت بها، شكّلت فريقًا تدريسيًا حول الأدبيات التي تناولت القومية مع المؤرخ لويد كريمر، وثبت أن الخطة مفيدة جدًا. أعتبر أعمالي المبكرة عن القومية جزءًا من مشروع يعاين أشكالًا مختلفة للتضامن الاجتماعي (ويستكمل عملي السابق حول المجتمع والطبقة). وبالطبع أبقاني الاهتمام بالقومية وتعقيدها مركزًا باستمرار على ذلك، ولم أتحوّل بسرعة كبيرة لدراسة الأبعاد الأخرى كلها للتضامن - مع أن فهمي لها تعمّق كما آمل. يبقى هذا الاهتمام بارزًا في استكشافاتي للكوزموبوليتانية (التنوع والتعدد الثقافي)، وكيف تبرز القومية والأشكال الأخرى من التضامن والانتماء في ما يتعلق بها» (مراسلة شخصية).

يشـير كالهـون أيضًـا إلـى عبثيـة محـاولات تفسـير القومية بمتغيّـر مفرد «رئيس»، بغضّ النظر عمّا إذا كان يتمثل في التصنيع أو في الرأسـمالية أو في الدولـة. ربما تفسّـر هذه العوامل محتويات قوميـات معيّنة أو عمليات محددة مرتبطة بالقومية، لكنها لا تفسّـر شـكل الأمّة أو الخطاب القومي نفسه. وذلك لأنهـا تتصـدّى لـ«موضوعـات التحليـل المتغايـرة العناصـر». «على مسـتوى النشـاط العملي، هنالك كثير من القوميـات المتنوعة». وما يربط مختلف هذه الحـركات والأيديولوجيـات والسياسـات هو شـكل خِطابي يكوّنهـا كلها؛ أمّا العامل المشـترك، العام، فهو خطاب القومية الذي قد لا يفسّر كليًا أي حادث معيّن أو نشاط محدّد، بل يساعد في تكوين كل منهما عبر التأطير الثقافي[٨٠]. يتضمن هذا تعذّر وجود نظرية عامة للقومية، «لكنه لا يعني أن النظرية ليست مطلوبة». «إن التصدي لسؤال مثل: «لماذا تبدو الحركات القومية وكأنها تأتي على شكل موجات؟»»، سوف يتطلّب نظرية مختلفة عن السؤال: «لماذا تتصل الأيديولوجية القومية اتصالًا وثيقًا لا يمكن فصله بالجنسـانية والجندر؟»». ما يجـب فعلـه على الصعيد النظري، كما يختتم كالهـون، هو التصدّي «للعوامل التـي تـؤدي إلى إنتاج مسـتمر وإعادة إنتاج متواصلة للقومية كتشـكيل خطابي مركزي في العالم الحديث»[٨١].

٥ - روجرز بروبيكر والإثنية من دون الجماعات

يشكّل نقد «التشييء» نقطة انطلاق تحليل بروبيكر للإثنية والقومية أيضًا. ويتمثّل الهدف هذه المرة في «الجماعاتية» (Groupism)، أي «النزعة إلى اعتبار الجماعـات المنفصلـة، المتمايزة تمايزًا حادًّا، والمتجانسـة داخليًا، والمترابطة خارجيًـا، مكوّنـات أساسـية للحيـاة الاجتماعيـة، والشـخوص الرئيسـة فـي الصراعات الاجتماعية، والوحدات الجوهرية للتحليل الاجتماعي». في ميدان الإثنيـة والقوميـة، كما يلاحـظ بروبيكر، تشـير «الجماعاتية» إلـى «النزعة إلى التعامـل مـع الجماعـات الإثنية، والأمـم، والأعراق بوصفها كيانـات جوهرية يمكـن أن تُعزى إليها المصالـح والنشـاطات والتنظيمـات»، وإلى التحدّث عن

---

(٨٠) Calhoun, *Nations Matter*, pp. 21-22.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٨ و١٢٣.

الصرب والكروات والمسلمين والترك والكرد كأنما هم جماعة موحَّدة وجمعية من اللاعبين الفاعلين الذين يتقاسمون أغراضًا مشتركة[٨٢].

الإطار الرقم (٥ - ٥) روجرز بروبيكر

أستاذ علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا (في لوس أنجلوس)، كتب الكثير من الدراسات عن النظرية الاجتماعية والهجرة والمواطَنة والإثنية والقومية. تشمل أعماله الرئيسة في ميدان دراسات القومية كتاب *Citizenship and Nationhood in France and Germany* (المواطَنة والأمّة في فرنسا وألمانيا) (١٩٩٢)، وكتاب *Nationalism Refrained: Nationhood and the National (Question in the New Europe)* (إعادة تأطير القومية: الأمّة والمسألة القومية في أوروبا الجديدة) (١٩٩٦)، وكتاب *Ethnicity without Groups* (إثنية من دون جماعات) (٢٠٠٤)، وكتاب *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town* (السياسة القومية والإثنية اليومية في بلدة ترانسلفانية) (مع م. فيشميدت وج. فوكس ول. غرانسيا، ٢٠٠٦).

يقول بروبيكر: «انبثق اهتمامي بالقومية من عملي على موضوعَي الهجرة وسياسة المواطنة في فرنسا وألمانيا. وتعرّفت في هذا العمل، عبر اهتمامي بـ«التقاليد التراثية للأمّة»، إلى الأدبيات التاريخية الغنية التي تناولت باللغة الألمانية «المسألة الوطنية» في وسط وشرق أوروبا وشرقها، بعد أن بدت وثيقة الصلة من جديد فجأة في أواخر ثمانينيات القرن العشرين وأوائل تسعينياته، وذلك مع توحيد ألمانيا وإعادة تشكيل الدول المتعدّدة القوميات السوفياتية واليوغسلافية والدولة التشيكوسلوفاكية الثنائية القومية على طول الخطوط الوطنية. أمّا التحوّلات المهمّة التي حدثت بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩١، وتزامنت بالمصادفة السعيدة مع منحة بحثية أتاحت لي تجديد أدواتي لغويًا (عبر دراسة اللغة الروسية والهنغارية) وتحليليًا (عبر الانهماك في دراسة الأدبيات التي تناولت القومية والإثنية). مصادفة سعيدة أخرى حدثت لي في عام ١٩٩٤ ـ زيارة إلى بلدة كلوج في منطقة ترانسلفانيا الرومانية، حيث استُقبل الخطاب البلاغي الناري للمحافظ الروماني القومي المتحمس بلا مبالاة واسعة من جانب

(٨٢) Rogers Brubaker: «Ethnicity without Groups,» *Archives Europeennes de Sociologie*, vol. 43, no. 2 (November 2002), p. 164; *Nationalism Refrained: Nationhood and the National (Question in the New Europe)* (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), and «Myths and Misconceptions in the Study of Nationalism,» in: John A. Hall, ed., *The State of the Nation: Ernest Gellner and the Theory of Nationalism* (New York: Cambridge University Press, 1998).

يمكن الاطلاع على معظم المقالات الواردة في هذا القسم في: Rogers Brubaker, *Ethnicity without Groups* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004).

الأغلبية الرومانيين والأقلية الهنغارية على حد سواء ـ وهو ما أدّى إلى إعادة شحذ اهتمامي بالقومية. ومع أنني احتفظت باهتمامي بما دعاه تشوك تيللي «البنى الكبيرة والعمليات الواسعة والمقارنات الضخمة»، ازداد اهتمامي بالعلاقة بين السياسة القومية من ناحية، والفهم والتطبيق للرابطة الوطنية وفكرة الأمّة على مستوى الحياة اليومية من ناحية ثانية» (مراسلة شخصية).

بالتغاير مع ذلك، يشير بروبيكر إلى أن النزاع الإثني لا يحتاج إلى أن يُفهم، وفي الحقيقة ينبغي ألّا يُفهم بوصفه نزاعًا بين الجماعات الإثنية. لا ريب في أن المشاركين في هذه النزاعات يمثّلونها بتعابير جماعاتية، وبوصفنا محللين، نحن بحاجة إلى أخذ التصنيفات اللغوية المحلية، وفهم المشاركين على محمل الجد، نظرًا إلى أنها مساهمة في التكوين الجزئي لأغراضنا من الدراسة. «لكن ينبغي ألّا نتبنّى بأسلوب غير نقدي **تصنيفات الممارسة الإثنية ـ السياسية بوصفها تصنيفاتنا للتحليل الاجتماعي**». ينبغي ألّا ننسى أن هذه التفسيرات، ولا سيما تلك التي يقدّمها مروجو الإثنية ـ السياسية الذين ربما يعيشون «بعيدًا» من الإثنية، أو «من أجلها»، ذات طبيعة «أدائية» (= أداء الفعل بمجرّد النطق به):

عبر مناشدة الجماعات، يسعون إلى استحضارها، واستدعائها، وإيجادها.. إن تشييء الجماعات هو بالضبط ما يفعله مروجو الإثنية ـ السياسية. وحين ينجحون، يمكن إدراك القصة السياسية للجماعة الموحّدة في الممارسة إدراكًا لحظيًا لكن قويًا. وبوصفنا محللين، يجب أن نحاول بالتأكيد تفسير الطرائق التي يمكن بها.. لممارسة التشييء هذه أن تنجح. لكن يجب علينا تجنّب مضاعفة أو تعزيز تشييء الجماعات الإثنية من دون قصد عبر تشييء الممارسة الإثنية ـ السياسية في التحليل الاجتماعي[٨٣].

بدلًا من ذلك، كما يتابع بروبيكر، يجب وضع الإثنية والعِرق والأمّة في

(٨٣) Brubaker, «Ethnicity without Groups,» pp. 166-167; Rogers Brubaker and Frederick Cooper, «Beyond «Identity»,» *Theory and Society*, no. 29 (2000), pp. 5-6, and Rogers Brubaker [et al.], *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town* (Princeton: Princeton University Press, 2006), p. 9.

إطار إدراك ذهني «بتعابير علائقية وعملياتية وديناميةوهادفة وتفكيكية». يجب أن نفكر فيها بوصفها «تصنيفات عملية، ومصطلحات ثقافية، وخططًا معرفية، وأُطر خطابية، وممارسات روتينية تنظيمية، وأشكالًا مؤسسية، ومشاريع سياسية، وحوادث طارئة». لكن بروبيكر يُطلق تحذيرًا في هذه المرحلة، مؤكدًا أن إعادة التفكير في الإثنية، أو العِرق، أو الرابطة الوطنية، لا «تشكك في حقيقتها الواقعية، أو تقلّص قوّتها، أو تقلل أهميتها»؛ بل تكتفي بتفسير حقيقتها بطريقة مختلفة[٨٤].

وفقًا لبروبيكر، يمكّننا نقل الانتباه إلى الطبيعة المتغيّرة والطارئة للحالة الجماعاتية من أن نأخذ في الحسبان لحظات التلاحم الاستثنائية والتضامن الجمعي الذي يتكثّف الشعور به من دون التعامل مع مستويات مرتفعة من هذه الحالة باعتبارها مستمرة وثابتة ومثابرة؛ إذ «يتيح لنا التعامل مع الحالة الجماعاتية باعتبارها حادثًا، شيئًا «يحدث»، وفي الوقت نفسه يبقي على قدرتنا على التكيّف مع احتمال ألّا تحدث الحالة الجماعاتية، على الرغم من جهود مروّجي الإثنية ـ السياسية في أوضاع النزاع الإثني ـ السياسي المكثّف على مستوى النخبة. إن الانتباه إلى المحاولات «الفاشلة» للحشد يوسع فضاء الحالات ذات الصلة، ويساعد في تصحيح «الانحياز التشفيري» في الميدان الذي ينزع إلى رؤية العالم من منظور «مبالِغ في الإثنية» ـ أي رؤية الإثنية تشتغل في كل مكان[٨٥].

تسمح لنا هذه المقاربة أيضًا بالتمييز بين الفئات المصنّفة والجماعات، وجعل العلاقة بينهما إشكالية. ومن ثم يمكننا استقصاء درجة الحالة الجماعاتية المرتبطة بفئة معيّنة، والظروف التي يجري فيها إضفاء الصفة الجماعاتية على الفئات. لهذا كله تبعات على أنواع الأسئلة التي نطرحها؛ فالانطلاق من الجماعات، كما يؤكد بروبيكر، يدفعنا إلى السؤال عمّا تريده الجماعات، أو تطالب به، أو تطمح إليه؛ وكيف تفكر في ذاتها وفي الآخرين. أمّا الانطلاق

---

(٨٤) Brubaker, «Ethnicity without Groups,» pp. 167-168.

للاطلاع على مقاربة مشابهة انظر الفصل السادس من هذا الفصل.

(٨٥) Brubaker, «Ethnicity without Groups,» pp. 168 and 174, and Rogers Brubaker and David D. Laitin, «Ethnic and Nationalist Violence,» in: *Annual Review of Sociology* (Palo Alto, Calif.: Annual Reviews Inc., 1998).

مـن الفئـات المصنّفة، من ناحيـة أخرى، فيقودنـا إلى التركيز علـى العمليات والعلاقـات بدلًا مـن المكوّنات المادية. وهذا يدعونا إلـى تحليل كيف توجه التصنيفـات الإثنيـة والوطنيـة التفاعـل الاجتماعـي، وتنظّـم المعرفـة الواقعية والأحكام المنطقية:

يدعونا إلى دراسـة سياسـة التصنيفات: من الأعلـى، الطرائق التي تُقترح عبرهـا التصنيفات، وتُنشـر، وتُفرض، وتُمأسـس، ويُعبَّر عنهـا خِطابيًا، وتُجذّر تنظيميًـا.. ومـن الأسـفل، «السياسـة المصغـرة» للتصنيفـات، والطرائـق التـي تُخصص عبرها الفئات المصنفة، وتُذوّت، وتُخرَّب، أو تتم مراوغة التصنيفات المفروضة عليها أو تحويلها. يدعونا إلى السؤال عن كيفية استخدام التصنيفات الإثنيـة، ولمـاذا، ومـا هـي السـياقات التـي تُسـتخدم ـ أو لا تُسـتخدم ـ فيهـا لاسـتخلاص معنـى منطقي من المشـكلات والمـآزق، والتعبيـر عن الصلات والروابط.. وتأطير القصص والفهم الذاتي[٨٦].

أخيرًا، يسـاعدنا جعل الحالة الجماعاتية إشـكالية فـي تركيز انتباهنا على البُعد المعرفي للإثنية؛ إذ يزعم بروبيكر أن الإثنية والعِرق والأمّة لا توجد إلّا في / وعبر مدركاتنا وتفسيراتنا:

لا توجد أشياء في العالم، بل مدركات عن العالم. تشمل هذه المدركات طرق «مؤثننة» [من الإثنية] للرؤية (والتجاهل)، والفهم (والجهل)، والاستدلال (وعدم الاستدلال)، والتذكّر (والنسيان).. كما تشمل أنظمة التصنيف والتبويب والتعريـف، النظاميـة وغيـر النظامية. إضافة إلـى المعرفة المضمَـرة والمعتبَرة قضيـة مسـلَّمًا بهـا.. التي يـدرك عبرها النـاس ويختبرون الأشـياء، والأماكن، والأشـخاص، والأعمـال أو الأوضاع بوصفهـا مميزة ومعلَّمـة وهادفة إثنيًا أو عرقيًا أو وطنيًا[٨٧].

وفقًـا لبروبيكـر، يمكـن لوجهـات النظـر المعرفيـة مسـاعدتنا فـي تعزيز وتحسـين أجندة البحـث البنائي الذي توقف في الأعـوام الأخيرة، كما يزعم. وبـدلًا من تأكيد أن الإثنية والعِرق والرابطة الوطنية مبنية ومصطنَعة، يمكن أن

(٨٦) Brubaker [et al.], *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town*, pp. 11-12.

(٨٧) Brubaker: «Ethnicity without Groups,» pp. 174-175, and *Ethnicity without Groups*, pp. 77-87.

تساعدنا في فهم كيفية بنائها وصنعها. يمكن أن تساعدنا في تقرير متى وكيف يعرف الناس أنفسهم ويدركون الآخرين بتعابير إثنية أو وطنية لا بغيرها(٨٨). تستطيع أيضًا تصحيح انحياز النخب المميّز لمعظم التنظير البنائي، والإشارة إلى الحاجة إلى دراسة «القواعد الأساسية» لبناء الحقائق الواقعية الإثنية والعرقية والوطنية، وتوفير المفردات المفهومية الضرورية والأدوات التحليلية اللازمة لمشروع كهذا(٨٩).

يُعَدّ آخر كتب بروبيكر حتى الآن، **السياسة القومية والإثنية اليومية في بلدة ترانسلفانية**(٩٠)، محاولة للتخلّص من هذه الحجج بأسلوب تجريبي. وما استحث بروبيكر وأصدقاءه على اختيار بلدة كلوج الترانسلفانية لاختبار حججهم هو ملاحظة أنها لم تشهد قط نزاعًا إثنيا وقوميًا عنيفًا، على الرغم من كونها أرضًا متنازَعًا فيها بين قوميتين متنافستين - هنغارية ورومانية - على مدى أعوام كثيرة. أمّا الاستجابة الفاترة للناس العاديين في البلدة للخطاب البلاغي القومي الحماسي، فلا تدل على أن ليس للإثنية والرابطة الوطنية معنى خارج المجال السياسي. بل على العكس، كما يؤكد المؤلفون، لأن الحياة الاجتماعية تُبنى غالبًا على طول الخطوط الإثنية، والتصنيفات الإثنية والوطنية جزء مهم من التفاعلات اليومية. وهي تجد التجسيد والتعبير في اللقاءات اليومية، والمعرفة المنطقية، والممارسات الروتينية التنظيمية، والأوضاع المؤسسية(٩١). لكن ذلك لا يقول الكثير عن درجة الحالة الجماعاتية التي تتحقق بواسطة هذه التصنيفات. إن «السياسة» القومية بعيدة من مشاغل الرومانيين والهنغاريين اليومية، وحتى عن أولئك المتعاطفين مع الخطاب البلاغي القومي. لا يُعبَّر عن هذه المشاغل بتعابير إثنية إلّا في المناسبات،

---

(٨٨) Brubaker, «Ethnicity without Groups,» p. 175.

(٨٩) Brubaker, *Ethnicity without Groups*, pp. 86-87.

(٩٠) Brubaker [et al.], *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town*, and Zsuzsa Csergo, «Review Essay: Do We Need a Language Shift in the Study of Nationalism and Ethnicity? Reflections on Rogers Brubaker's Critical Scholarly Agenda,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 2 (April 2008).

(٩١) Brubaker [et al.], *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town*, pp. 6-7.

ولا تؤثر «الإثنية كثيرًا في استراتيجيات الاستمرار أو النجاح». الإثنية هي «شكل من التجربة» للناس العاديين في كلوج، وليست «شيئًا، مادة، سمة «يملكها» الشخص؛ وهي ليست ظاهرة مستمرة، بل متقطعة، وتحدث في لحظات معيّنة وسياقات محددة(٩٢).

على سبيل المثال، تحدث عندما يعي الناس - غالبًا عبر اللغة المحكية، أو اللهجة، أو الاسم - إثنية الأجنبي، وحين يؤثر ذلك الوعي في مسار تفاعلهم. تحدث عندما تُستحضر الإثنية لتفسير عمل أو موقف، ومحاسبة الآخرين بوصفهم هنغاريين أو رومانيين، والمطالبة بالتمتع بوضعية العضو الداخلي المطّلع على بواطن الأمور.. وتحدث عندما تُختبر العلاقات الاسمية داخل الإثنية بين الأصدقاء أو الجيران أو الزملاء أو الأزواج بوصفها داخل الإثنية في لحظات معيّنة(٩٣).

الإثنية والتصنيفات الوطنية، كما يختتم المؤلفون، «ليست كلّية الوجود ولا كلّية الصلة؛ وحين توجد لا تكون دومًا بارزة أو نشطة». يمكن حشد العواطف الحماسية، لكن ليس بصورة دائمة ولا بطريقة آلية. كما يمكن للارتباطات الإثنية والوطنية أن تكون قوية، لكنها ليست دومًا كذلك، «ولا حتى في أوضاع النزاع الإثني - السياسي الحاد على مستوى النخبة». والنزاع، كما يكتبون، «لا يتعلق بمدى أهمية الإثنية، بل بكيفية عملها»:

هنا، تُعَدّ دراسة التجربة اليومية جوهرية.. ففي نهاية المطاف يُضفى معنى على الإثنية والرابطة الوطنية، في / وعبر التجربة اليومية - كما في النزاع السياسي والتعبير الثقافي - وتنتَج الاثنتان ويعاد إنتاجهما بوصفهما من التصنيفات الأساسية للحياة الاجتماعية والسياسية(٩٤).

---

(٩٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٩٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٢، التشديد من الأصل.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ٣٦٣ - ٣٦٤، و Brubaker, *Ethnicity without Groups*, p. 87.

ثانيًا: نقد المقاربات الجديدة

تعرّضت في العقد الأخير المقاربات الحديثة والمقدّمات المنطقية الجوهرية التي أُسست عليها لهجوم متزايد من تشكيلة متنوعة من وجهات النظر. سوف أناقش في ما يأتي الانتقادات الرئيسة التي وجّهت إلى المقاربات الجديدة، بدءًا ـ مرة أخرى ـ من الاعتراضات العامة.

١ ـ لا يمكن للمقاربات الجديدة أن تفسّر العواطف الحماسية التي تولّدها القومية

إن الاعتراض المعياري الإثني ـ الرمزي على النظريات الحداثية موجّه ضد المقاربات الجديدة أيضًا، حيث يجدها أنصار الإثنية ـ الرمزية تنويعًا على الحداثة. يؤكد سميث أن هذه المقاربات «تفترض وجود نسخة أو أخرى من النموذج (الباراديم) الحداثي، ثم تسعى إلى أن «تتجاوز» في حقبة/ و«مرحلة» تطوّر الظواهر نفسها». تعاني المقاربات كلها نقصًا في العمق التاريخي؛ كأنما «دخلت المسرحية في الفصل الثالث.. لتفترض نسخة من السيناريو الحداثي للفصلين السابقين»[٩٥]. ليس كافيًا للنخب القومية ادّعاء امتلاك ماضٍ «مفترض» أو شعب، كما يكتب سميث في مراجعته لكتاب كالهون القومية؛ «من أجل جعل الادّعاء مقْنعًا، لا بد من وجود مكوّنات «موضوعية» («ذاتية» في الحقيقة) في ماضي تلك المنطقة لا تزال تجمع السكان معًا وتميّزهم من الأجانب إلى حد ما»[٩٦].

هنالك أيضًا نقص في الصلابة السوسيولوجية في هذه التفسيرات، وذلك وفقًا لسميث؛ فهي تتعامل مع الأمة، كما يؤكد، بوصفها «نصًا سرديًا أو مصنوعةً ثقافية، حالما تُفكّك تتحلّل إلى أجزائها الإثنية التكوينية؛ أو يرفض أمثال روجرز بروبيكر، من ناحية أخرى، أي فكرة عن الأمّة بوصفها مجتمعًا حقيقيًا». لماذا يستمر هذا العدد الكبير من الناس، كما يسأل سميث، في ربط

---

(٩٥) Anthony D. Smith, *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998), pp. 218 and 220.

(٩٦) Anthony D. Smith, «Book Review: *Nationalism*,» *British Journal of Sociology*, vol. 49, no. 3 (September 1998), p. 500.

أنفسهم بأممهم ويستعدون للتضحية بحياتهم في سبيلها ـ حتى بعد أن «جرى تفكيكها بواسطة دعاة ما بعد الحداثة؟». في رأي سميث، مثلما رأينا في الفصل السابق، الجواب صريح ومباشر:

حتى إذا كان التصوير ما بعد الحداثي للبشرية المعاصرة بوصفها «ما بعد عاطفية» وتمتلك «شخصيات مختلطة» تصويرًا معقولًا ومقبولًا، تبقى الحالة المتمثّلة في استعداد ملايين البشر، حتى وقت قريب، للتضحية بممتلكاتهم وأرواحهم في سبيل «الدفاع عن الوطن الأُم»، ولا يزالون إلى اليوم على موقفهم في كثير من أصقاع العالم(٩٧).

٢ ـ المقاربات الجديدة جزئية ومتشظّية

يأتي هذا الانتقاد أيضًا من سميث الذي يزعم أن المقاربات الحديثة، باستثناء بعض التحليلات النسوية، لا تحاول كشف الآليات التي تتشكّل بواسطتها الأمم والقومية وتنتشر؛ ومن ثم، لا يمكنها تفسير أي أمم ظهرت وأين، أو لماذا توجد أمم وقوميات أصلًا. «فهي تنير زاوية من اللوحة العريضة، وتترك البقية في ظلام دامس». وتلك عاقبة لنزعة ما بعد الحداثة إلى «مناهضة التأسيس»، كما يقول سميث. لكن في غياب نظرية واضحة لها، لا بد من أن تعتمد على بعض من السرديات الشاملة الكبرى القائمة. وفي ما يتعلق بنظرية الأمم والقومية، لا يمكن لذلك أن يمثّل سوى تراجع عن التقدم الذي أحرزته الحداثة(٩٨).

إن هذا النقد لا ينطبق على كالهون وحسب، الذي يرفض صراحة إمكان وجود نظرية «عامة» عن القومية، بل ينطبق أيضًا على بروبيكر وزملائه الذين يؤكدون، اعتمادًا على فيبر، أن «المدى الواسع والنسيج السببي المتنافر للظواهر المجمعة تحت عناوين الإثنية والقومية.. يحوّلان أي جهد لبناء نظرية عامة إلى إشكالية»(٩٩). الفكرة التي تقول بعدم إمكانية وجود نظرية عامة عن القومية لها

---

(٩٧) Anthony D. Smith: *The Nation in History: Historiographical Debates about Ethnicity and Nationalism* (Cambridge: Polity, 2000), pp. 61-62, and *Chosen Peoples* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2003), p. 265, note 3.

(٩٨) Smith, *Nationalism and Modernism*, pp. 219-220.

(٩٩) Brubaker [et al.], *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town*, p. 357.

أصول بعيدة ولا تنحصر بالتأكيد ضمن ما يدعوه سميث «ما بعد الحداثيين»[١٠٠]. وفي الحقيقة، مثلما سنرى في الفصل اللاحق، تشكّل الفكرة واحدة من الحجج الأساسية في هذا الكتاب أيضًا. وهذه نقطة أشار إليها أيضًا داي وتومبسون اللذان يزعمان، في مسح حديث قاما به للجدل النظري، أن «المنظّرين ما بعد الكلاسيكيين سلّطوا الضوء على أبعاد مهمّة من القومية التي لم يقر المنظّرون الكلاسيكيون بها بشكل كافٍ.. المنظّرون الذين ساهموا ضمنًا في إعادة إنتاج فكرة الأمّة بوصفها جماعة بشرية موحدة»[١٠١]. باختصار: ربما يكون من الأفضل إنارة زاوية من اللوحة، بدلًا من تركها كلها غارقة في ظلام دامس.

٣ ـ المقاربات الجديدة تبالغ في انحطاط الأمم والقومية

عبّر عن هذا الانتقاد طيف واسع من الباحثين والأكاديميين، من دعاة الإثنية ـ الرمزية، إلى المتعاطفين مع المقاربات الحديثة. ووفقًا لووكر (Walker)، ينبثق الانتقاد من غياب الوضوح عن تفكير ما بعد الحداثيين: هل يقترحون سلسلة من الافتراضات المتعلقة بحالة العالم أم يكتفون بالتعبير عن رغباتهم ـ حيث يختلط الافتراضي والحقيقي والمعياري؟[١٠٢]. لكن، مثلما يعي ووكر ذاته، لا ينطبق هذا الانتقاد التقليدي على المنظّرين الذين راجعنا أعمالهم في هذا الفصل. على سبيل المثال، يؤكد بيليغ أن «المرء يمكن أن يأكل طعامًا صينيًا غدًا وتركيًا بعد غد؛ بل يستطيع أن يلبس بحسب الزي الصيني أو التركي. لكن ليس من الخيارات المتاحة تجاريًا أن يكون صينيًا وتركيًا»[١٠٣]. يذكّرنا أحدث عمل لكالهون بالأهمية المستمرة لحالات التضامن الوطني، ويُعَدّ انتقادًا لـ«التعدديات الثقافية (الكوزموبوليتانيات) الموجودة فعليًا»[١٠٤]؛ ويصدر منظّرو الحقبة ما بعد الكولونيالية تحذيرًا إثر تحذير من أن

---

(١٠٠) انظر على سبيل المثال: Sami Zubaida, «Theories of Nationalism,» in: G. Littlejohn [et al.], eds., *Power and the State* (London: Groom Helm, 1978), and John Breuilly, «The State and Nationalism,» in: Guibernau and Hutchinson, eds., *Understanding Nationalism.*

(١٠١) Day and Thompson, p. 196.

(١٠٢) Walker, p. 627.

(١٠٣) Billig, ed., p. 139.

(١٠٤) انظر: Calhoun: «Nationalism and Cosmopolitanism;» «Belonging» in the Cosmopolitan Imaginary,» and *Nations Matter: Culture, History, and the Cosmopolitan Dream.*

الإمبراطورية ليست ميتة[١٠٥]، مع ملاحظة المدى الذي تستمر فيه المراكز الكوزموبوليتانية للاقتصاد العالمي في تشغيل البنى الاستعمارية الجديدة في ما يتعلّق بباقي أرجاء العالم[١٠٦].

٤ ـ بيليغ يبالغ في قوة «القومية المبتذَلة»

اعتمادًا على العمل الميداني في كلوج، يؤكد بروبيكر وزملاؤه أن الرابطة الوطنية لا تصبح دومًا تصنيفًا منتشرًا وثيق الصلة في الحياة اليومية للناس العاديين الذين يلجأون بانتظام إلى التصنيفات اللاإثنية واللاوطنية للتعبير عن أنفسهم. ولا تعيد القومية المبتذَلة بالضرورة تطبيق السياسة القومية؛ فهنالك انقطاع بين تحويل الإثنية والقومية إلى موضوع في المجال السياسي، كما يؤكدون، والتجربة والأداء في الحياة اليومية[١٠٧].

تأتي ملاحظة مشابهة من داي وتومبسون اللذين يعتقدان أن بيليغ يبالغ في حماسته وتشوقه لتصحيح سوء الفهم الناتج من الاعتقاد بأن القومية لا توجد إلّا في ظروف استثنائية وبأشكال متطرفة. «نفضّل القول إننا نحمل هوياتنا الوطنية على الدوام، ونحتفظ بمصطلح «قومية» لتعابير أكثر وضوحًا عن أفكار المصالح الوطنية والمصائر الوطنية»[١٠٨].

٥ ـ لا يمكن تجنّب اللغة «الجماعاتية»

يشير عدد من المعلّقين، ومنهم أولئك المتعاطفون مع مشروع بروبيكر النظري، إلى صعوبة تجنّب التعابير «الجماعاتية». وليس من الواضح كيف يمكن الابتعاد من الخطاب «الجماعاتي»، كما يؤكد ماليسيفيتش في مراجعته لعمل بروبيكر، «عند التعامل مع مادة تجريبية معيّنة أو عند محاولة نشر المعرفة بين جمهور أعرض، غير أكاديمي»:

يصعب جدًا الاستمرار في الإشارة، مثلًا، إلى «مجموعة متعدّدة من

(١٠٥) Chatterjee, «Empire and Nation Revisited: 50 Years after Bandung».

(١٠٦) Walker, p. 627.

(١٠٧) Brubaker [et al.], *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town*, p. 363.

(١٠٨) Day and Thompson, p. 99.

الأفراد والمنظمات التي تسعى وراء مشروع سياسي محدّد عبر استحضار البولندية كفكرة»، بل كثيرًا ما يكون ذلك مزعجًا إحصائيًا. وحتى بروبيكر نفسه ليس منيعًا ضد هذا الانزلاق إلى اللغة الجماعاتية حين يشير غالبًا في عمله التجريبي.. إلى «ناس» أو «ناس عاديين».. إلى «العنف بين الألمان والفرنسيين»[١٠٩].

ما ليس واضحًا هنا هو لماذا لا تحوّل تعابير «جماعاتية» مثل «ناس» أو «مجتمع»، إلى إشكالية مثل «جماعة إثنية» أو «أمّة» أو «هوية»، كما يسأل ماليسيفيتش. قد تؤدي زيادة التشديد على الواجهة المفهومية إلى الخلط بين الشكل والجوهر[١١٠]. لقد وجّه الانتقاد ذاته إلى كتاب بروبيكر اللاحق. ومثلما يلاحظ سيرغو (Csergo)، فإن التصنيفات الجماعية مثل «هنغاريين» أو «رومانيين» تظهر بانتظام في النص[١١١]. يعترف بروبيكر وزملاؤه بأنهم يستعملون أحيانًا هذه التعابير بأسلوب تعميمي، لكنهم يشدّدون على أنهم يشيرون إلى «مجموعات من أعضاء الفئة المصنّفة، ولا سيما أولئك الأشخاص الذين يعرّفون أنفسهم، إذا سئلوا عن إثنيتهم أو جنسيتهم الإثنية، بأنهم هنغاريون أو رومانيون». فضلًا عن أن ذلك لا يقول الكثير، كما يضيفون، عن بروز الارتباطات الإثنية ـ الوطنية مقارنة بالارتباطات الأخرى[١١٢]. لكن هؤلاء الرافضين ليسوا مقْنعين بما فيه الكفاية، ولا سيما إذا تذكّرنا تحذيرات بروبيكر المتكررة من أخطار الاستخفاف بتصنيفات المشاركين. يمضي سيرغو خطوة أبعد ويؤكد أن استخدام مثل هذه التعابير الجماعاتية قد يدفع القارئ إلى الظن بأن الكتاب يفشل في الوفاء بوعده بتقديم «مثال عملي جيّد عن اللغة الأكاديمية اللاجماعية لأن الانتقال إلى المفردات اللاجماعية غير ممكن ولا مفيد بالضرورة»[١١٣].

---

(١٠٩) Brubaker Rogers, «Book Review: *Ethnicity without Groups*,» Reviewed by Siniša Malešević, *Nations and Nationalism*, vol. 12, no. 4 (October 2006), p. 700.

(١١٠) المصدر نفسه.

(١١١) Csergo, p. 395.

(١١٢) Brubaker [et al.], *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town*, p. 12.

(١١٣) Csergo, p. 395.

٦ ـ المقاربات البنائية ليس لها سوى قيمة تفسيرية محدودة

إن الانتقـاد الأخيـر الموجّـه ضـد التحليـلات البنائية عمومًـا، وعمل كالهون على وجه الخصوص، يتعلق بالقدرة التفسـيرية النسـبية للمقاربات التي تشـدّد علـى الطبيعة «المبنيـة اجتماعيًا» للأمم والقوميـة. ويزعم داي وتومبسـون أن عبء هذه المقاربات يتمثّل في أن القومية ليست فريدة في هـذا السـياق؛ إذ يمكـن للمنظـور التحليلـي نفسـه أن يطبّـق بنجـاح على وضعيات أخرى من الارتباط الجمعي، مثل العِرق أو الإثنية أو الجنسـانية أو الجندر[114]. لكن ليس من الواضح كيف يؤثر ذلك في حظوظ النظرية البنائيـة، بغـضّ النظر عن إظهار حقيقة أنها فـي الحقيقة أداة تحليلية قوية. وإذا كان خطـاب القوميـة مسـؤولًا عن الأمـم والقومية، فيجـب علينا إذًا استكشـاف الظـروف التـي ينبثق في ظلها، كما يسـأل هيكتر فـي مراجعته لكتاب كالهون القومية[115]. على نحو مشابه، يؤكد داي وتومبسون، اعتمادًا علـى كاسـتيلز (Castells)، أن مـا يهـم أكثر هو «كيف، ومن أين، وبواسـطة مـن، ولماذا» تُبنى الهويات، ومنها الهويات الإثنية والوطنية[116]. يبدو هذا الانتقـاد فـي غير محله حين يتعلّق الأمر بعمـل كالهون، نظرًا إلى أنه يبذل جهدًا مضنيًا لإظهار كيف انبثق الخطاب القومي. لكن الفكرة العامة تبقى صحيحـة وصائبـة؛ ما يجب فعلـه، لتعزيز الأجندة البنائية، هو القيام بسـبر أعمـق لعمليـة بناء الأمـم والقومية، وتحديـد الآليات التي تسـتدام عبرها، وعلى القدر ذاته من الأهمية، تواجَه بالمقاومة أو التحدّي. وهذا هو هدف الفصل الآتي.

---

(١١٤) Day and Thompson, p. 103.

(١١٥) Michael Hechter, «Book Review: *Nationalism and Community of Citizens*,» *Contemporary Sociology*, vol. 28, no. 5 (1999), pp. 589-590.

(١١٦) Day and Thompson, p. 107.

مراجع إضافية

أفضل نقطة انطلاق لكل مهتم بالمقاربات الحديثة للقومية هي المقدمة الممتازة لكتاب إيلي وسوني التحوّل إلى أمة:

Geoff Eley and Ronald Grigor Suny, eds., Becoming *National: A Reader* (New York: Oxford University Press, 1996).

من المراجع المفيدة الأخرى: Jyoti Puri, *Encountering Nationalism*, 21st-Century Sociology; 6 (Malden, MA: Blackwell, 2004); Graham Day and Andrew Thompson, *Theorizing Nationalism*, Consultant Editor Jo Campling (Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2004), chaps. 1 and 5 esp.; Umut Özkirimli, *Contemporary Debates on Nationalism: A Critical Engagement* (Houndmills, Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2005), chaps. 3 and 7 esp., and R. Walker, «Postmodernism,» in: Alexander J. Motyl, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, 2 vols (San Diego, Calif.; London: Academic Press, 2001), vol. 1.

في ما يتعلق بإعادة إنتاج القومية، انظر كتاب بيليغ المبتكر والرائد قومية مبتذلة، وكتاب باليبار (Balibar) الكلاسيكي *The Nation Form* (شكل الأمّة): Michael Billig, ed., *Banal Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: Sage, 1995), and Etienne Balibar, «The Nation Form: History and Ideology,» *New Left Review*, vol. 13, no. 3 (Summer 1990).

من النصوص المفتاحية المتعلقة بالجندر (النوع الاجتماعي) والأمّة: Nira Yuval-Davis and Floya Anthias, eds., *Woman-Nation-State*, Consulting Editor Jo Campling (Houndmills; Basingstoke; Hampshire: Macmillan, 1989) and Nira Yuval-Davis, *Gender and Nation*, Politics and Culture (London; Thousand Oaks, Calif.: Sage Publications, 1997).

في هذا السياق، يجب على القارئ الاطّلاع على: Cynthia Enloe, *Bananas, Beaches and Bases: Making Feminist Sense of International Politics* (London: Pandora, 1989); Anne McClintock, «No Longer in a Future Heaven,» in: Eley and Suny, eds., *Becoming National: A Reader*; Tamar Mayer, ed., *Gender Ironies of Nationalism: Sexing the Nation* (London; New York: Routledge, 2000), and *Nations and Nationalism*, vol. 6, no. 4: *Gender and Nationalism* (October 2000).

بالنسبة إلى القوميات ما بعد الكولونيالية انظر: Partha Chatterjee: *The Nation and its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories*, Princeton Studies in Culture/Power/History (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993), and *Nationalist Thought and the Colonial World: A Derivative Discourse?*, Third World Books (London, UK: Zed Books; Totowa, NJ: Distribution Center, 1986).

بالنسبة إلى القوميات ما بعد الكولونيالية بوصفها «تشكيلًا خطابيًا»، انظر:
Craig Calhoun: *Nationalism* (Buckingham: Open University Press, 1997), and *Nations Matter: Culture, History, and the Cosmopolitan Dream* (London; New York: Routledge, 2007).

وللاطّلاع على «مناهضة الجماعاتية»، أي على تحليل علائقي وعملياتي للإثنية والقومية، انظر: Rogers Brubaker, *Ethnicity without Groups* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004), and Rogers Brubaker [et al.], *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town* (Princeton: Princeton University Press, 2006).

بالنسبة إلى النقد الرمزي ـ الإثني للمقاربات الحديثة، انظر: Anthony D. Smith: *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998), esp. chap. 9, and *The Nation in History: Historiographical Debates about Ethnicity and Nationalism* (Cambridge: Polity, 2000), pp. 61-62 esp.

يمكن الاطّلاع على مزيد من الانتقادات «البنائية» للمقاربات الحديثة في:
Walker, «Postmodernism»; Day and Thompson, chap. 5 esp.; Brubaker Rogers, «Book Review: *Ethnicity without Groups*,» Reviewed by Siniša Malešević, *Nations and Nationalism*, vol. 12, no. 4 (October 2006), and Zsuzsa Csergo, «Review Essay: Do We Need a Language Shift in the Study of Nationalism and Ethnicity? Reflections on Rogers Brubaker's Critical Scholarly Agenda,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 2 (April 2008).

الفصل السادس

فهـم القوميـة

أولًا: نقد الجدل النظري بشأن القومية

حين قدم ووكر كونور ورقة بحث بعنوان «متى ظهرت الأمة؟» في مؤتمر حول «الهوية الوطنية ما قبل الحديثة والحديثة في روسيا / الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية» في كلية الدراسات السلافية والأوروبية الشرقية في عام ١٩٨٩، لم يكن في مقدوره أن يتنبأ بأن هذا السؤال البسيط سيصبح خط الانقسام الرئيس للجدل النظري حول القومية في الأعوام اللاحقة. «يبدو أن المقالة اجتذبت قدرًا مفاجئًا من الاهتمام في أوساط كلّية لندن للاقتصاد»، كما يتذكر كونور في ما بعد. لماذا؟ لا يعرف: «مع المخاطرة في محاكاة شخصية يورايا هيب (Uriah Heep) المخادعة والمنتقصة من قدر الذات [في رواية ديكنز ديفيد كوبرفيلد]، فإن المقالة لا تستحق مثل هذه الاهتمام»، كما يكتب[1].

في الحقيقة، صحيح أن سؤال «متى ظهرت الأمّة؟» ظلّ سؤالًا مركزيًا ناظمًا للجدل النظري المعاصر بشأن القومية، كما تشهد «محتويات» معظم النصوص التمهيدية عن القومية[2]، إلا أنه من الصعب جدًا تجاهل تشكّك كونور. ما الذي يجعل سؤال «متى ظهرت الأمة؟» على هذه الدرجة من

(١) Walker Connor, «The Timelessness of Nations,» in: Monserrat Guibernau and John Hutchinson, eds., *History and National Destiny: Ethnosymbolism and its Critics* (Oxford: Blackwell, 2004), p. 35.

(٢) انظر على سبيل المثال: Jonathan Hearn, *Rethinking Nationalism: A Critical Introduction* (Houndmills; Basingstoke; Hampshire, [England]; New York: Palgrave Macmillan, 2006); Atsuko Ichijo and Gordana Uzelac, eds., *When Is the Nation?: Towards an Understanding of Theories of Nationalism* (Milton Park Abingdon, Oxon; New York: Routledge, 2005); Anthony D. Smith, *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism* (London; New York: Routledge, 1998), and G. Uzelac, «When Is the Nation? Constituent Elements and Processes,» *Geopolitics*, vol. 7, no. 2 (Fall 2002), p. 35.

الأهمية؟ وفقًا لسميث، يرفع السؤال الغطاء عن قضية أصول الأمم، ويكشف أهميتها «لفهم مكان الأمّة في التاريخ وفي العالم المعاصر»[٣]. لكن كونور نفسه لا يوافق. «لا أشعر بأن قضية «متى ظهرت الأمّة» تحظى بأهمية مفتاحية»، كما يقول، لأن أمم هذه الأيام، بمعنى من المعاني المهمّة، تتحدّى التواريخ والمواقيت. «لا تستمد الهوية بقاءها من حقائق بل من مدركات؛ لا من تاريخ واقعي / مرتّب زمنيًا، بل من تاريخ عاطفي / شعوري»، كما يؤكد. ومهما يقُل المؤرخون، تصبح الأمم في المدركات الشعبية «أبدية»، «وفي ما وراء الزمن»[٤].

سوف أقدّم الحجّة، باتّباع خطى كونور وعدد آخر من المعلّقين، على أن هذا السؤال غير مهم، لثلاثة أسباب. أولًا، ليس من الممكن تحديد تاريخ أصول الأمم بصورة يقينية لأننا نتحدث عن عمليات تاريخية، لا عن حوادث محدّدة. ومثلما يشير غورسكي (Gorski)، «يصعب تثبيت نقطة البداية، لأن الدليل يعود إلى هذا المدى من الزمن الغابر، ولأنه يصبح أقلّ حسمًا كلّما أوغلنا في القِدم»[٥]. ثانيًا، يعتمد الجواب عن هذا السؤال اعتمادًا كبيرًا على كيفية تحديد «الأمّة». ومثلما ناقشنا بصورة مستفيضة في الفصلين الثاني والرابع، فإن أولئك الذين يعرّفون الأمم بوصفها ظاهرة «نخبوية» قادرون على اكتشاف الأمم في الحقب ما قبل الحديثة، مع التشديد على إحساس بالتميّز الثقافي، بينما يؤكد أولئك الذين يعدّون الأمم ظاهرة «جماهيرية» بأننا لا نستطيع الحديث عن أمم قبل الحقبة الحديثة، إلى أن يبدأ عدد كبير من الناس تقديم مطالب «سياسية» على أساس هذا الإحساس بالتميّز الثقافي. ونظرًا إلى أن من المستبعد أن يأتي منظرو القومية بتعريفات متّفق عليها في أي وقت قريب، فإن سؤال «متى ظهرت الأمّة؟» لا بد من أن يبقى من دون جواب. ثالثًا، حتى وإن تمكّنا من التحقّق من تاريخ أصول الأمم، كيف يمكن ذلك أن يساهم في فهمنا

---

(٣) Anthony D. Smith, «When Is a Nation?,» *Geopolitics*, vol. 7, no. 2 (Autumn 2002), p. 68.

(٤) Connor, p. 45, and John Breuilly, «Dating the Nation: How Old Is an Old Nation?,» in: Ichijo and Uzelac, eds., p. 48.

(٥) Philip S. Gorski, «Pre-Modern Nationalism: An Oxymoron? The Evidence from England,» in: Gerard Delanty and Krishan Kumar, eds., *The SAGE Handbook of Nations and Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2006), p. 154.

للقوميــة؟ مثلمــا يلاحــظ ديلانتــي(G. Delanty) وأوماهونــي (P. O'Mahony)، فإن سـؤال هل وجِدت أمم في العصور ما قبل الحديثة ربما يكون سـؤالًا مثيرًا في حـد ذاتـه، لكن ليس مـن الواضح «بأي طرائق يجب أن يكـون وجود مثل هذه الأمم ما قبل الحديثة مهمًّا للأمم الحديثة، حتى لو تأكدت الاستمرارية»[٦].

تؤثـر هـذه المشـكلات تأثيرًا مباشـرًا فـي التقسـيم الثلاثي المسـتخدم لتصنيف النظريات المعاصرة بشـأن القومية. ومثلما رأينا في الفصل السابق، فـإن هـذا التصنيـف الـذي شـهره أنتونـي د. سـميث، إن لـم يبتكره، يقسـم النظريـات والمقاربـات القائمـة حول الأمّة إلـى فئات مختلفة فـي ما يتعلّق بالإجابة التي تقدّمها لسـؤال «متى ظهرت الأمة؟». على وجه العموم، يعتقد أتباع النظريات البدائية والمتواترة أن الأمم يمكن أن توجد في العصور كلّها (بالنسـبة إلـى بعض أنصار النظرية البدائية تُعَدّ الأمـم في الحقيقة «خالدة»)؛ ويربـط الحداثيون الأمم مع التحوّلات التـي أوجدتها الحداثة، ويؤكدون أن مـن غيـر الممكن الحديث عن أمـم قبل الحقبة الحديثة؛ أخيـرًا، يزعم أتباع المقاربـة الإثنيـة ـ الرمزية أن الأمم وجِدت في عصـور التاريخ كلها، مع أن القوميـة، باعتبارهـا أيديولوجيا وحركـة حديثة. من الواضـح أن قضية تاريخ أصول الأمم ليسـت مسـألة تتعلق بالترتيـب الزمني، وتتطلّب مـن المنظّرين الانخراط في جملة من الأسئلة الأخرى الأكثر ارتباطًا بالسوسيولوجيا ـ «ما هي الأمّة؟»، «هل يمكن أن توجَد أمم قبل القومية؟»... إلخ. ومع ذلك، فإن منطق التصنيف مؤسَّس على سؤال «متى».

لكن فئات التقسـيم الثلاثي والتصنيفات المستخدمة لوصف كل فئة إنما هـي اعتباطيـة إلى حد بعيـد؛ إذ يعتمد تصنيـف نظرية محـدّدة أو كاتب معيّن ضمـن فئـات موجودة اعتمادًا كبيـرًا على من يقوم بعملية الفرز؛ فأرمسـترونغ يُعتبـر مـن دعـاة «التواتـر» فـي نظر سـميث، ومـن أنصـار «الإثنية» فـي رأي هتشينسـون، ومبشـرًا بنظرية «الإثنية ـ الرمزية» في آراء آخرين. أمّا هاسـتينغز، فصنّـف فـي فئات أنصار «البدائية» و«التواتر» و«الإثنيـة ـ الرمزية»، بينما اعتُبر

---

(٦) Gerard Delanty and Patrick O'Mahony, *Nationalism and Social Theory: Modernity and the Recalcitrance of the Nation*, New Horizons in Sociology (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2002), p. 83.

كونـور «حداثيًا» و«بدائيًا». أكثر من ذلك، لا يعبّر التصنيف بشـكل دقيق دومًا عن أعمال المنظّرين المعنيين، ومن ثم يمكن أن يضلّل بدرجة خطيرة. أشرت سـابقًا إلى خطـأ تصنيف كليفورد غيرتز في فئة أنصـار النظرية «البدائية»، لأنه فـي الحقيقـة يتحدث عن مبـادئ «مفترَضـة» أو «مدرَكة» للحيـاة الاجتماعية. الشيء ذاته ينطبق على منظّرين من أمثال كونور أو غرينفيلد أو هروش، الذين تدمج أعمالهم مختلف المواقف النظرية التي تمثّلها هذه التصنيفات المتصلّبة. وبهذا المعنى، فإن من المؤشرات الدلالية أن قلّة قليلة من المنظّرين المعنيين يقبلـون التصنيفـات المسـتخدَمة لوصـف أعمالهـم. ومثلمـا يذكـر مكـرون (McCrone) فـي مراجعتـه لكتـاب سـميث **القومية والحداثة**، مـن الصعب رؤية أمثـال بروبيكـر وتشـاترجي وبيليغ مسـتعدّين لقبول تصنيفهم فـي فئة «ما بعد الحداثييـن». ففـي رأي مكرون، يُعَدّ «تصميم سـميث على حشـر الكتّاب في السـرير الذي صنعه لهم» واحدة من نقاط ضعـف كتابه في الحقيقة[٧]. تتفاقم المشكلة أكثر نتيجة تغيُّر مواقف المنظّرين المعنيين. مرة أخرى، لاحظنا كيف غيّر نيرن، الحداثي في سـبعينيات القرن العشـرين، موقفه وانتقل إلى الجانب الآخر في أعوامه المتأخرة، وبدأ يسمّي نفسه «نصير النظرية البدائية الجديدة».

الأهم ربما أن التقسيم الثلاثي يتجاهل التنويعات الداخلية في كل فئة؛ فقلّة قليلـة من دعاة النظريـة البدائية «الأكاديميين» تؤيد الأطروحـة القومية بأن الأمم وجِدت من الأزل؛ ويصعب على أنصار نظرية التواتر قبول الزعم، المميّز لبعض «البدائييـن» بـأن الأمم جزء طبيعـي من الحالة الإنسـانية. ولا تجمـع الحداثيين عوامـل مشـتركة كثيـرة باسـتثناء الاعتقاد العـام بأهميـة العمليـات الحديثة، مثل الرأسـمالية والتصنيع والتمديـن والعلمانية ونهوض الدولـة البيروقراطية مع نمو الأمـم والقوميـة. وتؤكـد (القلـة مـن الأكاديميـة) العوامـل المختلفـة، وأحيانًـا المتناقضة تناقضًا حادًّا، في تفسيراتهم، وتبقى من أشد المنتقدين لأعمال بعضهم بعضًـا. يبـدو دعاة الإثنية ـ الرمزية أكثر تجانسًـا من الفئتين الأخريين؛ لكن ذلك لا يُعَـدّ مفاجـأة نظرًا إلـى أن قلة قليلة مـن المنظّرين يسـتعملون التعبير لوصف عملهم، باسـتثناء سـميث وهتشينسـون. وعلى أي حال، ومثلما سـأبيّن بالحجّة

---

(٧) David McCrone, «Book Review: *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism*,» *British Journal of Sociology*, vol. 51, no. 2 (June 2000), p. 397.

بمزيد من التفصيل لاحقًا، ليس من الواضح هل يجب التعامل مع الإثنيين - الرمزيين بوصفهم فئة مستقلة، بدلًا من دمجهم مع أنصار نظرية التواتر.

تصبح مشكلات التقسيم الثلاثي أكثر وضوحًا حين نُجري عملية سبر في عمق الفئات نفسها، ونأخذ بالاعتبار المزاعم النظرية التي يُفترض أن تساعدنا في التمييز بين مختلف الفئات. ربما نبدأ من النظرية البدائية ونسأل: هل تُعَدّ الفئة «البدائية» مفيدة تحليليًا؟ في رأي غروسبي، «ما تدركه النظرية البدائية هو أن كل شيء معروف تاريخيًا وأنثروبولوجيًا عن البشر يشير إلى وجود ارتباطات بدائية على الدوام»، على الرغم من التنويعات في شكل هذه الارتباطات[8]. ويعتقد هيرن (Hearn) أن دعاة النظرية البدائية يشجعوننا على التفكير في الاستمرارية بين هذه الارتباطات والقوميات المعاصرة[9]. من جهة أخرى، يرى سميث أنها تكشف مواطن ضعف التفسيرات الأدواتية التي تبالغ في تقدير أهمية دور استغلال النخب وتأثيرها في تفسير القومية. والأهم أنها تركّز انتباهنا على العواطف والمشاعر المكثفة التي تستحضرها الإثنية والقومية التي كثيرًا ما يفشل الحداثيون في التعامل معها[10]. هذا أيضًا هو رأي إيشيجو (Ichijo) وأوزيلاك (Uzelac) اللذين يؤكدان، في مقدمتها للجدل النظري حول القومية مؤخّرًا، أن مقاربات الحداثيين عاجزة عن التعامل مع قضية العاطفة والولاء بصورة مباشرة[11].

أختلف مع هذا الرأي. أولًا، ربما كانت الارتباطات البدائية سمة متواترة للوضع الإنساني، لكن كيف تتصل هذه الارتباطات بالأمم الحديثة؟ تشير النظرية البدائية فعلًا إلى القوة المستمرة للارتباطات الإثنية، لكنها لا تفسر كيف / ولماذا. وبهذا المعنى، ومثلما يعترف سميث نفسه، لا تخبرنا الكثير عن أصول الأمم وشكلها الثقافي[12]. ومثلما سأبرهن

---

(8) Steven Grosby, «Primordiality,» in: Athena S. Leoussi, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, Consultant Advisor Anthony D. Smith (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001), p. 253.

(9) Hearn, p. 43.

(10) Anthony D. Smith: *The Nation in History: Historiographical Debates about Ethnicity and Nationalism* (Cambridge: Polity, 2000), p. 25, and *The Cultural Foundations of Nations: Hierarchy, Covenant and Republic* (Malden, MA: Blackwell Pub., 2008), p. 10.

(11) Ichijo and Uzelac, eds., p. 54.

(12) Smith, *The Cultural Foundations of Nations*, p. 10.

بمزيـد من التفصيل لاحقًا، توافـرت الصلة بين الارتباطات البدائية والأمم الحديثة بواسطة الجدل «الحديث» عن القومية؛ إذ تأخذ القومية ارتباطات موجودة مسـبقًا وتسبغ عليها أهمية سياسـية. لكن النظرية البدائية لا تسأل أبدًا عن أي ارتباطات يتم اختيارها من التاريخ، وأيّها تهمل، وأي مصالح واهتمامات تخدم عبر هذا الاختيار، أو كيـف تفرض نتيجة عملية الاختيار على السكان «المصمّمين» ليكونوا الأمّة الموعودة. بل تكتفي بافتراض أن الارتباطـات المختـارة هي المهمّة؛ هـي التي يتردّد صداهـا بين أعضاء ما يُـدرك فـي وقت متأخر، بعد وقوع الحادث، بأنه «أمّة» محدّدة. لا تتصدّى النظرية أبدًا لقضايا السلطة / القوة، أو السياسة عمومًا، ولا تهتم ولا تقلل من تأثير دور الاحتمال الطارئ والتعدّدية والتناقض والغموض في تشكيل الأمـم، وتتعامى عن الصراعات من أجل الهيمنة كما تتعامى عن المقاومة والتمرّد والتكيّف، والتسـويات والمشـاريع الفاشـلة لبناء الأمم. باختصار، تشجّعنا النظرية البدائية على التفكير في الاستمرارية بين الماضي والحاضر، لكنها لا تزوّدنا بالأدوات لفعل ذلك، وتتجاهل بكل بساطة احتمال «عدم الاستمرار» و«الانقطاع».

ثانيًا، ليس صحيحًا أن الحداثيين فشـلوا، أو لا بد من أن يفشـلوا، في التصـدّي للعواطـف مباشـرة؛ فالعواطـف في الحقيقـة هي مفتـاح الدوافع البشرية: العواطف «محفّزة للفعل؛ جوهرية ومهمة لتعريف الذات، للتفكير في من نحن ومن هو «الآخر»؛ وهي مشـاركة في الروابط الاجتماعية التي تكوّن الجماعات، بل مجتمعات برمّتها، أو أممًا ربما»[١٣]. هنالك مجموعة متنامية من الأعمال التي كتبها متخصصون بعلم النفس والتحليل النفسـي، وغيرهم من العلماء الاجتماعيين، لاستكشاف الدور الذي تقوم به العواطف في الارتباطات الجمعية وعملية صنع القرار[١٤]. على أي حال، إذا اختُزلت

---

(١٣) Ronald Grigor Suny, «Why «We Hate You»: The Passions of National Identity and Ethnic Violence,» (Unpublished Paper, 2006), p. 3.

(١٤) انظر على سبيل المثال: المصدر نفسه؛ Stephen Reicher and Nick Hopkins, *Self and Nation: Categorization, Contestation, and Mobilization* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2001); Lauren Langman, «The Social Psychology of Nationalism: To Die for the Sake of Strangers,» in: Delanty and Kumar, eds., *The SAGE Handbook of Nations and Nation alism*, and D. Kecmanovic, «Nationalism and Mental Health: A Critique of Greenfeld's Recent Views of Nationalism,» *Nationalism and Ethnic Politics*, vol. 13, no. 2 (2007).

النظرية البدائية إلى مقاربة تلفت الانتباه إلى العواطف القوية التي تستحضرها القومية، فإن مساهمتها طفيفة وسطحية، لأن ذلك يُعَدّ من نواحٍ كثيرة حقيقة بديهية. وفي الواقع، يعتمد مجال دراسات القومية برمّته علىٰ هذه الحقيقة البديهية؛ ولن ندرس الأمم أو القومية إذا لم تستحضر هذه العواطف الجياشة، أحيانًا إلى نقطة التضحية بالنفس. أمّا المشكلة في النظرية البدائية فتكمن في أنها لا تفسر هذه العواطف؛ بل تكتفي بافتراضها. وبهذا المعنى، تُعَدّ النظرية البدائية «لاتاريخية»، وإلى حد ما «لاسوسيولوجية»[15]. وليست مفيدة باعتباره فئة تحليلية لأنها بالضبط تفتقد المكوّن التحليلي.

حين ننتقل إلى الفئة الثانية من التقسيم الثلاثي، «الإثنية ـ الرمزية»، يدهشنا أول وهلة الارتباط بين المزاعم الإثنية ـ الرمزية والنسخة المعتدلة من البدائية، أو نظرية «التواتر» (Perennialism) التي تتعامل مع الأمم (والقومية في بعض الأحيان) بوصفها سمة جوهرية في الحياة البشرية على مدى التاريخ المدوّن. يحرص سميث، أحد أبرز أنصار الإثنية ـ الرمزية، على التمييز بين مقاربته والنسخة الفجّة من البدائية، ويؤكد أن الإثنية ـ الرمزية «تعتقد أن المجتمعات الإثنية والأمم ظاهرة تاريخية. فهي لا توجد «في الطبيعة»، وليست جزءًا من الظرف الإنساني»[16]. لكن حين يتعلّق الأمر بنظرية التواتر، ولا سيما نوعها «المتكرّر دوريًا» الذي يحدده سميث بأنه مقاربة تعتبر الأمّة «فئة من الرابطة البشرية يمكن أن توجَد في كل مكان على مدى التاريخ»، تصبح المحافظة على الفوارق والاختلافات أكثر صعوبة[17]. في عمله المتأخر، يذكر سميث:

خلافًا لمبدأ الحداثيين، يمكننا أن نجد دليلًا يثبت العمليات العامة لتشكيل الأمم، وبعض المصادر الثقافية والركائز التأسيسية المقدسة للرابطة الوطنية، في الحقب ما قبل الحديثة، بدءًا من العالم القديم. ويمكن تبيّن عدد

---

(١٥) قارن: Jack Eller and Reed Coughlan, «The Poverty of Primordialism: The Demystification of Ethnic Attachments,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 16, no. 2 (April 1993).

(١٦) Anthony D. Smith, «The Genealogy of Nations: An Ethno-Symbolic Approach,» in: Ichijo and Uzelac, eds., p. 122.

(١٧) Smith, *The Nation in History*, pp. 34-35.

مـن هذه المصادر، في مصر مثلًا، في الهيـكل الثاني (في الضفة الغربية)، في أرمينيا المسيحية في الحقبة المبكرة[18].

«بـرزت فئـة الأمّـة على مراحـل «مدةً طويلـة» لتصبح مرئية في السـجل التاريخـي فـي أجزاء مـن العالم القديـم، وتعـاود الظهور في أواخـر العصور الوسـطى»[19]. في موضع آخر، يميّز بين الأمم «القديمة» و«الحديثة»، «لا في مـا يتعلّـق بالترتيب الزمني التاريخي وحسـب، بل سوسـيولوجيًا أيضًا ـ حيث يكمن الفارق الرئيس في المدى الذي يُعتبر عنده الأعضاء مواطنين متساوين». مع هذه الشروط والمحددات، يتابع:

أعتقـد أن فـي مقدورنـا إظهار وجود الأمـم وحيويتها في الضفـة الغربية (يهـودا) وأرمينيـا القديمتيـن، وربما في فارس الساسـانية، إضافة إلـى اليابان وكوريـا وإنكلتـرا في القرون الوسـطى. في هـذه الأمثلة كلّهـا، نجد مجموعة سـكانية من البشـر تحتل أرضًا تاريخية، أو «الوطن الأم»، وتتقاسـم أسـاطير، ورموزًا، وذكريات، وتمتلك ثقافة عامة متميزة (مع أنها غير منظّمة أو معايَرة)، وحقوقًـا وواجبات مشـتركة لكثيريـن من الأعضاء (الذكور عـادة) إن لـم يكن جميعهم، على الرغم من فهم ذلك بتعابير دينية[20].

في عمله المتأخّر، يمضي سميث خطوة إضافية ويؤكد أن عددًا من عناصر «القومية» ظهرت قبل القرن الثامن عشـر بوقت طويل، وأن «في الإمكان العثور على نوع معيّن من القومية الشـعبية والمحلية في بعض دول القرن السابع عشر، مثـل إنكلتـرا واسـكتلندا وهولندا ـ وربما في أماكن أخـرى أيضًا». ويتطلب هذا بدوره تعديل الترتيب الزمني التاريخي الحداثي للقومية، إضافة إلى الأمم[21].

فـي ضـوء هـذه الملاحظـات، ليس مـن الواضـح لمـاذا يجـب التعامل مع الإثنيـة ـ الرمزيـة والتواتر بوصفهمـا فئتين منفصلتين؛ فمـا يوحدهما هو الاعتقاد

---

(١٨) أضفنا التشديد، Smith, «The Genealogy of Nations,» p. 104.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٠٩، أضفنا التشديد.

(٢٠) أضفنا التشديد، Anthony D. Smith: «History and National Destiny: Responses and Clarifications,» in: Guibernau and Hutchinson, eds., *History and National Destiny*, p. 66, and The *Nation in History*, pp. 42-51.

(٢١) Smith, *The Cultural Foundations of Nations*, p. x.

بـ«مثابرة» الروابط الإثنية والوطنية و«استمراريتها» و«ديمومتها». وتؤكد المقاربتان كلتاهما أن المواد الثقافية ما قبل الحديثة التي تشكّل أساس الثقافات الوطنية الحديثة «تميل إلى أن تكون متينة وثابتة إلى حد استثنائي تحت مظلة التغيّرات «العادية» ومستمرة بإلحاح على مدى أجيال عدة، بل حتى قرون»، واضعة حدودًا لمحاولات النخبة الاستغلالية[٢٢]. ربما تكون القومية حديثة (مثلما رأينا للتو، لم يَعُد أنصار الإثنية ـ الرمزية حريصين على هذه النقطة أيضًا)، لكنها ليست «حادثًا طارئًا»؛ وكل قومية مشيَّدة حول تقاليد تراثية إثنية «محدّدة». بكلمات أخرى، هنالك «جوهر» إثني / وطني («مجمع أسطوري ـ رمزي») يكمن تحت كثير من القوميات المعاصرة إن لم يكن كلّها. وهذا بالتحديد يُجبر كثيرين من الناس في شتى أنحاء العالم على التضحية بحياتهم في سبيل أممهم.

تعاني الفئة الأخيرة من التقسيم الثلاثي، أي «الحداثة»، مشكلات مشابهة. ومثلما أشرت سابقًا، تُعَدّ هذه الفئة أكثر من الفئتين الأخريين تجانسًا، وتضم شخصيات مثل لياه غرينفيلد وميروسلاف هروش اللذين يعودان بأصول الأمم الحديثة إلى العصور الوسطى. الاختلاف لا يتعلق بالترتيب الزمني التاريخي وحسب؛ ففي رأي غرينفيلد، لا تُعَدّ الأمّة «منتجًا» من منتجات الظروف الحديثة، لكنها «المسبّب» للحداثة؛ فالقومية هي التي حدّدت الحداثة وشكّلتها[٢٣]. وبالأسلوب نفسه، يؤكد هروش أن العلاقات والروابط الموضوعية التي كوّنت أساس الأمم الحديثة تطلّبت قرونًا لتتشكّل. أمّا عملية تشكّل الأمة، كما يضيف هروش، فمرّت بمرحلتين متميزتين، بدأت الأولى في أثناء العصور الوسطى[٢٤]. ولا يمكن التقليل من أهمية الاختلافات ضمن فئة «الحداثة» واعتبارها مجرد شجار ثانوي. فالفئة ذاتها، وبطاقة الاسم الملصقة عليها، تسببان الغموض والتشويش ولا توضحان الكثير.

---

(٢٢) Anthony D. Smith, *The Ethnic Origins of Nations* (Oxford, UK; New York, NY: B. Blackwell, 1986), p. 16.

(٢٣) انظر: Liah Greenfeld: *Nationalism: Five Roads to Modernity* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1992), and «Modernity and Nationalism,» in: Delanty and Kumar, eds., *The SAGE Handbook of Nations and Nationalism.*

(٢٤) Miroslav Hroch, «Real and Constructed: The Nature of the Nation,» in: John A. Hall, ed., *The State of the Nation: Ernest Gellner and the Theory of Nationalism* (New York: Cambridge University Press, 1998), p. 94.

باختصار، يُعَدّ تصنيف مختلف المقاربات النظرية وحشرها ضمن فئات التقسيم الثلاثي الضيقة «مسعى سخيفًا»، أو بكلمات ووكر كونور، «أكثر قليلًا من تمرين على الشتم الأكاديمي»[(٢٥)]. في بعض الأحيان، يؤدي هذا الجهد إلى ابتكار تعابير تقترب من حد العبث والطيش. ولذلك، يتحدث سميث، في محاولة لتمييز موقفه عن موقف الحداثيين وأنصار التواتر، عن «أمم حديثة قومية المرتكز»، و«أمم سابقة ما قبل قومية»، وجدت في العصور الوسطى أو القديمة[(٢٦)]. محاولة مشابهة يمكن العثور عليها في آخر كتب روشفالد (Roshwald)، حيث يميز بين «القومية ما قبل الحديثة» و«القومية الحديثة». يدرك روشفالد أن هذا قد يبدو مثل «لعبة لفظية لا معنى لها»، لكنه سيتيح لنا - كما يؤكد - مقارنة ومغايرة القوميات ما قبل الحديثة والحديثة ضمن إطار مشترك من دون اقتراح أنها متماثلة[(٢٧)]. لكنني لا أرى كيف يمكن لهذه التمايزات أو الألفاظ الجديدة أن تزيد من فهمنا للقومية في مجال متخم أصلًا بالتصنيفات. ربما كان التصنيف ضروريًا في البداية، لوضع نظام لميدان دراسات القومية الواسع والمتنامي بسرعة، واستخلاص معنى منطقي من الفوارق الواهية بين الآراء النظرية. لكن هذه التمايزات تثير اليوم أسئلة أكثر من الأجوبة. لقد حان الوقت لتجاوز التصنيفات والتسميات، والتصدي للقضايا الحقيقية التي تثيرها هذه النظريات.

ثانيًا: ملامح عريضة لمقاربة نظرية للقومية

هل يمكن أن توجَد نظرية «شاملة» للقومية، أي نظرية تحدّد مجموعة من العوامل التي تفسّر نهوض القومية في كل قارة، وفي كل عصر، والشكل الذي تأخذه، ولماذا تأخذ ذلك الشكل؟ يجيب سامي زبيدة قبل عقود عدة عن هذا السؤال بالنفي، مشيرًا إلى تنوّع وتنافر الحركات والأيديولوجيات التي تصنّف في فئة «القومية». من الممكن طبعًا إظهار أن هذه القوميات المتنوّعة، كما

(٢٥) Ichijo and Uzelac, eds., p. 125.

(٢٦) Anthony D. Smith, *Nationalism: Theory, Ideology, History*, Key Concepts (Malden, Mass.: Polity Press, 2001), p. 118.

(٢٧) Aviel Roshwald, *The Endurance of Nationalism: Ancient Roots and Modern Dilemmas* (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), pp. 11-12.

يؤكد زبيدة، تشتغل ضمن ميدان أيديولوجي مشترك. لكن يتعذّر على نظرية سوسيولوجية للقومية أن تكتفي بتحديد التجانس الأيديولوجي للقوميات، بل تستلزم أيضًا تجانسًا سوسيولوجيًا؛ فهناك «بنى وعمليات اجتماعية مشتركة تكمن خلف الظاهرة الأيديولوجية / السياسية»[28]. وقد قبِل عدد من المنظّرين البارزين والنافذين هذا الرأي منذ ذلك الحين. وهكذا، يرى كالهون أن «القومية خطاب بلاغي للتحدّث عن أشياء مختلفة كثيرة بحيث يصعب على نظرية واحدة تفسيرها»:

لماذا تهيمن القومية في تلك الأماكن والبيئات التي تهيمن فيها - أو بالنسبة إلى بعض الناس دون غيرهم - ضمن المجموعة الوطنية المزعومة من السكان؟ سؤال لا يمكن غالبًا الإجابة عنه إلّا ضمن سياقات محدّدة، مع المعرفة بالتاريخ المحلي، وبطبيعة سلطة الدولة (والنخب فيها)، وما هي الحركات المحتملة والفعلية التي تتنافس على كسب الولاء[29].

باتّباع أثر مكرون، يمكن أن نخطو بذلك كلّه خطوة إضافية ونسأل: «لماذا نحتاج إلى نظرية عامة عن القومية أصلًا؟». على الرغم من كل شيء، لا يتوقّعنّ أحد، كما يذكّرنا مكرون، أن يتوصل دارسو الطبقات الاجتماعية مثلًا إلى نظرية عامة، ولا أن يؤدي هذا الافتقار إلى الإجماع النظري إلى ندرة في الأبحاث التجريبية المصمَّمة لاختبار مختلف النظريات. وكما يختتم مكرون، «تبدو سوسيولوجيا القومية حاليًا محمَّلة بعبء ثقيل من الجدل الاصطلاحي - بل اللامتناهي - المناسب ربما للطلاب الذين يكتبون المقالات، لكنه لا يمثّل دليلًا لمن يريدون إجراء تحليل سوسيولوجي للقومية»[30].

---

(28) Sami Zubaida, «Theories of Nationalism,» in: G. Littlejohn [et al.], eds., *Power and the State* (London: Groom Helm, 1978), p. 56.

(29) Craig Calhoun, *Nationalism* (Buckingham: Open University Press, 1997), pp. 8 and 25; Rogers Brubaker [et al.], *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town* (Princeton: Princeton University Press, 2006), p. 357; John Breuilly «The State and Nationalism,» in: Montserrat Guibernau and John Hutchinson, eds., *Understanding Nationalism* (Cambridge: Polity; Malden, MA: Blackwell, 2001), p. 49, and Smith, «The Genealogy of Nations,» p. 123.

(30) David McCrone: «Book Review: *Nationalism and Modernism*,» p. 397, and *The Sociology of Nationalism: Tomorrow's Ancestors*, International Library of Sociology (London; New York: Routledge, 1998), p. 171.

لا يعني ذلك طبعًا ضرورة التخلّي عن محاولات التنظير كلها. ربما نحاول في الحقيقة صوغ نظريات «جزئية» قد تسلط الضوء على الجوانب والملامح المختلفة للقوميات، أو نبتكر إطارًا نظريًا يمكن استخدامه لدراسة قوميات معيّنة. سوف أحاول في ما يأتي تقديم لمحة عامة عن إطار تحليلي كهذا، إطار يحدد الخطاب البلاغي الشائع للمخيال القومي، لكن من دون تجاهل السمات المميّزة والصفات الفريدة لكل قومية. ومثلما سيتضح لاحقًا، لا تنشأ الأفكار التي تشكل أساس هذا الإطار من فراغ. وأدين بالفضل لفوكو وغرامشي كما سيظهر من دون لبس؛ فمع أنهما لم يكتبا كثيرًا عن القومية، فإنني أعتقد، مثل ستيوارت هول (S. Hall)، أن مفاهيم الاثنين لا تزال مفيدة لمحاولتنا التفكير الشامل في كفاية مناسق (باراديمات) النظرية الاجتماعية الموجودة في هذه المجالات[٣١]. من ناحية أخرى، يعتمد الإطار النظري الذي أقترحه اعتمادًا شديدًا على أفكار منظّري القومية المعاصرين أيضًا، ولا سيما تلك التي يشملها عنوان «مقاربات جديدة»، وسوف أشير إليها كلّما كان ذلك مناسبًا. أخيرًا، يجب اعتبار اللمحة العامة التي أقدّمها «عملية مستمرة» لا خطة نهائية مكتملة.

من المعتاد بدء أي محاولة للتنظير بتقديم تعريفات للتعابير المفتاحية: «الأمّة» و«القومية» في هذه الحالة. أعتبر «الأمّة» رمزًا متعدّد المعاني، «تتنافس عليها جماعات مختلفة تناور وتحاول اقتناص تعريفها وتأثيراتها المشرعنة»[٣٢] ومن ثم أخالف معظم المنظّرين الكلاسيكيين الذين حاولوا تقديم تعريفات «موضوعية» أو «ذاتية» (أو تجمع الاثنتين معًا) للأمّة. هنالك استثناءات لكل لائحة من العوامل الموضوعية التي يفترض أن تكوّن الأمّة، كما تتغير الأهمية النسبية لعوامل معيّنة بمرور الزمن، ومن أمّة إلى أخرى. ومثلما أشار بارث بملاحظته الشهيرة قبل عقود عدة، فإن ما يهم ليس الفوارق «الموضوعية» التي تميّز بين التجمّعات الثقافية، بل تلك التي يعتبرها اللاعبون المعنيون

---

(٣١) Stuart Hall, «Gramsci's Relevance for the Study of Race and Ethnicity,» in: David Morley and Kuan-Hsing Chen, eds., *Stuart Hall: Critical Dialogues in Cultural Studies*, Comedia (London; New York: Routledge, 1996), p. 416.

(٣٢) Katherine Verdery, «Whither «Nation» and «Nationalism»?,» *Daedalus*, vol. 122, no. 3 (1993), p. 39.

أنفسهم مهمّة. بهذا المعنى، من الأفضل النظر إلى الجماعات الإثنية والوطنية بوصفها «أنماطًا تنظيمية»، حيث يشكّل الأفراد بمناورة استراتيجية بارعة هويتهم الثقافية عبر التشديد على / أو التقليل من شأن مؤشرات معيّنة وفقًا للسياق[٣٣]. من ناحية أخرى، لا تميّز العوامل الذاتية الأمّة من التجمّعات الاجتماعية والثقافية الأخرى التي ننتمي إليها. أمّا التضامن والوعي بالذات والولاء، فتميّز كلها الكثير من الجماعات الأخرى، من العائلة والجماعات الدينية إلى الجمعيات التطوعية؛ وربما تمثّل شرط الحد الأدنى في تعريف الأمّة، لكنها بحد ذاتها لا تكوّن الأمم.

من ثم، أمتنع عن تعريف «الأمّة» عمدًا كي لا أسقط في فخ «التشييء» والتعامل مع «فئات الممارسة» بوصفها «فئات التحليل»[٣٤]. أعتقد، اقتداءً بسيغال وهاندلر (Segal and Handler)، بأننا نفقد توازننا حين نأخذ تعابير من الحياة الاجتماعية ونتعامل معها باعتبارها مفاهيم تحليلية، بدلًا من سبر أو استكشاف معانيها المشروطة واستخداماتها الطارئة (وربما أضيف المتشعبة)[٣٥]. إن الهويات والارتباطات، الوطنية أو غيرها، «ليست أشياء نفكر فيها بل أشياء نفكر بواسطتها. وبذلك، لا توجد خارج نطاق سياستنا، وعلاقاتنا الاجتماعية، وتواريخنا»[٣٦].

إن ما يهم أكثر بالنسبة إلى أغراض الإطار النظري الذي وضعته هو «القومية» ـ ويعود جزء من السبب إلى أن القومية هي التي تحدّد الأمم وتعرّفها. أتعامل مع القومية باعتبارها «خطابًا»، طريقة معيّنة لرؤية العالم

(٣٣) Fredrik Barth, ed., *Ethnic Groups and Boundaries: The Social Organization of Culture Difference (Results of a Symposium Held at the University of Bergen, 23rd to 26th February 1967* (Boston: Little, Brown & Co., 1969), pp. 14-15.

(٣٤) Rogers Brubaker, *Ethnicity without Groups* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004), and Rogers Brubaker [et al.], *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town* (Princeton: Princeton University Press, 2006).

(٣٥) Daniel A. Segal and Richard Handler, «Cultural Approaches to Nationalism,» in: Delanty and Kumar, eds., p. 61.

(٣٦) John R. Gillis, «Introduction: Memory and Identity: The History of a Relationship,» in: John R. Gillis, ed., *Commemorations: The Politics of National Identity* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), p. 5.

وتفسيره، إطارًا مرجعيًا يساعدنا في استخلاص معنى منطقي وبناء الواقع المحيط بنا. أستعمل «الخطاب» بالمعنى الذي أشار إليه فوكو بوصفه «ممارسات تشكّل بطريقة منهجية الأشياء التي تتحدث عنها»[٣٧]. وقبل مناقشة هذا التعريف بالتفصيل، تجدر الإشارة إلى أنني لست الوحيد الذي يشتغل على مثل هذا الإدراك الذهني للقومية. إذ رأينا آنفًا أن القومية في رأي كالهون «تشكيل خِطابي»؛ «طريقة في القول تشكّل وعينا»[٣٨]؛ من ناحية أخرى، يرى ديلانتي وأوماهوني أنها «مساحة لفظية، تعبّر بواسطة خطابات متعدّدة عن الأنواع الكثيرة من المشاريع والهويات، والاهتمامات والأيديولوجيات التي تشكّلها»؛ «طريقة لرؤية العالم»[٣٩]؛ وفي رأي هول، «تُعَدّ الثقافة الوطنية خطابًا ـ أي طريقة لبناء المعاني تؤثر في أفعالنا ومفهومنا عن أنفسنا وتنظمها في آن معًا»[٤٠]. يتحدث سوني عن «ما وراء السرد» أو «خطاب الأمّة»؛ عن «جملة الأفكار والأفهام التي أحاطت بالدال «أمة» في العصور الحديثة»، مؤكدًا أن الهويات تشكّلت دومًا ضمن الخطابات العريضة، عوالم من المعاني المتاحة[٤١].

يمكن انتقاد تعريف كهذا للقومية على أساس أنه مُبالغ في العمومية والغموض. وهذا في الحقيقة واحد من اعتراضات أحد مراجعي الطبعة الأولى من كتاب **نظريات القومية** الذي زعم، بنبرة ازدرائية إلى حد ما، أن الكتاب «مثال معبّر عن النزعة في العلوم الاجتماعية إلى تفسير الظاهرة الاجتماعية المعقدة والمتعددة الأبعاد كما يُزعم بتصنيف جامع شامل للاستقصاء التحليلي والملاحظة التجريبية.. أي «التشكيل الخطابي»».

(٣٧) Michel Foucault, *Archaeology of Knowledge*, Translated by A. M. Sheridan Smith, Routledge Classics (London; New York: Routledge, 2002), p. 54.

(٣٨) Calhoun, p. 3.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٥٤ و٨١، و Delanty and O'Mahony, pp. xv and 29.

(٤٠) Stuart Hall, «The Question of Cultural Identity,» in: Stuart Hall [et al.], eds., *Modernity: An Introduction to Modern Societies* (Cambridge, Mass.: Blackwell, 1996), p. 613.

(٤١) Ronald Grigor Suny, «Constructing Primordialism: Old Histories for New Nations,» *Journal of Modern History*, vol. 73, no. 4 (December 2001), pp. 868 and 870; Ruth Wodak, «Discourse-Analytic and Socio-Linguistic Approaches to the Study of Nation(alism),» in: Delanty and Kumar, eds., p. 106, and Claire Sutherland, «Nation-Building through Discourse Theory,» *Nations and Nationalism*, vol. 11, no. 2 (April 2005).

تجري مساواة الهيمنة مع «خطاب الهيمنة»، كما يؤكد ناقدنا، «كأنما إذا أردتُ الهيمنة عليك فكل ما عليّ فعله هو ابتكار «خطاب للهيمنة»، فتخضع لها على الفور»(٤٢). ويمكن دحض هذه الانتقادات من دون صعوبة عبر تحديد القواعد الناظمة لجدل القومية، وتوضيح بنيته ومزاعمه وسماته التي تميّزه من الخطابات المشابهة الأخرى.

ربما نبدأ بملاحظة أن الخطاب، وفقًا لجوان سكوت (J. Scott):

لا يشير إلى الأفكار وحسب، بل إلى المؤسسات والبنى والممارسات اليومية، أيضًا، إضافة إلى الطقوس الشعائرية المتخصصة التي تشكّل كلها علاقات اجتماعية. إن [الخطاب] طريقة لترتيب العالم؛ وبذلك فهو ليس سابقًا على التنظيم الاجتماعي، بل يتعذّر فصله عن التنظيم الاجتماعي(٤٣).

ومثلما سنرى بمزيد من التفاصيل لاحقًا، يميل الخطاب القومي إلى ترسيخ هيمنته وتطبيع نفسه، وتقديم حقيقة مزاعمه بوصفها «حقيقة بديهية»، ويسعى، وإن من دون نجاح، إلى إلغاء الخطابات البديلة. لا يرى فوكو نفسُه ظهور خطابات معيّنة ونهوضها وبروزها نتيجةً لمكائد جماعات قوية:

لا يمكن اختزال علاقات القوة ضمن المجتمع إلى مجرد دراسة لسلسلة من المؤسسات، أو حتى دراسة لكل تلك المؤسسات التي تستحق اسم «سياسية». إن علاقات القوة متجذّرة في الشبكة الاجتماعية برمّتها.. تعدد الأشكال والأوضاع المحدّدة لحكم بعض الناس من غيرهم؛ وهي تفرض فرضًا، وتعارض، وتحد، وفي بعض الحالات تلغي، وفي غيرها تعزّز، بعضها بعضًا(٤٤).

---

(٤٢) L. M. Pozo, «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*,» *Capital and Class*, no. 76 (2002), p. 192.

(٤٣) أضفنا التشديد، ورد في: William Roseberry, «Hegemony, Power, and Languages of Contention,» in: Edwin N. Wilmsen and Patrick McAllister, eds., *The Politics of Difference: Ethnic Premises in a World of Power* (Chicago: University of Chicago Press, 1996), p. 72.

(٤٤) Michel Foucault, *Essential Works of Foucault, 1954-1984*, Edited by James D. Faubion (London: Penguin Press, 2002), vol. 3: *Power*, p. 345.

ينبغي ألّا تختزل الخطابات إلى «لغة»، أو إلى مجموعة أثيرية من البيانات والتصريحات؛ بل إلى بيانات تصريحية مطبّقة ضمن سياق اجتماعي ومقرّرة بواسطة ذلك السياق الاجتماعي. «لذلك، تؤدي المؤسسات والسياق الاجتماعي دورًا تقريريًا مهمًّا في تطوير الخطابات والحفاظ عليها ونشرها»[٤٥]. لهذا السبب يؤكد فوكو ما يدعوه «أركيولوجيا المعرفة» («مبحث آثار المعرفة») الذي يستدعي التنقيب والكشف عن الظروف التي سمحت لخطاب معيّن بالظهور[٤٦].

فضلًا عن ذلك، لا يعني التشديد على الخطابات إنكار «الواقع الحقيقي»، مثلما يزعم نقّاد وجهات نظر فوكو. ووفقًا لفوكو، تعتمد طريقة تفسيرنا للأشياء والحوادث، وإدراكنا لما نعتبره مهمًّا، على بنى خِطابية؛ الخطابات هي ما تجعل الأشياء والحوادث تبدو لنا حقيقية. وهي تقرر ما يمكن أن نفكر فيه وكيف يمكن أن نتصرف؛ وتضع الحدود لحقل الرؤية، وتستثني سلسلة من الظواهر وتمنعنا من اعتبارها حقيقية أو تستحق الانتباه[٤٧]. وعلى حد تعبير لاكلاو وموفي (Laclau and Mouffe):

الزلزال أو سقوط قطعة قرميد حادث يوجد بالفعل، بمعنى أنه يحدث هنا والآن، بغضّ النظر عن إرادتي. لكن اعتبار خصوصيته بوصفه شيئًا «ظاهرة طبيعية»، «تعبيرًا عن غضب الله» يعتمد على بناء المجال الخطابي. إن ما يتعرض للإنكار ليس وجود مثل هذه الأشياء خارجيًا بالنسبة إلى الفكر، بل التشديد المختلف إلى حد ما على أنها يمكن أن تكوّن نفسها بوصفها أشياء خارج أي شرط خطابي للظهور[٤٨].

من ثم، لا يؤدي التعامل مع القومية باعتبارها شكلًا من الخطاب وطريقة للرؤية و«منظور للعالم» ـ بحسب تعبير بروبيكر ـ إلى إنكار حقيقتها الواقعية؛

(٤٥) Sara Mills, *Discourse*, New Critical Idiom (London; New York: Routledge, 2004), pp. 9-10.

(٤٦) Vivien Burr, *An Introduction to Social Constructionism* (London; New York: Routledge, 1995), pp. 63-69.

(٤٧) Mills, p. 46.

(٤٨) Ernesto Laclau and Chantal Mouffe, *Hegemony and Socialist Strategy: Towards a Radical Democratic Politics*, Translated by Winston Moore and Paul Cammack (London: Verso, 1985), p. 108.

فهـو يفسّـر حقيقتهـا الواقعية بطريقـة مختلفـة[٤٩]. ويؤكد أن القوميـة وأدواتها وملحقاتها ليست مفترَضة بل مكوّنة اجتماعيًا وأصبحت «بقية» بمرور الزمن.

إذا تألفت الخطـوة الأولى من الإطـار النظري من تعريـف القومية بأنها شكل خاص من الخطاب، طريقة للرؤية مكوّنة اجتماعيًا ومؤسّسية في الوقت نفسه، ومن ثم يكمن «الحقيقي» في تبعاتها وعواقبها، فإن الخطوة التالية تشمل تحديد مزاعم الخطاب القومي. وسوف أقدّم الحجّة على أن الخطاب القومي يقدّم ثلاث مجموعات متبادلة العلاقة من المزاعم:

١ ـ مزاعم الهوية

يقسـم الخطاب القومي العالـم إلـى «نحن» و«هم» و«أصدقاء» و«أعداء»، ويضع الهوية المتجانسة والثابتة على الجانبين، ويشدّد على السمات والصفات التـي تميـز «نحن» من «هم». يُعَدّ زعم الهوية سياسـيًا بطريقتيـن اثنتين. أولًا، يذكر أن لقيم الأمّة الأولوية المطلقة، وأن الولاء للأمّة يتجاوز أشـكال الولاء الأخـرى كلهـا، فردية أو جمعيـة. ثانيًا، يقـدّم الأمّة بوصفها المصـدر النهائي للشرعية (السياسية والاجتماعية) ـ ومن ثم للسيادة.

٢ ـ مزاعم زمانية

يعـود الخطـاب القومي إلـى الماضي دومًا، في مسـعى لإظهار «الزمن الخطّـي للأمّـة»، وحضورهـا المتطـوّر الـذي لا يمكـن التشـكيك فيـه. أمّا الماضـي الخـاص الذي تختاره النخـب القومية، فيعبّر عـن هموم الحاضر، ويُسـتخدم عادة لشرعنة القرارات التي تتخذها في ما يتعلّق بالشكل النهائي لأممها. وتسـتثمر المشاريع القومية موارد كبيرة في ترسيخ روابط هادفة مع ماضٍ كثيرًا ما يكون إشـكاليًا ـ تشـجّع فقدان الذاكرة الاجتماعية، أو نسيان جوانـب مـن تجربـة قريبة أو بعيدة لا تنسـجم مـع رواية الأمّـة. إن الهوس بالتاريخ وبثّ نسـخته «الأصلية» عبر المدارس وأجهزة الدولة الأيديولوجية الأخـرى همـا بعـض من الوسـائل التـي تُدخلها المزاعـم الزمنيـة المحددة للخطاب القومي وتفرضها.

---

(٤٩) Brubaker, *Ethnicity without Groups*, p. 219.

٣ ـ مزاعم مكانية

إن الخطاب القومي مسكون أيضًا بهاجس الأرض / المنطقة، والبحث عن «وطن»، حقيقي أو متخيّل. وهذا يشمل إعادة بناء الحيّز الاجتماعي بوصفه منطقة وطنية، غالبًا بقدر من القوة والكثافة يلغي البدائل ويغرس الأمّة في البيئة المادية والممارسات الاجتماعية اليومية. كما يضم عمليات تخيّل إقليمية؛ تتذكر الأرض الضائعة، إلى الأبد أو موقتًا، أو تتشوق إلى أراض / مناطق تقع في ما وراء الهدف المتواتر للرغبة القومية. ويفترض وجود رابطة لا يمكن فصم عراها بين الأمّة وبيئتها الطبيعية، وكثيرًا ما يُعَدّ المشهد الطبيعي، والبيئة المادية والمبنية لمناطق برمّتها عوامل تكوينية للشخصية أو الروح الوطنية، أو من ناحية أخرى علامات دلالية لا تُمحى على حضور الأمّة في أرض محدّدة، وبيّنة على صحة حقها في قطعة الأرض التي يدعوها أفرادها «الوطن»[٥٠].

إن هذه المزاعم تجعلنا نستطيع تمييز الخطاب القومي من غيره من الخطابات المشابهة. صحيح أن الأيديولوجيات كلّها، أو الأنظمة الاعتقادية الجمعية، ولا سيما الدِّين، يمكن تفسيرها بأنها تشكيلات خطابية، أو طرائق محددة لرؤية العالم وتفسيره، منظّمة حول ممارسات الاستثناء والاستبعاد، إلّا أن التوليفة التي تجمع هذه المجموعات الثلاث من المزاعم التي تتبادل العلاقة في ما بينها مهمّة على نحو خاص في هذا الصدد، نظرًا إلى أن مزاعم الهوية التي يستحضرها الخطاب القومي لها «تعبيرات ما قبل وطنية وتطبيقات لا وطنية» كما يقول أبادوراي (Appadurai)[٥١]. لكن من دون فكرة ما عن «السيادة الإقليمية» و«الاستمرارية الزمانية» تفقد الدولة القومية الحديثة تلاحمها كلّه.

من ناحية أخرى، ينبغي ألّا يفقد تحليلنا لمزاعم الخطاب القومي رؤية طبيعتها الطارئة والتعددية ـ المتنافرة؛ إذ يميل الخطاب القومي إلى تقديم

---

(٥٠) للاطلاع على مزيد من المناقشة المفصلة، انظر: Umut Özkirimli and Spyros A. Sofos, *Tormented by History: Nationalism in Greece and Turkey* (London: Hurst, 2008), chaps. 3-5.

(٥١) Arjun Appadurai, «The Grounds of the Nation-State: Identity, Violence and Territory,» in: Kjell Goldmann, Ulf Hannerz and Charles Westin, eds., *Nationalism and Internationalism in the Post-Cold War Era* (London: New York: Routledge, 2000), p. 135.

خياراته للهوية، والماضي، والأرض/ المنطقة بوصفها تعبيرًا عن «الجوهر» اللامتغير للقومية، من دون الإشارة إلى تنوّعها الداخلي ـ على طول خطوط الإثنية والثقافة والجندر (النوع الاجتماعي) والجنسانية والموقع في دورة الحياة... إلخ. لكن هذه الخيارات ليست مقدّرة مسبقًا ولا محتومة؛ فهي نتيجة عملية دينامية وخلافية تشمل مقاصد متنوّعة. لذلك، يجب علينا تبنّي منظور ينبّهنا للآليات التي تقدّم عبرها هذه الخيارات نفسها بوصفها «طبيعية» و«محتومة»، وتستثني أو تكبح التشكيلات البديلة للهوية والماضي والأرض المتاحة في أي لحظة محدّدة. وهذا يشبه ما دعاه فوكو «تحويل الأشياء إلى حوادث» الذي يتضمن «إعادة اكتشاف الصلات والمواجهات والمساندات والانسدادات وألعاب القوة والاستراتيجيات...إلخ التي ترسخ في لحظة معيّنة ما يُعَدّ لاحقًا بديهيًا وشاملًا وضروريًا»[٥٢]، أو ما يسمّيه بروبيكر منظورًا «زاخرًا بالحوادث» يتعامل مع الرابطة الوطنية باعتبارها شيئًا «يحدث»[٥٣].

يتيح لنا مثل هذا المنظور رؤية أن تعريف الأمّة عملية مستمرة، ولا تحمل أي معنى للتوقف، وأن «الهوية مبنية دومًا بواسطة تعددية من العلاقات»[٥٤]، ولا يمكن أبدًا تثبيتها، وأن من الممكن أن تصبح الجماعات الشعبية الثقافية والروابط الفاعلة الركيزة المؤسسة لأنواع مختلفة تمام الاختلاف من الهويات في ظروف معدلة، وأن السلالات القومية بُنى على درجة عالية من التعقيد يشوبها الغموض والانقطاع والاضطراب، على الرغم من زعمها الاستمرارية والخطيّة، وأن جغرافية الأمّة ليست «حقيقة مقبولة»، إذ يواجه القوميون أنفسهم صعوبة في التوصّل إلى إجماع حول ترسيم حدود الوطن الأم، اعتمادًا على تعريفاتهم المحدّدة للأمّة، واحتمالاتها الماضية والمستقبلية. باختصار، يُظهر لنا أن خيارات الخطاب القومي هي بالفعل النتائج الطارئة والباقية من الممارسات الاجتماعية التي يمكن تحدّيها أو تغييرها[٥٥].

---

(٥٢) Foucault, *Essential Works of Foucault*, vol. 3: *Power*, pp. 226-227.

(٥٣) Rogers Brubaker, *Nationalism Refrained: Nationhood and the National (Question in the New Europe)* (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), pp. 20-21.

(٥٤) R. Walker, «Postmodernism,» in: Alexander J. Motyl, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, 2 vols. (San Diego, Calif.; London: Academic Press, 2001), vol. 1, p. 620.

(٥٥) انظر أيضًا: Spyros A. Sofos and Umut Özkirimli, «Contested Geographies: Greece, Turkey =

تتألـف الخطـوة الثالثـة والأخيرة من إطارنـا النظري مـن تحديد وضعية تشـغيل الخطـاب القومـي ـ أو الطرائـق المختلفـة التـي يصبـح عبرها البشـر «وطنيين» ـ الذي يمكّننا بدوره من تفسير الشرعية العاطفية العميقة التي تتحكّم فيها القومية. لقد أشرنا للتو إلى البنى المادية والمؤسسية التي تدعم الخطاب القومي؛ فالمشـروع القومي المهيمن، أي الفائز بالصراع من أجل الهيمنة بين مختلف المشاريع القومية، يعزّز هيمنته عبر إعادة إنتاج ذاته وتطبيعها.

من الضروري الملاحظة منذ البداية بأن عملية إعادة إنتاج القومية ليست مجرد «تأثير» للدولة؛ بل هي تمظهر لما يدعوه فوكو «ما تحت السلطة» (Infra-pouvoir؛ «شـبكة مـن السـلطة السياسـية المجهريـة الشـعرية.. مؤسَّسـة على مستوى وجود الإنسان ذاته، وتربط الناس بالجهاز الإنتاجي، بينما تحوّلهم إلى وكلاء إنتاج». يحرص فوكو على توكيد أنه لا يشـير إلى جهاز الدولة، أو إلى الطبقـة فـي السـلطة، بل إلـى المجموعـة الكاملة مـن «المؤسسـات الصغيرة المتوضعة على المستوى الأدنى»[٥٦]. وهكذا، يقول باليبار:

لا يعيـد التشـكيل الاجتماعـي إنتاج ذاته باعتباره أمـة إلّا إلى الحد الذي يُقـدم عنـده الفرد، ويمأسـس عبر شـبكة من الأجهـزة والممارسـات اليومية، بوصفـه «إنسـانًا وطنيًا» من المهد إلـى اللحد، في الوقت ذاتـه الذي يقدم فيه باعتباره «إنسانًا اقتصاديًا وسياسيًا ودينيًا»[٥٧].

لفـت عـدد مـن المعلّقيـن انتباهنا إلـى «التجـارب اليومية المبتذلـة» التي تسـاهم في «الحقيقـة الواقعية المحسوسـة» للرابطة الوطنية؛ فالشـؤون اليومية التافهة (العملة، أخبار التلفزيون، الأعلام، أعراف التحية، أسـاليب المحادثة... إلـخ) «لا يعبّـر عنهـا بالـكلام غالبًا لأنها لا تحتـاج إلى كلام، وتتقاسـم تقاليد وأفـكارًا ضمنيـة، أو تُعَدّ قضايا مسـلّمًا بهـا، وتخلق إحساسًـا بالجماعة يرتبط

and the Territorial Imagination,» in: Othon Anastasakis, Kalypso Aude Nicolaidis and Kerem Öktem, eds., *In the Long Shadow of Europe: Greeks and Turks in the Era of Postnationalism*, International Relations Studies Series; v. 3 (Leiden; Boston: Martinus Nijhoff Pub., 2009). =

(٥٦) Foucault, *Essential Works of Foucault*, vol. 3: *Power*, pp. 86-87.

(٥٧) Etienne Balibar, «The Nation Form: History and Ideology,» *New Left Review*, vol. 13, no. 3 (Summer 1990), p. 345.

بالمكان أكثر ممّا هو الزمان»، كما يلاحظ إريكسين (Eriksen)[٥٨]. الذي يشير أيضًا إلى «الكفاءات الشعبية» («المعرفة العملية اليومية التي تمكّن الناس من إنجاز المهمّات الدنيوية»)، «والعادات المتجسّدة» («أشكال من التعاويذ الجسدية والتفاعل الاجتماعي.. بوصفها معرفة عملية متجسدة»)، و«الأفعال المتزامنة» (التكرار الدائم للأعمال الروتينية اليومية والأسبوعية والسنوية، والأفكار المتحصنة حول متى تؤدى أفعال معيّنة») للحياة اليومية، كما يشير روث فوداك (R. Wodak) وآخرون إلى «المواقف العاطفية» المشتركة، و«الميول السلوكية»، المذوّتة في مسار التهيئة الاجتماعية التي تعزّز إحساسًا بالهوية الوطنية وتحوّل القومية إلى «حالة جسدية عامة» أو ممارسة حية»[٥٩]. إذًا، وبطرائق كثيرة، يُعَدّ «حضور الأمّة في حياة المواطن اليومية العامة أكثر كمونًا وعفوية وتلقائية منها في علاقته العرضية والاتفاقية بالرموز والأماكن والسرديات والطقوس»[٦٠]. يستلزم ذلك أن الوطني لا يمكن أن يتضمّن في «الرمزي»؛ وهو مشكّل أيضًا في الأوضاع الملتهبة للحياة اليومية. هذا ما يعطي الخطاب الوطني جزءًا من قوته. ومثلما يؤكد بيرغر ولوكمان (Berger and Luckman) في عملهما الكلاسيكي *The Social Construction of Reality* (البناء الاجتماعي للواقع):

يؤخذ واقع الحياة اليومية قضية مسلَّمًا بها بوصفه واقعًا حقيقيًا. وهو لا يحتاج إلى تحقّق وتثبّت في ما وراء مجرّد حضوره؛ فهو ببساطة موجود هناك، حقيقة بديهية ومقنعة. أعرف أنه حقيقي. وبينما أستطيع الانخراط في الشك بحقيقته، فإني ملزَم بتعليق هذا الشك وأنا أوجد روتينيًا في الحياة اليومية[٦١].

(٥٨) Thomas Hylland Eriksen, «Place, Kinship and the Case for Non-Ethnic Nations,» in: Guibernau and Hutchinson, eds., *History and National Destiny*, p. 54.

(٥٩) Ruth Wodak [et al.], *The Discursive Construction of National Identity*, Translated by Angelika Hirsch, Richard Mitten and J. W. Unger, Critical Discourse Analysis (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1999), p. 28, and Jyoti Puri, *Encountering Nationalism*, 21st-Century Sociology; 6 (Malden, MA: Blackwell, 2004), pp. 59 and 67.

(٦٠) Lauren Berlant, *The Anatomy of National Fantasy: Hawthorne, Utopia, and Everyday Life* (Chicago: University of Chicago Press, 1991), p. 4.

(٦١) التشديد من الأصل، Peter L. Berger and Thomas Luckmann, *The Social Construction of Reality: a Treatise in the Sociology of Knowledge* (New York: Anchor Books, 1966), p. 23.

تمثّل إعادة إنتاج القومية مفتاح تحوّلها إلى نظام من القيم المطلقة؛ لغة أخلاق تتسم بدرجة عالية من التأثر بالجندر والجنس. ويميل الخطاب القومي إلى تطبيع نفسه، وإخفاء آثار البناء والتركيب كلّها، وجعل مزاعمه وقيمه تبدو بديهية ومنطقية ومعقولة. هذا ما يكمن في مصدر «التشييء»، وهو مشكلة لامسناها في الفصول السابقة. [في هذا الصدد] يعرّف بيرغر ولوكمان التشييء بأنه:

فهم الظاهرة البشرية كأنما هي أشياء، أي بتعابير لا بشرية أو ما فوق بشرية ربما. من الطرائق الأخرى لقول ذلك أن التشييء هو فهم منتجات النشاط البشري كأنما هي شيء آخر غير المنتجات البشرية ـ مثل حقائق الطبيعة، أو نتائج النواميس الكونية، أو تمظهرات الإرادة السماوية. يتضمن التشييء أن الإنسان قادر على نسيان أنه مبدع عالم الإنسان[٦٢].

يمكّن التشييء القومية من «تشكيل» نفسها، ويحوّلها إلى شيء «حقيقي»، يمنع التنافس عليه في المجال العام[٦٣]. ويتطلّب منا إدراك ميل القومية إلى تطبيع / وتشييء نفسها التركيز على العمليات التي تصبح عبرها الرابطة الوطنية موقعًا مهمًّا للارتباط، واستكشاف كيف يصبح الوطني مرسّخًا اجتماعيًا بوصفه «واقعًا حقيقيًا».

يوصلنا ذلك كلّه إلى علاقة القومية مع السلطة، وميلها إلى ترسيخ هيمنتها. تتضمن «الهيمنة»، بالمعنى الغرامشيّ:

وضعًا اجتماعيًا ـ سياسيًا، أو بتعبيره الاصطلاحي «لحظة» تندمج فيها فلسفة المجتمع وممارسته أو تكونان في حالة توازن؛ نظامًا يهيمن فيه أسلوب وتفكير في الحياة، حيث ينتشر مفهوم عن الواقع الحقيقي في المجتمع عبر تمظهراته المؤسسية والخاصة كلّها، ليرشد بروحه الأذواق والأخلاق والعادات والمبادئ الدينية والسياسية كلّها، والعلاقات الاجتماعية كلّها، ولا سيما في مضمونها الفكري والأخلاقي. ثمة عامل من التوجيه والسيطرة، ليس واعيًا بالضرورة، متضمن أيضًا[٦٤].

---

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٦٣) Suny, «Constructing Primordialism,» p. 865.

(٦٤) Gwyn A. Williams, «The Concept of «Egemonia» in the Thought of Antonio Gramsci: =

جوهر الهيمنة هو «الشـرعنة» وليس الاستغلال والمناورة. وحقيقة الهيمنة، كما يكتب غرامشي «تفترض أن نأخذ في الحسبان اهتمامات وميول الجماعات التـي تمـارس عليها الهيمنة، وضـرورة إجراء نوع معيّن من توازن التسـوية»[٦٥]. يحقّق المشـروع القومي الناجح «توازن التسوية» عبر دمج العناصر الأيديولوجية من المشاريع القومية المتنافسة، وتولّي القيام بعملية إعادة الإنتاج الذاتي والتطبيع إلى أن تصبح قيمه من «الفطرة البديهية السليمة». يستخدم غرامشي تعبير «الفطرة البديهية السليمة» للإشارة إلى الطريقة اللاتمييزية واللاواعية ـ جزئيًا ـ التي يدرك عبرها الناس العالم؛ إذ «تمثّل» الفطرة البديهية السـليمة نفسـها بوصفها «حكمة تقليديـة أو حقيقـة العصور»، لكنها في الحقيقة والعمق نتـاج التاريخ، «جزء من عملية تاريخية»»[٦٦]. من ناحية أخرى، لا تتحقق الهيمنة عبر آلية الدولة وحسب، بـل عبـر «المجتمـع المدني» أيضًـا؛ «التوليفة التـي تجمع المؤسسـات التعليمية والدينية والجمعية.. التي تشتغل لتشكيل البنى المعرفية والفاعلة، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، حيث يدرك الناس الواقع الاجتماعي الإشكالي ويقيّمونه»[٦٧].

نظـرًا إلـى اعتمـاد الهيمنـة علـى موافقـة وتـوازن تسـوية مـع المشـاريع (الخاضعة) المتنافسة، يستحيل تحقيقها مرة واحدة وإلى الأبد. وبهذا المعنى، لا يمكن أبدًا أن تكون هيمنة مشروع قومي معيّن كاملة وكلية. وبحسب تعبير ريمون وليامز (R. Williams):

Some Notes on Interpretation,» *Journal of the History of Ideas*, vol. 21, no. 4 (October - December = 1960), p. 587.

(٦٥) Antonio Gramsci, *Selections from the Prison Notebooks of Antonio Gramsci*, Edited and Translated by Quintin Hoare and Geoffrey Nowell Smith (London: Lawrence and Wishart, 1971), p. 161; Chantal Mouffe, ed., *Gramsci and Marxist Theory* (London; Boston: Routledge and Kegan Paul, 1979); Anne Showstack Sassoon, ed., *Approaches to Gramsci* (London: Writers and Readers, 1982); T. J. Jackson Lears, «The Concept of Cultural Hegemony: Problems and Possibilities,» *American Historical Review*, vol. 90, no. 3 (June 1985), and Joseph V. Femia, *Gramsci's Political Thought: Hegemony, Consciousness, and the Revolutionary Process* (Oxford, [Oxfordshire]: Clarendon Press, 1987).

(٦٦) Hall, «Gramsci's Relevance for the Study of Race and Ethnicity,» p. 431, and Roger Simon, *Gramsci's Political Thought: An Introduction*, Introductory Essay by Stuart Hall, Completely rev. and reset (London: Lawrence and Wishart, 1991), p. 29.

(٦٧) Femia, pp. 24 and 44, and Hall, «Gramsci's Relevance for the Study of Race and Ethnicity,» p. 428.

الهيمنـة الحيّـة تكون عملية نسـقية دومًا. وهي ليسـت نظامًـا، أو بنية إلّا تحليليًا.. فضلًا عن ذلك.. لا توجد بشـكل هامد وجامد باعتبارها شـكلًا من الهيمنة؛ إذ يجب تجديدها باستمرار، وإعادة ابتكارها، والدفاع عنها، وتعديلها. كما تقاوَم أيضًا، وتحدّد وتعدّل، ويتحداها ضغط ليس منها(٦٨).

هنا يتقاطع غرامشي وفوكو؛ فبرأي فوكو أيضًا «لا تكون الخطابات خانعة للسلطة مرة واحدة وإلى الأبد»؛ إذ يمكن أن تكون أداة للسلطة أو نتيجة لها، «لكنهـا عائـق أيضًـا، عقبـة كأداء، نقطـة مقاومـة ونقطـة انطلاق لاسـتراتيجيا مضـادة»(٦٩). ومهمـا يكن الخطاب القومي فاعلًا ومقْنعًـا، فإن المجتمع يُنتج، بسـبب تنوّعه الداخلي تحديدًا، مشـاريع بديلة (هويات، قيم... إلخ) في تحدٍّ للتجانس المرغوب فيه كثيرًا. تجمع هذه المشاريع علاقةٌ معقّدة مع القيم التي يفرضها / ويعيـد إنتاجهـا الخطاب القومـي المهيمن ـ المتأرجـح بين الصراع والتسـوية. هنـا، ربمـا نسـتخدم مفهـوم الهيمنة، مثلمـا يقترح وليـام روزبيري (Rosberry)، لفهـم الصـراع، أو الطرائـق التـي تتشـكّل عبرها كلمات السـكان الخاضعيـن وصورهـم ورموزهـم ومنظماتهـم ومؤسسـاتهم، للتحـدّث عـن هيمنتهـم أو مقاومتهـا، بعمليـة الهيمنة ذاتهـا(٧٠). وحين يحقّق مشـروع قومي معيّن الهيمنة، يقرر حدود «القابل للكلام»، ويعرّف ما هو واقعي وغير واقعي، ويدفع أهدافًا وتطلعات معيّنة إلى مجال المسـتحيل(٧١). في مثل هذا السـياق، يجب حتى على «أشـكال ولغات الاحتجاج أو المقاومة تبنّي أشـكال الهيمنة ولغاتها كي تُسجّل أو تدوّن أو تسمع»(٧٢).

إن زيـادة الحساسـية تجـاه العمليات التي توجـد عبرها القوميـة هيمنتها تقودنـا إلى استكشـاف التمثيلات البديلـة التي تم إسـكاتها أو قمعها أو كبتها بالمشـروع القومي المهيمن. وتدعونا إلى دراسـة الخطاب القومي من القاعدة

(٦٨) Raymond Williams, *Marxism and Literature*, Marxist Introductions (Oxford, [Eng.]: Oxford University Press, 1977), p. 112.

(٦٩) ورد في: Mills, p. 40.

(٧٠) Roseberry, p. 80.

(٧١) James C. Scott, *Weapons of the Weak: Everyday Forms of Peasant Resistance* (New Haven: Yale University Press, 1985), p. 326.

(٧٢) Roseberry, p. 81.

(الأسـفل)، إضافة إلى القمة (الأعلى)، مع الانتباه إلى اكتشـاف الطرائق التي يتحـدى بها الخطاب «الخاضع للهيمنة» ويخـرب الخطاب المهيمن. وتذكّرنا بأن القومية، على شاكلة الخطابات الأخرى، شكل من أشكال السلطة.

يمكّننا الإطار النظري الذي أوجزته آنفًا من التصدّي لبعض من الأسـئلة المركزية التي يتمحور حولها الجدل الكلاسـيكي عن القومية. لكنه لا ينخرط فـي الإجابـة عن سـؤال: «متى ظهـرت الأمم؟» مباشـرة، مثلما يفتـرض تعذّر تعريـف الأمم خـارج خطاب القومية. من هـذا المنظور، يبدو السـؤال الأكثر حسـمًا «للترتيب الزمني» هو: «متـى ظهر الخطاب القومي؟». من الواضح أن هذا السـؤال أقل أهمية من السـابق، لأن الجدل بشـأن القومية يبرز من توليفة تجمـع عمليات عدة مـن التغيّر التاريخي والحالات الطارئـة التي يتعذّر التنبؤ بهـا. ومـن ثم، ليس من الممكن أن نحـدد بالضبط متى، وأين، وكيف ظهرت العناصر كلها المكوّنة للخطاب القومي أول مرة معًا. ومع ذلك، لن يكون من المبالغـة القول إن معظم العمليات والمزاعم المرتبطة بالخطاب القومي، مثل الدولـة الحديثة، وفكرة السـيادة الشـعبية، وعالـم «الـدول القومية»، برزت في الحقبـة الحديثـة، بـدءًا من نهاية القـرن الثامن عشـر تقريبًا. لكـن يجب علينا ملاحظة أن وجود الخطاب القومي شـرط «ضروري» وحسـب، وليس «كافيًا» لظهـور أمّـة معيّنـة. أما العوامل التي تـؤدي إلى خلق «الأمة» فيجب دراسـتها بشـكل مسـتقل في كل حالـة معينة ـ مـن دون الاتّكاء على تفسـيرات العامل المفـرد الواحـد كما تفعـل أغلبية النظريـات «الحداثية». هنالـك عوامل عدة، سياسـية أو اقتصاديـة أو اجتماعية ـ ثقافية، تندمج معًا لتشـكيل الأمم، وتتغيّر العوامل وتوليفتها المحددة من حالة إلى أخرى. بهذا المعنى، لا تقرّر مسـبقًا نتيجة عمليات تشكّل الأمم، ولا شكل الأمّة الناتج منها.

هل توجد الأمم من لا شيء؟ بالطبع لا. لقد وجِدت فعلًا أشكال متنوعة أخرى من الهويات والروابط الجمعية والسِّـمات الثقافية المشـتركة في الحقبة ما قبل الحديثة. لكن خلافًا لما يؤكده أنصار «الإثنية ـ الرمزية»، لم تكن كلّها «إثنيـة»، فضـلًا عـن أن تكـون «قومية». ومثلمـا أكّدنا في موضـع آخر، يعاني التفكيـر الإثنـي ـ الرمزي ما يمكن أن نسـمّيه «الأثننة الاسـتعادية» التي تؤثنن الماضي، ماضٍ أكثر تعقيدًا وتناقضًا وغموضًا ممّا يدعونا (التفكير الإثني) إلى

الاعتقـاد. ومـا يُعَـدّ في أفضـل الحالات غير إشـكالي إلى حد مـا في تكوين «إثنيـة» هـو مجموعـة مـن العمليـات الناتجـة مـن الاسـتراتيجيات الثقافيـة والاجتماعيـة المنفصلة عن المنطق والاعتبـارات الإثنية التي لا تجمعها غالبًا علاقة متبادلة، بل تكون عرَضية واتفاقية[٧٣]. ومهما تكن هذه المواد الثقافية ما قبـل الحديثـة ـ إثنيـة، دينيـة، مؤسَّسـة علـى الموقع المحلـي ـ فإنها لـم تبدأ باكتسـاب أهميـة «سياسـية» إلّا فـي الحقبـة الحديثة، أي بعد ظهـور الخطاب القومي. بكلمات أخرى، الخطاب القومي هو الذي يأخذ مواد ثقافية موجودة مسبقًا ويحوّلها إلى أمم.

هـل يُعَـدّ وجود هذه المـواد الثقافية ما قبـل الحديثة عقبـة تقيد قوميي الحقبـة الحديثة؟ ليس كثيرًا؛ فعملية الاختيار هي المهمّة: المهم هو الطرائق التـي يسـتخدم بها القوميـون المعاصرون هذه المواد ويسـيئون اسـتخدامها، وهـذا يعبّـر بالضـرورة عـن اهتمامـات راهنـة. أمّا المعانـي الدلاليـة للمواد الموجودة مسـبقًا، ومحتوياتها، وأغراضها، فتتغير بعـد أن «يتبنّاها» الخطاب القومـي. صحيـح أن الحاضر لا يمكن أن يعدّل الماضي، إلّا أن في مقدوره تجاهـل بعض العناصـر المعيّنة وتوكيد أخـرى، والمبالغة فـي أهمية بعضها الآخـر للسـياق، والتقليل من أهمية غيرهـا، ويمكنها بالتأكيد تشـويه الوقائع والحقائـق. يجـب التشـديد علـى أننـا لا نتحدث عـن الاسـتغلال المقصود والمناورة المجرّدة هنا. في بعض الأحيان، لا تكون خيارات القوميين نتاجًا لمخطط سياسـي واعٍ، بل لحالات طارئة متنوّعة. في معظم المناسـبات، لا يكون المسـعى إلى «اكتشـاف» تمظهرات الروح «الوطنية» وتعبيراتها، نتيجة لمشروع قومي مشكّل مسبقًا بالضرورة، بل استجابة لإدراك الحداثة باعتبارها منحطّة أو متفسّـخة أو اصطناعية، والحاجة المدرَكة إلى البحث عن أشـكال من الأصالة الثقافية. إن جمع ممارسـات ثقافية مختلفة، من سـياقات مكانية وتاريخيـة متميّـزة غالبًـا، وتحويلهـا إلى كتلـة متماسـكة ظاهريًا مـن الثقافة «الوطنية» لا يُعَدّ بالضرورة نتاجًا لنوع من التدخّل المدروس. وفي الحقيقة، يجب توكيد احتمال أن تكون هذه الجهود أيضًا نتيجة حوادث، وسوء تمييز وإدراك، واختـراع، أو توليفـة تجمع هذه العوامل كلّهـا. لكن دمجها النهائي

---

(٧٣) انظر: Özkirimli and Sofos, *Tormented by History*, chap. 1.

ضمن خطاب قومي ربما له علاقة أكبر بحقيقة أن اللاعبين البشريين الفاعلين لديهم القدرة (والدافع المحفّز في الواقع) على تحويل حتى العمل الهادف إلى عمل واع مقصود، أي التفكير فيه وترشيده[٧٤].

يتيح لنا الإطار النظري الذي اقترحته التصدّي أيضًا لسؤال «لماذا يكون الناس على استعداد للتضحية بحياتهم في سبيل أمّتهم؟» الذي يشكل جوهر النقد «الإثني - الرمزي» أو «المتواتر» للمقاربات «الحداثية». ومثلما أشرنا في الفصل الرابع، اعتمادًا على نقد لايتين لعمل سميث، يستخف هذا السؤال بتأثير «القدرة على إثارة الذكريات والمشاعر»، ليفسّر الاستعداد للتضحية بالارتباط العميق بين الناس وأممهم. لكن هذا لا يمثّل القصة كلّها؛ إذ يرفض كثيرون من الناس الموت في سبيل بلدانهم، وحين يفعلون، لا يتضّح من أجل ماذا يُقتلون أو يموتون - في سبيل وطنهم، أو حماية منطقتهم المحلية وأحبائهم، أو لمجرد الخوف[٧٥]؟ على أي حال، تعمل الآليات التي وصفناها آنفًا، أي العمليات التي تعزّز عبرها القومية هيمنتها، على تطبيع / وإعادة إنتاج ذاتها، والسعي الدؤوب لتفسير مدى تورّط القومية في تجربتنا اليومية، وتشكيل جزء من «شبكات من العلاقات بين الأشخاص» التي نعتبر جزءًا منها. ومثلما يذكّرنا إريكسين، ينتج «الإحساس بالوجود في مركب واحد والعيش في العالم نفسه، وتقاسم المصير» من «تفاعل منتظم، ومناقشات ومحاورات، وسلوكيات مهذّبة ومجاملات متبادلة، وشبكات من علاقات القرابة والجيرة»، لا من شعور غامض يتعذّر تفسيره بالارتباط مع «المجتمع المتخيل» للأمّة[٧٦]:

يُبنى الشكل المماسس من الرابطة الوطنية على العلاقات والارتباطات الاجتماعية اللاوطنية ويعزّزها، حيث يستثمر الناس الثقة والموارد والتضامن والآمال بالمستقبل.. إلى المدى الذي تتزامن معه فعليًا حالات التضامن وطنيًا

---

(٧٤) للاطلاع على مناقشة أكثر تفصيلًا، انظر: المصدر نفسه، و Umut Özkirimli, «The Nation as an Artichoke? A Critique of Ethnosymbolist Interpretations of Nationalism,» *Nations and Nationalism*, vol. 9, no. 3 (July 2003).

(٧٥) انظر على سبيل المثال، حول الحالة البريطانية: Linda Colley, *Britons: Forging the Nation, 1707-1837* (New Haven: Yale University Press, 1992), pp. 308-319.

(٧٦) Eriksen, «Place, Kinship and the Case for Non-Ethnic Nations,» pp. 56-57.

ومحليًـا، ولذلـك تتفـرع تهديدات/ وفـرص الارتباطـات الوطنية وتنتشـر في الشؤون المحلية، وتفرض على مصائر كثيرين من الناس(٧٧).

باختصار، لا توجد حتمية أو غموض ملغز في حمية الناس وحماسـتهم لأمتهـم. والقوميـة ليسـت مجرد «روايـة» تُـروى، و«خطاب» يُفسـر، و«نص» يُفكّك»، وهو تصوير نسـبه سـميث إلى ما يدعوه القراءات «ما بعد الحداثية» للقوميـة. وإذا كانـت رواية أو خطابًا، فهي رواية أو خطاب مؤسسـي ومؤلَّف اجتماعيًـا فـي آن معًا، ويحظـى بالدعم الكامل مـن «الأجهـزة الأيديولوجية» للدولة و«المجتمع المدني»، و«ينتشر بهدوء واستمرار في الواقع الحقيقي»(٧٨)، ويشكّل إطار العالم كما نعرفه.

بصورة أعم، إلى أي مدى يُعَدّ الإطار النظري الذي اقترحته آنفًا «ما بعد حداثي؟». لقد اسـتخدم عدد من المعلّقين في الحقيقة هذا التصنيف للإشـارة إلـى أعمالـي السـابقة، ومنهـا الطبعة الأولـى من هـذا الكتـاب(٧٩). وحتى لو تجاهلنـا العشـوائية العامة لـ«الشـتم الأكاديمـي»، فإننا نجد ثلاث مشـكلات تواجه تصنيف الإطار الراهن للتحليل في خانة «ما بعد حداثي».

أولًا، لا يوجد باحثون مهتمون بالقومية تقريبًا ممّن يستخدمون هذا التعبير فـي وصـف أعمـال غيرهم يحـدّدون ما يقصـدون بـ«مـا بعد حداثـي». وفي الحقيقة، استُخدمت التسمية غالبًا بطريقة ازدرائية؛ بطريقة لا تختلف كثيرًا عن معظـم التسـميات الأخـرى التـي تـزدري المقاربـات المشـدِّدة علـى الطبيعة المتعـددة والمائعـة والمركّبة للارتباطات الإثنية والوطنية - وهي حقيقة بديهية يقبلها اليوم معظم علماء الاجتماع من دون تردّد. لكن، كما يشـرح ووكر، لا

---

(٧٧) Charles Tilly, «A Bridge Halfway: Responding to Brubaker,» *Contention: Debates in Society, Culture, and Science*, vol. 4, no. 1 (Fall 1994), p. 18, and Michael Herzfeld, *Cultural Intimacy: Social Poetics in the Nation-State* (New York: Routledge, 1997), chap. 1.

(٧٨) Benedict Richard O'Gorman Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*, Rev. and Extended ed. (London; New York: Verso, 1991), p. 36.

(٧٩) انظر على سبيل المثال: John Hutchinson: *Nations as Zones of Conflict* (London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2005), p. 5, and «In Defence of Transhistorical Ethno-Symbolism: A Reply to my Critics,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 1 (January 2008), p. 19; Hearn, pp. 200 and 250; Pozo, p. 76, and Athena S. Leoussi, «Theories of Nationalism and the National Revival,» *Geopolitics*, vol. 7, no. 2 (Autumn 2002), p. 256.

توجـد ما بعد حداثـة واحدة. ومن ثم، يجب عدم الخلط بين «ما بعد الحداثة الإبستيمولوجية»، التي تُعتبر ما بعد الحداثة «ظرفًا تاريخيًا»، وتؤكد أن الحقبة الحديثـة فـي نهايتها، و«مـا بعد الحداثـة المنهجية» التي هي فـي الجوهر نقد فلسـفي ومنهجي، أو «ما بعد وضعية» (أو «بنائية») تسـتغل الأساليب والرؤى التفكيكية لتحليل المعتقدات الراسـخة والممارسـات الاجتماعية، لا لتحديها وحسـب، بـل لتغييرها أيضًـا[80]. إذا تبنّينـا تصنيف ووكر، يمكـن العثور على الإطـار النظري الذي أقترحه في موقع بين مـا بعد الحداثة المنهجية والبنائية، مع بعض المضامين الحداثية. بأسـلوب آخر، تتصل الافتراضات الاصطلاحية والمنهجية التي أسـتخدمها ببعض الروابط مع ما بعد الحداثة التي تفسّـر بأنها «نقـد فلسـفي ومنهجـي»، لكـن الإطـار التحليلي نفسـه متجذر في (دراسـة) العمليات التاريخية. أرفض «الوضعية» و«ما بعد السرديات»، واحتمال التوصّل إلـى نظريـة «شـاملة» للقومية، لكننـي لا أقلل مـن الأهمية الدلالية لسـياقات تاريخية معيّنة، أو من قيمة العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ـ الثقافية في فهم الأمم والقومية.

ثانيًا، كثيرًا ما اتُّهمت التفسيرات ما بعد الحداثية بغياب الحقيقة عنها كما يزعم نقادها. فإذا كانت الأصوات كلّها واحدة، بمعنى ألّا يتمتع أي صوت أو حقيقـة بالمزايـا، فإن المزاعم كلّها تتسـاوى في الشـرعية، كمـا يكتـب ووكر؛ «لذلـك، لا يمتلـك منظور المضطهَدين قدرًا أكبر من الحقيقة أو العدالة خلفه مقارنة بمنظور المضطهِدين. ومن ثم، يميل ما بعد الحداثة إلى ترك الهوامش حيـث هي بالضبط ـ على الهوامش»[81]. وتتجاوز أي مناقشـة معيارية للقومية مـدى هـذا الكتاب؛ لكن حتى على مسـتوى تحليلي صـرف، لا يدّعي الإطار المقـدَّم آنفًـا امتلاك الحقيقـة مثلما يزعم اقتـراح قراءة بديلـة للقومية وطريقة مأمولـة أفضـل لاستخلاص معنـى منطقي مـن مزاعمهـا وجاذبيتها الواسـعة الانتشار. ومن نافل القول إن هذا التفسير «جزئي، وملتزم، وناقص» أيضًا[82]،

(٨٠) للاطّلاع على هذا التصنيف: Walker, «Postmodernism,» and Ben Agger, «Critical Theory, Post-structuralism, Postmodernism: Their Sociological Relevance,» in: *Annual Review of Sociology* (Palo Alto, Calif.: Annual Reviews Inc., 1991).

(٨١) Walker, «Postmodernism,» p. 628, and Burr, pp. 173 and 180.

(٨٢) James Clifford, «Introduction: Partial Truths,» in: James Clifford and George E. Marcus, =

والإطار النظري المحدّد الذي أقترحه ينبغي ألّا يُعَدّ أكثر «موثوقية» من نظرائه. أمّا الاختبار الوحيد لأي منظور نظري معيّن، فهو مدى نجاحه في فهم حالات «الحياة الواقعية» وتحليلها، والإطار الذي أقترحه لا يُعَدّ استثناء في هذا السياق(٨٣).

أخيرًا، تأتي تهمة ما بعد الحداثة عادة على شكل مضمومة من مقترحات عدة، مع توكيد اعتقاد بانحطاط الأمم وانحسار القومية. «يميل ما بعد الحداثيين إلى تبنّي موقف الشك الراديكالي تجاه القومية، ويرونها نظامًا من التمثيلات، مع طبيعة مخادعة يجب فضحها، ومن ثم تجاوزها»، كما يؤكد هيرن في إشارة إلى كتابي(٨٤). لكن هذا الرأي مضال، لسببين اثنين على الأقل. أولًا، إن الاعتقاد بأن القومية «يجب» تجاوزها شيء، والاعتقاد بأن التمثيلات «يجري» تجاوزها أو أنها «مخادعة»! شيء آخر. بهذا المعنى، يبدو أن هيرن يخلط بين الزعم المعياري والزعم التحليلي. ثانيًا، مثلما جهدتُ لأُظهر في هذا الفصل، لا تُعَدّ القومية وهمًا مخادعًا ولا مصطنعة، لكنها - مع المخاطرة بإعادة التوكيد مرارًا - مؤسسية ومشيّدة اجتماعيًا، ومن ثم فهي «حقيقية» في تبعاتها وعواقبها وجزء «ملموس ومحسوس» من حياتنا اليومية. ومثلما عبّر إرنست رينان قبل أكثر من قرن، «الأمم» لها بداياتها وسيكون لها نهاية، لكن لا توجد مؤشرات على أن ذلك سيحدث قريبًا.

ثالثًا: دراسات القومية اليوم

أين تقف دراسات القومية اليوم؟ لن نبتعد من الدقّة إذا قلنا إن مناقشات القومية تُظهر ميلًا إلى «الانقسام والتشعّب» إلى جدل كلاسيكي، يتمحور حول سؤال «متى ظهرت الأمّة؟» ولعبة شد الحبل بين «الحداثيين»

= eds., *Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography: A School of American Research Advanced Seminar* (Berkeley: University of California Press, 1986), p. 7.

(٨٣) للاطّلاع على تطبيق لهذا الإطار على حالتي اليونان وتركيا، انظر: Özkirimli and Sofos, *Tormented by History*.

(٨٤) Hearn, p. 246, and Anthony D. Smith: *Myths and Memories of the Nation* (Oxford: Oxford University Press, 1999), pp. 167-169, and *The Nation in History*, p. 61.

ومعارضيهم المعينين ذاتيًا، «دعاة نظرية التواتر»، من ناحية، والمجادلات الأحدث عهدًا، والأكثر تنوعًا، التي تفرّعت عن الجدل الكلاسيكي، مع بروز عدد متزايد من المقاربات التي تسعى إلى تجاوز سؤال تاريخ أصول الأمم، من ناحية أخرى. هنالك نوعان متوازيان من الجدل، يتقاطعان أحيانًا، لكن لا يلتقيان أبدًا. وربما لا يزال من المبكر الحديث عن جدل «ما بعد كلاسيكي» نظرًا إلى أن المجادلات الجديدة على قدر من التنافر بحيث يتعذّر عليها تشكيل كتلة متماسكة، ومن ثم فهي تتحدّى أي تصنيف سهل. وبهذا المعنى، لا نعرف هل تحل مجادلات جديدة محل الجدل الكلاسيكي، وفي هذا الحالة، متى.

من جهة أخرى، يجب الاعتراف بأن المجادلات الجديدة ربما لم تنبثق من التقدّم النظري الذي حقّقته سابقاتها، ولا سيما المناقشات المحيطة بسؤال تعريف الأمم والقومية والعلاقة مع عمليات التحديث. لكن طبيعة الجدل الكلاسيكي العنيفة باطّراد تعيق فهمنا للقومية اليوم ولا تعزّزه. من الحجج المقدّمة في هذا الكتاب ضرورة التوقّف عن التفكير في سؤال «قِدم» الأمم وجعل ما نأخذه قضية مسلّمًا بها إشكاليًا - أي الطرائق المتنوّعة التي يصبح بها الناس «وطنيين»، ويبقون كذلك.

على المستوى النظري، تتمثّل إحدى طرق التحرك إلى الأمام في صوغ نظريات «جزئية»، أي نظريات تفسّر مختلف جوانب الظاهرة الوطنية، بدلًا من محاولة إنتاج نظرية «عامة» عن القومية. فعلى الرغم من كل شيء، كما لاحظ كالهون، «يتطلب فهم القومية في تعددية أشكالها نظريات متعددة»[٨٥]. هذا ما يقترحه برويللي حين يتحدث عن تفكيك القومية إلى سلسلة من المجالات المختلفة، «لا في ما يتعلّق بالمقاربات، بل بموضوع البحث». إن دراسة تنظيم الصراع الإثني، أو الحق الوطني في تقرير المصير، أو التاريخ الفكري للأفكار المتعلقة بالوطنية، موضوعات مختلفة، كما يؤكد برويللي، «وتتمثّل إحدى مشكلاتنا في متى نقفز من موضوع إلى آخر، لنبني بطريقة مشوّشة تواريخ اصطناعية من دون موضوع»[٨٦].

(٨٥) Calhoun, p. 8.

(٨٦) Breuilly, «Dating the Nation,» p. 126.

الطريقة الثانية في تحقيق التقدم هي اتّباع نصيحة باحثين أكاديميين من أمثال بروبيكر ولايتين وفيمر وغيرهم، ودراسة الحالات التي «لا» تنجح فيها القومية - حين تفشل مثلًا في حشد الجماهير ودفعهم إلى الفعل. من الواضح أن غياب العنف الإثني والقومي لا يتضمّن بالتزامن غياب القومية؛ إذ تستمر القومية في الوجود في فجوات الحياة اليومية ومفاصلها حتى في حالة عدم وجود أزمة مرئية أو صراع ظاهر، بوصفها طريقة لرؤية العالم وتفسيره. وربما يستحثنا ذلك على استكشاف القومية «من الأسفل»، أي الطرائق التي يتحدّى عبرها الناس «العاديون»، أو يخرّبون القيم والارتباطات المفروضة عليهم. هذا ما يعنيه فوكو حين يقترح «أخذ أشكال المقاومة ضد مختلف أشكال السلطة نقطة انطلاق». «وبدلًا من تحليل السلطة من وجهة نظر عقلانيتها، يجب تحليل علاقات السلطة عبر تضاد الاستراتيجيات وتنافرها»، كما يقول فوكو. يجب أن نحاول العثور على ما يعنيه المجتمع بـ«سلامة العقل» من خلال تفحص ما يحدث في ميدان «الجنون»، وما نعنيه بـ«التزام القانون» عبر معاينة ميدان «الخروج على القانون»[٨٧].

الطريقة الثالثة للاستقصاء النظري مكمّلة للطريقتين الأولى والثانية، وتشمل فتح مجال دراسات القومية أمام فضاءات وميادين بحثية جديدة، واعتناق وجهات نظر إبستيمولوجية (معرفية) جديدة. ومثلما أشرت آنفًا، رأينا بدايات هذه النزعة في أعمال تجلب رؤى علم النفس الاجتماعي[٨٨]، والطب النفسي[٨٩] إلى دراسة القومية، أو استكشاف قضايا واسعة الطيف مثل «القومية والعواطف»[٩٠]، و«القومية والإنترنت»[٩١]، و«الوطنية الغريبة»[٩٢]... إلخ.

---

(٨٧) Foucault, *Essential Works of Foucault*, vol. 3: *Power*, p. 329.

(٨٨) Michael Billig, ed., *Banal Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: Sage, 1995), and Reicher and Hopkins, *Self and Nation.*

(٨٩) Liah Greenfeld, «Nationalism and the Mind,» *Nations and Nationalism*, vol. 11, no. 3 (July 2005), and Kecmanovic, «Nationalism and Mental Health».

(٩٠) Suny, «Why «We Hate You»,» and Langman, «The Social Psychology of Nationalism».

(٩١) Thomas Hylland Eriksen, «Nationalism and the Internet,» *Nations and Nationalism*, vol. 13, no. 1 (January 2007).

(٩٢) Lauren Berlant and Elizabeth Freeman, «Queer Nationality,» *Boundary 2*: vol. 19, no. 1: *New Americanists 2: National Identities and Postnational Narratives* (Spring 1992).

على المستوى التجريبي، يجب أن تؤكّد أكثر من أي وقت مضى قيمة دراسات الحالة المقارنة «التي تأخذ المعرفة النظرية في الحسبان». ومثلما يؤكد سيغال وهاندلر، فإن «أكثر المفاتيح موثوقية لإدراك ما يستخف بأهميته عادة ـ ولرؤية الحالة العرضية الطارئة في ما أصبح مطلقًا بفضل الافتراض المسبق ـ هو المقارنة»(٩٣). في الوقت الحاضر، الميدان مشبع بعدد كبير من الأعمال النظرية المجرّدة، والتواريخ الفردية من دون أي تفاعل واسع (نسبيًا) بينها؛ إذ يمتنع منظّرو القومية عمومًا عن تطبيق أفكارهم على قوميات معيّنة، مكتفين بإشارات عابرة إلى عدد محدود من الحالات لأغراض التوضيح. من ناحية أخرى، يبقى مؤرخو القومية أبرياء من التطوّرات النظرية الأخيرة في الميدان، حيث يعتنقون غالبًا سرديات وصفية عن قوميات محدّدة. ما نحتاج إليه هو جمع الطرفين معًا واختبار الأطر النظرية التي نقترحها إزاء الدليل التاريخي، وإعادة صوغ افتراضاتنا الأولية وتحسينها ونحن نسير قدمًا، وإثراء تحليلاتنا بالرؤى التجريبية المرتكزة على حالات «الحياة الواقعية».

من الواضح أن القومية ليست نكسة موقتة تصيب سيرورة البشر التي يتعذّر وقفها نحو نظام أكثر «شمولية» أو «عالمية». ولا ريب في أن من معالم الحداثة المميزة، بغضّ النظر عن تعريفنا للحداثة، رفضها بكل عناد أن ترخي قبضتها الحديدية على قدرتنا على بناء/ وتوليد المعنى، ومفاهيمنا عن المكان والزمان، وخيالنا. ولذلك يجب أن نستمر في طرح الأسئلة، والتنقيب في عمق منطق القومية، والارتكاز إلى التقدم المفهومي والنظري الذي حقّقه السابقون، من دون أن نكتفي به، كي نزيل الضباب الذي لا يزال يلفّها مع بزوغ فجر قرن جديد.

---

(٩٣) Segal and Handler, p. 61.

مراجع إضافية

يمكن العثور على بعض من الأفكار التي تشكل أساس الإطار النظري الذي أوجزته في: Umut Özkirimli: «The Nation as an Artichoke? A Critique of Ethnosymbolist Interpretations of Nationalism,» *Nations and Nationalism*, vol. 9, no. 3 (July 2003); *Contemporary Debates on Nationalism: A Critical Engagement* (Houndmills, Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2005), chap. 7; «The «Perennial» Question: Nations in Antiquity or the Antique Shop of History?,» *Nations and Nationalism*, vol. 13, no. 3 (July 2007), and «The Double Life of John Hutchinson or Bringing Ethno-Symbolism and Postmodernism Together,» *Nations and Nationalism*, vol. 14, no. 1 (January 2008).

للاطّلاع على تطبيق لهذا الإطار على حالتي اليونان وتركيا، انظر: Umut Özkirimli and Spyros A. Sofos, *Tormented by History: Nationalism in Greece and Turkey* (London: Hurst, 2008).

تعتمد الحجج المطوّرة في هذا الفصل أيضًا على: Etienne Balibar, «The Nation Form: History and Ideology,» *New Left Review*, vol. 13, no. 3 (Summer 1990); Zygmunt Bauman, «Soil, Blood and Identity,» *Sociological Review*, vol. 40, no. 4 (November 1992); Katherine Verdery, «Whither «Nation» and «Nationalism»?,» *Daedalus*, vol. 122, no. 3 (1993); Michael Billig, ed., *Banal Nationalism* (London; Thousand Oaks, Calif.: Sage, 1995); Geoff Eley and Ronald Grigor Suny, «Introduction: From the Moment of Social History to the Work of Cultural Representation,» in: Geoff Eley and Ronald Grigor Suny, eds., *Becoming National: A Reader* (New York: Oxford University Press, 1996); Craig Calhoun, *Nationalism* (Buckingham: Open University Press, 1997); Ruth Wodak [et al.], *The Discursive Construction of National Identity*, Translated by Angelika Hirsch Richard Mitten and J. W. Unger, Critical Discourse Analysis (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1999); Ronald Grigor Suny, «Constructing Primordialism: Old Histories for New Nations,» *Journal of Modern History*, vol. 73, no. 4 (December 2001); and Rogers Brubaker, *Ethnicity without Groups* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004), and Rogers Brubaker [et al.], *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town* (Princeton: Princeton University Press, 2006), ext.

في هذا السياق، انظر أيضًا الأعمال الكلاسيكية لفوكو، وغرامشي، وبيرغر ولوكمان: Michel Foucault, *Essential Works of Foucault, 1954-1984*, Edited by James D. Faubion (London: Penguin Press, 2002), vol. 3: *Power*; Antonio Gramsci, *Selections from the Prison Notebooks of Antonio Gramsci*, Edited and Translated by Quintin

Hoare and Geoffrey Nowell Smith (London: Lawrence and Wishart, 1971), and Peter L. Berger and Thomas Luckmann, *The Social Construction of Reality; a Treatise in the Sociology of Knowledge* (New York: Anchor Books, 1966).

للاطّلاع على مقدمة مفيدة عن أعمال فوكو، انظر: Sara Mills, *Discourse*, New Critical Idiom (London; New York: Routledge, 2004).

بالنسبة إلى غرامشي، انظر: Gwyn A. Williams, «The Concept of «Egemonia» in the Thought of Antonio Gramsci: Some Notes on Interpretation,» *Journal of the History of Ideas*, vol. 21, no. 4 (October-December 1960); Chantal Mouffe, ed., *Gramsci and Marxist Theory* (London; Boston: Routledge and Kegan Paul, 1979); Anne Showstack Sassoon, ed., *Approaches to Gramsci* (London: Writers and Readers, 1982); Joseph V. Femia, *Gramsci's Political Thought: Hegemony, Consciousness, and the Revolutionary Process* (Oxford, [Oxfordshire]: Clarendon Press, 1987), and Roger Simon, *Gramsci's Political Thought: An Introduction*, Introductory Essay by Stuart Hall, Completely rev. and reset (London: Lawrence and Wishart, 1991).

للاطّلاع على مناقشة ممتازة لما بعد الحداثة والقومية، انظر: R. Walker, «Postmodernism,» in: Alexander J. Motyl, ed., *Encyclopedia of Nationalism*, 2 vols. (San Diego, Calif.; London: Academic Press, 2001).

بالنسبة إلى تطبيق مفهوم غرامشي عن الهيمنة على القومية، انظر: William Roseberry, «Hegemony, Power, and Languages of Contention,» in: Edwin N. Wilmsen and Patrick McAllister, eds., *The Politics of Difference: Ethnic Premises in a World of Power* (Chicago: University of Chicago Press, 1996).

ثبت تعريفي

ـ الإثنية (Ethnicity): جماعة من الناس تشترك في هوية ثقافية ولغة محكية (أدريان هاستينغز). تشير الإثنية في مدلولها إلى جماعة من الأفراد يعتبرون أنفسهم (أو يعتبرهم الآخرون) يتقاسمون سمات مشتركة تميّزهم من سواهم من الجماعات. وبينما يشير العِرق إلى المظهر الجسدي/ الفيزيائي، تشير الإثنية إلى العوامل الثقافية مثل الجنسية والثقافة والأسلاف واللغة والمعتقدات.

ـ الإثنية ـ الرمزية (Ethnosymbolism): تنبثق الإثنية ـ الرمزية من النقد النظري للحداثة. عمومًا، يشير التعبير إلى مقاربة تشدِّد على دور الأساطير والرموز والذكريات والقيم والتقاليد التراثية، في تشكيل الإثنية والقومية، وبقائهما المستمر والتغيير الذي يطرأ عليهما. تشدّد المقاربة الإثنية ـ الرمزية على الحاجة إلى إجراء تحليل للهويات الثقافية الجمعية على مدى حقبة زمنية تدوم عدة قرون، وعلى أهمية عوامل وصل الماضي الوطني بالحاضر والمستقبل، والمجتمعات المحلية الإثنية الموجودة مسبقًا، أو الإثنيات، في تشكيل الأمم الحديثة، ودور ذكريات العصور الذهبية، وأساطير الأصول والانتخاب الإثني، وطقوس إجلال الأبطال والأسلاف واحترامهم، والارتباط بالوطن الأُم في تشكيل الهويات الوطنية وديمومتها، وعلى الأنواع المختلفة من الجماعات الإثنية التي تشكّل الركيزة المؤسسة لمختلف أنواع الأمم؛ والمساهمة الخاصة لأيديولوجيا القومية الحديثة في نشر المثال النموذجي للأمّة.

ـ اختراع التراث (The Invention of Tradition): تُعَدّ الأمم والقومية نتاجًا لـ«الهندسة الاجتماعية». وما يستحق انتباهًا خاصًا في هذه العملية هو حالة

«اختراع التقاليد التراثية» التي هي «جملة من الممارسات، المحكومة عادة بشكل علني أو ضمني بقواعد وقوانين مقبولة، ومن طبيعة شعائرية أو رمزية، تسعى إلى غرس قيم ومعايير سلوكية معيّنة عبر التكرار الذي يتضمن آليًا الاستمرارية مع الماضي» (إريك هوبزباوم). «الأمّة» وأدواتها هي الأكثر شيوعًا وانتشارًا بين هذه التقاليد التراثية المخترعة. وعلى الرغم من جدّتها التاريخية، فإنها ترسّخ استمرارية مع الماضي المناسب، و«تستخدم التاريخ مشرعنًا للعمل وداعمًا للُحمة الجماعة». تكون هذه الاستمرارية متخيَّلة غالبًا. أمّا التقاليد التراثية المخترعة، فهي «استجابات لحالات جديدة تأخذ شكل إشارة مرجعية إلى حالات قديمة».

ـ الأدواتية (Instrumentalism): اشتهر المنظّر بول براس في الأدبيات التي تتناول القومية بسبب تشديده على الطبيعية «الأدواتية» للإثنية والقومية. عمومًا، تفسر الأدواتية بداية/ واستمرار الدعم للقومية من المصالح التي تدّعي خدمتها. ووفقًا لهذا الرأي، تصبح الهويات الإثنية والقومية أدوات مناسبة في أيدي النخب المتنافسة لتوليد الدعم الجماهيري في المسعى الشامل من أجل الوصول إلى الثروة والسلطة والمكانة. وفي تغاير صارخ مع دعاة النظرية البدائية الذين تعاملوا مع الإثنية بوصفها «حقيقة مقبولة» للظرف الإنساني، تؤكد هذه النخب أن الارتباطات الإثنية والقومية تخضع باستمرار لعملية إعادة تحديد وتعريف وتشييد استجابة للظروف المتغيرة ومخططات النخب السياسية المراوِغة. ولذلك، فإن دراسة الإثنية والقومية في جزء كبير منها هي دراسة للتغيّر الثقافي المحفّز سياسيًا. وبأسلوب أدق، دراسة العملية التي تختار عبرها النخب والشرائح المعادية للنخب ضمن الجماعات الإثنية جوانب من ثقافة الجماعة، وتربط بها قيمة ومعاني جديدة، وتستخدمها رموزًا لتعبئة الجماعة وحشدها، والدفاع عن مصالحها، والتنافس مع الجماعات الأخرى.

ـ الإرادة الحرّة (Free Will): يؤكد كانط أن البشر لا يمكنهم أن يكونوا أحرارًا إلّا حين يطيعون قوانين الأخلاق التي يجدونها داخل ذواتهم، لا في العالم الخارجي. وهكذا يساوي كانط بين «الفضيلة» و«الإرادة الحرّة». ومن هنا أتت الصيغة الجديدة: «النية الحسنة تجاه الآخرين، التي هي إرادة حرّة، إرادة مستقلة أيضًا». وهذه صيغة ثورية أيضًا لأنها وضعت الفرد في

مركز الكون ونصّبته حاكمًا عليه، «بطريقة لم يتصورها قط الثوريون الفرنسيون أو أسلافهم من المثقفين والمفكرين»؛ «ومن ثم أصبح تقرير المصير خيرًا سياسيًا أسمى».

ـ **الإرادة العامة (General Will)**: يتمثّل أعظم خطر يواجه الإنسان حين يعيش في مجتمع، في مقابل حياة الطبيعة، في «احتمال طغيان إرادة الآخرين» (جان جاك روسو). وفي سبيل درء هذا الخطر، يحتاج البشر إلى مبادلة إرادتهم الأنانية الخاصة بـ«الإرادة العامة». وهذا لن يتحقق إلّا إذا تحوّلوا من بشر طبيعيين إلى مواطنين؛ فالبشر الطبيعيون يعيشون من أجل أنفسهم، بينما يعتمد المواطنون على الجماعة التي هم جزء منها: «يضع كل واحد منّا شخصه وقوته كلّها بطريقة مشتركة تحت التوجيه الأسمى للإرادة العامة، وفي طاقتنا الجماعية، نتلقّى كل عضو بوصفه جزءًا لا يتجزأ من الكل».

ـ **الاستعمار الداخلي (Internal Colonialism)**: في الأصل، نحت المفهوم الشعبويون الروس لوصف استغلال الطبقات المدينية للفلاحين، ثم تبنّاه في وقت لاحق غرامشي ولينين لجلب الانتباه إلى التخلّف الاقتصادي الملحّ والمستمر لبعض المناطق الإيطالية والروسية. يشير الاستعمار الداخلي إلى عملية تبادل غير متكافئ بين أراضي دولة معيّنة تحدث إمّا بوصفها نتيجة للعبة حرة تمارسها قوى السوق، وإمّا نتيجة سياسات اقتصادية لدولة مركزية أدّت قصدًا أو من دون قصد إلى تبعات توزيعية للمنطقة. لكن منذ ستينيات القرن العشرين، اقتصر التعبير غالبًا على مناطق محرومة اقتصاديًا ومتميزة ثقافيًا (بشكل متزامن) عن المناطق المركزية للدولة المضيفة.

ـ **الاصطفاء القرابي (Kin Selection)**: تطوّر مفهوم «الاصطفاء القرابي» أولًا على يد وليام دونالد هاملتون في عام ١٩٦٤، لكنه بقي غامضًا بالنسبة إلى علماء الاجتماع إلى أن نُشر كتاب إدوارد أوزبورن ولسون علم الاجتماع: **الجُميعة الجديدة**. يمكن لحيوان نسخ مورثاته مباشرة عبر تناسله هو، أو بطريقة غير مباشرة عبر تناسل الأقرباء الذين يشترك معهم في نسب محدّدة من المورثات. ولذلك، يمكن أن نتوقّع من الحيوانات التصرّف بأسلوب تعاوني، ومن ثم تعزيز لياقة (وصلاحية) بعضها بعضًا إلى الحد الذي تتصل به بقرابة وراثية، وهذا هو معنى الاصطفاء القرابي. ويزعم فاندنبيرغ أن

الاصطفاء القرابي، أو التزاوج بين الأقارب، قوة تعزّز النزعة الاجتماعية لدى البشر أيضًا. وفي الحقيقة، الإثنية والعرق كلاهما تعبيران موسّعان لمصطلح القرابة: «لذلك، تُعَدّ الإثنية والعِرق من العواطف التي يجب فهمها بوصفها صيغة موسّعة وضعيفة من الاصطفاء القرابي». بكلمات أخرى، ليست الجماعات الإثنية والأعراق والأمم سوى «عائلات كبرى» من الأقرباء (البعيدين)، الحقيقيين أو المفترَضين الذين يميلون إلى التزاوج في ما بينهم، ويرتبطون معًا بروابط عمودية بواسطة النَّسب تعزّزها روابط أفقية عبر الزواج.

ـ **الأطروحة القومية (The Nationalist Thesis)**: «يجب أن يكون للإنسان جنسية مثلما يجب أن يكون له أنف وأذنان» (غيلنر). يعتقد القوميون أن البشر مقسَّمون إلى أمم مميَّزة يمكن تحديدها موضوعيًا. ولا يمكن للبشر تحقيق ذواتهم والازدهار إلّا إذا انتموا إلى مجتمع وطني، تتفوق العضوية فيه على أشكال الانتماء الأخرى كلّها؛ فالأمّة هي المستودع الوحيد للسيادة والكرامة، والمصدر الوحيد للسلطة السياسية والشرعية. وهذا يأتي مع جملة من المطالب والدعاوى الزمانية والمكانية ـ بامتلاك تاريخ فريد، ومصير متفرد، و«وطن أُم» تاريخي. ليست الأطروحة القومية حكرًا على النخب السياسية فقط. بل شكّلت أيضًا المجالات المتطوّرة للتاريخ والفولكلور والأدب، وهي مجالات اكتسبت رسالة حقيقية لبناء الأمّة في مسار القرن التاسع عشر.

ـ **الأمّة (Nation)**: الأمّة مجتمع مستقر ارتقى تاريخيًا واعتمد على ركيزة التشارك في اللغة والأرض والحياة الاقتصادية والتكوين النفسي، كما تتمظهر كلّها في الثقافة المشتركة (ستالين). وهي تصنيف تاريخي ينتمي إلى حقبة محدّدة، حقبة نهوض الرأسمالية. فعملية القضاء على الإقطاع وتطوّر الرأسمالية هي في الوقت نفسه عملية تجميع للشعوب في أمم. تلك هي الحالة مثلًا في أوروبا الغربية؛ إذ شكل البريطانيون والفرنسيون والألمان والطليان أنفسهم في أمم بالتزامن مع التقدم الظافر للرأسمالية وتغلّبها على التفكك الإقطاعي. رينان: الأمّة الحديثة ابتكار تاريخي ظهر عبر التقاء كثير من الحقائق «روح، مبدأ روحي»: تضامن واسع النطاق، يتكوّن بواسطة الشعور بالتضحيات التي قام بها الفرد في الماضي، وتلك التي يستعد للقيام بها في المستقبل. الأمّة تفترض ماضيًا بصورة مسبقة، لكن توجزها في الحاضر

حقيقـة متعيّنة وملموسـة: الموافقة، الرغبة التي تجـد التعبير عنها بوضوح في الاسـتمرار في حياة مشـتركة. وجود الأمّة اسـتفتاء عام، إذا جاز التعبير، مثلما هو وجود الفرد توكيد أبدي للحياة.

ـ **الأمـم غيـر التاريخيـة (Non-historical Nations)**: أمم لا تسـتطيع تطوير طبقـة برجوازيـة لأنها أمم فلاحيـة، أو تعجز عن إقامة دولـة خاصة بها، لأنها تعيـش إمّا في منطقة إقامة مختلطـة وإمّا في منطقة صغيرة إلى حد العجز عن إيجاد سوق داخلية، ولذلك فإن عليها السعي إلى إقامة تحالفات مع المدافعين عن النظام القديم.

ـ **الأمميـة الثانيـة (Second International)** (١٨٨٩ ـ الحـرب العالميـة الأولى): وفّرت منتدى لمناقشـة القومية (أو «مسـألة القوميات» مثلما شـاعت تسـميتها)، وهو ما مكّن المفكرين والسياسـيين من اليسار الثوري من التعامل مـع القضايـا الشـائكة المتعلّقـة بالحقـوق الوطنيـة والحـق الوطني فـي تقرير المصيـر. ومـن الممكن تحديـد ثلاثة مواقف فـي ما يتصل بهـذه القضايا في سـياق الأمميـة الثانيـة: الموقف الراديكالـي المؤيِّد للنزعة الأمميـة الذي تبنّته روزا لوكسـمبورغ، والدفـاع الاسـتراتيجي عن حـق تقرير المصير الـذي تبنّاه لينين، والاستقلال الذاتي الوطني ـ الثقافي الذي تبنّاه باور ورينر.

ـ **البدائيـة (Primordialism)**: تعبيـر شـامل اسـتُخدم لوصـف الاعتقاد بأن القوميـة جـزء «طبيعي» من البشـر، مثل الـكلام أو النظر أو الشـم، وأن الأمم وجِدت منذ الأزل. هذا هو رأي القوميين أنفسهم، وظل لبعض الوقت نموذجًا مهيمنًا في أوسـاط علماء الاجتماع، ولا سيما المؤرخين. تشكّل البدائية أيضًا رأي الناس العاديين في الأمم والقومية. ومن المعتقد عمومًا أن إدوارد شـيلز هـو أول مـن اسـتخدم التعبيـر لوصـف العلاقات ضمن الأُسـرة؛ ففـي مقالته الشـهيرة «الروابط البدائية والشـخصية والمقدسة والمدنية»، يقدّم شيلز الحجّة علـى أن الرابطـة التي يشـعر بها أفراد الأُسـرة أحدهم تجاه الآخـر، تنبثق من سـمات وخصائـص «علائقية مهمة» لا يمكـن وصفها إلا بأنهـا «بدائية». ولا ينحصـر الأمر في وظيفة التفاعل؛ بل «بسـبب نوع مـن الأهمية التي تنأى عن الوصـف وتُعـزى إلى رابطة الدم». من القواسـم المشـتركة بين دعـاة النظرية البدائية، باستثناء أصحاب المقاربة الثقافوية، ميلهم إلى اعتبار الهويات الإثنية

والوطنيـة «حقائـق مقبولـة»، أو حقائق طبيعية؛ فهي تنتقل من جيل سـابق إلى جيل لاحق من دون أن تتغيّر سماتها الأساسية وخصائصها «الجوهرية»؛ ومن ثـم فهـي ثابتة، أو سـاكنة. وتعرّض هذا الـرأي للتأكّل في العقديـن الماضيين جرّاء عدد متزايد باطّراد من الدراسات التي شدّدت على طبيعة الهويات الإثنية والوطنيـة «المشـيّدة اجتماعيًـا»، وهـو مـا يشـير إلـى دور الخيـارات الفردية، والقـرارات التكتيكية، وبُنى الفرصة السياسـية، ومختلـف الاحتمالات الطارئة في بنائها. أمّا حدودها ومحتوياتها التي هي أبعد ما تكون عن الثبات، فتخضع لحالة مسـتمرة من النقاش والتفاوض وإعادة التحديد والتعريف في كل جيل، وذلك مع ردة فعل الجماعات على الظروف المتغيّرة أو التكيّف معها.

ـ «التشكيل الخطابي» (Discursive Formation): يحدّد المنظّر كريغ كالهون القوميـة، فـي معـرض انتقـاده ورفضـه لنزعـة معظـم التحليلات السـائدة إلى «تشـييء» الأمـم، بأنها «تشـكيل خطابي»، «طريقـة في الكلام تشـكّل وعينا»، لكنها إشـكالية بما يكفي لكي تسـتمر في توليد الأسـئلة، ودفعنا إلى مزيد من الـكلام وإنتـاج المجادلات حول كيفيـة التفكير فيها. والاعتـراف بأمّة يتطلّب تضامنًـا اجتماعيًا، أو مسـتوى من الاندماج بين أعضـاء الأمّة المفترضة، لكن التضامـن يوجـد في كثير من أنـواع التجمّعـات والجماعات، بـدءًا بالعائلات وانتهاء بالفرق الرياضية أو موظّفي الشركات، ومن ثم لا يكفي التضامن بحد ذاته لتعريف أمّة. هنا يأتي خطاب القومية. وبوصفه طريقة محدّدة للتفكير في التضامن الاجتماعي، يؤدي دورًا حاسم الأهمية في إنتاج الفهم الذاتي القومي والاعتراف بالمزاعم القومية للآخرين. الأمر الحاسم الذي يجب فهمه هنا أن الأمـم لا يمكن أن تكون موجودة إلّا ضمن سـياق القومية. «الأمّة هي طريقة خاصة في التفكير في ما يعنيه أن يكون الناس شعبًا». ويساعد الخطاب القومي في صنع الأمم.

ـ تقريـر المصيـر (Self-determination): يعني تقريـر المصير أن في إمكان الأمّة ترتيب شـؤون حياتها وفقًا لإرادتها؛ فهي تملك الحق في ترتيب شـؤون حياتهـا على أسـاس الاسـتقلال الذاتـي. لها الحـق في الدخول فـي علاقات اتحادية (فدرالية) مع الأمم الأخرى. والحق في الانفصال الكامل. الأمم ذات سيادة ومتساوية كلها.

ـ التواتر (Perennialism): يُستخدم تعبير «التواتر» للإشارة إلى الاعتقاد بالقِدم التاريخي لـ«الأمة»، وشخصيتها المغرِقة في القِدم والمتواترة. لا يتعامل دعاة التواتر مع الأمّة بوصفها «حقيقة طبيعية»؛ بل يرونها سمة مستمرة وجوهرية للحياة البشرية على مدى التاريخ المدوّن. هنالك نسختان اثنتان من مقاربة التواتر. تؤكد الأولى، «التواتر المستمر»، أن جذور الأمم الحديثة ممتدة لقرون عدة ـ بل ألف عام في بعض الحالات ـ في الماضي السحيق. وتشدّد هذه النسخة على «الاستمرارية»، وتشير إلى حالات الاستمرارية والهويات الثقافية التي تمتد حقبًا زمنيًا طويلة، وتربط الأمم القروسطية أو القديمة بنظيراتها الحديثة. وتشير النسخة الثانية، «التواتر المتكرر»، إلى الاعتقاد بأن الأمّة «صنف من الرابطة البشرية التي يمكن العثور عليها في كل مكان على مدى التاريخ». بعض الأمم المعيّنة قد تظهر وتختفي، لكن الأمّة نفسها كلّية الوجود، و«متكررة»، بوصفها شكلًا من الهوية الرابطة والجمعية.

ـ جماعة متخيَّلة (Imagined Community): القومية منتج صنعي ثقافي من نوع خاص. ومن أجل فهمها بشكل صحيح نحتاج إلى اكتشاف كيف وجِدت، وبأي طريقة تغيّر معناها الدلالي بمرور الزمن، ولماذا حظيت بهذه الشرعية الوجدانية العميقة. ابتكر التعبير المنظِّرُ بينيديكت أندرسون الذي يؤكد أن القومية ظهرت قرب نهاية القرن الثامن عشر نتيجة «تكثيف تلقائي لـ«نقطة تقاطع» معقّدة بين قوى تاريخية منفصلة»، وما إن وجِدت حتى أصبحت نماذج يمكن محاكاتها في تشكيلة واسعة التنوّع من البيئات الاجتماعية، بواسطة تشكيلة واسعة من الأيديولوجيات ذات الصلة. وفي رأيه، يجب على التفسير المقْنع للقومية ألّا ينحصر في تحديد العوامل الثقافية والسياسية التي تسهّل نمو الأمم. أمّا التحدي الحقيقي، فيكمن في إظهار لماذا وكيف أثارت هذه المنتجات الصنعية الثقافية الخاصة مثل هذه الارتباطات العميقة والوثيقة. بكلمات أخرى، فإن السؤال الحاسم في أهميته هو: ما الذي يجعل التخيّلات المتقلصة في التاريخ الحديث (الذي لا يمتد أكثر من قرنين من الزمن) تولد مثل هذه التضحيات الهائلة»؟ يبدأ أندرسون عبر تقديم تعريف عملي لتعبير «أمّة». في رأي أندرسون، نجم جزء من التشوّش الاصطلاحي المحيط بمفهوم الأمّة من الميل نحو التعامل معها باعتبارها بنية أيديولوجية. وسيكون من الأسهل اعتبارها «قرابة» أو «دينًا»؛ ومن ثم يصبح تعريف الأمّة هو: «مجتمع

سياسي متخيّل ـ ومتخيَّل بوصفه محدودًا ومستقلًا جوهريًا». وهو متخيّل لأن «أفراد حتى أصغر الأمم لن يعرفوا أبدًا إخوانهم، ولن يقابلوهم، أو حتى يسمعوا بهم، لكن تعيش في أذهانهم كلّهم صورة وحدتهم وتعاطفهم وعلاقتهم الوثيقة». هو متخيّل بوصفه جماعة لأن «الأمّة، بغضّ النظر عن هيمنة اللامساواة والاستغلال فيها، تُعتبر دومًا نوعًا من العلاقة الرفاقية العميقة والأفقية». ووفقًا لأندرسون، فإن هذا الشعور بالأُخوّة هو الذي يجعل في نهاية المطاف من الممكن لملايين البشر التضحية بحياتهم عن طيب خاطر في سبيل أمّتهم.

ـ **الحداثة (Modernism)**: برزت الحداثة بوصفها ردة فعل على النظرية البدائية البديهية للأجيال الأكبر عمرًا التي عدّت القومية سمة طبيعية وشمولية ـ أو على الأقل متواترة ـ للمجتمعات البشرية. وأنجزت مقاربة الحداثة الكلاسيكية، أي الاعتقاد بأن الأمم والقومية متأصلة جوهريًا في العالم الحديث وثورة الحداثة، صيغتها القانونية في نظريات التحديث التي ظهرت في ستينيات القرن العشرين، وحققت انتشارًا واسعًا في العلوم الاجتماعية في أعقاب ظهور حركات التحرر من الاستعمار في آسيا وأفريقيا. القاسم المشترك بين هذه التفسيرات هو الاعتقاد بحداثة الأمم والقومية؛ حيث ظهرت الأمم والقومية في القرنين الأخيرين، وهما من منتجات أنساق حديثة محددة مثل الرأسمالية والتصنيع والتمدين والعلمانية وظهور الدولة البيروقراطية الحديثة. وبهذا المعنى، يؤكد الحداثيون زعمهم البنيوي والمتعاقب زمنيًا؛ إذ لا يعتقدون أن الأمم والقومية مجرد أمر جديد تاريخيًا؛ بل أصبحت ضرورة اجتماعية في العالم الحديث، وأنه لم يوجد مكان للأمم أو القومية في الحقبة ما قبل الحديثة.

ـ **الدولة القومية (Nation-state)**: أرض تسيطر عليها حكومة واحدة، ويسكنها شعب متميز يملك ثقافة مشتركة تشكّل هوية مواطنيها.

ـ **شعوب لاتاريخية (Geschichtslosen Volker)**: شعوب عاجزة عن التكيّف مع النمط الرأسمالي في الإنتاج، ومن ثم تعاني حالة من الارتداد والنكوص لأن وجودها يعتمد على بقاء النظام القديم.

ـ عالـم الظواهـر (Phenomenal World): عالـم «المصادفـات التـي يتعذّر تفسـيرها» و«الضرورات الحديدية»، وإذا اسـتُمدت مبادئنـا الأخلاقية من هذا العالـم، «فلـن نكون أحرارًا أبدًا، بل سـنظل عبيدًا دومًا إمّـا للمصادفة الطارئة وإمّا للقوانين الشخصية العمياء». ومن ثم، يجب فصل الأخلاق عن المعرفة، وبالتالـي عن عالـم الظواهر، عالم المظاهر: يجب أن تكـون «نتيجة الخضوع لقانون كوني شامل يوجد داخل ذواتنا» (كانط).

ـ القوميـة (Nationalism): «لـم تظهـر القومية كما نفهمهـا إلّا في النصف الثانـي مـن القرن الثامن عشـر» (هانـز كوهن). تُعَـدّ القومية «تجسـيدًا عظيمًا لإخـلاص البشـر ووفائهم لجنسـيات كبيـرة والتأسـيس الواعـي لـ«أمة» على جنسية لغوية وثقافية» (كارلتون ج. هـ. هيز). ما الذي منح القومية في العصر الحديث هذه الشـعبية الدارجة؟ في أغلب حقب التاريخ المدوَّن، ظل البشـر أوفيـاء مخلصيـن لقبائلهـم أو عشـائرهم أو مدنهـم أو مقاطعاتهـم أو قصـور نبلائهـم أو نقاباتهم أو إمبراطورياتهم المتعـدّدة اللغات؛ والقومية مجرّد تعبير آخر عن ميول البشـر الاجتماعية التي ليسـت أكثر طبيعية أو كمونًا من النزعة القبليـة أو الإمبراطوريـة. وما جعل القومية هذه القوة الكبرى في القرن الثامن عشر هو «بعض الميول الأساسية المعيّنة»، وأهمها على الإطلاق تنامي الإيمان بالدولة القومية بوصفها الوسـيلة الفضلى التي يمكن بواسـطتها تحقيق التقدّم البشري والتحضر الإنساني.

ـ القوميـة الإنسـانية (Humanitarian Nationalism): نـوع مبكـر للقوميـة الرسمية ظل لبعض الوقت النوع الوحيد. شرحت المبادئ الأولى للقومية في البيئة الفكرية للقرن الثامن عشـر، وتشـربت بروح عصر الأنوار. كما أُسسـت علـى القانـون الطبيعي، وقُدّمـت بوصفها خطوات محتومـة، ومن ثم مرغوب فيها في التقدّم الإنساني. في الغرض، وجدت القومية الإنسانية ثلاثة مدافعين عنهـا ومؤيديـن لهـا: السياسـي البريطانـي المحافـظ جـون بولينغبـروك (John Bolingbroke) الـذي اعتنـق شـكلًا أرسـتقراطيًا من القومية، وجان جاك روسـو الـذي روّج للقوميـة الديمقراطيـة، ويوهـان غوتفريـد فـون هيردر الـذي تركّز اهتمامه على الثقافة، لا السياسـة. ومع اقتراب القرن الثامن عشـر من خاتمته، شهدت القومية الإنسانية تحوّلًا مهمًّا: أصبحت القومية الديمقراطية «يعقوبية»،

وغدت القومية الأرستقراطية «تقليدية»، وباتت القومية غير الديمقراطية وغير الأرستقراطية «ليبرالية».

ـ **القوميـة التقليديـة (Traditional Nationalism)**: اعتنـق بعـض المفكريـن الذين عارضوا الثورة الفرنسـية ونابليون شـكلًا مختلفًا من القومية. ولم يكن إطارهـم المرجعي «العقل» أو «الثورة»، بل التاريخ والتراث؛ حيث كرهوا كل ما يتعلق باليعاقبة وبمثُلهم. وبينما كانت قومية هؤلاء ديمقراطية وثورية، كانت القومية التقليدية أرستقراطية وارتقائية. أمّا أشـهر أنصارهـا فهُم إدموند بيرك، وفيكونـت دو بونالـد، وفريدريـك فون شـليغل. كانت القوميـة التقليدية القوة الدافعة المؤثّرة خلف الثورات داخل فرنسا وتنامي المقاومة الشعبية في القارة، كمـا جسّـدتها اليقظـة القومية في كل مـن ألمانيا وهولندا والبرتغال وإسـبانيا، وحتى روسـيا؛ وسادت على منافسـتها الرئيسة اليعقوبية، وانتصرت في معركة واترلـو فـي عـام ١٨١٥، لكـن هذا النصـر كان ظاهريًـا وليس حقيقيًـا؛ فعلى المدى البعيد، اندمج شكل معتدل من اليعقوبية في القومية الليبرالية الناهضة. ومن ناحية أخرى، تواصل التعبير عن القومية التقليدية في شتى أرجاء أوروبا، واختفت في نهاية المطاف ضمن القومية المتكاملة للقرن العشرين.

ـ **القوميـة الليبراليـة (Liberal Nationalism)**: احتلت القومية الليبرالية موقعًا متوسطًا بين القومية اليعقوبية والتقليدية؛ حيث نشأت في إنكلترا، «بلد التسوية الأبدية والوعي الذاتي الحاد بالوطنية». أمّا الناطق الرئيس باسمها فكان جيرمي بينثام الذي أراد الحد من نطاق سـلطة الحكومة ووظائفها في مجالات الحياة كافـة. وفي رأيه، تمثُل الجنسـية الوطنية الركيزة الصحيحـة للدولة والحكومة. وفي هذا السـياق، اعتُبرت الحرب شـرًا خالصًا يجب اسـتئصاله. وسـرعان ما انتشرت قومية بينثام الليبرالية من إنكلترا إلى القارة، وانتحلت تعاليمه في ألمانيا (فيلهلـم فـون هومبولت Wilhelm von Humboldt، وبارون هاينريش فون سـتاين Baron Heinrich von Stein، وكارل تيـودور ويلكـر Karl Theodor Welcker)، وفـي فرنسـا (فرانسـوا غيـزو Francois Guizot، وفيكتـور هوغـو Victor Hugo، وجـان كاسـيمير ـ بيريه Jean Casimir-Perier)، وفي إيطاليا (جوسـيبي ماتزيني Guiseppe Mazzini). ظهـرت فـوارق واختلافـات كثيرة فـي التفاصيل بين هـؤلاء الأتباع والتلاميـذ المروجيـن للفكـرة في مـا يتعلق بمـدى القوميـة الليبراليـة ونطاقها

ومضامينها. لكنهم افترضوا جميعًا أن «كل قومية يجب أن تكوّن وحدة سياسية في ظل حكومة دستورية مستقلة تنهي الاستبداد والأرستقراطية وتأثير الكنيسة، وتضمن لكل مواطن ممارسة أوسع قدر من الحرية الشخصية». تمكنت القومية الليبرالية من النجاة من الحرب العالمية الأولى، لكن لم يكن منطقها ومقاصدها السامية كافية لضمان انتصارها؛ إذ كانت «بحاجة إلى امتشاق الحسام وذبح الأعداء». وهكذا، انحسرت الليبرالية مع مد القومية، نظرًا إلى أنها اضطرت الآن إلى التنافس مع شكل جديد من القومية.

ـ قومية مبتذَلة (Banal Nationalism): أدخل المنظّر مايكل بيليغ تعبير «قومية مبتذَلة» الذي يشمل العادات الأيديولوجية التي تمكّن الأمم الراسخة في الغرب من إعادة إنتاج ذاتها. وهو يؤكد أن «الصورة الذهنية المجازية للقومية المبتذَلة ليست راية يلوّح بها بطريقة واعية وبحماسة جارفة: بل راية معلقة على مبنى رسمي من دون أن يلاحظها أحد». ووفقًا لبيليغ، لا تختفي القومية حين تكتسب الأمّة سقفًا سياسيًا، بل تمتصها البيئة المحيطة للوطن الأم الراسخ. وتغدو رموز الأمّة (النقود المعدنية والورقية والطوابع) جزءًا من حياتنا اليومية. هذه المذكرات الصغيرة تحوّل المساحة الخلفية إلى مساحة «وطنية».

ـ القومية المتكاملة (Integral Nationalism): عرّفها الداعية الرئيس لها شارل موراس بأنها «المسعى الحصري لتحقيق السياسات الوطنية، والمحافظة التامة على السيادة الوطنية، والزيادة المطّردة في القوة الوطنية ـ لأن الأمّة تصاب بالانحطاط حين تفقد قوتها». كانت القومية المتكاملة في حالة من العداء الشديد لقومية الإنسانيين والليبراليين؛ فهي لا تجعل الأمّة وسيلة للإنسانية، بل غاية في حد ذاتها. وتضع مصالح الأمّة فوق مصالح الفرد والإنسانية، وترفض التعاون مع الأمم الأخرى. من ناحية ثانية، كانت الليبرالية المتكاملة استبدادية وغير ليبرالية في ما يتعلق بالشؤون الداخلية؛ إذ طالبت المواطنين جميعهم بالامتثال للمعيار المشترك للسلوك والأخلاق، وتقاسم الحماسة نفسها له. وهي تُخضع الحريات الشخصية كلها لغرضها الخاص، وإذا اشتكى المواطنون، فسوف تُقيّد الديمقراطية باسم «المصلحة الوطنية». استمدّت فلسفة القومية المتكاملة من كتابات عدد من المنظرين في القرنين التاسع عشر والعشرين، مثل أوغست كونت وهيبوليت أدولف تاين وموريس

باري، وشارل موارس. وازدهرت القومية المتكاملة في النصف الأول من القرن العشرين، ولا سيما في بلدان مثل إيطاليا وألمانيا. كما وصل تأثيرها إلى بلدان مثل هنغاريا وبولندا وتركيا ويوغسلافيا.

ـ القومية اليعقوبية (Jacobin Nationalism): ارتكز هذا الشكل من القومية على نظرية لروسو تتعلّق بالقومية الديمقراطية الإنسانية، وطوّرها الزعماء الثوريون بغرض حماية مبادئ الثورة الفرنسية وتوسيعها. اكتسبت القومية اليعقوبية التي ارتقت في خضم الحرب الخارجية والتمرّد الداخلي، أربع سمات رئيسة: أصبحت كثيرة الشكوك ومتعصبة لا تتساهل مع الانشقاق الداخلي؛ اعتمدت في نهاية المطاف على القوة والعسكر لتحقيق غاياتها؛ أصبحت متزمّتة دينيًا؛ تشربت بالحماسة التبشيرية. وتمثّلت مأساة اليعاقبة في مثاليتهم التي بلغت حد التزمّت، في عالم شرير. وهكذا، كلما قاتلوا أكثر تعاظمت مشاعرهم القومية. وعبّدت القومية اليعقوبية أيضًا الطريق لقوميات القرن العشرين، ولا سيما الفاشية الإيطالية والاشتراكية القومية (النازية) الألمانية.

ـ المقاربة الاجتماعية ـ الحيوية (البيولوجية) (The Sociobiological Approach): «تؤكد النظرية الاجتماعية ـ الحيوية المتعلّقة بالإثنية والعرق والقومية أن هناك في الواقع ركيزة موضوعية ظاهرية لوجود مثل هذه الجماعات من دون إنكار حقيقة أنها مشكّلة اجتماعيًا وقابلة للتبدل أيضًا. «بأبسط التعابير الممكنة، يتمثّل المشهد الاجتماعي ـ الحيوي لهذه الجماعات في أنها محدّدة جوهريًا بالتحدّر من أصل مشترك، ويتم الحفاظ عليها بواسطة التناسل ضمن الزمرة الواحدة. ومن ثم، ليست الإثنية سوى القرابة بشكلها الصارخ الواضح المضخّم» (بيير فاندنبيرغ). السؤال الأساسي الذي طرحته المقاربة الاجتماعية ـ الحيوية هو: «لماذا تكون الحيوانات كائنات اجتماعية، أي لماذا تتعاون؟». الإجابة عن هذا السؤال، وفقًا لبيير فاندنبيرغ، معروفة بالحدس البديهي منذ أمد بعيد: «الحيوانات كائنات اجتماعية إلى الحد الذي يكون فيه التعاون مفيدًا بطريقة متبادلة». ويقدم فاندنبيرغ الحجّة على أن ما يفعله علم الاجتماع الحيوي (البيولوجي) هو توفير الآلية الوراثية الرئيسة للنزعة الاجتماعية لدى الحيوان، أي «الاصطفاء القرابي» لزيادة اللياقة الشاملة (والصلاحية).

- **المقاربة الثقافوية (The Culturalist Approach)**: مقاربة (تنتمي إلى النظرية البدائية) تركّز على دور «المدركات» في فهم الروابط الإثنية والوطنية، أو بكلمات كليفورد غيرتز، على «شِباك المعنى التي نسجها الأفراد أنفسهم». يستخدم غيرتز في الحقيقة تعبير «بدائي» في معناه «البدئي» الذي يشير إلى «الأول في سلسلة».. كي يسلط الضوء على الطرائق التي توفّر فيها مفاهيم التأسيس الركيزة الداعمة للأفكار أو القيم أو التقاليد أو الأيديولوجيات الأخرى التي يعتنقها الأفراد. كان أنتوني د. سميث أول من استعمل تعبير «دعاة البدائية الثقافية» في مسحه الذي أجراه عام ١٩٩٨ للنظريات المعاصرة عن القومية. لا يُعَدّ غيرتز ولا شيلز (أبرز ممثلي هذه المقاربة) الروابط البدائية مجرّد روابط عاطفية.. بل هي روابط متأصّلة في المدركات والمشاعر التي ولّدتها.. في لغة الإدراك والاعتقاد، لغة العالم الذهني والعاطفي للأفراد المعنيين.

- **المقاربة الجندرية (للقومية) (Gender Approach)**: سعت الكاتبات النسويات إلى تقديم فهم للقومية يأخذ الجندر (النوع الاجتماعي) في عين الاعتبار عبر استكشاف الطرائق المتنوعة التي ساهمت فيها المرأة في إعادة الإنتاج البيولوجية والرمزية والأيديولوجية لأمّتها.

- **المَنسَق / البارادايم (Paradigm)**: هو تصوّر أو رؤية أو طريقة في النظر إلى الأمور. وهو بالتالي نموذج أو نمط (أو منوال) متماسك في النظر إلى العالم، أو الأرومة أو النموذج النظري أو التيار الفكري السائد (وهو في العلوم الرياضية: مصفوفة حسابية). إنه بمعنى من المعاني السكّة التي يسير عليها الفكر بحيث لا تلتبس قوانينه ومفاهيمه بمنسق آخر له سكّة أخرى. وخارج مجال العلوم، تُستخدم الكلمة بمعنى «الرؤية الكونية» أو «التصوّر الشامل» أو «كيفية إدراك العالم» (Weltanschauung). ولعل أوسع الاستخدامات انتشارًا هو ذاك الذي يُنسب إلى الفيلسوف وعالِم اجتماع العلوم توماس كُوْن، في كتابه **بنية الثورات العلمية**، حيث يُعرِّفه بأنه: مجموع من المعاينات ومن الوقائع المثبتة، والأسئلة المرتبطة بالموضوع، التي تطرح حلولًا وتتطلب حلولًا، والإشارات المنهجية (حول كيفية طرح تلك الأسئلة)، وكيفية تفسير نتائج البحث العلمي. ونجد في العلوم

الاجتماعية مناسق تعالج (على سبيل التمثيل لا الحصر): نشأة الرأسمالية (ماكس فيبر في كتابه: **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**)؛ الصراع الطبقي (الماركسية)؛ والديمقراطية (أليكسيس دو توكفيل وكتابه: **عن الديمقراطية في أميركا**).

- **المواطَنة (Citizenship)**: المواطَنة تستلزم الخضوع للإرادة العامة. ولا توجد تلقائيًا: «يجب إيجاد شعور بالفخر والاعتزاز بالانتماء الوطني، حيث يرى كل مواطن في المواطَنة خيرًا أسمى» (جان جاك روسو).

- **الميثاق الوطني/ الشخصية الوطنية (National Character)**: مجمل السِّمات الجسدية والذهنية الخاصة بأمّة، وهي ليست قابلة للتغيير بـ«أي طريقة من الطرائق.. ولا سيما لأمّة في عصرنا ترتبط بأسلافها قبل ألفين أو ثلاثة آلاف عام». ينحصر مدلول الشخصية الوطنية في التشارك النسبي في السِّمات المميزة لنمط سلوك الأفراد، وهي ليست تفسيرًا لهذه الأنماط الفردية للسلوك. الشخصية الوطنية ليست تفسيرًا، بل شيء يجب تفسيره (باور).

- **النسيان الجمعي (Collective Forgetting)**: عامل حاسم في إيجاد الأمّة؛ إذ إن جوهر الأمّة هو اشتراك الأفراد جميعهم في عوامل كثيرة، وهو أيضًا نسيانهم أشياء كثيرة (رينان: «لا يوجد مواطن فرنسي يعلم هل هو بورغندي أو ألاني، أو تيفاليني أو فيسيغوثي، لكن كل مواطن فرنسي يجب أن ينسى مذبحة سان ـ بارثولوميو»).

- **النظرية ما بعد الكولونيالية (Post-colonial Theory)**: يحدّد تفسير المنظّر بارثا تشاترجي للقومية في العالم اللاأوروبي ثلاث مراحل، أو «لحظات»: لحظات المغادرة ولحظة المناورة ولحظة الوصول. تبدأ «المغادرة» بمواجهة بين القومية وإطار المعرفة الذي ابتكره الفكر العقلاني ما بعد التنويري، تؤدي إلى وعي، وقبول، باختلاف ثقافي جوهري بين الشرق والغرب. ومن المعتقد أن الثقافة الأوروبية الحديثة تمتلك سمات وصفات متصلة بالسلطة والقوة والتقدّم، بينما يحكم غياب مثل هذه الصفات والسِّمات عن الثقافات «التقليدية» الشرقية على بلدانها بالفقر والخضوع. لكن القوميين يزعمون أن هذا التخلّف ليس ثابتًا تاريخيًا؛ إذ

يمكـن مغالبتـه بتبنّي السِّمات والصفات الحديثـة للثقافة الأوروبية. يقسـم الفكر القومي عالم المؤسسات والممارسات الاجتماعية إلى مجالين اثنين: مـادي وروحي. المـادي هو مجال «الخـارج»، الاقتصاد وفن إدارة شـؤون الدولـة، والعلـم والتقانـة، مجال أثبت فيه الغـرب تفوّقًا وتقدمًـا وأظهر فيه الشـرق تخلفًـا وخضوعًا. ومن ثـم، يجب الاعتراف بتفـوق الغرب في هذا المجـال ودراسـة إنجازاته بعناية ونسـخها. مـن ناحية أخـرى، يُعَدّ الروحي مجال «الداخل» الذي يحمل العلامات المميّزة «الجوهرية» للهوية الثقافية. لذلك، كلّما تعاظم النجاح في محاكاة المهارات الغربية في المجال المادي، اشـتدت الحاجـة إلـى الحفاظ علـى تميّـز الثقافـة الروحية. «تعلـن القومية المجال الروحي منطقتها ذات السيادة»، وترفض السماح للقوة الاستعمارية التدخّـل فيهـا. لكن ذلك لا يعنـي أن يُترك المجال الروحـي على حاله من دون تغيير. بل على العكس، «هنا تطلق القومية مشروعها الأكثر قوة وإبداعًا وأهمية تاريخية: تشكيل ثقافة وطنية «حديثة» تكون مع ذلك غير غربية. فإذا كانـت الأمّـة مجتمعًـا متخيَّـلًا، فإنها هنا تظهـر إلى حيّز الوجود». وسـعت القومية إلى إظهار زيف الزعم الاسـتعماري بأن الشـعوب المتخلّفة عاجزة ثقافيًا عن حكم نفسها في ظروف العالم الحديث. وأنكرت الدونية المزعومة للشـعوب المسـتعمَرة؛ كما أكدت أن الأمّة المتخلّفة قـادرة على «تحديث» نفسـها مع الاحتفـاظ بهويتها الثقافية. وبذلك أنتجـت خطابًا قبلت فيه، إلى جانـب تحدّيهـا الزعـم الكولونيالي بالحـق في الهيمنـة السياسـية، المقدّمة المنطقية الفكرية لـ«الحداثة» ذاتها التي أُسسـت عليها الهيمنة الاستعمارية.

أمّـا لحظة «المناورة»، فهي مرحلة حاسـمة متخمة بالاحتمالات المتناقضة. «تتألف من التعزيز التاريخي لـ«الوطني» عبر انتقاد «الحديث»، والاسـتعداد للإنتاج الرأسـمالي عبر أيديولوجية مناهضة الرأسمالية». بينما تتجسّد لحظة «الوصـول» حين يبلغ الفكر القومي تطوّره الكامل، فهو يصبح الآن خطاب النظام، التنظيم العقلاني للسلطة. «هنا، لا يعبّر عن الخطاب بواسطة صوت مفرد ومتسق وواضح المعالم وحسب، بل ينجح أيضًا في تجاوز التناقضات والانقسامات والاختلافات السابقة كلها». ويحقّق فعليًا الوحدة الأيديولوجية للفكـر القومـي في الحيـاة الموحّـدة للدولـة. «الخطاب القومـي في لحظة الوصول ثورة هادئة تنطق بتاريخ حياته».

- **اليوتوبيا / الوضع الطوباوي (Utopia)**: ضرب من التأليف الفلسفي الذي يتخيّل كاتبه الحياة في مجتمع مثالي لا وجود له؛ مجتمع يزخر بأسباب الراحة والسعادة لكل بني البشر. وإلى هذا المعنى في اليونانية يرجع استخدام المصطلح الذي اشتقه سير توماس مور في عمله اللاتيني *utopia*. ولعل هذا النوع من التأليف يضرب بجذوره في جمهورية أفلاطون التي تقدم رؤيته في السياسة والحكم، ومن ثم يغلب على أعمال الأدب الطوباوي طابع سياسي حالم بمجتمع فاضل يُسعد أهله بلا استثناء. ومن هذا النوع في العربية المدينة الفاضلة للفارابي.

المراجع

Books

Abdo, Nahla and Ronit Lentin (eds.). *Women and the Politics of Military Confrontation: Palestinian and Israeli Gendered Narratives of Dislocation.* New York: Berghahn Books, 2002.

Aktar, Ayhan, Niyazi Kizilyürek and Umut Özkirimli (eds). *Nationalism in the Troubled Triangle: Cyprus, Greece and Turkey.* Basingstoke, [England]; New York: Palgrave Macmillan, 2010. (New Perspectives on South-East Europe)

Alter, Peter. *Nationalism.* London: Edward Arnold, 1989.

Anastasakis, Othon, Kalypso Aude Nicolaidis and Kerem Öktem (eds.). *In the Long Shadow of Europe: Greeks and Turks in the Era of Postnationalism.* Leiden; Boston: Martinus Nijhoff Pub., 2009. (International Relations Studies Series; v. 3)

Anderson, Benedict Richard O'Gorman. *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism.* Rev. and Extended ed. London; New York: Verso, 1991.

______. Rev. ed. London; New York; Verso, 2006.

______. *The Spectre of Comparisons: Nationalism, Southeast Asia, and the World.* London; New York: Verso, 1998.

______. *Under Three Flags: Anarchism and the Anti-Colonial Imagination.* London; New York, NY: Verso, 2005.

Anderson, Perry. *A Zone of Engagement.* London; New York: Verso, 1992.

Annual Review of Sociology. Palo Alto, Calif.: Annual Reviews Inc., 1991.

______. Palo Alto, Calif.: Annual Reviews Inc., 1993.

______. Palo Alto, Calif.: Annual Reviews Inc., 1998.

Armstrong, John Alexander. *Nations before Nationalism.* Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1982.

Balakrishnan, Gopal (ed.). *Mapping the Nation.* With an Introduction by Benedict Anderson. London: Verso, 1996.

Barnard, Frederick M. *Herder on Nationality, Humanity, and History.* Montreal; Ithaca: McGill-Queen's University Press, 2003. (McGill-Queen's Studies in the History of Ideas; 35)

Barth, Fredrik (ed.). *Ethnic Groups and Boundaries: The Social Organization of Culture Difference (Results of a Symposium Held at the University of Bergen, 23rd to 26th February 1967).* Boston: Little, Brown & Co., 1969.

Bauer, Otto. *The Question of Nationalities and Social Democracy.* Volume Editor Ephraim J. Nimni; Translated by Joseph O'Donnell; Foreword by Heinz Fisher. Minneapolis: University of Minnesota Press, 2000.

Beiner, Ronald (ed.). *Theorizing Nationalism.* Albany, NY: State University of New York Press, 1999. (SUNY Series in Political Theory. Contemporary Issues)

Benner, Erica. *Really Existing Nationalisms: A Post-Communist View from Marx and Engels.* Oxford: Clarendon Press; Oxford: New York: Oxford University Press, 1995.

Berger, Peter L. and Thomas Luckmann. *The Social Construction of Reality; a Treatise in the Sociology of Knowledge.* New York: Anchor Books, 1966.

Berlant, Lauren. *The Anatomy of National Fantasy: Hawthorne, Utopia, and Everyday Life.* Chicago: University of Chicago Press, 1991.

Bhabha, Homi K. (ed.). *Nation and Narration.* London; New York: Routledge, 1990.

Billig, Michael (ed.). *Banal Nationalism.* London; Thousand Oaks, Calif.: Sage, 1995.

Boyd, Kelly (ed.). *Encyclopedia of Historians and Historical Writing.* 2 vols. London; Chicago: Fitzroy Dearborn, 1999.
vol. 1: *A-L.*

Brass, Paul R. (ed.). *Ethnic Groups and the State.* London: Croom Helm, 1985.

______. *Ethnicity and Nationalism: Theory and Comparison*. New Delhi; Newbury Park, Calif.: Sage Publications, 1991.

______ (ed.). *Riots and Pogroms*. New York: New York University Press, 1996.

______. *Theft of an Idol: Text and Context in the Representation of Collective Violence*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1997. (Princeton Studies in Culture/Power/History)

Breuilly, John. *Nationalism and the State*. 2nd ed. Manchester: Manchester University Press, 1993.

Brown, David. *Contemporary Nationalism: Civic, Ethnocultural, and Multicultural Politics*. London; New York: Routledge, 2000.

Brubaker, Rogers. *Citizenship and Nationhood in France and Germany*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1992.

______. *Ethnicity without Groups*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004.

______. *Nationalism Refrained: Nationhood and the National (Question in the New Europe)*. Cambridge: Cambridge University Press, 1996.

______ [et al.]. *Nationalist Politics and Everyday Ethnicity in a Transylvanian Town*. Princeton: Princeton University Press, 2006.

Burr, Vivien. *An Introduction to Social Constructionism*. London; New York: Routledge, 1995.

Calhoun, Craig. *Nationalism*. Buckingham: Open University Press, 1997.

______. *Nations Matter: Culture, History, and the Cosmopolitan Dream*. London; New York: Routledge, 2007.

Canovan, Margaret. *Nationhood and Political Theory*. Cheltenham, UK; Brookfield, Vt.: Edward Elgar, 1996.

Carr, Edward Hallett. *Nationalism and After*. London: Macmillan, 1945.

Chatterjee, Partha. *Nationalist Thought and the Colonial World: A Derivative Discourse?*. London, UK: Zed Books; Totowa, NJ: US distributor, Biblio Distribution Center, 1986. (Third World Books)

______. *The Nation and its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993. (Princeton Studies in Culture/Power/History)

Cheah, Pheng and Jonathan Culler (eds.). *Grounds of Comparison: Around the Work of Benedict Anderson*. New York: Routledge, 2003.

Chernilo, Daniel. *A Social Theory of the Nation State: The Political Forms of Methodological Nationalism*. London; New York: Routledge, 2007.

Clifford, James and George E. Marcus (eds.). *Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography: A School of American Research Advanced Seminar*. Berkeley: University of California Press, 1986.

Colley, Linda. *Britons: Forging the Nation, 1707-1837*. New Haven: Yale University Press, 1992.

Comaroff, John L. and Paul C. Stern (eds.). *Perspectives on Nationalism and War*. [Australia; United States]: Gordon and Breach, 1995. (International Studies in Global Change; v. 7)

Connor, Walker. *Ethnonationalism: The Quest for Understanding*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

Conversi, Daniele (ed.). *Ethnonationalism in the Contemporary World: Walker Connor and the Study of Nationalism*. London; New York: Routledge, 2002.

Crossley, Ceri. *French Historians and Romanticism: Thierry, Guizot, the Saint-Simonians, Quinet, Michelet*. London; New York: Routledge, 1993.

Dahbour, Omar and Micheline R. Ishay (eds.). *The Nationalism Reader*. Atlantic Highlands, NJ: Humanities Press, 1995.

Day, Graham and Andrew Thompson. *Theorizing Nationalism*. Consultant Editor Jo Campling. Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2004.

Delanty, Gerard and Krishan Kumar (eds.). *The SAGE Handbook of Nations and Nationalism*. London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2006.

Delanty, Gerard and Patrick O'Mahony. *Nationalism and Social Theory: Modernity and the Recalcitrance of the Nation*. London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2002. (New Horizons in Sociology)

Deutsch, Karl W. *Nationalism and Social Communication; an Inquiry into the Foundations of Nationality*. 2nd ed. Cambridge: MIT Press, 1966.

Dieckhoff, Alain and Christophe Jaffrelot (eds.). *Revisiting Nationalism: Theories and Processes*. London: Hurst, 2005. (CERI Series in Comparative Politics and International Studies).

Dingley, James. *Nationalism, Social Theory and Durkheim*. Basingstoke, [England]; New York: Palgrave Macmilan, 2008.

Durkheim, Emile. *Durkheim on Politics and the State*. Edited with an Introduction by Anthony Giddens; Translated by W. D. Halls. Oxford: Polity Press, 1986.

______. *The Elementary Forms of Religious Life*. Translated and with an Introduction by Karen E. Fields. New York: Free Press, 1995.

Edensor, Tim. *National Identity, Popular Culture and Everyday Life*. Oxford; New York: Berg Publishers, 2002.

Eley, Geoff and Ronald Grigor Suny (eds.). *Becoming National: A Reader*. New York: Oxford University Press, 1996.

Enloe, Cynthia. *Bananas, Beaches and Bases: Making Feminist Sense of International Politics*. London: Pandora, 1989.

Femia, Joseph V. *Gramsci's Political Thought: Hegemony, Consciousness, and the Revolutionary Process*. Oxford, [Oxfordshire]: Clarendon Press, 1987.

Fenton, Steven. *Ethnicity*. Cambridge: Polity Press, 2003.

Forman, Michael. *Nationalism and the International Labor Movement: The Idea of the Nation in Socialist and Anarchist Theory*. University Park, Pa.: Pennsylvania State University Press, 1998.

Foucault, Michel. *Archaeology of Knowledge*. Translated by A. M. Sheridan Smith. London; New York: Routledge, 2002. (Routledge Classics)

______. *Essential Works of Foucault, 1954-1984*. Edited by James D. Faubion. London: Penguin Press, 2002.
vol. 3: *Power*.

Geary, Patrick J. *The Myth of Nations: The Medieval Origins of Europe*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002.

Geertz, Clifford. *The Interpretation of Cultures: Selected Essays*. London: Fontana Press, 1973.

______. ______. 2nd ed. London: Fontana Press, 1993.

Gellner, Ernest. *Encounters with Nationalism*. Oxford, [England]; Cambridge, Mass.: Blackwell, 1994.

______. *Nationalism*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1997.

______. *Nations and Nationalism*. Oxford: Blackwell, 1983.

______. ______. Introduction by John Breuilly. 2nd ed. Malden, MA: Blackwell Pub., 2006. (New Perspectives on the Past)

______. *Spectacles and Predicaments: Essays in Social Theory*. Cambridge, [Eng.]; New York: Cambridge University Press, 1979.

______. *Thought and Change*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1964.

Gillis, John R. (ed.). *Commemorations: The Politics of National Identity*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

Goldmann, Kjell, Ulf Hannerz and Charles Westin (eds.). *Nationalism and Internationalism in the Post-Cold War Era*. London: New York: Routledge, 2000.

Gramsci, Antonio. *Selections from the Prison Notebooks of Antonio Gramsci*. Edited and Translated by Quintin Hoare and Geoffrey Nowell Smith. London: Lawrence and Wishart, 1971.

Greenfeld, Liah. *Nationalism: Five Roads to Modernity*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1992.

Grewal, Inderpal and Caren Kaplan (eds.). *Scattered Hegemonies: Postmodernity and Transnational Feminist Practices*. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1994.

Grosby, Steven. *Nationalism: A Very Short Introduction*. Oxford; New York: Oxford University Press, 2005. (Very Short Introductions; 134)

Guibernau, Monserrat and John Hutchinson (eds.). *History and National Destiny: Ethnosymbolism and its Critics*. Oxford: Blackwell, 2004.

______(eds.). *Understanding Nationalism*. Cambridge: Polity; Malden, MA: Blackwell, 2001.

Hall, John A. (ed.). *The State of the Nation: Ernest Gellner and the Theory of Nationalism*. New York: Cambridge University Press, 1998.

______and Ian Charles Jarvie (eds.). *The Social Philosophy of Ernest Gellner*. Atlanta, GA; Amsterdam: Rodopi, 1996. (Poznań Studies in the Philosophy of the Sciences and the Humanities; no. 48)

Hall, Stuart [et al.] (eds.). *Modernity: An Introduction to Modern Societies*. Cambridge, Mass.: Blackwell, 1996.

Halliday, Fred. *Nation and Religion in the Middle East*. London: Saqi Books, 2000.

Hastings, Adrian. *The Construction of Nationhood: Ethnicity, Religion, and Nationalism*. Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1997. (Wiles Lectures; 1996).

Hayes, Carlton J. H. *The Historical Evolution of Modern Nationalism*. New York: Macmillan, 1931.

Hearn, Jonathan. *Rethinking Nationalism: A Critical Introduction*. Houndmills; Basingstoke; Hampshire, [England]; New York: Palgrave Macmillan, 2006.

Heater, Derek. *The Theory of Nationhood: A Platonic Symposium*. Basingstoke: Macmillan, 1998.

Hechter, Michael. *Containing Nationalism*. Oxford, [England]; New York: Oxford University Press, 2000.

______. *Internal Colonialism: The Celtic Fringe in British National Development, 1536-1966*. London: Routledge and Kegan Paul, 1975. (International Library of Sociology)

______. ______. With a New Introduction and Appendix by the Author. New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 1999.

Herzfeld, Michael. *Cultural Intimacy: Social Poetics in the Nation-State*. New York: Routledge, 1997.

Hewitt, J. Joseph, Jonathan Wilkenfeld and Ted Robert Gurr. *Peace and conflict 2008: Executive Summary*. Maryland: Center for International Development and Conflict Management, University of Maryland, 2008.

Hobsbawm, Eric J. *Age of Extremes: The Short Twentieth Century, 1914-1991*. London: Michael Joseph; New York: Viking Penguin, 1994.

______. *Interesting Times: A Twentieth-Century Life*. London: Abacus, 2002.

______. *Nations and Nationalism Since 1780: Programme, Myth, Reality*. Cambridge, [England]; New York: Cambridge University Press, 1990. (Wiles Lectures)

______ and Terence Ranger (eds.). *The Invention of Tradition*. Cambridge, [Cambridgeshire]; New York: Cambridge University Press, 1983. (Past and Present Publications)

Hroch, Miroslav. *Comparative Studies in Modern European History: Nation, Nationalism, Social Change*. Aldershot; Burlington, VT: Ashgate Variorum, 2007. (Variorum Collected Studies Series; CS886)

______. *Social Preconditions of National Revival in Europe: A Comparative Analysis of the Social Composition of Patriotic Groups among the Smaller European Nations*. Cambridge, [Cambridgeshire]; New York: Cambridge University Press, 1985.

Hutchinson, John. *Modern Nationalism*. London: Fontana, 1994.

______ *Nations as Zones of Conflict*. London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2005.

______ and Anthony D. Smith (eds.). *Nationalism*. Oxford; New York: Oxford University Press, 1994. (Oxford Readers)

______ (eds). *Nationalism: Critical Concepts in Political Science*. 5 vols. London; New York: Routledge, 2000.

Ichijo, Atsuko and Gordana Uzelac (eds.). *When Is the Nation?: Towards an Understanding of Theories of Nationalism*. Milton Park Abingdon, Oxon; New York: Routledge, 2005.

James, Paul Warren. *Nation Formation: Towards a Theory of Abstract Community*. London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 1996.

Jayawardena, Kumari. *Feminism and Nationalism in the Third World*. New Delhi: Kali for Women; London: Zed Books; Totowa, NJ: U.S. Distributor, Biblio Distribution Center, 1986. (Third World Books)

Kedourie, Elie. *Nationalism*. 4th Expanded ed. Oxford, UK; Cambridge, Mass., USA: Blackwell, 1993.

______. *Nationalism in Asia and Africa*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1971.

Kellas, James G. *The Politics of Nationalism and Ethnicity*. London: Macmillan, 1991.

Kohn, Hans. *The Age of Nationalism; the First Era of Global History*. New York: Harper, 1962. (World Perspectives; v. 28)

______. *American Nationalism; an Interpretative Essay*. New York: Macmillan, 1957.

______. *The Idea of Nationalism: A Study in its Origins and Background*. New York: Macmillan Company, 1958.

______. ______. With a New Introduction by Craig Calhoun. New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2005.

______. *Nationalism, its Meaning and History*. Rev. ed. Princeton, NJ.: Van Nostrand, 1965.

______. *Prophets and Peoples; Studies in Nineteenth Century Nationalism*. New York: Macmillan company, 1946.

Kumar, Krishan. *The Making of English National Identity*. Cambridge; New York: Cambridge University Press, 2003. (Cambridge Cultural Social Studies)

Laclaŭ, Ernesto and Chantal Mouffe. *Hegemony and Socialist Strategy: Towards a Radical Democratic Politics*. Translated by Winston Moore and Paul Cammack. London: Verso, 1985.

Laitin, David D. *Nations, States, and Violence*. Oxford; New York: Oxford University Press, 2007.

Lawrence, Paul. *Nationalism: History and Theory*. Harlow, England; New York: Pearson Education, 2005.

Leoussi, Athena S. (ed.). *Encyclopedia of Nationalism*. Consultant Advisor Anthony D. Smith. New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2001.

______ and Steven Elliott Grosby (eds.). *Nationalism and Ethnosymbolism: History, Culture and Ethnicity in the Formation of Nations*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 2007.

Lerner, Daniel. *The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East*. With the Collaboration of Lucille W. Pevsner, and an Introd. by David Riesman. Glencoe, Ill.: Free Press, 1958.

Littlejohn, G. [et al.] (eds.). *Power and the State*. London: Groom Helm, 1978.

Llobera, Josep R. *The God of Modernity: The Development of Nationalism in Western Europe*. Oxford, [England]; Providence, USA: Berg, 1994. (Berg European Studies Series)

Lowy, Michael. *Fatherland or Mother Earth?: Essays on the National Question*. London; Sterling, Virginia: Pluto Press, 1998.

Lutz, Helma, Ann Phoenix and Nira Yuval-Davis (eds.). *Crossfires: Nationalism, Racism, and Gender in Europe*. London: Pluto Press, 1995.

Luxemburg, Rosa. *The Junius Pamphlet: The Crisis in the German Social Democracy*. Colombo: A Young Socialist Publication, 1967.

______. *The Letters of Rosa Luxemburg*. Edited and with an Introd. by Stephen Eric Bronner; with a Foreword by Henry Pachter. Boulder, Colo.: Westview Press, 1978.

Malešević, Siniša. *Identity as Ideology: Understanding Ethnicity and Nationalism.* Basingstoke, [England]; New York: Palgrave Macmillan, 2006.

______ and Mark Haugaard (eds.). *Ernest Gellner and Contemporary Social Thought*. Cambridge; New York: Cambridge University Press, 2007.

Mann, Michael. *The Sources of Social Power*. New York: Cambridge University Press, 1993.

Vol.2: *The Rise of Classes and Nation-States, 1760-1914.*

Marx, Karl and Friedrich Engels. *The Communist Manifesto: A Modern Edition.* With an Introduction by Eric Hobsbawm. London; New York: Verso, 1998.

Mayer, Tamar (ed.). *Gender Ironies of Nationalism: Sexing the Nation*. London; New York: Routledge, 2000.

McCrone, David. *The Sociology of Nationalism: Tomorrow's Ancestors*. London; New York: Routledge, 1998. (International Library of Sociology)

Michener, Roger (ed.). *Nationality, Patriotism, and Nationalism in Liberal Democratic Societies*. St. Paul, MN: Professors World Peace Academy (PWPA), 1993. (World Social Systems. Liberal Democratic Societies)

Mills, Sara. *Discourse*. London; New York: Routledge, 2004. (New Critical Idiom)

Moghadam, Valentine M. (ed.). *Gender and National Identity: Women and Politics in Muslim Societies*. London; Atlantic Hughlands, NJ: Zed Books; Karachi: Oxford University Press, 1994.

Morley, David and Kuan-Hsing Chen (eds.). *Stuart Hall: Critical Dialogues in Cultural Studies*. London; New York: Routledge, 1996. (Comedia)

Mosse, George L. *Nationalism and Sexuality: Respectability and Abnormal Sexuality in Modern Europe*. Madison, Wisc.: University of Wisconsin Press, 1985.

Motyl, Alexander J. (ed.). *Encyclopedia of Nationalism*, 2 vols. San Diego, Calif.; London: Academic Press, 2001.

Mouffe, Chantal (ed.). *Gramsci and Marxist Theory*. London; Boston: Routledge and Kegan Paul, 1979.

Munck, Ronaldo. *The Difficult Dialogue: Marxism and Nationalism*. London; Atlantic Highlands, NJ: Zed Books, 1986.

Nairn, Tom. *The Break-up of Britain: Crisis and Neonationalism.* 2nd Expanded ed. London: NLB and Verso Editions, 1981.

______. ______. 3rd ed. Melbourne: Common Ground Publishing, 2003.

______. *Faces of Nationalism: Janus Revisited.* London: Verso, 1997.

______ and Paul James. *Global Matrix: Nationalism, Globalism and State-Terrorism*. London; Ann Arbor, MI: Pluto Press, 2005.

Nimni, Ephraim. *Marxism and Nationalism: Theoretical Origins of a Political Crisis*. London; Concord, Mass.: Pluto Press, 1991.

Nossiter, T. J., A. H. Hanson and Stein Rokkan (eds.). *Imagination and Precision in the Social Sciences: Essays in Memory of Peter Nettl.* London: Faber, 1972.

Özkirimli, Umut. *Contemporary Debates on Nationalism: A Critical Engagement.* Houndmills, Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2005.

______. *Nationalism and its Futures*. New York: Palgrave Macmillan, 2003.

______ and Spyros A. Sofos. *Tormented by History: Nationalism in Greece and Turkey.* London: Hurst, 2008.

Parker, Andrew [et al.] (eds.). *Nationalisms and Sexualities.* New York: Routledge, 1992.

Pecora, Vincent P. (ed.). *Nations and Identities: Classic Readings*. Malden, Mass.: Blackwell, 2001. (Keyworks in Cultural Studies; 1)

Periwal, Sukumar (ed.). *Notions of Nationalism*. Budapest; New York: Central European University Press, 1995.

Pettman, Jan Jindy. *Worlding Women: A Feminist International Politics.* London; New York: Routledge, 1996.

Puri, Jyoti. *Encountering Nationalism.* Malden, MA: Blackwell, 2004. (21st-Century Sociology; 6)

Reicher, Stephen and Nick Hopkins. *Self and Nation: Categorization, Contestation, and Mobilization*. London; Thousand Oaks, Calif.: SAGE, 2001.

Roberts, J. Timmons and Amy Hite (eds.). *From Modernization to Globalization: Perspectives on Development and Social Change*. Oxford; Malden, MA: Blackwell, 2000. (Blackwell Readers in Sociology; 1)

Roshwald, Aviel. *The Endurance of Nationalism: Ancient Roots and Modern Dilemmas.* Cambridge: Cambridge University Press, 2006.

Sangari, Kumkum and Sudesh Vaid (eds.). *Recasting Women: Essays in Indian Colonial History*. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1990.

Sassoon, Anne Showstack (ed.). *Approaches to Gramsci*. London: Writers and Readers, 1982.

Scott, James C. *Weapons of the Weak: Everyday Forms of Peasant Resistance*. New Haven: Yale University Press, 1985.

Sieyès, Emmanuel Joseph. *Political Writings: Including the Debate between Sieyès and Tom Paine in 1791*. Edited with an Introduction and Translation of what Is the Third Estate? by Michael Sonenscher. Indianapolis, Ind.: Hackett Pub. Co., 2003.

Simon, Roger. *Gramsci's Political Thought: An Introduction*. Introductory Essay by Stuart Hall. Completely rev. and reset. London: Lawrence and Wishart, 1991.

Smith, Anthony D. *Chosen Peoples*. Oxford; New York: Oxford University Press, 2003.

______. *The Cultural Foundations of Nations: Hierarchy, Covenant and Republic*. Malden, MA: Blackwell Pub., 2008.

______. *The Ethnic Origins of Nations*. Oxford, UK; New York, NY: B. Blackwell, 1986.

______. *Myths and Memories of the Nation*. Oxford: Oxford University Press, 1999.

______. *National Identity*. London. Penguin, 1991.

______. *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism*. London; New York: Routledge, 1998.

______. *Nationalism: Theory, Ideology, History*. Malden, Mass.: Polity Press, 2001. (Key Concepts)

______. *Nations and Nationalism in a Global Era*. Cambridge, UK: Polity Press, 1995.

______. *The Nation in History: Historiographical Debates about Ethnicity and Nationalism*. Cambridge: Polity, 2000.

______. *Theories of Nationalism*. 2nd ed. London: Duckworth, 1983.

Snyder, Louis L. *The New Nationalism*. Ithaca, NY: Cornell University Press, [1968].

Spencer, Philip and Howard Wollman (eds.). *Nations and Nationalism: A Reader*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 2005.

______. *Nationalism: A Critical Introduction*. London; Thousand Oaks, Calif.: Sage, 2002.

Stasiulis, Daiva and Nira Yuval-Davis (eds.). *Unsettling Settler Societies: Articulations of Gender, Race, Ethnicity and Class*. London; Thousand Oaks, Calif.: Sage, 1995. (Sage Series on Race and Ethnic Relations; v. 11)

Stiglmayer, Alexandra (ed.). *Mass Rape: The War against Women in Bosnia-Herzegovina*. Translations by Marion Faber; Foreword by Roy Gutman. Lincoln: University of Nebraska Press, 1994.

Sutton, Constance R. (ed.). *Feminism, Nationalism, and Militarism*. Arlington, VA: Association for Feminist Anthropology/American Anthropological Association in Collaboration with the International Women's Anthropology Conference, 1995.

Tamir, Yael. *Liberal Nationalism*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993. (Studies in Moral, Political, and Legal Philosophy)

Taylor, David and Malcolm Yapp (eds.). *Political Identity in South Asia*. London: Curzon Press; Atlantic Highlands, NJ: Humanities Press, 1979. (Collected Papers on South Asia; no. 2)

Tiryakian, Edward A. and Ronald Rogowski (eds.). *New Nationalisms of the Developed West: Toward Explanation*. Boston: Allen and Unwin, 1985.

Van den Berghe, Pierre L. *The Ethnic Phenomenon*. New York: Elsevier, 1981.

Varouxakis, Georgios. *Mill on Nationality*. London; New York: Routledge, 2002. (Routledge/PSA Political Studies Series; 3)

Veer, Peter van der and Hartmut Lehmann (eds.). *Nation and Religion: Perspectives on Europe and Asia*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999.

West, Lois A. (ed.). *Feminist Nationalism*. New York: Routledge, 1997.

Wilford, Rick and Robert L. Miller (eds.). *Women, Ethnicity and Nationalism: The Politics of Transition*. London; New York: Routledge, 1998.

Williams, Raymond. *Marxism and Literature*. Oxford, [Eng.]: Oxford University Press, 1977. (Marxist Introductions)

Wilmsen, Edwin N. and Patrick McAllister (eds.). *The Politics of Difference: Ethnic Premises in a World of Power*. Chicago: University of Chicago Press, 1996.

Wilson, Fiona and Bodil Folke Frederiksen (eds.). *Ethnicity, Gender, and the Subversion of Nationalism*. London; Portland, Or.: F. Cass in Association with the European Association of Development Research and Training Institutes (EADI), 1995.

Wodak, Ruth [et al.]. *The Discursive Construction of National Identity*. Translated by Angelika Hirsch, Richard Mitten and J. W. Unger. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1999. (Critical Discourse Analysis)

Woolf, Stuart (ed.). *Nationalism in Europe, 1815 to the Present: A Reader*. London; New York: Routledge, 1996.

Yuval-Davis, Nira. *Gender and Nation*. London; Thousand Oaks, Calif.: Sage Publications, 1997. (Politics and Culture)

______ and Floya Anthias (eds.). *Woman-Nation-State*. Consulting Editor Jo Campling. Houndmills; Basingstoke; Hampshire: Macmillan, 1989.

Zimmer, Oliver. *Nationalism in Europe, 1890-1940*. Basingstoke, Hampshire; New York: Palgrave Macmillan, 2003. (Studies in European History)

Periodicals

Abizadeh, Arash. «Book Review: *Nations, States, and Violence* by David D. Laitin.» *Nations and Nationalism:* vol. 14, no. 3, July 2008.

AL-Ali, Nadje. «Review Article: Nationalisms, National Identities and Nation States: Gendered Perspectives.» *Nations and Nationalism:* vol. 6, no. 4, October 2000. 631-8.

Anand, D. «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*, Imagining Nations, Nationalisms Old and New.» *Nationalism and Ethnic Politics:* vol. 7, no. 3, 2001. 127-30.

Anderson, Perry. «The Age of EJH.» *London Review of Books*: vol. 24, no. 19, October 2002.

Avineri, Shlomo. «Marxism and Nationalism.» *Journal of Contemporary History*: vol. 26, nos. 3-4, 1991.

Balibar, Etienne. «The Nation Form: History and Ideology.» *New Left Review*: vol. 13, no. 3, Summer 1990.

Banton, Michael. «Max Weber on «Ethnic Communities»: A Critique.» *Nations and Nationalism*: vol. 13, no. 1, January 2007.

Barnard, Frederick M. «National Culture and Political Legitimacy: Herder and Rousseau.» *Journal of the History of Ideas*: vol. 44, no. 2, April - June, 1983.

______. «Patriotism and Citizenship in Rousseau: A Dual Theory of Public Willing?.» *Review of Politics*: vol. 46, no. 2, April 1984.

Bauman, Zygmunt. «Soil, Blood and Identity.» *Sociological Review*: vol. 40, no. 4, November 1992.

Berlant, Lauren and Elizabeth Freeman. «Queer Nationality.» *Boundary 2*: vol. 19, no. 1: *New Americanists 2: National Identities and Postnational Narratives*, Spring 1992.

Boyd, Richard. «Civility and Social Science: The Contribution of Edward Shils.» *Social Science Quarterly*: vol. 79, no. 1, March 1998.

Bracewell, Wendy. «Rape in Kosovo: Masculinity and Serbian Nationalism.» *Nations and Nationalism*, vol. 6, no. 4, October 2000.

Brass, Paul R. «A Reply to Francis Robinson.» *Journal of Commonwealth and Comparative Politics*: vol. 15, no. 3, 1977.

Breuilly, John. «Reflections on Nationalism.» *Philosophy of the Social Sciences*: vol. 15, no. 1, 1985.

Brubaker, Rogers «Book Review: *Ethnicity without Groups*.» Reviewed by Siniša Malešević. *Nations and Nationalism*: vol. 12, no. 4, October 2006.

Brubaker, Rogers. «Ethnicity without Groups.» *Archives Europeennes de Sociologie*: vol. 43, no. 2, November 2002.

______ and Frederick Cooper. «Beyond «Identity».» *Theory and Society*: no. 29, 2000.

Calhoun, Craig. «Belonging» in the Cosmopolitan Imaginary.» *Ethnicities*: vol. 3, no. 4, 2003.

Carroll, David. «The Art of the People: Aesthetic Transcendence and National Identity in Jules Michelet.» *Boundary 2*: vol. 25, no. 1: *Thinking through Art: Aesthetic Agency and Global Modernity*, Spring 1998.

Chatterjee, Partha. «Beyond the Nation? Or Within?.» *Social Text*: no. 56, Autumn 1998.

______. «Empire and Nation Revisited: 50 Years after Bandung.» *Inter-Asia Cultural Studies*: vol. 6, no. 4, 2005.

Cocks, Joan. «From Politics to Paralysis: Critical Intellectuals Answer the National Question.» *Political Theory*: vol. 24, no. 3, August 1996.

Crace, John. «Living History.» *BBK Magazine*: no. 22, Summer 2007.

Cranston, Maurice. «Obituary: Elie Kedourie (1926-92).» *Political Studies*: vol. 40, no. 3, September 1992.

Csergo, Zsuzsa. «Review Essay: Do We Need a Language Shift in the Study of Nationalism and Ethnicity? Reflections on Rogers Brubaker's Critical Scholarly Agenda.» *Nations and Nationalism*: vol. 14, no. 2, April 2008.

Cusack, Tricia. «Janus and Gender: Women and the Nation's Backward Look.» *Nations and Nationalism*: vol. 6, no. 4, October 2000.

Davidson, Neil. «In Perspective: Tom Nairn.» *International Socialism Journal*: no. 82, March 1999. On the Web: <http://pubs.socialistrcviewindcx.org.uk/isj82ydavidson.htm>.

Dewey, Donald. «Edward Shils: A Last Harvest.» *Society*: vol. 36, no. 3, March-April 1999.

Eller, Jack and Reed Coughlan. «The Poverty of Primordialism: The Demystification of Ethnic Attachments.» *Ethnic and Racial Studies*: vol. 16, no. 2, April 1993.

Epstein, Joseph. «My Friend Edward.» *Minerva*: vol. 34, no. 1, 1996.

Eriksen, Thomas Hylland. «Nationalism and the Internet.» *Nations and Nationalism*: vol. 13, no. 1, January 2007.

Feminist Review: no. 44: *Nationalisms and National Identities*, Summer 1993.

Flynn, M. K. «Nationalism: Theory and its Discontents.» *Global Review of Ethnopolitics*: vol. 1, no. 3, March 2002.

Frusetta, J. «Book Review: *Nationalism and Modernism*.» *Nationalism and Ethnic Politics*: vol. 6, no. 4, 2000.

Gellner, Ernest. «Ernest Gellner's Reply: «Do Nations Have Navels?».» *Nations and Nationalism*: vol. 2, no. 3, November 1996.

Gender and History: vol. 5, no. 2: *Gender, Nationalisms and National Identities*, 1993.

Greenfeld, Liah. «Nationalism and the Mind.» *Nations and Nationalism*: vol. 11, no. 3, July 2005.

______. «Transcending the Nation's Worth.» *Daedalus*: vol. 122, no. 3, Summer 1993.

Grosby, Steven. «Religion, Ethnicity and Nationalism: The Uncertain Perennialism of Adrian Hastings.» *Nations and Nationalism*: vol. 9, no. 1, January 2003.

______. «Scholarly Obligations in the Study of Nationality.» *Nations and Nationalism*: vol. 13, no. 3, July 2007.

Guibernau, Montserrat. «Anthony D. Smith on Nations and National Identity: A Critical Assessment.» *Nations and Nationalism*: vol. 10, nos. 1-2, January 2004.

Hall, John A. «Nationalisms: Classified and Explained.» *Daedalus*: vol. 122, no. 3, Summer 1993.

Handler, Richard. «An Interview with Clifford Geertz.» *Current Anthropology*: vol. 32, no. 5, 1991.

Hawkins, M. «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*.» *Journal of Southern Europe and the Balkans*: vol. 3, no. 2, 2001.

Headlam, J. W. «Heinrich von Treitschke.» *English Historical Review*: vol. 12, no. 48, October 1897.

Hechter, Michael. «Book Review: *Nationalism and Community of Citizens*.» *Contemporary Sociology*: vol. 28, no. 5, 1999.

______. «Nationalism and Rationality.» *Studies in Comparative International Development*: vol. 35, no. 1, Spring 2000.

______. and Margaret Levi. «The Comparative Analysis of Ethnoregional Movements.» *Ethnic and Racial Studies*: vol. 2, no. 3, 1979.

Hobsbawm, Eric J. «Some Reflections on «The Break-up of Britain».» *New Left Review*: vol. 1, no. 105, September-October 1977.

Hoijer, R. «Book Review: *Containing Nationalism*.» *European Sociological Review*: vol. 16, no. 3, September 2000.

Hroch, Miroslav. «From National Movement to the Fully-Formed Nation: The Nation-Building Process in Europe.» *New Left Review*: vol. 1, no. 198, March-April 1993.

______. «Nationalism and National Movements: Comparing the Past and the Present of Central and Eastern Europe.» *Nations and Nationalism*: vol. 2, no. 1, March 1996.

Hutchinson, John. «In Defence of Transhistorical Ethno-Symbolism: A Reply to my Critics.» *Nations and Nationalism*: vol. 14, no. 1, January 2008.

Huysseune, Michel. «Masculinity and Secessionism in Italy: An Assessment.» *Nations and Nationalism*: vol. 6, no. 4, October 2000.

Jenkins, K. «Book Review: *The Ethnic Phenomenon*.» *Man*: vol. 18, no. 2, 1983.

Journal of Gender Studies: vol. 1, no. 3: *Feminism and Nationalism*, 1992.

Kandiyoti, Deniz. «Guest Editor's Introduction: The Awkward Relationship: Gender and Nationalism.» *Nations and Nationalism*: vol. 6, no. 4, October 2000.

Kaufmann, Eric. «Introducing *Nations as Zones of Conflict*.» *Nations and Nationalism*: vol. 14, no. 1, January 2008.

Kecmanovic, D. «Nationalism and Mental Health: A Critique of Greenfeld's Recent Views of Nationalism.» *Nationalism and Ethnic Politics*: vol. 13, no. 2, 2007.

Kedourie, Elie. «Not So Grand Illusions.» *New York Review of Books*: vol. 9, no. 9, November 1967.

Khazaleh, L. «Benedict Anderson: «I Like Nationalism's Utopian Elements».» (2005). On the Web: <http://www.eulcom.uio.no/english/news/2005/>.

Kitching, G. «Nationalism: The Instrumental Passion.» *Capital and Class*: no. 25, 1985.

Koelble, Thomas A. «Towards a Theory of Nationalism: Culture, Structure and Choice Analyses Revisited.» *Nationalism and Ethnic Politics*: vol. 1, no. 4, Winter 1995.

Kohn, Hans. «The Paradox of Fichte's Nationalism.» *Journal of the History of Ideas*: vol. 10, no. 3, June 1949.

______. «Romanticism and the Rise of German Nationalism.» *Review of Politics*: vol. 12, no. 4, October 1950.

Kramer, Martin. «Policy and the Academy: An Illicit Relationship?.» *Middle East Quarterly*: vol. 10, no. 1,Winter 2003.

Kuzio, Taras. «The Myth of the Civic State: A Critical Survey of Hans Kohn's Framework for Understanding Nationalism.» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 25, no. 1, January 2002.

Laitin, David D. «Trapped in Assumptions.» *Review of Politics*: vol. 63, no. 1, December 2001.

Lears, T. J. Jackson. «The Concept of Cultural Hegemony: Problems and Possibilities.» *American Historical Review*: vol. 90, no. 3, June 1985.

Leoussi, Athena S. «Theories of Nationalism and the National Revival.» *Geopolitics*: vol. 7, no. 2, Autumn 2002.

Liebich, Andre. «Searching for the Perfect Nation: The Itinerary of Hans Kohn (1891–1971).» *Nations and Nationalism*: vol. 12, no. 4, October 2006.

MacDonald, David B. «Book Review: Umut Ozkirimli, *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*.» *Millennium: Journal of International Studies*: vol. 30, no. 3, December 2001.

Mann, Michael. «Book Review: *The Break-up of Britain: Crisis and Neo-Nationalism*.» *British Journal of Sociology*: vol. 29, no. 4, December 1978.

Marx, A. W. «Book Review: *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism*.» *Ethnic and Racial Studies*: vol. 23, no. 1, January 2000.

Mason, C. «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*.» *Nations and Nationalism*: vol. 7, no. 4, October 2001.

Matthews, Wade. «Class, Nation, and Capitalist Globalization: Eric Hobsbawm and the National Question.» *International Review of Social History*: vol. 53, no. 1, 2008.

McCrone, David. «Book Review: *Nationalism and Modernism: A Critical Survey of Recent Theories of Nations and Nationalism*.» *British Journal of Sociology*: vol. 51, no. 2, June 2000.

McLaughlin, Eric S. «Book review: *Nations, States, and Violence*, by D. D. Laitin.» *Comparative Political Studies* vol. 41, 2008.

Micheelsen, Arun. «I Don't Do Systems»: An Interview with Clifford Geertz.» *Method and Theory in the Study of Religion*: vol. 14, no. 1, March 2002.

Mirza, M. «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*.» *Studies in Ethnicity and Nationalism*: vol. 2, no. 1, 2002.

Mitchell, M. Marion. «Emile Durkheim and the Philosophy of Nationalism.» *Political Science Quarterly*: vol. 46, no. 1, March 1931.

Motyl, Alexander J. «Imagined Communities, Rational Choosers, Invented Ethnies.» *Comparative Politics*: vol. 34, no. 2, January 2002.

Nairn, Tom. «Scotland and Europe.» *New Left Review*: vol. 1, no. 83, January-February 1974.

Nations and Nationalism: vol. 6, no. 4: *Gender and Nationalism*, October 2000.

Norkus, Zenonas. «Max Weber on Nations and Nationalism: Political Economy before Political Sociology.» *Canadian Journal of Sociology = Cahiers canadiens de sociologie*: vol. 29, no. 3, Summer 2004.

«Obituary: Edward Shils, Committee on Social Thought, Sociology.» *University of Chicago Chronicle*: vol. 14, no. 11, February 1995. On the Web: <http://chronicle.uchicago.edu>.

Orridge, Andrew W. «Uneven Development and Nationalism, 1.» *Political Studies*: vol. 29, no. 1, March 1981.

______. «Uneven Development and Nationalism, 2.» *Political Studies*: vol. 29, no. 2, June 1981.

Özkirimli, Umut. «The Double Life of John Hutchinson or Bringing Ethno-Symbolism and Postmodernism Together.» *Nations and Nationalism*: vol. 14, no. 1, January 2008.

______. «The Nation as an Artichoke? A Critique of Ethnosymbolist Interpretations of Nationalism.» *Nations and Nationalism*: vol. 9, no. 3, July 2003.

______. «The «Perennial» Question: Nations in Antiquity or the Antique Shop of History?.» *Nations and Nationalism*: vol. 13, no. 3, July 2007.

Peled, Y. «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction.*» *Ethnic and Racial Studies*: vol. 25, no. 2, 2002.

Pozo, L. M. «Book Review: *Theories of Nationalism: A Critical Introduction.*» *Capital and Class*: no. 76, 2002.

Robinson, Francis. «Nation Formation: The Brass Thesis and Muslim Separatism.» *Journal of Commonwealth and Comparative Politics*: vol. 15, no. 3, 1977.

Rojas, C. «Book Review: *Nations, States, and Violence.*» *International Affairs*: vol. 84, no. 4, 2008.

Rosen, F. «Nationalism and Early British Liberal Thought.» *Journal of Political Ideologies*: vol. 2, no. 2, 1997.

Routledge, Bruce. «The Antiquity of the Nation? Critical Reflections from the Ancient Near East.» *Nations and Nationalism*: vol. 9, no. 2, April 2003.

Schneider, Mark A. «Culture-as-Text in the Work of Clifford Geertz.» *Theory and Society*: vol. 16, no. 6, 1987.

Shils, Edward. «Primordial, Personal, Sacred and Civil Ties: Some Particular Observations on the Relationships of Sociological Research and Theory.» *British Journal of Sociology*: vol. 8, no. 2, June 1957.

Shulman, Stephen. «Challenging the Civic/Ethnic and West/East Dichotomies in the Study of Nationalism.» *Comparative Political Studies:* vol. 35, no. 5, June 2002.

Shweder, Richard A. «The Resolute Irresolution of Clifford Geertz.» *Common Knowledge*: vol. 13, nos. 2-3, Spring-Fall 2007.

Smith, Anthony D. «Book Review: *Nationalism*.» *British Journal of Sociology*: vol. 49, no. 3, September 1998.

______. «The Nation: Invented, Imagined, Reconstructed?.» *Millennium: Journal of International Studies*: vol. 20, no. 3, March 1991.

______. «Opening Statement Nations and their Pasts.» *Nations and Nationalism*, vol. 2, no. 3, November 1996.

______. «The Poverty of Anti-Nationalist Modernism.» *Nations and Nationalism*: vol. 9, no. 3, July 2003.

______. «The Problem of National Identity: Ancient, Medieval and Modern?.» *Ethnic and Racial Studies*: vol. 17, no. 3, July 1994.

______. «When Is a Nation?.» *Geopolitics*: vol. 7, no. 2, Autumn 2002.

Snyder, Tim. «Kazimierz Kelles-Krauz (1872–1905): A Pioneering Scholar of Modern Nationalism.» *Nations and Nationalism*: vol. 3, no. 2, July 1997.

Suny Ronald Grigor, «Constructing Primordialism: Old Histories for New Nations.» *Journal of Modern History*: vol. 73, no. 4, December 2001.

Sutherland, Claire. «Nation-Building through Discourse Theory.» *Nations and Nationalism*: vol. 11, no. 2, April 2005.

Svoboda, David. «Nations under Siege - Interview with Historian Miroslav Hroch.» *New Presence*: no. 4, Winter 2004.

Symmons-Symonolewicz, Konstantin. «Book Review: *Nationalism and the State*.» *Canadian Review of Studies in Nationalism*: vol. 12, no. 2, 1985.

______. «The Concept of Nationhood: Toward a Theoretical Clarification.» *Canadian Review of Studies in Nationalism*: vol. 12, no. 2, 1985.

______. «National Consciousness in Medieval Europe: Some Theoretical Problems.» *Canadian Review of Studies in Nationalism*: vol. 8, no. 1, 1981.

Tilley, Virginia. «The Terms of the Debate: Untangling Language about Ethnicity and Ethnic Movements.» *Ethnic and Racial Studies*: vol. 20, no. 3, 1997.

Tilly, Charles. «A Bridge Halfway: Responding to Brubaker.» *Contention: Debates in Society, Culture, and Science*: vol. 4, no. 1, Fall 1994.

Uzelac, G. «When Is the Nation? Constituent Elements and Processes.» *Geopolitics*: vol. 7, no. 2, Fall 2002.

Van den Berghe, Pierre L. «Race and Ethnicity: A Sociobiological Perspective.» *Ethnic and Racial Studies*: vol. 1, no. 4, 1978.

______. «Why Most Sociologists Don't (and Won't) Think Evolutionarily.» *Sociological Forum*: vol. 5, no. 2, June 1990. 173-85.

Verdery, Katherine. «Whither «Nation» and «Nationalism»?.» *Daedalus*: vol. 122, no. 3, 1993.

Walby, Sylvia. «Gender, Nations and States in a Global Era.» *Nations and Nationalism*: vol. 6, no. 4, October 2000.

White, Ben. «Clifford Geertz: Singular Genius of Interpretive Anthropology.» *Development and Change*: vol. 38, no. 6, November 2007.

Williams, Gwyn A. «The Concept of «Egemonia» in the Thought of Antonio Gramsci: Some Notes on Interpretation.» *Journal of the History of Ideas*: vol. 21, no. 4, October-December 1960.

Wimmer, Andreas. «How to Modernise Ethno-Symbolism.» *Nations and Nationalism*: vol. 14, no. 1, January 2008.

______ and Nina Glick Schiller. «Methodological Nationalism and Beyond: Nation-State Building, Migration and the Social Sciences.» *Global Networks*: vol. 2, no. 4, 2002.

Wolf, Ken. «Hans Kohn's Liberal Nationalism: The Historian as Prophet.» *Journal of the History of Ideas*: vol. 37, no. 4, October-December 1976.

Women's Studies International Forum: vol. 19, nos. 1-2: *Links Across Differences: Gender, Ethnicity and Nationalism*, 1996.

Documents

Suny, Ronald Grigor. «Why «We Hate You: The Passions of National Identity and Ethnic Violence.» (Unpublished Paper, 2006).

«Towards a Postcolonial Modernity: AsiaSource Interview with Partha Chatterjee.» (Asia Source, 2009), on the Web: <http://www.asiasource.org/news/special_reports/chatterjee.cfm>.

«The World and Scotland too: Tom Nairn at 75.» (Open Democracy, 2007), on the Web: <http://www.opcndemocracy.net/globalization-vision_reflections/nairn_trib-ute_4667.jsp>.

Conference

The Annual Meeting of the American Sociological Association, New York, 11 August 2007.

فهرس عام

- ت -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

ـ ك ـ

- ل -

- م -

- ن -

- ي -